
٢٤٣
المؤمنون في القرآن
تأليف
المحقق الشهيد السيد قاسم شبّر
الجزء الثاني
مؤسسة النشر الإسلامي
التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة



٢٤٣

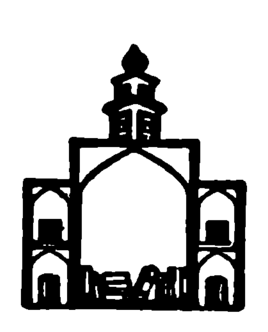
المؤمنون في القرآن

تأليف

الحجة الشهيد السيد قاسم شبر

الجزء الثاني

مؤسسة النشر الإسلامي
التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة



المؤمنون في القرآن
(ج٢)

المؤلف : سماحة الحجة الشهيد السيد قاسم شبّر
الموضوع : تفسير
عدد الاجزاء : جزءان
تحقيق ونشر : مؤسّسة النشر الاسلامي
الطبعة : الثانية
المطبوع : ٢٠٠٠ نسخة
التاريخ : ١٤١٢ هـ.ق

مؤسسة النشر الاسلامی
التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : فمنهم من آمن بـه و منهم من صد عنه و كفى بجهنم سعيراً (٥٥) .

الظاهر أنّ المقصود: من الامم السالفة ومن امّة محمد، فبعضهم يؤمن بالله سبحانه ويصدق بالنبي صلى الله عليه وآله وبعضهم يكفر وهو المقصود من الصد .

وحاصل الكلام أنّ الذي يؤمن بالله ويصدق بالنبي المبعوث من قبله يلزمه أن يتبع النبي في جميع أقواله وأفعاله وأوامره ونواهيه وإطاعة ولاته وخلفائه الذين يعيّنهم النبي، أمّا اذا عيّن النبي صلى الله عليه وآله شخصاً وأمر الامّة بإطاعته فخالف أحد ذلك المعيّن فهو مخالف للنبي نفسه. وقد تكرر من النبي صلى الله عليه وآله في خطابه لعلي عليه السلام: من أطاعك أطاعني ومن عصاك عصاني[1] ومن أحبك أحبني ومن أبغضك أبغضني[2].

وكذا الأمر اذا أظهر الانسان التصديق بالنبي وخالف الحكم المذكور في كتاب النبي فإنها مخالفة لنفس النبي لأنّ النبي يدعو الى ما في الكتاب من الأحكام فاذا خالفها إنسان فقد خالف النبي .

---

(١) تاريخ ابن عساكر : ج٢ ص٢٦٧ مع اختلاف يسير .

(٢) المصدر السابق : ج٢ ص٢١٥ مع اختلاف يسير .

فتحصّل من هذا أنّ أهل الكتاب الذين خالفوا كتابهم في إثبات وصف النبي ولم يعملوا بمافيه بل كتموه وأخفوه وحرفوه وبدلوه فقد خالفوا نبيهم ولم يصدقوه وخالفوا كتابهم، وإنما يطلق عليهم أهل كتاب لأنّ الكتاب انزل على النبي المبعوث إليهم ، وكذا من خالف من امّة محمّد أحكام الكتاب أو السنّة المسلّمة التي أمر بها النبي فهو غير مصدق بمحمد ﷺ وإن سمّي مسلماً، هذا مضمون الآيات التي ذكرت في هذا الفصل « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »[1].

وقد ختم الله الآية بقوله « **وكفى بجهنم سعيراً** » هذا تهديد ووعيد لكل من خالف علمه من أهل الكتاب سواء كان من السابقين كاليهود والنصارى الذين أخفوا صفات النبي ﷺ وكتموا الحديث الذي في التوراة والانجيل ، أم كانوا من امّة محمّد فخالفوا الكتاب الذي انزل عليه أو اتبعوا ماتشابه منه كما تقدم في قوله : « فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه »[2] أو أنهم خالفوا ماعهد به نبيهم فلما ارتحل عنهم نكثوا عهده ولم يفوا له، فقد أعدّ الله لكل مخالف من أيّ امّة ومن أيّ قوم وبأيّ نوع من المخالفة أعدّ الله لهم السعير ، فاذا كان الله قد أمهلهم في الدنيا وصرف عنهم العذاب فيها فقد أعدّ لهم العذاب في العقبى .

ايقاظ لكل مسلم

إنّ الله عزّ وجلّ قد ذمّ جماعة من أهل الكتاب وهم من أصناف الكافرين وأعدّ لهم اللعنة والعذاب الأليم ، حيث إنهم قالوا للّذين كفروا إنهم أهدى سبيلاً من الذين آمنوا ، فقد رجح طائفة من الكافرين طائفة اخرى منهم على المسلمين .

وقد سمعت الآيات الشديدة الغليظة التي تهددهم بعذاب الآخرة فكيف

---

(١) الكهف : ٢٩ .

(٢) آل عمران : ٧.

بمن يدعي الاسلام والتصديق بمحمد ويسمع القرآن ويقرأه وتتلى عليه أحاديث النبي وهو مع كل هذا ينحرف عن الدين القويم ويهزأ بمقدساته ويزعم باطلاً أن القرآن كان يصلح لذلك الزمان ولا يصلح لهذا الزمان، هذا ما كان من قوله.

وأمّا فعله فإنه يخدم الكافرين بكل جهده وينفذ أوامرهم ويدلّهم على عيوب المسلمين ويتجسس لهم، فما يظن أنّ الله فاعل به يوم القيامة أو في الدنيا، فإني أقول له إنّ عذابه أشدّ من عذاب اولئك الذين «يقولون للّذين كفروا هـؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً»[1] أسمعت يامن تدعي الاسلام سواء كنت جليلاً أم حقيراً غنياً أم فقيراً؟

اذا أردت أن تخدم دولة الكافرين أو تعينهم على المسلمين أو تخبرهم عن عيب أو وهن في البلاد الاسلامية فاجعل هذه الآية نصب عينيك وتذكّر مضمونها ومعناها وتذكّر ما أعدّ الله لقائلها من العذاب الشديد إن كنت تعرف القرآن وتعترف به وتعرف من أنزله وعلى من أنزله، ولا أظن أنّ هـذا الكلام ينفعك ويؤثر فيك شيئاً، فانظر أنت لنفسك وعظها ووبخها وأعرض عليها جهنم واسألها هل تتحمل بعضه ثم اعص الله بقدر تحملك للعذاب.

ثم بعدما ذكر الله الامور التي توجب الكفر للانسان سواء كانت أفعالاً أم أقوالاً ذكر بعدها آيتين:

الاولى ذكر فيها ماأعده للكافرين من العذاب وهي قوله:

ان الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ان الله كان عزيزاً حكيماً (٥٦).

أي: بأيّ نوع من أنواع الكفر، إمّا بإنكار الخالق، أو بجعل الشريك له، أو

---

(١) النساء: ٥١.

بعدم التصديق بأنبيائه ورسله ، أو بعدم تطبيق أوامر الرسل ، أو «يقولون للّذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً» أو يكون جاسوساً للكافرين على المؤمنين أو غير ذلك .

ولا يخفى أنّ الأنبياء المبعوثين من الله إنما هم من آيات الله، و الأوصياء المنصوص عليهم من قبل الأنبياء إنما هم من آيات الله أيضاً، فمن أنكر واحداً منهم فقد كفر بآيات الله ، وقد أخبر الله أنّ من كفر بآياته سوف يصليه ناراً ، والصلي هو الالقاء في النار .

وقد ذكر المفسرون إشكالاً في قوله: **«كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها»** وهو أنّ الجلد الجديد الذي يكون بدلاً عن النضيج ليس له ذنب فكيف يعذبه الله وهو خلاف العدل .

وقد أجابوا بعدة أجوبة، وأحسن ما اجيب به هو جواب الامام الصادق عليه السلام، فقد روي في الاحتجاج عن حفص بن غياث قال : شهدت المسجد الحرام وابن أبي العوجاء يسأل أبا عبدالله عليه السلام عن قوله تعالى : «كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب» ماذنب الغير ؟ قال : ويحك هي هي وهي غيرها ، قال : فمثّل لي ذلك شيئاً من أمر الدنيا ، قال: نعم أرأيت لو أنّ رجلاً أخذ لبنة فكسرها ثم ردها في ملبنها فهي هي وهي غيرها[1].

قال في مجمع البيان : وروى الكلبي عن الحسن قال : بلغنا أنّ جلودهم تنضج كل يوم سبعين ألف مرة ، والغاية من هذا التبديل هو ماذكره الله من قوله **«ليذوقوا العذاب»** فإنّ الجلد اذا استمرّ عليه الاحتراق كان العذاب عليه أخف أمّا اذا لبس جلداً جديداً ومسته النار أحسّ بألم أشد مما كان على الناضج[2].

وأمّا الآية الثانية فقد ذكر فيها ماأعده للمؤمنين المطيعين وهي قوله تعالى:

---

(١) الاحتجاج : ج٢ ص٣٥٤ .

(٢) مجمع البيان : ج٣ ص٦٢ .

والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا (٥٧) .

أمّا الايمان فقد ذكر تفسيره مكرراً، ولكن نذكره للذين يؤمنون بألسنتهم ويوالون الكفار ويفضلون الكافر على المؤمن والجاهل على العالم، والعاصي والمخطىء على المعصوم ، فلعلّهم يريدون الايمان الحقيقي .

فنقول لهم : الايمان هو إقرار باللسان ، وتصديق بالقلب والجنان ، وعمل بالأركان ، وأن يكون القلب واللسان متفقان ، والظاهر والباطن سواء ، وأن لا ينقص الباطن عن الظاهر شيئاً وإلا فهو النفاق ، بل ينبغي أن يزيد عليه ليكون الباطن أصلح من الظاهر .

وأمّا العمل الصالح الذي هو شرط لدخول الجنة فهو أن يكون عمله مطابقاً لأوامر الله والرسول بأن يكون مأخوذاً من الطريق الصحيح الذي يوصله الى النبي . أمّا اذا كان يعمل برأيه أو بالقياس أو بالأخذ من رجال ضعفاء غير مأمونين على الدين فلا يحصل القطع للانسان بأنّ ما يعمله هو من العمل الصالح فيكون من الأخسرين أعمالاً كما في قوله تعالى : « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً * الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدّنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً »[1].

ثم إنه ينبغي للعاقل أن يتأمل في هذه الآيات وفي ترتيب نزولها حتى يعرف نفسه هل أنه مطيع لله في امتثال ما فيها من الأوامر فيكون من المؤمنين المنتظرين لوعده بالجنان ، فإنّ الله بعدما بيّن أنّ أمر النبوة والكتاب والفضل والحكمة والملك العظيم بيده لا بيد غيره ولا باقتراح أحد سواه ولا بإرادة أحد من عباده ولا

(١) الكهف : آية ١٠٣ و١٠٤ .

يغيّر إرادته حسد حاسد ولا مكر أحد من شياطين الانس والجن .

ثم ذكر بعد ذلك أنه أعطى آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتاهم ملكاً عظيماً ، وذكر بعد هذا العطاء وهذا التفضيل لآل إبراهيم أنّ الناس صاروا على قسمين :

منهم : مؤمن مسلّم لأمر الله وراضٍ بقضائه ، واعترف بفضل من فضّله الله واقتدى به ورجع اليه في طلب أحكام الدين ولم يتكبر عليه ولم يفضّل عليه غيره ممن لادين له ولا علم ولافضل .

ومن الناس القسم الثاني : وهو الصادّ عنه، أي: الذي صدّ عن أهل الفضل الذين أودع الله عندهم الكتاب والحكمة والنبوة والامامة والعلم والدين، وهذا القسم من الناس ـ أي الصادّ عمن فضّله الله ـ قد توعده الله بجهنم .

ثم ذكر بعد ذلك مايجازي كلا الفريقين ، وأنّ الكافر الصادّ عن أمر الله وعن رسله وكتبه إنما يكون مصيره النار وهم الذين تبدل جلودهم اذا نضجت ، وأمّا من آمن وصدق فيكون مصيره الى الجنة .

ثم بعد ذلك وجّه الى الناس حكماً يتميّز به المطيع من العاصي والمؤمن من الكافر فقال تعالى :

ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ان الله نعما يعظكم به ان الله كان سميعاً بصيراً (٥٨) .

إنّ هذا الأمر وإن كان عاماً يشمل جميع الأمانات التي تكون لله أو للعباد فأمانات الله وأوامره ونواهيه تعمّ الواجبات والمحرمات ، وأمّا الأمانات التي تكون للعباد فهي مايأتمن بعضهم بعضاً من مال أو سر ، ولكن أكثر المفسرين

يجعلون الأمر مختصاً بـولاة الأمر ، وكذا الأخبار الواردة عن أئمة أهـل بيت النبوة عليهم السلام ، ومعنى ذلك هو أنّ الله يخاطب ولاة الأمر .

وأرجو مـن أخي القاريء أن يتأمـل في المقام حتى يصل الى الحقيقة ولا يتشبث بالقشور الظاهرة فنقول :

إنّ الله يـأمر ولاة الأمر ـ وهم الذين تكون لهم السلطة والولايـة على الناس ـ ليعلّموهم الأحكام الالهية، وهل يخطر ببالك أنّ الله يخاطب فرعون أو قارون أو من حذا حذوهم وسار في طريقهم ممن استولى على الناس بالقوة والغلبة وهم لا يعرفون من أحكام الله شيئاً؟! وإنما أحكامهم ونظامهم كلها مخالفة لأحكام الله وأنـا أقطع أنك لاتقول بذلك وإنما يخاطب الله ولاة الأمر الـذين أودع عندهم أحكامه التي يريد من العباد العمل على طبقها ، فهو يأمر هؤلاء الأنبياء والأئمة وهم أوصياء الأنبياء بأن يؤدوا هذه الأحكام التي أودعها عندهم، فهي أمانة يلزمهم أن يحافظوا عليها حتى يؤدوها الى العباد، وكلكم يعرف حكم الأمانة بأنه يلزم المحافظة عليها من التلف ومن التغيّر ومن عروض كل عيب عليها .

وحيث إنّ الامور ليست من الأعيان التي لها وجود خارجي وإنما هي معانٍ محفوظة في القلـوب والصدور ، وليست هي جزئيات متميزة كل واحـدة منفردة بشخصها وإنما هي امور كلية ويكون المودع عنده عارفاً في تطبيقها على جزئياتها فلا يمكن أن يكون هذا الشخص إلا ممن اختاره الله للوديعة والأمانة بحيث يعطيه الله ملكة يتمكن بها على حفظ ما استودعه الله وعلى إرجاع الجزئيات الى اصولها فلا يمكن لأحد أن يكون مؤتمناً مستودعاً لله مـن ذات نفسه ، ولا يمكن للناس اختياره وإن اتفقوا كلهم على ذلك .

وقد تقدم في آخر الجزء الأول أنّ النبوة والامامة والحكمة إنما هي بيد الله وهو بفضله يعطيها من يشاء وقد شاء أن يعطيها لآل ابراهيم ولو كره الكافرون ، فتكون الأحكام الالهية الحقيقية عند هؤلاء الـذين عيّنهم الله وليس عند غيرهم

من هذه الأحكام إلا ماتعلّموه منهم ، فالأمر من الله متوجه الى جماعة معيّنة بأن يؤدوا ماأودعهم الله من أحكام الحلال والحرام الى الناس من دون تغيير أو تبديل أو زيادة أو نقيصة حتى بمقدار حرف واحد أو حركة، وقد جعل الله لكل واقعة حكماً ، وهؤلاء الولاة لايفوتهم شيء من هذه الأحكام ولايشتبه عليهم شيء بشيء بل يرجعون كل صغير الى أصلها وهم معصومون من الخطأ والسهو والنسيان ومن المعاصي كلها ، وقد مرّ ذكر من يكون مؤتمناً على الأحكام في مناسبات عديدة بأسامي وصفات مختلفة وهم المعبّر عنهم بقوله : « والراسخون في العلم » .

وإني كلما أكتب آية فيها صفات هؤلاء القوم أطلب من القاريء أن يفحص عن هؤلاء الرجال ليعرفهم، فإنّ الله إنما ذكرهم لنفحص عنهم ونقتدي بهم ونتعلّم منهم كما سيأتي في الآية التي بعد هذه الآية .

وكما أمرهم الله بأداء الأمانات الى أهلها كذلك أمرهم اذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل حيث إنهم يعرفون شروط الحكم فلايخفى عليهم شيء من كيفية الحكم والقضاء ، ولاتظن أنّ الحكم بين الناس من الامور السهلة يقدر عليه كل أحد، فإنه من أغمض الامور وهو يحتاج الى معرفة بالأحكام كلها بحيث لايعسر عليه حكم واحد .

هذا بالنسبة الى وليّ الأمر العام على جميع الناس وهو الذي أطلعه الله على جميع الأحكام بواسطة النبي ﷺ وبما ألهمه من الفهم والذكاء ، وقد أمرهم أن يعلّموا الناس من أحكام الحلال والحرام كما هي عند الله فقال لهم : **«يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها »** .

فليعلم طالب الرشد ومريد الخير ومبتغي التقرب الى الله أنّ أحكام الحلال والحرام الحقيقية لايمكن معرفتها ولايقتدر على تحصيلها إلا من هؤلاء القوم الذين خاطبهم الله وأمرهم بتأدية الأمانة ، حيث إنه خصّهم بها وخصّها بهم ولم يشرك معهم أحداً من سائر الناس ، ولايتمكن أحد أن يكون مثلهم مطلعاً على جميع

الأحكام مستحضراً لها في آن واحد ، فإنها ملكة لايمكن الحصول عليها إلا بإشاءة الله وإرادته ، وقد تحققت هذه الارادة وخصّها الله بأفراد معيّنة من يوم خلق الدنيا وخلق البشر أو قبل ذلك فلاتبديل في ذلك .

وقد وردت روايات عديدة في أنّ الأمر والخطاب في هذه الآية إنما هو لأولياء الأمر خاصة .

ففي الدرّ المنثور : أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم في قوله: « إنّ الله يأمركم أن تؤدّوا الامانات الى أهلها » قال : انزلت هذه الآية في ولاة الأمر وفيمن ولّي من امور الناس شيئاً[1].

وفيه أيضاً قال: وأخرج سعيد بن منصور والفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال : حقّ على الامام أن يحكم بما أنزل الله وأن يؤدي الأمانة ، فإذا فعل ذلك فحقّ على الناس أن يسمعوا له وأن يطيعوا وأن يجيبوا اذا دعوا[2] انتهى مافي الدرّ المنثور .

وقال في مجمع البيان بعد ذكر الآية : قيل في المعنيّ بهذه الآية أقوال :

(أحدها) إنها في كل من اؤتمن أمانة من الأمانات ، وأمانات الله أوامره ونواهيه ، وأمانات عباده فيما يأتمن بعضهم بعضاً من المال وغيره ، عن ابن عباس وابي بن كعب وابن مسعود والحسن وقتادة وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام.

(وثانيها) إنّ المراد به ولاة الأمر ، أمرهم الله أن يقوموا برعاية الرعية وحملهم على موجب الدين والشريعة، عن زيد بن أسلم ومكحول وشهر بن حوشب وهو اختيار الجبائي، ورواه أصحابنا عن أبي جعفر الباقر وأبي عبدالله الصادق عليهما السلام قالا : أمر الله تعالى كل واحد من الأئمة أن يسلّم الأمر الى من بعده[3].

---

(١) و(٢) الدر المنثور : ج٢ ص١٧٥ .

(٣) مجمع البيان : ج٢ ص٦٣ .

هذا اذا جعلنا الأمر مختصاً بولاة الأمر .

وأما اذا جعلنا عاماً لكل من اؤتمن على شيء من الأشياء فيعمّ الولاة والرعية ، فالرعاة مكلّفون بحفظ الأحكام وأدائها الى الأنام ، والرعايا مكلّفون بحفظ أمانات الله عندهم وهي الواجبات كالصلاة والصوم والحجّ والزكاة ، عليهم أن يحافظوا عليها ويؤدوها كما أمرهم ولاة الأمر لا كما أمرهم مدعي الولاية بلاحجة ولا برهان وبلامعرفة لآيات القرآن ، وإنما المدعي لهذا المنصب الالهي عليه أن يسند كل حكم من أحكام الدين الى آية من القرآن أو الى السنّة النبوية الثابتة عن النبي صلى الله عليه وآله ، وقد ورد عن الصادق عليه السلام أنه قال : اذا ورد عليكم حديث فوجدتم له شاهداً من كتاب الله أو من قول رسول الله صلى الله عليه وآله وإلا فالذي جاءكم به أولى به [1] .

وقال عليه السلام أيضاً : من خالف كتاب الله وسنّة محمد صلى الله عليه وآله فقد كفر [2] .

وكذا بالنسبة الى سائر الواجبات ، فيلزم على المسلم أن يؤدي واجباته على الوجه الصحيح ومن الطريق الذي يوصله الى النبي صلى الله عليه وآله ولا يعتمد على من يشكّ فيه ولا يعمل على القياس فإنه ليس بحجة .

وعلى المسلم أن يترك جميع المحرمات التي نهى الله عنها في القرآن الكريم ونهى النبي صلى الله عليه وآله عنها ، فإذا فعل ذلك فقد أدى الأمانة ـ أي أمانة الله ـ. وأمّا أمانة العباد فهي التي يأتمنه عليها الناس فيلزم عليه المحافظة عليها حتى يردها الى صاحبها . هذا بالنسبة الى الجملة الاولى من الآية .

وأمّا قوله تعالى: **«وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل»** فإنّ الأمر فيها موجّه الى من يجوز له الحكم وهم الأنبياء وأوصياء الأنبياء ومن يجعلونه وكيلاً عنهم ، وأمّا غير هؤلاء فليس له أن يتولّى الحكم على الناس ، وأنّ الله قد

---

(١) الكافي : ج١ ص٦٩ ح٢ .

(٢) المصدر السابق : ج١ ص٧٠ ح٦ .

أمر هؤلاء أن يكون حكمهم بالعدل والحق .

فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال لعلي: سوّ بين الخصمين في لحظك ولفظك[١].

وروي أن صبيين جاءا الى الحسن بن علي في خطّ كتباه وحكماه في ذلك ليحكم أيّ الخطّين أجود ، فبصر بـه علي عليه السلام فقال : يابني انظر كيف تحكم فإنّ هذا حكم ، والله سائلك عنه يوم القيامة[٢].

وعن سعيد بن أبي الخصيب قال : دخلت أنا وابن أبي ليلى المدينة فبينما نحن في مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إذ دخل جعفر بن محمّد عليه السلام فقمنا إليه فسألني عن نفسي وأهلي ثم قال : من هذا معك ؟ قلت : ابن أبي ليلى قاضي المسلمين، فقال: نعم ، ثم قال له: تأخذ مال هذا فتعطيه هذا وتفرق بين المرء وزوجه ولاتخاف في هذا أحداً؟ قال : نعم ، قال : فبأيّ شيء تقضي ؟ قال : بما بلغني عن رسول الله وعن أبي بكر وعمر، قال: فبلغك أنّ رسول الله قال: أقضاكم علي بعدي؟ قال: نعم. قال: فكيف تقضي بغير قضاء علي وقد بلغك هذا؟ قال: فاصفرّ وجه ابن أبي ليلى ثم قال لي: التمس مثلاً لنفسك ، فوالله لاأكلمك من رأسي كلمة أبداً[٣].

وروي عن الامام الصادق عليه السلام قال : القضاة أربعة، ثلاثة في النار وواحد في الجنة : رجل قضى بجور وهو يعلم فهو في النار ، ورجل قضى بجور وهو لايعلم فهو في النار ، ورجل قضى بالحقّ وهو لايعلم فهو في النار ، ورجل قضى بالحق وهو يعلم فهو في الجنة [٤].

فقد تبيّن أنّ مقام القضاء عظيم خطره ، لايقدم عليه أحد إلا بأمر من الله ومن رسوله، وبتعليم من الرسول أومن ولاة الأمر الذين أودع الله عندهم الأحكام فهم يأذنون لمن يعرفون أنه يقضي بالحق ولا يرتكب الجور في حكمه .

(١) كنز العمال : ج٦ ص١٠٢ ح١٥٠٢٤ نقلا بالمعنى .
(٢) لم نعثر عليه .
(٣) الاحتجاج ج٢ ص١٠٢ .
(٤) وسائل الشيعة : ج١٨ ص١١ ب٤ ح٦ .

أما من حكم بالجور ولو في حكم واحد فليس بأهل للقضاء، فإنّ من حكم بالجور مرة يحكم به مرات .

فلا يصلح للقضاء إلا من كان من نوع الرجل الرابع، فيكون الأمر من الله تعالى في الآية الشريفة بأداء الأمانة والحكم بالعدل لهؤلاء الرجال فقط، فاعرفهم واعرف ما يأمروك به و اعمل به ولا تخالفهم ، فانّ العمل بما يأمرون هو العمل الصالح الموجب لك دخول الجنة الذي نبّهك الله عليه في الآية التي قبلها ودعاك إليه .

فإذا عرفنا ولاة الأمر وشخصناهم بأسمائهم وصفاتهم يتّضح لنا الأمر ويتجلّى المعنى في الآية التي بعد هذه الآية وهي قوله تعالى :

يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول واولى الامر منكم فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الاخر ذلك خير وأحسن تأويلا (٥٩) .

أمّا إطاعة الله فهي امتثال أوامـره ونواهيه وعدم المخالفة في شيء منها ، ومن لم يطع الله فيما يأمره لم يشمله النداء في افتتاح الآية .

وأمّا إطاعة الرسول فإنّ الله قد أمر بها أمراً مطلقاً غير مقيد بزمان أو مكان أو حال ، ولا فرق فيما يجب إطاعتنا له بين ما هو موجود في القرآن من أمر الرسول أو غير موجود، فانه لا يأمر إلا عن أمر الله، وذلك لأنّ الله عرّفنا عصمته وأنه لا ينطق عن الهوى فتجب إطاعته في كل ما يأمر وينهى .

وأمّا إطاعة اولي الأمر فإنّ الله أمرنا بها أمراً مطلقاً غير مقيد بشيء من الأشياء، فأول ما يدلّ هذا الأمر هو عصمتهم وأنّ كل ما يأمرون به هو من عند الله ، فإنه لو جاز عليهم الخطأ ما كان الله ليأمر بإطاعتهم المطلقة .

و من هذا يتضح أن اولي الأمر لايشمل من يجوز عليه الخطأ ، فيخرج بهذا كل ظالم وجائر من الملوك الذين استولوا على الأمر بالقوة والغلبة ، وإنما يختص الأمر بمن ولّاهم الله وسلّم إليهم الأمر والنهي وعلّمهم الأحكام و أودعها عندهم .

وهذه الآية مرتبطة بالتي قبلها، فإنّ الله أمرهم في الآية السابقة ببيان الأحكام للامّة، وأمر الامّة في هذه الآية بإطاعتهم المطلقة حتى يستقيم الأمر للجميع، وأنّ الذي حدث من المخالفة لم يكن من الولاة لأنّ الله هو اختارهم و عصمهم من المخالفة ، ولكن بعض الامّة قد خالف الأمر فحصل هذا الانشقاق ثم توسع حتى حصلت هذه الفرق التي أخبر عنها النبي ﷺ و هي ٧٣ فرقة ، واحدة ناجية والباقي في النار.

ثم إنّ الله عطف إطاعة اولي الأمر على إطاعة الرسول و لم يفصل بينهما بفعل الأمر كما فعل في عطف إطاعة الرسول على إطاعة الله إشعاراً وإعلاماً بأنّ إطاعة الرسول وإطاعة أوصيائه سواء في الوجوب ومخالفتهما سواء في الحرمة ، وانما فصل في عطف إطاعة الرسول على إطاعة الله بالفعل لبيان الفرق و المباينة بين الخالق والمخلوق ، و لمّا لم يفصل بين الرسول وبين اولي الأمر وأمر بإطاعتهم بلا قيد أو شرط علّمنا عصمتهم من الخطأ والسهو وجميع المعاصي كعصمة الرسول وأنّ هذا الأمر المطلق إنما هو بسبب عصمتهم، يعني أنّ العصمة هي السبب الوحيد في إيكال الأمر إليهم ، ولا يمكن أن يوكل الأمر إلا الى معصوم ،وقد بقي على المؤمنين الذين ناداهم الله أن يفحصوا عن هؤلاء الرجال الذين ولّاهم الله الأمر وأودعهم العلوم فيعرفوهم بأعيانهم حتى يطيعوا أوامرهم .

و أمّا بعض فرق الاسلام فقد ادعوا أنهم عرفوهم حقّ المعرفة و تمسكوا بولائهم وأطاعوا أوامرهم في امور الدين ، و أمّا غيرهم من الفرق فلم يوافقوهم على ذلك وخالفوهم وعادوهم في بدء الأمر، حيث إنّ الفرق المدعية للمعرفة قالوا

إنّ اولي الأمر هم في آل بيت النبي وهم علي وبنوه ، و بقية الفرق خالفوهم ونازعوهم .

فنقول: إنّ الله تعالى قال: **«أطيعوا الله وأطيعوا الرسول واولى الامر»** فأوجب علينا طاعة الرسول واولي الأمر بعد إطاعة الله .

ثم قال بعد ذلك : **« فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول »** ولم يجعل اولي الأمر مع الرسول في ردّ المتنازع فيه إليهم وذلك لعلمه جلّ وعلا أنّ أول شيء يقع النزاع فيه هو تشخيص اولي الأمر ، فلايمكن أن يكون الحاكم في النزاع هو نفس المتنازع فيه وذلك لزوم الدور منه .

وقد وقع النزاع بين المهاجرين والأنصار في الخلافة حين اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة والنبي بعد لم يدفن فاحتجّ المهاجرون بقول النبي ﷺ بأنّ الخلافة في قريش ، فكفّ الأنصار عن النزاع ، وأسرع المهاجرون الى عقد البيعة لأبي بكر حيث تقدم عمر وبايعه ، ولم يرجعوا الى القرآن ولاالى سنّة النبي وإنما تمسكوا بكلمة واحدة لم تعيّن ولم تشخص أيّ الرجال من قريش يكون الخليفة، وقد قال أمير المؤمنين لما بلغه الخبر : « أنا أولى قريش بالخلافة » لأنه أقرب قريش الى النبي .

أمّا اذا رجعنا الى ماأمرنا الله به من الردّ الى الله والى الرسول فإنّ الله إنما أمر بطاعة اولي الأمر اذا كانوا مطيعين لله وللرسول لامطلق من تولّى الأمر ولو بغير إذن من الله والرسول .

وعلى هذا فينبغي أن نختار للولاية من كان مطيعاً لله ورسوله بشهادة من الله والرسول .

أما شهادة الله فقوله تعالى : « إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً »[1] حيث إنّ جميع المؤرخين خصّوا نزول الآية في النبي

(١) الاحزاب : ٣٣ .

وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام[1].

ولاريب أنّ كل معصية من الرجس ، فإذا كان الله قد طهّرهم من المعاصي صاروا من المعصومين ونحن نفحص ونفتش عن المعصومين .

وأما الرجوع الى النبي الذي معناه الرجوع الى سنّته فإنّ جميع أصحاب النبي قد اعترف وشهد أنه سمع من النبي أنه قال: إني مخلف فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا : كتاب الله وعترتي أهل بيتي[2].

فإن علمنا أنّ الله أمر عباده بإطاعة اولي الأمر المطيعين له ولرسوله وإلا فلايمكن أن يقال إنّ الله أمر العباد بطاعة وليّ الأمر العاصي لله، وكيف يمكن أن يريد الله من عموم الناس الطاعة له ولرسوله ويرضى أن يكون وليّ الأمر عاصياً ويأمر الناس بطاعته ، فإنه يحمل الناس على مايريده من الأعمال وهي المعصية ، وهذا أمر لايقول به ذومسكة. فإذا كان المقصود من اولي الأمر المعصومين المنزهين عن المعاصي حينئذٍ نختار من العباد من شهد الله بطهارتهم ونزاهتهم وأمر النبي بالرجوع إليهم والتمسك بهم ، وهذا هو الذي أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام بقوله إنّ حجة المهاجرين على الأنصار أنّ الخلافة في قريش هو أولى بها من سائر قريش لأنّ في هذا ردّ المتنازع فيه الى الله والى الرسول .

فقد تحصل مما ذكرناه الامور التالية :

١ ـ قوله تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول واولي الأمر » .

٢ ـ قوله تعالى : « فإن تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول » .

٣ ـ أنّ أول نزاع وقع بين المسلمين هو النزاع في الخلافة حين اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة .

٤ ـ يلزم على المؤمنين أن يردوا هذا النزاع الى الله والرسول ليكونا هما

---

(١) فضائل الخمسة : ج١ ص٢٧٠ .

(٢) راجع بحار الانوار : ج٢٣ ص١٠٤ ب٧ .

الحاكمان فيه .

٥ ـ أنّ اولي الأمر الذين ألزمنا الله بطاعتهم يلزم أن يكونوا مطيعين لله ورسوله وإلا فلاطاعة لهم علينا .

٦ ـ أنّ عصمة الشخص وطهارته من الرجس ونزاهته عن المعاصي إنما تعلم وتعرف من أخبار الله ورسوله ، وقد أخبرنا الله بطهارة أهل البيت بقوله : «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس» وأمرنا النبي ﷺ بالتمسك بهم بقوله : إني مخلف فيكم .

٧ـ قد تبيّن أنّ اولي الأمر الذين أمرنا الله بطاعتهم هم الذين أخبرنا بطهارتهم من الرجس ولايمكن أن يكون غيرهم ممن لم يعصم من الذنوب .

٨ ـ أنّ الذي تصرح به الآية هو أنّ من حكم في حسم النزاع برأيه ولم يرده الى الله والرسول فهو غير مؤمن فإنه تعالى يقول : « فإن تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر» فالذي لايردّ النزاع الى الله والرسول فهو غير مؤمن بالمبدأ والمعاد ، وهذا أمر عظيم ينبغي للمؤمن التحرز عنه بالمحافظة على الطاعة، إذ أنّ الله وجّه الخطاب والنداء في أول الآية الى المؤمنين وأمرهم بالطاعة لثلاثة : إطاعة الله ، إطاعة الرسول ، إطاعة اولي الأمر .

ثم أمرهم اذا تنازعوا في شيء أن يردوه الى الله والرسول ، وأول شيء تنازعوا فيه بعد ارتحال الرسول عنهم هو أمر الخلافة، أي تنازعوا في من يكون وليّ الأمر الذي تجب إطاعته؟ فيلزمهم أن يردوه الى الله والرسول إن كان إيمانهم بهما حقيقياً كما تصرح الآية ، فإن امتنعوا عن الردّ الى الله والرسول يكشف امتناعهم عن عدم حقيقة إيمانهم .

هذا هو المحصل من الآيات فإن كان لها تفسير أو معنى غير هذا فليذكره

من كان يعرفه بحيث يرد المتنازع فيه الى الله والرسول حتى يحصل الاتفاق، فإنه إذا حصل الاتفاق يكون كما أخبر بقوله : « **ذلك خير وأحسن تأويلا** » .

إن جميع العقلاء يقرون ويعترفون أن عدم النزاع خير من النزاع، وأن الاتفاق والائتلاف أحسن من الافتراق والاختلاف، فإن الامة لو اتفقت من أول الأمر على رد المتنازع فيه الى الله والرسول لما وقع هذا الاختلاف ، وهذا خير لهم بلاريب وأحسن تأويلاً ، لأن الامة اذا كانت متفقة وكانت كلمتها واحدة لما تسلط عليها العدو وما قدر أن يغتصب منها أرضها ووطنها، فلو أن المسلمين كانوا على رأي واحد وكلمة واحدة لما تمكن هذا الموالي للكافر أن يؤثر عليهم ويعمل هذه الأعمال المحرمة في كتاب الله وسنة النبي ﷺ ، ولو كانوا متفقين لألزموه بأحكام الاسلام والتأدب بآدابه .

وفي نور الثقلين عن علي بن إبراهيم عن محمد بن عيسى عن يونس وعلي بن محمد عن سهل بن زياد أبي سعيد عن محمد بن عيسى عن يونس عن ابن مسكان عن أبي بصير قال: سألت أباعبدالله عليه السلام عن قول الله عز وجل « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول واولي الأمر منكم » فقال : نزلت في علي بن أبي طالب والحسن والحسين عليهم السلام، فقلت له : إن الناس يقولون : فما له لم يسم علياً وأهل بيته عليهم السلام في كتابه عز وجل ؟ قال : قولوا لهم : إن رسول الله ﷺ نزلت عليه الصلاة ولم يسم الله لهم ثلاثاً ولا أربعاً حتى كان رسول الله ﷺ هو الذي فسر ذلك لهم، ونزل عليه الزكاة ولم يسم لهم من أربعين درهماً درهم حتى كان رسول الله ﷺ هو الذي فسر ذلك لهم ، ونزل الحج فلم يقل لهم طوفوا اسبوعاً حتى كان رسول الله ﷺ هو الذي فسر ذلك لهم، ونزلت:«أطيعوا الله وأطيعوا الرسول واولي الأمر منكم» ونزلت في علي والحسن والحسين . فقال رسول الله ﷺ في علي : من كنت مولاه فعلي مولاه . وقال ﷺ : اوصيكم بكتاب الله عز وجل وأهل بيتي فإني سألت

الله عزّ وجلّ أن لايفرق بينهما حتى يوردهما عليّ الحوض فأعطاني ذلك. وقال: لاتعلّموهم فإنهم أعلم منكم. وقال: إنهم لن يخرجوكم من باب هدىً، ولن يدخلوكم في باب ضلالة. فلو سكت رسول الله ﷺ ولم يبيّن من أهل بيته لادعاها آل فلان وفلان، ولكن الله عزّ وجلّ أنزل في كتابه تصديقاً لنبيه ﷺ: «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً» فكان علي والحسن والحسين وفاطمة عليهم السلام، فأدخلهم رسول الله ﷺ تحت الكساء في بيت امّ سلمة ثم قال: اللهمّ إنّ لكل نبي أهلاً وثقلاً، وهؤلاء أهل بيتي وثقلي، فقالت امّ سلمة: ألست من أهلك؟ فقال: إنك الى خير ولكن هؤلاء أهلي وثقلي[1].

فقد تحقق من هذه الآية الشريفة أنّ الايمان إنما يتحقق ويصحّ أن يوصف المرء به ويقال له مؤمن بشروط ثلاثة:

الأول: إطاعة الله فيما يأمر به وينهي عنه، وهو أصل التوحيد والاعتقاد بالمبدأ، ومن لم يعترف به ولم تتحقق منه الطاعة لله فهو كافر باتفاق جميع فرق المسلمين.

الشرط الثاني: إطاعة الرسول، بأن يعترف بنبوته ويصدقه في رسالته ويطيع أوامره ونواهيه، فإن لم يصدق نبوته ولم يعترف برسالته أو قال ذلك وخالفه فيما يأمر وينهي لايعدّ مؤمناً، أي اذا زعم أنّ أمر الرسول لايجب أن يطاع فهو كافر باتفاق فرق المسلمين.

الشرط الثالث: إطاعة اولي الأمر كما هو صريح الآية، ويعتبر في اولي الأمر أن يكونوا مطيعين لله في جميع مايأمرون به بأن تكون أوامرهم ونواهيم كلّها طاعة لله، فلو صدر منهم أمر واحد أو نهي واحد خلاف إرادة الله لايمكن أن يكون ـ صاحب هذا الأمر أو النهي الواحد المخالف لارادة الله ـ من اولي الأمر، سواء أصدر هذا الأمر أو النهي عمداً أو خطأً أو سهواً أو نسياناً، وذلك

---

(١) تفسير نور الثقلين: ج١ ص٥٠٢ ح٣٤٣.

لأنّ الله أمر بإطاعتهم أمراً مطلقاً غير مقيد بشيء ، فلو رضي بإطاعتهم في الأمر أو النهي المخالف لما يريد فمعناه أنه أمر بالمعصية، ولايقدر أحد أن يقول: إنّ الله يأمر بالمعصية .

فينتج من هذا أنّ اولي الأمر الذين أمر الله بطاعتهم لابدّ وأن تكون جميع أوامرهم ونواهيهم موافقة لأحكام الله الحقيقية ، وهذا الأمر يتوقف على معرفتهم الكاملة واطلاعهم على الأحكام ، وأنهم لايشكّون ولايترددون في مسألة واحدة من مسائل الحلال والحرام .

ولاأدلّ على ذلك من كلمة قالها النبي صلى الله عليه وآله في حقّ علي عليه السلام : أنا مدينة العلم وعلي بابها[1] فإنّ علوم الأنبياء كلها عند خاتمهم محمد بن عبدالله، وعنده زيادة عليهم بإرادة الله له ذلك ، حيث يأمره ويقول له « قل ربّ زدني علماً »[2] فإذا قالها كل يوم لابدّ وأن يجيبه الله بعد ما أمره بالطلب . وكل هذه العلوم بابها علي بن أبي طالب .

وبمقتضى الأمر الموجه اليه من الله في قوله : « إنّ الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها » أنه يلزمه أن يسلّمها الى الامام الذي بعده ، وهو أحد سيدي شباب أهل الجنة الحسن المجتبى ، ومنه الى أخيه الحسين .

فهؤلاء الأوصياء هم أعلم خلق الله تعالى وهم الذين أمرنا الله بطاعتهم في كل مايأمرون .

وحيث إنّ الله جعل شرط الايمان إطاعة اولي الأمر وجب على كل مؤمن الفحص عن رجال معصومين، منصوبين من قبل الله والرسول، عالمين بجميع الأحكام ولايمكن أن يكون مؤمناً مع عدم اعترافه بهؤلاء الرجال ، أما طاعته لمعاوية

(١) الوسائل : ج١٨ ص٢٠ ب٥ ح١١ ،كنز العمال : ج١١ ص٦٠٠ ح٣٢٨٩٠ ، مستدرك الصحيحين: ج٣ ص١٢٦ .
(٢) طه : ١١٤ .

ويزيد وأشباههم ممن عبد وثناً وسجد للصنم فلايكفي لما قد عرفت، فافهم وارحم نفسك وكن من المؤمنين لتحظى بما وعدهم الله .

قال في تفسير الصافي : وفي المعاني عن سليم بن قيس الهلالي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه سئل : ماأدنى مايكون به الرجل ضالاً ؟ فقال : أن لايعرف من أمر الله بطاعته وفرض ولايته وجعل حجته في أرضه وشاهده على خلقه ، قال : فمن هم ياأمير المؤمنين ؟ قال الذين قرنهم الله بنفسه ونبيّه فقال : « ياأيها الّذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول واولي الأمر منكم » ، قال : فقبّلت رأسه وقلت : أوضحت لي وفرجت عني وأذهبت كل شكّ كان في قلبي(١).

وفي نور الثقلين عن محمّد بن يحيى عن أحمد بن محمّد عن صفوان بن يحيى عن عيسى بن السري أبي اليسع قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: أخبرني بدعائم الاسلام التي لايسع أحداً التقصير عن معرفة شيء منها، الذي من قصر عن معرفة شيء منها فسد عليه دينه ولم يقبل منه عمله ، ومن عرفها وعمل بها صلح له دينه وقبل منه عمله ولم يضق به مما هو فيه لجهل شيء من الامور جهله ، فقال : شهادة أن لاإله إلا الله ، والايمان بأنّ محمّداً رسول الله صلى الله عليه وآله، والاقرار بما جاء به من عند الله ، وحقّ في الأموال الزكاة ، والولاية التي أمر الله عزّوجلّ بها ولاية آل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : فقلت له: هل في الولاية شيء دون شيء فضل يعرف لمن أخذ به ؟ قال : نعم ، قال الله عزّوجلّ : « ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول واولي الأمر منكم » وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : من مات لايعرف إمامه مات ميتة جاهلية . وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وكان علياً عليه السلام ، وقال الآخرون : كان معاويه ثم كان الحسن ثم كان الحسين وقال الآخرون : يزيد بن معاويه وحسين بن علي ولا سواء ولاسواء(٢) انتهى ، يعني لاسواء علي ومعاوية ، ولاالحسين ويزيد .

---

(١) تفسير الصافي : ج١ ص٤٢٩ .

(٢) تفسير نور الثقلين : ج١ ص٥٠٣ ح٣٤٤ .

ثم إنّ معرفة اولي الأمر مهمة جداً ، حيث إنّ الله قرن طاعتهم بطاعته وطاعة رسوله ، فلامجال للمؤمن في التسامح في معرفتهم ، لهذا أحببت أن أذكر للقارىء أقوال المفسرين في هذا المقام حتى يعرف أنّ ماذكر هنا ليس من رأي فرقة خاصة ، وأن جلّ المفسرين بل كلهم يعتبر فيهم العصمة والعلم والعدالة .

ماقاله الفخر الرازي :

قال في تفسيره الكبير : اعلم أنّ قوله « واولي الأمر منكم » يدل عندنا على أنّ إجماع الامّة حجة، والدليل على ذلك أنّ الله تعالى أمر بطاعة اولي الأمر على سبيل الجزم في هذه الآية، ومن أمر الله بطاعته على سبيل الجزم والقطع لابدّ وأن يكون معصوماً عن الخطأ، إذ لو لم يكن معصوماً عن الخطأ كان بتقدير إقدامه على الخطأ يكون قد أمر الله بمتابعته، فيكون ذلك أمراً بفعل ذلك الخطأ ، والخطأ لكونه خطأ منهيّ عنه ، فهذا يفضي الى اجتماع الأمر والنهي في الفعل الواحد بالاعتبار الواحد وأنه محال، فثبت أنّ الله تعالى أمر بطاعة اولي الأمر على سبيل الجزم، وثبت أنّ كل من أمر الله بطاعته على سبيل الجزم وجب أن يكون معصوماً عن الخطأ ، فثبت قطعاً أنّ اولي الأمر المذكور في هذه الآية لابدّ وأن يكون معصوماً[1]. انتهى محل الحاجة من كلامه، فإنه قد أقام الدليل على وجوب عصمة اولي الامر وأنه لايمكن أن يكون غير معصوم كسائر الناس .

ثم ذكر بعد كلامه هذا مايمكن أن يرد عليه من الاعتراض ثم أجاب عنه مفصلاً وأبطل كل اعتراض يرد عليه، ثم قال: فكان حمل اولي الأمر الذي هو مقرون بالرسول على المعصوم أولى من حمله على الفاجر الفاسق[2] انتهى .

ماقاله الزمخشري:

قال في الكشاف: والمراد بـ«اولي الأمر منكم» امراء الحق لاامراء الجور...

(١) تفسير الرازي : ج١٠ ص١٤٤ .

(٢) المصدر السابق : ص١٤٥ .

الله ورسوله بريئان منهم فلايعطفون على الله ورسوله في وجوب الطاعة لهم وإنما يجمع بين الله ورسوله والامراء الموافقين لهما في إيثار العدل واختيار الحق والأمر بهما والنهي عن أضدادهما[1] انتهى .

فقد سمعت أنه اعتبر في اولي الأمر أن يكونوا امراء حق بأمر الله ورسوله واللازم على المسلم معرفتهم .

ماقاله ابن كثير :

قال في تفسيره : قال تعالى : « أطيعوا الله » أي اتبعوا كتابه ، « وأطيعوا الرسول » أي خذوا بسنّته ، « واولي الأمر منكم » أي فيما أمروكم به من طاعة الله لافي معصية الله فإنه لاطاعة لمخلوق في معصية الله كما تقدم في الحديث الصحيح: إنما الطاعة في المعروف . وقال الامام أحمد : حدثنا عبدالرحمان حدثنا همام حدثنا قتادة عن ابن حريث عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال : لاطاعة في معصية الله[2] انتهى .

ماقاله المراغي :

قال الشيخ مصطفى المراغي في تفسيره : أطيعوا الله واعملوا بكتابه، وأطيعوا الرسول لأنه يبيّن للناس مانزل إليهم ، فقد جرت سنّة الله بأن يبلّغ عنه شرعه رسل منهم تكفل بعصمتهم وأوجب علينا طاعتهم، وأطيعوا اولي الأمر وهم الامراء والحكّام والعلماء ورؤساء الجند وسائر الرؤساء والزعماء الذين يرجع إليهم الناس في الحاجات والمصالح العامة ، فهؤلاء اذا اتفقوا على أمر أوحكم وجب أن يطاعوا فيه بشرط أن يكونوا امناء ، وأن لايخالفوا أمر الله ولاسنّة رسوله التي عرفت بالتواتر ، وأن يكونوا مختارين في بحثهم في الأمر واتفاقهم عليه .

---

(١) تفسير الكشاف: ج١ ص٥٢٤ .

(٢) تفسير ابن كثير : ج٢ ص٣٢٦ .

وأما العبادات وماكان من قبيل الاعتقاد الديني فلايتعلّق به أمر أهل الحلّ والعقد، بل إنما يؤخذ عن الله ورسوله فحسب، وليس لأحد رأي فيه[1] انتهى.

يقول هذا العالم: إنّ الامور على قسمين: منها دينية، ومنهاامور دنيوية سياسية. أمّا الدينية ـ سواء كانت تتعلّق بالاصول الاعتقادية أم بالفروع العملية ـ فهي إنما تؤخذ من الكتاب والسنّة، فكل أمر ديني يلزم من يفتي به أن يسنده الى آية أو الى رواية قطعية يقطع أنها صادرة من النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وأمّا الامور الدنيوية فإذا اتفق الرؤساء المسلمون وأهل العقل والمعرفة على أمر من الامور التي تنفع عموم المسلمين يلزم على بقية المسلمين تنفيذها وموافقتهم فيها اذا كان هؤلاء القوم أهل دين، وكانوا امناء يراعون مصالح المسلمين ولايخالفون شيئاً من أوامر الله وسنّة رسوله، ولايلاحظون مصالحهم الخاصة وإن تضرر عموم المسلمين ولايسلّطون الكافرين على منافع بلادهم.

ولايخفى على أحد أنّ مثل هؤلاء الرجال لايوجدون، وإن وجد واحد بالمائة فلايقدر أن يعمل وحده لأنّ بقية القوم كلّهم ضده، فعلى هذه القاعدة لا يمكن أن نقول إنّ اولي الأمر يشمل كل أمير ورئيس أو يشمل من سمّى نفسه أمير المؤمنين أو خليفة المسلمين إلا أن يكون متصفاً بالصفات المذكورة أو أنّ النبي صلى الله عليه وآله جعله في هذه الرتبة وسمّاه بهذا الاسم بأمر من الله لامن ذات نفسه.

ماقاله سيد قطب:

قال في تفسيره بعد ذكره الآية الشريفة: وفي هذا النصّ يضع الأساس الكامل لنظام الحكم في الاسلام أنّ الحاكمية لله وحده، فشريعته هي الدستور الأساسي والله واجب الطاعة، فشريعته واجبة التنفيذ، وعلى الذين آمنوا أن يطيعوا الله ابتداءً وأن يطيعوا الرسول بما له من صفة الرسالة، فطاعته إذاً هي من طاعة الله

(١) تفسير المراغي: ج٥ ص٧٢.

الذي أرسله بهذه الشريعة، وسنّته وقضاؤه على هذا جزء من الشريعة واجب النفاذ فأما اولو الأمر فالنص يجعل طاعتهم تبعية لا أصلية . فلا يكرر لفظ الطاعة عند ذكرهم ليدل على أن طاعتهم مستمدة من طاعة الله ورسوله ومن القيام على شريعة الله ورسوله وليس لهم طاعة فيما وراءها، لأن الطاعة لهم تبعية لا أصلية، ومستمدة من أصل وليست هي بذاتها أصلاً(١) انتهى محل الحاجة .

وهذا الذي ذكره سيد قطب قد صرح به أئمة أهل البيت في مقامات عديدة حيث كانوا يقولون للناس اذا جاءكم أحد بحكم من عندنا فاعرضوه على القرآن فإن كان موافقاً له فخذوا به وإلا فردوه الى من جاء به .

ثم إنّه قد تبيّن من أقوال هؤلاء المفسرين أنّ المراد من اولي الأمر الذين تجب طاعتهم هم الذين يحكمون بالقرآن والسنّة في جميع أحكامهم ولا يخطأون فيها كما هو صريح عبارة الفخر الرازي ، ومثل هؤلاء الرجال لا يقدر أن يشخصهم أحد إلا الله ورسوله لأنا قد عرفنا من كلمات الأعلام أن اولي الأمر يلزم أن تتوفر فيهم الشروط الآتية :

١ ـ أن يكونوا عالمين بتفسير القرآن بأكمله، وأن يكونوا عارفين بجميع أنواعه من الناسخ والمنسوخ والعامّ والخاصّ وغير ذلك حتى يتمكّنوا من أخذ الأحكام الشرعية منه .

٢ ـ أن يكونوا عالمين بالسنّة بجميع أقسامها وأنواعها .

٣ ـ أن يكون عندهم فهم وذكاء ومعرفة في إرجاع الجزئيات الى كلياتها حتى لا يتحقق عنده خطأ في التطبيق، فإنّ الله لا يريد الأمر والحكم الذي يصدر خطأً كما سمعت ذلك من كلام الرازي .

٤ ـ أن يكون عندهم إيمان راسخ بحيث لا يتعمدون كذبة أبداً ولا تأخذهم في الله لومة لائم ولا تصدر منهم معصية أبداً. وبعبارة أخصر: أنّ وليّ الأمر الذي

---

(١) في ظلال القرآن : ج٢ ص٦٩١ .

أمرنا الله بطاعته يشترط فيه أن يكون عالماً عاملاً بعلمه، وهذا لايمكن أن يحصل إلا بمدد من الله فهو الذي يهبه العلم وهو الذي يجعله من اولي الأمر ،وأن البشر يعجز عن معرفته .

هذا الذي تحصّل من كلمات المفسرين التي مرت عليك وإن لم يصرحوا بذلك فتأمل بها جيداً لتعرف الحقيقة حتى تعمل بها .

ثم إنه لما أنزل الله قوله : « فإن تنازعتم في شيء فردّوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » عرفنا من هذه الآية أنّ الشخص أوالجماعة أو جميع الامّة إذا كان إيمانهم إيماناً صادقاً يلزمهم اذا وقع بينهم تنازع في شيء من الامور أن يردوا الأمر المتنازع فيه الى كتاب الله وسنّة رسوله، فان لم يردوا ذلك الى الله ورسوله فإنّ إيمانهم غير صادق، هذا صريح الآية.

فالنزاع الذي وقع في الخلافة قبل أن يدفن النبي ﷺ ينبغي أن ينظر فيه هل أنهم ردوه الى الكتاب والسنّة؟ أو أنّ حلّ النزاع صار على مايشتهون ،وأنّ كل شخص مكلّف بالنظر في كيفية حلّه والعمل على مايقتضيه تكليفه ؟ فإن تبيّن له ردّ النزاع الى الله والرسول وهما حكما بتسويته وحلّه كان واجبه الأخذ بما حكما فيه ، فإنّ الله قد علّق إيمان المتنازعين على ردّ ماتنازعوا فيه الى الله والرسول .

ثم أكّد هذا الأمر بقوله تعالى :

ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما انزل اليك وما انزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقدامروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يظلهم ضلالا بعيداً(٦٠) .

إنّ الله عزّوجلّ قد نظّم امورعباده في هذه الآيات الثلاث تنظيماًلايبقى

معه عذر لمن يريد التلاعب في نظام المسلمين .

ففي آية (٥٨) وجّه الأمر الحتمي لمن أودع عنده الأحكام الشرعية، فقال: «إنّ الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » حيث ذهب أكثر المفسرين الى أنّ هذا الأمر موجه الى أولياء الامور وان اختلفوا في تشخيصهم ، واتفقوا أيضاً على اعتبار صفة العدل فيهم .

ثم أنزل الله بعده هذه الآية آية (٥٩) فوجّه الخطاب الى عموم المسلمين وهي قوله : «ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول واولي الأمر منكم».

يخاطب الله تعالى في هذه الآية جميع المسلمين ويقول لهم : إنا قد أمرنا وحتمنا على من أودعنا عنده الأحكام وقانون الشريعة الاسلامية أن يؤدوا إليكم الأحكام على حقيقتها بلاتغيير ولاتبديل، وأن يحكموا بينكم بالعدل والقسط، فهم لايجورون في حكمهم ولايحيفون ولايظلمون أحداً ، وأنتم يلزمكم إطاعتهم وعدم عصيانهم ، فإنهم مطيعون لله ولرسوله وهم عارفون بجميع الأحكام لايجهلون شيئاً منها، ولأجل علمهم العام وعدالتهم الثابتة نأمركم بإطاعتهم المطلقة في كل وقت وفي كل شيء بلاقيد أوشرط ، فإن تنازعتم في شيء من امور الدين أو الدنيا فردوه الى الله والرسول ، وأنّ من عنده علم جميع الأحكام هو يدلكم على كيفية الردّ الى الله ورسوله واستنباط الحكم من الكتاب والسنّة، وإن لم تردوا الأمر الى الله والرسول فإنّ إيمانكم غير صادق .

وأمّا التي بعدها فقد بيّن فيها للنبي أمراً موجباً للعجب ، يقول تبارك وتعالى : أما رأيت أيها النبي هذا الأمر العجيب ؟ أو أما رأيت أيها المؤمن، وأيها الرجل العاقل هذا الأمر الغريب المحال ؟ أوما شعرت أيها المنافق وأيها الكافر بأنّ هذا الذي تريد أن تحققه وتوجده هو شيء متناقض الأطراف لايمكن أن يتحقق ؟ فإنك تريد أن تدعي الايمان وتريد أن تتحاكم الى الطاغوت اذا تنازعت

مع المؤمنين أو مع غيرهم، وهذان أمران لايجتمعان، أي الايمان والمحاكمة الى الطاغوت ، فإنّ الله قد أمر المؤمنين أن يرجعوا في النزاع والخصومة الى الله كما ذكر في قوله : « وإن تنازعتم » أيها المؤمنون « في شيء فردوه الى الله والرسول » .

فأنت أيها المنافق لمّا زعمت أنك مؤمن بالكتاب الذي انزل على النبي ﷺ والكتاب الذي انزل قبل النبي كيف تريد التحاكم الى الطاغوت وقد عيّن الله رجالاً يعرفون أحكام الكتاب المنزل على النبي وأحكام الكتب المنزلة قبله .

ويؤيد ذلك مارواه جميع المفسرين والمؤرخين قول أمير المؤمنين عليه السلام : علّمني رسول الله ﷺ ألف باب من العلم يفتح لي من كل باب ألف باب[1].

ويؤيد هذا الحديث المروي عن النبي ﷺ باتفاق جميع الصحابة قوله ﷺ: أنا مدينة العلم وعلي بابها[2].

وبعد هذا الذي ذكر أليس مما يتعجب منه محاكمة الذي يدعي الاسلام الى الطاغوت ! فإنّ الله جعل إسلامه وإيمانه مزعوماً ، أي كذباً ليس بإيمان صادق .

وبعد هذا النظام الذي بيّنه الله لنا في هذه الآيات الثلاث ـ ٥٨ و٥٩ و٦٠ـ ينبغي أن لايكون نزاع بين المسلمين أبداً ، وأنّ الاختلاف في الرأي أو في غيره بمجرد حدوثه يردوه الى الكتاب والسنّة فيرتفع النزاع ويقع الرضا بينهم إن كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر كما ذكر الله ذلك .

ولكن النزاع الأول الذي وقع بعد موت النبي ﷺ وقبل أن يدفن حيث لم يرجع فيه الى الكتاب والسنّة سبّب ذلك حدوث النزاع في كل شيء وحدوث الفرق الـ ٧٣ .

---

(١) تفسير نور الثقلين : ج٤ ص٤٤٤ ح١٣ .

(٢) الوسائل : ج١٨ ص٢٠ ب٥ ح١١ ،كنز العمال : ج١١ ص٦٠٠ ح٣٢٨٩٠ .

وأمّا الطاغوت الذي نفى الله إسلام وإيمان كل من أراد التحاكم إليه فقد فسر بتفاسير عديدة يجمعها ـ أي يجمع الأقوال المفسرة للطاغوت ـ التعبير عنه بقولنا: هو كل شيء يرجع إليه في فصل الخصومة ولم يخوله الله النظر والحكم في هذا الأمر سواء كان إنساناً أم غير إنسان، لأنّ الله أمر بالرجوع في مقام التنازع والتخاصم والتداعي الى الله والرسول، وأمر أيضاً بإطاعة اولي الأمر في كيفية الرجوع التي بها يفصل النزاع ويرتفع التخاصم، فكل من يجعل نفسه في منزلة الله والرسول ويريد الرجوع إليه فهو طاغوت، كما أنّ من يجعل الصامت بمنزلة الله ورسوله ويدعو الى الرجوع إليه فهو طاغوت.

بقي أمران

الأمر الأول: قوله تعالى **«وقد امروا أن يكفروا به»** أي كل شيء يجعل نفسه أو يجعله المنافقون بمنزلة النبي ليحكم بين الناس في امور الدين وفي مقام التخاصم والتنازع فقد أمر الله عباده أن يكفروا به بمقتضى هذه الجملة من الآية، فكل من جلس مجلس النبي ليكون حاكماً بين الناس وهو يصدر حكمه عليهم ولم يجعله الله ولا رسوله حاكماً فأمر الله موجّه لجميع العباد أن يكفروا به، أي يقولون له نحن كافرون بك وبدعوتك، فإنما أنت طاغوت وأنّ الشيطان يريد أن يضلّ بك الناس ليدخلهم جهنم، وكل من اعترف بك ورضي بحكمك واختارك حاكماً فإنه منافق يكون معك في النار.

الأمر الثاني: أنّ كل من يُدعى الى القرآن والسنّة للحكم بينه وبين خصمائه فيمتنع عن الرضا بحكم الله ورسوله ويطلب المحاكمة عند من سمّاه الله طاغوتاً وهو الذي يتصدى للحكم بين الناس بلا تخويل من الله ولا من الرسول، فهذا الممتنع عن المجيء الى الله والى الرسول هو منافق، وما يظهره من الايمان فهو كذب ليس بصحيح. هذا ما تنصّ عليه الآية الشريفة وهي قوله تعالى:

وإذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً (٦١) .

فهذه الآية صريحة في أنّ من دعي الى الله والرسول يلزمه الطاعة والانقياد، ولا يصدّ ولا يمتنع عن ذلك إلا المنافق ، وقد تقدم حكم الطاغوت ومن يرضى به ويرجع إليه ويتخذه ولياً في آية الكرسي من سورة البقرة .

وأما آية ٦٢ و٦٣ فقد ذكر فيهما ذمّ المنافقين الذين يريدون المحاكمة الى الطاغوت ، وذكر بعض صفاتهم الذميمة وبعض أقوالهم الكاذبة .

ثم بعد ذلك قال تعالى :

وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً (٦٤) .

بعد أن أمر الله أولياء الأمر من الرسل وأوصيائهم بأداء الأمانة وهي الأحكام الشرعية التي أودعها عندهم أمر المؤمنين بإطاعتهم، ثم ذكر أنّ جماعة ممن ادعى الايمان قد خالفوا الأنبياء ولم يرجعوا إليهم في مقام التخاصم والتداعي ، وقد بيّن أنّ هؤلاء القوم غير مؤمنين إيماناً صادقاً .

وذكر في هذه الآية قانوناً كلياً بالنسبة الى الرسول والى المرسل إليهم وهو أنّ الله اذا أرسل رسولاً الى قوم يلزم على القوم اذا صدقوه واعترفوا بنبوته أن يطيعوه في جميع أوامره ونواهيه ولا يسمى مؤمناً من يعترف بأصل النبوة ويخالف في الأحكام، وإذا اتفقت له دعوى أو مخاصمة مع أحد يطلب من خصمه

أن يتحاكما عند من لم يأمر النبي ﷺ بالمحاكمة عنده.

هذه بالنسبة الى من يخالف النبي في كل القضايا ويبقى مصراً على الرجوع الى الطاغوت فإنه يكون من المنافقين. أمّا الذي تصدر منه قضية جهلاً أو سهواً أو عمداً ثم يندم فيستغفر الله ويطلب من النبي أن يستغفر الله له فإنّ الله قد وعده أن يتوب عليه ويعفو عنه.

فيلزم على كل من خالف النبي ﷺ وراجع من لم يأمر النبي ﷺ بالرجوع إليه ـ وهو المعبّر عنه بالطاغوت ـ أن يتوب الى الله ويستغفر من ذنبه وأن يطلب من النبي ﷺ أن يستغفر الله له، ولافرق بين وقوع هذا الأمر في حياة النبي ﷺ أو بعد موته.

ما قاله ابن كثير :

قال في تفسيره : وقد ذكر جماعة منهم الشيخ أبو منصور الصباغ في كتابه الشامل الحكاية المشهورة عن العتبي قال : كنت جالساً عند قبر النبي ﷺ فجاء أعرابي فقال : السلام عليك يارسول الله، سمعت الله يقول: **«ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً»** وقد جئتك مستغفراً لذنبي مستشفعاً بك إلى ربي، ثم أنشأ يقول :

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه	فطاب من طيبهن القاع والاكم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه	فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف الأعرابي، فغلبتني عيني فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال: ياعتبي إلحق الأعرابي فبشّره أنّ الله قد غفر له [1].

ما قاله المراغي :

قال الشيخ مصطفى المراغي في المعنى الجملي للآية: بعد أن أوجب سبحانه فيما سلف طاعة الله وطاعة الرسول وشنّع على من رغب عن التحاكم الى الرسول وآثر عليه التحاكم الى الطاغوت ذكر هنا ماهو كالدليل على استحقاق الرسول

(١) تفسير ابن كثير : ج٢ ص٣٢٩.

للطاعة وعلى استحقاق المنافقين الذين لم يقبلوا التحاكم المقت والخذلان لأنهم لم يرضوا بحكم الرسول ﷺ.

الايضاح : «وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله» أي : أنّ سنّتنا في هذا الرسول كسنّتنا في الرسل قبله، فما نرسلهم إلا ليطاعوا بإذن الله. فمن خرج عن طاعتهم أو رغب عن حكمهم خرج عن حكمنا وسنّتنا وارتكب أكبر الآثام. وجيء بقوله «بإذن الله» لبيان أنّ الطاعة الذاتية لاتكون إلا لله ربّ العالمين، لكنه قد أمر أن تطاع رسله. فطاعتهم واجبة بإذنه وإيجابه[1] انتهى.

فهذا الكلام صريح في أنّ كل من تصدى للحكم ونصب نفسه أميراً أو خليفةً للناس بغير إذن من الله ورسوله فهو بمنزلة الطاغوت يجب على الناس رفضه والتبري منه، ولذا نرى أئمة أهل البيت عليهم السلام قد أعلنوا للناس بأن كلما جاءكم حديث منا فاعرضوه على القرآن، فما وافق القرآن فخذوا به وما لم يوافق القرآن فردوه على من جاء به.

ما قاله الطبري :

قال في تفسير قوله : «وما أرسلنا من رسول إلّا ليطاع بإذن الله ولو أنّهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توّاباً رحيماً» : يعني بذلك جلّ ثناؤه لم نرسل يا محمد رسولاً إلا فرضت طاعته على من أرسلته إليه، يقول تعالى ذكره: فأنت يامحمد من الرسل الذين فرضت طاعتهم على من أرسلته إليه، وإنما هذا من الله توبيخ للمحتكمين من المنافقين الذين كانوا يزعمون أنهم يؤمنون بما انزل الى النبي ﷺ فيما اختصموا فيه الى الطاغوت صدوداً عن رسول الله ﷺ يقول لهم تعالى ذكره: ما أرسلت رسولاً إلا فرضت طاعته على من أرسلته إليه، فمحمد ﷺ من اولئك الرسل، فمن ترك طاعته

---

(١) تفسير المراغي : ج٥ ص٧٩ .

والرضا بحكمه واحتكم الى الطاغوت فقد خالف أمري وضيع فرضي . ثم أخبر جلّ ثناؤه أنّ من أطاع رسله فإنما يطيعهم بإذنه، يعني بتقديره ذلك وقضائه السابق في علمه ومشيئته [1] .

ثم ذكر ثلاث أحاديث شاهداً على ما ذكره ، ثم قال : وإنما هذا تعريض من الله تعالى ذكره لهؤلاء المنافقين بأنّ تركهم طاعة الله وطاعة رسوله والرضا بحكمه إنّما هو للسابق لهم من خذلانه وغلبة الشقاء عليهم ، ولولا ذلك لكانوا ممن اذن له في الرضا بحكمه والمسارعة الى طاعته [2] انتهى .

فقد دلّت أقوال المفسرين للآية على أنّ كلّ من ادعى الايمان بالله وبالرسول يلزمه أن تكون محاكماته عند من يحكم بالقرآن والسنّة . أما في زمن النبي فتكون عنده ، وأما بعده فيلزم أن تكون عند من يقدر على إرجاع كل حكم الى القرآن والسنّة، فإذا ترك مدعي الايمان الرجوع الى ذلك يكون ممن اختار التحاكم الى الطاغوت فيشمله الوعيد المذكور في الآيات .

ماقاله الرازى :

قال الرازي في تفسيره الكبير : قال أبو بكر الأصم : إنّ قوماً من المنافقين اصطلحوا على كيد في حقّ الرسول ﷺ ثم دخلوا عليه لأجل ذلك الغرض فأتاه جبرئيل عليه السلام فأخبره به ، فقال ﷺ : إنّ قوماً دخلوا يريدون أمراً لاينالونه فليقوموا وليستغفروا الله حتى أستغفر لهم . فلم يقوموا ، فقال : ألا تقومون؟ فلم يفعلوا ؟ فقال ﷺ : قم يافلان ، قم يافلان ، حتى عدّ اثني عشر رجلاً منهم ، فقاموا وقالوا : كنا عزمنا على ماقلت ونحن نتوب الى الله من ظلمنا أنفسنا فاستغفر لنا ، فقال : الآن اخرجوا أنا كنت في بدء الأمر أقرب الى الاستغفار وكان الله

(١) و (٢) تفسير الطبرى : ج٥ ص٩٩ .

أقرب الى الاجابة اخرجوا عني[١] انتهى .

فالآية تدلّ على أنّ مرتكب الكبيرة يجب عليه الاستغفار، وتدلّ على أنّ مجرد الاستغفار في اللفظ لايكفي وحده ، بل ينبغي أن يتوب ويندم على فعله ويعزم في القلب على أن لايعود أبداً الى مثله ، ثم يستغفر الله باللسان ليتوب الله عليه .

ماقاله سيد قطب :

قال في ظلال القرآن في قوله تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلّا ليطاع بإذن الله » : إنّ الرسول ليس واعظاً يلقي كلمته ويمضي، إنّ الاحترام الضروري لكلمة الله التي يحملها الرسول يقتضي أن يضمن الله لهذه الكلمة النفاذ، ومايطاع الرسول لذاته وبذاته ولكنه يطاع بإذن الله وشرعه ، فقد جاء الرسول ليطاع لالتهمل أوامره ولالتكون موكولة لمجرد التأثر الوجداني، جاء ليبيّن شريعة الله ويقوم على تنفيذها ويأخذ الناس بطاعتها احتراماً لأمر الله أن تبتذله الأهواء .

ومن هنا كان الاسلام عقيدة وشريعة ، وكان إيماناً في القلب ونظاماً في المجتمع ، وكانت وظيفة خليفة الرسول أن يؤدي مهمة الرسول في شطرها الثاني وهو القيام على تنفيذ الشريعة لتتحقق الطاعة الدائمة للرسول كما أراد الله أن تكون .

« **ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم** » بالانحراف عن المنهج السوي والتحاكم الى الطاغوت « **جاؤوك** » مستغفرين تائبين « **واستغفر لهم الرسول** » ليقبل الله توبتهم وهو يظهر هنا لفظ الرسول بدل ضميره ليبرز صفته هذه، وليقرر أنها مناط الرجعة اليه منهم ومناط استغفاره كذلك لهم . لو أنهم عادوا الى الله « **لوجدوا الله تواباً رحيماً** » يقبل التوبة عن عباده ويرحم ضعفهم ويعفو عن خطئهم ويفتح أبوابه

(١) تفسير الرازي : ج١٠ ص١٦٢ .

دائماً للعائدين. ومرة اخرى يؤكد أن الايمان لايتحقق إلا بسلوك منهجه، وأن التحاكم الى شريعة الله هي الطريق، ولكن في هذه المرة يوضح صفة هذا التحاكم، فهي ليست مجرد الخضوع القهري إنما هي كذلك الاطمئنان والرضا والقبول[1].

ثم إن الله تعالى أكد هذا الأمر وشدد فيه بل جعل الايمان الصحيح الصادق منحصراً في قبول الحكم وإطاعة أمر الرسول ، فأنزل قوله تعالى :

فلاوربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً (٦٥) .

ماقاله الشيخ الطبرسي :

وقال العلامة الطبرسي في مجمعه في معنى الآية : ثم بين الله أن الايمان إنما هو بالتزام حكم رسول الله ﷺ والرضا به فقال **«فلا»** أي ليس كمايزعمون أنهم يؤمنون مع محاكمتهم الى الطاغوت **« وربك لايؤمنون »** أقسم الله أن هؤلاء المنافقين لايكونون مؤمنين ولايدخلون في الايمان **«حتى يحكموك »**أي حتى يجعلوك حكماً أو حاكماً **« فيما شجر بينهم »** أي فيما وقع بينهم من الخصومة والتبس عليهم من أحكام الشريعة **«ثم لايجدوا في أنفسهم»** أي في قلوبهم **«حرجاً»** أي شكاً في أن ماقلته حق ، عن مجاهد . وقيل : إثماً ، أي لايأثمون بإنكار ذلك ، عن الضحاك. وقيل: ضيقاً بشك أو إثم، عن أبي علي الجبائي، وهو الوجه **«مما قضيت»** أي حكمت **«ويسلموا تسليماً»** أي ينقادوا لحكمك إذعاناً لك وخضوعاً لأمرك .

وروي عن الصادق أنه قال : لو أن قوماً عبدوا الله وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وصاموا شهر رمضان وحجوا البيت ثم قالوا لشيء صنعه رسول الله ألا

---

(١) في ظلال القرآن : ج٢ ص٦٩٥ .

صنع خلاف ماصنع أو وجدوا من ذلك حرجاً في أنفسهم لكانوا مشركين . ثم تلا هذه الآية[1] انتهى مافي المجمع .

ماقاله ابن كثير :

قال في تفسير قوله تعالى: « فلاوربّك لايؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم »: يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لايؤمن أحد حتى يحكم الرسول ﷺ في جميع الامور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً ولهذا قال : « ثمّ لايجدوا في أنفسهم حرجاً ممّا قضيت ويسلّموا تسليماً » أي اذا حكّموك يطيعونك في بواطنهم فلايجدون في أنفسهم حرجاً مما حكمت به ، وينقادون له في الظاهر والباطن، فيسلّمون لذلك تسليماً كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة ولامنازعة ، كماورد في الحديث : والذي نفسي بيده لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به[2] انتهى كلام ابن كثير .

ماقاله المراغي :

قال في تفسيره : أقسم سبحانه بربوبيته لرسوله بأن اولئك الذين رغبوا عن التحاكم إليك هم ومن ماثلهم من المنافقين لايؤمنون إيماناً حقاً وهو إيمان الاذعان والانقياد إلا إذا كملت لهم ثلاث خصال :

١ ـ أن يحكّموا الرسول في القضايا التي يختصمون فيها ويشتجرون ولا يتبيّن لهم وجه الحقّ فيها .

٢ ـ أن لايجدوا حرجاً وضيقاً فيما يحكم به ، أي أن تذعن نفوسهم لقضائه وحكمه فيما شجر بينهم بلاامتعاض من قبوله والعمل به، إذ المؤمن الكامل ينشرح صدره لحكم الرسول لأول وهلة لأنه الحق ، وأنّ الخير والسعادة في الاذعان له.

---

(١) مجمع البيان : ج٢ ص٦٩ .

(٢) تفسير ابن كثير : ج٢ ص٣٢٩ .

٣ ـ الانقياد والتسليم لذلك الحكم ، فكثيراً مايعرف الشخص أن الحكم حق لكنه يتمرد عن قبوله عناداً أو يتردد في ذلك .

وفي هذه الآية إشارة الى شيئين :

١ ـ عصمة النبي ﷺ ، بمعنى أنه لايحكم إلا بالحق المطابق لصورة الدعوى وظاهرها لابحسب الواقع في نفسه ، إذ الحكم في شريعته على الظاهر والله يتولى السرائر ، وقد قال ﷺ : إنما أنا بشر مثلكم تختصمون إلي ، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها . رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن .

٢ ـ أنهم لايكونون مؤمنين إيماناً صحيحاً مستحقاً للفوز بالثواب والنجاة من العقاب إلا إذا كانوا موقنين بقلوبهم مذعنين في بواطنهم بصدق الرسول في كل ماجاء به الدين . ومن أمارة ذلك أن يحكّموه فيما شجر بينهم من خلاف وأن لايجدوا ضيقاً وحرجاً في حكمه ، إذ الضيق إنما يلازم قلب من لم يخضع ، وأن ينقادوا انقياداً كاملاً بلاتمرد ولاعناد في قبوله[1] .

ماقاله الطبري :

قال في تفسيره حول تأويل قوله تعالى :«فلاوربك لايؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلّموا تسليماً »يعني جل ثناؤه بقوله «فلا» فليس الأمر كما يزعمون أنهم يؤمنون بماانزل إليك وهم يتحاكمون الى الطاغوت ويصدّون عنك إذا دعوا إليك يامحمد .

وأستأنف القسم جل ذكره فقال : « وربك » يامحمد « لايؤمنون » ، أي لا يصدقون بي وبك وبما انزل إليك « حتى يحكّموك فيما شجر بينهم » ، يقول : حتى يجعلوك حكماً بينهم فيما اختلط بينهم من امورهم فالتبس عليهم حكمه .

---

(١) تفسير المراغي : ج٥ ص٨١ .

يقال : شجر يشجر شجوراً وشجراً ، وتشاجر القوم اذا اختلفوا في الكلام والأمر مشاجرةً وشجاراً .

« ثم لايجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت » ، يقول : لايجدوا في أنفسهم ضيقاً مما قضيت . وإنما معناه : ثم لاتحرج أنفسهم مما قضيت ، أي لاتأثم بإنكارها ماقضيته وشكّها في طاعتك، وإنّ الذي قضيت به بينهم حقٌ لايجوز لهم خلافه[1].

ماقاله الشيخ الطوسي :

قال في التبيان في قوله تعالى : « فلاوربّك لايؤمنون حتّى يحكّموك فيما شجر بينهم ثمّ لايجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلّموا تسليماً » : قيل في معنى دخول « لا » في أول الكلام قولان :

أحدهما : أنه ردٌ لكلام . كأنه قيل لا الأمر كما يزعمون من الايمان وهم على تلك الحال من الخلاف، ثم استأنف قوله : « وربّك لايؤمنون حتّى ...» .

الثاني : أنها توطئة للنفي الذي يأتي فيما بعد ، لأنه إذا ذكر في أول الكلام وآخره كان أوكد وأحسن، لأنّ النفي له صدر الكلام ، وقد اقتضى القسم أن يذكر في الجواب .

ثم قال : وقوله « فيما شجر بينهم » معناه فيما وقع بينهم من الاختلاف . تقول شجر يشجر شجراً وشجوراً ، وشاجره في الأمر إذا نازعه فيه مشاجرة وشجاراً وتشاجروا فيه تشاحوا ، وكل ذلك لتداخل كلام بعضهم في بعض كتداخل الشجر بالتفافه[2] .

ثم ذكر كلاماً أبطل فيه مذهب المجبرة[3]، ثم قال: ومعنى الآية أنّ هؤلاء المنافقين لايؤمنون حتى يحكم النبي ﷺ فيما وقع بينهم من الاختلاف ، ثم لا

(١) تفسير الطبرى : ج٥ ص١٠٠ .

(٢) التبيان : ج٣ ص٢٤٤ .

(٣) التبيان : ج٣ ص٢٤٥ .

يجدوا حرجاً مما قضى به ، أي لاتضيق صدورهم به ، ويسلّموا لما يحكم به لا يعارضونه بشيء ، فحينئذٍ يكونون مؤمنين[١] .

ماقاله سيد قطب :

قال في قوله تعالى : « فلاوربّك لايؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ثمّ لايجدوا في أنفسهم حرجاً ممّا قضيت ويسلّموا تسليماً » : إنه اقتنى الوجدان واطمئنان الضمير، وتسليم الرضا بذلك التحكيم ،كان ذلك حين كان الرسول ﷺ يحكم بشخصه ، فأما بعد جواره للرفيق الأعلى فشرعته وسنّته بعده ، ولاوربك مايؤمن أحد لايتحاكم الى شرعته وسنّته ولايجد في نفسه الاطمئنان والرضا والقبول والتسليم[٢] .

فإذا اطلع القارىء على ماكتبه هؤلاء المفسرون يتحقق عندنا أنّ الذي يستفاد من آية ٦٤ و٦٥ هو :

١ ـ أنّ الله تعالى يريد من امّة كل رسول مصدقة برسولها أن يطيعوه فيما يأمرهم به من جميع الامور ولايخالفوه في شيء منها .

٢ ـ اذا خالف أحد الامّة شيئاً من أوامر الرسول يجب عليه أن يتوب الى الله ، وأن يأتي الى الرسول ﷺ فيعترف بذنبه ويطلب منه أن يستغفر له حتى يغفر الله له .

٣ ـ يلزم على المؤمنين جميعهم اذا وقع شجار بين اثنين منهم أو بين جماعتين منهم أن يكون مرجعهم في حلّ النزاع والخصومة الى الله ورسوله أي الى القرآن فيكون حلّ النزاع على مقتضى الآيات القرآنية وسنّة النبي ﷺ ويكون المفسر للآيات القرآنية هو النبي ﷺ اذا كان موجوداً لأنّ تأويل الآيات لايعرفها كل أحد .

---

(١) التبيان : ج٣ ص٢٤٦ .

(٢) في ظلال القرآن : ج٢ ص٦٩٥ .

٤ ـ اذا كان النزاع والشجار وقع بين المسلمين بعد رحلة النبي ﷺ فلا يتغير الحكم المذكور ويجب الرجوع الى القرآن والسنّة في حلّ الخصومات ، ويكون المفسر لآي القرآن وصيّ النبي وخليفته الذي يعرف تأويل جميع القرآن وإلا فلا يكون رجوعاً الى الله ورسوله كما مرّ عليك كلام سيد قطب وهو قوله: وكانت وظيفة خليفة الرسول أن يؤدي مهمة الرسول في شطرها الثاني وهو القيام على تنفيذ الشريعة لتتحقق الطاعة الدائمة للرسول كما أراد الله أن تكون .

وقال بعد أسطر حيث انتهى من تفسير قوله « فلا وربك » : كان ذلك حين كان الرسول يحكم بشخصه، فأمّا بعد جواره للرفيق الأعلى فشرعته وسنّته بعده[١].

٥ ـ أنّ الايمان الحقيقي الصادق لا يتحقق بالنسبة الى العبد ما لم يكن باطنه موافقاً لظاهره وقلبه متحداً مع لسانه، وهذا الأمر لا يمكن التخلّف فيه لأنّ الله أقسم عليه بذاته جلّ وعزّ ، فالمؤمن الحقيقي هو الذي اذا اتفق له نزاع مع أحد من الناس يلزمه أن يرجع في حلّ النزاع الى الله ورسوله أو وصيّ رسوله ، وأن يرضى بالحكم الصادر من الرسول أو الوصي سواء كان الحكم له أم عليه . أمّا من لم يرض بالرجوع الى الله ورسوله في مقام التشاجر فإنه ليس بمؤمن كما هو صريح الآية وصريح أقوال المفسرين .

سؤال: ماهو أول تشاجر ونزاع وقع بين المسلمين بعد ارتحال النبي ﷺ من الدنيا الى دار القرار ؟

الجواب: أول شجار ونزاع هو النزاع في الخلافة الواقع بين المهاجرين والأنصار حين اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة ، وكل من الفريقين طلب أن تكون الخلافة فيهم ، ولم يكن علي عليه السلام حاضراً بل كان مشغولاً في تجهيز النبي ومعه بنو هاشم وسلمان والمقداد وأبو ذر وبريدة وغيرهم .

سؤال آخر : هل أنّ كلاًّ من الفريقين رجع الى الكتاب والسنّة في حلّ

---

(١) في ظلال القرآن : ج٢ ص٦٩٥ .

النزاع أو أن حل النزاع كان بآرائهم ؟

الجواب ـ تقدم في ص١٦٥.

ثم أوضح الله تعالى عن خبث ضمائر هؤلاء القوم وفساد سرائرهم بقوله تعالى :

ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من ديار كم ما فعلوه الا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً (٦٦).

إن الله سبحانه كلف امة محمد ﷺ تكليفاً يسيراً سهلاً ليس فيه مشقة، كلفهم أولاً : أن يطيعوا الرسول فيما يأمرهم به وينهاهم عنه بأن يفعلوا ما أمرهم به ويتركوا مانهاهم . و كلفهم ثانياً: أن يرجعوا إليه والى رسوله في مقام التنازع والتشاجر والتخاصم وأن لا يتحاكموا عند الطاغوت. و كلفهم ثالثاً: اذا بدرت منهم بادرة وعصوا الله ورسوله في شيء من الأشياء سواء كان فعلاً أم تركاً أن يتوبوا الى الله، وأن يطلبوا من النبي ﷺ أن يستغفر لهم الله .

وهذه الامور الثلاثة يسيرة ليس فيها مشقة، ومع ذلك قد عصوا الله فيها ولم يمتثلوها ، فكيف لو كلفهم في مقام التوبة كما كلف أصحاب موسى بأن يقتلوا أنفسهم ويخرجوا من ديارهم، فإن الله تعالى العالم بالسرائر والمطلع على الضمائر لو كلفهم بقتل أنفسهم والخروج من ديارهم ما فعله إلا القليل منهم .

ثم إن الله عز وجل أخبرهم ونبه غيرهم من المنافقين والمخالفين لأوامر الله وأرشدهم لأمر يصلح لدنياهم واخراهم ، أمر ينفعهم وينفع غيرهم وهو قوله تعالى : **«ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً»** فإن العبد اذا كان مؤمناً معترفاً بحكمة الله وعلمه بالمصالح يحصل له اليقين بما

يخبر به الله .

وهذا الخير الذي تضمّنته الآية ـ وهو أنّ الطاعة وفعل الأوامر خير لنا من العصيان والمخالفة ـ هو عقيدة المؤمن وهذا غير مختصّ بزمان وجود الرسول وإنما هو مستمرّ الى يوم القيامة ، فكل مخالف لشيء من أوامر النبي يلزمه التوبة والاستغفار والرجوع الى الطاعة حتى يلتئم أمر المسلمين ويثبت دينهم وتكون لهم الهيبة والشوكة والعظمة في قلوب أعدائهم الكافرين .

ثم قال عزّ وجلّ : وإذاً لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً (٦٧) .

أي : هؤلاء الذين أظهروا الايمان لو أنهم عملوا بأوامر النبي ولم يخالفوه في شيء منها وأطاعوا الله في الامور الثلاثة التي تقدم ذكرها لأعطاهم الله أجراً عظيماً على عملهم .

وهل يتصور الانسان هذا الشيء الذي يسميه الله عظيماً؟ وكل شيء هو حقير عند الله لا يتمكن البشر أن يتصوره أبداً حتى يراه بعينه .

فإذا خالف الانسان أحد هذه الامور الثلاثة ـ وهي: (١) إطاعة الرسول فيما يأمره ، (٢) الرجوع إليه عند التشاجر، (٣) الاستغفار اذا صدرت منه معصية ـ فقد فوت على نفسه هذا الأجر العظيم، وهل يعتبر نفسه عاقلاً من يفوت هذا الأجر ويحرم نفسه منه ؟! وليته كان تفويتاً للأجر فحسب بل هو إدخال لنفسه في العذاب الأليم الذي لا انقطاع له ، وإنّ الذي يعمل شيئاً يوجب تفريق الامّة واختلاف كلمتها وتشتت جمعها واستيلاء العدوّ عليها مستحقّ لهذا العذاب الأبدي .

ثم قال تعالى : ولهديناهم صراطاً مستقيماً (٦٨) .

أيها الانسان المؤمن إنّ الله يعدك وهو صادق الوعد بأنك اذا فعلت هذه

الامور الثلاثة أن يهديك الصراط المستقيم، هذا صريح الآية ليس فيه إجمال ولكن الكلام في معرفة أوامر النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

فينبغي للعاقل الذي يريد سلوك الصراط المستقيم أن يعرف أوامر النبي صلى الله عليه وآله من خليفته ووصيه، العالم بالأحكام والعارف بتفسير القرآن، يأخذ أحكامه من باب مدينة العلم لامن طريق آخر حتى يصل الى الصراط المستقيم .

ثم ذكر الله عزّ وجلّ مايبيّن فيه جنس ذلك الأجر العظيم الذي وعدنا به ولم يبيّنه تفصيلاً لأنّ الانسان لايعرفه إلا عند الوصول إليه ومشاهدته عياناً ، ولكن تعرف عظمته من الآية الكريمة وهي قوله تعالى :

ومن يطع الله والرسول فاولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقاً (٦٩) .

ممالاريب فيه أن الانبياء هم أعظم الناس أجراً وأرفعهم درجةً يوم القيامة.

وأما الصديقون فهم الذين يصدقون في النية وفي العمل وفي الكلام من أول عمرهم الى آخره بحيث لاتصدر منهم كذبة واحدة في هذه المراحل الثلاث وحينئذ يسمى صدّيقاً.

ويلزمه أن يكون مصدقاً بدين الحق، وإلا فيختلّ معنى الصدق في إحدى المراحل، فيكون الشرط في صدق الوصف عليه علمه بالأحكام الواقعية الحقيقية.

أمالو قال أو فعل أو اعتقد شيئاً أو أشياء متيقناً أنها صادقة حقيقية وهي ليست كذلك وأنّ واقعها خلاف ذلك فلايقال صدّيقاً إلا لمن يعلم بالأحكام الحقيقية بحيث تعلّمها من النبي الذي جاءه بها الملك عن الله تعالى .

فإذا كنت تعرف شخصاً علّمه النبي صلى الله عليه وآله جميع الأحكام وأيده الله بحفظها وعدم

إضاعتها ونسيانها وكان عاملاً بها لا يتخلّف عن حكم واحد منها قولاً وعملاً فسمه صدّيقاً بلا توقف، فافهم واغتنم.

وأما الشهداء فإمّا أن يكون جمع شاهد وهو الذي يطلع على الشيء ثم يشهد عليه في مقام ترتيب الثواب والعقاب عليه، وهؤلاء الذين يجعلهم الله شهداء في الدنيا على العباد لأجل أن يقيموا الشهادة يوم إعطاء الثواب والعقاب لابدّ وأن يكونوا من الصديقين الذين اختصهم الله بهذا التكليف في الدنيا، وفي الآخرة تكون شهادتهم مقبولة عند الله، وهذه منزلة رفيعة يعرفها لهم أهل الجمع، ويتذكرون في ذلك المقام أنهم جهلوا حقهم في الدنيا بعد أن ذكرهم الله ونوّه عنهم وقرنهم بالنبيين والصديقين. فينبغي للمؤمن بعد اطلاعه على هذه الآية أن يعرفهم في الدنيا ليشهدوا له في الآخرة بالمعرفة.

وإمّا أن يكون الشهداء جمع شهيد وهو المقتول في حرب الكفار لأجل نصرة الدين فإنّ الله قد جعل له مقاماً رفيعاً مع النبيين والصديقين ويسمى هذا بالجهاد الأصغر.

وهناك جهاد يسمى الجهاد الأكبر وهو مجاهدة النفس والهوى، كما روي عن النبي ﷺ أنه قال لسرية رجعت من جهاد الأعداء: مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر، فقيل: يارسول الله ما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس[1].

فإنّ النفس إذا اعطيت ما تريد أوقعت صاحبها في المهالك، فمن غلب نفسه وقتلها وتجرد لاطاعة الله وامتثال أوامره فهو من أعظم الشهداء الذين يرافقون الأنبياء والصديقين.

وأما الصالحون فهم الذين صلحت أعمالهم وأقوالهم بحيث لا يصدر منهم قول أو فعل يضرّ بهم أو بغيرهم وإنما قولهم وفعلهم نافع دائماً، وإنما كانت الأقوال والأفعال صالحة لأنها منبعثة عن نية صالحة.

---

(١) الوسائل: ج١١ ص١٢٢ ب١ من أبواب جهاد النفس ح١.

تذكرة للمصلين

إن المصلي اذا كبّر ودخل في الصلاة أول شيء يشرع به هو الثناء على الله عزّ وجلّ ، فإنه اذا كبّر يعترف بأنّ كل شيء من العرش الى أطباق الثرى هو حقير وصغير بالنسبة الى الله.

وبعد التكبير يحمد الله تعالى على إنعامه و تفضله و منّه على عباده بالنعم العظيمة .

ثم يصفه بقوله «الرحمن الرحيم» .

ثم يعترف له بأنه هو المالك ليوم الدين ، و هو يوم جمع المخلوقات جميعاً وجزاء كل نفس بما تستحقه من خير أو شر .

وبعد ذلك يعترف لله بالعبودية الخالصة وبالاستعانة به لا بأحد غيره وهو قوله «إياك نعبد وإياك نستعين».

وبعدذلك يطلب من الله أن يرشده ويدلّه ويسلك به الطريق المستقيم الذي لاعوج فيه ولاظلمة ولاشيء يخالف إرادة الله ، فيقول العبد المصلي «إهدنا الصراط المستقيم».

ثم يبيّن الله أنّ هذا الصراط هو الذي يسلكه من أنعم الله عليه من عباده بقوله «صراط الذين» فيكون سلوك هؤلاء العباد من أقوى الدلالات على استقامة هذا الطريق.

فالعبد المؤمن اذاكان من المصلّين وكان ملتفتاً الى ما يقوله ويطلبه من الله فإنه يطلب من الله في كل يوم عشر مرات أن يهديه للطريق المستقيم .

وقد بيّن الله لعباده في هذه الآيات بأنّ الذي يستحق من الله الاجابة على طلبه هو الذي يعمل بما أمره الله في هذه الآيات بحيث لا يتخلّف عن مضمونها أبداً وهي مايلي:

(١) قوله تعالى : « و ما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله » أي يطيع الرسول في كل شيء.

(٢) قوله تعالى: «ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً» أي من عصى الله في شيء يستغفر و يتوب بأسرع وقت .

(٣) قوله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » وهو الايمان الظاهري.

(٤) قوله تعالى : «ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً» و هو الايمان القلبي.

(٥) قوله تعالى : « و لو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم و أشد تثبيتاً » .

فإذا تكاملت هذه الامور في المؤمن يقول الله حينئذ للمصلي الذي تجمعت فيه هذه الصفات : إن لك عند الله ثلاثة امور :

الأول: ماذكره بقوله : «وإذاً لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً» .

الثاني: ما طلبه من الله في صلاته يجيبه الله عنه ويقول: «ولهديناهم صراطاً مستقيماً».

الثالث: قوله تعالى: «ومن يطع الله والرسول فاولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقاً».

و هذه الامور الخمسة التي يستحق المتصف بها أن يحبى بالامور الثلاثة عمدتها و أصلها الأساسي هو الأمر الأول و هو إطاعة الرسول إطاعة كاملة ، فإذا تحققت عند أحد و طبقها تطبيقاً دقيقاً حقيقياً تبعتها بقية الامور. فالمؤمن اذا كان إيمانه صادقاً خالصاً ينبغي له أن يطيع الرسول في كل أمر كلي أو جزئي في حياة الرسول و بعد رحلته في الاصول وفي الفروع ، فإذا تحققت إطاعة الرسول في جميع الامور هداه

الله الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم وهم النبيون ومن تبعهم من الأصناف الثلاثة.

ماقاله الحويزي :

قال في تفسيره: عن خضر بن عمرو عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: المؤمن مؤمنان مؤمن وفى لله بشروطه التي اشترطها عليه، فذلك مع النبيين و الصديقين والشهداء والصالحين و حسن اولئك رفيقاً، وذلك ممن يشفّع ولا يشفع له، وذلك ممن لاتصيبه أهوال الدنيا ولاأهوال الآخرة. ومؤمن زلّت به قدم، فذلك كخامة الزرع [1] كيفما كفأته الريح انكفى، وذلك ممن تصيبه أهوال الدنيا و أهوال الآخرة ويشفع له وهو على خير [2].

وفيه أيضاً في قول الله: «صراط الذين أنعمت عليهم» أي قولوا اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم بالتوفيق لدينك وطاعتك. وهم الذين قال الله عزّ وجلّ: «ومن يطع الله والرسول فاولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقاً» [3].

ماقاله سيد قطب:

قال في ظلال القرآن: وفي النهاية تجيء تلك اللمسة الشاملة لقلوب المؤمنين يشوقهم الى ذلك الافق الرفيع الحبيب الذي يرقى إليه الطائعون لله والرسول.

«ومن يطع الله والرسول فاولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين و الشهداء و الصالحين و حسن أولئك رفيقاً * ذلك الفضل من الله و كفى بالله عليماً».

---

(١) الخامة من الزرع ماينبت على ساق ، واللطافة الغضة منه أو الشجرة الغضة منه .

(٢) تفسير نور الثقلين ج١ ص٤٢٦ ح٣٨٦.

(٣) نور الثقلين : ج١ ص٤٢٧ ح٣٩٣ .

إنه ذلك الافق الوضيء الذي تتشوق إليه الأرواح وتهفو إليه القلوب ، افق الرفقة والصحبة للنبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وهاهو ذا علا سموه وارتفاعه ووضاءته في متناول من يريد ، فماهي إلا طاعة الله والرسول ، فإذاالافق الشاهق السامي قريب .

إنّ الطاعة ليست أمراً وليست تكليفاً في هذه المرة، إنما هي وسيلة المتسامي الى ذلك المرتقى وأداة الوصول الى ذلك الحمى والتقدمة بين يدي ذلك الأمل الحبيب .

« ذلك الفضل من الله » فهو جزاء لايستحقه الانسان عن جهد ، فما يبلغ الجهد وحده أن يكون هذا جزاؤه إنما هو الفضل من الله يضاعف الجهد ويضاعف الجزاء[1] انتهى .

ماقاله المراغي :

قال في تفسير قوله تعالى : « ومن يطع الله والرسول فاولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقاً » : أي كل من يطيع الله ورسوله على الوجه المبيّن في الآيات السالفة ويفعل الأوامر ويترك النواهي يكون يوم القيامة مرافقاً لأقرب عباد الله وأرفعهم درجات، وهم الأصناف الأربعة الذين ذكروا في الآية ، وهم صفوة الله من عباده، وقد وجدوا في كل امّة . ومن أطاع الله ورسوله من هذه الامّة كان منهم وحشر يوم القيامة معهم «وحسن اولئك رفيقاً» أي أنّ الأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين يكونون كالرفقاء له من شدة محبتهم إياه وسرورهم برؤيته .

ثم ذكر بعد ذلك مارواه الطبراني مرفوعاً : « من أحبّ قوماً حشره الله معهم » . وما أخرجه الشيخان عن أنس : « المرء مع من أحب » ، وآية المحبة

(١) في ظلال القرآن : ج٢ ص٦٩٩.

الطاعة كما قال تعالى : « قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحببكم الله »[1].

ماقاله الطبرى :

قال في تأويل قوله تعالى : «ومن يطع الله والرسول فاولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقاً» .

يعني بذلك جلّ ثناؤه « ومن يطع الله والرسول » بالتسليم لأمرهما وإخلاص الرضا بحكمهما والانتهاء الى أمرهما والانزجار عما نهيا عنه من معصية الله فهو « مع الذين أنعم الله عليهم » بهدايته والتوفيق لطاعته في الدنيا من أنبيائه وفي الآخرة إذا دخل الجنة « والصدّيقين » وهم جمع صدّيق .

واختلف في معنى الصدّيقين فقال بعضهم: الصدّيقون أتباع الأنبياء الذين صدّقوهم واتبعوا منهاجهم بعدهم حتى لحقوا بهم[2] انتهى .

قوله تعالى : ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً (٧٠) .

أي أنّ ذلك الجزاء العظيم ـ وهو مرافقة المطيع لله وللرسول ـ لهؤلاء الأصناف من الأنبياء ومن بعدهم إنما هو فضل من الله، فإنّ العبد وإن كان مطيعاً ولكن الاطاعة إنما هي بإرشاد الله حيث ذكرها في الآيات المتقدمة فهي من فضله ورحمته .

وأمّا الجملة الأخيرة وهي قوله : «وكفى بالله عليماً» فإنها وعد للمحسنين ووعيد للمسيئين، لأنّ الله عالم بما يعمله العبد وعالم بما ينويه في عمله، فلا تخفى عليه خافية .

ماقاله المراغي :

قال في تفسير قوله تعالى: **«ذلك الفضل من الله»**: أي أنّ هذا الذي ذكر

---

(١) تفسير المراغي : ج٥ ص٨٤ ، والاية ٣١ من سورة آل عمران.

(٢) تفسير الطبرى : ج٥ ص١٠٣ .

من الجزاء لمن يطيع الله والرسول هو الفضل الذي لايعلمو فضل ، فإنّ السمو الى إحدى تلك المنازل في الدنيا ومرافقة أهلها في الآخرة هو منتهى مايأمله المرء من السعادة وبه يتفاضل الناس فيفضّل بعضهم بعضاً[1] انتهى .

ثم قال في تفسير قوله تعالى: «وكفى بالله عليماً» : أي كفى به سبحانه عليماً بالعصاة والمطيعين والمنافقين والمخلصين ومن يصلح لمرافقة هؤلاء ومن لايصلح ، فهو لايعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء . وليحذر المنافقون المراؤون لعلّهم يتذكّرون فيتوبوا ، وليطمئنّ المؤمنون الصادقون لعلّهم ينشطون ويزدادون في الطاعة ويبتعدون عن التقصير[2] انتهى .

سبب النزول

قيل : إنها نزلت في ثوبان مولى رسول الله ﷺ وكان شديد الحبّ لرسول الله ﷺ قليل الصبر عنه ، فأتاه ذات يوم وقد تغيّر لونه ونحل جسمه ، فقال له رسول الله ﷺ: ياثوبان ماغيّر لونك ؟ فقال : يارسول الله مابي من مرض ولا وجع غير أني اذا لم أرك اشتقت إليك حتى ألقاك ، ثم ذكرت الآخرة ، فأخاف أني لاأراك هناك لأني عرفت أنك ترفع مع النبيين وإني إن ادخلت الجنة كنت في منزلة أدنى من منزلتك ، وإن لم ادخل الجنة فذاك حين لاأراك أبداً، فنزلت الآية . ثم قال ﷺ : والذي نفسي بيده لايؤمننّ عبد حتى أكون أحبّ إليه من نفسه وأبويه وأهله وولده والناس أجمعين[3].

مضمون مااستفدناه من الآيات ٥٩ ـ ٧٠ هو : أنّ الايمان الصحيح الذي ينفع صاحبه في الدنيا والآخرة هو إطاعة الرسول ، فإنّ الآيات وأقوال المفسرين

---

(١) تفسير المراغي : ج٥ ص٨٤ .
(٢) تفسير المراغي : ج٥ ص٨٦ .
(٣) مجمع البيان : ج٣ ص٧٢

أناطت الايمان بإطاعة الرسول وحكمت على المخالف لأوامر الرسول بالكفر أو النفاق، سواء كان الخلاف في الاصول أم الفروع ، في العقائد أو الأحكام العملية ، ومن شكّ في هذا الحكم فليتأمل في الآيات وفي تفاسيرها فقد ذكرت لك أقوال المفسرين تفصيلاً فراجعها .

ثم إنّ أوضح كلمة بيّنها الرسول لامّته بحيث لايشكّ أحد في صدورها منه لاتفاق الأصحاب على روايتها ، ولايشتبه في معناها لوضوح مضمونها ، وهي قوله ﷺ : إني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ماإن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً[1].

هذا حديث متسالم عليه وهو واضح المعنى ، فانظر كيف أكّد النبي ﷺ معناه بقوله «أبداً»، فإنّ قوله « لن تضلّوا بعدي »كافٍ للحكم ولكنه أكّده بقوله « أبداً » ، فهو قانون كلّي جعله النبي لجميع الامّة . فيلزم على كل فرد منها ـ اذا أراد إطاعة النبي ليكون مؤمناً مرضياً عند الله ـ أن يتمسك بهذين الأمرين لئلّا يكون ضالّاً، وليتذكّر ما يقوله في صلاته كل يوم وليلة « إهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولاالضالّين » .

فهذه الآيات تبيّن لك سبب هدايتك الى الصراط المستقيم وحشرك مع الذين أنعم الله عليهم ، وهذا الحديث يبيّن لك أنّ ابتعادك عن المغضوب عليهم وعن الضالّين إنما يكون بتمسكك بهذين الأمرين ، نسأله تعالى حسن العاقبة .

قوله تعالى : الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان ان كيد الشيطان كان ضعيفاً (٧٦) .

---

(١) بحار الانوار: ج٢٣ ص١٠٤ ح٧ .

بعدما ثبت وتحقق من الآيات السابقة أنّ المؤمن هو الذي يطيع النبي ﷺ في جميع أوامره ونواهيه ، ولايتعمد مخالفته في شيء من ذلك ، وأنّ الذي يتعمد المخالفة هو كافر أو منافق ، فقد بيّن الله لنا في هذه الآية صفة من صفات المؤمنين وهي أنّ المؤمن لايقاتل أحداً ولايعلن حرباً على أحد إلا لأجل الله وفي سبيل الله ولنصرة الدين وإعلاء كلمة الحق ، ولايقاتل لأجل حيازة المال واكتساب الغنائم ، ولا لأجل الرئاسة والامارة حتى يتأمّر على الناس ، ولا لأجل أوتار[1] وعداوات سابقة بينه وبين قوم وقد سنحت له الفرصة بقتالهم ، وإنما نيته في قتاله تكون خالصة لله وامتثالاً لأمر الرسول .

وأما الكفار فهم خلاف ذلك فإنهم يقاتلون لأجل الدنيا من اكتساب مال أوحصول على رئاسة أو هتك أعراض الناس، فلايكون قتالهم إلا في سبيل الطاغوت وكل أمر اذا لم يكن لله وعن أمر الله فهو إنما يكون في سبيل الطاغوت ومن أمر الشيطان .

ثم إنّ الله يلتفت الى المؤمنين ويخاطبهم ويأمرهم بقوله : « **فقاتلوا أولياء الشيطان ان كيد الشيطان كان ضعيفاً** » أي بعدما علمتم أنّ من يقاتل لأجل الدنيا إنما هو كافر وأنّ قتاله في سبيل الطاغوت وأنه هو من أولياء الشيطان فلا تبطئوا عن قتالهم فإنكم سوف تغلبونهم لأنهم أولياء الشيطان وأنتم أولياء الله والله يكون معكم حتماً .

ماقاله الطبري

قال في تأويله لهذه الآية : يعني تعالى ذكره الذين صدقوا الله ورسوله وأيقنوا بموعود الله لأهل الايمان به «**يقاتلون في سبيل الله**» يقول : في طاعة الله ومنهاج دينه وشريعته التي شرعها لعباده .

---

(١) أوتار ـ جمع وتر ـ : الانتقام .

«والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت» يقول: و الذين جحدوا وحدانية الله و كذبوا رسوله وماجاءهم به من عندربهم يقاتلون في سبيل الطاغوت يعني في طاعة الشيطان و طريقه و منهاجه الذي شرعه لأوليائه من أهل الكفر بالله.

يقول الله مقوياً عزم المؤمنين به من أصحاب رسوله ﷺ و محرضهم على أعدائه واعداء دينه من أهل الشرك به: **«فقاتلوا»** أيها المؤمنون **«أولياء الشيطان»** يعني بذلك الذين يتولونه و يطيعون أمره في خلاف طاعة الله و التكذيب به و ينصرونه.

«ان كيد الشيطان كان ضعيفاً» يعني بكيده ما كاد به المؤمنين من تحزيبه أولياءه من الكفار بالله على رسوله و أوليائه أهل الايمان به، يقول فلا تهابوا أولياء الشيطان فإنما هم حزبه وأنصاره، وحزب الشيطان أهل وهن وضعف. وإنما وصفهم جل ثناؤه بالضعف لأنهم لايقاتلون رجاء ثواب ولايتركون القتال خوف عقاب، وإنما يقاتلون حمية أو حسداً للمؤمنين على ما آتاهم الله من فضله. والمؤمنون يقاتلون من قاتل منهم رجاء العظيم من ثواب الله ويترك القتال إن تركه على خوف من وعيدالله في تركه، فهو يقاتل على بصيرة بما له عند الله إن قتل، و بما له من الغنيمة والظفر إن سلم، والكافر يقاتل على حذر من القتل وأياس من معاد فهو ذو ضعف وخوف[1] انتهى.

وبعد أن اتضح لنا معنى الآية فقد استفدنا منها الامور التالية:

أولاً: أن المؤمن لابد أن يكون قتاله لأي أحد كان إنما هو في سبيل الله ولنصرة دين الله وعن أمر الله ورسوله، وإن لم يكن قتاله في سبيل الله فهو ممن يقاتل في سبيل الطاغوت وهو من أولياء الشيطان.

---

(١) تفسير الطبري: ج ٥ ص١٠٧.

ويلزمنا على هذا الأصل الأصيل أن ننظر وندقق ونحقق فيمن قاتل وقوتل من هذه الامّة بعد ارتحال النبي ﷺ فنعرف المقاتلين أيهم قاتل في سبيل الله وأيهم قاتل لأجل الامارة واكتساب المال أولأجل دحض الحق أولغير ذلك من الشهوات النفسانية ، فإذا عرفنا الحقيقة يلزمنا أن نتولى المحق و نبرأ من الباطل ، وكل إنسان مكلّف لذاته ومسؤول عن نفسه

فلو أنّ إنساناً عرف أنّ فلاناً قاتل في سبيل الله فلم يواله و لم يبرأ ممن قاتله فهو معدود من أولياء الشيطان وإن تأخر زمانه آلاف السنين، لأنه خالف الحق بعد ما عرفه و حققه .

ولو أنّ امرءً عرف أنّ فلاناً قاتل المؤمنين لأجل أن يتأمّر عليهم وينهب أموالهم ويقتل المؤمنين فلم يتبرأ منه ولم يظهر للناس كفره فهو من أولياء الطاغوت ومن حزب الشيطان .

فليعرف الانسان نفسه ولا يخالف القرآن فإنه جعلهم قسمين لا ثالث لهما ، مؤمنين يقاتلون في سبيل الله، وكافرين يقاتلون في سبيل الطاغوت، ولكل منهما أتباع وأعوان ومحبيّن .

تنبيه

لما وصلت إلى هذا المقام أحببت أن انبه القارىء الى أنّ معرفة المقاتلين في سبيل الله والمقاتلين في سبيل الطاغوت يلزم أن يكون مستنداً الى النبي ﷺ .

فقد روي عن عقاب بن ثعلبة أنه قال: حدثني أبو أيوب الأنصاري في خلافة عمر بن الخطاب قال: أمر رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين [1].

وروي أيضاً عن الأصبغ بن نباتة عن أبي أيوب الأنصاري قال : سمعت النبي

---

(١) فضائل الخمسة : ج٢ ص٢٩٨ نقلا عن مستدرك الصحيحين ج٣ ص١٣٩ .

صلى الله عليه وآله يقول: لعلي بن أبي طالب: تقاتل الناكثين والقاسطين بالطرقات والنهروانات وبالسعفات. قال أبو أيوب: قلت: يا رسول الله مع من نقاتل هؤلاء الأقوام؟ قال: مع علي بن أبي طالب (١).

وروي عن علقمة والأسود قالا: أتينا أبا أيوب الأنصاري عند منصرفه من صفين فقلنا له: يا أبا أيوب إن الله أكرمك بنزول محمد صلى الله عليه وآله وبمجيء ناقته تفضلاً من الله وإكراماً لك حتى أناخت ببابك دون الناس، ثم جئت بسيفك على عاتقك تضرب أهل لا إله إلا الله! فقال: يا هذا إن الرائد لا يكذب أهله وإن رسول الله صلى الله عليه وآله أمرنا بقتال ثلاثة مع علي بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين، فأما الناكثون فقد قاتلناهم أهل الجمل طلحة والزبير، وأما القاسطون فهذا منصرفنا من عندهم يعني معاوية وعمراً. وأما المارقون فهم أهل الطرقات وأهل السعيفات وأهل النخيلات وأهل النهروانات، والله ما أدري أين هم ولكن لابد من قتالهم إن شاء الله.

قال: وسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لعمار: يا عمار تقتلك الفئة الباغية وأنت إذ ذاك مع الحق والحق معك، يا عمار بن ياسر إن رأيت علياً قد سلك وادياً وسلك الناس وادياً غيره فاسلك مع علي فإنه ان يدليك في ردى و لن يخرجك من هدى، يا عمار من تقلد سيفاً أعان به علياً على عدوه قلده الله يوم القيامة وشاحين من در، ومن تقلد سيفاً أعان به عدو علي عليه قلده الله يوم القيامة وشاحين من نار، قلنا يا هذا حسبك رحمك الله حسبك رحمك الله (٢).

وروي عن خليد العصري قال: سمعت أمير المؤمنين علياً عليه السلام يقول يوم النهروان: أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله بقتال الناكثين والمارقين والقاسطين (٣).

وأخرج ابن مردويه من طريق محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن

(١) فضائل الخمسة: ج٢ ص٣٩٨ نقلا عن مستدرك الصحيحين ج٣ ص١٣٩.
(٢) فضائل الخمسة: ج٢ ص٣٩٨ نقلا عن تاريخ بغداد: ج١٣ ص١٨٦.
(٣) فضائل الخمسة: ج٢ ص٣٩٨ نقلا عن تاريخ بغداد: ج٩ ص٣٤٠.

جابر بن عبدالله عن النبي ﷺ في قوله: «فإمّا نذهبنّ بك فإنا منهم منتقمون»[١] نزلت في علي بن أبي طالب أنه ينتقم من الناكثين والقاسطين بعدي[٢].

وقد تبيّن للقارئ وعلم علماً قطعياً أنّ قتال علي عليه السلام لهذه الفرق الثلاثة - الناكثين والقاسطين والمارقين - إنما هو بأمر من الله ومن رسوله، والقتال الذي يكون بأمر الله والرسول لابدّ أن يكون في سبيل الله، والمأمور لابدّ وأن يكون هو وأصحابه من المؤمنين كما هو صريح الآية: «الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله» ولابدّ من أن يكون الطرف الآخر المقابل للمؤمنين من الكافرين، وهم الذين أمر الله المؤمنين بقتالهم، ولا يخفى على القارئ الكريم أنّ الناكثين هم طلحة والزبير وأتباعهم، وأنّ القاسطين هم معاوية وعمرو بن العاص وأتباعهم، وأنّ المارقين هم الخوارج.

وبعد هذه الآية والأحاديث هل يمكنك أن تقول إنّ الناكثين والقاسطين قاتلوا في سبيل الله؟ وهل يمكن أن يكون الطرفان قاتلوا في سبيل الله؟! لا يمكن ذلك أبداً. وإذا أردت أن تسمع اعتراف معاوية بأنّ قتاله لم يكن في سبيل الله فاستمع لما يرويه عباس محمود العقاد في كتابه «معاوية بن أبي سفيان في الميزان».

عن الطبري مسنداً الى سعيد بن سويد أنه قال - يعني معاوية -: ماقاتلتكم لتصوموا ولا لتصلّوا ولا لتحجّوا ولا لتزكّوا وقد عرفت أنكم تفعلون ذلك ولكن إنما قاتلتكم لأتأمّر عليكم[٣].

وقد اتضح لك أنّ قتال معاوية ليس لله ولا في سبيله وإنما هو للدنيا، وفي سبيل الدنيا قاتل المؤمنين وسبّب قتل النفوس الكثيرة البريئة التي من قتل واحدة منها فكأنما قتل الناس جميعاً، فاحكم أنت على معاوية بما تفهمه من الآية «الذين

---

(١) الزخرف: ٤١.

(٢) الدر المنثور: ج٦ ص١٨.

(٣) معاوية بن أبي سفيان في الميزان: ص١١٦.

آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت » بعدما عرفت أنّ علي بن أبي طالب عليه السلام قاتل في سبيل الله بأمر من الله ومن رسوله. لاشكّ ولاشبهة في ذلك كما دلّت على ذلك الآية التي نحن في صددها، وتفسير الآية التي ذكرناها لك عن الدرّ المنثور وهي قوله :«فإمّا نذهبنّ بك فإنّا منهم منتقمون» ومع هذا كله نرى بعض الناس اذا كتب اسم معاوية يعقبه بقوله: رضي الله عنه .

ثم إنّ العقاد بعدما ذكر كلمة معاوية السابقة علّق عليها بقوله : وهي قولة لم يقلها أحد غيره من المطبوعين على الصولة والزعامة لأنهم لايحتاجون إليها ، ولكنه قالها لأنها جثمت على صدره لطول ماصبر على مجابهة هذا ومصانعة ذاك وتذكير المذكّرين إياه إنه لم يملكهم عنوة ولافتحاً بل ملكهم المشارطة والاتفاق فتنفس عن صدره بتلك الكلمة، ولم يحدث من غيره أنه شعر بالحاجة الى تنفيس كذلك التنفيس . لقد كان في الرجل مشابهة للجمل الصبور ولم تكن فيه مشابهة للأسد الهصور(١) انتهى كلام العقاد .

وأنا اخاطب المسلم وأقول له : هل عرفت معاوية بحقيقته بعدما عرفت معنى الآية ، وعرفت الذي يقاتل في سبيل الله والذي يقاتل في سبيل الطاغوت، وأنّ المؤمن هو المقاتل في سبيل الله والكافر هو المقاتل في سبيل الطاغوت، واعلم أنّ الذي يسمي معاوية أمير المؤمنين ويترحم عليه اذا ذكره ويطلب له من الله الرضا سوف يحشر تحت إمارته يوم القيامة ويكون معه هناك أينما كان، فإن كان راغباً في ذلك فإنّ الله لايمنعه عنه.

ثانياً : أنّ الله قد أمر عموم الناس بأن يقاتلوا الشخص الذي يقاتل في سبيل الطاغوت، فإنه بعدمابيّن أنّ المؤمن يقاتل في سبيل الله والكافر يقاتل في سبيل الطاغوت وجّه الأمر الى العموم فقال تعالى :« فقاتلوا أولياء الشيطان » فإنّ الذي

(١) معاوية بن أبي سفيان في الميزان : ص١١٦ .

يقاتل في سبيل الطاغوت هو من أولياء الشيطان بلاشك ولاريب ، وقد أمر الله عباده أن يقاتلوه .

وحيث إنّ العباد منهم المطيع ومنهم العاصي، فإنّ المطيع هو الذي يمتثل الأمر ويقاتل الكافر، وهذا الأمر لايختصّ بزمان نزول الآية وإنما يعمّ جميع الأزمنة فالواجب على المؤمن المطيع لله في كل زمان أن يقاتل الكافر الذي قاتل في سبيل الطاغوت، وكيفية قتاله أن يظهر كفره للناس ويعرفهم أنه قاتل في سبيل الطاغوت.

وقد انكشف لك أيها المسلم من الآية ومن الأحاديث ومن كلمات المؤرخين أنّ علي بن أبي طالب عليه السلام قاتل في سبيل الله ، وأنّ معاوية قاتل في سبيل الطاغوت كما اعترف هو بنفسه ، فيلزم على المسلم أن يوضح الأمر للناس ولايكتمه، وهذا هو الأمر الموجّه إليك من الله بقوله « فقاتلوا أولياء الشيطان » .

ثم إنّ الذين يقاتلون في سبيل الطاغوت في هذا العصر أكثر مما كانوا في العصور السابقة ، وأهل هذا العصر أكثر موالاةً للشيطان ممن كان قبلهم، فيكون وجوب قتالهم على المؤمنين المطيعين لأمر الله أشدّ وأقوى ، فلاينبغي السكوت عنهم والكفّ عن قتالهم ، وإن لم يمكن القتال بالسلاح فليكن باللسان والقلم ، فإنه لم يبق من الدين إلا اسمه ولامن القرآن إلا تلاوته في دور الاذاعة.

ويدلّ على هذا مانقله صاحب فضائل الخمسة عن كنز العمال، قال: عن أبي رافع: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وهو نائم أو يوحى إليه وإذا حية في جانب البيت فكرهت أن أقتلها واوقظه، فاضطجعت بينه وبين الحية فإذا كان شيء كان بي دونه، فاستيقظ وهو يتلو هذه الآية : « إنّما وليّكم الله ورسوله والّذين آمنوا الّذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » فقال : الحمد لله . فرآني الى جنبه فقال : ماأضجعك هنا ؟ قلت : لمكان هذه الحية . قال : قم إليها فاقتلها . ثم أخذ بيدي فقال : ياأبا رافع سيكون بعدي قوم يقاتلون علياً، حقاً على الله جهادهم، فمن لم

يستطع جهادهم بيده فبلسانه، فمن لم يستطع بلسانه فبقلبه ليس وراء ذلك شيء. قال: أخرجه الطبراني وابن مردويه وأبو نعيم[١] انتهى ما نقله عن الكنز، وهذا هو الدليل على ما قلناه.

ماقاله المراغي :

يقول صاحب الفضيلة الاستاذ الكبير المراغي في تفسيره لهذه الآية : إنّ المؤمنين إنما يقاتلون لأجل إعلاء كلمة الحق ، والكافرين إنما يقاتلون اتباعاً لوسوسة الشيطان وتزييناً الكفر ، فلو ترك المؤمنون القتال لغلب الطغيان وعمّ الفساد « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض »[٢].

ثم حثّ مرة اخرى على القتال وبيّن لهم ضعف عدوهم فقال : « فقاتلوا أولياء الشيطان إنّ كيد الشيطان كان ضعيفاً » أي فقاتلوا أيها المؤمنون ـ أولياء الرحمن ـ أولياء الشيطان الذين زيّن لهم الشيطان بوسوسته وخداعه أنّ في الظلم وإهلاك الحرث والنسل شرفاً لهم أيما شرف .

وقد جرت سنّة الله أنّ الحق يعلو والباطل يسفل، وأنّ الذي يبقى هو الأصلح والأمثل ، فالذين يقاتلون في سبيل الله يطلبون ماتقتضيه سنّة العمران، والذين يقاتلون في سبيل الشيطان يطلبون الانتقام والاستعلاء في الأرض بغير الحق وتسخير الناس لأغراضهم وشهواتهم[٣] وسنن العمران تأبى ذلك فلايكون لذلك قوة ولابقاء، إلا لنومة أهل الحق عن حقهم، فإذا هم أفاقوا من غفوتهم تغلّب الحق على الباطل ورده خاسئاً محسوراً ، إلا أنّ الذين يقاتلون في تأييد الحق تتوجه

---

(١) فضائل الخمسة : ج٢ ص٤٤٠ نقلا عن الكنز ولم نجده فيه بل وجدناه في الدر المنثور: ج٢ ص٢٩٤ مع اختلاف يسير.

(٢) البقرة : ٢٥١ .

(٣) كما قال معاوية : ماقاتلتكم لتصوموا ولا لتصلوا ولا لتحجوا ولا لتزكوا، وقد عرفت أنكم تفعلون ذلك ، ولكن انما قاتلتكم لاتأمر عليكم.

هممهم الى إتمام الاستعداد ويكونون أجدر بالثبات والصبر ، وفي ذلك من القوة ماليس في كثرة العدد والعُدد.

وهذا في الحروب الدينية التي قد تركها المسلمون منذ أزمان طويلة،ولو وجدت في الأرض حكومة إسلامية تقيم القرآن وتحوط الدين وأهله بما أوجبه من إعداد العدة للحرب لاتخذها أهل المدنية قدوة لهم وإماماً في أعمالهم[1] انتهى كلام المراغي .

فقد نبّه هذا العلاّمة الكبير عموم المسلمين الى أنّ معاوية وأمثاله إنما يقاتلون في سبيل الشيطان لأنهم يطلبون الانتقام والاستعلاء في الأرض بغير الحق وتسخير الناس لأغراضهم وشهواتهم ، كما نقل لك العقاد كلامه المتقدم .

ماقاله الفخر الرازي :

وقال الفخر الرازي في تفسيره للآية المباركة : واعلم أنه تعالى لما بيّن وجوب الجهاد بيّن أنه لاعبرة بصورة الجهاد بل العبرة بالقصد والداعي،فالمؤمنون يقاتلون لغرض نصرة دين الله وإعلاء كلمته، والكافرون يقاتلون في سبيل الطاغوت وهذه الآية كالدلالة على أنّ كل من كان غرضه في فعله رضا غير الله فهو في سبيل الطاغوت لأنه تعالى لمّا ذكر هذه القسمة ـ وهي أنّ القتال إمّا أن يكون في سبيل الله أو في سبيل الطاغوت ـ وجب أن يكون ماسوى الله طاغوتاً .

ثم إنه تعالى أمر المقاتلين في سبيل الله بأن يقاتلوا أولياء الشيطان، وبيّن أنّ كيد الشيطان كان ضعيفاً لأنّ الله ينصر أولياءه والشيطان ينصر أولياءه، ولا شك أنّ نصرة الشيطان لأوليائه أضعف من نصرة الله لأوليائه، ألا ترى أنّ أهل الخير والدين يبقى ذكرهم الجميل على وجه الدهر وإن كانوا حال حياتهم في غاية الفقر والذلّة ، وأمّا الملوك والجبابرة فإذا ماتوا انقرض أثرهم ولايبقى في الدنيا

---

(١) تفسير المراغي : ج٥ ص٩٢ .

رسمهم ولاظلمهم[1] انتهى محل الحاجة من كلام الرازي .

هلمّوا أيها الاخوان لننظر أنّ قتال معاوية وطلحة والزبير لعلي بن أبي طالب عليه السلام هل كان في سبيل الله ؟ وهل يمكن أن نقول إنّ الرسول صلى الله عليه وآله أمرهم بحربه بعدما ذكرنا من الروايات أنّ الرسول هو الذي أمر علياً بحربهم وقتالهم ؟ فلايمكن أن يأمرهم بقتاله، فلايكون قتالهم في سبيل الله وقد سمعت ما قاله الفخر الرازي من أنّ كل قتال لم يكن في سبيل الله وجب أن يكون طاغوتاً فلاتصرّ على ماأنت عليه ، فإنّ الأمر دائر بين الايمان والكفر ، فافهم واغتنم .

ماقاله سيد قطب :

قال في تفسيره بعد ماشرح قوله تعالى : « ومالكم لاتقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان » الخ : ثم لمسة نفسية اخرى لاتقلّ عن هذه الاولى، أنّ اقتناع المقاتل بأنه يقاتل للحق ولغاية نبيلة وبأنّ عدوه معتد أو يبتغي غاية خسيسة عامل قوي في رفع قواه المعنوية وفي إقدامه على التضحية باطمئنان ، فإذا اضيف الى هذا الاقتناع أنه ليس على الحق فقط إنما هو كذلك أقوى وسنده أكبر وذخيرته أوفر ، وأنّ عدوه موهون القوى منخوب القلب مستند الى هواه، فإنّ هذه الروح المعنوية ترتفع الى ذروتها بهذا الايحاء، فإذا كان هذا الايحاء قائماً على حقيقته في الواقع القريب وفي حساب الكون البعيد فإنّ النصر مقطوع به للمجاهدين المحقين الأقوياء .

وكذلك تعرض القرآن موقف الذين آمنوا وأعداءهم في هذا السياق ، « الّذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والّذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إنّ كيد الشيطان كان ضعيفاً » .

وفي لحظة ترتسم الأهداف وتتضح الخطوط في الميدان ويقف الّذين آمنوا تحت راية الحق المطلق « يقاتلون في سبيل الله » لاقرار شريعته وتحقيق عدله

(١) تفسير الرازي : ج١٠ ص١٨٣ .

الذي مرّ وصفه وأداء الأمانة التي بدأ بها السياق كله[1] ويقف الذين كفروا تحت راية الباطل المطلق « يقاتلون في سبيل الطاغوت » لتغليب الباطل على الحق والطغيان على العدل معرضين عن الأمانة التي ناطها الله بالانسان في الأرض . . . يقف المسلمون مستندين الى قوة الله وحمايته ورعايته ، ويقف الكافرون ووليهم الشيطان، فأين قوة الشيطان من قوة الله، وأين كيد الشيطان من تدبير الله « فقاتلوا أولياء الشيطان إنّ كيد الشيطان كان ضعيفاً » .

إنّ مصير المعركة معروف ونهايتها مكشوفة ، فما على المؤمن إلاأن يؤدي واجبه ، والنصر مضمون تشهد به جميع الملابسات والظروف[2] انتهى. فعلى المؤمن أن يعرف واجبه لكي يؤديه .

قوله تعالى : من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلنا عليهم حفيظاً (٨٠)

(١) يقصد بذلك آية ٥٨ التى تقدم شرحها فى ص٨ وهى قوله تعالى : « ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها » اذ أن أغلب المفسرين قالوا بأن الامر موجه الى اولى الامر الذين أودع الله الاحكام عندهم وأمر الناس باطاعتهم ، فان هؤلاء هم الذين يقاتلون فى سبيل الله وهم المؤمنون ، والذين يقابلونهم ويقاتلونهم هم أولياء الشيطان الذين يقاتلون فى سبيل الطاغوت وهم الكافرون ، وأن الله قد أمر عباده بقتال أولياء الشيطان. فكل من يرى فى نفسه القدرة والكفاءة على قتالهم بالسلاح أو باليدأو باللسان أو بالقلم يجب عليه امتثال أمر الله.

وقد اتضح من الاية : أن منهم معاوية وطلحة والزبير لان علياً كان قتاله لهم فى سبيل الله ، اذ كان بأمر رسول الله ، فلايمكن أن يكون قتالهم له فى سبيل الله أيضاً ، ولا ثالث للقسمين ، فيلزم أن يكون قتالهم فى سبيل الطاغوت وان يكونوا هم من أولياء الشيطان.

هذا ماأراه واجباً على أن أقوله فى تفسير الاية، وأما غيرى ممن يكتب فى تفسيرها فعليه أن يؤدى مايراه واجباً عليه ، والله سائلنا يوم القيامة عن علمنا وعن عملنا وعن نياتنا .

(٢) فى ظلال القرآن : ج٢ ص٧٠٩ .

هذه الآية الشريفة كبقية الآيات الكثيرة الموجودة في القرآن تبيّن لنا أنّ إطاعة الله إنما تتحقق وتحصل بإطاعة الرسول، وأنّ من لم يطع الرسول فهو غير مطيع لله وذلك لأنّ أوامر النبي ﷺ إنما هي من الله وبأمره، وهو الذي يأمر الرسول بأن يبيّن لامّته الواجبات والمحرمات، فهو ينطق عن إرادة الله ويعرفنا أوامره ونواهيه وليس له أمر أو نهي من نفسه، فيكون كل ما يأمر به أو ينهى عنه إنما هو أمر الله ونهيه، والرسول واسطة بين الله وبين عباده. فبعد ما تعتقد الامّة بصدقه وتعترف برسالته يجب عليها أن تطيعه في جميع الأوامر، فمن خالفه في ذلك فهو غير مصدق بنبوته، فالموحد لله الذي يعتقد بأنّ إطاعة الله هي التي توجب له النجاة والفوز بالجنان، وأنّ عصيانه يوجب له البعد عن الله والعذاب، فهذا العبد ينبغي له أن يطيع الرسول الذي قد ثبتت رسالته لأنه هو المبلّغ عن الله أما اذا اعتقد بالوحدانية وبوجوب إطاعة الله وامتثال أوامره واعتقد أيضاً بصدق الرسول وثبوت رسالته فأطاعه في بعض الأوامر وخالفه في بعضها فإنّ هذا الشخص عند التحليل والتحقيق هو غير مصدق بالنبي أو غير مؤمن بالله، هـذا في وجود النبي ﷺ.

وأما اذا أخبر النبي ﷺ امّته بأنه سيرتحل عنهم الى دار القرار وأمرهم بشيء إذا هم تمسكوا به سوف يبقون على ما هم عليه من الايمان، واذا انفكّوا عنه وتركوه وضيّعوه فسوف يضلّوا عما كانوا عليه من الايمان، فالمؤمن الحقيقي سوف يطيع النبي ﷺ فيما أمره به، وأما ضعيف الايمان أو المشكك أو الذي يرتدّ بعد الايمان فإنه سيترك وصية النبي ﷺ ولا يعمل بها، وهذا التقرير واضح مستفاد من الآية.

ومن الامور المحققة التي أوصى بها النبي ﷺ امّته باتفاق جميع أصحابه قوله ﷺ: إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، لن تضلّوا إن تمسكتم بهما فإنهما لايفترقان حتى يردا عليّ الحوض.

أيها المسلم إنك في صلاتك تسأل الله أن يهديك الى الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم وقد أرشدك الله الى ذلك في آية ٦٩ من سورة النساء التي تقدم شرحها في ص ٤٤، و كذلك تسأل الله أن يجنبك ويباعدك عن طريق المغضوب عليهم وعن طريق الضالين، وهذا النبي ﷺ الشفيق عليك الرؤوف بك يرشدك ويقول لك: اذا أنت تمسكت بهذين الأمرين ـ الكتاب والعترة ـ لن تكون من الضالين، فإذا كنت صادقاً في طلبك من الله أن يبعدك عنهم فتمسك بالأمرين ، وإن لم تتمسك بهما تبيّن عدم صدقك في طلبك وانكشف عدم إطاعتك للرسول، و بذلك يثبت عدم إطاعتك لله، فإنّ «من يطع الرسول فقد أطاع الله» .

هذه هي الحقيقة، فإن كنت تريدها فتمسك بها، وإلّا فإنّ امور الدين ليست كامور الدنيا ، فإنّ المرء المنطوي على الغش والخبث اذا أراد أن يتعامل مع شخص آخر في بيع أو شراء نراه يخادع و يتقلب في الكلام و يعترف ثم ينكر، وإنّ أغلب الناس يظن أنّ امور الدين كامور الدنيا فيقول بلسانه أنا مؤمن وهو يعمل عمل الكافر ، ويظهر التقى للناس و هو يعمل عمل الفاسقين ، و يعترف ظاهراً بالشهادتين وهو يخالف أوامر النبي في الاصول والفروع ، وإلا فإنّ النبي ﷺ أمرنا بشيء لو تمسكنا به لا يفوتنا حكم واحد من أحكام الدين ، أمرنا بالتمسك بالكتاب والعترة ، أما الكتاب فإن فيه علم ماكان و مايكون حتى أرش الخدش ، وأما العترة فهم الراسخون في العلم الذين أخبر الله عنهم أنّ عندهم علم الكتاب.

و بعد هذا لا يحتاج المسلم الى شيء أبداً، فلو أنّ امّة النبي امتثلت أمره وتمسكت بهذين الأمرين تمسكاً صحيحاً لما كانت تحتاج الى شيء، ولما وقع الخلاف بينها ، و لكن كما ذكرت لك قبل أسطر أنّ أغلب الناس يظنون أنّ امور الدين كامور الدنيا يكون فيها الخداع و المكر و الحيلة و الغش و أمثال ذلك .

أيها المسلم إنّ الذي يطيع الرسول في بعض الامور و يخالفه و يعصيه في

بعضها لا يسمى مطيعاً، وإنّ المطيع هو الذي يطيعه في جميع الامور كلية وجزئية في حياته وبعد وفاته،فيكون قوله تعالى «من يطع الرسول فقد أطاع الله» معناه أنّ من أطاع الرسول في جميع ماأمر به من الواجبات وجميع مانهى عنه من المحرمات فهو مطيع لله، ومن عصى الرسول وخالف أمره في شيء من الأشياء وفي حكم من الأحكام فهو مخالف لله.

أما اذا كان هذا الشيء الذي خالف به الرسول و عصاه يشمل جميع الاحكام يكون المخالف فيه مخالفاً في جميع الأحكام، فإن خالف المسلم رسوله في قوله ﷺ «أيها الناس إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي» ـ والتي تشمل جميع الأحكام ـ فقد خالف في الكل .

ما قاله الفخر الرازي:

وقال في تفسيره الكبير:

(المسألة الاولى) قوله تعالى : «من يطع الرسول فقد اطاع الله» من أقوى الدلائل على أنه معصوم في جميع الأوامر والنواهي وفي كل ما يبلغه عن الله لأنه اوأخطأ في شيء منها لم تكن طاعته طاعة الله، وأيضاً وجب أن يكون معصوماً في جميع أفعاله لأنه تعالى أمر بمتابعته في قوله «اتبعوه»[1] والمتابعة عبارة عن الاتيان بمثل فعل الغير لأجل أنه فعل ذلك الغير فكان الآتي بمثل ذلك الفعل مطيعاً لله في قوله «اتبعوه» فثبت أنّ الانقياد له في جميع أقواله وفي جميع أفعاله ـ إلا ما خصه الدليل ـ طاعةٌ لله وانقياداً لحكم الله .

(المسأله الثانية) قال الشافعي رضي الله عنه في كتاب الرسالة في باب فرض الطاعة للرسول: إنّ قوله تعالى «من يطع الرسول فقد أطاع الله» يدلّ على أنّ كل تكليف كلّف الله به عباده في باب الوضوء والصلاة والزكاة والصوم والحج وسائر

(١) اشارة الى قوله تعالى فى آية ١٥٨ من سورة الاعراف « فآمنوا بالله ورسوله النبى الامى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه » .

الأبواب في القرآن ولم يكن ذلك التكاليف مبيّناً في القرآن فحينئذٍ لا سبيل لنا الى القيام بتلك التكاليف إلا ببيان الرسول ، و اذا كان الأمر كذلك لزم القول بأنّ طاعة الرسول عين طاعةالله ، هذا معنى كلام الشافعي [1] انتهى كلام الرازي .

وقد اتضح من كلام الرازي و مما نقله من كلام الشافعي أنّ المقصود من الآية الشريفة كما هو صريح الآية بأنّ الانسان لا يتحقق إيمانه إلا أن يكون مطيعاً للرسول الذي بإطاعته تتحقق إطاعة الله ، و من لم يطع الرسول فهو ضال.

ومن يريد أن يتجنب الضلال و يتباعد عنه بأن يكون من المؤمنين يلزمه إطاعة الرسول في هذه الجملة الجامعة لمجمع الأحكام وهي قوله ﷺ : إني تارك فيكم الثقلين فإنكم لن تضلّوا ما إن تمسكتم بهما : كتاب الله و عترتي أهل بيتي [2] .

فإنّ الانسان المسلم في كل حكم من الأحكام ـ سواء كانت من الاصول أم من الفروع من أحكام الدين أو من أحكام الدنيا ـ يلزمه أن يأخذ الحكم الحقيقي الذي يرضى به الله والرسول من الكتاب ومن العترة وإن لم يأخذه من هذين المصدرين فهو ضالّ بصريح عبارة الرسول كما عرفك الرازي والشافعي، فتأمل في كلامهما.

وقبل النظر الى كلامهما تأمّل في كلمة الرسول ، وقبل ذلك تأمّل في الآية الشريفة «من يطع الرسول فقد أطاع الله» فإن كنت صادقاً في قولك عند صلاتك « إهدنا الصراط المستقيم*صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالّين » فامتثل أمر الله وامتثل أمر الرسول واعمل بما تكلّمت به ولا تكذب الله ورسوله ولا تكذب نفسك ، والسلام على من اتبع الهدى .

فهذه الآية الشريفة مركّبة من جملتين : الجملة الاولى تبيّن حقيقة المؤمن

---

(١) تفسير الرازي : ج١٠ ص١٩٣.

(٢) بحار الانوار: ج٢٣ ص١٠٤ ب٧.

تفصيلاً بيّناً على اختصارها وقلّة كلماتها بحيث لم يبق شيء من أحوال المؤمن ومن أفعاله وأقواله إلا بيّنته بأوضح بيـان ، ففي كل حـركة وسكون وتكلم وسكوت وقيام وقعود وأخـذ وعطاء ومدح أحد أو ذمه إن كان مطيعاً للرسول فهو مطيع لله وهومن المؤمنين ، وإن لم يكن مطيعاً للرسول فهوغيرمطيع لله .

وأمّا الجملة الثانية وهي قولـه تعالى : « **ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً** » . فإنّ فيها تهديد ووعيد شديد يعرفه الذي يحسن اللغة العربية .

ومعنى الجملة: إنّ الذي أبى وامتنع عن إطاعة الرسول ولم يمتثل أوامره ولم ينته عن نواهيه فيشمل: من كان كافراً ، أومشركاً ، ومن أظهر الايمان وأبطن الكفر وهـو المنافق ، أو آمن بلسانه ولم يؤمن قلبه ، أو آمن واتبع هـواه ولم يطبق أحكام الدين وهو الفاسق ، أو آمن بالنبي وعمل بأوامره أيام حياته ولكن بعد موته كان كما أخبر الله بقوله : « أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم»[١].

ومجمل القول إنه لم يطع الرسول بأيّ نوع وفي أيّ وقت وبأيّ أمر كان فإنّ جميع هذه الأنواع والأقسام يسمى متولياً ، فالله يخاطب نبيه ويقول له: «فما أرسلناك عليهم حفيظاً» أي أنّ الله لا يسألك عن عصيانهم وعن عدم إطاعة أمرك وهو عالم بهم وهو قادر على جزائهم ، فإنّ مرجعهم إليه وجزاءهم عليه .

فليحذر المسلم مخالفة الرسول وليكن مطيعاً له في جميع الامور، فإنّ المخالفة تتحقق في كل واحد من هذه الامور التي تقدم ذكرها، ويكفي في تحققها في مخالفة واحد منها ، والطاعة لاتتحقق إلا بطاعته في جميع الامور .

ولا يمكن أن تؤلف كلمة لقاعدة تعمّ جميع الامور الدينية أخصر من كلمة النبي ﷺ : إني تارك فيكم ماإن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً : كتاب الله وعترتي أهل بيتي[٢] فإنها على اختصارها تكفي المسلم والمؤمن للعمل بهافي كل

---

(١) آل عمران : ١٤٤.

(٢) بحار الانوار: ج٢٣ ص١٠٤ ب٧.

اموره الدنيوية والاخروية وتكفيه عذراً وحجة بين يدي الله يوم يوقف للحساب فلاينبغي لمن يحتاط لدينه أن يغفل عنها ويهملها ويتركها كأن لم يقلها النبي مع مافيها من الشدة والرهبة والوعيد حيث جعل النبي الضلال في تركها وعدم التمسك بها ، فهي أبلغ كلمة حفظت للنبي ﷺ ، وهي أخصر كلمة تبيّن لك حكمك في كل شيء ، كما أنها أوسع كلمة معنىً وأعمّ كلمة دلالةً لكل شيء.

لقد عرفت أنّ الذي يتولى عن طاعة الرسول على أنواع وأقسام، وقد أشار الله الى نوع منهم وهم المنافقون لأنهم أكثر ضرراً على المؤمنين من غيرهم فقال تعالى :

ويقولون طاعة فاذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذى تقول والله يكتب ما يبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا (٨١) .

لقد عرفت من الآية السابقة أنّ المؤمن بالله المصدق برسوله يلزمه أن يطيع الرسول في كل شيء ولايخالفه في شيء أبداً، فمن خالف في حكم واحد فقد أخلّ في صدق اسم المؤمن عليه إلا أن يتوب ويرجع أن تكون مخالفته عن غير عمد فيتدارك أمره .

وأمّا هذه الطائفة التي ذكرها الله في هذه الآية فإنهم غير مؤمنين ونيّاتهم سيئة خبيثة من أول الأمر ، وإنما يحضرون عند النبي إمّا لأجل المحافظة على نفوسهم وأموالهم وإمّا لأجل أن يطّلعوا على مايقوله النبي ومايأمر حتى يعملوا على خلافه .

إنّ أمر هؤلاء القوم لعجيب غريب، فإنا على مانرى بهم من المكر والحيلة والشيطنة والالتفات الى دقائق الامور نراهم من جهة اخرى لايفقهون ولايعقلون

فإنّ الوحي ينزل على النبي ويخبره عما انطوت عليه ضمائرهم وعما يبيتونه من السوء والخلاف، ومع ذلك لايصدقون ولايعتقدون بالحق ، فهم على أحوال مختلفة ولعلّ النبي كان يوعز إليهم بعض الأوقات ويخبرهم عما يضمرونه فيظهرون التوبة وهم باقون على ماهم عليه .

إنّ هؤلاء القوم الذين يخالف باطنهم ظاهرهم كانوا في زمن وجود النبي أقلّ ضرراً على المسلمين لأنّ الوحي كان ينزل على النبي ﷺ ويخبره بهم وكان يعرفهم بأسمائهم وأعيانهم ، فلايفسح لهم المجال في التصرف بالأقوال والأفعال ولكن ضررهم على المسلمين وعلى الدين في هذا الزمان كثير ولايمكن الاحتراز منه والتوقي عنه، فإنهم مختلطون مع المؤمنين ويجتمعون في مجالسهم وقد يؤخذ بآرائهم وأفكارهم، كل هذا حيث إنّ المسلمين لم يعملوا على طبق قانون القرآن والسنّة ، ولذا نراهم ينخدعون بالأعداء ، ولو أنهم تمسكوا بما أمرهم به النبي ﷺ من الكتاب والعترة وساروا في الطريق المستقيم لما وقعوا في هذه المهالك.

إنّ هذه الأحزاب الملحدة التي حدثت في هذا العصر كلها تبيت للمسلمين مايقضي عليهم ويشتت أمرهم ويفرق جمعهم، وقد بلغوا الكثير ممابيتوه والمسلمون في غفلة عن ذلك لاهون عنه إذ لايهمهم أمر الدين .

طريق الاحتراز عن كيد الاعداء بما أرشدنا الله اليه :

إنّ الله بيّن للنبي ﷺ بأنّ هناك طائفة بين المسلمين يظهرون الرضا والطاعة لأمر الدين والطاعة لما يقوله الله والرسول ولكن قلوبهم منطوية على خلاف ذلك . وليس المقصود من الخلاف هو عدم العمل وعدم الرضا بما يقوله الله والرسول فحسب بل أنهم يدبرون اموراً فيما بينهم سراً وتحت الخفاء وتحت ستار الظلمة في الأمكنة التي لايحضرها المسلمون . وبهذه الامور التي يبيتونها يقلبون نظام الاسلام ويرجعون ضعفاء المسلمين الى الالحاد والكفر والنفاق بل الى

التجرد من الدين والرجوع الى التحلل الجاهلي، وأن النبي ﷺ يعرف اولئك الأشخاص بأعيانهم ويعرف مايبيتون من امور هدامة فيتحرزمنها ويأمرالمسلمين بالتحرز منها .

ولما أراد أن يحفظ امته من كيد الأعداء بيّن لهم قاعدة قليلة الألفاظ كثيرة المعاني واسعة الأحكام شاملة لكل أمر يمكن أن يتدخل به العدو وأمرهم بالتمسك بها لتحفظهم مما يبيت لهم عدوهم من إيقاعهم في الضلال وردهم الى الجهل ، وهذه القاعدة هي قوله ﷺ : إني تارك فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا من بعدي أبداً ... الخ ،كما تقدم ذكرها مراراً عديدة .

وإنّ الله - لما يعلمه من الامّة من أنهم لا يطبّقون أمر النبي ﷺ في التمسك بهذه القاعدة - أرشدهم الى شيء آخر يتحرزون به عن كيد العدو فيما يبيته لهم بقوله تعالى : **«فأعرض عنهم وتوكل على الله»**. مضمون ما تفيده الآية هو: أنك أيها المسلم إذا أردت أن تكون مؤمناً حقيقياً مقبولاً عندالله وعند الرسول فينبغي لك أن تطيع الرسول فيما يأمرك به من التمسك بالكتاب وبمن يعرف تأويله وتفسيره وهم العترة ، فإنك إذا تمسكت بهما لاتقع في كيد الأعداء ولاتضل أبداً، لأن الطريق الذي يرشدك إليه الكتاب مع تأويل الراسخين وهم العترة هو طريق مستقيم ليس فيه ميل ولاعوج ، أمّا إذا كنت غيرعامل بأمر النبي وأردت أن لاتقع في كيدالأعداء لأن عندك شيئاً من الايمان ولاتريد أن تكون من الضالين فعليك بأمرين آخرين إن أنت تمسكت بهما نجوت من كيد عدوك:

الأول: قوله تعالى: « فأعرض عنهم » إن الاعراض عنهم يعني عدم عتابهم وعدم توبيخهم وعدم مؤاخذتهم وعدم الالتفات الى الأمر الذي دبروه وبيتوه ، وهذا الاعراض ينبىء عن عدم الالتفات إليهم وعدم عدهم من المؤمنين بل عدم عدهم من البشر الذين يعتد بهم ، وأنهم لاأهمية لهم في المجتمع ، وهذا مما يحقرهم في أنفسهم ويصغر قدرهم ، فإنهم قد اهتموا وفكّروا ودبروا واستتروا عن الناس

وتكتموا في الأمر وتشاوروا وقلبوا الامور ثم استقر رأيهم على هذا الأمر وتيقنوا أنهم سيقلبون به نظام الدين ويفرقون به جمع المسلمين، فإذا بالمسلمين غير ملتفتين إليه ولايعيرونه أيّ اهتمام، وهذا مما يحقرهم في نفوسهم ويجعلهم أذلاّء خاسئين.

الثاني : قوله تعالى : « وتوكّل على الله » والمراد من التوكّل هو أن يفوض أمره إليه وأن يثق به في جميع الامور ، فإنّ الله يكفيه شرّ عدوه وينتقم له من عدوه ، وقد عرّف التوكّل بتعاريف عديدة .

فمن المحقق الطوسي قال: المراد بالتوكّل أن يكل العبد جميع مايصدر عنه ويرد عليه الى الله تعالى لعلمه بأنه أقوى وأقدر ، ويضع ماقدر عليه على وجه أحسن وأكمل ، ثم يرضى بما فعل ، وهو مع ذلك يسعى ويجتهد فيما وكّله إليه ويعدّ نفسه وقدرته وعمله وإرادته من الأسباب والشروط المخصصة لتعلّق قدرته تعالى وإرادته بما صنعه بالنسبة إليه[1] انتهى .

وقال المحقق المجلسي: ثم إنّ التوكّل ليس معناه السعي في الامور الضرورية وعدم الحذر عن الامور المحذورة بالكلية بل لابدّ من التوسل بالوسائل والأسباب على ماورد في الشريعة من غير حرص ومبالغة فيه ، ومع ذلك لايعتمد على سعيه ومايحصله من الأسباب بل يعتمد على مسبب الأسباب[2] .

وروي في حديث عن النبي ﷺ أنه قال لجبرائيل: وما التوكّل على الله عزّ وجلّ ؟ فقال: العلم بأنّ المخلوق لايضرّ ولاينفع ولايعطي ولايمنع واستعمال اليأس من الخلق ، فإذا كان العبد كذلك لم يعمل لأحد سوى الله ولم يرج ولم يخف سوى الله ولم يطمع في أحد سوى الله ، فهذا هو التوكّل[3].

وروي عن الحسن بن الجهم قال : سألت الرضا عليه السلام فقلت له : جعلت فداك ماحدّ التوكّل ؟ فقال لي : أن لاتخف مع الله أحداً ، قال: قلت : فماحدّ التواضع

---

(١) نقله صاحب البحار : ج٧١ ص١٢٧ ب٦٣ .

(٢) بحار الانوار : ج٧١ ص١٢٧ ب٦٣.

(٣) بحار الانوار : ج٧١ ص١٣٨ ب٦٣ ح٢٣ .

قال : أن تعطي الناس من نفسك ماتحبّ أن يعطوك مثله ، قال : قلت : جعلت فداك أشتهي أن أعلم كيف أنا عندك؟ فقال : انظر كيف أنا عندك[١] .

ثم لايخفى عليك أنّ هذين الأمرين الذين بيّنهما الله لنا لكي نتحرز بهما عن كيد الأعداء لايكفي أحدهما عن الآخر بل لابدّ من الجمع بينهما مضافاً الى الرجوع الى إطاعة الله بإطاعة الرسول وذلك بأن يكون الانسان مؤمناً حقيقياً جامعاً لشروط الايمان التي يجمعها شيء واحد وهو إطاعة الرسول .

فالانسان اذا بقي مدة من الزمن غير مطيع للرسول على ما يريد الله منه من كيفية الاطاعة ثم التفت الى نفسه ورأى أعداءه قد تغلّبوا عليه أو أوشكوا على التغلّب عليه وأراد أن ينجيه الله منهم عليه أن يعرض عنهم ويتوكّل على الله ويعمل بأوامره بأن يطيع الرسول إطاعة تكون عين إطاعة الله ، فحينئذٍ ينجيه الله من كيد الأعداء ويخلصه منهم ، فإنه يقول بعد ذكر الأمرين : «**وكفى بالله وكيلا**» أي أنّ الله يكفي من توكّل عليه ولايسلّط عليه عدوه .

فقد روي عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال : أوحى الله تعالى الى داود : ما اعتصم بي عبد من عبادي دون أحد من خلقي عرفت ذلك من نيته ثم تكيده السماوات والأرض ومن فيهنّ إلا جعلت له المخرج من بينهن[٢] .

وعن عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله عليه السلام قال: أيما عبد أقبل قبل مايحبّ الله عزّ وجلّ أقبل الله قبل مايحبّ ، ومن اعتصم بالله عصمه الله ، ومن أقبل الله قبله وعصمه لم يبال لو سقطت السماء على الأرض أو كانت نازلة نزلت على أهل الأرض فشملتهم بلية كان في حزب الله بالتقوى من كل بلية ، أليس الله تعالى يقول : «إن المتّقين في مقام أمين»[٣] .

---

(١) بحار الانوار : ج٧١ ص١٣٤ ب٦٣ ح١١ .

(٢) بحار الانوار : ج٧١ ص١٤٤ ب٦٣ ذيل ح٤٢ .

(٣) تفسير البرهان : ج٤ ص١٦٤ ، والاية ٥١ من سورة الدخان .

وعن بيان التنزيل لابن شهرآشوب قال: أمر نمرود بجمع الحطب في سواد الكوفة عند نهر كوثـا من قرية قطنانا، وأوقد النار، فعجزوا عن رمي إبراهيم عليه السلام فعمل لهم إبليس لعنه الله المنجنيق فرمي به فتلقاه جبرئيل في الهواء فقال: هل لك من حاجة؟ فقال: أمّا إليك فلا، حسبي الله ونعم الوكيل، فاستقبله ميكائيل فقال: إن أردت أن أخمد النار فإنّ خزائن الأمطار والمياه بيدي، فقال: لا اريد، وأتاه ملك الريح فقال: لو شئت طيّرت النار، فقال: لا اريد، فقال جبرئيل: فاسأل الله، فقال: حسبي من سؤالي علمه بحالي[1].

وعن كنز الكراجكي قال لقمان لابنه: يابني ثق بالله عزّ وجلّ ثم سل في الناس هل من أحد وثق بالله فلم ينجه، يابنيّ توكّل على الله ثم سل في الناس من ذا الذي توكّل على الله فلم يكفه، يابنيّ أحسن الظن بالله ثم سل في الناس من ذا الذي أحسن الظن بالله فلم يكن عند حسن ظنه[2].

وعن إرشاد القلوب روي عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: إنّ النبي صلى الله عليه وآله سأل ربه سبحانه ليلة المعراج فقال: يارب أيّ الأعمال أفضل؟ فقال الله عزّ وجلّ: ليس شيء عندي أفضل من التوكّل عليّ والرضا بما قسمت[3].

إنّ هذا التوكّل الذي عرف بهذه التعاريف لايتحقق إلا من مؤمن عارف قويّ الايمان مطيع لله ولرسوله، فلابدّ وأن يكون هذا ملتفتاً الى ماحلّ به أو الى مايبيتونه لـه أعداء الدين من المكر به وسلب دينه وجره الى الالحاد والتحلّل، وهو لايريد أن يخرج من الدين، وحينئذٍ لايجد ملجأً إلا الى الرجوع الى الدين فيتوكّل على الله ويطيع الرسول ويعمل بما يأمره بـه من أوامر الله ونواهيه، وليس لمن يريد ذلك إلا التمسك بماأمره النبي به وهو الكتاب والعترة

(١) بحار الانوار: ج٧١ ص١٥٥ ب٦٣ ح٧٠ نقلا عن بيان التنزيل.
(٢) بحار الانوار: ج٧١ ص١٥٦ ب٦٣ ح٧٣ نقلا عن كنز الكراجكي.
(٣) ارشاد القلوب: ص١٩٩.

فإنّ الكتاب فيه الدين الخالص ، وفيه حكم كل شيء ، والعترة هي التي تعرف معناه وتأويله ، وهم الراسخون في العلم الذين تقدم ذكرهم في تفسير الآية ، فإذا حسنت النية وصحت السريرة وتوكّل على الله يكفيه الله كل شيء كما قال تعالى: « إنّ المتقين في مقام أمين » .

إنّ هذا الحكم الذي ذكر في آية (٨٠ و ٨١) يخصّ كل إنسان بذاته ولا يرتبط بغيره من أب أو امّ أو أخ أو رئيس أو قرابة وإنما تهمّه نفسه الخاصة ، فعليه أن ينظر لما يجب عليه أولاً وبالذات وهي طاعة الرسول حتى يكون بطاعته قد أطاع الله ، وإياه أن يتولى عن ذلك ، ولعلّ إتيان صيغة المفرد في الآيتين يدلّ ذلك ويشير إليه قوله تعالى:

أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً (٨٢) .

هذا إنكار على كل من لم يطع الرسول ولم يمتثل أوامره ونواهيه مهما كان السبب في ذلك، إما لعدم التصديق به، أو لضعف إيمانه ، أو لكونه منافقاً ، أو لاشتباه الأمر عليه من جهة عدم التفكير والتروي في الأوامر حتى وقع في الجهل والخلط ، أو لاتباعه لغيره كتقليد الأعمى، وعلى كل حال فهو غير معذور، وذلك لعدم التدبر، فالله تعالى ينبّه عباده رحمةً لهم ورأفةً بهم ويقول لهم إنّ كل فرد منكم له عقل يميّز به الحسن من القبيح ، وقد جاءكم الرسول بقرآن من عند الله ، وأنّ العقل يحكم عليكم بالتدبر في هذا القرآن والنظر في أحكامه، فإنه إن كان من عند الله لايوجد فيه اختلاف في الأحكام والاخبار ، وإذا كان من عند غير الله يوجد فيه اختلاف كثير ، فعليكم بالتدبر قبل أن تقعوا في مخالفة الرسول ، لأنكم إذا خالفتموه وكان القرآن من الله يصبكم العذاب بسبب مخالفتكم إياه، فإن

تدبرتم آياته عرفتم أنه الحق من ربكم وأنّ ماوعد به المتقين الصادقين وما أنذر به الكافرين والمنافقين واقع لامحالة .

ولايخفى على العاقل أنّ هذه الآية حجة بالغة على جميع البشر مهما كان دينهم وعقيدتهم وبأي زمان أو مكان كانوا ومهما كانت لغتهم ، فإنّ العقلاء من أهل هذا العصر قد توصلوا الى اختراعات عظيمة ، كل ذلك بأفكارهم وعقولهم ، وقد اقتبسوا من الآيات القرآنية علوماً جمة واعترفوا أنّ البشر عاجز عن إدراك مثلها ، ومع ذلك لايعيرون أهمية لما يدعو إليه هذا القرآن من التوحيد ونبوة من انزل عليه، فهم يقتبسون منه ماينفعهم لدنياهم ويتركون مايدعو الى اخراهم.

أمّا العرب من البشر ومن يعرف لغة القرآن فالحجة عليهم أكبر والعقاب على ترك القرآن أعظم. فإنّ جميع البلغاء والفصحاء والخطباء والمفوهين من يوم نزوله الى هذا اليوم ماقدروا أن يأتوا بآية واحدة مثله وماقدروا أن يأخذوا عليه خطأً واحداً من اختلاف في قول أو فعل أوغيرذلك ممايؤخذ على كل أحد فيما يلقيه من الكلام، فاللائمة على العرب أعظم وأكثر.

وأمّا مــن أظهر الايمان به والتصديق بمن انـزل عليه ثم خالفه في العمل فاستحلّ ماحرمه القرآن وحرم ماأباحه فإنّ العذاب عليه عظيم والوزر في مخالفته كبير، فإنّ هذه الامم المسلمة لو كان عملها على طبق القرآن لسادت الامم وملكت العالم ولأسلمت امم كثيرة بسبب أعمالها الصحيحة المطابقة للقرآن .

يقول الاستاذ الكبير الشيخ مصطفى المراغي في تفسيره : ولو وجدت في الأرض حكومة اسلامية تقيم القرآن وتحوط الدين وأهله بما أوجبه مــن إعداد العدة للحرب لاتخذها أهل المدنية قدوةً لهم وإماماً في أعمالهم[1] انتهى .

ماقاله الفخر الرازي :

وقال في تفسيره الكبير :

---

(١) تفسير المراغي : ج٥ ص٩٣ .

(المسألة الثانية) اعلم أنّ ظاهر الآية يدلّ على أنه تعالى احتجّ بالقرآن على صحة نبوة محمد ﷺ إذ اولم تحمل الآية على ذلك لم يبق لها تعلّق بما قبلها البتة ، والعلماء قالوا: دلالة القرآن على صدق محمد ﷺ من ثلاثة أوجه،أحدها: فصاحته، وثانيها: اشتماله على الاخبار عن الغيوب، والثالث : سلامته عن الاختلاف وهذا هو المذكور في هذه الآية . ثم القائلون بهذا القول ذكروا في تفسير سلامته عن الاختلاف ثلاثة أوجه :

الأول : قال أبو بكر الأصم : معناه أنّ هؤلاء المنافقين كانوا يتواطأون في السرّ على أنواع كثيرة من المكر والكيد والله تعالى كان يطلع الرسول عليه الصلاة والسلام على تلك الأحوال حالاً فحالاً ويخبره عنها على سبيل التفصيل، وماكانوا يجدون في كل ذلك إلا الصدق ، فقيل لهم: إنّ ذلك لولم يحصل بإخبار الله تعالى لما اطرد الصدق فيه ، ولظهر في قول محمد أنواع الاختلاف والتفاوت، فلمالم يظهر ذلك علمنا أنّ ذلك ليس إلا بإعلام الله تعالى .

والثاني: وهو الذي ذهب إليه أكثر المتكلمين أنّ المراد منه أنّ القرآن كتاب كبير وهو مشتمل على أنواع كثيرة من العلوم، فلو كان ذلك من عند غير الله لوقع فيه أنواع من الكلمات المتناقضة لأنّ الكتاب الكبير الطويل لا ينفك عن ذلك ، ولما لم يوجد فيه ذلك علمنا أنه ليس من عند غير الله .

(ثم قال :) الوجه الثالث في تفسير قولنا : القرآن سليم عن الاختلاف مـا ذكره أبو مسلم الاصفهاني وهو : أنّ المراد منه الاختلاف في رتبة الفصاحة حتى لايكون في جملته مـا يعدّ في الكلام الركيك بل بقيت الفصاحة فيه من أوله الى آخره على نهج واحد ، ومن المعلوم أنّ الانسان وإن كان في غاية البلاغة ونهاية الفصاحة فإذا كتب كتاباً طويلاً مشتملاً على المعاني الكثيرة فلابدّ وأن يظهر التفاوت في كلامه بحيث يكون بعضه قوياً متيناً وبعضه سخيفاً نازلاً ، ولمالم يكن القرآن كذلك علمنا أنه المعجز من عند الله تعالى ، وضرب القاضي لهذا مثلاً فقال: إنّ

الواحد منا لا يمكنه أن يكتب الطوامير الطويلة بحيث لا يقع في شيء من تلك الحروف خلل ونقصان، حتى لو رأينا الطوامير الطويلة مصونة عن مثل هذا الخلل والنقصان لكان ذلك معدوداً في الاعجاز، فكذا هاهنا [١] انتهى.

وبعدما اتضح لك أيها المسلم المقصود من الآية فإنك قد تقرأها وقد تسمعها ولا تلتفت الى معناها، فإذا عرفت معناه الآن فإن كنت معترفاً بالقرآن وأنه من عند الله ومصدقاً بنبوة محمد ﷺ فينبغي لك أن تطيعه في جميع ما أمرك من الامور ولا تخالفه في شيء منها، وتدبر القانون الذي وضعه لك ليكون عملك على طبقه من بعد موته ﷺ وهو التمسك بالكتاب والعترة، وإن لم تطعه في جميع أوامره فأنت غير متدبر للقرآن.

ثم انظر الى هذه الأحزاب الالحادية التي وجدت في هذا العصر، فإنهم يخرجون من الدين زرافات ووحداناً فهم مصداق قوله تعالى: «والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات»[٢] فاحذر مكرها ودسها وحيلها فإنهم شياطين الانس وهم ينافقون ويريدون الخديعة بالمسلمين، «فأعرض عنهم وتوكّل على الله».

فهذه الآية الشريفة وإن كانت موجهة الى من يظهرون الطاعة ويبيتون خلافها وهم المنافقون إلا أنّ الحكم عام لكل من لم يطع الرسول ويخالفه في أوامره ونواهيه، فإنّ الآية جعلت السبب في مخالفة الرسول بالنسبة الى المنافقين هو عدم التدبر في القرآن، وهذا السبب موجود في كل مخالف للرسول من أي نوع كان، وإلا فالمؤمن هو الذي يطيع الرسول في كل شيء.

ثم الآية التي بعدها جاءت في بعض صفات المنافقين وذمّهم على هذه الصفة وذلك في قوله تعالى:

---

(١) تفسير الرازي: ج١٠ ص١٩٦ ـ ١٩٧.
(٢) البقرة . ٢٦٠.

وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه الى الرسول والى اولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان الا قليلا(٨٣).

هذه الآية تبيّن الحكم في نقل الخبر يسمعه الرجل المؤمن فهل يجوز له نشره وإذاعته قبل التأكد منه وإثباته أو لايجوز له ذلك؟

وقبل بيان معنى الآية ينبغي العلم بأنّ هذا الأمر وهو نشر الخبر يختلف بحسب الأحوال والأزمان وذلك لأنّ المسلمين إمّا أن يكونوا في حالة حرب مع الكافرين أو في حالة سلم ، ثم إمّا أن يكون أعداؤهم بمحضر منهم بحيث تبلغهم جميع أخبارهم أو لم يكونوا كذلك ، وعلى جميع الحالات فالخبر إمّا أن يكون خبراً ساراً أوخبراً محزناً ، فإن كان ساراً للمؤمنين يكون محزناً للكافرين طبعاً وإن كان العكس فبالعكس .

وعلى كل حال لاينبغي للمؤمنين نشر الخبر وإذاعته قبل التثبت والتأكد وحصول مضمونه لأنه إن كان محزناً للمؤمنين يكون سبباً لفرح الكافرين ولسرورهم وللشماتة بالمؤمنين والاستظهار عليهم ، وإن كان الخبر ساراً للمؤمنين دالاً على ضعف الكافرين أخذ الكافرون حينئذٍ في التأهب والاستعداد والزيادة في العدة والعدد وتفويت الفرص على المسلمين وإبطال ذلك النصر الموجب للفرح والسرور.

ولايخفى أنّ الأعداء في ذلك العصر كانوا اليهود من كل طائفة فرقة واحدة والذين ينقلون الأخبار للفرقتين هم المنافقون ذمّهم الله بهذه الآية . أمّا أعداؤنا في هذا العصر فأشدهم وألدهم اليهود الذين ليس لهم دين ولامبدأ ولاضمير ولا وجدان إلا المادة ، فإنهم لايعرفون غيرها ، وأمّا النصارى فهم فرق كثيرة كل دولة تريد أن تربحنا وحدها ، وأمّا الأحزاب الالحادية فإنها مع بقية الدول تريد الفتك

بالمبادىء الاسلامية ومحو آثارها.

فنحن في هذا الزمان أشدّ خطراً مـن ذلك الزمان لكثرة الأعداء، وأنّ الله عزّ وجلّ قـد أرشدنا حتى بالنسبة الى نقل الخبر وإذاعته باللسان فضلاً عن الاذاعة وقد أمرنا أن نرجع في إذاعة الخبر الى الرسول والى اولي الأمر.

انظر أيها المسلم إنّ الله لم يرخص لنا إذاعة الخبر إلا بالرجوع الى الرسول والى اولي الأمر، فكيف الحال بالنسبة الى غيره مما يتعلّق بالنفوس والأموال والفروج !! وقد كثرت الكذبة على النبي ﷺ في زمانه وبعد رحلته فأسندوا إليه أحاديث كثيرة كاذبة، وهذا كله لا يكون من فعل المؤمن وإنما يرتكبه المنافق.

فينبغي للمؤمن أن يفحص عن الخبر ويعرف راويه حتى يتحقق عن صدقه وكذبه، ولا يـروي كل خبر يسمعه أو يصدّق كل خبر يقرأه في كتاب فـإنّ الكتاب قد يكون فيه الغثّ والسمين، فكان اللازم على المسلمين في زمان الرسول ﷺ أن يرجعوا إليه ويتعرفوا صحة الخبر أو عدم صحته.

أمّا في زماننا فإذا أردنا نشر خبر وإذاعته فعلينا أن نلحظ مصلحة عامة المسلمين وأن لا يكون في نشره ضرر على جماعة من المسلمين في أي قطر وفي أي بلد كانوا، هذا واجب المسلم بالنسبة الى بقية المسلمين، ولكن أعداء الاسلام قـد ألحقوا الفتنة بين المسلمين وأ.قعوا العداوة بينهم فصار بعضهم يسعى بإضرار بعض وبعضهم يتهم بعضاً هذا بالنسبة الى الأخبار التي تتعلّق بالدنيا.

وأمّا الأخبار التي تتعلق بالدين فينبغي لنا أن نرجع فيها الى سنّة النبي ﷺ ولا نعتمد على الرواة المتهمين بالكذب والوضع، بل سنّة النبي المقطوع بها إمّا لموافقتها لكتاب الله أو لكونها متواتـرة بين أصحابه، فإذا كانت موافقة للكتاب فلا ريب في صحتها كما روي عنه ﷺ أنه خطب بمنى فقال: أيها الناس ماجاءكم عني يوافق كتاب الله فأنا قلته وماجاءكم يخالف القرآن فلم أقله[1].

---

(١) اصول الكافي : ج١ ص٦٩ ح٥ .

وأمّا السنّة المتواترة فمثل حديث الثقلين فإنّ كل من كتب عن النبي ﷺ روى حديث الثقلين ، فمن عمل بـه كان معذوراً لأنّ أحد قسميه وهو التمسك بالقرآن والقسم الآخر هو المفسر والمؤول للقرآن وهم العترة، فإنهم قد تكررت منهم الأحاديث بقولهم: من جاءكم بحديث منا فاعرضوه على القرآن، فإن وافقه القرآن فخذوا به وإن خالفه القرآن فردوه الى الذي جاء به[1] فيكون المرجع الأعلى هو القرآن، وإنما قرن العترة به لأنهم هم العارفون بتفسيره وتأويله ولا يعرفه أحد غيرهم .

فالقرآن وحده لا تنتفع به الامّة من غير تفسير العترة وبيان معانيه وغوامضه ومتشابهاته ، والعترة بنفسها لا تفارق القرآن ولا تعمل إلا به ، ولهذا نرى النبي ﷺ جعل الهدى وعدم الضلال مقروناً بالتمسك بهما، وعلى هذا يكون الانغماس في الضلال بمفارقتهما حتى في إذاعة الخبر، فليتق المسلم ربه وليعمل بأمر نبيه.

أمّا المقصود من «اولى الامر» الذين قرن الله الرجوع إليهم بالرجوع الى الرسول لاستنباط الخبر الصحيح من الباطل فالظاهر أنهم هم الذين أمر الله بطاعتهم في قوله :« أطيعوا الله وأطيعوا الرسول واولي الأمر منكم »[2] وهم الذين يعرفون تأويل القرآن الذين وصفهم الله بقوله :« الراسخون في العلم »[3] فإنّ استخراج الخبر الصادق وتمييزه عن الكاذب لا يمكن لكل أحد إلا أن يكون عنده القرآن الذي فيه علم ما كان وما يكون، فكل أحد إذا سمع خبراً من الأخبار لا يمكنه معرفة صدقه أو كذبه ، فلا مجال للقول بأنّ « اولي الأمر » هم امراء السرايا ، وما المناسبة بين امراء السرايا وتمييز الخبر صادقه عن كاذبه! فإنّ أمير السرية لا يراد منه إلا إرادة أمر السرية في كيفية الحرب .

---

(١) اصول الكافي : ج١ ص٦٩ ح٢ مع اختلاف في الالفاظ .
(٢) النساء : ٥٩ .
(٣) آل عمران : ٧ .

وقد يستفاد هذا المعنى من التعبير عن معرفة الصدق والكذب بقوله تعالى: «لعلمه الذين يستنبطونه» فإنّ الاستنباط هو كيفية تحصيل الحكم بصورة علمية بحيث يكون المحصل للحكم مستحضراً لجميع القواعد العلمية التي تطبق عليها القضايا الجزئية، فإذا عرضت له قضية في شيء يلحقها بقانونها الكلي بلا توقف لأنّ القضايا كلها نصب عينيه لا يفوته شيء منها ولا يغفل عنها، ومثل هذا الرجل يصحّ أن يعبّر عنه وليّ الأمر بقول مطلق بلا وصف له بصفة خاصة، أمّا أمير السرية وآمر الحامية فليس له معرفة بصدق الخبر وكذبه.

وقد يدلّ على هذا الأمر الجملة التالية من الآية وهي قوله: « **ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان الا قليلا** » أي لولم يتفضّل الله عليكم بإرسال الرسل وإنزال الكتب وتعيين اولي الأمر الذين عرفهم الحلال والحرام وألهمهم علوم القرآن وجعل لهم ملكة وقدرة على استنباط الخبر الصادق والكاذب وإعلامكم عن جميع ذلك فإنّ الله قد رحمكم بهؤلاء الرجال العلماء وإلا لاتبعتم الشيطان وذلك بإذاعة الأخبار الكاذبة فيكم المرغبة من جهة والمخوفة من جهة، الموجبة لخروجكم عن الدين والالتحاق بهم في نبذ العقيدة وإنكار الضروريات.

هذا كله بالنسبة الى ذلك الزمان الذي كان نقل الخبر وإذاعته من واحد لآخر أو لجماعة. أمّا في هذا العصر الذي صار نقل الخبر بواسطة اللاسلكي، فلولا فضل الله ورحمته ووجود القرآن والسنّة والعلماء لخرج الناس عن دينهم.

وقد ورد في الأخبار عن أئمة أهل البيت عليهم السلام: أنّ المقصود من الفضل في الآية هو الرسول، والمقصود من الرحمة هم الأئمة وهم المعبّر عنهم باولي الأمر[1].

فالله سبحانه وتعالى من فضله ورحمته بالعباد قد أوكل الامور العامة الى

---

(١) راجع تفسير البرهان: ج١ ص٣٩٨.

الرسول والأئمة الذين هم منصوبون من قبل الرسول ، وقد ألهمهم معرفة هذه الامور بحيث لايخطأون فيها وإنما يعرفون حقائقها الدقيقة، وأنّ الشخص الذي ليس من هؤلاء الرجال الذين يعيّنهم لله والرسول ليس له حق التصرف في الامور العامة وإن كان عاقلاً كاملاً غنياً تقياً عابداً جامعاً للصفات الحسنة لأنّ هذا المنصب إنما هو بتعيين الله والرسول .

ومن جملة الامور العامة التي لايسوغ لكل أحد التدخل بها هو إذاعة الخبر الذي يعمّ الناس كلهم صدقه وكذبه ونفعه وضره، فلاينبغي أن يجعل مدير الاذاعة إلا من يعتمد على معرفته وكمال عقله وتمييزه النافع من الضار ونصحه لأبناء شعبه حتى لايرخص في إذاعة شيء خلاف الواقع يعمّ الناس كلهم . ولا فرق بين كونه نافعاً أو ضاراً إلا أن يتأكد من صحته بأخذه من منبعه الخاص .

وكذلك نشر الخبر في الصحف العامة لاينبغي لأربابها إلا بعد التثبت والتأكد ومعرفة صحته وإلا فإن الذمّ يشملهم في قوله : «**واذا جاءهم أمر من الامن أو الخوف أذاعوا به**» .

وبعد ماتبيّن لنا وتحقق عندنا من الآيات المتقدمة أنّ المؤمن الحقيقي هو المطيع للرسول في كل أوامره أقوالاً كانت أو أفعالاً، وبإطاعة الرسول يكون مطيعاً لله .

وأما الأعداء الغير المتظاهرين فهم المنافقون الذين يظهرون الطاعة ويبيتون خلافها ، والذين يذيعون الأخبار الموجبة لتشويش المسلمين قبل أوان نشرها من غير رجوع الى الرسول والى اولي الأمر .

وعلى هذا يكون أعداء الاسلام والمسلمين كثرة هائلة أضعاف المسلمين ، وكل هؤلاء الأعداء يريدون الفتك بالمسلمين ومحو الدين الاسلامي وإعادة المسلمين الى الكفر لأنّ الدين الاسلامي يصدهم عن اللهو واللعب ويحرمهم من اللذات الدنيوية ، ولايمكن قهر هؤلاء الأعداء والانتصار عليهم إلّا بقتالهم لأجل نصرة

الدين بحيث يكون القتال في سبيل الله و امتثالاً لأمر الله خالصاً من كل شائبة دنيوية .

والقتال في زمن وجود الرسول يكون هو المكلف به، وقد خاطبه الله بقوله:

فقاتل فى سبيل الله لاتكلف الا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلا (٨٤) .

فإنّ هؤلاء الأعداء لايكفّون عن نياتهم الباطلة وإرادتهم السيئة وقصدهم الخبيث إلا إذا رأوا المؤمنين قد تهيأوا أو استعدوا لقتالهم ، فالله قد أمر النبي ﷺ بقتالهم وإن كان وحده ليس معه من امّته أحد ولم يكن له جنود يقاتلون معه ، وأمره أن يحرض المؤمنين ويحثّهم على القتال ، فإذا اتفقوا واتحدوا على على قتال أعدائهم وكانت نيّاتهم صادقة بهذا القتال بحيث يكون في سبيل الله ، وكانوا راجين من الله أن يكفيهم بأس عدوهم فالله يكفيهم بأس العدو لأنه يحقق رجاءهم إذا كان عن نية صادقة .

ثم ذكر جملة فيها تهديد شديد للكافرين وللمنافقين وهي قوله تعالى : « **والله أشد بأساً وأشد تنكيلا** » أي أنكم أيها المؤمنون إذا قاتلتم الكافرين وحاربتموهم فمهما كان لهم من بأس وقوة فإنّ الله أشدّ بأساً منهم ومن غيرهم وكذا أشدّ تنكيلاً، فلايظن المنافقون الذين يخالفون أحكام المسلمين ويخبرون الكافرين بما يكون عندهم من الامور أنهم تمكنوا من الفتك بالاسلام ، فإنّ الله إذا سلّط قوته وبأسه على الكافرين وبقي المنافقون على ماهم عليه من النفاق سوف ينكل بهم الله ويفعل بهم كما فعل بالكافرين .

ثم لما أمر الله تعالى النبي ﷺ أن يقاتل الكافرين ـ وإن كان وحده ـ

وأن يحض المؤمنين على القتال قد يظن ضعيف الايمان بأنه يكون من المؤمنين وإن صار في صف العدو ووقف الى جنبه أو قعد عن قتاله وخذل المؤمنين ولم ينصرهم ، ولكن الله قد بيّن في الآية التي بعدها أن الناس على قسمين :

قسم يكون مع النبي ﷺ ويقف موقفه ويسير في طريقه ويعمل عمله ، وقسم آخر يكون مع عدوه واقفاً معه مقابل النبي سائراً في طريق العدو الملتوي أو قاعداً مع المنافقين مخذلاً للمؤمنين ، إن النبي ﷺ وإن لم يحتم على الناس الجهاد ولكن الله هو الذي يحتم على المؤمن أن يكون مع النبي واقفاً الى جنبه في الحرب والسلم فقال تعالى :

مـن يشفع شفاعة حسنة يكن لـه نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها وكان الله على كل شيء مقيتاً (٨٥).

أصل الشفاعة من الشفع الذي هـو مقابل الوتر ، فإن الرجل اذا صار مع رجل آخر ووافقه فيما هو فيه فقد شفعه أي صار ثانيه . وقد ذكروا في معنى الآية أقوالاً . ونحن نذكر هنا قولين فإنهما يوضحان حقيقة الرجل لنفسه أهو مؤمن أو ليس بمؤمن .

الأول: هو أن الله تعالى يخاطب النبي ﷺ ويقول له: إن من يجعل نفسه شفيعاً لك ويناصرك في القتال الذي امرت به وحدك فإن له من شفاعته نصيب بما يناله من الفوز والشرف، لأن الله قد عرّفنا أن إطاعته إنما تحصل بإطاعة الرسول فاذا كان الانسان منضماً الى الرسول في جميع أوقاته وجميع حالاته وكان شفيعاً له في الدنيا في كل وقت سوف يكون شفعاً له بما يناله من الثواب في الآخرة، وهذا هو المؤمن، فالرجل المؤمن ظاهراً اذا أراد أن يعرف نفسه هل أنه مؤمن مقبول عند الله وعند الرسول فلينظر الى قلبه وسريرته هل أنه متبع للرسول في كل

شيء أمر به من أول عمره الى آخره في حياة الرسول وبعد موته ، أو أنه ليس كذلك .

وأما الذي يكون شفيعاً لعدوّ الرسول الظاهر العداء وهم اليهود والنصارى أو عدوّ الرسول الخفي علينا وهم المنافقون الذين يقولون طاعة ويبيتون خلافها والذين يذيعون أمر الأمن والخوف المضرّ بعامة المسلمين فهذا الرجل ليس له من الايمان شيء وإن سمى نفسه وسماه الغير مسلماً، فإنّ الاسلام والايمان ليس بالتسمية وإنما هو بالنية والعمل وإطاعة الرسول واتباعه في كل الامور بحيث يسمى شفعاً للرسول ، فاذا تخلّفت هذه التسمية في قضية واحدة فقد بعد عن الرسول بمراحل طويلة ، فإما أن يرجع فيعيد التسمية وإلا فقد فارق المؤمنين.

فيكون قوله تعالى : « **ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها** » معناه أنّ الذي يكون شفيعاً لعدوّ الرسول ـ أي يكون ثانياً له ـ يكون عليه من الوزر والاثم مثل ماعلى العدو ، لأنه يكون في صفه ويقف الى جنبه أو يقعد عن عون المسلمين فلاينصرهم بل يخذلهم .

القول الثاني : ماذكره في المجمع بأنّ الشفاعة الحسنة والشفاعة السيئة شفاعة الناس بعضهم لبعض ، عن مجاهد والحسن قال : مايجوز في الدين أن يشفع فيه فهو شفاعة حسنة ، ومالايجوز أن يشفع فيه فهو شفاعة سيئة ، قال : ومن يشفع شفاعة حسنة كان له فيها أجر وثواب وإن لم يشفّع لأنّ الله قال : ومن يشفع ولم يقل ومن يشفّع ، ويؤيد هذا قوله: اشفعوا تؤجروا . وقوله: من حالت شفاعته دون حدّ من حدود الله فقد ضادّ الله في ملكه ، ومن أعان على خصومة بغير علم كان في سخط الله حتى ينزع[1] انتهى مافي المجمع .

وهنا نوجه الخطاب لوجهاء كل بلد الذين يتصلون بحاكم البلد وتكون كلمتهم مسموعة عنده فينبغي لهم أن يلاحظوا هذه الآية وأن لايغفلوا عنها،فإنهم

(١) مجمع البيان: ج٣ ص٨٤.

اذا شفعوا لرجل مجرم قد ارتكب معصية موبقة كقتل النفس أو اعتداء على عرض أحد أو زنا أو غير ذلك من المنكرات فأسقطوا عنه العقاب أو خففوا عنه فإنّ لهم نصيباً من وزر هذا المجرم وعليهم من العقاب إما بمقدار عقابه أو أكثر منه وهو نصيب مكفول لابدّ منه، فلايجلب لنفسه الوزر والعقاب لكون هذا المجرم من أصحابه ومن المنتمين الى حزبه وليرحم نفسه، فإنّ الدنيا تزول وتفنى والآخرة تدوم وتبقى.

ثم إنّ الله عزّ وجلّ بشّر المسلمين المطيعين للرسول العاملين بأمره، وأنذر الكافرين والمنافقين والمخالفين للرسول والمحرفين لأوامره ونواهيه بقوله تعالى في الجملة الأخيرة من الآية: « **وكان الله على كل شيء مقيتاً** ».

ماقاله الطبرسي:

قال في مجمع البيان: والمقيت أصله من القوت فإنه يقوته قوتاً اذا أعطاه ما يمسك به رمقه، والمقيت المقتدر لاقتداره على ذلك، وأقات يقيت اقاتة، وينشد للزبير بن عبدالمطلب:

وذي ضغنٍ كففت النفس عنه   وكنت على مساءته مقيتا

ثم قال في بيان المعنى: قيل في معنى المقيت أقوال: (أحدها) إنه المقتدر، عن السدي وابن زيد. (وثانيها) الحفيظ الذي يعطي الشيء قدر الحاجة من الحفظ، عن ابن عباس. (وثالثها) الشهيد، عن مجاهد. (ورابعها) الحسيب، عنه أيضاً. (وخامسها) المجازي، عن أبي علي الجبائي، أي يجازي على كل شيء من الحسنات والسيئات[1] انتهى.

فليعلم الذي يخالف أمر النبي ﷺ وينحرف عنه عمداً أو إهمالاً فإنه وإن لم يحاسبه أحد في الدنيا ولكن الله هو المقتدر على كل شيء، الحفيظ لكل

(١) مجمع البيان: ج٣ ص٨٤.

كبيرة وصغيرة، الشهيد على الأعمال والقلوب والنيات، الحسيب لكل شيء، المجازي على الحسنات والسيئات، فلا يضر المخالف للنبي إلا نفسه.

ماقاله الفخر الرازى :

وفي تفسيره الكبير قال : (المسألة الاولى) في المقيت قولان :

الأول : المقيت القادر على الشيء، وأنشدوا للزبير بن عبدالمطلب:

وذي ضغن كففت النفس عنه   وكنت على إساءته مقيتا

وقال آخر :

ليت شعري و أشعرن إذا ما   قربوها منشورة ودعيت

إلي الفضل أم علي اذا حو   سبت إني على الحساب مقيت

وأنشد النضر بن شميل :

تجلد ولا تجزع وكن ذا حفيظة   فإني على ما ساءهم لمقيت

الثاني: المقيت مشتق من القوت ، يقال: قت الرجل اذا حفظت عليه نفسه بما يقوته ، واسم ذلك الشيء هو القوت ، وهو الذي لافضل له على قدر الحفظ ، فالمقيت هو الحفيظ الذي يعطي الشيء على قدر الحاجة . ثم قال القفال رحمه الله[1]: وأي المعنيين كان فالتأويل صحيح وهو أنه تعالى قادر على إيصال النصيب والكفل من الجزاء الى الشافع مثل مايوصله الى المشفوع فيه ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، ولاينتقص بسبب مايوصل الى الشافع شيء من جزاء المشفوع. وعلى الوجه الثاني : أنه تعالى حافظ الأشياء شاهد عليها لايخفى عليه شيء من أحوالنا ، فهو عالم بأن الشافع يشفع في حق أو في باطل حفيظ عليه فيجازي كلاً بما علم منه[2] انتهى .

ماقاله ابن كثير :

قال في تفسيره: وقوله: «من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها» أي

(١) هو القفال المروزى استاذ القاضي حسين المروزى (راجع التفسير الكبير: ج١ صد).
(٢) تفسير الرازى : ج١٠ ص٢٠٨ .

من يسعى في أمر فيترتب عليه خير كان له نصيب من ذلك «ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها» أي يكون عليه وزر من ذلك الأمر الذي ترتب على سعيه ونيته كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (إشفعوا تؤجروا) ويقضي الله على لسان نبيه ماشاء. وقال مجاهد بن جبر: نزلت هذه الآية في شفاعات الناس بعضهم لبعض، وقال الحسن البصري : قال الله تعالى : « من يشفع » ولم يقل من يشفّع ' وقوله :« وكان الله على كل شيء مقيتاً » قال ابن عباس وعطاء وعطية وقتادة ومطر الوراق : مقيتاً أي حفيظاً ، وقال مجاهد : شهيداً ' وفي رواية عنه حسيباً ، وقال ابن جبير والسدي وابن زيد : قديراً، وقال عبدالله بن كثير: المقيت المواظب، وقال الضحاك: المقيت الرزاق ، وقال ابن حاتم : حدثنا أبي حدثنا عبدالرحيم بن مطرف حدثنا عيسى بن يونس عن إسماعيل عن رجل عن عبدالله بن رواحة، وسأله رجل عن قول الله تعالى :« وكان الله على كل شيء مقيتاً » قال: مقيت لكل إنسان بقدر عمله[1] انتهى .

ماقاله سيد قطب :

وقال في تفسيره بعد ذكر الآية : فليشفع الانسان الشفاعة الحسنة... ليصل خيراً الى من يستحق الخير غير مضارّ لبرىء أو مضيّع حقاً على صاحب حق ، أومعطل لحدّ من حدود الله، فهذه هي الشفاعة الحسنة التي تنفع ولاتضر ، وليتق الشفاعة السيئة التي تؤدي الى أكل مال بالباطل أو تعويق صاحب مكان عن مكانه أو إهدار الحرمة من حرمات الله والناس ، فإنّ لصاحب الاولى نصيباً طيباً من شفاعته ، ولصاحب الاخرى وزراً يحتمله من سيئته « وكان الله على كلّ شيء مقيتاً » يطعم المحسن من حسنته والمسيء من سيئته ليذوق كل منهما ما كسبه وماجناه ، لذلك اختار التعبير كلمة « مقيت » من القوت ليكون التذوق المباشر هو الجزاء للثمار الحلوة والمرة على السواء[2] انتهى .

---

(١) تفسير ابن كثير : ج٢ ص٣٤٩ .

(٢) فى ظلال القرآن : ج٢ ص٧٢٥ .

ماقاله الطبرى :

وقال في تفسيره: يعني بقوله جل ثناؤه : « من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها » من يصر يامحمد شفعاً لوتر أصحابك فيشفعهم في جهاد عدوهم وقتالهم في سبيل الله وهو الشفاعة الحسنة يكن له نصيب منها ، يقول يكن له من شفاعته تلك نصيب وهو الحظ من ثواب الله وجزيل كرامته. « ومن يشفع شفاعة سيئة » يقول ومن يشفع وتر أهل الكفر بالله على المؤمنين به فيقاتلهم معهم وذلك هو الشفاعة السيئة يكن له كفل منها ، يعني بالكفل النصيب والحظ من الوزر والاثم وهو مأخوذ من كفل البعير والمركب وهو الكساء أو الشيء يهيأ عليه شبيه بالسرج على الدابة، يقال منه : جاء فلان مكتفلاً ، اذا جاء على مركب قد وطىء له على مابيّنا لركوبه ، وقد قيل : إنه عنى بقوله : « من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها » الآية ، شفاعة الناس بعضهم لبعض ، وغير مستنكر أن تكون الآية نزلت فيما ذكرنا ثم عم بذلك كل شافع بخير أو شر .

وإنما اخترنا ماقلنا من القول في ذلك لأنه في سياق الآية التي أمر الله نبيه ﷺ فيها بعض المؤمنين على القتال ، فكان ذلك بالوعد لمن أجاب رسول الله ﷺ والوعيد لمن أبى إجابته أشبه منه من الحث على شفاعة الناس بعضهم لبعض التي لم يجر لها ذكر قبل ولا لها ذكر بعد .

ذكر من قال ذلك في شفاعة الناس بعضهم لبعض :

حدثني محمد بن عمرو قال : حدثنا أبو عاصم عن عيسى عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله : « من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة ...» قال: شفاعة بعض الناس لبعض.

حدثني المثنى قال : حدثنا أبو حذيفة قال: حدثنا شبل عن ابن أبي نجيح عن مجاهد مثله .

حدثت عن ابن مهدي عن حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن قال : من

يشفع شفاعة حسنة كان له أجرها وإن لم يشفع لأنّ الله يقول : « من يشفع شفاعةً حسنةً يكن له نصيب منها » ولم يقل : يشفّع .

حدثنا ابن وكيع قال : حدثنا أبي عن سفيان عن رجل عن الحسن قال : من يشفع شفاعة حسنة كتب له أجرها ماجرت منفعتها .

حدثنا يونس قال : أخبرنا ابن وهب قال: سئل ابن زيد عن قول الله:«من يشفع شفاعةً حسنةً يكن له نصيب منها » قال: الشفاعة الصالحة التي يشفع فيها وعمل بها هي بينك وبينه هما فيها شريكان «ومن يشفع شفاعةً سيّئةً يكن له كفل منها » قال : هما شريكان فيها كما كان أهلها شريكين .

ذكر من قال : الكفل النصيب :

حدثنا بشر بن معاذ قال : حدثنا يزيد قال : حدثنا سعيد عن قتادة قوله تعالى : « من يشفع شفاعةً حسنةً يكن له نصيب منها » أي حظٌ منها « ومن يشفع شفاعةً سيئةً يكن له كفل منها » والكفل هو الاثم .

حدثنا محمّد بن الحسين قال : حدثنا أحمد بن مفضل قال : حدثنا أسباط عن السدي قوله : « يكن له كفل منها » أما الكفل فالحظ .

حدثني المثنى قال: حدثنا اسحاق قال : حدثنا عبدالله بن أبي جعفر عن أبيه عن الربيع « يكن له كفل منها » قال : حظ منها فبئس الحظ .

حدثني يونس قال : أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد : الكفل والنصيب واحد وقرأ : « يؤتكم كفلين من رحمته »[1].

القول في تأويل قوله : « وكان الله على كل شيءٍ مقيتاً » . اختلف أهل التأويل في قوله تعالى : « وكان الله على كل شيءٍ مقيتاً » فقال بعضهم : تأويله وكان الله على كل شيء حفيظاً وشهيداً .

ذكر من قال ذلك :

---

(١) الحديد : ٢٨ .

حدثني المثنى قال: حدثنا عبدالله بن صالح قال: حدثني معاوية عن علي عن ابن عباس: «وكان الله على كل شيءٍ مقيتاً» يقول: حفيظاً.

حدثني المثنى قال: حدثنا أبو حذيفة قال: حدثنا شبل عن ابن أبي نجيح عن مجاهد: «مقيتاً» شهيداً.

حدثنا ابن وكيع قال: حدثنا أبي عن سفيان عن رجل اسمه مجاهد عن مجاهد مثله.

حدثنا القاسم قال: حدثنا الحسين قال: حدثنا حجاج عن ابن جريج عن مجاهد «مقيتاً» قال: شهيداً حسيباً حفيظاً.

حدثني أحمد بن عثمان بن حكيم قال: حدثنا عبدالرحمان بن شريك قال: حدثنا أبي عن خصيف عن مجاهد أبي الحجاج «وكان الله على كل شيءٍ مقيتاً» قال: المقيت الحسيب.

وقال آخرون: معنى ذلك القائم على كل شيء بالتدبير.

ذكر من قال ذلك:

حدثنا القاسم قال: حدثنا الحسين قال: حدثني حجاج عن ابن جريج قال: قال عبدالله بن كثير: «وكان الله على كل شيءٍ مقيتاً» قال: المقيت الواصب.

وقال آخرون: هو القدير.

ذكر من قال ذلك:

حدثنا محمد بن الحسين قال: حدثنا أحمد بن مفضل قال: حدثنا أسباط عن السدي «وكان الله على كل شيءٍ مقيتاً» أمّا المقيت: فالقدير.

حدثني يونس قال: أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله تعالى: «وكان الله على كل شيءٍ مقيتاً» قال: على كل شيء قديراً. والمقيت: القدير.

قال أبو جعفر: والصواب من هذه الأقوال قول من قال معنى المقيت القدير، وذلك أنّ ذلك فيما يذكر كذلك بلغة قريش، وينشد للزبير بن عبدالمطلب عمّ

رسول الله ﷺ :

وذي ضغنٍ كففت النفس عنه وكنت على مساءته مقيتا

أي قادراً ، وقد قيل : إنّ منه قول النبي ﷺ: كفى بالمرء إثماً أن يضيّع من يقيت (في رواية من رواها) ، يقيت يعني من هو تحت يديه وفي سلطانه من أهله وعياله فيقدر له قوته [1] انتهى موضع الحاجة من كلام الطبري .

وبعدما اطلع القارىء الكريم على كلمات المفسرين ينبغي له أن يحتاط لنفسه ولدينه إن أراد أن يحصل على شيء من الثواب والجزاء الحسن ، يلزمه أن يشفع أحد أصحاب النبي المخلصين الذين كانوا يطيعون أمره ولايخالفونه في شيء أبداً، وحيث إنّ الانسان لايعلم تفصيلاً بالواجبات والمحرمات عليه أن يأخذ القانون الكلي الذي ينطبق على كل قضية من امور الدين ولايفوته شيء منها ، واذا أخذ به لايخشى على نفسه أن يكون من الضالين .

وقد ذكرنا ذلك مكرراً وهو قوله ﷺ كما يرويه الحافظ القندوزي الحنفي في ينابيع المودة نقلاً عن الترمذي في باب مناقب أهل البيت : حدثنا نصر ابن عبدالرحمان الكوفي قال : حدثنا زيد بن الحسن عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر بن عبدالله الأنصاري قال : رأيت رسول الله ﷺ في حجته يوم عرفة وهو على ناقته القصوى يخطب فسمعته يقول: أيها الناس إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلّوا : كتاب الله وعترتي أهل بيتي [2].

فمن أراد أن يكون عاملاً بما نصّ عليه النبي ﷺ ليكون عذراً له بين يدي الله فإنّ هذا الحديث يكفيه لجميع امور دينه ، ويكون الأخذ به أماناً من الضلال ، أما مع تركه فهو معرض للضلال كما هو صريح الحديث وهو حديث صريح واضح لايحتاج الى تفسير وهو متفق عليه ذكره جميع المؤرخين والمفسرين.

---

(١) تفسير الطبرى : ج٥ ص١١٧ ـ ١١٩ .

(٢) ينابيع المودة : ج١ ص٢٩ .

قوله تعالى: وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ان الله كان على كل شيء حسيباً (٨٦).

في هذه الآية الشريفة يعلّم الله عباده كيف يتبادلون التحيات فيما بينهم حتى يزيد حب بعضهم لبعض، وتتأكد الالفة ويقرب بعضهم لبعض، فإن التحية التي جعلها الله للمسلمين هي مشتملة على الدعاء والطلب له من الله بأن يجعله في سلام من كل شيء يغيّر عليه الراحة والهناء، فإذا قال المسلم لأخيه المسلم: سلام عليكم، أو: السلام عليكم فمعنى ذلك أني اطلب من الله أن يجعل عليك أوقاتك من الأيام والساعات كلها سلاماً ليس فيها مايؤذيك وينغص عيشك.

وقد علّمنا الله كيفية رد هذه التحية المشتملة على الدعاء، بأن نجيب المسلم علينا بأحسن منها فنقول له في الجواب: عليكم السلام، وهذا وحده أحسن من ذلك لأن المسلّم قال: سلام عليكم فقدم المبتدأ كما هو الأصل وجاء بالخبر بعده أمّا المجيب لما قال: عليكم السلام فإنه قدم الخبر وهو موجب للحصر فكأنه قال: إن السلام منحصر عليك وأنت أهل له، فهو أحسن من كلام المسلّم، فاذا أضاف إليه كلمة «ورحمة الله» تزايد الحسن وتضاعف لأنه طلب له من الله بعد حصر السلام عليه أن تشمله رحمة الله، وهو دعاء عام لجميع أنواع الخيرات، فإن رحمة الله تشمل خيرات الدنيا والآخرة، فلو أن المسلم المبتدىء هو قال لأخيه المسلم: السلام عليكم ورحمة الله وأراد الآخر أن يرد بالأحسن يقول له في الجواب: عليكم السلام ورحمة الله وبركاته، فيضيف الى معنى الحصر الذي ذكر طلب الرحمة والبركة من الله، واذا أعطاه الله البركة فقد ربح ونجح إذ كانت عامة مطلقة فتكون في العمر وفي الرزق وفي الأولاد وغيرها من الامور المحبوبة.

فاذا تبادل المسلمان هذه الدعوات بينهما كلّما قابل أحدهما الآخر حينئذٍ

تنزل على الجميع الرحمة والبركة، فيكون المسلمون كلّهم كاملو الايمان ويكونون إخوة كما وصفهم الله « إنما المؤمنون إخوة »[1] فاذا رآهم الكافر أو المنافق وكان عنده شيء من العقل غبطهم على هذه الصفة الحسنة وأحبّ أن يكون شفيعاً لهم في هذه الصفات، فهو أقرب مايكون أن يشفع شفاعة حسنة، أي يجدد إسلامه ويحسن نيته ويصحح سريرته ويقف في صف المسلمين، ويحبّ لهم مايحبّ لنفسه ويكره لهم مايكره لنفسه.

فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: ألا أدلكم على شيء إن أنتم فعلتموه تحاببتم؟ افشوا السلام بينكم[2] فقد جعل افشاء السلام سبباً للتحابب، واذا حصل التحابب صلحت جميع الامور، فإنّ الله قد أكرم النبي ﷺ وامّته بهذه التحية وهي تحية أهل الجنة.

فقد روي أنّ أصحاب رسول الله كانوا اذا أتوه يقولون له: أنعم صباحاً، وأنعم مساءً، وهي تحية أهل الجاهلية فأنزل الله تعالى: « واذا جاؤوك حيّوك بما لم يحيّك به الله »[3] فقال لهم رسول الله ﷺ: قد أبدلنا الله تعالى بخير من ذلك تحية أهل الجنة السلام عليكم[4] وقد أمرنا الله أولاً أن نحيي من حيّانا بأحسن مما حيّانا به، وأمّا الردّ بالمثل فهو مرتبة ثانية، فاذا أخذ المسلمون بالمرتبة الاولى ساد التحابب بين جميع المسلمين، وارتفع وزال عنهم كل مايوجب التباعد من بغضاء وشحناء وحزازات، وحينئذٍ ييأس العدوّ والمنافق من إيقاع الفتنة بينهم، ولا يبقى له أمل فيها، إذ يراهم متحدين متفقين متحابين، كلمتهم واحدة ورأيهم واحد.

وقد وردت الأخبار الكثيرة في الحثّ على إفشاء السلام وبيان الجزاء العظيم

---

(١) الحجرات: ١٠.
(٢) كنز العمال: ج٩ ص١١٣ ح٢٥٢٤٧.
(٣) المجادلة: ٨.
(٤) بحار الانوار: ج٧٦ ص٦ ب٩٧ ح٢٠.

على ذلك .

فقد روي عن الصادق عن آبائه عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : إنّ في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها، يسكنها من امّتي من أطاب الكلام وأطعم الطعام وأفشى السلام وصلّى بالليل والناس نيام ، ثم قال: إفشاء السلام أن لايبخل بالسلام على أحد من المسلمين[(١)].

وعن أنس قال : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : ياأنس سلّم على من لقيت يزيد الله في حسناتك ، وسلّم في بيتك يزيد الله في بركتك[(٢)].

وعن أنس أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً ياأنس أسبغ الوضوء تمرّ على الصراط مرّ السحاب . أفش السلام يكثر خير بيتك ، أكثر من صدقة السر فإنها تطفىء غضب الرب عزّ وجلّ[(٣)] .

ماقاله الفخر الرازي :

وقال في تفسيره الكبير: (المسألة الثانية) إعلم أنّ عادة العرب قبل الاسلام أنه اذا لقي بعضهم بعضاً قالوا: حياك الله ، واشتقاقه من الحياة كأنه يدعو له بالحياة فكانت التحية عندهم عبارة عن قول بعضهم لبعض حياك الله، فلما جاء الاسلام أبدل ذلك بالسلام ، فجعلوا التحية اسماً للسلام ، قال تعالى : « تحيّتهم يوم يلقونه سلام »[(٤)]. الى أن يقول. واعلم أنّ قول القائل لغيره « السلام عليك » أتمّ وأكمل من قوله « حياك الله » وبيانه من وجوه :

الأول : أنّ الحيّ اذا كان سليماً كان حياً لامحالة وليس اذا كان حياً كان سليماً، فقد تكون حياته مقرونة بالآفات والبليات، فثبت أنّ قوله «السلام عليكم»

---

(١) بحار الانوار : ج٧٦ ص٢ ب٩٧ ح٢ .
(٢) بحار الانوار : ج٧٦ ص٣ ب٩٧ ح٣ .
(٣) بحار الانوار : ج٧٦ ص٣ ب٩٧ ح٨ .
(٤) الاحزاب : ٤٤ .

أتمّ وأكمل من قوله « حياك الله » .

الثاني : أنّ « السلام » اسم من أسماء الله تعالى ، فالابتداء بذكر الله أو بصفة من صفاته الدالة على أنه يريد ابقاء السلامة على عباده أكمل من قوله «حياك الله» .

الثالث : أنّ قول الانسان لغيره « السلام عليك » فيه بشارة بالسلامة، وقوله « حياك الله » لايفيد ذلك ، فكان هذا أكمل .

ومما يدلّ على فضيلة « السلام » القرآن والأحاديث والمعقول .

أما القرآن فمن وجوه :

(الأول) إعلم أنّ الله تعالى سلّم على المؤمن في اثني عشر موضعاً .

أولها: إنه تعالى كأنه سلّم عليك في الأزل ، ألا ترى أنه قال في وصف ذاته: « الملك القدوس السلام »(١) .

وثانيها : إنه سلّم على نوح ، وجعل لك من ذلك السلام نصيباً فقال: «قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى امم ممن معك »(٢) والمراد منه امّة محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وثالثها : سلّم عليك على لسان جبرئيل فقال : « تنزّل الملائكة والروح فيها بإذن ربّهم من كلّ أمر * سلام هي حتى مطلع الفجر »(٣) .

قال المفسرون : إنه عليه الصلاة والسلام خاف على امّته أن يصيروا مثل امّة موسى وعيسى عليهما السلام فقال الله : لاتهتم لذلك فإني وإن أخرجتك من الدنيا إلا أني جعلت جبرئيل خليفة لك ينزل الى امّتك كل ليلة قدر ويبلغهم السلام مني.

أقول : إنّ نزول الملائكة بكل هذه الامور وتبلغها للنبي في حياته أمّا بعد

---

(١) الحشر : ٢٣ .
(٢) نوح : ٤٨ .
(٣) القدر : ٤ و٥ .

ارتحاله فإلى من تبلغ هذه الامور ؟ فلابدّ وأن يكون له وصياً تكون الامور كلها عنده ، وإلا فلايمكن أن تضعها الملائكة على الأرض وتصعد الى السماء ، فتأمل وفكّر جيداً . وسيأتي الكلام عليها مفصلاً في سورة القدر إن شاء الله.

ثم قال الفخر: ورابعها: سلّم عليك على لسان موسى عليه السلام حيث قال: «السلام على من اتبع الهدى »[1] فاذا كنت متبع الهدى وصل سلام موسى إليك .

أقول : إنّ اتباع الهدى إنما يكون في العمل على طبق القرآن بالمعنى الذي أنزله الله على نبيه ، وهو بتمامه وكماله لايوجد إلا عند من قرنه النبي بالكتاب وهم العترة ، فلايفوتك الأمر .

ثم قال الفخر : وخامسها : سلّم عليك على لسان محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقال : «الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى »[2] وكل من هداه الله الى الايمان فقد اصطفاه كما قال : « ثمّ أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا »[3].

أقول: إنّ هذه الآية تدلّ على ماقلناه في الأمر الرابع من أنّ علم الكتاب إنما هو عند أوصياء النبي الذين اصطفاهم الله وجعلهم أئمة ، فإنّ الآيتين تدلّان على أنهم اناس اصطفاهم الله من بين الامّة وليسوا كل الامّة، لأنّ فيها من لايعرف تفسير آية واحدة وإن كان تقياً مطيعاً لله يأخذ معالم دينه من أهل العلم .

ثم قال الفخر : وسادسها : أمر محمداً صلى الله عليه وآله وسلم على سبيل المشافهة فقال : «واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم »[4].

وسابعها : أمر امّة محمد صلى الله عليه وآله بالتسليم عليك قال : « واذا حيّيتم بتحيّة فحيّوا بأحسن منها أو ردّوها »[5].

---

(١) طه : ٤٧ .

(٢) النمل : ٥٩ .

(٣) فاطر : ٣٢ .

(٤) الانعام : ٥٤ .

(٥) النساء : ٨٦ .

وثامنها: سلم عليك على لسان ملك الموت فقال: « الّذين تتوفّاهم الملائكة طيّبين يقولون سلام عليكم »[1] قيل: إنّ ملك الموت يقول في اذن المسلم: السلام يقرئك السلام ويقول: أجبني فإني مشتاق إليك، واشتاقت الجنات والحور العين إليك، فإذا سمع المؤمن البشارة يقول لملك الموت: للبشير مني هدية، ولا هدية أعزّ من روحي، فاقبض روحي هدية لك.

وتاسعها: السلام من الأرواح الطاهرة المطهرة قال تعالى: « وأمّا إن كان من أصحاب اليمين* فسلام لك من أصحاب اليمين »[2].

وعاشرها: سلام الله عليك على لسان رضوان خازن الجنّة فقال تعالى: « وسيق الّذين اتّقوا الى الجنّة زمراً » الى قوله: « وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم »[3].

والحادي عشر: اذا دخلوا الجنة فالملائكة يزورونهم ويسلّمون عليهم قال تعالى: « والملائكة يدخلون عليهم من كلّ باب * سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار »[4].

والثاني عشر: السلام من الله من غير واسطة وهو قوله: « تحيّتهم يوم يلقونه سلام »[5] وقوله: « سلام قولاً من ربّ رحيم »[6] وعند ذلك يتلاشى سلام الكل لأنّ المخلوق لا يبقى على تجلّي نور الخالق.

(الوجه الثاني) من الدلائل القرآنية الدالة على فضيلة السلام: أنّ أشدّ الأوقات حاجة الى السلامة والكرامة ثلاثة أوقات: وقت الابتداء، ووقت الموت

---

(١) النحل: ٣٢.
(٢) الواقعة: ٩٠ و٩١.
(٣) الزمر: ٧٣.
(٤) الرعد: ٢٣ و٢٤.
(٥) الاحزاب: ٤٤.
(٦) يس: ٥٨.

ووقت البعث ، والله تعالى لما أكرم يحيى عليه السلام فانما أكرمه بأن وعده السلام في هذه الأوقات الثلاثة فقال : « وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً »(١) وعيسى عليه السلام ذكر أيضاً ذلك فقال : « السلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم ابعث حيّاً »(٢).

(الوجه الثالث) أنه تعالى لماذكر تعظيم محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال :« إنّ الله وملائكته يصلّون على النبي ياأيها الّذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً »(٣).

يروى في التفسير أنّ اليهود كانوا اذا دخلوا قالوا : السام عليك ، فحزن الرسول عليه الصلاة والسلام لهذا المعنى ، فبعث الله جبرئيل عليه السلام وقال: إن كان اليهود يقولون: السام عليك فأنا أقول من سرادقات الجلال: السلام عليك،وأنزل قوله : « إنّ الله وملائكته يصلّون على النبي » الى قوله « وسلّموا تسليماً » .

وأما مايدلّ من الأخبار على فضيلة السلام فما روي أنّ عبدالله بن سلام قال : لما سمعت بقدوم الرسول عليه الصلاة والسلام دخلت في غمار الناس ، فأول ماسمعت منه : ياأيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلّوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام .

وأما مايدلّ على فضل السلام من جهة المعقول فوجوه :

الأول : قالوا تحية النصارى وضع اليد على الفم ، وتحية اليهود بعضهم لبعض الاشارة بالأصابع ، وتحية المجوس الانحناء ، وتحية العرب بعضهم لبعض أن يقولوا : حياك الله ، وللملوك أن يقولوا : أنعم صباحاً ، وتحية المسلمين بعضهم لبعض أن يقولوا .. السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، ولاشكّ أنّ هذه التحية أشرف التحيات وأكرمها .

---

(١) مريم : ١٥ .

(٢) مريم : ٣٢ .

(٣) الاحزاب : ٥٦ .

الثاني : أنّ السلام مشعر بالسلامة من الآفات والبليات ، ولاشكّ أنّ السعي في تحصيل الصون عن الضرر أولى من السعي في تحصيل النفع .

الثالث : أنّ الوعد بالنفع يقدر الانسان على الوفاء به وقد لايقدر ، أمّا الوعدبترك الضرر فإنه يكون قادراً عليه لامحالة، والسلام يدلّ عليه، فثبت أنّ السلام أفضل أنواع التحية[1] انتهى كلام الرازي .

وكما وردت الأخبار الكثيرة في الحثّ على إفشاء السلام ومدح فاعله كذلك وردت أخبار في ذمّ تاركه .

فمنها : ماروي عن النبي ﷺ أنه قال : من بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه[2].

وقال ﷺ : لاتدع الى طعامك أحداً حتى يسلّم[3].

وعنه ﷺ أنه قال : إنّ أعجز الناس من عجز عن الدعاء ، وإنّ أبخل الناس من بخل بالسلام[4].

فالأخبار الواردة في التحية على أصناف . فصنف منها يحثّ على إفشاء السلام ومدح أهله وبيان ثوابه ، وصنف ثانٍ يذمّ تاركه ، وصنف ثالث يحث على ضمّ المصافحة الى السلام ، وبعضها يذكر المعانقة عوض المصافحة . وفي أغلب هذه الأخبار يذكر لهذا الفعل شيئاً من الثواب في الآخرة، وفي بعضها يذكرون لها آثاراً في الدنيا ، وأنّ هذه الآثار الدنيوية يشعر بها كل أحد ويراها . وهي توجب المحبة والالفة.

فهذه التحية التي قد أكرم الله بها امّة محمّد وخصّهم بها من دون سائر الامم

---

(١) تفسير الرازي : ج١٠ ص٢٠٩ ـ ٢١١ .
(٢) كنز العمال : ج٩ ص١٢٦ ح٢٥٣٢٠ .
(٣) بحار الانوار : ج٧٦ ص٣ ب٩٧ ح٦ .
(٤) بحار الانوار : ج٧٦ ص٤ ب٩٧ ح١١ .

وأراد لهم بسبب هذه التحية أن يكونوا دائمة في الفة ومحبة وأن لا يقع بينهم تباغض وتباعد، وقد بقيت هذه الامّة مدة من الزمن محافظة على هذه التحية، ولكن مع كل الأسف لما دخل الأجانب الى بلاد الاسلام واختلطوا بهم غيّروا من أوصافهم الحميدة كثيراً منها، وهذه التحية قد تركها كثير من المسلمين الذين عاشروا الأجانب ورجعوا الى عهد الجاهلية، فاذا دخل أحدهم على الآخر يقول له: (صباح الخير، ومساء الخير) ولا يعرف أنّ تحية الاسلام هي السلام.

إنّ الفرقة التي تركت تحية المسلمين وتمسكت بتحية الجاهلية هل أنهم اعتبروا أنفسهم من غير المسلمين؟ أو أنهم يرون أنفسهم من المسلمين ولكنهم يرجحون هذه التحية الجاهلية على تحية المسلمين ويرونها أحسن منها؟ فهم داخلون في ضمن قوله تعالى: «ألم تر الى الّذين اوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للّذين كفروا هؤلاء أهدى من الّذين آمنوا سبيلاً»[1].

فالتارك لتحية المسلمين يختار لنفسه أحد القسمين، إمّا الخروج عن جماعة المسلمين، وإمّا القسم الآخر، واذا رفضهما جميعاً واختار البقاء مع الاسلام فليرجع الى تحية المسلمين وليكن محباً لهم محبوباً عندهم.

ماقاله الطبري:

قال في تأويل قوله تعالى:

«واذا حيّيتم بتحيّة فحيّوا بأحسن منها أو ردّوها إنّ الله كان على كل شيء حسيباً» يعني جلّ ثناؤه بقوله: «واذا حيّيتم بتحيّة» اذا دعي لكم بطول الحياة والبقاء والسلامة «فحيّوا بأحسن منها أو ردّوها». يقول فادعوا لمن دعا لكم بذلك بأحسن مما دعا لكم، أو ردّوها، يقول أو ردّوا التحية[2] انتهى.

أقول: إنّ المسلم اذا كان قويّ الايمان صحيح العقيدة بالدين الاسلامي

---

(١) النساء: ٥١.

(٢) تفسير الطبري: ج٥ ص١٩.

لاينبغي له أن يزهد بهذا الدعاء لأخيه المسلم ولنفسه بالرد بأحسن منه، ويتركه لغيره لمجرد سماع الأجانب استعمال غيره .

وأمّا الجملة الأخيرة من الآية وهي قوله : «**ان الله كان على كل شيء حسيباً**» فمعناها : أنّ الله يحسب أعمالكم كبيرها وصغيرها وجليلها وحقيرها لايفوته شيء منها ولايترك شيئاً منها ، فإنّ التحية هي أول كلمة ينطق بها المتلاقيان ويتبعها من الكلام مايناسبها .

فإن كانت تحية المسلمين كان أثرها الوضعي الحبّ والالفة واختيار مافيه الصلاح لعموم المسلمين وتبعها من الكلام كل شيء ينفع المسلمين . فكانت نتائجها الدنيوية والاخروية صالحة نافعة، فإنّ الله هو الذي يساعدهم ويمدهم بمايقويهم ويصلح أعمالهم لأنهم قد قبلوا منه هذه الهدية وعملوا بها وجعلوها فاتحة كلامهم ودالة على حسن سريرتهم .

وأمّا اذا كانت تحيتهم عند التلاقي تحية غير المسلمين فيكون بقية كلامهم تابعاً لها حيث رفضوا هدية الله ولم يقبلوها ولم يفتتحوا بها كلامهم فلايرجى لهم المساعدة من الله ، فليعرف المسلم تحيته وليعرف غير المسلم تحيته ، وهذه التحية التي جعلها الله للمسلمين في الدنيا هي بعينها جعلها لهم في الآخرة حيث قال : « تحيّتهم يوم يلقونه سلام »[1] فمن قبلها في الدنيا تلقاها في الآخرة، ومن رفضها في الدنيا لن يسمعها في الآخرة، هذا هو المطابق للحساب الدقيق « إنّ الله كان على كلّ شيء حسيباً » .

ماقاله الفخر الرازي :

وقال في تفسيره الكبير في المسألة الثالثة : من الناس من قال : من دخل داراً وجب عليه أن يسلّم على الحاضرين واحتجّ عليه بوجوه :

---

(١) الاحزاب : ٤٤ .

الأول : قولـه تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا لاتدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلّموا على أهلها »[١] وقال عليه الصلاة والسلام : أفشوا السلام ، والأمر للوجوب .

الثاني: أنّ من دخل على إنسان كان كالطالب له، ثم المدخول عليه لايعلم أنه يطلبه لخير أو لشر، فاذا قال: السلام عليك فقد بشره بالسلامة وآمنه من الخوف. وإزالة الضرر عن المسلم واجبة، قال عليه الصلاة والسلام : المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه . فوجب أن يكون السلام واجباً .

الثالث : أنّ السلام من شعائر أهل الاسلام، وإظهار شعائر الاسلام واجب[٢] انتهى .

وقد تبيّن مما ذكر من الأخبار وكلمات المفسرين أنّ السلام هي تحية مختصة بالاسلام وأنّ غيرهم لايستعملونها ولايعرفونها، فإنّ الله خصّ بها المسلمين حتى أنّ المسلمين في الصدر الأول كانوا اذا غزوا جماعة من الكفر فاذا صادفوا رجلاً قريباً من بلاد الكفر لم يعرفوه وكان الرجل مسلماً يبادرهم بالسلام قبل أن يسطوا به ليعرفوه أنه من المسلمين، فهي علامة مخصوصة وسمة خاصة بالمسلمين.

فاذا عرفنا ذلك فقد ورد في الأخبار الحثّ الكثير على إفشاء السلام، وأنّ المسلم اذا لاقى مسلماً ينبغي له أن يبدأه بالسلام ، واذا دخل داراً أو محلاًّ آخر يسلّم على أهله.

وقد جاءت بعض الأخبار تمنع السلام على أصناف من الناس ، فمنهم لعدم دخولهم في الاسلام وهم اليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: لاتبدأوا أهل الكتاب بالسلام، فإن سلّموا عليكم فقولوا: عليكم[٣].

---

(١) النور : ٢٧ .

(٢) تفسير الرازي : ج١٠ ص٢١١ .

(٣) بحار الانوار : ج٧٦ ص٩ ب٩٧ ح٣٧ نقلا بالمعنى .

وعن الامام الصادق عليه السلام قال : اذا سلّم عليك اليهودي والنصراني والمشرك فقل عليك[1].

الصنف الثاني ممن لايسلّم عليهم: الذين هم في شغل يخصهم، فإما أن يكون مشغولاً في الصلاة، وإمّا أن يكون على قضاء حاجة، وكذا الذي هو في الحمام فإنّ هؤلاء لايسلّم عليهم.

الصنف الثالث: هم المتصفون بأوصاف والمشغولون بأعمال تبعدهم عن المسلمين فإنّ المسلم هو المطيع لله ولرسوله الممتثل لأوامر الرسول والمنتهي عما نهاه عنه الرسول ، وهذا هو الفاعل لما نهى عنه الرسول، فكأنه في الحالة يكون من غير المسلمين وهم :

أ ـ الجالس على مائدة الخمر .

ب ـ اللاعب بالشطرنج والنرد وغيرهما من ألعاب القمار .

ج ـ المخنث .

د ـ الشاعر الذي يقذف المحصنات .

هـ ـ آكل الربا .

و ـ الفاسق المعلن بفسقه .

فإنّ هؤلاء الأشخاص وإن لم يكونوا مشغولين بهذه الأعمال ولكنهم لا ينكرون فعلهم لها اذا سئلوا عنها فيكونون من نوع الرجل السادس وهو المعلن بفسقه . وقد نهانا الشارع المقدس عن السلام عليهم تنزيهاً للاسلام أن يكون هؤلاء من أهله وتقديساً للمسلمين أن يقترن بهم هؤلاء فيعدون منهم ، فاذا تركوا هذه الأعمال وتابوا منها صاروا من المسلمين ويكون لهم ما للمسلمين من التحية وغيرها.

فائدة

قال العلاّمة المجلسي في البحار بعد ذكر السند :

(١) بحار الانوار : ج٧٦ ص١١ ب٩٧ ح٤٥ .

عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال : إنّ في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها ، يسكنها من امّتي من أطاب الكلام ، وأطعم الطعام، وأفشى السلام ، وصلّى بالليل والناس نيام ، فقال علي عليه السلام : يارسول الله ومن يطيق هذا من امّتك ؟ فقال : ياعلي أوما تدري ماإطابة الكلام ؟ من قال اذا أصبح وأمسى : سبحان الله والحمد لله ولاإله إلا الله والله أكبر عشر مرات ، وإطعام الطعام نفقة الرجل على عياله ، وأمّا الصلاة بالليل والناس نيام فمن صلّى المغرب والعشاء الآخرة وصلاة الغداة في المسجد في جماعة فكأنما أحيى الليل كله . وإفشاء السلام أن لايبخل بالسلام على أحد من المسلمين[1].

قوله تعالى : وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً الا خطأ ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى أهله الا أن يصدقوا فان كان من قوم عدو لكم وهومؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة الى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً (٩٢) .

إنّ الله عزّ وجلّ قد بيّن لامّة محمد في هذه الآية حكم المؤمن الذي يقتل مؤمناً ، والقتل لايخلو إمّا أن يكون عن عمد أو عن خطأ .

أمّا قتل العمد فلايمكن أن يصدر عن مؤمن لأنّ الله قد نهى عنه المؤمنين فمن كان مؤمناً لايفعل مانهاه الله عنه ، ولذا نفاه الله عنه بقوله : « **وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً** » أي من صدر منه قتل المؤمن فليس بمؤمن .

---

(١) بحار الانوار : ج٨٨ ص٧ ب٨٣ ح١٠ .

وأمّا قتل الخطأ فيمكن أن يصدر من المؤمن ، فاذا اتفق ذلك منه فلابدّ له من تدارك الخطأ والتخلص من تبعة هذا القتل لأنّ دم المؤمن محترم وإن وقع خطأً ، وقد بيّن الله تعالى في هذه الآية كيفية التخلّص من تبعة قتل المؤمن، وقد جعل المؤمن المقتول على ثلاثة أقسام :

الأول : أن يكون المقتول مؤمناً ويكون قومه مؤمنين ، فهذا عليه أن يعتق رقبة مؤمنة وأن يسلّم الدية الى أهله ، والدية مائة من الابل أو ألف دينار ذهب أو عشرة آلاف أو اثني عشر ألف درهم فضة .

الثاني : أن يكون المقتول مؤمناً ولكن قومه غير مؤمنين ، يعني يكون قومه من الكافرين ، وهؤلاء على قسمين لأنّ الكافرين إمّا محاربين وإمّا من أهل الذمّة ، فاذا كان قوم المقتول من المحاربين ، فكيفية التخلّص من تبعته أن يعتق رقبة مؤمنة فقط ، وليس عليه دية حيث إنّ قوم المقتول من الكافرين فلا يدفع لهم الدية .

الثالث : هو القسم الثاني من الكافرين وهم غير المحاربين ، أي من كان لهم مع المسلمين ميثاق وذمّة وهم يؤدون الجزية الى المسلمين ولكن المقتول من المؤمنين وهذا يكون التخلّص من تبعة قتله بأن يدفع الدية الى أهله ويعتق رقبة مؤمنة وإن لم يجد رقبة مؤمنة صام شهرين متتابعين ، وقال بعضهم : في هذه الصورة أنّ المقتول وإن لم يكن مؤمناً فعلى القاتل أن يمتثل الحكم المذكور . هذا كله بالنسبة الى قتل الخطأ .

وأمّا قتل العمد فقد أخبر الله عنه بقوله :

ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً (٩٣) .

لقد تقدم في سورة البقرة حكم القتل عمداً ومايترتب على القاتل من القصاص وهي العقوبة في الدنيا، وفي هذه الآية ذكر الله العقوبة الاخروية وهي الخلود في نار جهنم وحلول غضب الله عليه واللعنة من الله والعذاب العظيم . فهذه أربعة أنواع من العقاب كتبها الله على قاتل المؤمن عمداً ، كل نوع منها بانفراده لاتتحمله الجبال ولاتطيقه السماوات والأرض ، فكيف بهذا الجسم الضعيف ! وهل يطيق أن يتحمل هذه الأنواع الأربعة ؟ أوهل يطيق تحمل واحد منها ؟ أوهل يطيق تحمل جزء الواحد منها، هذا الانسان الضعيف الذي لايطيق الحرّ ولا البرد، ولا يطيق الصبر على لذع البقة أو البرغوث ؟ كيف يتحمل هذا كله ؟ وهل يفكر من يقدم على قتل المؤمن في هذه الامور الأربعة ؟ وهل يعرفها بحقيقتها؟

فالأولى والأنسب ذكر شيء من أوصاف هذه الامور الأربعة التي أعدها الله لقاتل المؤمن حتى يتنبه من يريد أن يفعل ذلك والذي يعينه أو يسبب له ذلك ، فلعله يرتدع عن نيته .

أما جهنم وصفاتها فكل أحد قد سمع به ، وكلامنا يكون مع المصدق بذلك ، أمّا المكذب به فلسنا معه ولاهو معنا . وقد نزلت آيات عديدة في وصفها نذكر بعضها هنا ، منها قوله تعالى :« إنّا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماءٍ كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً »[1] وقوله تعالى : « فالّذين كفروا قطّعت لهم ثياب من نار يصبّ من فوق رؤوسهم الحميم * يصهر به مافي بطونهم والجلود * ولهم مقامع من حديد * كلّما أرادوا أن يخرجوا منها من غمّ اعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق »[2] . وقوله تعالى : « كلّما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب »[3] .

---

(١) الكهف : ٢٩ .

(٢) الحج : ١٩ ــ ٢٢ .

(٣) النساء : ٥٦ .

وقوله تعالى: «ثمّ إنّكم أيّها الضالّون المكذّبون * لآكلون من شجر من زقوم * فمالئون منه البطون * فشاربون عليه من الحميم * فشاربون شرب الهيم * هذا نزلهم يوم الدين»[١]. وقوله تعالى: «إنّ جهنّم كانت مرصاداً * للطاغين مآباً * لابثين فيها أحقاباً * لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً * إلّا حميماً وغسّاقاً * جزاءً وفاقاً * إنّهم كانوا لا يرجون حساباً * وكذبوا بآياتنا كذاباً * وكلّ شيء أحصيناه كتاباً * فذوقوا فلن نزيدكم إلّا عذاباً»[٢]. وقوله تعالى: «خذوه فغلّوه * ثمّ الجحيم صلّوه * ثمّ في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه»[٣].

معنى الاحقاب :

قال الفخر الرازي : واعلم أنّ الأحقاب واحدها حقب وهو ثمانون سنة عند أهل اللغة ، والحقب السنون واحدتها حقبة ، وهي زمان من الدهر لاوقت له.

ثم نقل عن بعض المفسرين فيه وجوه :

(أحدها) قال عطاء والكلبي ومقاتل عن ابن عباس في قوله : «أحقاباً» الحقب الواحد بضع وثمانون سنة والسنة ثلثمائة وستون يوماً واليوم ألف سنة من أيام الدنيا . ونحو هذا روى ابن عمر مرفوعاً .

(وثانيها) سأل هلال الهجري علياً عليه السلام فقال : الحقب مائة سنة والسنة اثنا عشر شهراً والشهر ثلاثون يوماً واليوم ألف سنة .

(وثالثها) قال الحسن : الأحقاب لايدري أحد ماهي ، ولكن الحقب الواحد سبعون ألف سنة ، اليوم منها كألف سنة مما تعدون[٤] . وقد اشتمل القرآن على كثير من الآيات في وصف جهنم وأنواع عذابها .

---

(١) الواقعة : ٥١ ــ ٥٦ .
(٢) النبأ : ٢١ ــ ٣٠ .
(٣) الحاقة : ٣٠ ــ ٣٢ .
(٤) تفسير الرازي : ج٣١ ص١٣ .

أبواب جهنم :

قال القمي في تفسير قوله تعالى : « لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم »[١] إن الله جعلها سبع دركات أعلاها الجحيم ، يقوم أهلها على الصفا منها تغلي أدمغتهم فيها كغلي القدور بما فيها[٢].

الصفا : الحجر الصلد الضخم الذي لا ينبت[٣].

ثم قال القمي في تفسيره :(والثانية) لظى ،« نزاعة للشوى * تدعو من أدبر وتولى * وجمع فأوعى »[٤].

(والثالثة) سقر، « لا تبقي ولا تذر * لواحة للبشر * عليها تسعة عشر »[٥].

(والرابعة) الحطمة، «ترمي بشرر كالقصر* كأنه جمالة صفر»[٦] تدق كل من صار إليها مثل الكحل، فلا تموت الروح، كلما صاروا مثل الكحل عادوا .

(والخامسة) الهاوية ، فيها ملأ يدعون يامالك أغثنا ، فاذا أغاثهم جعل لهم آنية من صفر من نار فيها صديد ماء يسيل من جلودهم كأنه مهل، فاذا رفعوه ليشربوا منه تساقط لحم وجوههم فيها من شدة حرها ، وهو قول الله عزّ وجلّ : «وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً»[٧].

ومن هوى فيها هوى سبعين عاماً في النار كلما احترق جلده بدل جلداً غيره.

(والسادسة) السعير ، فيها ثلاثمائة سرادق من نار ، في كل سرادق ثلاثمائة قصر من نار ، وفي كل قصر ثلاثمائة بيت من نار ، وفي كل بيت ثلاثمائة لون من عذاب النار، فيها حيّات من نار وعقارب من نار وجوامع من نار وسلاسل من نار

---

(١) الحجر : ٤٤ .
(٢) تفسير القمي : ج١ ص٣٧٦ .
(٣) لسان العرب : ج١٤ ص٤٦٤ مادة « صفا » .
(٤) المعارج : ١٦ ـ ١٨ .
(٥) المدثر : ٢٨ ـ ٣٠ .
(٦) المرسلات : ٣٢ و٣٣ .
(٧) الكهف : ٢٩ .

وأغلال من نار ، وهو الذي يقول الله عزّ وجلّ : « إنّا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً »[١].

(والسابعة) جهنم ، وفيها الفلق ، وهو جبّ في جهنم اذا فتح أسعر النار سعراً، وهو أشدّ النار عذاباً .

وأمّا صعوداً [أي في قوله تعالى: « سأرهقه صعوداً »[٢]] فجبل من صفر من نار وسط جهنم.

وأما أثاماً [أي في قوله تعالى: « ومن يفعل ذلك يلق أثاماً »[٣]] فهو وادٍ من صفر مذاب يجري حول الجبل، فهو أشدّ النار عذاباً[٤] والآيات في هذا الباب كثيرة.

وأمّا الأخبار فأكثر من الكثير .

فمنها : ماعن إسحاق بن عمار عن الكاظم عليه السلام في حديث طويل يقول فيه : يا إسحاق إنّ في النار لوادياً يقال له سقر ، لم يتنفس منذ خلقه الله تعالى ، لو أذن الله عزّ وجلّ له في التنفس بقدر مخيط لأحرق ماعلى وجه الأرض ، وإنّ أهل النار ليتعوذون من حرّ ذلك الوادي ونتنه وقذره وما أعدّ الله فيه لأهله ، وإنّ في ذلك الوادي لجبلاً يتعوذ جميع أهل ذلك الوادي من حرّ ذلك الجبل ونتنه وقذره وما أعدّ الله فيه لأهله ، وإنّ في ذلك الجبل لشعباً يتعوذ جميع أهل ذلك الجبل من حرّ ذلك الشعب ونتنه وقذره وما أعدّ الله فيه لأهله ، وإنّ في ذلك الشعب لقليباً[٥] يتعوذ أهل ذلك الشعب من حرّ ذلك القليب ونتنه وقذره وما أعدّ الله فيه لأهله، وإنّ في ذلك القليب لحية يتعوذ جميع أهل ذلك القليب من خبث تلك الحية ونتنها وقذرها وما أعدّ الله في أنيابها من السمّ لأهلها، وإنّ في جوف

(١) الانسان : ٤ .
(٢) المدثر : ١٧ .
(٣) الفرقان : ٦٨ .
(٤) تفسير القمي : ج١ ص٣٧٦ و٣٧٧ .
(٥) القليب : البئر .

تلك الحية لصناديق فيها خمسة من الامم السالفة واثنان من هذه الامّة ، قال : جعلت فداك ومن الخمسة ومن الاثنان ؟ قال: أمّا الخمسة فقابيل الذي قتل هابيل ونمرود الذي حاجّ إبراهيم في ربه فقال: أنا احيي واميت ، وفرعون الذي قال أنا ربكم الأعلى ، ويهود الذي هوّد اليهود ، وبولس الذي نصّر النصارى، ومن هذه الامّة أعرابيان[1].

عن النبي ﷺ قال : تكلم النار يوم القيامة ثلاثة : أميراً ، وقارئاً ، وذا ثروة من المال ، فتقول للأمير: يامن وهب الله له سلطاناً فلم يعدل ، فتزدرده كما يزدرد الطير حبّ السمسم. وتقول للقاريء: يامن تزيّن للناس وبارز الله بالمعاصي فتزدرده . وتقول للغني: يامن وهب الله له دنياً كثيرة واسعة في غنى وسأله الفقير الحقير اليسير قرضاً فأبى إلا بخلاً فتزدرده[2] .

وفي كتاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لأهل مصر يصف فيها النار قال عليه السلام : احذروا ناراً قعرها بعيد ، وحرها شديد، وعذابها جديد، دار ليس فيها رحمة ، ولاتسمع فيها دعوة ، ولاتفرج فيها كربه[3].

وعن علي عليه السلام أنّ النبي ﷺ قال : والذي نفس محمّد بيده لو أنّ قطرة من الزقوم قطرت على جبال الأرض لساخت الى أسفل سبع أرضين ولما أطاقته فكيف بمن هو طعامه ! والذي نفسي بيده فلو أن قطرة من غسلين قطرت على جبال الأرض لساختها الى أسفل سبع أرضين ولما أطاقته فكيف بمن هو شرابه ! والذي نفسي بيده لو أنّ مقمعاً واحداً مما ذكره الله في كتابه وضع على جبال الأرض لساخت

---

(١) بحار الانوار : ج٨ ص٣١٠ ح٧٧ نقلا عن الخصال : ج٧ ص٣٩٨ ح١٠٦ باب السبعة وفيه «يونس» بدل «بولس» .

(٢) الخصال : ج١ ص١١١ ح٨٤ باب الثلاثة .

(٣) نهج البلاغة (صبحي الصالح) : ص٣٨٤ كتاب٢٧ من رسالة له عليه السلام الى محمد ابن أبي بكر حين قلده مصر .

الى أسفل سبع أرضين ولما أطاقته فكيف بمن يقع عليه يوم القيامة في النار!(١).

ومن دعاء الامام سيد الساجدين عليه السلام بعد صلاة الليل: اللّهمّ إني أعوذ بك من نار تغلّظت بها على من عصاك وتوعدت بها من صدف عن رضاك ، ومن نار نورها ظلمة وهيّنها أليم وبعيدها قريب، ومن نار يأكل بعضها بعضاً ويصول بعضها على بعض ، ومن نار تذر العظام رميماً وتسقي أهلها حميماً ، ومن نار لا تبقي على من تضرع إليها ولا ترحم من استعطفها ولا تقدر على التخفيف عمن خشع لها واستسلم إليها ، تلقي سكانها بأحرّ مالديها من أليم النكال وشديد الوبال، وأعوذ بك من عقاربها الفاغرة أفواهها وحيّاتها الصالقة بأنيابها وشرابها الذي يقطع أمعاء وأفئدة سكانها وينزع قلوبهم ، وأستهديك لما باعد منها وأخر عنها(٢).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام : واعلموا عباد الله أنه ليس لهذا الجلد الرقيق صبر على النار ، فارحموا نفوسكم فإنكم قد جربتموها في مصائب الدنيا فرأيتم جزع أحدكم من الشوكة تصيبه والعثرة تدميه والرمضاء تحرقه ، فكيف اذا كان بين طابقين من نار ضجيع حجر وقرين شيطان ! أعلمتم أنّ مالكاً اذا غضب على النار حطم بعضها بعضاً لغضبه واذا زجرها توثبت بين أبوابها جزعاً من زجرته ، أيها اليفن الكبير الذي قد لهزه القتير ، كيف بك اذا التحمت أطواق النار بعظام الأعناق ونشبت الجوامع حتى أكلت لحوم السواعد ! فالله الله معشر العباد وأنتم سالمون في الصحة قبل السقم وفي الفسحة قبل الضيق ، فاسعوا في فكاك رقابكم من قبل أن تغلق رهائنها(٣).

هذا هو النوع الأول من عقاب قاتل المؤمن عمداً المذكور في قوله تعالى :

---

(١) بحار الانوار : ج٨ ص٣٠٢ ب٢٤ ح٦١ نقلا عن الدروع الواقية لابن طاووس مع اختلاف يسير .

(٢) الصحيفة السجادية : الدعاء٣٢ .

(٣) نهج البلاغة: الخطبة١٨٣ .

«ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها» فقد سمعت بعض أوصاف جهنم.

وأمّا الخلود فمعناه ظاهر معروف ليس لـه آخر ولا انتهاء ولا ينقضي ، أي أنّ العذاب أبـداً ودائماً ، ومعنى الأبدي في الدنيا هو مدة العمر و كذلك معنى الأبدي في الآخرة، وأنّ الآخرة ليس فيها موت أبداً فالعذاب يبقى مادام الانسان.

أما النوع الثاني من عقاب قاتل المؤمن هو المنوه عنه بقوله تعالى:« **وغضب الله عليه** » ينبغي لمن قتل مـؤمناً أو سبّب ذلك أو أعان عليه أن يعرف معنى غضب الله وهل أنه يطيق ذلك؟ فإنّ معنى غضب الله على عبده هو إرادة عقابه، فاذا أراد الله عقابه هل يتمكن العبد أن يدفع ذلك العقاب عن نفسه ؟ أو يعتصم بأحد فينجيه من ذلك العقاب ؟ أو يخفف عنه شيئاً منه ؟ كلاّ إن ذلك لا يمكن أبداً .

وقد ورد أنّ الحواريين قالوا لعيسى بن مريم عليه السلام: يامعلّم الخير أعلمنا أيّ الأشياء أشد ؟ فقال : أشدّ الأشياء غضب الله عزّ وجلّ، قالوا : فبم يتقى غضب الله قال: بأن لا تغضبوا ، قالوا: وما بدء الغضب ؟ قال: الكبر والتجبر ومحقرة الناس[1].

وينبغي لكل مسلم أن يتذكر أنّ الله أوجب عليه في كل يوم وليلة خمس فرائض، وأوجب عليه أن يتعوذ بالله في كل فريضة من غضب الله حيث يقرأ الفاتحة ويقول فيها : « **إهدنا** الصراط المستقيم * صراط الّذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالّين » .

و كل من يقدم على قتل مؤمن فقد اختار بنفسه غضب الله وجره على نفسه فهو كاذب حيث يتعوذ منه في صلاته ، وينبغي للمؤمن أن يلتفت الى نفسه ولا يلقيها في هذا الأمر العظيم .

أما النوع الثالث من عقاب قاتل المؤمن هو الذي نوه الله عنه بقوله:«**ولعنه**» فإنه يستحقّ اللعن من الله .

واللعن : الطرد والابعاد من الله تعالى[2] فيكون القاتل مطروداً ومبعداً عن

---

(١) بحار الانوار : ج٧٢ ص٢٦٣ ب١٣٢ ح٥ .

(٢) النهاية لابن الاثير : ج٤ ص٢٥٥ .

الله، ومن طرده الله هل يرجى له أن يعود الى قربه ورحمته ؟ فهو بعيد عن رحمة الله وبعيد عن عفوه وبعيد عن جنته وبعيد عن شفاعة الشافعين، إنّ الذي يبعده أيضاً أنبياء الله وملائكته وعباده الصالحون ولا يقربه أحد، ومن كان بعيداً عن الله كان من الهالكين .

فعن الكافي قال : روي عن النبي ﷺ قال : لعن الله المحلّل والمحلّل له ، ومن يوالي غير مواليه ، ومن ادعى نسباً لا يعرف ، والمتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال ، ومن أحدث حدثاً في الاسلام ، أو آوى محدثاً ومن قتل غير قاتله أو ضرب غير ضاربه ، ومن لعن أبويه ، فقال رجل : يارسول الله أيوجد رجل يلعن أبويه ؟ فقال : نعم يلعن آباء الرجال وامهاتهم فيلعنون أبويه[1] .

أما النوع الرابع من عقاب قاتل المؤمن هو ماذكره الله بقوله : **«وأعد له عذاباً عظيماً »** .

إنّ الذي يظهر من الآيات ومن الأخبار أنّ العذاب في جهنم يختلف شدةً وضعفاً، وأنّ طبقاتها ودركاتها يختلف عذابها وليست متساوية، وأنّ بعض العباد الكفرة أو العصاة يكون عذابهم شديداً . وكذلك قاتل المؤمن فعذابه عظيم كما ذكر في الآية ، وإنّ الشيء الذي يعبّر الله عنه بكلمة « عظيم » هو من أعظم الأشياء ولا يمكن أن يتصوره العقل البشري .

وقد روي عن حمران قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام في معنى قول الله عزّ وجلّ : « من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً »[2] قال: قلت : كيف كأنما قتل الناس جميعاً فربما قتل واحداً ، فقال عليه السلام : يوضع في موضع من جهنم إليه ينتهي شدة عذاب أهلها

---

(١) الكافي : ج٨ ص٧١ ح٢٧ .
(٢) المائدة : ٣٢ .

لو قتل الناس جميعاً لكان إنما يدخل ذلك المكان ، قلت : فإنه قتل آخر ؟ قال : يضاعف عليه[1] .

وروي عن أبي جعفر عليه السلام قال : من قتل مؤمناً متعمداً أثبت الله عزّ وجلّ على قاتله جميع الذنوب وبريء المقتول منها ، وذلك قول الله عزّ وجلّ : « إني اريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار »[2].

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال : لا يزال المؤمن في فسحة من دينه مالم يصب دماً حراماً[3].

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: لزوال الدنيا أيسر على الله من قتل المؤمن[4].

وقال صلى الله عليه وآله : لو أنّ أهل السماوات السبع وأهل الأرضين السبع اشتركوا في دم مؤمن لأكبّهم الله جميعاً في النار[5].

وعن الصادق عليه السلام قال : أوحى الله الى موسى بن عمران : ياموسى قل للملأ من بني اسرائيل إياكم وقتل النفس الحرام بغير حق ، فمن قتل منكم نفساً في الدنيا قتله الله في النار مائة ألف قتلة مثل قتلة صاحبه[6].

وعن أبي سعيد الخدري قال : وجد قتيل على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله فخرج مغضباً حتى رقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يقتل رجل من المسلمين لا يدرى من قتله ! والذي نفسي بيده لو أنّ أهل السماوات والأرض اجتمعوا على قتل مؤمن أو رضوا به لأدخلهم الله في النار ، والذي نفسي بيده لا يجلد أحد أحداً ظلماً إلا جلد غداً في نار جهنم مثله ، والذي نفسي بيده لا يبغضنا أهل البيت أحد

---

(١) الوسائل : ج١٩ ص٣ ب١ ح٢ .

(٢) الوسائل : ج١٩ ص٧ ب١ ح١٦ ، والاية٢٩ من سورة المائدة .

(٣) الوسائل : ج١٩ ص٥ ب١ ح٨ .

(٤) بحار الانوار : ج١٠٤ ص٣٨٢ ب١ ح٦٩ .

(٥) بحار الانوار : ج١٠٤ ص٣٨٢ ب١ ح٧٠ .

(٦) الوسائل : ج١٩ ص٦ ب١ ح١٥ .

إلا أكبه الله على وجهه في نار جهنم [١].

فيكون قاتل المؤمن مستحقاً لهذه الأنواع الأربعة أو الخمسة اذا جعلنا دخول النار نوعاً والخلود فيها نوعاً آخر ، نسأل الله أن يجيرنا من قتل المؤمن

أمّا الاعانة عليه فقد سمعت قول النبي صلى الله عليه وآله: لو أنّ أهل السماوات السبع وأهل الأرضين السبع اشتركوا في دم مؤمن لأكبّهم الله جميعاً في النار [٢].

وقد روي عن الصادق عليه السلام أنه قال: يجيء يوم القيامة رجل الى رجل حتى يلطخه بدم والناس في الحساب فيقول: ياعبدالله مالي ولك ؟ فيقول : أعنت عليّ يوم كذا وكذا بكلمة فقتلت [٣].

هذا كله لمن يقتل مؤمناً في دار الدنيا فيشفي غيظه ويرضي نفسه وهواه وشيطانه .

ولنختم الموضوع بآية تخبر عن ختم أفواههم قال تعالى :« ألم أعهد إليكم يابني آدم أن لاتعبدوا الشيطان إنّه لكم عدوّ مبين * وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم * ولقد أضلّ منكم جبلاّ كثيراً أفلم تكونوا تعقلون * هذه جهنّم التي كنتم توعدون * إصلوها اليوم بما كنتم تكفرون * اليوم نختم على أفواههم وتكلّمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون » [٤].

هذه هي المرحلة النهائية ، فليحذرها من يعقل ومن زعم أنه يعقل ومع ذلك يلقي بنفسه في النار يقال له : « أفلم تكونوا تعقلون » .

قوله تعالى : ياأيها الذين آمنوا اذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا

---

(١) بحار الانوار : ج١٠٤ ص٣٨٤ ب٢ ح٥ .
(٢) بحار الانوار : ج١٠٤ ص٣٨٢ ب١ ح٦٩ .
(٣) الوسائل : ج١٩ ص٩ ب٢ ح٣ .
(٤) يس : ٦٠ ــ ٦٥ .

ولاتقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا ان الله كان بما تعملون خبيراً (٩٤) .

إنّ هذه الآية من توابع الآية التي قبلها التي ذكرت فيها الشدة والغلظة في قتل المؤمن ، وإنّ تلك الأنواع من العقاب قد جعلها الله على قاتل المؤمن المحقق الايمان عند القاتل ، وفي هذه يذكر حكم قتل الانسان المشكوك الايمان وهو الذي يظهر علامة من علائم الايمان ولكن المسلم لايعتقد بإيمانه فيقتله . وإنّ الله لايرضى لهذا القاتل أن يرتكب هذا الفعل لمجرد الشك في قوله وعدم الاطمئنان بإيمانه .

ويعلّمنا الله ويرشدنا الى مايريده منا في هذا الباب، فقد أمرنا بعد أن نادانا بقوله : « **يأأيها الذين آمنوا** » ثم وصف فعلنا الذي أتينا به بأنه خالص لله ليس فيه شائبة دنيوية فقال : «**اذا ضربتم في سبيل الله**» ليكون تحركنا من مكاننا وطيّ المسافة التي بين وطننا وبين المحل المقصود هو كونه في سبيل الله ولنصرة دينه وتأييد الاسلام ولمحق كلمة الكفر ، وهذا الشرط يلزم أن يكون ملازماً لأول حركة نتحركها ناوين بها السفر وقطع المسافة لأجل غزو العدو، وبحيث لم تكن نيتنا لأجل غنم الأموال .

فإذا خلصت النية وصحت السريرة وضربنا في الأرض قاصدين وجه الله يلزمنا على هذا أن نعامل الناس على مايظهر على لسانهم من الأقوال ، ولايجوز لنا أن نعاملهم على خطرات قلوبنا، فإن سمعنا منهم اعترافاً بكلمة الشهادة التي أمرنا النبي ﷺ بالتلفظ بها أول بعثته وهي :« أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمداً رسول الله » فهذا يكفي في حقن دمه وماله ، واذا حيّانا بتحية الاسلام وقال : السلام

عليكم فهذا يكفي في الدلالة على كونه مسلماً .

وقد أمرنا الله تعالى ـ اذا كانت نياتنا على ما وصفه في سبيل الله ـ فقال : « فتبينوا » أي اذا ظهرت منه إحدى العلامات الدالّة على الاسلام يلزمكم التثبت والتأني والاستفسار عن حاله حتى تظهر لكم جلية أمره ولاتسارعوا الى تكذيبه فتقولوا له: « لست مؤمناً » ثم تقتلوه وتأخذوا أمواله، وغرضكم من هذا التكذيب أخذ الأموال واكتسابها ، وهذا يكشف عن عدم كون غرضكم الأول أنه في سبيل الله ولوجهه .

فينبغي لكم بعد ماعرفتم الحكم أن تكفّوا عن قتل كل من ظهرت منه امارة تدلّ على الاسلام ، ولاتردوا عليه بأنك مؤمناً أو لست مؤمناً .

واذا أردتم عرض الدنيا أي الأموال التي تكون لكم في الدنيا وهي عرض زائل سريع الزوال «فعند الله مغانم كثيرة» أي أنّ الله هو مسبب الأسباب وهو رازق العباد وهو الذي يدلّكم على ماتغنمون منه الأموال، فلاتأخذوا ممالايرضى به الله ونهاكم عنه ، ولاتطمعوا بالمال بسبب قتل من أظهر لكم الاسلام بذكر الشهادة أو بالتحية الاسلامية، فإنّ الله عنده مغانم الآخرة بالاضافة الى مغانم الدنيا وهي كثيرة دائمة ، ومغانم الدنيا عرض زائل فلاترغبوا بالزائل وتزهدوا بالدائم بل ينبغي للعاقل أن يرغب بالدائم الكثير ويزهد بالزائل القليل .

ثم إنّ الله عزّوجلّ خاطب القوم الذين لم يثقوا بقول من أدى الشهادة أو التحية الاسلامية ولم يجعلوها دالـة على إسلامه فقال لهم : إنكم كنتم مثلهم في أول أمركم وقد قبلت منكم هذه العلامة الاسلامية، وقد حقنتم بها دمكم وحفظتم بها أموالكم ، فلماذا لم تعاملوا هذا الرجل كما عاملكم من كان قبلكم مسلماً؟ فقال تعالى : «كذلك كنتم من قبل » أي أنّ هذا الذي قتلتموه كما كان مستخفياً من قومه خوفاً على نفسه كذلك كنتم أنتم مستخفين بدينكم من قومكم خوفاً على أنفسكم، أو كما أنكم كنتم كفاراً فهداكم الله كذلك كان هذا الذي قتلتموه

كافراً فهداه الله ، أو كما أنكم كنتم في ابتداء إسلامكم أذلّاء وآحاداً اذا سار رجل منكم خاف أن يختطف كذلك صار هذا الرجل، فلاينبغي للمسلم أن يقتله ويأخذ أمواله ، فإنما كان خوفكم وخوفه من الكافرين لا من المسلمين، فانعكس الأمر وصار المرء المسلم يحذر من المسلمين وإن حيّاهم بتحية الاسلام واعترف بالشهادة لله بالوحدانية وللنبي بالرسالة ، فلايليق بكم ياأيها الذين آمنوا أن تقولوا لمن أظهر الاسلام لست مؤمناً بل تبيّنوا حتى ينكشف لكم الأمر ، فقد كرر الأمر بالتبيّن مرتين، مرة في أول الآية ليكون عملنا على ذلك، ومرة في آخر الآية بعدما بيّن لنا إنا كنا كذلك في بدء إسلامنا خائفين مستخفين أذلّاء .

ثم قال : « **فمن الله عليكم فتبينوا** » أي منّ عليكم بإظهار دينه بعدما كنتم مستخفين فيه متكتمين في إيمانكم وإعزاز أهله بعدما كانوا أذلّاء خائفين من أهل الشرك. وقيل: معنى «منّ عليكم» أي تاب عليكم بعدما فعلتم هذه الفعلة وهي قتل من أظهر لكم الاسلام فتبيّنوا بعد هذا ولاتعودوا لمثلها .

ماقاله الطبرسي :

قال في مجمع البيان : فإنه قد قيل في سبب النزول : إنها نزلت في اسامة ابن زيد وأصحابه ، بعثهم النبي صلى الله عليه وآله في سرية فلقوا رجلاً قد انحاز بغنم له الى جبل وكان قد أسلم فقال لهم : السلام عليكم لاإله إلا الله محمد رسول الله ، فبدر إليه اسامة فقتله واستاقوا غنمه ، عن السدي .

وروي عن ابن عباس وقتادة . أنها لما نزلت الآية حلف اسامة أن لايقتل رجلاً قال لاإله إلا الله ، وبهذا اعتذر الى علي لما تخلّف عنه ، وان كان عذره غير مقبول لأنه قد دلّ الدليل على وجوب طاعة الامام في محاربة من حاربه من البغاة ولاسيما وقد سمع النبي صلى الله عليه وآله يقول : حربك ياعلي حربي وسلمك سلمي .

وقيل : نزلت في محلم بن جثامة الليثي ، وقد بعثه النبي صلى الله عليه وآله في سرية

فلقيه عامر بن الأضبط الأشجعي فحيّاه بتحية الاسلام وكان بينهما إحنة، فرماه بسهم فقتله، فلما جاء الى النبي ﷺ جلس بين يديه وسأله أن يستغفر له. فقال ﷺ: لاغفر الله لك فانصرف باكياً، فما مضت عليه سبعة أيام حتى هلك ودفن فلفظته الأرض، فقال لما اخبر به: إنّ الأرض تقبل من هو شرّ من محلم صاحبكم ولكن الله أراد أن يعظّم من حرمتكم. ثم طرحوه بين صدفي جبل وألقوا عليه الحجارة فنزلت الآية، عن الواقدي ومحمد بن اسحاق بن يسار رواية عن ابن عمر وابن مسعود وأبي حدود.

وقيل: كان صاحب السرية المقداد، عن سعيد بن جبير.

وقيل: أبو الدرداء، عن ابن زيد[1] انتهى مافي المجمع.

هذا كله بالنسبة الى قتل النفس وأخذ مال المقتول سواء كان في ذلك الزمان أم في زماننا هذا، فإنّ النبي ﷺ قال: من قال لاإله إلا الله محمد رسول الله حقن ماله ودمه وعرضه[2].

أما بالنسبة الى بقية الأحكام التي تترتب على الاسلام فلايمكن الحكم بها إلا بعد ثبوت كونه مؤمناً حقيقياً، فإنّ الله قد ذكر في آيات كثيرة أنّ من اتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين فإنه لايعدّ من المؤمنين، وقد كان في ذلك الزمان جماعة كثيرة - ممن أظهروا الاسلام - يتخذون اليهود والنصارى أولياء من دون المؤمنين، فسماهم الله منافقين، وماكان يظهر عليهم شيء في الخارج ولايعرفهم أحد غير النبي ومن أخبره النبي بهم

أما في زماننا هذا فإنّ جماعات المسلمين قد تفرقوا فرقاً كثيرة وصاروا أحزاباً، وكل حزب يدعو الى مبدأ إلحادي بصريح القول بلاخوف ولاحياء، واذا اجتمع مع المؤمنين يدعي أنه منهم، فهذا وان كان هو بذاته لايعمل بمضمون

---

(١) مجمع البيان: ج٢ ص٩٥.

(٢) كنز العمال: ج١ ص٨٦ ح٣٦٥ نقلا بالمعنى.

الآية لأنا رأيناهم لما تمكّنوا من بعض الأمر صاروا يقتلون أهل كلمة لا إله إلا الله بالجملة بل جعلوا يقتلون كل من لم يدخل في حزبهم ولم ينتم إليهم ويستحلّون أمواله وعرضه ، ولكن المؤمن المطيع لله وللرسول ـ وإن لم يعتبر هؤلاء القوم من المسلمين ـ لا يقدم على قتلهم ولا يستحل أموالهم لأنهم يقولون لا إله إلا الله، وهذا دليل على كذبهم وبطلان ادعائهم .

ثم قال تعالى في آخر الآية : «ان الله كان بما تعملون خبيراً» يعلم ما انطوت عليه قلوبكم من خير أو شر ، فإنّ في هذه الجملة وعد للمطيعين ووعيد للعاصين فإنّ الله خبير بما ينوي العبد قبل أن يتكلم به أو يفعله ، نسأله تعالى حسن العاقبة .

قوله تعالى : انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً (١٠٥) واستغفر الله ان الله كان غفوراً رحيماً (١٠٦) .

الكتاب المنزل على النبي ﷺ هو القرآن الكريم، والقرآن فيه علم ما كان وما يكون وحكم ما كان وما يكون الى يوم القيامة، وأنّ الله يقول لرسوله: إنا أنزلنا إليك هذا القرآن الذي فيه حكم كل شيء، وكل خبر من أخباره حق، وكل حكم من أحكامه حق، وبعد أن علّمك الله تأويل هذا الكتاب وتفسيره فصرت ترى الأحكام الحقة الحقيقية كلها رأي العين كأنها مصورة مجسمة لك. كل ذلك لأجل أن تحكم بين الناس فيما يقع بينهم من التخاصم والتنازع على الامور الدنيوية ، ولكي تعلّمهم من أحكام دينهم التي يحتاجونها لآخرتهم ، فإنّ البشر لا بدّ لهم من حاكم يحكم بينهم بالعدل ، وأنّ العدل الحقيقي لا يعرف إلا من قبل الله تعالى، وقد بيّنه الله لك ياأيها الرسول في مضامين هذا الكتاب، فاللازم عليك أن

يكون حكمك بين الناس مطابقاً لأحكام القرآن حرفياً ، فإنّ الانحراف عنه قد يوقع الحاكم في الزلل فيكون مساعداً للخائن من المتخاصمين فيحيف على صاحب الحق فيغدر حقه .

إنّ النبي ﷺ وإن كان منزهاً عن الانحراف ولكن الله ذكر له هذا الأمر ليكون قانوناً كلياً لكل من يجلس على كرسي القضاء، فإنّ الله يخبره وينذره بلزوم مطابقة حكمه للقرآن وأخذ أحكامه من القرآن ، فالقاضي الذي يقضي بين الناس يلزمه معرفة ما في القرآن من الأحكام ومعرفة الحلال والحرام منها ومعرفة الناسخ والمنسوخ والعام والخاص ، وإلا فليس له حقّ القضاء ويلزمه بعد معرفة الأحكام أن يكون عادلاً مخالفاً لهواه حتى لا يميل الى أحد المتخاصمين ولو كان من أحبّ الناس إليه وأعزهم عليه .

سبب النزول

ولقد ذكروا في سبب نزول الآية ـ كما في التبيان ـ أنها نزلت في بني إبيرق كانوا ثلاثة إخوة بشر وبشير ومبشر ، وكان بشر يكنى أبا طعمة فنقبوا على عم قتادة بن النعمان وأخذوا له طعاماً وسيفاً ودرعاً، فشكا ذلك الى ابن أخيه قتادة وكان قتادة بدرياً ، فجاء الى رسول الله ﷺ فذكر له القصة ، وكان في الدار رجل يقال له لبيد بن سهل ، وكان فقيراً شجاعاً مؤمناً ، فقال بنو إبيرق لقتادة : هذا عمل لبيد بن سهل ، فبلغ لبيداً ذلك ، فأخذ سيفه وخرج إليهم وقال: يا بني إبيرق أترمونني بالسرق وأنتم أولى به مني وأنتم المنافقون تهجون رسول الله ﷺ وتنسبون الى قريش! لتبيننن ذلك أو لأضعنّ سيفي فيكم . فداروه وقالوا: ارجع رحمك الله فأنت بريء من ذلك .

وبلغهم أنّ قتادة مضى الى رسول الله ﷺ فمشوا الى رجل من رهطهم يقال له أسير بن عروة ، وكان منطقياً لسناً ، فأخبروه فمشى أسير الى رسول الله

ﷺ في جماعة فقال: يارسول الله إنّ قتادة بن النعمان رمى جماعة من أهل الحسب منا بالسرق واتهمهم بماليس فيهم .

وجاء قتادة الى النبي ﷺ فأقبل عليه النبي وقال : عمدت الى أهل بيت حسب ونسب رميتهم بالسرق ! وعاتبه ، فاغتمّ قتادة ورجع الى عمه فقال : ليتني متّ ولم أكـن كلّمت رسول الله ﷺ فقد قال لي مـا كرهت ، فقال عمه : الله المستعان، فنزلت هذه الآية: «ومن يكسب خطيئةً أو إثماً ثمّ يرم به بريئاً» يعني لبيد بن سهل حين رماه بني إبيرق بالسرق « فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً» الى قوله : « وكان فضل الله عليك عظيماً »[1] .

فبلغ بنو إبيرق فخرجوا من المدينة ولحقوا بمكة وارتدوا ، فلم يزالوا بمكة مع قريش ، فلما فتح النبي مكة هربوا الى الشام فأنزل الله فيهم : « ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبيّن له الهدى »[2] الى آخر الآيات ، ولما مضى الى مكة نـزل على سلامة بنت سعد بن شهيد امرأة من الأنصار كانت ناكحاً في بني عبدالدار بمكة، فهجاها حسان فقال :

وقد أنزلته بنت سعد و أصبحت	ينازعها جلد استها و تنازعـه
ظننتم بأن يخفى الذي قد صنعتم	و فينا نبيّ عنده الوحي واضعه

فحملت رحله على رأسها وألقته بالأبطح وقالت: ما كنت تأتيني بخير أهديت إليّ شعر حسان ، ونزل فيه قوله : « ومن يشاقق الرسول » . هذا قـول مجاهد وقتادة بن النعمان وابن زيد وعكرمة .

إلا أنّ قتادة وابن زيد وعكرمة قالوا : إنّ بني إبيرق طرحوا ذلك على يهودي يقال له زيد بن السمين، فجاء اليهودي الى رسول الله ﷺ .

وبمثله قال ابن عباس .

---

(١) النساء : ١١٢ و١١٣

(٢) النساء : ١١٥ .

وقال ابن جريج : هذه الآيات كلها نزلت في أبي طعمة ابن أبي إبيرق الى قوله « إنّ الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء »[١] وقال : رمى بالدرع في دار أبي مليك ابن عبدالله الخزرجي، فلما نزل القرآن لحق بقريش[٢] انتهى مافي التبيان .

وبعدما عرفنا سبب نزول الآيات تبيّن من أقوال المفسرين أنّ القضية التي كانت سبباً لنزول الآيات هي قضية خيانة ممن سمى نفسه مسلماً ثم اتهم شخصاً بريئاً بالخيانة التي ارتكبها، فإنّ أقوالهم وإن اختلفت إلا أنهم اتفقوا على أصل القضية .

ثم إنّ الله تعالى من رحمته لعباده ورأفته بهم يريد أن يصل كل ذي حق الى حقه وأن لايظلم أحداً من العباد وإن كان كافراً ، وقد أمر أن يكون الحكام بين الناس من ذوي العلم والعدالة ، فذكر لنا في آية٥٨ من هذه السورة اشتراط العدالة وهي قوله : « إنّ الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات الى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » وحيث إنّ الحكم بالعدل يشتبه على البشر ولا يمكن معرفته أوضحه لنا في هذه الآية بقوله : «**انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله** » فيكون الشرط في كل من يقضي بين الناس أن يكون عالماً بأحكام القرآن تفصيلاً .

ويشترط أيضاً في القاضي أن لايجزم ولايعزم على شيء ولايهمّ بشيء إلا بعد أن يعرف المحق والمبطل من المتخاصمين، فإنه قد ذكر أنّ النبي ﷺ عاتب قتادة على نسبة السرق الى ابن إبيرق حيث إنّ قومه برأوه، وبعضهم ذكر أنه همّ أن يحكم على اليهودي المتهم ، وحيث إنّ قتادة أو اليهودي كانا بريئين مما نسب إليهما ، فإنّ الله أمر النبي ﷺ بالاستغفار ووصفه بكونه مخاصماً عن الخائن ،

(١) النساء : ١١٦ .
(٢) التبيان : ج٣ ص٣١٦ – ٣١٧ .

وهو لم يصدر منه إلا عتاباً لقتادة أو أنه همّ بالحكم ، فكيف بمن يعرف المحق والمبطل حقّ المعرفة ويميز بينهما وهو بصفته قاضياً ، ومع ذلك يريد أن يسلب حقّ المحق ويجعله للمبطل .

فكل من يريد أن يسلب شيئاً ليس له من صاحبه الحقيقي أو شيئاً قد سلبه من أهله وادعوا بـه ليستردوه وامتنع هذا الغاصب السالب من تمكين أهله منه فهو خائن ، وكل آمر أو مأمور أو موظف أو قاض أو محام يساعد هذا الغاصب السالب على ظلمه فهو ممن تنطبق عليه الآية، وكل محام يعلم بأنّ هذا غاصب ويتوكّل عنه ويدافع في المحاكم عنه فهو والغاصب سواء في الاثم، بل قد يكون الاثم كله عليه .

وأرجو من كل من يساعد غاصب حقوق الناس أن يتأمل في قوله تعالى : «**ولا تكن للخائنين خصيماً**». مع أنّ النبي ﷺ قد جاءه جماعة من عشيرة الخائن فزكّوه ومدحوه وقالوا : إنـه شريف حسيب ، ولم يفعل النبي ، إلا أنه همّ أن يحكم على اليهودي للمسلم المزكّى من جماعة المسلمين وقد أمره الله بالاستغفار.

فكيف بك أيها المؤمن اذا جعلت حكماً بين اثنين وعرفت المحق وعرفت الغاصب السالب ولكن الأول كان بعيداً عنك والثاني كان صديقاً لك، أو أنّ الأول لم يقل لك شيئاً والثاني أسرّ في اذنك شيئاً ، وهذا السرّ عند الله ظاهر جلي له صوت جهوري وأنت تظن أنـه خفي وهو أجلى من الشمس ، وسيكون مكشوفاً جلياً يوم القيامة يعلن به على رؤوس الأشهاد «ولا تكن للخائنين خصيماً» فتترك المحق وتحكم للخائن المبطل .

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في ذمّ القاضي الذي يقدم على القضاء بغير علم : فهو خائض عشوات ركّاب شبهات خبّاط جهالات ، لا يعتذر مما لا يعلم فيسلم ، ولا يعض في العلم بضرس قاطع فيغنم، يذري الروايات ذرو الريح الهشيم ، تبكي

منه المواريث و تصرخ منه الدماء ، و يستحل بقضائه الفرج الحرام و يحرم به الحلال(١) .

ماقاله المراغي :

قال في تفسيره للآيتين : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله » أي إنا أنزلنا إليك هذا القرآن بتحقيق الحق وبيانه لأجل أن تحكم بين الناس بما أعلمك الله به من الأحكام .

« ولاتكن للخائنين خصيماً » أي لاتكن لمن خان خصيماً ، أي مخاصماً ومدافعاً تدافع عنه من طالبه بحقه الذي خان فيه .

وخلاصة ذلك : إن عليك أن لاتتهاون في تحري الحق اغتراراً بلحن الخائنين وقوة جدلهم في الخصومة، لئلّا تكون خصيماً لهم وتقع في ورطة الدفاع عنهم . ويؤيد هذا حديث ام سلمة: إنما أنا بشر وأنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضي بنحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلايأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار .

«واستغفر الله» مما يعرض لك من شؤون البشر وأحوالهم بالميل الى من تراه ألحن بحجته أو الركون الى مسلم لأجل إسلامه تحسيناً للظن به، فهذا ونحوه صورته صورة من أتى ذنباً يوجب الاستغفار وإن لم يكن متعمداً للزيغ عن العدل والتحيّز للخصم . وفي هذا من زيادة الحرص على الحق والتشديد فيه ما لايخفى ، حتى كأن مجرد الالتفات الى قول المخادع يجب الاحتراس منه.

كما أن فيه إيماء الى أن الاعتقاد الشخصي والميل الفطري والديني لاينبغي أن يظهر لهما أثر في مجلس القضاء، والى أن القاضي لايساعد من ظن أنه صاحب الحق ، بل عليه أن يساوي بين المتخاصمين في كل شيء .

---

(١) نهج البلاغة : الخطبة ١٧ مع اختلاف فيه .

والنبي ﷺ لم يحكم في هذه القضية قبل نزول الآيات ولم يعمل بغير ما يعتقد أنه تأييد للحق، لكنه أحسن الظن في أمر بيّن له علّام الغيوب حقيقة الواقع فيه، وما ينبغي له أن يعامل به ذويه.

ثم رغبهم في المغفرة فقال: «ان الله كان غفوراً رحيماً» أي إنه تعالى مبالغ في المغفرة والرحمة لمن استغفره [١].

ماقاله سيد قطب:

قال في تفسيره للآيتين الآنفتين: كان الدرس الماضي درس الهجرة في سبيل الله ودرس الجهاد بكل ما فيه من تكاليف ومشقات وبكل ما يستتبعه من عداء أقوام واتقاء أقوام، ولقد سبق أن قلنا في أوائل هذه السورة أنّ التكافل الانساني هو الذي يلون جوها كله حتى حين يتحدث السياق عن القتال والجهاد، فهو قتال لاقامة العدل ورفع الظلم عن الضعاف الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً.

ولقد سبق الحديث عن الطاعة والنظام والحرب والقتال توجيه قوي الى الأمانة والعدل «إنّ الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل».

فالآن بعد انتهاء الحديث عن الهجرة في سبيل الله والقتال وما يستتبعه من عداوات ومن خصومات يعود السياق ليتحدث عن الحكم بين الناس وليذكّر بالعدل الذي لا يؤثر فيه عداء ولا اختلاف عقيدة، ولينهي عن الوقوف الى جانب الخائنين الذين يختانون أنفسهم، مشيراً بذلك الى حادثة وقعت في عهد الرسول ﷺ واتهم فيها يهودي اتهاماً ظالماً، فجاءت الآيات في صدر هذا الدرس لتبرئته ـ على ما سنفصل فيما بعد ـ محافظة على ذلك المبدأ الأساسي في الاسلام، مبدأ العدل المطلق لجميع الناس.

---

(١) تفسير المراغي: ج٥ ص١٤٨.

ومن ثم دعوة الى طاعة الرسول في أحكامه وتحذير من مشاقته التي تؤدي الى اتباع سبيل غير سبيل المؤمنين والى الاشراك بالله والركون الى الشيطان الذي توعد بإضلال فريق من عباد الله بالأماني والوعود التي تخدعهم عن الجزاء الذي ينال المحسن وينال المسيء.

وفي نهاية الدرس تجيء القاعدة الاسلامية في العمل والجزاء، أنّ صاحب السوء مجزى به، وصاحب الاحسان، ولا محاباة في جزاء، ولاتبديل لسنّة الله التي لاتتبع أماني أحد ولا ادعاء واه.

ثم تمجيد للاسلام الخالص إسلام الوجه كله لله مع الاحسان في العمل، وهي ملّة ابراهيم وملّة سائر المسلمين وهي الاسلام المطلق لله الذي له ما في السماوات والأرض بلاشريك.

«إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحقّ لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً». روي أنّ هذا القول نزل في رجل سرق درعاً من بيت جاره، فلما خاف أن تظهر عليه رمى بها في دار يهودي. فلما وجدت الدرع أنكر اليهودي أن يكون أخذها، وجاء بشهود من اليهود على أنّ سارقها رماها بداره تخلّصاً منها، فأعان قوم سارقها على اليهودي، وجاؤوا الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقنعونه بأن يحاجّ عن صاحبهم ويجادل أمام اتهام اليهودي له، فمال الرسول الى قولهم ـ لأنّ ظاهر الأمر يؤيّدهم ـ فأطلعه الله على جلية الأمر وتدبير المدبرين، ونهاه عن مخاصمة اليهودي، وأمره بالاستغفار مما كان منه من ميل. ومنّ عليه أن هداه الى الحق، وأبطل إضلال المضلّين.

وهكذا نرى أنّ غيرة الله على الحق والعدل ـ المطلقين من كل ميل المنزهين من كل شائبة ـ قد اقتضت إيراد اثنتي عشرة آية في تلك الحادثة الفردية، ذلك أنها نموذج لكل قضية يمكن أن يعترض طريق العدالة المطلقة فيها اختلاف العقيدة وتكاتف بعض الناس لهذا السبب على إخفاء الحقيقة.

«إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحق» فهو حق ، وتنزيله حق. وقد جاء ليحق الحق ، جاء لتحكم به بين الناس وقد أطاعك الله وعلّمك كيف تحكم ، فاحكم على حسب ما أراك الله «ولا تكن للخائنين خصيماً» تجادل عنهم وتدفع، وقد خانوا أمانة الله أن لا يعتدوا على الناس وخانوا أمانتك أن يصدقوك ولا يكذبوك وخانوا أنفسهم فأوردوها طريق المعصية وطريق الخيانة .

«واستغفر الله إنّ الله كان غفوراً رحيماً» استغفره مما هممت به من ميل الى تصديق الخائن وتكذيب البريء قبل التأكد الكامل والتثبت من حقيقة دعوى الفريقين[١].

قوله تعالى : ولا تجادل عن الذين يختانـون أنفسهم ان الله لا يحب من كان خواناً أثيماً(١٠٧) .

إنّ الله عزّ وجلّ وجّه النهي في هذه الآية لكل فرد من أفـراد العباد بقوله «ولا تجادل»، أي أيها العبد المخلوق لله اذا كنت تريد الراحة لنفسك ولسائر الخلق ولكل ذكر وانثى ولكل صغير وكبير ولكل حرّ ومملـوك ولكل مسلم ومعاهد فلا تجادل عن الذي يخون الناس في شيء من الأشياء ، فإنّ الخائن اذا رأى الناس كلهم ضده وأنهم غير راضين بعمله يقلع عن الخيانة لأنه يريد أن يعيش مع الناس ، وبالخيانة يبتعد الناس عنه فيضطر الى تركها .

فأنتم أيها العباد لا تجادلوا عنه ، ولا تساعدوه ، أنت أيها القاضي لا تجادل عنه ، وأنت أيها المحامي لا تتوكّل عنه .

واعلم أنّ الآية فيها شدة وصرامة لأنّ المجادلة عن الخائـن تشجعه على خيانته، والحال أنّ الخيانة فساد في الارض ، وأنتم أيها البشر لكم عقـول تميّز الحسن من القبيح وتعرفون أنّ الخيانة قبيحة، الخيانة مفسدة في الأرض، الخيانة

---

(١) في ظلال القرآن : ج٢ ص٧٥٢ .

وان لم تكن معك فإنها تضرك، فإنّ من خان غيرك اذا سكتّ عنه أو جادلت عنه يخونك غداً ويجادل عنه شخص آخر فلاتقدر على استرداد حقك.

لمن يخون الخائن ؟

الخائن هو الذي يتعدى على مال غيره فيحوزه لنفسه، أو يتعدى على منصب غيره فيعزله ويجلس في مجلسه، أو يتعدى على عرض غيره فيتجاوز عليه، فيقال فلان خان فلاناً، وقد وصف الله الخائن لغيره بكونه خائناً لنفسه فقال: **«ولاتجادل عن الذين يختانون أنفسهم»**. فكيف تتحقق خيانة المرء لنفسه؟ هل يسرق مال نفسه ؟ أو يغتصب منصب نفسه لنفسه ؟

نعم، إنه يخون نفسه ويتحقق ذلك ماله عن نفسه أو بسلب جاهه أو منصبه أو شرفه أو غير ذلك، فإنه اذا خان غيره فسرق منه شيئاً من المتاع أو سلبه منصبه أو خانه في شيء آخر فإنه سوف ينتقم منه ويقتص منه إمّا في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معاً، فإنه ـ أي الخائن ـ قد خان نفسه أي سلب من نفسه شرفها ومروءتها ودينها وأمانتها وسلب من نفسه عزها وسلب من نفسه سرورها وهناءها وراحتها وسلب نعيمها في الآخرة وجلب لنفسه العذاب والعقاب وسوء الحساب. ألا ترون بني إبيرق كيف سببوا على أنفسهم فسلبوا راحتها وخرجوا فارين من دار الاسلام الى دار الشرك وصارت عاقبة أمرهم أن ارتدوا مشركين، ولما فتح النبي ﷺ مكة فروا الى الشام فلم يقرّ لهم قرار في الدنيا وقرارهم في الآخرة النار.

وأعظم كلمة قالها الله هي الجملة الأخيرة من الآية وهي قوله: **«ان الله لايحب من كان خواناً أثيماً»** الخوان هو الذي يخون الناس بل يخون نفسه، فإنّ الله لايحبه، فإذا كان الله لايحبه كيف تحبه أنت أيها المؤمن وتجادل عنه! وكيف تجيب نفسك إذا سألتك لماذا تحبّ من لا يحبه الله؟ فإذا قلت لااحبه فكيف تجادل عنه، وإذا قلت احبه فقد أحببت من لا يحبه الله فتكون أنت مع الله ضداً لأنك

تحب من يكرهه الله ، هذا هو الخوان .

وأما الأثيم فهو الذي يخون ويرمي غيره بالخيانة، هو الذي يرتكب الجريمة ويتهم غيره بارتكابها كما في قضية بني الابيرق فإن الآيات كلها تتعلق بهذه القضية.

نداء لاخي المحامي

إن هذه الآية تنطبق عليك أكثر مما تنطبق على غيرك، وذلك اذا توكلت يوماً ما عن شخص وأنت تعلم أنه غير محق . فاعلم قبل ذلك أنت دخلت كلية الحقوق وطويت مراحلها الأربع وتحملت المشقات العظيمة وبعد أن نجحت وحصلت على الشهادة فلاتكن ممن يخون نفسه، ولاتكن محباً لمن لايحبه الله ، فإنك قد حصلت على شهادة في الدنيا فاجتهد أن تحصل على شهادة في العقبى .

فإن الحقوقي ينبغي أن يلاحظ جميع الحقوق ، حقوقه في الاولى وحقوقه في الاخرى ، فلاتضيّع الاخرى بالحصول على الاولى ، وقد تضيّع الاولى أيضاً فتكون ممن خسر الدنيا والآخرة «ولاتجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لايحب من كان خواناً أثيماً» .

ماقاله الفخر الرازى :

قال في تفسيره الكبير حول هذه الآية : والمراد بالذين يختانون أنفسهم (طعمة) ومن عاونه من قومه ممن علم كونه سارقاً، والاختيان كالخيانة يقال خانه واختانه، وذكرنا ذلك عند قوله تعالى :« علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم»[١] وإنما قال تعالى لطعمة ولمن ذب عنه أنهم يختانون أنفسهم لأن من أقدم على المعصية فقد حرم نفسه الثواب وأوصلها الى العقاب فكان ذلك منه خيانة مع نفسه ، ولهذا المعنى يقال لمن ظلم غيره إنه ظلم نفسه .

واعلم أن في الآية تهديداً شديداً وذلك لأن النبي عليه الصلاة والسلام لما

---

(١) البقرة : ١٨٧ .

مال طبعه قليلاً الى جانب طعمة وكان في علم الله أنّ طعمة كان فاسقاً فالله تعالى عاتب رسوله على ذلك القدر من إعانة المذنب ، فكيف حال من يعلم من الظالم كونه ظالماً ثم يعينه على ذلك الظلم بل يحمله عليه ويرغبه فيه أشدّ الترغيب[1] انتهى.

ماقاله المراغى :

قال في تفسيره عن قوله تعالى : « ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم » : هذا الخطاب وجّه الى النبي ﷺ وهو أعدل الناس وأكملهم مبالغة في التحذير من هذه الخلّة المعهودة في كثير من الحكّام ، وسمى خيانة غيرهم خيانة لأنفسهم لأنّ ضررها عائد إليهم، والذين يختانون هم هذا السارق ومن عاونه لأنه شريك له في الاثم والخيانة ولهم نظراء في كل زمان ومكان .

وخلاصة المعنى : لاتدافع عن هؤلاء الخونة ولاتساعدهم عند التخاصم «إنّ الله لايحب من كان خوّاناً أثيماً» المراد بعدم الحبّ البغض والسخط، أي أنّ الله يبغض من اعتاد الخيانة وألفت نفسه اجتراح السيئات وضربت عليها، ولم يعد للعقاب الالهي الرهبة والخشية التي ينبغي أن يفكر مثله فيها، وإنما يحبّ الله أهل الأمانة والاستقامة[2] انتهى .

ماقاله سيد قطب :

قال في تفسيره للآية: إننا نحسّ في التعبير صرامة، يفوح منها الغضب للحق والغيرة على العدل تبدو هذه الصرامة في صيغة النهي «لاتجادل عن الذين يختانون أنفسهم» ونلمحه في وصف الخائنين بأنهم «يختانون أنفسهم» وفي تعليل ذلك النهي: «إنّ الله لا يحبّ من كان خوّاناً أثيماً » . وهم خانـوا سواهم في ظاهر الأمر ، ولكنهم في الواقع يختانون أنفسهم. ولفظ « يختان » أقوى من «يخون» في التعبير، يختانونها

(١) تفسير الرازى : ج١١ ص٣٤ .
(٢) تفسير المراغى . ج٥ ص١٤٩ .

مرتين ، الاولى : حين يخونون إخوانهم وهم منهم فكأنما خانوا أنفسهم، والثاني: حين يرتكبون الاثم فيعرضون أنفسهم للجزاء في الدنيا والآخرة ، وهي خيانة للنفس من غير شك ، ذلك فضلاً على تلويث هذه النفس بالخيانة ، وهو خيانة لها وتحقير ، والله لايحبّ الخوان الأثيم .

والتعبير بعدم الحبّ هنا قيمته ، لأنّ المؤامرة ضدّ اليهودي والجدل عن السارق من المسلمين كان منشأهما البغض والحب ، فالله يعلن أنه لايحبّ الخوان الأثيم. فلايجوز أن يحبه أحد، ولاأن يجادل عنه أحد، والله قد كرهه واجتواه[1] انتهى محل الحاجة .

وبعد التأمل في الآية الشريفة والنظر في كلمات المفسرين نستفيد منها الامور التالية :

الأول : أن إنزال الكتاب الى النبي ﷺ لأجل الحكم بين الناس .

الثاني : أنّ الكتاب فيه كل حكم مما يحدث ويتجدد من قضايا التخاصم والتنازع ولاتشذّ عنه قضية أبداً .

الثالث: أنّ الله علّم النبي تفسير القرآن بأجمعه و كل مافيه من دقائق الامور حتى صار مستحضراً لجميع معانيه ، فهو يرجع كل قضية تحدث لأحد من امّته الى قانون القرآن .

الرابع : أنّ الله يريد الرجوع الى حكم القرآن في كل قضية من القضايا ولايرضى بالتخلف عن القرآن ولو بمقدار أن يميل الحاكم أو يحدث نفسه بحكم خلاف ذلك وإن لم يحكم به ، وهذا لايتمكن منه كل واحد ، وأنّ الذي يمكنه ذلك من كانت أحكام القرآن كلّها متجلّية له بحيث يراها كالشمس في رابعة النهار .

الخامس : أنّ هذه الآيات نزلت كلها في قضية درع سرقت ورمي بالسرق

---

(١) في ظلال القرآن : ج٢ ص٧٥٤ .

شخص بريء منها فكيف الحال بمن يسرق شيئاً أعظم من الدرع بحيث يتضرر بذلك جماعة من المسلمين أو يتضرر به عموم المسلمين ، وذلك كمن يزيد شيئاً في الدين أو ينقص شيئاً منه بحيث يعمل به عموم المسلمين.

السادس : أنّ المكلف بالحكم بين الناس هو النبي ﷺ في أيام وجوده بينهم لأنّ الله أراه وأوضح له علوم القرآن ، أما بعد ارتحال النبي ﷺ فالذي يحكم بين الناس إنما هو من تكون عنده علوم القرآن ، ويلزم على كل مكلف عاقل أن يفحص عنه ويعرفه ويجتهد في معرفته، وقد تقدم بيانه[1] في الآية السابعة من سورة آل عمران في قوله تعالى: «وما يعلم تأويله إلّا الله والراسخون في العلم» فقد علمنا أنّ في امّة محمد رجالاً عندهم علم القرآن ويجب علينا معرفتهم .

السابع : اذا ادعى مدعٍ أنه هو الحاكم بعد النبي ﷺ بين الناس وأعانه وساعده على ذلك جماعة من قومه ومن غيرهم فجلس في مجلس النبي وجعل يحكم بين الناس بما يوافق القرآن أو لا يوافقه لأنه ليس عنده علم القرآن فهذا أعظم ممن سرق درعاً بمراتب ليس لها حصر ، نعم اذا كان عنده علم القرآن فهو أهل الحكم وقد جعله الله لذلك أهلاً .

فيلزم على المسلم أن يحقق في كل من تولى الحكم ويميز بين العالم وغيره فإنّ الامور كلها والدنيا بأسرها مرتبطة بالعلم ، فلا تغفل ولا تجهل رتبة العلم.

قوله تعالى : يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم اذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً (١٠٨) .

إنّ الذي سرق الدرع هو ابن إبيرق ، وإن الذين ساعدوه على ستر هذه

(١) راجع الجزء الاول : ص٢٣٩ ـ ٢٨١ .

السرقة هم جماعة من قومه حيث جاؤوا الى النبي ﷺ وقالوا له: إن نسبة السرق الى طعمة تهمة كاذبة وإنه بريء منها ، وإنّ الله قد وصفهم بهذه الآية وصفاً يشنعهم به ويذمهم على عملهم هذا ، ويبقى عليهم عاره مادام القرآن وما دامت الدنيا ومادام من البشر من يقرأ القرآن .

وهذا الوصف يكشف عن عدم إيمانهم بالله لأنه قال: «**يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله**» حيث إنهم لما أرادوا أن يستروا فعلتهم الشنيعة عن الناس رموا بالدرع في دار غيرهم ونسبوا السرق إليه حتى لا يشتهروا بين الناس بالسرقة، فالله يقول في التشنيع عليهم إنّ هؤلاء القوم يريدون أن يستتروا من الناس مع أنّ الناس لا يقدرون على شيء من تعذيبهم في الدنيا كقطع الرزق عنهم أو تعذيبهم في الآخرة ولا يستخفون من الله وهو معهم عالم بأحوالهم وأقوالهم وأفعالهم يعلم السرّ وأخفى ويعلم وساوس الصدور ويعلم خائنة الأعين فكيف لا يستخفون منه ! والاستخفاء منه إنما يكون بترك هذه الأعمال القبيحة. هذا كله في سارق الدرع فكيف بمن يسرق الأموال الكثيرة ويضرّ بجماعة من المسلمين ؟ أو كيف بمن يزيد في الدين شيئاً أو ينقص منه شيئاً ويريد أن يحمل عليه عموم المسلمين ؟ أو كيف بمن يدعي أنه هو العالم بعلوم القرآن ، وأنّ الحكم بين الناس هو وظيفته الخاصة به من الله بحيث جعلها رسول الله له بأمر من الله ، وهو ليس كذلك ويساعده على ذلك جماعة؟

ماقاله سيد قطب :

قال في تفسيره للآية: ويعقب الوصف بالخيانة والاثم بيان منفر لسلوك هذا الفريق من الناس أنهم « يستخفون من الناس ولايستخفون من الله » فيجبنون عن مواجهة الناس بخيانتهم وإثمهم ولا يخجلون من الله «**وهو معهم اذ يبيتون مالا يرضى من القول**» وهي صورة زرية من جانب ، وداعية الى السخرية من جانب آخر ، زرية بما فيها من ضعف والتواء وخوف من الناس ، وداعية الى السخرية

بما فيها من غفلة عن رؤية الله لهم وهم يبيّتون مايبيّتون من خيانة ومؤامرة .

« **وكان الله بما يعملون محيطاً** » فالاحاطة هنا ترسم صورة للعلم المطلق والقدرة المطلقة ، فكل مايعملون محوط بعلم الله وقدرته ، وهم من الغفلة بحيث يدبرون في الظلام ويحسبون أنهم في نجوة من العيون .

فاذا كان هذا شأنهم وكان الله مطلعاً على خياناتهم ومؤامراتهم فماجدوى أن يجادل عنهم فريق من المسلمين في هذه الدنيا[1].

ماقاله المراغي :

وقال في تفسيره للآية : ثم بيّن أحوال الخائنين ونعى عليهم أفعالهم فقال : « يستخفون من الناس ولايستخفون من الله وهو معهم إذ يبيّتون مالايرضى من القول » أي أنّ شأن هؤلاء الخوانين أنهم يستترون من الناس عند اجتراحهم الآثام إمّا حياءً وإمّا خوفاً من ضررهم ، ولايستترون من الله ولايستحيون منه بتركها لضعف إيمانهم ، إذ الايمان يمنع من الاصرار وتكرار الذنب ، ولاتقع الخيانة من صاحبه إلا عن غفلة أو جهالة عارضة لاتدوم ، فمن يعلم أنّ الله يراه في حنادس الظلمات لابدّ أن يترك الذنب والخيانة حياءً منه تعالى وخوفاً من عقابه ، وهو تعالى شاهدهم حين يدبرون ليلاً مالايرضى من القول تبرئة لأنفسهم ورمي غيرهم بجريمتهم .

ثم توعدهم على عظيم جرمهم فقال : « وكان الله بما يعملون محيطاً » أي حافظاً لأعمالهم لايعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولافي الأرض . فلاسبيل الى نجاتهم من عقابه[2] انتهى .

قوله تعالى : «ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا فمن

---

(١) فى ظلال القرآن : ج٢ ص٧٥٤.

(٢) تفسير المراغى : ج٥ ص١٤٩ .

يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا(١٠٩).

هذه الآية من متممات قصة الخائن، ومن يساعد الخائن فإن الله تعالى يوجه سؤالا توبيخياً إنكارياً لكل من يساعد خائناً في الدنيا مهما كانت الخيانة ومن أي نوع كانت المساعدة.

وقبل إلقاء السؤال على المساعدين يقدم ها التنبيه بقوله: «ها» وها التنبيه تستعمل للمرء الغافل لكي يتنبه، فكأن الاتيان بها هنا إشارة الى أن هؤلاء المساعدين للخائن في حالة سبات، وفي غفلة عن الدين وأحكامه، وفي غفلة عن الحلال والحرام، وفي غفلة عن القرآن، وفي غفلة عن الله ورسوله. فينبغي لهم أن يتنبهوا وأن يلتفتوا وأن يستيقظوا من سباتهم لكي يعرفوا ويفهموا مايقول الله لهم.

ثم بعد ما نبههم الله وجه إليهم السؤال وهو: إنكم أيها المساعدون للخائنين المجادلون عنهم في الحياة الدنيا تريدون أن تستروا أعمالهم القبيحة عن الناس وهي مسجلة في صحائف أعمالهم والله عالم بها، فلو أنكم نجحتم في جدالكم عنهم وتمكنتم من سترها فمن يتمكن أن يجادل الله عنهم يوم القيامة، ولايخفى أن سارق الدرع كان واحداً وهو طعمة بن إبيرق، والذين أرادوا مساعدته والجدال وإخفاء فعلته الشنيعة هم قومه وأقرباؤه، وفي هذه الآية جعلهم الله جمعاً فقال: **«أنتم هؤلاء جادلتم عنهم»** وماذاك إلا لأجل كثرة من يرتكب الخيانة وليس منحصراً في طعمة، فيلزم على عموم المسلمين أن لايدافعوا عن خائن ولايساعدوه ولايستروا عليه خيانته وان كان قريباً أو صديقاً، وكلما كانت الخيانة أعظم كانت المساعدة أعظم جرماً وأشد عقاباً.

ثم إن المؤمن يلزمه أن يعلم أن الخيانة التي يبغضها الله إنما يعلمها هو قبل كل أحد، وأن القاضي قد لايعلمها وقد يشتبه عليه الأمر كماروي عن النبي ﷺ على ما ذكره المراغي: إنما أنا بشر وأنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم يكون

ألحن بحجته من بعض فأقضي بنحو ماأسمع . فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار[1].

فإذا كان يعلم بنفسه أنه خائن فلا يحل له أخذ ماحكم له به ، وإن حكم له حاكم فإنه خائن في نفسه والله يعلمه وملائكته .

فكل من تحققت منه الخيانة لابد وأن يعاقب عليها في الآخرة وإن شهد قومه أنه من المؤمنين المتقين الأخيار وحكم له القاضي أنه بريء منها إلا اذاتاب ورد الحق لأهله في الدنيا .

وقد تفضل الله على عباده أنه يقبل توبتهم وبين لهم ذلك بقوله :

ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً (١١٠) .

إن الله عز وجل يرشد عباده الى ماينفعهم ويخلصهم من عقاب المعاصي ، فإن كل عمل سيىء قد نهى الله عنه لابد أن يستحق فاعله العقاب على فعله ، وقد نبهنا الله وعرفنا أن من فعل شيئاً من المعاصي ـ سواء كان هذا الفعل مضراً بالغير أم مضراً بنفس الفاعل وحده ـ فلاينبغي له أن يبقى مصراً على عصيانه إن كان عاقلاً عارفاً بقدرة الله ، فإن الله قد جعل لنا طريقاً الى التخلص من عقاب هذا الفعل وشرع لنا باباً وسماه باب التوبة، فالانسان ـ مادام في الدنيا ـ يتمكن من تخليص نفسه من عقاب سيئاته وذلك بالتوبة الى الله عز وجل والانابة إليه والندم على فعله السيىء ورد ماأخذه من الناس إليهم ، فإن الله قد وعد عباده التائبين أن يغفر لهم ذنوبهم ويمحو سيئاتهم .

ثم إن السيئة التي يرتكبها العبد تارة تخص نفسه وحدها فيمكن التوبة

(١) تفسير المراغي : ج٥ ص١٤٨ .

منها ، وتارةً اخرى تكون مضرة بغيره واحداً كان ذلك الغير أو متعدداً محصوراً يعرفهم بأعيانهم ويمكنه التخلّص من تبعتهم بحيث يردّ إليهم أموالهم ، ومرة ثالثة تكون السيئة التي يرتكبها العبد هي بدعة يبتدعها ، فاذا تاب منها قبل أن تشيع ويعمل بها أحد فهذا أيضاً يمكن قبل توبته ، وأمّا اذا شاعت البدعة وعمل بها خلق كثير فيكون قبول توبته موقوفاً على إرجاع كل من عمل بالبدعة عن تلك البدعة ورفضها ، فإن امتنع أحد عن الرجوع عنها فإنّ صاحب البدعة مأثوم وهو شريك من عمل بها في الاثم ، فلابدّ في قبول توبته من إرجاع كل أحد عنها أمّا اذا مات أحد العاملين بالبدعة معتقداً بها فلامجال للخلاص من إثمه ولا يمكن توبة المبتدع .

فهذه الأنواع والأقسام ينبغي لكل من عمل بواحد منها أن يلاحظ هل يمكن التوبة منه أو لايمكن ؟ لأنّ أصل القضية التي نزلت فيها الآيات هو الميل اليسير عن العمل بالقرآن المنزل وهو اتهام اليهودي بالدرع المسروق .

فكل حكم من الأحكام التي يكون القضاء فيه خلاف الحق يكون المسبب له مؤاخذاً ومأثوماً ومستحقاً للعقاب الشديد مالم تتحقق منه توبة واستغفار .

أمّا اذا كانت السيئة هي منع العالم بأحكام القرآن عن الحكم بين الناس فهذا من أعظم الامور وأكبر الكبائر ، كما منع كفار قريش رسول الله ﷺ في أول بعثته من الحكم وهكذا يكون بالنسبة الى غير النبي من أهل العلم بالقرآن فإنّ الآيات كلها إنما تفيد هذا المعنى : « إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحقّ لتحكم بين الناس بما أراك الله ولاتكن للخائنين خصيماً » وأنّ طعمة وقومه إنما صاروا سبباً لتغيير حكم واحد وهو اتهام غير السارق بالسرقة ثم انكشف السارق .

فما ظنك أيها المسلم بمن منع القاضي الحاكم عن الحكم بما أنزل الله وجعل غيره في مجلسه فحكم بخلاف ماأنزل الله وغيّر الأحكام كلها ! فالتفت أيها

المسلم ولايفوتك الحق والحقيقة .

فيلزم كل من عمل سوء بغير التفات وبغير حساب أو ظلم نفسه أن يستغفر الله ويتوب إليه ويرجع الى الصواب قبل أن يفوته ذلك فلايمكنه التدارك .

إن الذي يغصب مال غيره أو يغصب منصبه يظن بجهله أنه جلب لنفسه مالاً أوجاهاً أو منصباً أو رئاسة ولكنه ماجلب لنفسه إلا وبالاً ونكالاً وعذاباً وقد عرّفنا الله بذلك في قوله تعالى :

ومن يكسب اثماً فانما يكسبه على نفسه وكان الله عليماً حكيماً (١١١) .

الكسب هو جلب النفع الى النفس ، وأن هذا الذي يستولي على مال غيره بالسرق أو بالقوة والسيطرة وكذا من يستولي على منصب الغير فيعزله ويجلس مجلسه فإنه يرى أنه قد كسب نفعاً لها، وإنما أوقعك بذلك جهلك وعدم معرفتك بالعواقب، فإن الشيء الذي تكسبه لنفسك ويعود نفعه إليك هو ماتحصله بشغلك وكد يمينك ، والمنصب الذي يليق أن تشغله وتجلس على كرسيه هو مايكون من الله ومن الرسول بحيث لاتعاقب عليه في الآخرة ، أمّا المال المأخوذ من الغير سرقة أونهباً أو اغتصاباً فإنك محاسب عليه ومعاقب وسوف يسترد منك في الدنيا أو يؤخذ عوضه من أعمالك الحسنة في الآخرة، وأمّا المنصب الذي تأخذه من غيرك فسوف تحاسب على كل حكم تصدره فيه ، وتعاقب أيضاً على كل حكم واقعي صرت سبباً في تعطيله وأنت تظن أنك كسبت لنفسك نفعاً ، ولكنك لو شعرت بالحقيقة لعرفت أن هذا ليس لك ولنفعك بل هو وبال عليك وعقاب في الدنيا والآخرة .

ولاتظن أن عملك الذي عملته يخفى على الله إن كنت مسلماً ، فإن المسلم

يعترف بأن الله يعلم كل شيء ويعلم ماكان ومايكون ، وإن كنت أيها السامع للقرآن غير مسلم فاعلم من الآن قوله تعالى ، « **وكان الله عليماً حكيماً** » ، فإنه تعالى يعلم جميع أفعال العباد ويعلم نياتهم التي حملتهم على اغتصاب حق الناس من مال أو منصب أو قضاء أو حكم ، وهو حكيم بكيفية عقابهم لايزيد شيئاً على مايستحقونه من العقاب ، فهذا المتجاوز لحدود الله الغاصب لحقوق الناس لايضر إلا نفسه ولايجلب الوزر والويل والثبور إلا لنفسه فلايحملها أكثر من طاقتها.

قوله تعالى : ومن يكسب خطيئة أو اثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً واثماً مبيناً(١١٢) .

هذا وعيد من الله شديد لايحتمله بشر ولايقدم عليه موحد معترف بقدرة الله ، فإن الله العزيز الحكيم يصف هذا الفعل وهو فعل الخطيئة والاثم ، مهما فسرت الخطيئة ومهما فسر الاثم ، فإن المقصود بهما شيء لايرضى به الله ونهى عباده عنه ، فيقول عز وجل : إن الذي يفعل شيئاً منهياً عنه اذا أتى به ثم اتهم شخصاً بريئاً وقال فلان فعل هذا الشيء فإن المرتكب لهذه الجريمة قد احتمل بهتاناً، أي تحمل على ظهره بهتاناً وسجل على نفسه في صحيفة أعماله بهتاناً.

وكذا سجل على نفسه إثماً مبيناً أي إثماً بيناً ظاهراً مكشوفاً يراه كل أحد ولايخفى على أحد من الناس ، فلابد أن يكون هذا الاثم البين الظاهر كبيراً كالجبل بحيث ينتظره كل أحد ، وهناك علامة وأمارة تدل على أن فاعل هذا الاثم هو فلان بن فلان، ثم يؤخذ هذا الاثم المبين الظاهر المكشوف ويؤخذ فاعله ومرتكبه معه ويلقى في النار .

هذا كله بالنسبة الى إثم واحد ، فما ظنك أيها العبد المجرم المرتكب لآثام كثيرة وقد رميت بكل إثم منها رجلاً بريئاً، فإنك تجيء يوم القيامة فتجسم

لك هذه الآثام كالجبال الرواسي وأنت واحد وهي كثيرة لاتعد ولاتحصى، ولكن الله القدير قد أحصاها عليك، فمن يخلصك منها؟ فتذكر هنا قوله تعالى: «هاأنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة».

قوله تعالى: ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون الا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً (١١٣).

إن قوم أبي طعمة[1] ابن إبيرق قد هموا واتفقوا على أن يفعلوا شيئاً واحداً يسترون به على أبي طعمة حتى لايفتضح بالسرق، فاجتمعوا كلهم وأتوا النبي ﷺ وشهدوا عنده بأن أبا طعمة رجل عفيف وليس ممن يتهم بالسرق، وطلبوا من النبي أن يبرئه وينزهه من هذه التهمة على رؤوس الأشهاد وأن يحكم على اليهودي بالسرق، ولو أن قاضياً غير النبي شهد عنده جماعة بعدد قوم أبي طعمة فحكم القاضي ببراءته ماكان عليه بأس وماكان مأثوماً، أمّا النبي ﷺ فقد عرفه الله بكذب هؤلاء القوم وأن شهادتهم مزورة كاذبة فلم يحكم النبي ببراءة أبي طعمة[2].

وفي هذه الآية يذكر الله فضله على النبي حيث عرّفه بطلان شهادة القوم ويقول له: «ولولا فضل الله عليك» لهم القوم أن يضلوك -أي يخدعوك- فتحكم ببراءة الخائن وخيانة البريء، وهي حكومة جزئية تتعلق بسرقة درع، فكيف

---

(١) لايخفى أن بعض التفاسير - كما سبق - ذكرت أن اسمه طعمة، وبعضها - كما في التبيان والميزان ومجمع البيان ونور الثقلين - أن اسمه بشر وكنيته أبو طعمة.

(٢) راجع التبيان: ج٣ ص٣١٦.

بمن تجري على يديه وبواسطة حكمه مثل هذه القضية في كل يوم مرات عديدة؟ وكيف بمن يعرف الخائن ومع ذلك يحكم ببراءته ويعرف البريء ويحكم بخيانته؟ وكيف بمن سمى نفسه خليفة رسول الله أو أمير المؤمنين وأصدر أحكاماً مخالفة للقرآن خلافاً ظاهراً بيّناً ونرى جماعة من المسلمين يسمونه أمير المؤمنين؟! وأنّ الله قد أنزل على نبيه ثلاثة عشر آية كلها تتعلّق بأبي طعمة وسرقه درعاً ورمي شخص بريء بهذه السرقة وذكر فضله على النبي حيث لم يحكم بهذا الأمر الباطل وبيّن في هذه الآيات أنّ الشرط في القاضي والحاكم أن يكون عارفاً بتأويل القرآن وأن يكون حكمه وقضاؤه مطابقاً لأحكام القرآن حتى لا يخطأ في قضية واحدة . وبعد هذا هل يتمكن أحد أن يقول إنّ الجاهل بأحكام القرآن تصح خلافته وإمارته وقضاؤه وحكمه حتى فيما خالف القرآن ؟! .

ماقاله المراغي :

يقول الاستاذ المراغي في خلاصة هذه الآية: إنه لولا فضل الله عليك بالنبوة والتأييد بالعصمة رحمته لك ببيان حقيقة الواقع لهمّت طائفة منهم أن يضلّوك عن الحكم العادل المنطبق على حقيقة القضية في نفسها ، ولكنهم قبل أن يطمعوا في ذلك ويهمّوا به جاءك الوحي ببيان الحق وإقامة أركان العدل والمساواة فيه بين جميع الخلق[1] انتهى .

ماقاله الفخر الرازي :

قال في ذكر معنى الآية : ولولا أنّ الله خصّك بالفضل (وهو النبوة) وبالرحمة (وهي العصمة) لهمّت طائفة منهم أن يضلّوك، وذلك لأنّ قوم طعمة كانوا قد عرفوا أنه سارق، ثم سألوا النبي عليه السلام أن يدفع ويجادل عنه ويبرئه عن السرقة وينسب تلك السرقة الى اليهودي . ومعنى « يضلّوك » أي يلقوك في الحكم

---

(١) تفسير المراغي : ج٥ ص١٥١ .

الباطل الخطأ(١) انتهى .

قوله تعالى : « وما يضلّون إلّا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلّمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً » .

والضلال هو الوقوع في الباطل إمّا عن عمد وإمّا عن غير عمد ، فإن كان عن غير عمد يسمى خطأ ، وهذا إمّا أن يكون بتضليل الغير له بأن يبرهن له ويستدل على كون الحكم هو كذا أو الموضوع هو كذا أو الفاعل للشيء هو فلان كما أراد قوم أبي طعمة أن يخدعوا النبي ﷺ ليحكم ببراءة أبي طعمة . وأمّا إن كان الوقوع بالباطل عن عمد فإنّ فاعل ذلك يكون هو قد أضلّ نفسه بإرادته واختياره فيكون معنى الآية المذكورة هو أنّ الطائفة المذكورة وهم قوم أبي طعمة همّوا (أي عزموا) أن يضلّوك (أي يحملوك) على حكم خلاف الحق ، بمعنى أنهم أرادوا أن يوقعوك في الباطل عن طريق الكذب والزور والخداع ، ولكنهم قد أضلّوا أنفسهم لأنهم أوقعوا أنفسهم في الباطل باختيارهم ، إذ أنّ الكذب محرم وقد كذبوا ، وشهادة الزور محرمة وقد شهدوا زوراً ، والخداع محرم وأرادوا أن يخدعوا النبي ﷺ ، والسرقة محرمة وقد سرقوا ، فهم قد أوقعوا أنفسهم في هذه المحرمات ، فلذا أخبر الله عنهم بقوله : « **ومايضلون الا أنفسهم** » .

وقد تبيّن من الآية الشريفة أنّ كل من أراد أن يحصل على حكم شرعي من أحد القضاة أو من أحد الحكام بمقدمات غير شرعية من كذب وزور وبهتان وخداع فإنه قد أضلّ نفسه وأوقعها في الباطل باختياره وإرادته، وكل من ساعده على ذلك فهو شريكه في الاثم .

وأمّا قوله تعالى : «**وما يضرونك من شيء**» فإنه يعرفنا أنّ القاضي أو الحاكم اذا كان متبعاً لأحكام القرآن ولم يخش أحداً في حكمه وقضائه ولا يميل الى الهوى فإنه لا يضره المتخاصمان ولا أحدهما ، اذا كذب واحتال وخادع فإنه

---

(١) تفسير الرازي : ج ١١ ص ٣٩ .

يضر نفسه كما تقدم عن النبي ﷺ حيث قال : إنما أنا بشر وأنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض ، فأقضي بنحو ما أسمع . فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من نار(١).

وأما قوله تعالى : « **وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم** » فإن الاشارة في هذه الجملة الى أن القاضي الذي لا يضره إضلال المضلين وكذب الكاذبين ومكر الماكرين هو الذي يكون قضاؤه وحكمه مطابقاً للقرآن والحكمة وهي السنّة أو أسرار الأحكام ، وأن يكون حكمه بالعلم الذي يتعلمه من ثقات الرجال حتى يصل الى النبي ، حيث إنه ﷺ أخذه عن الله ، فهذا هو الذي لا يضره شيء ، أما اذا كان يقضي بنظره أو بالقياس فهو ممن قد أضل نفسه وأضر بها ، فالقضاء يلزم أن يكون على طبق القرآن والسنّة ، وكل مسألة لا يتمكن القاضي أن يستند فيها على القرآن والسنّة ينبغي له التوقف فيها وعدم الحكم .

قوله تعالى : « **وكان فضل الله عليك عظيماً** » .

أيها القاضي وأيها الحاكم هل عرفت عظمة فضل الله عليك في إلزامك القضاء على موجب الكتاب والسنّة ، إذ لو أوكل القضاء الى رأيك ونظرك من غير رجوع الى الكتاب والسنّة لكثر وقوعك في الضلال والخطأ ولكثر منك تحريم الحلال وتحليل الحرام ، ولكن لما ألزمك الله بالرجوع الى الكتاب والسنّة واتباع ما تعلمته من العلم الذي ينتهي الى علم النبي المأخوذ عن الله عز وجل لا يقع حينئذ الخطأ إلا نادراً . فكل من نصب نفسه للقضاء من غير علم بالكتاب والسنّة فهو مغتصب لهذا المنصب وهو من الخائنين ، وكل من ساعده وأعانه على ذلك فهو شريكه في الاثم وقد عرّفه الله وأعلمه أنه لا يضل إلّا نفسه ولا يضر إلّا نفسه .

---

(١) تفسير المراغي : ج٥ ص١٤٨ .

قوله تعالى: لاخير في كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً (١١٤).

إنّ قوم أبي طعمة اجتمعوا وقرروا بينهم أن يأتوا رسول الله ويشهدوا عنده بتزكية صاحبهم السارق، وقد تكتموا في هذا الاجتماع طبعاً، وهكذا كل من أراد أن يقوم بعمل سيىء قبيح منافٍ للعرف مخالف للشرع فإنه يتكتم ويخفي ذلك عن الناس، وقد أخبر الله عن نجوى أغلب الناس أنها لاخير فيها، وأنّ الامور التي فيها خير ونفع لايتكتمون فيها.

هذا هو ماانطبع عليه الناس قبل الاسلام، وقد بقي على هذه الطبيعة من لم يستقرّ الاسلام في قلبه، فإنهم يتناجون في امور فيها فساد وضرر على الناس وعلى أنفسهم ولكنهم يظنون أنّ فيها نفع لهم وقد عرّفهم الله في آية (١١١) المتقدمة.

إنّ هذه الامور هي عليهم وليست لهم، وقد ذكر الله سبحانه في القرآن المنزل على النبي ﷺ أنّ المسلم لايحلّ له أن يتناجى فيما يضرّ به الناس بل ينبغي له أن يتناجى في امور فيها نفع للناس، وقد ذكر من هذه ثلاثة أشياء في هذه الآية كما في قوله تعالى: **«الا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس»**.

فهذه الامور الثلاثة يحبّ الله النجوى فيها، أما من يجتمعون ويتناجون في إتيان محرم أو ترك واجب فإنّ هذا مما لاخير فيه بل فيه الشرّ والضرر على الناس، وأكثر منه وهو الضرر على نفس الفاعل.

أما الامور الثلاثة التي يحبّ الله النجوى فيها فهي:

الأول: الصدقة، فإنّ الله يحبّ التكتم فيها، وذلك لما في التكتم من التخلص

من الرياء والاحسان الى المتصدق عليه ، فإنه اذا اطلع عليه أحد يتألم لذلك ، ولعلّ بعض الاشخاص يردها ولايقبلها وهو في غاية الحاجة إليها وقد قال تعالى: « وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم »[١].

فعن بعض أهل المدينة قال : مافقدنا صدقة السرّ حتى مات علي بن الحسين عليه السلام وكان في المدينة كذا وكذا بيتاً يأتيهم رزقهم ومايحتاجون إليه لايدرون من أين يأتيهم ، فلما مات زين العابدين عليه السلام فقدوا ذلك فصرخوا صرخة واحدة[٢].

عن أبي جعفر عليه السلام قال : البرّ وصدقة السرّ ينفيان الفقر ، ويزيدان في العمر ، ويدفعان عن سبعين ميتة سوء[٣] .

وأما الأمر بالمعروف فالاسرار فيه أولى من الاعلان لأنّ الذي يؤمر به يطلع عليه السامع أنه مقصر في المعروف وتارك له، وهذا قد يحمله على الاصرار عليه ، أما اذا أسرّ به الآمر فلعلّه يكون أنفع وأكثر أثراً .

وأما الاصلاح بين الناس فإنّ المصلح يحتاج أن ينفرد مع كل واحد من المتقاطعين ويتكلم مع كل منهما بانفراد، ولعلّ المقام يحتاج الى الكلام مع أحدهما غير الكلام مع الآخر ، ولاريب أنّ الاسرار به خير ، إذ مع وجود الناس فإنه لايتمّ الأمر لأنّ الناس لايسكتون ولاتتفق آراؤهم وقد يتكلمون بكلمة تكون سبباً في شدة المتخاصمين ، أما مع الاسرار فغالباً ينجح المصلح اذا كان من أهل المعرفة .

فالآية الشريفة تقول : من فعل هذه الامور الثلاثة أو بعضها طالباً بفعله رضا الله وتكون نيته خالصة لوجه الله **« فسوف نؤتيه أجراً عظيماً »** .

ولايخفى أنّ الله العليّ العظيم ـ الذي يكون كل شيء عنده حقيراً ـ اذا وصف شيئاً بالعظمة فإنّ العبد الحقير الضعيف لايمكن أن يتصور هذا الشيء الذي عبّر

---

(١) البقرة : ٢٧١ .

(٢) و(٣) سفينة البحار: ج٢ ص٢٣ مادة «صدق» .

الله عنه بالعظيم ، فلاينبغي للانسان المحتاج في يوم الجزاء الى الحسنة الواحدة أن يفوت هذا الأجر العظيم ، فاغتنم وعد الله فإنه فرصة ثمينة .

قوله تعالى : ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً (١١٥).

إنّ الآية الاولى من الآيات التي تتعلّق بقصة بني إبيرق آية محكمة عامة ليس فيها تخصيص ، مطلقة ليس فيها تقييد ، تفيدنا أنّ الكتاب إنما انزل لأجل الحكم بين الناس بمافيه من علم وحكمة ، وأنه لايجوز لأحد أن يكون حاكماً بين الناس إلا أن يكون جامعاً لعلوم القرآن كالنبي أو وصيه الذي أودع عنده العلوم .

وهذه الآية أيضاً محكمة عامة ليس فيها تخصيص، مطلقة ليس فيها تقييد، تخبرنا أنّ الذي يخالف النبي صلى الله عليه وآله في أيّ حكم وفي أيّ فعل وفي أيّ قول فإنّ المشاقة هي المخالفة وهي تتحقق في المخالفة بشيء من الأشياء .

فإذا دلّ دليل وثبت عند شخص صدق النبي صلى الله عليه وآله في دعوى النبوة بحيث يحكم العقل أنّ هذا الشيء الذي فعله النبي أو أخبر به لايكون إلا من قبل الله وليس له طريق آخر ثم بعد ذلك يخالف هذا الشخص النبي في بعض الامور ويتبع طريقاً آخر غير الطريق الذي يعيّنه النبي فإنّ النبي صلى الله عليه وآله قد جاءنا بشريعة كاملة وجعل لكل مسألة حكماً مستنبطاً من القرآن، وكل من يعمل بأوامر النبي في جميع مسائله يسمى مؤمناً ، وهؤلاء المؤمنون سبيلهم وطريقهم واحد لاتعدد فيه ولا عوج فيه ولاالتواء فيه ولاظلمة فيه ، وهذا الطريق مستقيم سمح لايضلّ فيه من سلكه ولايتيه من سار فيه . فالذي يخالف النبي في حكم من الأحكام وإن كان جزئياً فلابدّ أن يكون بسبب انحرافه عن الطريق الذي عيّنه النبي للمؤمنين

فيكون في انحرافه هذا قد اتبع غير سبيل المؤمنين ، فإمّا أن يلتفت الى نفسه أنه انحرف فيرجع الى الطريق ويتوب الى الله ويستغفر لذنبه ، فقد ذكر الله في آية ١١٠ أنه يقبل التوبة من المذنب اذا استغفر ، وأمّا اذا بقي مصراً على انحرافه فإنّ الله يقول : « **نوله ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيراً** » أي لا نعامله معاملة المؤمنين السائرين في الطريق الذي يسير فيه الرسول وأصحابه المطيعين له، وإنما نعامله معاملة المتبع المتولي لما تولاه سواء تولى حجراً أم شجراً أم بشراً أو غير ذلك، فإنّ الأمر المتيقن خروجه عن طريق المؤمنين، أمّا ماهو الذي تولاه؟ فهو الطاغوت لأنه هو الذي جعله مقابلاً لسبيل الله في آيات عديدة .

وأما العاقبة الأخيرة فهي جهنم كما أخبر الله بقوله : «**ونصله جهنم وساءت مصيراً** » .

ماقاله الفخر الرازى :

قال في تفسيره للآية : إعلم أنّ تعلّق هذه الآية بما قبلها هو ماروي أنّ طعمة بن إبيرق لما رأى أنّ الله تعالى هتك ستره وبرّأ اليهودي عن تهمة السرقة ارتدّ وذهب الى مكة ونقب جدار إنسان لأجل السرقة فتهدم الجدار عليه ومات فنزلت هذه الآية .

أما الشقاق والمشاقة فقد ذكرنا في سورة البقرة أنه عبارة عن كون كل واحد منهما في شقّ آخر من الأمر ، أو عن كون كل واحد منهما فاعلاً فعلاً يقتضي لحوق مشقة بصاحبه ، وقوله : «**من بعد ماتبين له الهدى**» أي من بعد ما ظهر له بالدليل صحة دين الاسلام .

قال الزجاج : لأن طعمة هذا كان قد تبيّن له بما أوحى الله تعالى من أمره وأظهر من سرقته مادلّه ذلك على صحة نبوة محمد ﷺ فعادى الرسول وأظهر الشقاق وارتدّ عن دين الاسلام فكان ذلك إظهار الشقاق بعد ماتبيّن له الهدى .

قوله تعالى : «**ويتبع غير سبيل المؤمنين**» يعني غير دين الموحدين، وذلك

لأنّ طعمة ترك دين الاسلام واتبع دين عبادة الأوثان .

ثم قال : « نولّه ماتولى » أي نتركه وما اختار لنفسه ونكله الى ماتوكّل عليه ، قال بعضهم : هذا منسوخ بآية السيف لاسيما في حقّ المرتد .

ثم قال : « ونصله جهنّم » يعني نلزمه جهنم ، وأصله الصلاء وهو لزوم النار وقت الاستدفاء. « وساءت مصيراً » انتصب مصيراً على التمييز كقولك فلان طاب نفساً وتصبب عرقاً . وفي الآية مسائل :

(المسألة الاولى) روي أنّ الشافعي رضي الله عنه سئل عن آية في كتاب الله تعالى تدلّ على أنّ الاجماع حجة ، فقرأ القرآن ثلاثمائة مرة حتى وجد هذه الآية. وتقرير الاستدلال أنّ اتّباع غير سبيل المؤمنين حرام فوجب أن يكون اتّباع سبيل المؤمنين واجباً.

بيان المقدمة الاولى : أنه تعالى ألحق الوعيد بمن يشاقق الرسول ويتبع غير سبيل المؤمنين، ومشاقة الرسول وحدها موجبة لهذا الوعيد، فلو لم يكن اتّباع غير سبيل المؤمنين موجباً له لكان ذلك ضماً لما لاأثر له في الوعيد الى ماهو مستقلّ باقتضاء ذلك الوعيد وأنه غير جائز، فثبت أنّ اتّباع غير سبيل المؤمنين حرام. واذا ثبت هذا لزم أن يكون اتّباع سبيلهم واجباً ، وذلك لأنّ عدم اتباع سبيل المؤمنين يصدق عليه أنه اتّباع لغير سبيل المؤمنين، فاذا كان اتّباع غير سبيل المؤمنين حراماً لزم أن يكون عدم اتّباع سبيل المؤمنين حراماً، واذا كان عدم اتّباعهم حراماً كان اتّباعهم واجباً لأنه لاخروج عن طرفي النقيض .

فإن قيل: لانسلّم أنّ عدم اتّباع سبيل المؤمنين يصدق عليه أنه اتّباع لغير سبيل المؤمنين فإنه لايمتنع أن لايتبع لاسبيل المؤمنين ولاغير سبيل المؤمنين .

واجيب عن هذا السؤال بأنّ المتابعة عبارة عن الاتيان بمثل مافعل الغير، فاذا كان من شأن غير المؤمنين أن لايتبعوا سبيل المؤمنين فكل من لم يتبع سبيل المؤمنين فقد أتى بمثل فعل غير المؤمنين ، فوجب كونه متبعاً لهم .

ولقائل أن يقول: الاتّباع ليس عبارة عن الاتيان بمثل فعل الغير وإلا لزم أن يقال: الأنبياء والملائكة متبعون لآحاد الخلق من حيث إنهم يوحّدون الله كما أنّ كل واحد من آحاد الامّة يوحّد الله.

ومعلوم أنّ ذلك لايقال بل الاتّباع عبارة عن الاتيان بمثل فعل الغير لأجل أنه فعل ذلك الغير، واذا كان كذلك فمن ترك متابعة سبيل المؤمنين لأجل أنه ماوجد على وجوب متابعتهم دليلاً فلاجرم لم يتبعهم، فهذا الشخص لايكون متبعاً لغير سبيل المؤمنين، فهذا سؤال قوي على هذا الدليل وفيه أبحاث اخر دقيقة ذكرناها في كتاب المحصول في علم الاصول، والله أعلم.

(المسألة الثانية) دلّت هذه الآية على وجوب عصمة محمد ﷺ عن جميع الذنوب، والدليل عليه أنه لوصدر عنه ذنب لجاز منعه، وكل من منع غيره عن فعل يفعله كان مشاققاً له، لأنّ كل واحد منهما يكون في شقّ غير الشقّ الذي يكون الآخر فيه. فثبت أنه لو صدر الذنب عن الرسول لوجبت مشاقته، لكن مشاقته محرمة بهذه الآية فوجب أن لايصدر الذنب عنه.

(المسألة الثالثة) دلّت هذه الآية على أنه يجب الاقتداء بالرسول ﷺ في أفعاله، إذ لو كان فعل الامّة غير فعل الرسول لزم كون كل واحد منهما في شقّ آخر من العمل فتحصل المشاقة، لكن المشاقة محرمة فيلزم وجوب الاقتداء به في أفعاله[1] انتهى كلام الفخر الرازي.

وبعد أن يقرأ المسلم هذه الآية ويعرف معناها يثبت عنده أنّ الواجب عليه أن يتبع سبيل المؤمنين، وحيث إنّ اتّباع سبيل المؤمنين موقوف على معرفته، ومعرفته موقوفة على معرفة المؤمنين أنفسهم، فلاتحصل المعرفة ـ أي معرفة سبيل المؤمنين ـ إلا بأخذه من النبي ﷺ، وهذا إنما يحصل لمن كان موجوداً في زمن

---

(١) تفسير الرازي: ج١١ ص٤٢ ـ ٤٤.

النبي ﷺ ، أما غيرهم فلايعرفون ذلك إلا بمعرفة المؤمنين فرداً فرداً ، وهذا أيضاً لايمكن تحصيله إلا بأن يعرف أمير المؤمنين فيأخذ السبيل والطريق بتعليمه ودلالته، وقد تقدم في كتابنا هذا الأحاديث الصحيحة الواردة عن النبي ﷺ القائلة بأنّ علياً أمير المؤمنين ، وأحببت هنا تنبيه القارىء إليها وهو أعرف بتكاليفه وأبصر بنفسه .

تنبيه لعموم المسلمين

أيها الملوك ، أيها الرؤساء ، أيها المسيطرون على الامم الاسلامية ، أيها الشعوب الاسلامية ، اذا قرأتم الآية الشريفة : « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبيّن لـه الهدى ويتّبع غير سبيل المؤمنين نولّه ماتولّى ونصله جهنّم وساءت مصيراً » عرفتم أنّ كل من ترك واجباً من الواجبات وكل من فعل محرماً من المحرمات فقد شاقق الرسول واتبع غير سبيل المؤمنين وذلك بعد ماتبيّن له الهدى .

إنكم كلكم معتقدون بنبوة محمد ﷺ وصدقه وصحة دين الاسلام، ومع كل هذا نرى في جميع البلاد الاسلامية أنّ الخمور تباع علانية ، والربا يؤكل ويتعامل به علانية في جميع البنوك والمصارف ، والقمار يلعب به في النوادي والمقاهي علانية، والسفور من النساء المسلمات وتبرج الجاهلية مباح من جميع الحكومات الاسلامية، فهل هذه الامور وهل فعلها مشاقة للرسول أو متابعة له وموافقة لطريقه ؟ وهل هي اتباع لسبيل المؤمنين أو لغير سبيل المؤمنين ؟

إني احرر هذه الكلمات في نهاية صفر وغرة ربيع الأول سنة١٣٨٧، وإن كنتم لاتعرفون التاريخ الهجري الاسلامي فأقول لكم إني احرر هذه السطور في يوم ١٠/٦/١٩٦٧ وهـو اليوم الذي تغلّب فيه اليهود على الحكومات الاسلامية بمساعدة أمريكا وبريطانيا ودخلوا أراضي سوريا واحتلّوا قسماً كبيراً من الاردن

وقتلوا جماعة من المسلمين وشردوا العوائل وقتلوا الصبيان والشيوخ ودمّروا وأحرقوا وهدموا .

أيها المسلمون، اكتبوا هذا التاريخ في صدوركم، اكتبوه بدماء شهدائكم حتى لاتنسوه ولاتغفلوه ، اكتبوه حتى تأخذوا ثاركم .

إني أسمع جماعة من المسلمين يعتبون على الله وعلى رسوله ويقولون لماذا لم يأخذ الله بأيدي المسلمين ؟ ولماذا لم ينصرهم على أعدائهم الكافرين ؟

أيها المسلمون، أيها الرؤساء، أتدرون لماذا لم ينصركم الله؟ أنا اخبركم بذلك، إنّ الله يقول : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم »[1].

إنّ الله يقول : « ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبيّن له الهدى ويتّبع غير سبيل المؤمنين نولّه ماتولّى » .

إنكم خالفتم الرسول بفتح حوانيت الخمور ، وتعاطي الربا في المصارف، ولعب القمار في النوادي ، ومخالفة القرآن في القصاص بالقتل وفي قطع يد السارق وفي جلد الزاني ، ففقدتم الشرط الموجب لنصرة الله : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم » ولهذا لم نحض بنصرة الله ، ولهذا استولى علينا الأعداء .

أيها المسلمون، إنّ الله يكون معنا اذا رجعنا إليه، واذا وفينا له بالشرط، واذا تركنا مانهانا عنه ، واذا فعلنا ماأمرنا به من صلاة وصيام وحجّ وزكاة ،اذا تركنا المحرمات وفعلنا الواجبات كان الله معنا في جهادنا وفي سائر الأوقات، وسوف نقهر اليهود وسوف نطرد المستعمر .

قوله تعالى : ليس بأمانيكم ولاأماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً (١٢٣) .

---

(١) محمد : ٧ .

ذكروا في سبب نزول هذه الآية أنه تفاخر المسلمون وأهل الكتاب ، فقال أهل الكتاب : نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم ونحن أولى بالله منكم. فقال المسلمون : نبينا ﷺ خاتم النبيين وكتابنا يقضي على الكتب وديننا الاسلام . فنزلت الآية ، فقال أهل الكتاب : نحن وأنتم سواء . فأنزل الله الآية التي بعدها « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو انثى وهو مؤمن » ففلح المسلمون . عن قتادة والضحاك[1] .

وقيل : لما قالت اليهود « نحن أبناء الله وأحباؤه »[2] وقال أهل الكتاب : « لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى »[3] نزلت الآية . عن مجاهد[4] .

ماقاله الفخر الرازى :

قال في تفسيره : الخطاب في قوله : « **ليس بأمانيكم** » خطاب مع من ؟ فيه قولان ، الأول : أنه خطاب مع عبدة الأوثان ، وأمانيهم أن لايكون هناك حشر ولانشر ولاثواب ولاعقاب ، وإن اعترفوا به لكنهم يصفون أصنامهم بأنها شفعاؤهم عند الله. وأما أماني أهل الكتاب فهو قولهم « لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى » وقولهم « نحن أبناء الله وأحباؤه » فلايعذبنا ...

القول الثاني: أنه خطاب مع المسلمين، وأمانيهم أن يغفر لهم وإن ارتكبوا الكبائر ، وليس الأمر كذلك[5] .

وعلى كل حال فإنّ الخطاب يعمّ جميع البشر في أنه لايكون الأمر بأماني امّة أو طائفة وإنما يكون بإرادة الله وحكمته ومايستحقه العبد بحسب عمل الخير أو الشر .

---

(١) مجمع البيان : ج٢ ص٥٤ .
(٢) المائدة : ١٨ .
(٣) البقرة : ١١١ .
(٤) مجمع البيان : ج٢ ص٥٤ .
(٥) تفسير الرازى : ج١١ ص٥٢ .

وإنّ الذي يستفاد من هذه الآية هو عين مايستفاد من آية١١٥ التي فرغنا منها ، فإنّ الذي تفيدنا به هذه الآية هو : أنّ المرء الذي يعمل السوء لابدّ وأن يجازى به ولايمكن أن يجد الانسان الذي عمل السوء ولياً يدفع عنه عقاب عمله السيىء ولايجد أحداً ينصره من دون الله أبداً، وإنما يمكن للانسان عامل السوء أن يتدارك نفسه في دار الدنيا اذا تاب ورجع الى الله وخرج عن حقوق العباد ، أمّا اذا مات وخرج من الدنيا مصراً على عمله غير نادم على فعله فهذا لابدّ وأن يؤخذ منه حقّ العباد ولابدّ أن يعاقب على السوء الذي عمله .

فيكون مفاد هذه الآية عين مفاد تلك الآية وهو : أنّ الذي يتبع غير سبيل المؤمنين بمشاقة الرسول ، وهذا أيضاً يتبع غير سبيل المؤمنين بعمل السوء وكل واحد منهما لابدّ أن يعاقب. وقد ذكر الله بيان عقاب ذاك بقوله «نصله جهنّم» وذكر عقاب هذا بقوله : **«من يعمل سوءاً يجزبه ولايجد له من دون الله ولياً ولانصيراً »** ويكون مرجعه الى جهنّم، فليس للعبد إلا أن يتبع سبيل المؤمنين وهو السير في طريق النبي وماوصّى بـه امّته من التمسك بعده بالقرآن والعترة التي عندها تأويل القرآن .

ماقاله الطبرسي :

قال في مجمعه في قوله تعالى: « من يعمل سوءً يجزبه » : اختلف في تأويله على أقوال، أحدها: أنه يريد بذلك جميع المعاصي صغائرها وكبائرها ، وأنّ من ارتكب شيئاً منها فإنّ الله سبحانه يجازيه عليها إما في الدنيا وإما في الآخرة . عن عائشة وقتادة ومجاهد .

وروي عن أبي هريرة أنـه قال : لما نزلت هذه الآية بكينا وحزنّا وقلنا : يارسول الله ماأبقت هذه الآية من شيء ، فقال : أما والذي نفسي بيده إنها لكما انزلت ، ولكن أبشروا وقاربوا وسددوا أنه لاتصيب أحداً منكم مصيبة إلا كفّر

الله بها خطيئته حتى الشوكة يشاكها أحدكم في قدمه . رواه الواحدي في تفسيره مرفوعاً .

وقال القاضي أبو عاصم القارىء العامري : في هذا قطع لتوهم من توهم أنّ المعصية لاتضرّ مع الايمان ، كما أنّ الطاعة لاتضرّ مع الكفر[1] انتهى .

هذا هو الظاهر من الآية ، أنّ كل عمل سيىء نهى الله عنه عباده فإنّ العبد اذا فعله يؤاخذ عليه سواء كان الفاعل مؤمناً أم كافراً ، فينبغي للمؤمن التحفظ والتوقي وترك كل شيء من السيئات .

ماقاله المراغي :

قال في توضيح المعنى الجملي للآية :

بعد أن بيّن سبحانه في الآيات السالفة أنّ الشيطان يعدهم ويمنّيهم ويدخل في تلك الأماني ماكان يمنّيه أهل الكتاب من الغرور بدينهم إذ كانوا يرون أنهم شعب الله الخاص ويقولون : إنهم أبناء الله وأحباؤه ، وإنّ النار لن تمسهم إلا أياماً معدودات . وقد سرى اليهم هذا الغرور من اتكالهم على الشفاعات وزعمهم أنّ فضلهم على غيرهم من البشر بمن بعث فيهم من الأنبياء فهم يدخلون الجنة بكرامتهم لابأعمالهم ، حذرنا في هذه الآيات الكريمات أن نكون مثلهم ، وكانت هذه الأماني قد دبّت الى المسلمين في عصر النبي ﷺ كما دلّ على ذلك في قوله : « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ومانزّل من الحقّ ولايكونوا كالذين اوتوا الكتاب من قبل »[2] الآية . فلضعفاء الايمان من المسلمين في الصدر الأول ولأمثالهم في كل زمان انزلت هذه الموعظة ، ولو تدبّروها لما

---

(١) مجمع البيان : ج٢ ص١١٥ .

(٢) الحديد : ١٦ .

كان لهذه الأماني عليهم من سلطان .

أخرج ابن أبي شيبة عن الحسن موقوفاً : ليس الايمان بالتمنّي ولكن ما وقر في القلب وصدّقه العمل .

وقال الحسن : إنّ قوماً غرتهم المغفرة فخرجوا من الدنيا وهم مملؤون بالذنوب ولو صدقوا لأحسنوا العمل .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي قال : إلتقى ناس من المسلمين واليهود والنصارى ، فقال اليهود للمسلمين : نحن خير منكم ، ديننا قبل دينكم ، وكتابنا قبل كتابكم ، ونبينا قبل نبيكم ، ونحن على دين ابراهيم ولن يدخل الجنة إلا من كان هوداً . وقالت النصارى : مثل ذلك. فقال المسلمون: كتابنا بعد كتابكم ونبينا بعد نبيكم ، وقد امرتم أن تتبعونا وتتركوا أمركم ، فنحن خير منكم، نحن على دين ابراهيم واسماعيل واسحاق، ولن يدخل الجنة إلا من كان على ديننا. فأنزل الله « ليس بأمانيّكم » الى آخر الآية، فأفلج الله حجة المسلمين على من ناواهم من أهل الأديان الاخرى .

الايضاح : « ليس بأمانيّكم ولاأمانيّ أهل الكتاب » أي ليس فضل الدين وشرفه ولانجاة أهله به أن يقول القائل منهم: إنّ ديني أفضل وأكمل ، بل عليه أن يعمل بمايهديه إليه فإنّ الجزاء إنمايكون على العمل لاعلى التمني والغرور، فليس أمر نجاتكم ولاأمر نجاة أهل الكتاب منوطاً بالأماني في الدين، فالأديان لم تشرع للتفاخر والتباهي ولاتحصل فائدتها بالانتساب إليها دون العمل بها .

ثم أكّد ذلك وبيّنه بقوله : « من يعمل سوءً يجز به » أي أنّ من يعمل سوءً يلق جزاءه لأنّ الجزاء بحسب سنّته تعالى أثر طبيعي للعمل لايتخلّف في اتباع بعض الأنبياء وينزل بغيرهم كما يتوهم أصحاب الأماني والظنون .

فعلى الصادق في دينه أن يحاسب نفسه على العمل بما هداه إليه كتابه

ورسوله ويجعل ذلك المعيار في سعادته لاأن يجعل تُكأته أنّ هذا الكتاب أكمل ولاأنّ ذلك الرسول أفضل .

روي أنه لمانزل قوله : «من يعمل سوءً يجز به» راع ذلك أبا بكر وأخافه فسأل النبي ﷺ قال: من ينجو مع هذا يارسول الله ؟ فقال له النبي ﷺ : أما تحزن أما تمرض أما يصيبك البلاء؟ قال : بلى يارسول الله، قال : هو ذاك .

ثم ذكر رواية أبي هريرة التي نقلناها من مجمع البيان قبل صفحات، ثم قال : والأحاديث بهذا المعنى كثيرة .

ومن ثم يرى عامة العلماء : أنّ الأمراض والأسقام ومصائب الدنيا وهمومها يكفّر الله بها الخطايا .

ورأى بعضهم : أنّ المصائب لاتكفّر إلا اذا أثرت في النفس تأثيراً صالحاً وكانت سبباً في قوة الايمان وترك السوء والتوبة منه والرغبة في صالح العمل بماتحدثه من العبرة ، وتكون مربية لعقله ونفسه ، أما اذا ضاعفت الذنوب كالمصائب التي تحمل صاحبها على الجزع ومهانة النفس وضعف الايمان الى ذنوب اخرى لم يكونوا ليقترفوها لولا المصيبة فلاتكفّر شيئاً من الخطايا بل تزيدها .

«ولايجد له من دون الله ولياً ولانصيراً» أي من يعمل السوء ويستحق العقاب عليه لايجد له ولياً غير الله يتولى أمره ويدفع الجزاء عنه، ولانصيراً ينصره وينقذه مما يحلّ به لامن الأنبياء الذين تفاخر بهم ولامن غيرهم من المخلوقات التي اتخذها بعض البشر آلهةً وأرباباً، فكل تلك الأماني تكون أضغاث أحلام،وإنما يكون المدار في ذلك على الايمان والأعمال[1] انتهى .

ماقاله سيد قطب :

وقال في تفسيره : ثم يعقب السياق بقاعدة الاسلام الكبرى في العمل والجزاء

---

(١) تفسير المراغي : ج٥ ص١٦٤ ـ ١٦٥ .

أنّ ميزان الثواب والعقاب ليس موكولاً الى الأماني أنه يرجع الى أصل ثابت وسنّة لاتتخلّف وقانون لايحابى ، قانون يستوي أمامه المسلمون وأهل الكتاب ، وسنّة تجري على هؤلاء وهؤلاء ولاتقف أمام امنية لهؤلاء أو هؤلاء، إنّ صاحب السوء مجزى بالسوء، وصاحب الحسنة مجزى بالحسنة ،ولا محاباة في هذا ولا ممارا ة[1].

هذا هو القانون الثابت وهذه هي السنّة النافذة، فلايعلّق أحد نفسه بالأماني الخادعة ، وليختر طريقه على هدى وفي وضح النور بلاجدال ولامحال .

وقد تبيّن من هذه الآية أنّ الناس كلهم سواء بالنسبة الى عمل السوء ، حيث إنّ الله ذكر أنّ من يعمل السوء يجز به ، فلافرق في ذلك بين المؤمن الكامل الايمان وبين المؤمن الضعيف الايمان ، ولابين المنافق والكتابي والمشرك وعبدة الأوثان ، الكل في ذلك سواء ، فمن كان يؤمن بالله ويعتقد بصدق وعده ووعيده وأنّ مايقوله لامحالة واقع تكون هذه الآية صادة له ومانعة عن فعل السوء لأنّ ضرره يعود على نفسه وإن كان بحسب الظاهر فيه نفع دنيوي ولكنه بحسب الواقع والحقيقة هو ضرر محض كما تقدم في قوله تعالى :« ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليماً حكيماً »[2].

فإذا عمل العبد السيىء كتب عليه سيئة إمّا كبيرة أو صغيرة ، و كل واحدة منهما تختلف كبراً وصغراً ، وقد تكون الكبيرة كالجبال الرواسي ، وقد تكون سنّة سيئة يكون عليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة ، وقد تكون هذه السنّة السيئة في أمر عبادي فتكون سبباً لبطلان عبادة كل من عمل بها،وهذه بالطبع أعظم مما تكون في غير العبادة ، فليرحم الانسان نفسه ولايحرقها لأجل الدنيا الفانية .

ثم إنّ العبد اذا عمل السيئة وسجلت عليه و كتبت في صحيفته ليجازى بها

---

(١) في ظلال القرآن : ج٢ ص٧٦٢ .
(٢) النساء : ١١١ .

في عالم الاخرى فهل يمكن أن تمحى من الصحيفة ويتخلص منها ولا يؤاخذ عليها في الآخرة ؟

فإنّ الله سبحانه يقول : «وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إنّ الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين »[1] .

فيستفاد من هذه الآية أنّ السيئة يمكن أن تذهب وتمحى ويتخلّص منها وأنّ الذي يذهب بها هي الحسنة ، ولكن الحسنة التي تكون عند الله حسنة لا التي يعدها العبد حسنة، فالشرط في الحسنة التي تمحو السيئة وتذهب بها هي المقبولة عند الله .

فهل أنّ كل من يعمل السوء يمكنه أن يعمل الحسنة المقبولة عند الله فتكون ماحية للسيئة سواء كان العامل مؤمناً كاملاً أم ناقصاً أو منافقاً أومشركاً أوكافراً أو غير ذلك ؟

إنّ هذا لايمكن أن يقول به أحد، فإنّ الله قد بيّن في الآية الآتية العبد الذي يقبل عمله ويثيبه عليه :

فقال تعالى : ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو انثى وهو مؤمن فاولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً (١٢٤) .

بعد أن ساوى الله بين جميع العباد في جزاء السيئة بمثلها فرق في هذه فيمن تقبل منه الحسنة ويثاب عليها ، فجعل الشرط فيمن تقبل منه الحسنة أن يكون مؤمناً ، أما اذا لم يكن مؤمناً فلاتكون حسناته مقبولة ولايكون عمله الصالح موجباً له دخول الجنة ، بل لايسمى عمله صالحاً مالم يكن مؤمناً .

فكل من يكون مؤمناً ويعمل عملاً صالحاً تكون حسناته مقبولة وهي التي

---

(١) هود: ١١٤.

تمحو السيئات وتذهب بها ، أما من لم يكن مؤمناً فتبقى سيئاته ثابتة في صحيفته جائمة على قلبه وسوف يجازى بها في الآخرة .

ماقاله الطبرسي :

قال في مجمع البيان: وقوله سبحانه :**«ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو انثى وهو مؤمن »** وإنما قال « وهو مؤمن » ليبيّن أنّ الطاعة لاتنفع من دون الايمان « **فاولئك يدخلون الجنة ولايظلمون نقيراً** » .

وعدالله تعالى بهذه الآية جميع المكلّفين من الرجال والنساء اذا عملوا الأعمال الصالحة أي الطاعات الخالصة وهم مؤمنون موحدون مصدقون نبيه بأن يدخلهم الجنة ويثبتهم فيها ولايبخسهم شيئاً مما يستحقونه من الثواب وإن كان مقدار نقير في الصغر ، وقد قابل سبحانه الوعيد العام في الآية التي قبل هذه الآية بالوعد العام في هذه الآية ليقف المؤمن بين الخوف والرجاء[1] انتهى .

ماقاله المراغي :

قال في تفسيره للآية : أي ومن يعمل كل مايستطيع عمله من الأعمال التي تصلح بها النفوس في آدابها وأخلاقها وأحوالها الاجتماعية سواء كان العامل ذكراً أم انثى وهو مطمئنّ القلب بالايمان فاولئك العاملون المؤمنون بالله واليوم الآخر يدخلون الجنة بزكاء أنفسهم وطهارة أرواحهم ولايظلمون من اجور أعمالهم شيئاً ولو حقيراً كالنقير .

وفي هذه الآيــة وماقبلها من العبرة والموعظة مايهدم صروح الأماني التي يأوي إليها الكسالى وذوو الجهالة من المسلمين الذين يظنون أنّ الله يحابي من يسمي نفسه مسلماً ويفضله على اليهودي والنصراني لأجـل هـذا اللقب ، فالذين

---

(١) مجمع البيان : ج٣ ص١١٥ .

يفخرون بالانتساب إليه وقد نبذوه وراء ظهورهم وحرموا الاهتداء بهديه هم في ضلال مبين[1] انتهى.

ثم بعدما بيّن الله للبشر أنّ كل شيء افتخر به المسلمون أو النصارى أو اليهود، وكل شيء علقوا عليه أمانيهم فإنه شيء واهٍ ضعيف ليس عليه اعتماد، وأنّ هذا الافتخار وهذه الامنية لايترتب عليهما ثواب ولايدفع بهما عقاب ولا يقربان العبد الى الله، وأنّ من عمل سوءً يكن جزاؤه بمثل عمله، ومن عمل الصالحات فاولئك يدخلون الجنّة لأن عملهم مقبول عند الله.

وبعد هذا كلّه بيّن للناس قانوناً كلياً وقاعدة عامة، وأنّ كل من اتصف بهذه الصفات التي يذكرها الله فهذا المتصف بها هو المقرب عند الله، وهو الذي يدخله الله الجنة وهو الذي لاينقص شيئاً من أعماله الحسنة وكلها تكتب له، لأنه لايعمل شيئاً يبطل به صالح أعماله ويحبط به حسناته، وهي محفوظة له وفي كل يوم تزداد وتكثر وتنمو وتربو، والقانون العام هو ماذكره الله تعالى في قوله:

ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفاً واتخذ الله ابراهيم خليلا (١٢٥).

هذا سؤال موجّه الى جميع البشر والى جميع أهل الأديان، موجّه الى المسلم والى المؤمن الكامل الايمان والى ضعيف الايمان والى المنافق والى المشرك والى أهل الكتاب بجميع أصنافهم والى عبدة الأوثان والى غيرهم من أصناف الناس، هذا سؤال امتحان وسؤال انكار.

أي هل يمكن أن يقول أحد أو يدعي مدعٍ أو يخطر على بال أحد إنّ في عالم الوجود أحداً هو أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله؟ وتسليم الوجه عبارة عن

(١) تفسير المراغي: ج٥ ص١٦٦.

تسليم سائر البدن الذي في ضمنه القلب ، حيث إنّ الوجه مشتمل على الحواس الخمس ، فلايسلمه الانسان بالطوع والرغبة والارادة إلا بإرشاد من القلب وأمر من العقل ، فاذا سلم الوجه لله يكون خاضعاً لارادته ممتثلاً لأمره ونهيه موقفاً نفسه لاشارة من مولاه لايتخلف عنه مقدار ذرة .

فتسليم الوجه عبارة عن الايمان الكامل الذي لايشوبه شيء بحيث يعتقد أنّ الله هو الخالق المكون لجميع الأشياء والامور كلها بيده وتجري بأمره، والرزق كثرة وقلة بيده، فلايبيع آخرته بدنياه ، فاذا صحّت عقيدته وحسنت نيته تكون جميع أفعاله وأقواله مطابقة لارادة الله بحيث لايصدر منه فعل أو قول يكون فيه مشاقفة للرسول ولايتعمد في سوء يعمله حتى يجازى به .

ثم مع هذا الدين ومع هذه النية ومع هذا الخضوع ومع هذه الطاعة يكون محسناً أيضاً ، والمحسن من يكون محسناً لنفسه ومحسناً للناس ، وليعلم المرء أنّ الانسان كلما كان محسناً لنفسه فلابدّ أن يكون محسناً للناس لأنّ الاحسان للناس يعود حسنه على نفس الفاعل ، فالانسان العاقل العارف بكيفية جلب الاحسان لنفسه لايصدر منه فعل مسيئاً لغيره أبداً ، أما الذي لايعرف كيف يجلب النفع لنفسه ويرى نهب أموال الناس من جملة النفع فقد تقدم ذكره في قوله تعالى : « ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه » .

أما هذا الذي ذكره الله في هذه الآية وجعله أحسن من جميع الكائنات ديناً وقد أرشدنا الله أن نكون على مثل هذه الطريقة فهو في كل الأفعال والأقوال يراعي مرضاة الله وإرادته ، ولايخفى أنّ مرضاة الله تكره وتأبى أذى العباد وظلمهم .

ثم لما كان أكثر الناس بل كلهم لايعرفون كيفية اسلام الوجه لله التي يرضاها ويقبلها ولايعرفون أيضاً الأشياء الحسنة على الحقيقة ، وأنّ الكثير من الامور تشتبه عليهم وهم يريدون أن يتصفوا بهذه الصفة التي ذكرها الله وجعلها أحسن الأشياء ، ولهذا نبّهنا الله على الطريقة التي تعرفنا بها في الجمله الأخيرة

من الآية وهي : « واتّبع ملّة إبراهيم حنيفاً » .

إعلم أيها الطالب لمرضاة الله ، أيها الانسان الذي يريد أن يتصف بالصفة التي جعلها الله أحسن صفات أهل الأرض وأهل السماء أحسن صفات الأولين والآخرين ولا يقدر أحد أن يقول بوجود دين أو شريعة أحسن منها ، اذا أردت هذا الدين فيلزمك أن تتبع ملّة ابراهيم التي أودعها الله بجميع حدودها وأحكامها ومسائلها كلية وجزئية عند خاتم الأنبياء وسيدهم ، وليس هناك أحد غيره يعلّم هذه الملّة والشريعة ، والنبي ﷺ بيّنها بجملتها وأودعها عند وصيه علي بن أبي طالب عليه السلام وأوصى امّته أن يتمسكوا بالقرآن وبالعترة فالقرآن مشتمل على جميع الأحكام والسنن ، والعترة عندها علم القرآن بأجمعه لا يفوتها منه شيء ، فلا مناص لمن أراد أن يسلم وجهه لله وأن يكون من المحسنين إلا باتّباع ملّة ابراهيم ، وهي إنما تتحقق باتّباع النبي ومن بعده بالتمسك بالثقلين كتاب الله والعترة النبوية .

ماقاله المراغي :

قال في تفسيره للآية : أي لا أحد أحسن ممن جعل قلبه خالصاً لله وحده فلا يتوجه الى غيره في دعاء ولا رجاء ولا يجعل بينه وبينه حجاباً من الوسائط والشفعاء ولا يرى في الوجود إلا هو ، ويعتقد أنه سبحانه ربط الأسباب بالمسببات ، فلا يطلب شيئاً إلا من خزائن رحمته ، ولا يأتي بيوت هذه الخزائن إلّا من مسالكها وهي السنن والأسباب التي سنّها في الخليقة ، وهو مع هذا الايمان الكامل والتوحيد الخالص محسن للعمل متحلٍ بأحسن الأخلاق والفضائل .

وقد عبّر عن توجه القلب بإسلام الوجه لأنّ الوجه أعظم مظهر لما في النفس من إقبال وإعراض وشرور وكآبة ومافيه هو الذي يدل على مافي السريرة .

«واتّبع ملّة إبراهيم حنيفاً » أي واتّبع ابراهيم في حنيفيته التي كان عليها بميله عن الوثنية وأهلها وتبريه مما كان عليه أبوه وقومه منها ، قال تعالى: « وإذ

قال إبراهيم لأبيه وقومه إنّني براء ممّا تعبدون* إلّا الّذي فطرني فإنّه سيهدين* وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلّهم يرجعون»[1].

« واتخذ الله إبراهيم خليلاً » أي اصطفاه الله لاقامة دينه في بلاد غلبت عليها الوثنية وأفسد الشرك عقول أهلها، وقد بلغ من الزلفى عند ربه ماصحّ به أن يسمى خليلاً فقد اختصه بكرامة ومنزلة تشبه الخليل لدى خليله، ومن كانت له هذه المنزلة كان جديراً أن تتبع ملّته وتؤتسى طريقته.

والخلاصة: إنه منّ عليه بسلامة الفطرة وقوة العقل وصفاء الروح وكمال المعرفة وفنائه في التوحيد[2] انتهى.

ماقاله الطبرسي:

قال في مجمعه: ثم بيّن سبحانه من يستحقّ الوعد الذي ذكره قبل فقال: «**ومن أحسن ديناً**» وهو في صورة الاستفهام، والمراد به التقرير. ومعناه من أصوب طريقاً وأهدى سبيلاً، أي لا أحد أحسن اعتقاداً « **ممن أسلم وجهه لله** » أي استسلم وجهه.

والمراد بقوله « وجهه » هنا ذاته ونفسه كماقال تعالى: « كلّ شيءٍ هالك إلّا وجهه »[3] والمعنى إنقاد لله سبحانه بالطاعة ولنبيه صلى الله عليه وآله بالتصديق.

وقيل: معنى « أسلم وجهه لله » قصده بالعبادة وحده كما أخبر عن ابراهيم عليه السلام أنه قال: « وجّهت وجهي للّذي فطر السماوات والأرض »[4].

وقيل: معناه أخلص أعماله لله، أي أتى بها مخلصاً لله فيها.

« **وهو محسن** » أي فاعل للفعل الحسن الذي أمره الله تعالى.

---

(١) الزخرف: ٢٦ ـ ٢٨.
(٢) تفسير المراغي: ج٥ ص١٦٦.
(٣) القصص: ٨٨.
(٤) الانعام: ٧٩.

وقيل : معناه وهو محسن في جميع أقواله وأفعاله .

وقيل : إنّ المحسن هنا الموحد .

وروي أنّ النبي ﷺ سئل عن الاحسان فقال : أن تعبد الله تعالى كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك .

« **واتبع ملة ابراهيم** » أي اقتدي بدينه وسيرته وطريقته ، يعني ما كان عليه ابراهيم ، وأمر بـه بنيه من بعده وأوصاهم به من الاقرار بتوحيده وعدله وتنزيهه عمالايليق به، ومن ذلك الصلاة الى الكعبة والطواف حولها وسائر المناسك.

«**حنيفاً**» أي مستقيماً على منهاجه وطريقه ، وقد مرّ معنى الحنيف في سورة البقرة .

«**واتخذ الله ابراهيم خليلا**» أي محباً لاخلل في مودتـه لكمال خلّته ، والمراد بخلّته لله أنه كان موالياً لأولياء الله ومعادياً لأعداء الله ، والمراد بخلّة الله تعالى له نصرته على من أراده بسوء كما أنقذه من نار النمرود وجعلها عليه برداً وسلاماً وكان فعله بملك مصر حين راوده عن أهله وجعله إماماً للناس وقدوة لهم.

قال الزجاج : جائز أن يكون سمي خليل الله بأنـه الذي أحبه الله بأن اصطفاه محبة تامة كاملة ، وأحبّ الله هو محبة تامة كاملة .

وقيل : سمي خليلاً لأنه افتقر الى الله وتوكل عليه وانقطع بحوائجه إليه وهو اختيار الفراء وأبي القاسم البلخي. وإنما خصه الله بهذا الاسم ـ وإن كان الخلق كلهم فقراء الى رحمته ـ تشريفاً له بالنسبة إليه من حيث إنه فقير إليه لايرجو لسدّ خلّته بسواه كما خصّ موسى بأنه كليم الله ، وعيسى بأنه روح الله ، ومحمّداً بأنه حبيب الله .

وقيل : إنما سمي خليلاً لأنه سبحانه خصه بمالم يخصّ به غيره من إنزال الوحي عليه وغير ذلك من خصائصه ، وإنما خصه من بين سائر الأنبياء بهذاالاسم على المعنيين اللذين ذكرناهما وإن كان كل واحد من الأنبياء خليل الله في زمانه

لأنه سبحانه خصهم بالنبوة .

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : قد اتخذ الله صاحبكم خليلاً ـ يعني نفسه ـ وهذا الوجه اختيار أبي علي الجبائي قال : وكلما تعبّد الله به ابراهيم فقد تعبّد به نبينا وزاده أشياء لم يتعبّد بها ابراهيم .

ومما قيل في وجه خلّة ابراهيم ماروي في التفسير : أنّ ابراهيم كان يضيف الضيفان ويطعم المساكين ، وأنّ الناس أصابها جدب . فارتحل ابراهيم الى خليل له بمصر يلتمس منه طعاماً لأهله، فلم يصب ذلك عنده، فلما قرب من أهله بمفازة ذات رمل لينة ملأ غرائره من ذلك الرمل لئلاّ يغمّ أهله برجوعه من غير ميرة ، فحوّل الله مافي غرائره دقيقاً، فلما وصل الىأهله دخل البيت ونام استحياءً منهم ففتحوا الغرائر وعجنوا من الدقيق وخبزوا وقدموا إليه طعاماً طيباً ، فسألهم من من أين خبزوا ؟ قالوا: من الدقيق الذي جئت به من عند خليلك المصري، فقال: أما أنه من خليلي وليس بمصري،فسماه الله سبحانه خليلاً. رواه علي بن ابراهيم عن أبيه عن هارون بن مسلم عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبدالله عليه السلام[1] .

ماقاله الفخر الرازى :

قال في تفسير هذه الآية : إعلم أنه تعالى لما شرط حصول النجاة والفوز بالجنة بكون الانسان مؤمناً شرح الايمان وبيّن فضله من وجهين :

أحدهما : أنه الدين المشتمل على إظهار كمال العبودية والخضوع والانقياد لله تعالى .

والثاني : وهو أنه الدين الذي كان عليه ابراهيم عليه الصلاة والسلام،وكل واحد من هذين الوجهين سبب مستقل بالترغيب في دين الاسلام .

أما الوجه الأول: فاعلم أنّ دين الاسلام مبنيٌّ على أمرين: الاعتقاد والعمل.

(١) مجمع البيان : ج٣ ص١١٦ .

أما الاعتقاد فإليه الاشارة بقوله : « أسلم وجهه » وذلك لأنّ الاسلام هو الانقياد والخضوع ، والوجه أحسن أعضاء الانسان ، فالانسان اذا عرف بقلبه ربه وأقرّ بربوبيته ومعبودية نفسه فقد أسلم وجهه لله .

وأما العمل فإليه الاشارة بقوله :« وهو محسن » ويدخل فيه فعل الحسنات و ترك السيئات ، فتأمل في هذه اللفظة المختصرة و احتوائها على جميع المقاصد والأغراض .

وأيضاً فقوله تعالى : « أسلم وجهه لله » يفيد الحصر ، معناه أنه أسلم نفسه لله وماأسلم لغير الله ، وهذا تنبيه على أنّ كمال الايمان لايحصل إلا عند تفويض جميع الامور الى الخالق وإظهار التبري من الحول والقوة .

وأيضاً ففيه تنبيه على فساد طريقة من استعان بغير الله ، فإنّ المشركين كانوا يستعينون بالأصنام ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، والدهرية والطبيعيون يستعينون بالأفلاك والكواكب والطبايع وغيرها ، واليهود كانوا يقولون في دفع عقاب الآخرة عنهم أنهم من أولاد الأنبياء ، والنصارى كانوا يقولون : ثالث ثلاثة ، فجميع الفرق قد استعانوا بغير الله .

وأما المعتزلة فهم في الحقيقة ماأسلمت وجوههم لله لأنهم يرون الطاعة الموجبة لثوابهم من أنفسهم والمعصية الموجبة لعقابهم من أنفسهم ، فهم في الحقيقة لايرجون إلا أنفسهم ولايخافون إلا أنفسهم .

وأما أهل السنّة الذين فوّضوا التدبير والتكوين والابداع والخلق الى الحق سبحانه وتعالى واعتقدوا أنه لاموجد ولامؤثّر إلا الله فهم الذين أسلموا وجوههم لله وعوّلوا بالكلية على فضل الله وانقطع نظرهم عن كل شيء ماسوى الله .

وأما الوجه الثاني : في بيان فضيلة الاسلام وهو أن محمداً عليه الصلاة والسلام إنما دعا الخلق الى دين ابراهيم عليه السلام ، فلقد اشتهر عند كل الخلق أنّ ابراهيم

عليه السلام ماكان يدعو إلا الى الله تعالى كما قال: « إنّي بريء ممّا تشركون »[1] وما يدعو الى عبادة فلك ولاطاعة كوكب ولاسجدة صنم ولاستعانة بطبيعة بل كان دينه الدعوة الى الله والاعراض عن كل ماسوى الله .

ودعوة محمد صلى الله عليه وآله قد كان قريباً من شرع ابراهيم عليه السلام في الختان وفي الأعمال المتعلقة بالكعبة مثل الصلاة إليها والطواف بها والسعي والرمي والوقوف والحلق والكلمات العشر المذكورة في قوله : « وإذ ابتلى ابراهيم ربّه »[2].

ولما ثبت أنّ شرع محمد صلى الله عليه وآله كان قريباً من شرع ابراهيم ، ثم إنّ شرع ابراهيم مقبول عند الكل وذلك لأنّ العرب لايفتخرون بشيء كافتخارهم بالانتساب الى ابراهيم ، وأما اليهود والنصارى فلاشكّ في كونهم مفتخرين به ، واذا ثبت هذا لزم أن يكون شرع محمد صلى الله عليه وآله مقبولاً عند الكل .

ثم قال تعالى : « واتخذ الله ابراهيم خليلاً » وفيه مسائل :

(المسألة الاولى) في تعلّق هذه الآية بما قبلها ، وفيه وجهان ، الأول: أنّ ابراهيم عليه السلام لما بلغ في علوّ الدرجة في الدين أن اتخذه الله خليلاً كان جديراً بأن يتّبع خلقه وطريقته.

والثاني: أنه لما ذكر ملّة ابراهيم ووصفه بكونه حنيفاً ثم قال عقيبه « واتخذ الله إبراهيم خليلاً » أشعر هذا بأنه سبحانه إنما اتخذه خليلاً لأنه كان عالماً بذلك الشرع آتياً بتلك التكاليف ، ومما يؤكد هذا قوله : « وإذ ابتلى إبراهيم ربّه بكلمات فأتمّهنّ قال إني جاعلك للناس إماماً » وهذا يدلّ على أنه سبحانه إنما جعله إماماً للخلق لأنه أتمّ تلك الكلمات .

واذا ثبت هذا فنقول : لما دلّت الآية على أنّ ابراهيم عليه السلام إنما كان بهذا المنصب العالي وهو كونه خليلاً لله تعالى بسبب أنه كان عاملاً بتلك الشريعة كان

---

(١) هود : ٥٤ .

(٢) البقرة : ١٢٤ .

هـذا تنبيهاً على أنّ من عمل بهـذا الشرع لابدّ وأن يفوز بأعظم المناصب في الدين ، وذلك يفيد الترغيب العظيم في هذا الدين . ثم قال بعد أسطر :

(المسألـة الثانية) ذكروا في اشتقاق الخليل وجوهـاً ، الأول : أنّ خليل الانسان هو الذي يدخل في خلال اموره وأسراره والذي دخل حبه في خلال أجزاء قلبه ، ولاشك أنّ ذلك هو الغاية في المحبة .

قيل : لما أطلع الله ابراهيم عليه السلام على الملكوت الأعلى والأسفل، ودعا القوم مرة بعد اخرى الى توحيد الله ومنعهم عن عبادة النجم والقمر والشمس ، ومنعهم عن عبادة الأوثان ، ثم سلّم نفسه للنيران وولده للقربـان وماله للضيفان ، جعله الله إماماً للخلق ورسولاً إليهم وبشره بأن الملك والنبوة في ذريته، فلهذه الاختصاصات سمّاه خليلاً لأنّ محبة الله لعبده عبارة عن إرادته لايصال الخيرات والمنافع إليه.

الوجه الثاني في اشتقاق اسم الخليل : أنه الذي يوافقك في خلالك .

أقول: روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: تخلّقوا بأخلاق الله، فيشبه أنّ ابراهيم عليه السلام ـ لما بلغ في هذا الباب مبلغاً لم يبلغه أحد ممن تقدم ـ لاجرم خصّه الله بهذا التشريف .

الوجه الثالث: قال صاحب الكشاف: إنّ الخليل هو الذي يسايرك في طريقك من الخل وهو الطريق في الرمل . وهذا الوجه قريب من الوجه الثاني، أو يحمل ذلك على شدة طاعته لله وعدم تمرده في ظاهره وباطنه عن حكم الله كما اخبر الله عنه بقوله : « إذ قال له ربّه أسلم قال أسلمت لربّ العالمين »[1].

الوجه الرابع : الخليل هو الذي يسدّ خللك كما تسدّ خلله. وهذا القول ضعيف لأنّ ابراهيم عليه السلام لما كان خليلاً مع الله امتنع أن يقال إنه يسدّ الخلل، ومن هاهنا علمنا أنه لايمكن تفسير الخليل بذلك .

أما المفسرون فقد ذكروا في سبب نزول هذا اللقب وجوهاً :

---

(١) البقرة : ١٣١ .

الأول : أنه لما صار الرمل الذي أتى به غلمانه دقيقاً قالت امرأته: هذامن عند خليلك المصري ، فقال ابراهيم : بل هو من خليلي الله .

والثاني : قال شهر بن حوشب : هبط ملك في صورة رجل وذكر اسم الله بصوت رخيم شجي، فقال ابراهيم ﷺ: اذكره مرة اخرى، فقال: لاأذكره مجاناً فقال : لك مالي كلّه . فذكره الملك بصوت أشجى من الأول، فقال : اذكره مرة ثالثة ولك أولادي ، فقال الملك : أبشر فإني ملك لاأحتاج الى مالك وولدك وإنما كان المقصود امتحانك . فلما بذل المال والأولاد على سماع ذكر الله لاجرم اتخذه الله خليلاً .

الثالث : روى طاووس عن ابن عباس : أنّ جبريل والملائكة لما دخلوا على ابراهيم في صورة غلمان حسان الوجوه وظنّ الخليل أنهم أضياف وذبح لهم عجلاً سميناً وقرّبه إليهم وقال : كلوا على شرط أن تسموا الله في أوله وتحمدوه في آخره، فقال جبريل : أنت خليل الله ، فنزل هذا الوصف .

وأقول: فيه عندي وجه آخر وهو : أنّ جوهر الروح اذا كان مضيئاً مشرقاً علوياً قليل التعلّق باللذات الجسمانية والأحوال الجسدانية ثم انضاف الى مثل هذا الجوهر المقدس الشريف أعمال تزيده صقالة عن الكدورات الجسمانية وأفكار تزيده استنارة بالمعارف القدسية والجلايا الالهية صار مثل هذا الانسان متوغلاً في عالم القدس والطهارة متبرئاً عن علائق الجسم والحس .

ثم لايزال هذا الانسان يتزايد في هذه الأحوال الشريفة الى أن يصير بحيث لايرى إلا الله ولايسمع إلا الله ولايتحرك إلا بالله ولايسكن إلا بالله ولايمشي إلا بالله، فكان نور جلال الله قد سرى في جميع قواه الجسمانية وتخلّل فيها وغاص في جوهرها وتوغل في ماهيّاتها، فمثل هذا الانسان هو الموصوف حقاً بأنه خليل لما أنه تخلّلت محبة الله في جميع قواه ، وإليه الاشارة بقول النبي ﷺ في دعائه :

اللّهمّ اجعل في قلبي نوراً ، وفي سمعي نوراً، وفي بصري نوراً ، وفي عصبي نوراً[1].

ثم لما بيّن الله الدين الذي اختاره وارتضاه وفضّله على جميع الأديان وأمرنا بالاتصاف به والتمسك فيه ومن جملة هذا الدين الذي اختصّ به محمد وامّته وبيّن لنا أنّ من جملة هذا الدين هو اتّباع ملّة ابراهيم بعد ذلك قال تعالى : « واتخذ الله إبراهيم خليلاً » .

تأمل أيها المسلم بما فضّلك الله به أن جعلك من امّة محمد، وتأمل بما فضّل به محمداً ﷺ أن جعل دينه أحسن الأديان كلها، ومن جملة هذا الدين ملّة ابراهيم التي كان العمل بها سبباً لاتخاذ الله ابراهيم خليلاً ، فماظنك بدين محمد الذي يكون بعضه سبباً لصيرورة العامل به خليلاً لله .

فعليك أيها الراغب في القرب من الله ، أيها الطالب للدرجات الرفيعة ، أن تعرف دين محمد بحقيقته وأن تعمل به بتمامه وكماله ولاتقصر في المعرفة والعمل حتى تكون من أبرار امّة محمد وحتى تكون مع محمد يوم القيامة .

قوله تعالى : ولله مافي السماوات ومافي الارض وكان الله بكل شيء محيطاً (١٢٦) .

هذه الآية الشريفة تنبه العبد الغافل وتعلّم المرء الجاهل بأنّ الله سبحانه لم يزل عالماً بجميع مايفعله العباد من خير أو شرّ من الأفعال الظاهرة والخفية ، وماتكون بالجوارح أو من قبيل النيات التي تكون في القلوب فإنه محيط بها ، والمحيط بالشيء لايخفى عليه ذلك الشيء بل يعلم بحقيقته ويعلم دقائقه وجزئياته.

إنّ العبد الذي يظهر للناس الاسلام وعمله يكون مخالفاً لما أمر به النبي فإنّ الله عالم به غير خفي عليه، وإنّ من اطلع على ماأمر به النبي فغيّره وحرفه

---

(١) تفسير الرازي : ج١١ ص٥٦ ـ ٥٩ .

وبدله فإن الله عالم به لأنه مالك العبد ومالك لقلب العبد ، والمالك للشيء عالم بحقيقة ذلك الشيء، وكل من أظهر للناس أنه قد أسلم وجهه لله واتبع ملّة ابراهيم وهو مشاقق للنبي في بعض ماأمر به فإنه مكشوف عند الله غير خفي عليه، لأن ملّة ابراهيم إنما يعرفها النبي بكمالها وتمامها وهو قد أودعها عند من أودع عنده تأويل القرآن ، وهو الذي جعله عدلاً للقرآن وأمر امّته بالتمسك بهما ، فمن ادعى أنه تابع لملّة ابراهيم وأنه يعرفها وهو مخالف لمن أمر النبي بالتمسك به فإن الله محيط به إحاطة تامة يعلم السبب الذي حمله على هذه المخالفة ويعلم غرض العبد من هذه المخالفة .

ماقاله الطبرسى :

قال في تفسيره : ثم بيّن سبحانه أنما اتخذ ابراهيم خليلاً لطاعته ومسارعته الى رضاه لا لحاجة منه سبحانه الى خلّته فقال:**«ولله مافى السماوات ومافى الارض»** مُلكاً ومِلكاً فهو مستغنٍ عن جميع خلقه والخلق محتاجون إليه **« وكان الله بكل شيء محيطاً»** يعني لم يزل سبحانه عالماً بجميع مايفعله عباده، ومعنى المحيط بالشيء أنه العالم به من جميع وجوهه[1] انتهى .

ماقاله الفخر الرازى :

ذكر في تفسيره لهذه الآية مسائل :

(المسألة الاولى) في تعلّق هذه الآية بما قبلها ، وفيه وجوه :

الأول : أن يكون المعنى أنه لم يتخذ الله ابراهيم خليلاً لاحتياجه إليه في أمر من الامور كما تكون صلة الآدميين ، وكيف يعقل ذلك وله ملك السماوات والأرض ! ومن كان كذلك فكيف يعقل أن يكون محتاجاً الى البشر الضعيف ! وإنما اتخذه خليلاً بمحض الفضل والاحسان والكرم ، ولأنه لما كان مخلصاً في

---

(١) مجمع البيان : ج٣ ص١١٧ .

العبودية لاجرم خصه الله بهذا التشريف .

والحاصل : أنّ كونه خليلاً يوهم الجنسية، فهو سبحانه أزال وهم المجانسة والمشاكلة بهذا الكلام .

والثاني : أنه تعالى ذكر من أول السورة الى هذا الموضع أنواعاً كثيرة من الأمر والنهي والوعد والوعيد ، فبيّن هاهنا أنه إله المحدثات وموجد الكائنات والممكنات، ومن كان كذلك كان ملكاً مطاعاً، فوجب على كل عاقل أن يخضع لتكاليفه وأن ينقاد لأمره ونهيه .

الثالث : أنه تعالى لما ذكر الوعد والوعيد ولا يمكن الوفاء بهما إلا عند حصول أمرين ، أحدهما : القدرة التامة المتعلّقة بجميع الكائنات والممكنات . والثاني: العلم التام المتعلّق بجميع الجزئيات والكليات حتى لا يشتبه عليه المطيع والعاصي والمحسن والمسيء، فدلّ على كمال قدرته بقوله : « ولله مافي السماوات ومافي الأرض » وعلى كمال علمه بقوله : « وكان الله بكل شيء محيطاً » .

الرابع : أنه سبحانه لما وصف ابراهيم بأنه خليله بيّن أنه مع هذه الخلة عبداً له . وذلك لأنه له مافي السماوات ومافي الأرض، ويجري هذا مجرى قوله « إن كل من في السماوات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً » [1] ومجرى قوله : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقرّبون » [2] يعني أنّ الملائكة مع كمالهم في صفة القدرة والقوة في صفة العلم والحكمة لم يستنكفوا عن عبودية الله ! فكيف يمكن أن يستنكف المسيح عليه السلام مع ضعف بشريته عن عبودية الله! كذا هاهنا يعني اذا كان كل من في السماوات والأرض ملكه في تسخيره ونفاذ إلهيته فكيف يعقل أنّ يقال إن اتخاذ الله ابراهيم عليه السلام خليلاً يخرجه عن عبودية الله . وهذه الوجوه كلها حسنة متناسبة .

(المسألة الثانية) إنما قال : « مافي السماوات ومافي الأرض » ولم يقل «من»

---

(١) مريم : ٩٣ .

(٢) النساء : ١٧٢ .

لأنه ذهب مذهب الجنس والذي يعقل اذا ذكر واريد به الجنس ذكر بـ «ما».

(المسألة الثالثة) قوله تعالى: «وكان الله بكل شيء محيطاً» فيه وجهان، أحدهما: المراد منه الاحاطة بالعلم. والثاني: المراد منه الاحاطة بالقدرة كما في قوله تعالى: «واخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها»[1].

قال القائلون بهذا القول: وليس لقائل أن يقول لمادلّ قوله «ولله مافي السماوات ومافي الأرض» على كمال القدرة، فلو حملنا قوله «وكان الله بكل شيء محيطاً» على كمال القدرة لزم التكرار، وذلك لأنا نقول إنّ قوله: «لله مافي السماوات ومافي الأرض» لايفيد ظاهره إلا كونه تعالى قادراً مالكاً لكل مافي السماوات ومافي الأرض، ولايفيد كونه قادراً على مايكون خارجاً عنهما ومغايراً لهما، فلمّا قال: «وكان الله بكل شيء محيطاً» دلّ على كونه قادراً على مالا نهاية له من المقدورات خارجاً عن هذه السماوات والأرض، على أنّ سلسلة القضاء والقدر في جميع الكائنات والممكنات إنما تنقطع بإيجاده وتكوينه وإبداعه.

فهذا تقرير هذا القول، إلا أنّ القول الأول أحسن لما بيّنا أنّ الالهية والوفاء بالوعد والوعيد إنما يحصل ويكمل بمجموع القدرة والعلم، فلابدّ من ذكرهما معاً. وإنما قدّم ذكر القدرة على ذكر العلم لما ثبت في علم الاصول أنّ العلم بالله هو العلم بكونه قادراً، ثم بعد العلم بكونه قادراً يعلم كونه عالماً أنّ الفعل بحدوثه يدلّ على القدرة وبمافيه الاحكام والاتقان يدلّ على العلم، ولا شك أنّ الأول مقدم على الثاني[2] انتهى.

ماقاله المراغي:

قال في تفسيره: ثم ذكر ماهو كالعلة لما سبق بقوله «ولله مافي السماوات ومافي الأرض» أي أنّ كل مافي السماوات والأرض ملك له ومن خلقه مهما

---

(١) الفتح: ٢١.

(٢) تفسير الرازي: ج١ ص٦٠.

اختلفت صفات المخلوقات ، فجميعها مملوكة عابدة خاضعة لأمره .

« وكان الله بكل شيء محيطاً » إحاطة قهر وتسخير، وإحاطة علم وتدبير ، وإحاطة وجود ، لأنّ هذه الموجودات ليس وجودها من ذاتها ولاهي ابتدعت نفسها بل وجودها مستمدة من ذلك الوجود الأعلى، فالوجود الالهي هو المحيط بكل موجود ، فوجب أن يخلص له الخلق ويتوجه إليه العباد .

وقد جاءت هذه الآية خاتمة لماتقدم لفوائد :

(١) بيان الدليل على أنه المستحق وحده لاسلام الوجه له والتوجه إليه في كل حال ، لأنه هو المالك لكل شيء وغيره لايملك لنفسه شيئاً .

(٢) نفي مايتوهم في اتخاذ الله ابراهيم خليلاً من أنّ هناك شيئاً من المقاربة في حقيقة الذات والصفات .

(٣) التذكير بقدرته تعالى على إنجاز وعده ووعيده في الآيات التي قبلها. إذ من له مافي السماوات والأرض خلقاً وملكاً؟ فهو أكرم من وعد[1] انتهى .

قوله تعالى : ولله مافى السماوات ومافى الارض ولقد وصينا الذين اوتوا الكتاب من قبلكم واياكم أن اتقوا الله وان تكفروا فان لله مافى السماوات ومافى الارض وكان الله غنياً حميداً (١٣١).

إنّ هذه الآية مذكورة في القرآن الكريم في مواضع عديدة ، وفي كل موضع تذكر إنما هي لأجل مناسبة الآيات التي قبلها أو التي بعدها ، والمعنى واحد في جميع المواضع، وهو تنبيه وتذكير للعبد بأنّ جميع مافي السماوات وما في الأرض إنما وجد بأمر الله وأنه تحت تصرفه وفي قبضته ، فلايعجزه أمر مما في السماوات وفي الأرض، فكل شيء يرومه العبد المملوك لله ينبغي له أن يطلبه

(١) تفسير المراغي : ج٥ ص١٦٧ – ١٦٨ .

من الله لأنه ملك الله، وكل شيء يصعب تحصيله ينبغي له أن يستعين بالله في تحصيله وكل شيء يريد أن يفعله العبد ينبغي له أن يحرز رضا الله في هذا الفعل، فعلى العبد العاقل أن يعرف معنى الآية ، وأن يجعل أفعاله وأقواله مطابقة لمعناها ليكون عبداً مطيعاً لله ولا يكون عبداً آبقاً .

وأما المقصود من ذكرها في هذا المقام والمناسبة مع الآيات المتقدمة عليها فهو : أنّ الله سبحانه قد ذكر في الآيات السابقة بعض الأحكام المتعلّقة بالزوجين ومايجب لأحدهما على الآخر ، وأنه يجب على كل واحد من الزوجين أن يكون عاملاً بأمر الله ، وأنه اذا وقع بينهما نزاع ينبغي للآخرين إصلاحهما وينبغي لهما أن يرضيا بالحق ويرجعا إليه، ثم لولم يصطلحا ويتراضيا واختار كل منهما الفراق فافترقا فإنّ الله يغني كل واحد منهما من سعته ومن رزقه .

ثم ذكر في هذه الآية ماهو كالعلة لذلك الأمر الذي ذكره، أي أنّ الزوجين اذا افترقا ينبغي لهما أن يتكلا على الله في الحصول على زوج أحسن من الزوج المفارق ، وأن يطلبا من الله سعة الرزق ، حيث إنّ الزواج يحتاج الى مال ومالك المال هو الله لأنه مالك السماوات والأرض ، وينبغي لكل أحد أن يطلب الشيء من مالكه الحقيقي الذي خلقه والذي يقدر على التصرف به من سائر الوجوه كالابقاء والاعدام وتقويته وضعفه . هذا لو فرض أنّ الطالب للشيء غير مملوك لذلك المالك ، أما اذا كان الطالب هو أيضاً مملوك لذلك المالك فهذا يؤكد ويؤيد أن يجعل طلبه من ذلك المالك وأن يخلص له في النية و العمل حتى يسعفه بقضاء حاجته .

وعلى ماذكر يكون نجاح العبد في الدنيا والآخرة موقوفاً على إطاعة الله بالطريقة التي يريدها الله وعدم عصيانه في شيء من الأشياء ، فالرجل العاقل الذي يريد النفع لنفسه الرجل الذي يحاذر على نفسه من الضرر بل من التلف بل من عذاب مستمر لاطاقة له به ، فليغتنم هذه الفرصة حتى يكون من الناجحين .

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: عامل وجهاً واحداً يكفيك كل الوجوه[1] وأنّ الله عزّ وجلّ ـ الخالق للكل والمالك للكل والقادر على كل شيء ـ قد نبّه جميع الخلق الى هذا الأمر بقوله في وسط الآية : « **ولقد وصينا الذين اوتوا الكتاب من قبلكم واياكم أن اتقوا الله وان تكفروا فان لله مافى السماوات ومافى الاض وكان الله غنياً حميداً** » .

لقد كرر هذه الجملة مرتين وهي قوله : «لله مافي السماوات ومافي الأرض» التي عرفت معناها، وجعل الوصية لنا بالتقوى وسط الجملتين زيادة في تنبيهنا ، وبيّن لنا أنّ من لم يقبل هذه الوصية ولم يعمل بها فإنه كافر، والكافر إنما يضرّ نفسه لا يضرّ غيرها، لأنّ الله له مافي السماوات ومافي الأرض لاتنفعه طاعة المطيعين ولا تضره معصية العاصين .

فالعبد الذي يقرأ هذه الآية التي تصف الله في أولها وآخرها بأنه مالك ما في السماوات ومافي الأرض ويقرأ أو يسمع وصية الله له بالتقوى ثم لم يتق الله ويعصه فإنّ أحسن وصف يوصف به هذا العبد هو ما وصفه الله من الكفر حيث قال: « وإن تكفروا فإنّ لله مافي السماوات ... الخ » .

ماقاله الطبرسي:

قال في بيان معنى الآية: ثم ذكر سبحانه بعد إخباره بإغناء كل واحد من الزوجين بعد الافتراق من سعة فضله مايوجب الرغبة إليه في ابتغاء الخير منه فقال : «ولله مافي السماوات ومافي الأرض» إخباراً عن كمال قدرته وسعة ملكه أي فإنّ من يملك مافي السماوات ومافي الأرض لايتعذر عليه الاغناء بعد الفرقة والايناس بعد الوحشة .

ثم ذكر الوصية بالتقوى فإنّ بها ينال خير الدنيا والآخرة فقال : « ولقد وصّينا الّذين اوتوا الكتاب من قبلكم» من اليهود والنصارى وغيرهم «وإيّاكم»

(١) لم نعثر عليه .

أي وأوصينا كم أيها المسلمون في كتابكم « أن اتقوا الله » وتقديره بأن اتقوا الله أي اتقوا عقابه باتقاء معاصيه ولاتخالفوا أمره ونهيه .

« وإن تكفروا » أي تجحدوا وصيته إيّاكم أن تخالفوها « فإنّ لله مافي السماوات ومافي الأرض » لايضره كفرانكم وعصيانكم ، وهذه إشارة الى أنّ أمره جميع الامم بطاعته ونهيه إيّاهم عن معصيته ليس استكثاراً بهم عن قلّة ولا استنصاراً بهم عن ذلّة ولا استغناءً بهم عن حاجة ، فإنّ له مافي السماوات ومافي الأرض مُلكاً ومِلكاً وخلقاً ، لايلحقه العجز ولايعتريه الضعف ولاتجوز عليه الحاجة، وإنما أمرنا ونهانا نعمة منه علينا ورحمة بنا .

« وكان الله غنياً » أي لم يزل سبحانه غير محتاج الى خلقه بل الخلائق كلّهم محتاجون إليه .

« حميداً » أي مستوجباً للحمد عليكم بصنائعه الحميدة إليكم وآلائه الجملية لديكم ، فاستديموا ذلك باتقاء معاصيه والمسارعة الى طاعته فيما يأمركم به[1].

ماقاله الفخر الرازي

قال في تفسيره : وفي تعلّق هذه الآية بما قبلها وجهان :

الأول : أنه تعالى لماذكر أنه يغني كلاً من سعته وأنه واسع أشار الى ما هو كالتفسير لكونه واسعاً فقال : « ولله مافي السماوات ومافي الأرض » يعني من كان كذلك فإنه لابدّ وأن يكون واسع القدرة والعلم والجود والفضل والرحمة .

الثاني : أنه تعالى لماأمر بالعدل والاحسان الى اليتامى والمساكين بيّن أنه ماأمر بهذه الأشياء لاحتياجه الى أعمال العباد لأنّ مالك السماوات والأرض كيف يعقل أن يكون محتاجاً الى عمل الانسان مع ماهو عليه من الضعف والقصور! بل

(١) مجمع البيان : ج٣ ص١٢١ .

إنما أمر بها رعاية لماهو الأحسن لهم في دنياهم واخراهم .

ثم قال تعالى : « ولقد وصّينا الّذين اوتوا الكتاب من قبلكم وإيّا كمأن اتقوا الله » وفيه مسائل :

(المسألة الاولى) المراد بالآية أنّ الأمر بتقوى الله شريعة عامة لجميع الامم لم يلحقها نسخ ولاتبديل بل هو وصية الله في الأولين والآخرين .

(المسألة الثانية) قوله « من قبلكم » فيه وجهان ، الأول : أنه متعلّق بـ « وصّينا » يعني ولقد وصّينا من قبلكم الذين اوتوا الكتاب. والثاني: أنه متعلّق بـ «اوتوا» يعني الذين اوتوا الكتاب من قبلكم وصّيناهم بذلك، وقوله :«وإيّا كم» بالعطف على «الذين اوتوا الكتاب» والكتاب اسم للجنس يتناول الكتب السماوية والمراد اليهود والنصارى .

(المسألة الثالثة) قوله : «أن اتقوا الله» كقولك أمرتك الخير، قال الكسائي: يقال : أوصيتك أن افعل كذا وأن تفعل كذا ، ويقال : ألم آمرك أن ائتي زيداً، وأن تأتي زيداً ، قال تعالى : « امرت أن أكون أول من أسلم »(١) وقال : « إنما امرت أن أعبد ربّ هذه البلدة »(٢).

ثم قال تعالى : « وإن تكفروا فإنّ لله مافي السماوات ومافي الأرض وكان الله غنياً حميداً » .

قوله : « وإن تكفروا » عطف على قوله : « اتقوا الله » والمعنى : أمرناهم وآمركم بالتقوى وقلنا لهم ولكم : « إن تكفروا فإنّ لله مافي السماوات ومافي الأرض » وفيه وجهان :

الأول : أنه تعالى خالقهم ومالكهم والمنعم عليهم بأصناف النعم كلها، فحق كل عاقل أن يكون منقاداً لأوامره ونواهيه يرجو ثوابه ويخاف عقابه .

---

(١) الانعام : ١٤ .

(٢) النمل : ٩١ .

والثاني : أنكم إن تكفروا فإنّ لله مافي سماواته ومافي أرضه من أصناف المخلوقات من يعبده ويتقيه وكان مع ذلك غنياً عن خلقهم وعن عبادتهم ومستحقاً لأن يحمد لكثرة نعمه، وإن لم يحمده أحد منهم فهو في ذاته محمود سواء حمدوه أم لم يحمدوه(١).

ماقاله المراغي :

قال العلّامة المراغي في بيان المعنى الجملي للآية : بعد أن أمر الله سبحانه بالعدل والاحسان الى اليتامى والمساكين بيّن أنه ماأمر بهذه الأشياء لاحتياجه الى أعمال العباد لأنّ كل مافي السماوات والأرض ملكه ، فهو مستغنٍ عنهم وقادر على إثابتهم على طاعته فيما شرعه لخيرهم ومصلحتهم ، بل ليزدادوا بتدبرها إيماناً يحملهم على العمل بها والوقوف عند حدودها .

الايضاح : « ولله مافي السماوات ومافي الأرض » خلقاً وملكاً فهو وحده مدبر الأكوان فلايتعذر عليه الاغناء بعد الفقر ، ولا الايناس بعد الوحشة الى نحو هذا مما ينبيء بعظيم القدرة وكمال الجود والاحسان .

« ولقد وصّينا الّذين اوتوا الكتاب من قبلكم وإيّاكم أن اتقوا الله » أي ولقد أمرنا من قبلكم من اليهود والنصارى وغيرهم من سالف الامم كما أمرناكم بتقوى الله في إقامة سننه وإقامة شريعته ، فبالاولى ترقى معارفكم ، وبالثانية تزكو نفوسكم وتنتظم مصالحكم الدينية والدنيوية.

« وإن تكفروا فإنّ لله مافي السماوات وما في الأرض » أي وإن تكفروا أنعم الله وتجحدوا فضله وإحسانه فاعلموا أنه سبحانه مالك الملك والملكوت لايضره كفركم ومعاصيكم، كما لاينفعه شكركم وتقواكم وقد وصّاكم وإيّاهم بهما لرحمته لالحاجته .

---

(١) تفسير الرازي : ج١١ ص٦٩ .

ثم زاد ماسلف توكيداً فقال :

« وكان الله غنياً حميداً » أي وكان الله غنياً عن كل شيء بذاته محموداً بذاته وكمال صفاته فهو لايحتاج الى شكركم لتكميل نفسه « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم »(١).

وفي الحديث القدسي: يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، لو أنْ أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته مانقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط اذا ادخل في البحر ، يا عبادي إنما هي أعمالكم احصيها لكم ثم اوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنْ إلا نفسه. رواه مسلم(٢).

قوله تعالى : ولله ما في السماوات وما في الارض وكفى بالله وكيلا (١٣٢).

هذه هي المرة الثالثة التي كررت ـ في هذه الآية والآية التي سبقتها ـ جملة «لله ما في السماوات وما في الارض». ففي المرة الاولى ذكر بعدها الوصية للأولين والآخرين بالتقوى ، وفي المرة الثانية ذكر بعدها صفتين من صفات الله لتعليم الجاهل وتنبيه الغافل وهما في قوله : «وكان الله غنياً حميداً» ، وفي المرة الثالثة ذكر بعدها صفة من صفات الله تكفي عن كل الصفات وهي قوله : « وكفى بالله

---

(١) الاسراء : ٤٤ .

(٢) تفسير المراغي : ج٥ ص١٧٥ .

وكيلا» حيث إنه لم يقل وكيلاً في أمر خاص وإنما هو وكيل مطلق أي في كل أمر من الامور لأنه مالك لما في السماوات وما في الأرض، وكل شيء من الأشياء تحتوي عليه السماوات والأرض فهو وكيل على كل شيء «وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤده حفظهما»[1] ويشمل الوصف أيضاً ما هو خارج عما في السماوات والأرض كالعرش والكرسي وغيرهما.

وهذا الذي يكون بهذه القوة وهذه القدرة وهذه الحكمة وهذا العزّ ينبغي للعبد الضعيف العاجز أن يتخذه وكيلاً، فلو تركه وتوكّل على عبد ضعيف مثله كان سليب العقل عديم المعرفة، فإنّ الوكيل على الشيء هو المتعهد لحفظ ذلك الشيء، فإذا كان الشيء مخلوقاً له لا يمكن أن يخرج عن إرادته، فلا يفسد أو يخرب أو يموت أو يطغى أو يتغير من حال الى حال إلا بإذنه وإرادته.

إنّ كل أمر من الامور إذا أراد العبد أن يحصله إما أن يكون هـذا الأمر داخلاً تحت قدرة البشر أو لا يكون، فإذا لم يكـن داخلاً في قدرة البشر فلابدّ من طلبه من الله والاستعانة عليه بعد إيجاد مقدماته بالله تعالى، وأما إذا كان داخلاً تحت قدرة البشر فتارةً يكون كل أحد قادراً عليه كالأكل والشرب والمشي والنوم وأمثال ذلك، لهذا كل أحد يهيىء لنفسه ما يحتاج، وتارةً اخرى لا يكون كل أحد قادراً على تحصيله كتحصيل الحقوق المغتصبة بواسطة المحاكم المدنية، فمثل هذا يوكّل المرء أحد الرجال المتخرجين من كلية الحقوق حتى يحصل له حقه، والكلام في الوكيل الذي يتعهد لموكّله، والوكيل هو الذي قد اصطلح عليه في هذا العصر بالمحامي، فإنه يعتبر فيه أن يكون متصفاً بصفات تؤهله للوكالة بتحصيل الحقّ لصاحبه.

شروط المحامي:

الأول: أن يكون عالماً بجميع القوانين مستحضـراً لها بحيث إذا ألقى

---

(١) البقرة: ٢٥٥.

عليه خصمه أو وكيل خصمه سؤالاً يوجب سقوط حقه يتمكن من الاجابة عليه، وإلا فسوف يكون الحكم عليه ولا يحصل على نتيجة حسنة بل يكبد دفع مصارف المحكمة . وإذا كان عالماً بالقوانين يلتفت الى كل حيلة ومكر يقوم بهما الخصم ويعرف كل أمر باطل مصوراً بصورة الحق كما فعل عمرو بن العاص مع أبي موسى الأشعري .

الأمر الثاني من الامور المعتبرة في الوكيل المحامي : أن يكون قويّ القلب شجاعاً لا يخاف من خصمه إذا كان أقوى منه وإذا هدده وتوعده، ويكون جريئاً على التصريح بالحق، فلا يداهن ولا يخاف ولا يستحي ولا يجبن ، فإنه ربما يطلع على وجه تلبيس خصمه فيمنعه الخوف أو الجبن أو الحياء، أو صارف آخر من الصوارف المضعفة للقلب عن التصريح به .

الثالث من شروط المحامي : الفصاحة وطلاقة اللسان بحيث يتمكن على بيان ما يريد بأحسن بيان وأوضحه ليتجلّى للسامع مراده ، فليس كل من يطلع على مواقع التلبيس يمكنه بيان ذلك مالم يكن ذلق اللسان فصيح البيان.

الأمر الرابع من شروط المحامي: أن يكون ثقة، صاحب ضمير طيب وقلب طاهر ، ونفس زكية وسريرة نزيهة عن كل عيب، بحيث يبذل جهده لموكّله ويتعب نفسه في تحصيل حقه وغلبة خصمه . وهذا الأمر الرابع هو أهمّ الامور كلها والمقدم عليها رتبة لأنّ الوكيل إذا لم يكن طاهر القلب نقيّ النفس لا يهمه أمر موكّله ولا يبالي به سواء أظفر به خصمه أم لم يظفر به، وسواء غدر حقه أم لم يغدر.

الأمر الخامس من شروط المحامي : أن يكون غنيّ النفس لا يغلب عليه الطمع ، لأنه اذا غلب عليه الطمع فتعامل مع أحد الخصمين أو تعامل مع صاحب الحق على أجر معلوم قدره عشرة أو مائة ثم جاءه الطرف الآخر ودفع له أكثر مما دفع الأول رفض هذا المحامي الطمع الأول وتوكّل عن الثاني ، وهذا الفعل لا يفعله غيور وصاحب نفس أبيّة ، أما ذلك المحامي الذي يرتشي ويخون موكّله

فإنه خارج عن حدّ البشرية وداخل في نوع البهيمية، فليعرف نفسه قبل أن يعرفه الناس .

فاذا أراد أحد أن يتخذ وكيلاً ليقوم بتنفيذ بعض مطالبه المتعلّقة بالدوائر الرسمية أو غير الرسمية فليتخذ من توفرت فيه هـذه الشروط الخمسة المتقـدم ذكرها ، ولاأظنّ أنه يجد مثل هذا ، ولكن اذا وجد رجلاً ذا نفس طيّبة وضمير طاهر لايخونه ولايكون عوناً عليه فهو المطلوب ، فليتخذه وكيلاً .

اذا عرفت ماتقدم فينبغي للمؤمن المعتقد بصفات الله الثبوتية والسلبية أن لا يتخذ وكيلاً غير الله فإنه هـو الخالق لما في السماوات ومافي الأرض من علم ومن قوة ومن غنى ومن فصاحـة وبلاغة ، وهو العالم بالسرائر والضمائر ، وهو العالم بمصالح العباد ، ولايفوته شيء ولايشغله شيء عن شيء .

ماقاله الطبرسي :

قال في مجمعه : ثم قال : « ولله مافي السماوات ومافي الأرض وكفى بـالله وكيلاً » أي حافظاً لجميعه لايعزب عنه علم شيء منه ولايـؤده حفظه وتدبيره ولايحتاج مع سعة ملكه الى غيره .

وأما وجه التكرار لقوله : « ولله مافي السماوات وما في الأرض » في الآيتين ثلاث مرات فقد قيل : إنه للتأكيد والتذكير .

وقيل : إنه للابانة عن علل ثلاث :

أحدها : بيان إيجاب طاعته فيما قضى به لأنّ له ملك السماوات والأرض.

الثاني : بيان غناه عن خلقه وحاجتهم إليه واستحقاقه الحمد على النعم لأنّ له مافي السماوات ومافي الأرض .

الثالث : بيان حفظه إيّاهم وتدبيره لهم لأنّ له ملك السماوات والأرض[1] انتهى .

---

(١) مجمع البيان : ج٣ ص١٢١ .

ماقاله الفخر الرازى:

قال في تفسيره الكبير : إن قيل ماالفائدة في تكرير قوله : « ولله مافي السماوات ومافي الأرض » ؟! .

قلنا : إنه تعالى ذكر هذه الكلمات في هذه الآية ثلاث مرات لتقرير ثلاثة امور :

فأولها: أنه تعالى قال: « وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته »(١) والمراد منه كونه تعالى جواداً متفضلاً فذكر عقيبه قوله : « ولله مافي السماوات وما في الأرض » والغرض تقرير كونه واسع الجود والكرم .

وثانيها: قال « وإن تكفروا فإن لله مافي السماوات ومافي الأرض » والمراد منه أنه تعالى منزه عن طاعات المطيعين وذنوب المذنبين فلايزداد جلاله بالطاعات ولاينقص بالمعاصي والسيئات فذكر عقيبه قوله : « فإن لله ما في السماوات وما في الأرض » والغرض منه : تقرير كونه غنياً لذاته عن الكل(٢).

ماقاله المراغى :

قال العلاّمة المراغي في بيان المعنى الجملي للآية : ثم أعاد ماسلف بزيادة التوكيد فقال :

« ولله ما في السماوات وما في والأرض وكفى بالله وكيلاً » أي له سبحانه مافيهما خلقاً وملكاً يتصرف فيهما كيف ماشاء إيجاداً وإعداماً وإحياءً وإماتةً وكفى به قيّماً وكفيلاً ، يوكل به أمر العباد في أرزاقهم وأقواتهم وسائر شؤونهم (٣) .

---

(١) النساء : ١٣٠ .
(٢) تفسير الرازى : ج١١ ص٧٠ .
(٣) تفسير المراغى : ج٥ ص١٧٦ .

قوله تعالى : ان يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً(١٣٣) .

إنّ الله سبحانه أوصانا بالتقوى كما وصّى بها قبلنا الامم السالفة، ومعنى التقوى هو الاتقاء من عذابه وعقابه ، وكيفية الاتقاء أن يبتعد الانسان عن كل أمر نهاه الله عنه وتوعّد فاعله بالعقاب عليه ، وبيّن لنا : أنّ من لم يعمل بهذه الوصية وكان مخالفاً لها فهو كافر .

ثم بيّن لنا: أنه هو المالك للسماوات والأرض ومافيهما والخلق كلهم على وجه الأرض وهم عبيد لله، وقد كرر هذا الأمر ثلاث مرات ليعرف العبد أنه مخلوق لله مملوك له ، والخالق المالك يمكنه إعدام مخلوقه في أسرع وقت .

وقد بيّن الله لنا في هذه الآية مافيه وعيد عظيم وهو : أنه اذا لم يعمل العباد بهذه الوصية ـ وهي تقوى الله ـ وعصوه وخالفوا أمره وأصروا على ذلك ولم يتوبوا ولم يستغفروا فإنه قد يشاء ويختار إعدامهم وإفناءهم وإذهابهم من على وجه الأرض الى بطنها وجوفها ، ثم يخلق خلقاً آخر هم أسمع لوصيته منا وأطوع لأمره، فإنه قادر على هذا التبديل والتغيير وإفناء الموجودين وإيجاد المعدومين، فقد عرفتم أنه هو المالك لما في السماوات والأرض وأنتم من جملة من في الأرض.

ماقاله الطبرسي:

قال في مجمعه في بيان معنى الآية : لما ذكر سبحانه غناه عن الخلق بأنّ له ملك السماوات والأرض عقب ذلك بذكر كمال قدرته على خلقه ، وأنّ له الاهلاك والانجاء والاستبدال بعد الافناء فقال : « **ان يشأ يذهبكم** » يعني : إن يشأ الله يهلككم « **أيها الناس** » ويفنكم ، وقيل : فيه محذوف أي إن يشأ الله أن يذهبكم يذهبكم أيها الناس «**ويأت بآخرين**» أي يقوم آخرين غيركم

ينصرون نبيه ويؤازرنه .

ويروى أنه لما نزلت هذه الآية ضرب النبي ﷺ يده على ظهر سلمان وقال: هم قوم هذا ـ يعني عجم الفرس ـ .

« **وكان الله على ذلك قديراً** » أي لم يزل سبحانه ولايزال قادراً على الابدال والافناء والاعادة[1] .

ماقاله الفخر الرازي:

قال في تفسيره الكبير في بيان المراد من الآية : إنه تعالى قادر على الافناء والايجاد ، فإن عصيتموه فهو قادر على إعدامكم وإفنائكم بالكلية، وعلى أن يوجد قوماً آخرين يشتغلون بعبوديته وتعظيمه ، فالغرض هاهنا تقدير كونه سبحانه وتعالى قادراً على جميع المقدورات .

واذا كان الدليل الواحد دليلاً على مدلولات كثيرة فإنه يحسن ذكر ذلك الدليل ليستدلّ به على أحد تلك المدلولات ، ثم يذكره مرة اخرى ليستدلّ به على الثاني ، ثم يذكره ثالثاً ليستدلّ به على المدلول الثالث ، وهذه الاعادة أحسن وأولى من الاكتفاء بذكر الدليل مرة واحدة، لأنّ عند إعادة ذكر الدليل يخطر في الذهن مايوجب العلم بالمدلول ، فكان العلم الحاصل بذلك المدلول أقوى وأجلى فظهر أنّ هذا التكرير في غاية الحسن .

وأيضاً فاذا أعدته ثلاث مرات وفرعت عليه في كل مرة إثبات صفة اخرى من صفات جلال الله تنبه الذهن حينئذٍ لكون تخليق السماوات والأرض دالاّ على أسرار شريفة ومطالب جليلة ، فعند ذلك يجتهد الانسان في التفكر فيها والاستدلال بأحوالها وصفاتها على صفات الخالق سبحانه وتعالى .

ولما كان الغرض الكلي من هذا الكتاب الكريم صرف العقول والأفهام عن الاشتغال بغير الله الى الاستغراق في معرفة الله وكان هذا التكرير مما يفيد حصول

---

(١) مجمع البيان : ج٣ ص١٢٢ .

هذا المطلوب ويؤكده لاجرم كان في غاية الحسن والكمال ...

وقولـه : « وكان الله على ذلك قديراً » معناه أنـه تعالى لم يزل ولا يزال موصوفاً بالقدرة على جميع المقدورات ، فـإنّ قدرته على الأشياء لو كانت حادثة لافتقر حدوث تلك القدرة الى قدرة اخري ولزم التسلسل[١].

ماقاله المراغي

قال في تفسيره للآية : « إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين » أي إن يـرد إفناءكم واستئصالكم من الوجود وإيجاد قـوم آخرين من البشر يحلّون محلّكم في الحكم والتصرف فهو قادرعلى ذلك ، لأنّ كل مافي السماوات والأرض فهو تحت قبضته وخاضع لسلطانه .

والخلاصة : إنّ إبقاءكم على ماأنتم عليه من العصيان إنما هو لكمال غناه عن طاعتكم، ولأنّ مشيئته لم تتعلق بهذا الافناء لحكم ومصالح أرادها سبحانه لا لعجز عن ذلك، تعالى الله علواً كبيراً.

ومثل هذه الآية قوله تعالى :« إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وماذلك على الله بعزيز »[٢] وقوله تعالى :« وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لايكونوا أمثالكم »[٣].

وفي هذه الآيات تهديد للمشركين الذين كانوا يؤذون النبي ﷺ ويقاومون دعوته ، وتنبيه للناس الى التأمـل في سنن الله التي جرت في حياة الامم وموتها ، وأنّ هذه السنن اذا تعلقت بها المشيئة وقعت لامحالة .

« وكان الله على ذلك قديراً » أي وكان الله قديراً على ذلك الافناء وإيجاد

---

(١) تفسير الرازي : ج١١ ص٧١ .

(٢) ابراهيم : ١٩ .

(٣) محمد : ٣٨ .

خلق آخر إذ بيده ملكوت كل شيء لكنه لحكم يعلمها لم تتعلق إرادته بذلك[1] انتهى .

ولقد انكشف للقاريء من الآية الشريفة ومن تفسيرها أنّ العباد اذا أمرهم الله بأمر فعصوه ولم يمتثلوا أمره فإنهم يستحقون الافناء والابادة ولكن إرادة الله ومشيئته لم تتعلق بهذه الابادة أي إبادة مجموع أهل الأرض ، ولكن ينبغي للعاقل أن يلتفت الى هذه الحوادث التي تحدث في هذه العصور من الثورات الكثيرة والمؤامرات وقتل الكثيرين من البشر .

هذه كلها من أجل كثرة المعاصي ومخالفة أوامر الله، فإنّ الافناء العام لم يرده الله ولم تتعلق مشيئته بـه ، أما الافناء الخاص الذي يعمّ المئات والالوف أو مئات الالوف فإنه متكرر الوقوع لاتخلو منه سنة أو شهر، فينبغي للعبد أن يلتفت الى نفسه ولايحشرها مع هؤلاء الذين يخالفون الله ويخرجون من دين الاسلام بأعمالهم المحرمة المنافية للاسلام ، فإن الدخول فيها خسران الدنيا والآخرة، كل ذلك طمعاً في الدنيا وتكالباً عليها ، وقد يحوز الانسان الواحد آلافاً من الدنانير وقد تبلغ الملايين ، فما تمضي عليه مدة من الزمن حتى تسلب منه أو يتركها ويمضي سريعاً الى جهنم لأنه سلبها من الناس وقتل على سلبها كثيراً من النفوس المحرمة، فإنّ المال الذي يجمعه المرء من غير الوجه المباح ليس له حقّ تملكه ولايجوز له الأكل والشرب منه ولاسائر التصرف .

وقد نبّهنا الله تعالى في الآية التي بعدها في قوله تعالى :

من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والاخرة وكان الله سميعاً بصيراً (١٣٤) .

---

(١) تفسير المراغي : ج٥ ص١٧٦ .

إنّ الله بيّن لنا في آيات كثيرة من القرآن بأنه خلق مع الدنيا آخرة، وبيّن لنا أنّ الدنيا زائلة والآخرة باقية، وبيّن لنا أنّ المرء في الآخرة دائر أمره بين طريقين: إما طريق الجنة وإما طريق النار، وأنّ طريق الجنة إنما يؤذن له في سلوكها اذا طلبها وهو في الدنيا وعمل لها العمل الذي عرفوه به وهو إطاعة الله ورسوله، وأما الذي يترك العمل لتحصيل طريق الجنة ويكون عمله في الدنيا محضاً للدنيا وحدها فإنه لايمكنه السير في طريق الجنة، هذا كله مذكور في الآيات القرآنية.

وقد ذكر الله لنا قبل هذه الآية بأنه مالك السماوات والأرض وكررها علينا ثلاث مرات، وفي هذه الآية بيّن لنا أمراً عقلياً مبنياً على حساب واضح جلي وهو: أنّ الانسان اذا كان مسلماً أو كان معتقداً بأنّ الدنيا والآخرة بيدالله وتحت قدرته وتصرفه لأنه هو الخالق لهما، وخالق الشيء قادر على التصرف فيه بكل وجه، فهذا الذي يعرف أنّ الدنيا والآخرة بيد الله لاينبغي له بموجب الحكم العقلي أن تكون أعماله كلها من المعاملات والعبادات لأجل الدنيا وحدها ولايعمل شيئاً لأجل الآخرة، فإنه لو أتى بالعبادة من صلاة وجهاد وحج وغير ذلك من العبادات لأجل أن يحصل على الأموال الدنيوية فهو غير مؤمن بالله وبوعده ووعيده وإلا لو كان مؤمناً بالله ومعتقداً بأنّ الامور كلها بيد الله وأنّ الأرزاق مقسمة من قبل الله وأنّ الله متعهد لجميع عباده بالرزق لما كان بهذه الدرجة من الانهماك والانغماس فيها.

إنّ الله عزّ وجلّ يقول لمن يطلب الجزاء الدنيوي من جميع أعماله: إنّ الجزاء الدنيوي إنما هو بيد الله وعند الله فلايمكنك أن تحصل على شيء منه إلا بإذن الله وبتقديره وقضائه وإنّ بيده أيضاً ثواب الآخرة مع ثواب الدنيا، فلو كنت عاقلاً مفكراً عارفاً بالحساب كان ينبغي لك أن تطلب الثواب الاخروي من أعمالك، وأما الدنيا فإنّ الله متكفل بها ضامن لها وهي حاصلة على كل حال،

وإنك أيها الطالب للدنيا قد عكست الأمر فطلبت الدنيا المضمونة فلايصيبك منها إلا ماقدر لك وخسرت الآخرة فلاتحصل على شيء منها .

قوله تعالى : **«وكان الله سميعاً بصيراً»** هذا إنذار عظيم لطالب الدنيا والمعرض عن الآخرة ، فإنه يأتي بأعمال الآخرة أمام الناس مظهراً لهم أنه يعمل للآخرة ليصيب من دنياهم ماأمكن من غنائم الحرب ومن غيرها ، وقد غفل أو تغافل بأنّ الله يسمع وساوس صدره ويبصر نيّته المطوية في قلبه ويعلم سريرته الخبيثة ، فهو وإن أخفاها على الناس فهي لاتخفى على الله .

ثم هذا الذي يطلب بأعماله ثواب الدنيا إما أن يكون منافقاً يظهر الايمان ويبطن الكفر ، وإما أن يكون في غاية من الجهل والغفلة من معنى الاسلام والايمان ويظنّ أنه قول باللسان ليس وراءه شيء .

وقد وردت آيات وأخبار كثيرة في ذمّ الدنيا وذمّ من يطلبها طلباً حثيثاً وأنها لاتساوي عند الله جناح بعوضة وأنها جيفة وطالبها الكلاب ، وأنها بمنزلة قنطرة يعبر عليها .

فقد روي عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال : من أصبح وأمسى والدنيا أكبر همه جعل الله تعالى الفقر بين عينيه وشتت أمره ولم ينل من الدنيا إلا ماقسم له، ومن أصبح وأمسى والآخرة أكبر همه جعل الله تعالى الغنى في قلبه وجمع له أمره[1].

وعنه عليه السلام قال : من كثر اشتباكه بالدنيا كان أشدّ لحسرته عند فراقها[2].

وعنه عليه السلام قال : رأس كل خطيئة حبّ الدنيا[3].

وقال الامام الحسن العسكري عليه السلام: لايشغلك رزق مضمون عن عمل مفروض[4].

---

(١) بحار الانوار : ج٧٣ ص١٧ ب١٢٢ ح٦ .

(٢) بحار الانوار : ج٧٣ ص١٩ ب١٢٢ ح٨ .

(٣) الكافي : ج٢ ص٣١٥ ح١ .

(٤) تحف العقول: ص٤٨٩ طبعة مؤسسة النشر الاسلامي ـ قم .

ولايخفى أنّ المقصود من الدنيا هي المدة التي تكون قبل الموت ، فالمراد من إرادة ثوابها في الآية ومن حبها والاشتغال بها في الأحاديث هو أن يصرف الانسان أوقاته وأعماله في تحصيلها واكتسابها ، ويكون منهمكاً في جلب المادة إليه بحيث لايعمل للآخرة شيئاً ، وقد وصفت الدنيا بأوصاف كثيرة كلها توضح للناس أنّ الانغماس فيها والتوغل بها شيء مذموم يوجب الهلاك للانسان ويجب على العاقل تركه .

قال الله تعالى : « وماالحياة الدنيا إلّا لعب ولهو وللدار الآخرة خيرللّذين يتّقون أفلا تعقلون »[1].

وقال تعالى : « وما هذه الحياة الدنيا إلّا لهو ولعب وأنّ الدار الآخرة لهي الحيوان لوكانوا يعلمون »[2] .

وقال تعالى : « إنّما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتّقوا يؤتكم اجوركم ولايسألكم أموالكم »[3] .

وقال تعالى : « اعلموا إنّما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفّار نباته ثمّ يهيج فتراه مصفراً ثمّ يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلّا متاع الغرور »[4].

فقد وصف الله تعالى الدنيا في هذه الآيات بأنها لهو ولعب ، وجعل الذي يختارها ويقدمها على الآخرة غير عاقل كما في الآية الاولى حيث أخبر أنّ الدار الآخرة هي خير من الدنيا ، والعاقل ينبغي له أن يقدم الآخرة على الدنيا ، فاذا

---

(١) الانعام : ٣٢ .

(٢) العنكبوت : ٦٤ .

(٣) محمد : ٣٦ .

(٤) الحديد : ٢٠ .

عكس الأمر فهو غير عاقل .

وفي الآية الثانيـة : وصف الدنيا باللعب واللهو ووصف الآخرة بأنها دار الحيوان ، أي الحياة الحقيقية الدائمة .

والانسان اذا علم علماً قطعياً بإخبار الله أنّ الدنيا زائلة فانية ناقصةوأنّ الآخرة باقية دائمة تـامة النعم من جميع الجهات فلاينبغي لـه تقديم الزائل على الباقي والمنقطع على الدائم والناقص على الكامل لأنّ هذا لايفعله إلا غير العالم بالحال ، ومن عـلم بالأمر وقدم المفضول على الفاضل فكأنه غير عالم و كأنه من الجاهلين ولذا قال تعالى : « لو كانوا يعلمون » فقد أنزلهم منزلة من لايعلم .

وأما الآية الثالثة: فقد وصف الدنيا باللعب واللهو ثم ذكر لنا أنه اذاآمنا به واتقيناه فإنه يعطينا أجرنا فيالآخرة ولايأخذ منا أموالنا التي جعلهافيأيدينا وهذا أمر يحكم العقل بوجوب المصيراليه واختياره علىغيره، فمن تركه وصار الى غيره فهو غير عاقل .

وأما الآية الرابعة : فقد وصف فيها الـدنيا باللعب واللهو والزينة وجعل عاقبتها ومآلها كالنبات الذي يكون آخر أمره حطاماً ولايستفاد من ثمره .

هذه هيعاقبة الدنيا، أما الآخرةفقد جعلنتيجتها مرددة ودائرة بينأمرين: إما مغفرة من الله ورضوان ، وإما عذاب شديد ، فمن اختار ثـواب الدنيا فحسب يكون نصيبه في الآخرة العذاب الشديد ، ومن عمل للآخرة عملها ولم يجعلالدنيا وحدها ثواباً له بل كان من المؤمنين المتقين يحصل في الآخرة على مغفرة الله ورضوانه .

ماقاله الدكتور زكي مبارك :

قال في كتابه « التصوف في الاسلام » : هناك كتاب نفيس للطرطوشي اسمه « سراج الملوك » وهو يفيض بأخبار الزهاد والنساك ومايجب أن يطلع عليه من

يحرصون على صفاء القلوب ، وقد جاء فيه أنّ وهب بن منبّه قال : صحب رجل بعض الرهبان سبعة أيـام ليستفيد منه شيئاً فوجده مشغولاً عنه بذكر الله تعالى والفكر لايفتر ، ثم التفت إليه في اليـوم السابع فقال : ياهذا قـد علمت ماتريد ، حبّ الدنيا رأس كل خطيئة ، والزهد فيالدنيا رأس كل خير، والتوفيق نتاج كل خير ، فاحذر رأس كل خطيئة ، وارغب في رأس كل خير ، وتضرع الى ربك أن يهب لك نتاج كل خير ، قـال : فكيف أعرف ذلك ؟ قال : كان جدي رجـلاً من الحكماء قد شبّه الدنيا بسبعة أشياء: شبهها بالماء الملح يغرّ ولايروي ويضرّ ولا ينفع ، وبسحاب الصيف يغرّ ولاينفع، وبظلّ الغمام يغرّ ويخذل، وبزهرالربيع ينضر ثم يصفر فتراه هشيماً ، وبأحلام النائم يرى السرور في منامه فاذا استيقظلم يكن في يده إلا الحسرة ، وبالعسل المشوب بالسمّ الزعاف يغرّ ويقتل. فتدبرت هذه الأحرف سبعين سنة ثم زدت حرفـاً واحداً فشبهتها بـالغول التي تهلك من أجابها وتترك من أعرض عنها(١) انتهى .

وروي عن الصادق عليه السلام قال: في ماناجى الله به موسى عليه السلام: ياموسى لاتركن الى الدنيا ركون الظالمين وركون من اتخذها أباً واماً ـ الى أن قال:ـ واعلم أنّ كل فتنة بدؤها حبّ الدنيا ، ولاتغتبط أحداً بكثرة المال فإنّ كثرة المال تكثر الذنوب(٢).

وعنه عليه السلام قال : إنّ في كتاب علي صلوات الله عليه: إنما مثل الدنيا كمثل الحية ماألين مسها وفي جوفها السم الناقع يحذرها الرجل العاقل ويهوى إليها الصبي الجاهل(٣) .

وفي كتاب أمير المؤمنين عليه السلام الى بعض أصحابه : فارفض الدنيا فإنّ حبّ

---

(١) التصوف فى الاسلام : ج١ ص٢٣٨ طبع دار الجيل ـ بيروت .

(٢) بحار الانوار : ج٧٣ ص٧٣ ب١٢٢ ح٣٧ .

(٣) بحار الانوار : ج٧٣ ص٧٥ ب١٢٢ ح٣٨ .

الدنيا يعمي ويصم ويبكم ويذل الرقاب[1].

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: إن مثل الدنيا كمثل ماء البحر كلما شرب منه العطشان ازداد عطشاً حتى يقتله[2].

وعن النبي صلى الله عليه وآله قال: من أحب دنياه أضر بآخرته[3].

وعن النبي صلى الله عليه وآله قال: إن الله جل جلاله أوحى الى الدنيا أن أتعبي من خدمك وأخدمي من رفضك[4].

إن كلمات النبي والأئمة عليهم السلام والحكماء والعقلاء في ذم الدنيا كثيرة جداً لايمكن إحصاؤها، ويكفي لمن يعتقد بوجود الخالق وقدرته هذه الآية التي نحن في صدد تفسيرها وهي قوله: **«من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والاخرة وكان الله سميعاً بصيراً»**.

إن الاعتقاد باليوم الآخر وهو يوم الجزاء يحتم على العاقل أن لايحض نفسه ويمحضها للدنيا فقط فإنه لايحتاج من الدنيا إلا أن يقضي أيام حياته فيها، وإن كان يريد قضاءها بترف وراحة فهذا لايقتضي أن يرفع يده عن الآخرة ويغض النظر عنها، فإن الذي يحض نفسه بالدنيا ويرضى بها جزاء وثواباً ولم يفكّر أو يدبر أن يهيىء لآخرته شيئاً يقدم عليه اذا انتقل من هنا الى هناك، ليس يخاف عليه أن يكون كثير المال فقط فيتصف بمفاسد كثرة المال وإنما هو يفقد جميع الخصال الطيبة الحسنة ويتصف بجميع الصفات الرذيلة الخبيثة، فلايراعي حقوق الناس ولايؤدي الأمانة، ولايعين الضعيف ولايشهد بالحق ولايحكم بالعدل ولايفعل شيئاً مما يريده الله، ولذا نرى أن الآية التي بعد هذه الآية ترشدنا الى الصفات الجمالية الحسنة وتدلنا على مايريده الله منا من العدل والقسط فقال تعالى:

---

(١) بحار الانوار: ج٧٣ ص٧٥ ب١٢٢ ح٣٩.

(٢) بحار الانوار: ج٧٣ ص٧٩ ب١٢٢ ح٤٠.

(٣) بحار الانوار: ج٧٣ ص٨١ ب١٢٢ ح٤٣.

(٤) بحار الانوار: ج٧٣ ص٨٧ ب١٢٢ ح٥١.

يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين ان يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وان تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيراً (١٣٥) .

القسط هو العدل والقوّام بالقسط هو الملازم له الذي لاينحرف عنه، وأنّ الله قد وجّه الخطاب في هذه الآيـة الى المؤمنين فناداهم ثم أمرهم أمراً حتمياً دالاّ على الوجوب بقوله: «كونوا». فيلزم على كل مؤمن أن يمتثل هذا الأمر ولايخالفه، وإلا فقد أخلّ بإيمانه .

فيكون معنى الآية أنّ من شروط المؤمن ومن صفاته أن يكون ملازمـاً للعدل في جميع أحواله وأزمانه، لايحول ولايميل طرفة عين أبداً ، فإنّ الميل لأحد الطرفين وإن كان قليلاً يخلّ بـه ويخرجه عن العدالة مع أنـه أمرنا أن نكون قوامين بها بصيغة المبالغة ، أي مستوفين للعدل بتمام معناه وبتمام الدقة ، أي عدلاً ليس فيه نقص ولاخلل ولاعيب ، أي نـوليه عنايتنا بحيث نجعله صفة راسخة في نفوسنا وصدورنا ولايخطر ببالنا مخالفته وفعل ضده، هكذا أراد الله من المؤمنين وأمرهم به جميعاً، غنيهم وفقيرهم، قويهم وضعيفهم، حاكمهم ومحكومهم، رئيسهم ومرؤوسهم ، سلطانهم ورعيتهم . وهـذا الأمر ـ القيام بالقسط ـ أمر مطلق يعمّ جميع الامور المتعلقة بالنفس ومع الناس ، فيعمّ المعاملات والمحاكمات والقضاء ومعاشرة النساء وتربية الأهل والأولاد وغير ذلك .

وأول شيء يتناوله الأمر وأول طبقة ينطبق عليها الأمر هي طبقة الحكّام الذين تكون مرافعات الناس كلها عندهم، فلو أردنا أن نشرح الآية ونوجّه لكل طبقة نداءً خاصاً فإنّ أول من يسبق الى الذهن من الناس هم طبقـة الحكّام

فيكون الشرح والتفصيل هكذا :

ياأيها الحكّام الذين آمنوا بالله ورسوله والقرآن «كونوا قوامين بالقسط» ولاتظن أنّ الحاكم هو الذي ينظر في المرافعات وهو القاضي فحسب وإنما الوزير حاكم، والرئيس حاكم، والملك حاكم، وأمثال هؤلاء كلهم حكّاماً.

ولابأس بذكر كلمات بعض العلماء مع بعض الحكّام لعلّه ينتفع به حكّام هذا العصر .

نصيحة الاوزاعي للمنصور :

نقل أبو حامد الغزالي قصة استدعاء المنصور للأوزاعي فقال : عن الأوزاعي عبدالرحمان بن عمرو قال : بعث إليّ أبوجعفر المنصور أمير المؤمنين وأنابالساحل فأتيته فلما وصلت إليه وسلّمت عليه بالخلافة ردّ عليّ واستجلسني ثم قال لي : ماالذي أبطأ بك عنا ياأوزاعي ؟ قال : قلت : وماالذي تريد ياأمير المؤمنين ؟ قال: اريد الأخذ عنكم والاقتباس منكم، قال: فقلت : فانظر ياأمير المؤمنين أن لاتجهل شيئاً مما أقول لك ، قال : وكيف أجهل وأنا أسألك عنه وفيه وجهت إليك وأقدمتك له ؟ قال: قلت : أخاف أن تسمعه ثم لاتعمل به، فصاح بي الربيع وأهوى بيده الى السيف فانتهره المنصور وقال : هذا مجلس مثوبة لامجلس عقوبة،فطابت نفسي وانبسطت في الكلام ، فقلت ياأمير المؤمنين ، حدثني مكحول عن عطية بن بشر قال : قال رسول الله ﷺ: أيما عبد جاءته موعظة من الله في دينه فإنها نعمة من الله سيقت إليه فإن قبلها بشكر وإلا كان حجة من الله عليه ليزداد بها إثماً ويزداد الله بها سخطاً عليه .

ياأمير المؤمنين ، حدثني مكحول عن عطية بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ: أيما والٍ مات غاشاً لرعيته حرم الله عليه الجنة .

ياأمير المؤمنين، من كره الحق فقد كره الله، إنّ الله هو الحقّ المبين، إنّ الذي ليّن قلوب امّتكم لكم حين ولاّكم امورهم لقرابتكم من رسول الله ﷺ

وقد كان بهم رؤوفاً رحيماً ، مواسياً لهم بنفسه في ذات يده، محموداً عند الله وعند الناس ، فحقيق بك أن تقوم لــه فيهم بالحق وأن تكون بالقسط له فيهم قائماً ، ولعوراتهم ساتــراً لاتغلق عليك دونهم الأبواب ، ولاتقيم دونهم الحجاب ، تبتهج بالنعمة عندهم ، وتبتئس بما أصابهم من سوء .

ياأمير المؤمنين، قد كنت في شغل شاغل من خاصّة نفسك عن عامة الناس الذين أصبحت تملكهم أحمرهم وأسودهم مسلمهم وكافرهم، وكل له عليك نصيب من العدل ، فكيف بك اذا انبعث منهم فئام وراء فئام وليس منهم أحد إلا وهــو يشكو بلية أدخلتها عليه أو ظلامة سقتها إليه .

ياأمير المؤمنين ، حدثني مكحول عن عروة بن رويم قال : كانت بيد رسول الله ﷺ جريدة يستاك بها ويروع بها المنافقين ، فأتاه جبرائيل عليه السلام فقال لــه : يامحمد ماهذه الجريدة التي كسرت بها قلوب امّتك فملأت قلوبهم رعباً؟! فكيف بمن شقق أستارهم وسفك دماءهم وخرب ديارهم وأجلاهم عن بلادهم وغيبهم الخوف منه؟!

ياأمير المؤمنين، حدثني مكحول عن زياد عن حارثة عن حبيب بن مسلمة أنّ رسول الله ﷺ دعا الى القصاص من نفسه في خدش خدشه أعرابياً لم يتعمده فأتاه جبريل عليه السلام فقال : يــامحمد إنّ الله لم يبعثك جباراً ولامتكبراً ، فدعا النبي ﷺ الأعرابي فقال : اقتصّ مني، فقال الأعرابي: قد أحللتك بأبي أنت وامّي وما كنت لأفعل ذلك أبداً ولو أتيت على نفسي ، فدعا له بخير .

ياأمير المؤمنين ، رض نفسك لنفسك وخذ لها الأمــان من ربك وارغب في جنة عرضها السماوات والأرض التي يقول فيها رسول الله ﷺ: لقيد قوس أحدكم من الجنة خير له من الدنيا ومافيها .

ياأمير المؤمنين ، إنّ الملك لو بقي لمن قبلك لم يصل إليك، وكذا لايبقى لك كما لم يبق لغيرك .

ياأمير المؤمنين، أتدري ماجاء في تأويل هذه الآية عن جدك؟ «مالهذا الكتاب

لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها »[١] قال: الصغيرة التبسم، والكبيرة الضحك. فكيف بما عملته الأيدي وحصدته الألسن!

ياأمير المؤمنين، بلغني أنّ عمر بن الخطاب (رض) قال: لو ماتت سخلة على شاطيء الفرات ضيعة لخشيت أن اسأل عنها فكيف بمن حرم عدلك وهو على بساطك؟

ياأمير المؤمنين، أتدري ماجاء في تأويل هذه الآية عن جدك؟ « ياداود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولاتتبع الهوى فيضلّك عن سبيل الله »[٢].

قال الله تعالى في الزبور: يا داود اذا قعد الخصمان بين يديك فكان لك في أحدهما هوىً فلاتتمنينّ في نفسك أن يكون الحق له فيفلح على صاحبه فأمحوك عن نبوتي ثم لاتكون خليفتي ولا كرامة. ياداود إنما جعلت رسلي الى عبادي رعاءً كرعاء الابل لعلمهم بالرعاية ورفقهم بالسياسة ليجبروا الكسير ويدلّوا الهزيل على الكلأ والماء.

ياأمير المؤمنين، إنك قد بليت بأمر لوعرض على السماوات والأرض والجبال لأبين أن يحملنه وأشفقن منه.

ياأمير المؤمنين، حدثني يزيد بن جابر عن عبدالرحمان بن عمرة الأنصاري أنّ عمر بن الخطاب (رض) استعمل رجلاً من الأنصار على الصدقة فرآه بعد أيام مقيماً فقال له: مامنعك من الخروج الى عملك، أماعلمت أنّ لك مثل أجر المجاهد في سبيل الله؟ قال: لا، قال: وكيف ذلك؟ قال: إنه بلغني أنّ رسول الله ﷺ قال: مامن والٍ يلي شيئاً من امور الناس إلا اتي به يوم القيامة مغلولة يده الى عنقه لايفكها إلا عدله، فيوقف على جسر من النار ينتفض به ذلك الجسر

(١) الكهف: ٤٩.
(٢) ص: ٢٦.

إنتفاضة تزيل كل عضو منه عن موضعه ، ثم يعاد فيحاسب ، فإن كان محسناً نجا بإحسانه ، وإن كان مسيئاً انخرق به ذلك الجسر فيهوي به في النار سبعين خريفاً فقال له عمر (رض) : ممن سمعت هذا ؟ قال : من أبي ذر وسلمان .

فأرسل إليهما عمر فسألهما فقالا : نعم سمعناه من رسول الله ﷺ ، فقال عمر : واعمراه من يتولّاها بمافيها ؟ فقال أبوذر رحمه الله : من سلب الله أنفه وألصق خده بالأرض .

قال : فأخذ المنديل فوضعه على وجهه ثم بكى وانتحب حتى أبكاني ثم قلت: ياأمير المؤمنين قد سأل جدك العباس النبي ﷺ إمارة مكة أو الطائف أو اليمن فقال له النبي ﷺ : ياعباس ياعمّ النبي نفس تحييها خير من إمارة لاتحصيها . نصيحةً منه وشفقةً عليه ، وأخبره أنه لايغني عنه من الله شيئاً إذ أوحى الله إليه « وأنذر عشيرتك الأقربين »[1] فقال: ياعباس وياصفية عمّي النبي ، ويافاطمة بنت محمد، إني لست اغني عنكم من الله شيئاً إنّ لي عملي ولكم عملكم.

وقد قال عمر بن الخطاب (رض) : لايقيم أمر الناس إلا حصيف العقل أريب العقد، لايطلع منه على عورة ولايخاف منه على حرة، ولاتأخذه في الله لومة لائم. وقال : الامراء أربعة : فأمير قوي ظلف نفسه وعماله فذلك كالمجاهد في سبيل الله يد الله باسطة عليه بالرحمة. وأمير فيه ضعف ظلف نفسه وأرتع عماله لضعفه فهو على شفا هلاك إلا أن يرحمه الله. وأمير ظلف عماله وأرتع نفسه فذلك الحطمة الذي قال فيه رسول الله ﷺ : شرّ الرعاة الحطمة فهو الهالك وحده . وأمير أرتع نفسه وعماله فهلكوا جميعاً .

وقد بلغني ياأمير المؤمنين أنّ جبرائيل عليه السلام أتى النبي ﷺ فقال: أتيتك حين أمر الله بمنافخ النار فوضعت على النار تسعر ليوم القيامة، فقال له: ياجبريل صف لي النار، فقال: إنّ الله تعالى أمر بها فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت ، ثم

---

(١) الشعراء : ٢١٤ .

أوقد عليها ألف عام حتى اصفرت ، ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت ، فهي سوداء مظلمة لايضيء جمرها ولا يطفأ لهبها، والذي بعثك بالحق لو أنّ ثوباً من ثياب أهل النار أظهر لأهل الأرض لماتوا جميعاً، ولو أنّ ذنوباً من شرابها صبّ في مياه الأرض جميعاً لقتل من ذاقه ، ولو أنّ ذراعاً من السلسلة التي ذكرها الله وضع جبال الأرض جميعاً لذابت ومااستقلّت ، ولو أنّ رجلاً ادخل النار ثم اخرج منها لمات أهل الأرض من نتن ريحه وتشويه خلقه وعظمه . فبكى النبي ﷺ وبكى جبريل عليه السلام لبكائه فقال : أتبكي يا محمد وقد غفر لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : أفلا أكون عبداً شكوراً ولم بكيت يا جبريل وأنت الروح الأمين أمين الله على وحيه ؟ قال : أخاف ان ابتلى بما ابتلي به هاروت وماروت ، فهو الذي منعني من اتكالي على منزلتي عند ربي فأكون قد آمنت مكره. فلم يزالا يبكيان حتى نوديا من السماء: ياجبريل ويامحمد ، إنّ الله قد آمنكما أن تعصياه فيعذبكما وفضل محمد على سائر الأنبياء كفضل جبريل على سائر الملائكة .

وقد بلغني ياأمير المؤمنين أنّ عمر بن الخطاب (رض) قال : اللهمّ إن كنت تعلم أني ابالي اذا قعد الخصمان بين يدي على من مال الحق من قريب أو بعيد فلا تمهلني طرفة عين .

ياأمير المؤمنين، إنّ أشدّ الشدة القيام لله بحقه، وإنّ أكرم الكرم عندالله التقوى ، وإنه من طلب العزّ بطاعة الله رفعه الله وأعزه ، ومن طلبه بمعصية الله أذله الله ووضعه ، فهذه نصيحتي اليك والسلام عليك[1] انتهى .

صفة الامام العادل :

نقل ابن عبد ربه الأندلسي ما كتبه الحسن بن أبي الحسن البصري في وصف الامام العادل فقال: كتب عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه لما ولي الخلافة الى الحسن بن أبي

---

(١) احياء علوم الدين : ج٧ ص٧٧ ـ ٨٢ .

الحسن البصري أن يكتب إليه بصفة الامام العادل ، فكتب إليه الحسن :

إعلم ياأمير المؤمنين، إنّ الله جعل الامام العادل قوام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصفة كل مظلوم، ومفزع كل ملهوف.

والامام العدل ياأمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله الرفيق بها الذي يرتاد لها أطيب المرعى ، ويذودها عن مراتع الهلكة ، ويحميها من السباع ، ويكنها من أذى الحرّ والقرّ .

والامام العدل ياأمير المؤمنن كالأب الحانّ على ولده يسعى لهم صغاراً ويعلّمهم كباراً ، يكتسب لهم في حياته ويدخر لهم بعد مماته .

والامام العادل ياأمير المؤمنين كالام الشفيقة البرة الرفيقة بولدها ، حملته كرهاً ووضعته كرهاً وربته طفلاً ، تسهر بسهره وتسكن بسكونه ، ترضعه تارة وتفطمه اخرى، وتفرح بعافيته وتغتمّ بشكايته .

والامام العادل ياأمير المؤمنين وصيّ اليتامى وخازن المساكين، يربي صغيرهم ويمون كبيرهم .

والامام العادل ياأمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح، تصلح الجوانح بصلاحه وتفسد بفساده .

والامام العادل ياأمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله ويسمعهم ، وينظر الى الله ويريهم ، وينقاد الى الله ويقودهم . فلاتكن ياأمير المؤمنين فيما ملّكك الله كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال وشرد العيال ، فأفقر أهله وفرق ماله .

واعلم ياأمير المؤمنين، أنّ الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش فكيف اذا أتاها من يليها ، وأنّ الله أنزل القصاص حياةً لعباده فكيف اذا قتلهم من يقتصّ لهم ، واذكر ياأمير المؤمنين الموت وما بعده وقلّة أشياعك عنده وأنصارك عليه ، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر .

واعلم ياأمير المؤمنين ، أنّ لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه ، يطول فيه ثواؤك ويفارقك أحباؤك ، يسلمونك في قعره فريداً وحيداً ، فتزود له ما يصحبك « يوم يفرّ المرء من أخيه * وامّه وأبيه * وصاحبته وبنيه »[1].

واذكر ياأمير المؤمنين «اذا بعثر مافي القبور * وحصّل ما في الصدور»[2] فالأسرار ظاهرة والكتاب « لايغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ أحصاها »[3].

فالآن ياأمير المؤمنين ، وإنك في مهل قبل حلول الأجل وانقطاع الأمل ، لاتحكم ياأمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين، ولاتسلك بهم سبيل الظالمين، ولاتسلّط المستكبرين على المستضعفين فإنهم لايرقبون في مؤمن إلاّ ولاذمّة فتبوء بأوزارك وأوزاراً مع أوزارك، وتحمل أثقالك وأثقالاً مع أثقالك، ولايغرنك الذين يتنعمون بمافيه بؤسك، ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك، لاتنظر الى قدرتك اليوم، ولكن انظر الى قدرتك غداً وأنت مأسور في حبال الموت وموقوف بين يدي الله في مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين، وقد عنت الوجوه للحيّ القيوم[4].

نصيحة العابد للمنصور :

نقل أبو حامد الغزالي نصيحة رجل عابد لأبي جعفر المنصور فقال : عن ابن المهاجر قال: قدم أمير المؤمنين المنصور مكة ـ شرفها الله ـ حاجّاً فكان يخرج من دار الندوة الى الطواف في آخر الليل يطوف ويصلّي ولايعلم به، فاذا طلع الفجر رجع الى دار الندوة ، وجاء المؤذنون فسلّموا عليه واقيمت الصلاة فيصلي بالناس.

فخرج ذات ليلة حين أسحر ، فبينما هو يطوف إذ سمع رجلاً عند الملتزم

---

(١) عبس : ٣٤ ـ ٣٦ .
(٢) العاديات : ٩ و١٠ .
(٣) الكهف : ٤٩ .
(٤) العقد الفريد : ج١ ص١٢ منشورات دار الهلال ـ بيروت .

وهو يقول : اللهمّ إني أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض ومايحول بين الحقّ وأهله من الظلم والطمع .

فأسرع المنصور في مشيه حتى ملأ مسامعه من قوله .

ثم خرج فجلس ناحية من المسجد وأرسل إليه فدعاه ، فأتاه الرسول وقال له : أجب أمير المؤمنين ، فصلّى ركعتين واستلم الركن وأقبل مع الرسول فسلّم عليـه .

فقال له المنصور: ماهذا الذي سمعتك تقوله من ظهور البغي والفساد في الأرض ومايحول بين الحقّ وأهـله من الطمع والظلم ؟ فوالله لقد حشوت مسامعي مـا أمرضني وأقلقني .

فقال : يـاأمير المؤمنين إن أمنتني على نفسي أنبأتك بالامور من اصولها ، وإلا اقتصرت على نفسي ففيها لي شغل شاغل .

فقال له : أنت آمن على نفسك ؟

فقال : الـذي دخله الطمع حتى حال بينه وبين الحقّ والاصلاح وما ظهر من البغي والفساد في الأرض أنت .

فقال: ويحك! وكيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في يدي والحلو والحامض في قبضتي ؟

قال : وهل دخل أحداً من الطمع مادخلك ياأمير المؤمنين ؟ إنّ الله تعالى استرعاك امور المسلمين وأموالهم فأغفلت امورهم واهتممت بجمع أموالهم وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجصّ والآجر وأبواباً من الحديد وحجبة معهم السلاح ثم سجنت نفسك فيها منهم، وبعثت عمالك في جمع الأموال وجبايتها واتخذت وزراء وأعواناً ظلمة ، إن نسيت لم يذكّروك وإن ذكرت لم يعينوك ، وقويتهم على ظلم الناس بالأموال والكراع والسلاح، وأمرت بأن لايدخل عليك من الناس إلا فلان وفلان نفر سميتهم ، ولم تأمر بإيصال المظلوم ولاالملهوف ، ولاالجائع ولاالعاري

ولاالضعيف ولا الفقير ولا أحد إلا وله في المال حق ، فلما رآك هؤلاء النفر ـ الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك وأمرت أن لايحجبوا عنك ـ تجبي الأموال ولا تقسمها قالوا : هذا قد خان الله فمالنا لانخونه وقد سخر لنا ، فائتمروا على أن لايوصلوا إليك من علم أخبار الناس شيئاً إلا ماأرادوا ، وأن لايخرج اك عامل فيخالف لهم أمراً إلا أقصوه حتى تسقط منزلته ويصغر قدره .

فلما انتشر ذلك عنك وعنهم أعظمهم الناس وهابوهم ، وكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال ليتقوا بهم على ظلم رعيتك ، ثم فعل ذلك ذو القدرة والثروة من رعيتك لينالوا ظلم من دونهم من الرعية ، فامتلأت بلاد الله بالطمع بغياً وفساداً ، وصار هؤلاء القوم شركاؤك في سلطانك وأنت غافل ، فإن جاء متظلّم حيل بينه وبين الدخول إليك ، وإن أراد رفع صوته أو قصته إليك عند ظهورك وجدك قد نهيت عن ذلك ووقفت للناس رجلاً ينظر في مظالمهم ، فإن جاء ذلك الرجل فبلغ بطانتك سألوا صاحب المظالم أن لايرفع مظلمته، وإن كانت للمتظلّم به حرمة وإجابة لم يمكنه مما يريد خوفاً منهم ، فلايزال المظلوم يختلف إليه ويلوذ به ويشكو ويستغيث وهو يدفعه ويعتل عليه ، فإذا جهدوا خرج وظهرت صرخ بين يديك فيضرب ضرباً مبرحاً ليكون نكالاً لغيره وأنت تنظر ولاتنكر ولا تغيّر ، فما بقاء الاسلام وأهله على هذا . ...

لقد كنت ياأمير المؤمنين اسافر الى أرض الصين وبها ملك ، فقدمتها مرة وقد ذهب سمع ملكهم فجعل يبكي ، فقال له وزراؤه : مالك تبكي ؟ ولابكت عيناك .

فقال : أما أني لست أبكي على المصيبة التي نزلت بي ولكن أبكي لمظلوم يصرخ بالباب فلاأسمع صوته ، ثم قال : أما إن كان قد ذهب سمعي فإنّ بصري لم يذهب، نادوا في الناس ألا لايلبس ثوباً أحمر إلا مظلوم ، فكان يركب الفيل ويطوف طرفي النهار هل يرى مظلوماً فينصفه .

هذا ياأمير المؤمنين مشرك بالله قدغلبت رأفته بالمشركين ورقته على شحّ نفسه في ملكه، وأنت مؤمن بالله وابن عمّ نبيّ الله لاتغلبك رأفتك بالمسلمين ورقتك على شحّ نفسك ، فإنك لاتجمع الأموال إلا لواحد من ثلاثة :

إن قلت : أجمعها لولدي ، فقد أراك الله عبراً في الطفل الصغير يسقط من بطن امّه ، وما له على الأرض مال، ومامن مال إلا ودونه يد شحيحة تحويه، فمايزال الله تعالى يلطف بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس إليه ، ولست الذي تعطي بل الله يعطي من يشاء .

وإن قلت : أجمع المال لاشيّد سلطاني، فقد أراك الله عبراً فيمن كان قبلك ماأغنى عنهم ماجمعوه من الذهب والفضة وماأعدوا من الرجال والسلاح والكراع ، وماضرك وولد أبيك ما كنتم فيه من قلة الجدة والضعف حين أراد الله بكم ماأراد.

وإن قلت: أجمع المال لطلب غاية هي أجسم من الغاية التي أنت فيها،فوالله مافوق ماأنت فيه إلا منزلة لاتدرك إلا بالعمل الصالح .

ياأمير المؤمنين، هل تعاقب من عصاك من رعيتك بأشدّ من القتل ؟

قال : لا .

قال : فكيف تصنع بالملك الذي خولك الله وماأنت عليه من ملك الدنيا ؟ وهو تعالى لايعاقب من عصاه بالقتل ولكن يعاقب من عصاه بالخلود في العذاب الأليم ، وهو الذي يرى منك ما عقد عليه قلبك وأضمرته جوارحك ، فما تقول اذا انتزع الملك الحقّ المبين ملك الدنيا من يدك فدعاك الى الحساب هل يغني عنك عنده شيء لما كنت فيه مما شححت عليه من ملك الدنيا ؟

فبكى المنصور بكاءً شديداً حتى نحب وارتفع صوته ، ثم قال : ياليتني لم اخلق ولم أك شيئاً ، ثم قال : كيف احتيالي فيما خولت فيه ولم أر من الناس إلا خائن ؟

قال : ياأمير المؤمنين عليك بالأئمة الأعلام المرشدين .

قال : ومن هم؟

قال: العلماء .

قال : قد فرّوا مني .

قال : هربوا منك مخافة أن تحملهم على ماظهر من طريقتك من قبل عمالك ، ولكن افتح الأبواب وسهّل الحجاب وانتصر للمظلوم من الظالم وارفع المظالم وخذالشيء مماحلّ وطاب وأقسمه بالحقّ والعدل وأنا ضامن على أنّ من هرب منك أن يأتيك فيعاونك على صلاح أمرك ورعيتك .

فقال المنصور : اللهمّ وفقني أن أعمل بما قال هذا الرجل .

وجاء المؤذنون فسلّموا عليه واقيمت الصلاة فخرج فصلّى بهم ثم قال للحرسي: عليّ بالرجل ...[1] والقصة طويلة ، وفي آخر المطاف اخبر المنصور بأنّ الرجل الناصح هو الخضر عليه السلام .

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله قال : السلطان ظلّ الله في الأرض يأوي إليه كل مظلوم ، فمن عدل كان له الأجر وعلى الرعية الشكر ، ومن جار كان عليه الوزر وعلى الرعية الصبر حتى يأتيهم الأمر[2].

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله قال : من عامل الناس فلم يظلمهم وحدّثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته ووجبت اخوته وحرمت غيبته[3] .

وأما قوله تعالى : «شهداء لله» فإنه موجّه الى المؤمنين الذين ناداهم الله في أول الآية فأمرهم :

أولاً : أن يكونوا قوّامين بالقسط.

---

(١) احياء علوم الدين : ج٧ ص٨٢ باختصار ، ونقله ابن عبد ربه الاندلسي في العقد الفريد : ج١ ص٣٠٤ تحت عنوان : مقام رجل من العباد عند المنصور .

(٢) بحار الانوار : ج٧٥ ص٣٥٢ ب٦٦ ح٢٦ .

(٣) بحار الانوار : ج٧٥ ص٣٥٤ ب٨١ ح٦٩ .

وثانياً: أن يكونوا شهداء لله، فإنه أمرنا في هذه الآية بالمحافظة على حقوق الناس المادية والمعنوية ، وحيث إنّ أغلب الناس لايعطون الحقّ من ذات أنفسهم وغالباً يقع التنازع والتخاصم بينهم، ولايرجع الحقّ لأهله إلا بالرجوع الى القضاة أو الحكّام كما يعبّر عنهم في هذا العصر، وإثبات صاحب الحقّ حقه لدى الحاكم إنما يكون بشهادة الشهود ، فإذا كان بعض الشهود أو كلّهم غير محقين ، وكذا اذا كان القاضي الحاكم بكون الحقّ لفلان وهو غير محقّ سبّب ذلك بطلان الحقوق وضياعها وأكل أموال الناس بالباطل .

ولأجل عدم الوقوع في هذه المنكرات أمر الله المؤمنين أن يكونوا قوّامين بالقسط اذا كانوا في مقام الحاكم، وأن تكون شهادتهم لله اذا كانوا في مقام الشهود .

ومعنى كون الشهادة لله أن يكونوا وكلاء عن الله في تحقيق هذا الحق وجعله لأهله بهذه الشهادة، فاذا فرضوا أنفسهم ـ أي كل واحد من الحاكم والشاهد ـ أنهم وكلاء عن الله في تحقيق الحقّ في هذه القضية يلزمهم أن يسيروا على الحق ولايجاوزوه مقدار ذرة .

فاذا كان الشاهد الذي سماه الله مؤمناً وناداه بقوله: « **ياأيها الذين آمنوا** » اذا كان قيامه في هذا المقام أي في مقام الشهادة بين يدي الحاكم ليثبت في شهادته هذه حقاً لأحد المسلمين الذين غدرت حقوقهم وهو يرده لأهله بشهادته هذه فإنّ الله قد أمره أن تكون شهادته لله لالغيره ، أي لا لأجل المادة ولا لأجل القرابة أو الصداقة أو الجاه أو المنصب ، بل لأجل إحقاق الحقّ وإبطال الباطل ، وأنّ موقفه هذا بأمر الله. ولاينبغي له أن يميل عن الحقّ مقدار جناح بعوضة، فإنّ ميله هذا يوجب ميل كفّة حسناته فتسقط منها ولايبقى منها شيء .

أما نفس الحاكم اذا كان حكمه مخالفاً للحق أو علم بتزوير الشهود وبطلان شهادتهم وحكم على طبقها فحكمه حكم ضلال وفسوق وحكم كفر وجاهلية ، فليعرف نفسه وليتذكر قوله تعالى : « كونوا قوّامين بالقسط » الذي أمر الله به

الذين آمنوا ، فإن كان يعدّ نفسه من المؤمنين ومع ذلك حكم بهذا الحكم وخالف أمر الله وغدر حقّ المسلم وظلمه فقد خرج بهذا العمل عن الاسلام فإنه جرم كبير.

هذا الرجل الذي وصفه الله بالايمان وناداه وكل نداء يلزمه الجواب فاذا تحقق الجواب من العبد بقوله لبيك يارب هاأنا ذا عبدك بين يديك وطوع أمرك هكذا ينبغي أن يكون الجواب من المؤمن لنداء الله . وبعد تحقيق الجواب يأتي الأمر من الله وهو قوله : « كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله » .

أمرنا الله أن نقوم بهذين الأمرين أمراً مطلقاً عاماً غير مقيد بقيد ولا مشروط بشرط، أمرنا أن يكون حكمنا بالعدل وشهادتنا لله، فإنّ الله لا يقبل الشهادة الكاذبة التي تغيّر الحق. فهذه الشهادة ملزمين بها سواء كانت فائدتها لنا أو لغيرنا، وسواء كان ضررها علينا أو على الوالدين أو على قرابتنا أو على شخص غني ننتفع منه ومن ماله، أو على شخص فقير نضره ضرراً يجحف به يلزمنا أداؤها على حقيقتها بلا تحريف ولا تغيير.

فالذي يتكلم بلسانه في أداء الشهادة والذي يسجلها - أي يأخذ إفادة المدعي والمدعى عليه ليقدمها للمحكمة وهذه هي وظيفة الشرطة - عليه أن يؤديها على حقيقتها لا تبديل ولا تغيير ولا تحريف، وعليه أن يوضح شخصية الظالم ليعرفه الحاكم وأن يوضح شخصية المظلوم ليأخذ الحاكم له بحقه ولا يبخس منه شيئاً .

هذا كله مستفاد من قوله تعالى : « كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله » ولكن الله أوضح لنا الأمر أيضاحاً يفهمه كل أحد حتى لا يقول أحد الشهود أو كاتب الشرطة إنّ الشهادة كانت على أبي أو أخي أو قرابتي أو صديقي أو من يعطيني الدريهمات التي أتنعم بها ولذا قد غيّرتها وحرفتها فقال تعالى : **« ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين ان يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما »** .

فقد أوضح الله لنا الأمر بقوله : « ولو على أنفسكم » الى آخره . فلم يبق مجال لأحد أن يغيّر أو يحرف أو يكتم شيئاً فيها، ومن فعل شيئاً من ذلك فقد أخلّ بإيمانه وقد خالف الله فيما أمر به ، ثم بعد ذلك قد هدّد الله تعالى بقوله: **« فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا وان تلولوا أو تعرضوا »** .

إنّ الله بعد أن أمرك أيّها المؤمن أن تكون قوّاماً بالقسط وأن تكون شاهداً لله ـ وحيث إنّ اتصافك بهاتين الصفتين يجعلك عادلاً، وأنّ العدالة أحسن صفة في الانسان ـ فإنّ في هذه الجملة ينهاك عن اتباع الهوى في مخالفة أمر الله سواء كنت حاكماً أو شاهداً، فإنك إن لم تحكم بالقسط وإن لم تؤدّ الشهادة لله لاتكون عادلاً، وهذا الاخلال بالعدالة إنما ينشأ من اتباع الهوى أي هوى النفس فإنّ الانسان اذا هوت نفسه أن تحكم أو تشهد لغير الحق بغير الحق إمّا لقرابته أو صداقته أو دريهماته يكون بذلك منسلخاً عن العدالة متبعاً لهواه.

فيكون معنى هذه الجملة: اتركوا متابعة الهوى لأجل أن تعدلوا، أي لتحافظوا على عدالتكم، فتكون العدالة التي أمر الله بها إنما تتحقق من الحاكم بالحكم بالقسط ومن الشاهد، وهو في هذا الزمان عبارة عن مأمور المركز وكاتب الشرطة وسائر أفراد الشرطة، فإنهم هم الشهود أمام الحاكم وهم يقدمون التقارير الى الحاكم، فهؤلاء إنما تثبت عدالتهم ويكونون مطيعين لله ولأوامره اذا كتبوا الحقّ والحقيقة وشهدوا بها أمام الحاكم، أما اذا اتبعوا أهواءهم ولاحظوا الغني لما يقدمه من النقود لهم أو لاحظوا الصداقة أو القرابة ولم يكتبوا الحق فقد اتبعوا أهواءهم ولم يعدلوا، وقد اتصفوا بما نهاهم الله عنه بقوله: «وإن تلووا أو تعرضوا» أي أنك أيها الحاكم وأنت أيها الشاهد لاتمطلوا في حكمكم وشهادتكم، فإنّ كلمة «تلووا» مأخوذة من (اللّي) وهو المطل. فالحاكم اذا عرف الحقّ في أحد الجانبين وطلب منه الجانب الآخر ـ لصداقة أو واسطة ناطقة أو صامتة ـ أن يؤجّل الحكم فأجّله لاشكّ بل لطلب ذلك المبطل فهذا هو (اللّي) الذي نهى الله عنه.

وأما الاعراض فهو أعظم من (اللّي) فإنه يعرف أحقية المحق ويعرض عنه وهذا بالنسبة الى الحاكم والشاهد على حدّ سواء، فإنّ الله قد هددهما وأنذرهما بقوله: **«فان الله بما تعملون خبيراً»**.

وحاصل الأمر: أنّ إحقاق الحقّ وإيصاله لأهله في هذا الزمان إنما يكون بواسطة المحاكم وضبط الافادات بواسطة الشرطة ، وأنّ الناس يفزعون إليهم في تحصيل حقوقهم ، والذي يشاهد من الناس أنّ الشخص المتصل بهما أو بأحدهما يسارع الى إقامة الدعوى في كل صغيرة وكبيرة وفي كل حقّ وباطل وذلك لما يطمأن إليه من توثق العلاقة بينه وبينهم ، وأنه سيربح وينجح في دعواه .

أما الضعيف الذي لاصلة له مع حاكم أو شاهد فإنه يخشى من مراجعة المحاكم خوفاً من ذهاب حقه وتحميله مصارف المحاكمة ، ولذا أكّد الله في هذه الآية على الحاكمين والشاهدين تأكيداً شديداً .

ماقاله الشيخ الطوسي :

قال في تفسيره في بيان معنى الآية : إنّ الله تعالى لما حكى عن الذين سعوا الى رسول الله ﷺ في أمر بني إبيرق وقيامهم لهم بالعذر وذبهم عنهم من حيث كانوا أهل فقر وفاقة أمر الله المؤمنين أن يكونوا قوّامين بالقسط يعني بالعدل ، والقسط والاقساط : العدل ، يقال : أقسط الرجل اقساطاً اذا عدل وأتى بالقسط ، وقسط يقسط قسوطاً اذا أجار. وقسط البعير يقسط قسطاً اذا يبست يده. ويدقسط: أي يابسة .

« شهداء لله » وهو جمع شهيد ، ونصب شهداء على الحال من الضمير في قوله « قوّامين » وهو ضمير « الذين آمنوا ».

وقوله : « ولو على أنفسكم » يعني ولوكانت شهادتكم على أنفسكم أوعلى والديكم أو على أقرب الناس اليكم فقوموا فيها بالقسط والعدل، وأقيموها على صحتها ، وقولوا فيها الحق ، ولاتميلوا فيها لغنى غنيّ ولافقر فقير فتجوروا،فإنّ الله قد سوى بين الغنيّ والفقير فيما ألزمكم من إقامة الشهادة لكل واحدمنهما بالعدل ، وهو تعالى أولى بهما وأحقّ لأنـه مالكهما وإلههما دونكم ، وهو أعلم

بمافيه مصلحة كل واحد منهما في ذلك وفي غيره من الامور كلها منكم، فلاتتبعوا الهوى في الميل في شهادتكم اذا قمتم لغنيّ أو لفقير الى أحدهما فتعدلوا عن الحق أي تجوزوا عنه وتضلّوا ، ولكن قوموا بالقسط وأدوا الشهادة على ماأمركم الله عزّ وجلّ بأدائها بالعدل لمن شهدتم عليه وله .

فإن قيل: كيف تكون شهادة الانسان على نفسه حتى يأمر الله تعالى بذلك؟ قلنا : بأن يكون عليه حقّ لغيره فيقرّ له ولايجحده ، فأدّب الله تعالى المؤمنين أن يفعلوا مافعله الذين عذروا بني إبيرق في سرقتهم ماسرقوا وخيانتهم ماخانوا وإظافتهم ذلك الى غيرهم ، فهذا اختيار الطبري .

وقال السدي : إنها نزلت في النبي ﷺ وقد اختصم إليه رجلان غنيّ وفقير فكان ضلعه مع الفقير لظنه أنّ الفقير لا يظلم الغني، فأبى الله تعالى إلا القيام بالقسط في أمر الغنيّ والفقير قال : « إن يكن غنيّاً أو فقيراً فالله أولى بهما » .

وهذا الوجه فيه بُعد لأنه لايجوز على النبي في الحكم أن يميل الى أحد الخصمين سواء كان غنياً أو فقيراً ، فإنّ ذلك ينافي عصمته .

وقال ابن عباس : أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين أن يقولوا الحقّ ولو على أنفسهم وأبنائهم ولايحابوا غنياً لغناه ولامسكيناً لمسكنته ، وهذا هو الأولى لأنه أليق بالظاهر من عدول عنه .

وفي الآية دلالة على جواز شهادة الوالد لولده والولد لوالده وكل ذي قرابة لمن يقرب منه ، فقال ابن شهاب : كان سلف المسلمين على ذلك حتى دخل الناس فيما بعد تُهم، وظهرت فيهم امور حملت الولاة على اتهامهم ، فتركت شهادة من يتم اذا كان من أقربائهم وجاز ذلك من الولد والوالد والأخ والزوج والمرأة ، وبمعنى قول ابن عباس قال قتادة وابن زيد .

وقوله : « فالله أولى بهما » إنّما ثنّى ولم يقل به لأنه أراد « فالله أولى » بغناء الغنيّ وفقر الفقير لأنّ ذلك منه تعالى.

وقال قوم: لم يقصد غنياً بعينه ولافقيراً بعينه وهومجهول، ومانلك حكمه جاز الردّ عليه التوحيد والتثنية والجميع. وفي قراءة أُبي «فالله أولى بهم».

وقال قوم: «أو» بمعنى الواو في هذا الموضع فلذلك ثنّى.

وقال آخرون: جاز تثنية قوله «بهما» لأنهما قد ذكرا كما قيل: «وله أخ أو اخت فلكل واحد منهما»[1].

وقيل: جاز ذلك لأنه أضمر فيه «من» كأنه قال وله أخ أو اخت أن يكون من خاصم غنياً أو فقيراً بمعنى غنيين أو فقيرين «فالله أولى بهما».

قوله: «فلاتتبعوا الهوى أن تعدلوا» يحتمل ثلاثة أوجه:

أحدهما: لاتتبعوا الهوى في أن تعدلوا عن الحق فتجوروا بترك إقامة الشهادة بالحق.

والثاني: أن يكون التقدير لاتتبعوا أهواء أنفسكم هرباً من أن تعدلوا في إقامة الشهادة.

والثالث: فلاتتبعوا الهوى لتعدلوا، كما يقال: لاتتبع هواك لترضى ربك بمعنى أنهاك عنه كيما ترضي ربك بتركه، ذكره الفراء والزجاج.

وقوله: «وإن تلووا أو تعرضوا» اختلفوا في تأويله، فقال قوم: معناه وإن تلووا أيها الحكّام في الحكم لأحد الخصمين على الآخر أو تعرضوا «فإنّ الله كان بما تعملون خبيراً».

وحملوا الآية على أنها نزلت في الحكّام، ذهب إليه السدي على ماقال إنها نزلت في النبي ﷺ.

وروي عن ابن عباس أنه قال: هما الرجلان يجلسان بين يدي القاضي فيكون ليّ القاضي وإعراضه لأحدهما على الآخر.

وقال آخرون: معناه وإن تلووا أيها الشهداء في شهادتكم فتحرفوها فلا

(١) النساء: ١٢.

تقيموها أو تعرضوا عنها فتتركوها ، ذهب إليه ابن عباس ومجاهد .

وقال مجاهد : معنى «تلووا» تبدلوا الشهادة «أو تعرضوا» أي : تكتموها، وهو قول أبي جعفر عليه السلام ، وبه قال ابن زيد والضحاك .

وأولى التأويلين قول من قال : إنه لي الشهادة لمن شهد له أو عليه بأن يحرفها بلسانه أو يتركها فلايقيمها ليبطل بذلك شهادته وإعراضه عنها،فلوترك إقامتها فلايشهد بها ، وسياق الآية يدل على ماقال ابن عباس .

وقوله : «فإن الله كان بما تعملون خبيراً» معناه : أنه كان عالماً بمايكون منهم من إقامة الشهادة وتحريفها والاعراض عنها ، والّلي هو المطل لما يجب من الحق[1] انتهى .

ماقاله الفخر الرازى :

قال في تفسيره للآية : في الآية مسائل :

(المسألة الاولى) في اتصال الآية بما قبلها وجوه :

الأول : أنه لما تقدم ذكر النساء والنشوز والمصالحة بينهن وبين الأزواج عقبه بالأمر بالقيام بأداء حقوق الله تعالى وبالشهادة لاحياء حقوق الله .وبالجملة فكأنه قيل: إن اشتغلت بتحصيل مشتهياتك كنت لنفسك لالله، وان اشتغلت بتحصيل مأمورات الله كنت لله لالنفسك، ولاشك أن هذا المقام أعلى وأشرف، فكانت هذه الآية تأكيداً لماتقدم من التكاليف .

الثاني : أن الله تعالى لما منع الناس عن أن يقصروا عن طلب ثواب الدنيا وأمرهم بأن يكونوا طالبين لثواب الآخرة ذكر عقيب هذه الآية وبيّن أن كمال سعادة الانسان في أن يكون قوله لله وفعله لله وحركته لله وسكونه لله ، حتى يصير من الذين يكونون في آخر مراتب الانسانية وأول مراتب الملائكة ، فأما

---

(١) التبيان : ج٣ ص٣٥٤ ـ ٣٥٦ .

اذا عكس هذه القضية كان مثل البهيمة التي منتهى أمرها وجدان علف، أوالسبع الذي غاية أمره إيذاء حيوان .

الثالث : أنه تقدم في هذه السورة أمر الناس بالقسط كما قال : « وإن خفتم أن لاتقسطوا في اليتامى »[1] وأمرهم بالاشهاد عندفع أموال اليتامى اليهم،وأمرهم بعد ذلك ببذل النفس والمال في سبيل الله ، وأجرى في هذه السورة قصة طعمة بن إبيرق واجتماع قومه على الذبّ عنهم بالكذب والشهادة على اليهودي بالباطل .

ثم إنه تعالى أمر في هذه الآية بالمصالحة مع الزوجة ، ومعلوم أنّ ذلك أمر من الله لعباده بأن يكونوا قائمين بالقسط شاهدين لله على كل أحد بل وعلى أنفسهم ، فكانت هذه الآية كالمؤكد لكل ماجرى ذكره في هذه السورة من أنواع التكاليف .

(المسألة الثانية) القوّام من قائم، والقسط العدل، فهذا أمر منه تعالى لجميع المكلّفين بأن يكونوا مبالغين في اختيار العدل والاحتراز عن الجور والميل. وقوله: « شهداء لله » أي تقيمون شهاداتكم لوجه الله كما امرتم بإقامتها ولو كانت الشهادة على أنفسكم أو آبائكم أو أقاربكم ، وشهادة الانسان على نفسه لها تفسيران :

الأول: أن يقرّ على نفسه لأنّ الاقرار كالشهادة في كونه موجباً إلزام الحق.

الثاني : أن يكون المراد وإن كانت الشهادة وبالاً على أنفسكم وأقاربكم وذلك أن يشهد على من يتوقع ضرره من سلطان ظالم أو غيره .

(المسألة الثالثة) في نصب الشهداء ثلاثة أوجه :

الأول : على الحال من « قوّامين » .

والثاني : أنه خبر على أنّ « كونوا » لها خبران .

والثالث : أن تكون صفة لـ « قوّامين ».

(المسألة الرابعة) إنما قدم الأمر بالقيام بالقسط على الأمر بالشهادة لوجوه:

---

(١) النساء : ٣ .

الأول : أنّ أكثر الناس عادتهم أنهم يأمرون غيرهم بالمعروف ، فاذا آل الأمر على أنفسهم تركوه حتى أنّ أقبح القبيح اذا صدر عنهم كان في محل المسامحة وأحسن الحسن ، واذا صدر عن غيرهم كان في محلّ المنازعة . فالله سبحانه نبّه في هذه الآية على سوء هذه الطريقة وذلك أنه تعالى أمرهم بالقيام بالقسط أولاً ، ثم أمرهم بالشهادة على الغير ثانياً ، تنبيهاً على أنّ الطريقة الحسنة أن تكون مضايقة الانسان مع نفسه فوق مضايقتها على الغير .

الثاني : أنّ القيام بالقسط عبارة عن دفع ضرر العقاب عن الغير وهو الذي عليه الحقّ ودفع الضرر عن النفس مقدم على دفع الضرر عن الغير .

الثالث : أنّ القيام بالقسط فعل والشهادة قول ، والفعل أقوى من القول ، فإن قيل: إنه تعالى قال : « شهد الله أنه لاإله إلا هو والملائكة واولو العلم قائماً بالقسط »[1] فقدّم الشهادة على القيام بالقسط، وهاهنا قدّم القيام بالقسط فماالفرق؟

قلنا: شهادة الله تعالى عبارة عن كونه تعالى خالقاً للمخلوقات، وقيامه بالقسط عبارة عن رعاية القوّامين بالعدل في تلك المخلوقات، فيلزم هناك أن تكون الشهادة مقدمة على القيام بالقسط، أما في حقّ العباد فالقيام بالقسط عبارة عن كونه مراعياً للعدل ومبايناً للجور ، ومعلوم أنه مالم يكن الانسان كذلك لم تكن شهادته على الغير مقبولة . فثبت أنّ الواجب في قوله : « شهداء لله » أن تكون تلك الشهادة مقدمة على القيام بالقسط ، والواجب هاهنا أن تكون الشهادة متأخرة عن القيام بالقسط، ومن تأمل علم أنّ هذه الأسرار مما لايمكن الوصول إليها إلا بالتأييد الالهي ، والله أعلم .

ثم قال تعالى :«إن يكن غنياً أوفقيراً فالله أولى بهما» أي إن يكن المشهود عليه غنياً أو فقيراً فلاتكتموا الشهادة ، أما لطلب رضا الغني والترحم على الفقير فالله أولى بامورهما ومصالحهما، وكان من حقّ الكلام أن يقال: فالله أولى به لأنّ قوله : « إن يكن غنيّاً أو فقيراً » في معنى إن يكن أحد هذين ، إلا أنه بنى

(١) آل عمران : ١٨ .

الضمير على الرجوع الى المعنى دون اللفظ ، أي الله أولى بالفقير والغني، وفي قراءة أُبي: «فالله أولى بهم» وهو راجع الى قوله :«أو الوالدين والأقربين». وقرأ عبدالله: « إن يكن غنيٌّ أو فقيرٌ » على كان التامة .

ثم قال تعالى: « فلاتتّبعوا الهوى أن تعدلوا » والمعنى: اتركوا متابعة الهوى حتى تصيروا موصوفين بصفة العدل .

وتحقيق الكلام أنّ العدل عبارة عن ترك متابعة الهوى ، ومن ترك أحد النقيضين فقد حصل له الآخر. فتقدير الآية : فلاتتبعوا الهوى لأجل أن تعدلوا ، يعني: اتركوا متابعة الهوى لأجل أن تعدلوا .

ثم قال تعالى: « وإن تلووا أو تعرضوا فإنّ الله كان بما تعملون خبيراً » وفي الآية قراءتان: قرأ الجمهور « وإن تلووا » بواوين، وقرأ ابن عامر وحمزة «تلوا».

وأما قراءة « تلووا » ففيه وجهان :

أحدهما : أن يكون بمعنى الدفع والاعراض من قولهم : لواه حقه اذا ماطله ودفعه .

الثاني: أن يكون بمعنى التحريف والتبديل من قولهم: لوى الشيء اذا فتله ومنه يقال : التوى هذا الأمر ، اذا تعقد وتفسر تشبهاً بالشيء المنفتل .

وأما « تلوا » ففيه وجهان :

الأول : أنّ ولاية الشيء إقبال عليه واشتغال به ، والمعنى أن تقبلوا عليه فتتمّوه أو تعرضوا عنه « فإنّ الله كان بما تعملون خبيراً » فيجازى المحسن المقبل بإحسانه والمسيء المعرض بإساءته ، والحاصل إن تلووا عن إقامتها أو تعرضوا عن إقامتها .

والثاني : قال الفراء والزجاج : يجوز أن يقال : « تلوا » أصله « تلووا » ثم قلبت الواو همزة ثم حذفت الهمزة والقيت حركتها على الساكن الذي قبلها فصارت (تلوا) . وهذا أضعف الوجهين .

وأما قوله : « فإنّ الله كان بما تعملون خبيراً » فهو تهديد ووعيد للمذنبين ووعد بالاحسان للمطيعين[١] انتهى .

ماقاله المراغي :

قال في بيان المعنى الجملي للآية : بعد أن أمر سبحانه بالقسط في اليتامى والنساء في سياق الاستفتاء فيهنّ لأنّ حقهنّ آكدو ضعفهنّ معهود عمم الأمر هنا بالقسط بين الناس لأنّ قوام امور الاجتماع لايكون إلا بالعدل، وحفظ النظام لايتمّ إلا به، وبما فيه من الشهادة لله بالحق ولو على النفس والوالدين والأقربين وعدم محاباة أحد لغناه أو لفقره، لأنّ العدل مقدم على حقوق النفس و حقوق القرابة وغيرهما وقد كانت سنّة الجاهلية محاباة ذوي القربى لأنه يعتزّ بهم كما كانوا يظلمون النساء واليتامى لضعفهنّ وعدم الاعتزاز بهنّ .

ثم قال في إيضاح قوله عزّ من قائل: « ياأيها الّذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط » :

القوّام هو المبالغ في القيام بالشي والاتيان به مستوفياً تاماً لانقص فيه، وقد أمر الله بإقامة الصلاة وإقامة الوزن بالقسط تأكيداً للعناية بهذه الأشياء، أي: فلتجعلوا العناية بإقامة القسط على وجهه صفة ثابتة لكم راسخة في نفوسكم.

والعدل كما يكون في الحكم بين الناس ممن يوليه السلطان أو يحكمه الناس فيما بينهم يكون في العمل كالقيام بما يجب بين الزوجات والأولاد من النصفة والمساواة بينهم ، ولو سار المسلمون على هدي القرآن لكانوا أعدل الامم وأقومهم بالقسط ، وقد كانوا كذلك ردحاً[٢] من الدهر حين كانوا مهتدين بهديه ولكن قد خلف من بعدهم خلف نبذوا تلك الهداية وراء ظهورهم، فصارت تضرب بهم الأمثال في ظلم حكّامهم وسوء أحوالهم .

---

(١) تفسير الرازى : ج١١ ص٧٢ ـ ٧٤ .
(٢) الردح : المدة الطويلة .

« شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » أي كونوا شهداء لله بأن تتحروا الحق الذي يرضاه ويأمر به من غير مراعاة أحد ولامحاباته ، ولو كانت الشهادة على أنفسكم بأن يثبت بها الحقّ عليكم ، ومن أقرّ على نفسه بحقّ فقد شهد عليها ، لأنّ الشهادة إظهار الحق ولو على والديكم وأقرب الناس إليكم كأولادكم وإخوتكم، إذ ليس من برّ الوالدين ولامن صلة ذوي الرحم أن يعاونوا على ماليس لهم بحقّ الاعراض عن الشهادة عليهم أو ليّها والتحريف فيها ، بل البرّ والصلة في الحقّ والمعروف ، وليس من شكّ في أنّ الحياة قصاص ، فالذين يتعاونون على الظلم وهضم حقوق الناس يتعاون الناس على ظلمهم وهضم حقوقهم، فتكون المحاباة من أسباب فشوّ الظلم والعدوان والمفاسد التي لايؤمّن شرها .

« إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما » أي إن يكن المشهود عليه من الأقارب أو غيرهم غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ، وشرعه أحقّ أن يتبع فيهما ، فحذار أن تحابوا غنياً طمعاً في بره ولا خوفاً من أذاه وشره ، ولافقيراً عطفاً عليه وشفقةً به ، فمرضاة كل منهما ليست خيراً لكم ولالهما من مرضاة الله ، ولستم أعلم بمصلحتهما من ربهما ، ولولا أنه يعلم أنّ العدل وإقامة الشهادة بالحق خير للشاهد والمشهود عليه لما شرع ذلك ولا أوجبه .

وروى ابن جرير عن السدي في سبب نزول الآية : أنّ رجلين فقيراً وغنياً اختصما الى النبي ﷺ فكان حلفه (ميله القلبي) مع الفقير ، يرى أنّ الفقير لا يظلم الغني ، فأبى الله إلاّ أن يقوم بالقسط في الغنيّ والفقير .

وقال قتادة في هذه الآية: هذا في الشهادة فأقم الشهادة ياابن آدم ولو على نفسك أو الوالدين أو على ذوي قرابتك وأشراف قومك، فإنما الشهادة لله وليست للناس ، والعدل ميزان الله في الأرض ، به يرد الله من الشديد على الضعيف، ومن الصادق على الكاذب ، ومن المبطل على المحق .

« فلاتتبعوا الهوى أن تعدلوا » أي فلاتتبعوا الهوى لئلاّ تعدلوا عن الحق

الى الباطل إذ في الهوى الزلل .

« وإن تلووا أو تعرضوا فإنّ الله كان بما تعملون خبيراً » أي وإن تلووا ألسنتكم بالشهادة وتحرفوها أو تعرضوا عنها فلا تؤدوها فالله خبير بأعمالكم، لايخفى عليه قصدكم، فهو مجازيكم بما تعملون . وعبّر بالخبير ولم يعبّر بالعليم لأنّ الخبرة أعلم بدقائق الامور وخفاياها، والشهادة يكثر فيها الغشّ والاحتيال حتى يغشّ الانسان فيها نفسه ويلتمس المعاذير في كتمان الشهادة أو تحريفها .

فليتدبر المسلمون ذلك وليعملوا بهدي كتابهم ، ويقيموا الشهادة بالحق ففي ذلك فلاحهم في دينهم ودنياهم[1] انتهى .

ماقاله الطبري :

قال في تأويل الآية : وهذا تقدم من الله تعالى ذكره الى عباده المؤمنين به وبرسوله أن يفعلوا فعل الذين سعوا الى رسول الله ﷺ في أمر بني إبيرق أن يقوم بالعذر لهم في أصحابه وذبّهم عنهم وتحسينهم أمرهم بأنهم أهل فاقة وفقر.

يقول الله لهم:« ياأيّها الّذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط » يقول:ليكن من أخلاقكم وصفاتكم القيام بالقسط ، يعني بالعدل .

« شهداء لله » والشهداء جمع شهيد ، ونصبت الشهداء على القطع ممافي قوله: قوّامين من ذكر « الّذين آمنوا » ومعناه: قوموا بالقسط لله عندشهادتكم أوحين شهادتكم .

« ولوعلى أنفسكم » يقول: ولو كانت شهادتكم على أنفسكم أوعلى والديكم أو أقربيكم فقوموا فيها بالقسط والعدل ، وأقيموها على صحتها بأن تقولوا فيها الحق ولاتميلوا فيها لغنيّ لغناه على فقير ولاالفقير لفقره على غني فتجوروا، فإنّ الله الذي سوى بين حكم الغنيّ والفقير فيما ألزمكم أيها الناس من إقامة الشهادة

---

(١) تفسير المراغي : ج٥ ص١٧٨ .

لكل واحد منهما بالعدل أولى بهما وأحق منكم لأنه مالكهما وأولى بهما دونكم فهو أعلم بما فيه مصلحة كل واحد منهما في ذلك وفي غيره من الامور كلها منكم فلذلك أمركم بالتسوية بينهما في الشهادة لهما وعليهما.

« فلاتتبعوا الهوى أن تعدلوا » يقول: فلاتتبعوا أهواء أنفسكم في الميل في شهادتكم اذا قمتم بها لغني على فقير أو لفقير على غني الى أحد الفريقين فتقولوا غير الحق ولكن قوموا فيه بالقسط وأدوا الشهادة على ماأمركم الله بأدائها بالعدل لمن شهدتم عليه وله.

فان قال قائل: كيف يقوم بالشهادة على نفسه الشاهد بالقسط؟ وهل يشهد الشاهد على نفسه؟ قيل: نعم، وذلك أن يكون عليه حق لغيره فيقر له به، فذلك قيام منه له بالشهادة على نفسه.

هذه الآية عندي تأديب من الله جل ثناؤه لعباده المؤمنين أن يفعلوا ما فعله الذين عذروا بني إبيرق في سرقتهم ماسرقوا وخيانتهم وماخانوا من ذكر ماقيل عند رسول الله صلى الله عليه وآله وشهادتهم لهم عنده بالصلاح فقال لهم: اذا قمتم بالشهادة لانسان أو عليه فقوموا فيها بالعدل ولو كانت شهادتكم على أنفسكم وآبائكم وامّهاتكم وأقربائكم، فلايحملنكم غنى من شهدتم لـه أو فقره أو قرابته ورحمه منكم على الشهادة له بالزور ولاعلى ترك الشهادة عليه بالحق وكتمانها[1].

ثم ذكر جملة من الروايات الدالة على ماذكره في تفسير الآية ثم قال في تأويل قوله تعالى: « فلاتتّبعوا الهوى أن تعدلوا » أي عن الحق فتجوروا بترك إقامة الشهادة بالحق.

ولو وجّه الى أن معناه: فلاتتبعوا أهواء أنفسكم هرباً من أن تعدلوا عن الحق في إقامة الشهادة بالقسط كان وجهاً. وقد قيل معنى ذلك: فلاتتبعوا الهوى لتعدلوا كما يقال: لاتتبع هواك لترضي ربك، بمعنى أنهاك عنه كيما ترضي ربك بتركه.

---

(١) تفسير الطبرى: ج٥ ص٢٠٦.

القول في تأويل قوله: «وإن تلووا أو تعرضوا فإنّ الله كان بما تعملون خبيراً»:

اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك فقال بعضهم: عنى وإن تلووا أيها الحكّام لأحد الخصمين على الآخر أو تعرضوا فإنّ الله كان بما تعملون خبيراً، ووجّهوا معنى الآية الى أنها نزلت في الحكّام على نحو القول الذي ذكرنا عن السدي من قوله: إنّ الآية نزلت في رسول الله ﷺ على ماذكرنا قبل.

ذكر من قال ذلك:

حدثنا ابن حميد وابن وكيع قالا: حدثنا جرير عن قابوس بن أبي ظبيان عن أبيه عن ابن عباس في قول الله «وإن تلووا أو تعرضوا» قال: هما الرجلان يجلسان بين يدي القاضي فيكون ليّ القاضي وإعراضه لأحدهما على الآخر.

وقال آخرون: معنى ذلك وإن تلووا أيها الشهداء في شهاداتكم فتحرفوها ولاتقيموها أو تعرضوا عنها فتتركوها.

ذكر من قال ذلك:

حدثني المثنى قال: حدثنا عبدالله بن صالح ـ حتى يصل الى ابن عباس ـ قوله: «وإن تلووا أو تعرضوا» يقول: إن تلووا بألسنتكم بالشهادة أو تعرضوا عنها.

حدثني محمد بن سعد قال: حدثني أبي ـ حتى يصل الى ابن عباس ـ قوله: «ياأيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله» الى قوله: «وإن تلووا أو تعرضوا» يقول: تلوي لسانك بغير الحق ـ وهي اللجلجة ـ فلاتقيم الشهادة على وجهها، والاعراض: الترك.

حدثني محمد بن عمرو قال: حدثنا أبوعاصم قال: حدثنا عيسى بن أبي نجيح عن مجاهد في قوله: «وإن تلووا» أي تبدلوا الشهادة، «أو تعرضوا» قال: تكتموها.

حدثني المثنى ـ حتى يصل الى مجاهد ـ «وإن تلووا» قال: بتبديل الشهادة

والاعراض كتمانها .

حدثنا ابن وكيع ـ حتى يصل الى مجاهد ـ « وإن تلووا أو تعرضوا » قال: إن تحرفوا أو تتركوا .

حدثنا بشر ـ حتى يصل الى قتادة ـ «وإن تلووا أو تعرضوا» قال: تلجلجوا أو تكتموا ، وهذا في الشهادة.

حدثنا محمد بن الحسين ـ حتى يصل الى السدي ـ « وإن تلووا أو تعرضوا » أما « تلووا » فتلوي للشهادة فتحرفها حتى لاتقيمها ، وأما « تعرضوا » فتعرض عنها فتكتمها وتقول ليس عندي شهادة .

حدثني يونس قال : أخبرنا ابن وهب قال : قال ابن زيد « وإن تلووا » فتكتموا الشهادة : تلوي تنقص منها، أو تعرض عنها فتكتمها فتأبى أن تشهدعليه تقول : أكتم عنه لأنه مسكين أرحمه ، فتقول : لااقيم الشهادة عليه ، وتقول: هذا غني ابقيه وأرجو ماقبله فلاأشهد عليه ، فذلك قوله : « إن يكن غنياً أوفقيراً».

حدثنا ابن بشار ـ حتى يصل الى مجاهد ـ «وإن تلووا» تحرفوا أوتعرضوا وتتركوا .

حدثنا محمد بن عمارة قال : حدثنا ـ حتى يصل الى عطية ـ في قوله : « وإن تلووا » قال : إن تلجلجوا في الشهادة فتفسدوها . « أو تعرضوا » قال: فتتركوها.

حدثنا المثنى ـ حتى يصل الى الضحاك ـ في قوله:«وإن تلووا أو تعرضوا»قال: «إن تلووا» في الشهادة أن لاتقيموها على وجهها. «أو تعرضوا» قال: تكتموا الشهادة.

حدثني المثنى ـ حتى يصل الى قتادة ـ أنه كان يقول : « وإن تلووا أو تعرضوا » يعني تلجلجوا. «أو تعرضوا» قال : تدعها فلاتشهد.

حدثت عن الحسين بن الفرج ـ حتى يصل الى عبيد بن سلمان ـ قال: سمعت الضحاك يقول في قوله : «وإن تلووا أو تعرضوا» أما «تلووا» فهو أن يلوي الرجل لسانه بغير الحق ، يعني في الشهادة .

ثم قال الطبري : قال أبو جعفر : وأولى التأويلين بالصواب في ذلك تأويل من تأوله أنه ليّ الشاهد شهادته لمن يشهد له وعليه، وذلك تحريفه إياها لسانه وتركه إقامتها ليبطل بذلك شهادته لمن شهد له وعمن شهد عليه . وأما إعراضه عنها فإنه تركه أداءها والقيام بها فلا يشهد بها .

وإنما قلنا هذا التأويل أولى بالصواب لأنّ الله جلّ ثناؤه قال : « كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله » فأمرهم بالقيام بالعدل . «شهداء» وأظهر معاني الشهداء ما ذكرنا من وصفهم بالشهادة .

واختلفت القراء في قراءة قوله: « وإن تلووا » .

فقرأ ذلك عامة قراء الأمصار سوى الكوفة « وإن تلووا » بواوين من لواني الرجل حقي ، والقوم يلوونني ديني ، وذلك اذا مطلوه ليّاً .

وقرأ ذلك جماعة من قراء الكوفة « وإن تلوا » بواو واحدة . والقراءة من قرأ ذلك كذلك وجهان :

أحدهما : أن يكون قارئها أراد همز الواو لانضمامها ثم أسقط الهمزة فصار إعراب الهمزة في اللام اذا أسقطه وبقيت واو واحدة كأنه أراد « تلؤوا » ثم حذف الهمز . واذا عني هذا الوجه كان معناه معنى من قرأ « وأن تلووا » بواوين غير أنه خالف المعروف من كلام العرب . وذلك أنّ الواو الثانية من قوله « تلووا » واوجمع وهي علم لمعنى. فلايصحّ همزها ، ثم حذفها بعد همزها فيبطل علم المعنى الذي له ادخلت الواو المحذوفة .

والوجه الآخر: أن يكون قارئها كذلك أراد «إن تلوا» من الولاية فيكون معناه : وإن تلوا امور الناس أو تتركوا . وهذا معنى اذا وجّه القارىء قراءته على ماوصفنا إليه خارج عن معاني أهل التأويل وماوجّه إليه أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون تأويل الآية .

فاذا كان فساد ذلك واضحاً من كلا وجهيه فالصواب من القراءة الذي لا يصلح غيره أن يقرأ بـه عندنا . « وإن تلووا أو تعرضوا » بمعنى اللي الذي هـو مطل ، فيكون تأويل الكلام : وإن تدفعوا القيام بالشهادة على وجهها لمن لزمكم القيام له بها فتغيّروها، وتبدلوا أوتعرضوا عنها فتتركوا القيام له بها. كما يلوي الرجل دَين الرجل فيدافعه بأدائه اليه على ما أوجب عليه له مطلاً منه له ، كما قال الأعشى :

يلوينني ديني النهار وأقتضي ديني اذا وقذ النعاس الرقدا

وأما تأويل قوله : « فإنّ الله كان بما تعملون خبيراً » فإنه أراد : فإنّ الله كان بما تعملون من إقامتكم الشهادة وتحريفكم إياها وإعراضكم عنها بكتمانكموها خبيراً ، يعني ذا خبرة وعلم بـه ، يحفظ ذلك منكم عليكم حتى يجازيكم بـه جزاءكم في الآخرة، المحسن منكم بإحسانه والمسيء بإساءته يقول فاتّقوا ربكم في ذلك[1] انتهى .

ماقاله سيد قطب :

قال في تفسيره للآية : إنها الأمانة التي نيطت بكم في الارض « ياأيّها الذين آمنوا » أمانة القسط والعدل ودفع البغي والظلم، ولتنهضوا بل لتكونوا «قوّامين» لاتكلّون ولاتفترون عن القيام لتكونوا « قوّامين بالقسط » غير متعلّق هذا القسط بأمر دون أمر ولابقضية دون قضية ، إنما هو القسط المطلق والعدل المجرد، ومتى كانت لله على هذا النحو فقد خلصت من كل تأثير، وقد تجردت عن النفس والوالدين والأقربين «ولو على أنفسكم والوالدين والأقربين» كما تجردت عن كل الاعتبارات والقيم الأرضية المتعلّقة بدنيا الناس .

« إن يكن غنيّاً أوفقيراً فالله أولى بهما » فما يهمّ أن يكون المشهود له أو

---

(١) تفسير الطبرى : ج٥ ص٢٠٧ ـ ٢٠٩ .

عليه غنياً أو فقيراً. وارتفع الأمر كله عن أن يكون لملابسات هذه الأرض دخل فيه منذ أن دعوا الى التجرد عن كل شيء سوى الله، ومنذ أن دعوا الى أن يكونوا « شهداء لله » فأين يذهب الميل الى النفس أو الميل الى الوالدين والأقربين في هذا المرتقى العلوي الكريم؟ وأين تذهب اعتبارات الغني والفقير في هذا المجال الالهي العظيم؟ وإن لا تكن الشهادة لله فهي إذن للهوى.

« فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » لا تتبعوا الهوى فيمنعكم أن تعدلوا ويلوي بكم عن العدل أو يصدكم عن الحق.

« وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً » وهو تهديد خفي يدركه الذين آمنوا ولا يجهلونه أنه التهديد بخبرة الله العميقة بالنوايا والاتجاهات والتهديد بعاقبة هذه الخبرة حتى تلتوي الطوايا وتفسد النيات، وحين ينصرف الناس عن العدل المطلق الى الهوى والشهوات[1] انتهى.

ماقاله العلامة الطباطبائي:

قال في « الميزان » في قوله تعالى: « ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ... الخ ». القسط: هو العدل، والقيام بالقسط العمل به والتحفظ له، فالمراد بالقوامين بالقسط القائمون به أتم قيام وأكمله من غير انعطاف وعدول عنه الى خلافه لعامل من هوى وعاطفة أو خوف أوطمع أو غير ذلك، وهذه الصفة أقرب العوامل وأتم الأسباب لاتباع الحق وحفظه عن الضيعة، ومن فروعها ملازمة الصدق في أداء الشهادة والقيام بها.

ومن هنا يظهر أن الابتداء بهذه الصفة في هذه الآية المسوقة لبيان حكم الشهادة ثم ذكر صفة الشهادة من قبيل التدرج من الوصف العام الى بعض ماهو متفرع عليه كأنه قيل كونوا شهداء لله، ولا يتيسر لكم ذلك إلا بعد أن تكونوا

---

(١) في ظلال القرآن: ج٢ ص٧٧٦ مع اختلاف يسير.

قوّامين بالقسط . فكونوا قوّامين بالقسط حتى تكونوا شهداء لله .

وقوله : « شهداء لله » اللام فيه للغاية ، أي كونوا شهداء تكن شهادتكم لله كما قال تعالى : « وأقيموا الشهادة لله »[1] ومعنى كون الشهادة لله كونها اتباعاً للحقّ ولأجل إظهاره وإحيائه كما يوضحه قوله :«فلاتتّبعوا الهوى أن تعدلوا».

قوله تعالى : « ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » أي ولو كانت على خلاف نفع أنفسكم أو والديكم أوأقربائكم، فلايحملنكم حبّ منافع أنفسكم أو حبّ الوالدين والأقربين أن تحرفوها أو تتركوها .

فالمراد بكون الشهادة على النفس أو على الوالدين والأقربين أن يكون ماتحمله من الشهادة لو ادّي مضراً بحاله أو بحال والديه وأقربيه . سواء كان المتضرر هو المشهود عليه بلاواسطة كما اذا تخاصم أبوه وإنسان آخر فشهد له على أبيه ، أو يكون التضرر مع الواسطة كما اذا تخاصم اثنان وكان الشاهد متحملاً لأحدهما مالو أداه لتضرر به نفس الشاهد أيضاً كالمتخاصم الآخر .

قوله تعالى :«إن يكن غنيّاً أو فقيراً فالله أولى بهما» إرجاع ضمير التثنية الى الغنيّ والفقير مع وجود (أو) الترديدية ، لكون المراد بالغنيّ والفقير هو المفروض المجهول الذي يتكرر بحسب وقوع الوقائع وتكررها، فيكون غنيّاً في واقعة وفقيراً في اخرى ، فالترديد بحسب فرض البيان ومافي الخارج تعدد ، كذا ذكره بعضهم .

فالمعنى : أنّ الله أولى بالغنيّ في غناه وبالفقير في فقره .

والمراد ـ والله أعلم ـ : لايحملنكم غنى الغنيّ أن تميلوا عن الحقّ اليه ولافقر الفقير أن تراعوا حاله بالعدول عن الحق ، بل أقيموا الشهادة لله سبحانه ثم خلّوا بينه وبين الغنيّ والفقير ، فهو أولى بهما وأرحم بحالهما .

ومن رحمته أن جعل الحقّ هو المتبع واجب الاتباع ، والقسط هو المندوب

---

(١) الطلاق : ٢ .

الى إقامته وفي قيام القسط وظهور الحق سعادة النوع التي يقوم بها صلب الغني ويصلح بها حال الفقير .

والواحد منهما وإن انتفع بشهادة محرفة أو متروكة في شخص واقعة أو وقائع لكن ذلك لايلبث دون أن يضعف الحق ويميت العدل وفي ذلك قوةالباطل وحياة الجور والظلم وفي ذلك الداء العضال وهلاك الانسانية .

قوله تعالى : «ولاتتّبعوا الهوى أن تعدلوا» أي مخافة أن تعدلوا عن الحق والقسط باتباع الهوى وترك الشهادةلله.فقوله: « أنتعدلوا » مفعول لأجله، ويمكن أن يكون مجروراً بتقدير اللام متعلّقاً بالاتباع ، أي لأن تعدلوا .

قوله تعالى : « وإن تلووا أوتعرضوا فإنّ الله كان بماتعملون خبيراً » اللّي بالشهادة : كناية عن تحريفها من ليّ اللسان . والاعراض : ترك الشهادة من رأس وقرىء « وإن تلوا » بضم اللام وإسكان الواو من ولي يلي ولاية . والمعنى : وإن وليتم أمر الشهادة وآتيتم بها أو أعرضتم فإنّ الله خبير بأعمالكم يجازيكم بها[1] انتهى .

ماقاله الطنطاوي :

قال في جواهره في تفسير قوله تعالى: « ياأيّها الذين آمنوا كونواقوّامين بالقسط » مواظبين على العدل مجتهدين في إقامته .

« شهداء لله » بالحق تقيمون شهادتكم لوجه الله ولوكانت الشهادة « على أنفسكم أو الوالدين والأقربين» فإنّ المدارعلى المصلحة العامة وحفظ النظاموبقاء الدولة، فليس المقام مقام أفراد يعيشون على مال غيرهم ، ولكن المجموع مرتبط بعضه ببعضه، وهو كجسم واحد لواختلّ نظام أحد الأعضاء اختلّ المجموع فمرض فمات .

---

(١) الميزان : ج٥ ص١٠٨ ـ ١٠٩ .

هكذا أنتم يامعاشر المسلمين إن لم تقيموا الشهادة لله وتراعوا المصالح العامة لاتبقى اممكم إلا قليلاً ، فإذا كانت الشهادة صادقة وتحملتم المكروه عليكم وعلى أقاربكم وكان ذلك خلقاً في الامّة عاشت الامّة عيشة راضية فلايعتريها الفناء إلا اذا اعتراها هذا الداء ، وإلا أذهبتكم وأتيت بقوم آخرين ، فإيّاكم أن تقولوا أنّ هذا الغني بماله يؤذيني اذا شهدت عليه، وأنّ هذا الفقير اذا شهدت عليه اعتراه الأذى فيجتمع عليه الأمران الفقر الطبيعي والحكم المدني .

فالنظام العام يقضي بهدم تلك النظريات ونبذ تلك النزعات « إن يكن » المشهود عليه « غنيّاً أو فقيراً » فلاتمتنعوا عن إقامة الشهادة عليه ولاتجوروا فيها ولاتميلوا ميلاً « فالله أولى بهما » بالغني والفقير .

فالمصالح العامة هي التي بها بقاء الامم « فلاتتّبعوا الهوى أن تعدلوا » أي بأن تعدلوا عن الحق « وإن تلووا » ألسنتكم عن شهادة الحق « أو تعرضوا » عن أدائها « فإنّ الله كان بما تعملون خبيراً » فيجازيكم بعذاب الآخرة وعذاب الدنيا الخاص في أنفسكم .

ثم يقول: يأمرنا إننا اذا قتلنا أو سرقنا أو زنينا ووقفنا تحت آلات القتل نقرّ . واذا رأيت أبي واقفاً وآلة الشنق منصوبة له أقول: إنّ أبي قاتل ولا أخجل ولا أخاف ، كل ذلك يأمرني به الله يأمرنا الله بمالم يشهد أحد عمله إلاّ نادراً جداً ، وليس في النوع الانساني من يبادر الى ذلك إلا في النادر . ولكن الله سبحانه إنما يريد أن يعيش الناس بسلام ووئام ويكونوا إخواناً لتحلو الحياة ويكون الصفاء.

فهل لك أن تسمع من العلم الحديث والكشف الغريب مايجعل هذا الاقرار أمراً متداولاً ؟ هل لك أن تقرأ مارسمته الدول المعاصرة لنا وما كشفوه في هذا المقام حتى تحكم أنهم اذا ساروا على هذا المنوال سنين أصبح مايقوله الله الآن أمراً معتاداً ويقرّ الانسان على نفسه وعلى امّه وعلى أبيه وعلى قريبه وعلى ملكه وعلى اللص الذي سرق معه ، بل يصبح الناس لاسرقة عندهم ولاقتل إلا نادراً ،

ويزول الكذب في الشهادات وتصدق الأحكام ، فلأذكر لك ثلاث مسائل :

(المسألة الاولى) الاقرار بمصل الصدق ، وأصل هذا المصل أن طبيباً يسمى الدكتور «هاوس» من المختصين بالتوليد، وعادة الأطباء أنهم اذا رأوا امرأة تعسر وضعها حقنوها بهذا المصل المسمى « اسكوبلامين » فلاحظ أثناء الحقن والمرأة تضع وهي لاتحس بألم أنها تفشي أسرارها ماكانت تنطق بها عادة، بل تلك الأسرار من أكبر الفضائح والعار ، فتوجه الى رجال الحكومة ، وأحضروا من السجون نحو خمسمائة مسجوناً وحقنوهم بالمصل كما تحقن الوالدات واستنطقوهم فكانوا يجيبون إجابات صريحة ويخبرون بالحقائق كما هي ، ولم يجدوا في جميع من سألوهم كلمة واحدة تخالف الصواب ، ولما أفاق اولئك الرجال دهشوا لما علموا أنهم أجابوا بالحقائق التي أنكروها قبلاً .

وقد قال العلماء في ذلك: إن استعماله سيفضي الى إخلاء السجون من الأبرياء ولقد وضعوا الرجال المتهمين على موائد كما توضع المرضى وحقنوهم ، ثم سألوهم في معارض حضرها رجال القضاء والطب فأسفرت من النتائج عينها . ويقولون إنه في بلاد الانكليز التي كشف فيها هذا المصل يقدم عشرة من المتهمين الى المحاكمة فلايحكم إلا على واحد لثبوت التهمة ويبرأ الباقي ، ومتى حقنوا بهذا المصل ظهر المحق من المبطل ، وأيضاً يقبض على الثلث من المقبوض عليهم خطأ ويبرأون فيما بعد ، فهذا المصل ينفي التهمة ويخرجهم ، وليس هذا نافعاً لانكلترا وحدها بل للعالم قاطبة متى انتشر في الكرة الأرضية .

(المسألة الثانية) إن الجناة يعرفون في العالم الانساني الآن بآثار الابهام ، وذلك أن بلادنا المصرية جعلت إدارة خاصة لآثار الأصابع وجعلتها أصنافاً وأنواعاً بحيث إن الانسان ليس يكون أثر إبهامه له مشابه آخر في المشرق وفي المغرب ولذلك تراهم يأتون بالمذنبين ويأمرونهم بوضع أصابعهم على الورقة وهي ملوثة بالحبر ، فهذا الأثر يدل على صاحبه ، لايشاركه فيه سواه .

وهكذا الأقدام فإن عرب البادية في بلادنا يعرفون الناس بآثارهم كالقدماء من العرب الذين كانوا يقصون الأثر، فكل امرىء له قدم بصفات خاصة لايشاركه سواه.

(المسألة الثالثة) لقد ظهر في أمريكا وفي اوربا علم يقال له (السيكومتري) أعني علم قياس الأثر، وقد استعملت هذه اللفظة سنة ١٨٤٢م ، وهي مشتقة من لفظة يونانية (سيكي) أي النفس و (مترون) أي قياس ، ومعناها اللفظي قياس النفس.

وقالوا في هذا العلم : إنه لايقع ظل على حائط من دون أن يترك أثراً فيه يمكن إظهاره بالوسائل الصناعية ، وكل غرفة تظن أنها محجوبة عن العيون فيها آثار كل ماحصل فيها ولو من مئات السنين، بل كل حجر وشجر ومدر توجد عليه رسوم ماحصل عنده من خير أو شر ، فكل حركة وكل فكرة تصدر من الناس ترسم على ماحوله، فكان هناك صور لطيفة لاعدد لها ثابتة على جميع الأشياء لاتزول بمرور القرون والدهور.

قال الدكتور « جون وليم » مؤلف كتاب « سر تقدم اوربا » مايأتي ـ بعد أن أفاد معنى ماتقدم ـ: ويمكنني أن اصرح بأن صدى العبارات التي قالها الواحد منا يمكن أن يسمع بعد مرور الأعوام على موته ويبقى من بعده عظة لأولاده.

ثم إن هذه الصور والآثار التي أشار إليها « دربير » قد تظهر بهيأة أفكار تطرأ على الأذهان ، فكل فكر من أفكارنا أو حركة من حركاتنا وعمل من أعمالنا يترك حتماً أثراً لاتمحوه الأيام.

ثم قال : وأنا اصرح بأن البارع في هذا العلم يمكنه اذا سئل أن يصف عيشة أي إنسان بمجرد مايرى أثراً من آثاره أو يسمع بعضاً من أقواله أو يتأمل في مكان يقيم فيه أو يتردد فقط عليه.

وقد كان الاستاذ «دانتون» زوجته وأولاده واخته جميعهن بارعات في قياس الأثر ، فمتى أعطاهن شعراً من شعر إنسان أو أي شيء من آثاره قصوا أثره ،

وقد أثبتوا أنّ كل عشرة من الرجال وفي كل ستّ من النساء واحداً يقدر أن يتعلّم هذا العلم بسهولة .

ثم العالم « دانتون » وثق بهذا العلم بعد أن جربه، مثلاً أعطى قطعة من حجر من الأحجار الساقطة من الجو الى حماته فقالت: إني أرى أشياء تشبه النجوم والندى ويخيّل لي أني صاعدة الى فوق . ثم أعطاها لزوجته في مكان آخر وهي لا تعلم فقالت مثل ما تقدم ، ثم وضعه في صندوق مع أحجار كثير وأمر زوجته أن تلتقط كل حجر وتصفه وصارت تصف كل حجر ومدر وتقول : هذا من بلدة كذا أو حصل عنده كذا و كذا وهذا من المكسيك وهذا من روما وهكذا ، ومنها حجر من جبل الزيتون فوصفت اورشليم وصفاً جيداً، ولما وصلت الى الحجر الذي سقط من الجو وصفته كما وصفته أولاً . انتهى[1] .

انظر الى هذه المسائل الثلاث بعقلك وتفكّر فيها ، ألست ترى أنّ المسألة الاولى هي التي تحقق إقرار الانسان على نفسه وعلى أبويه وتكون الامم أقرب الى السعادة منها الآن ؟ واذا كان هذا الكشف الحديث يعمّ العالم ويظهر صدقه أفليس ذلك يكون مما يجب علينا الأخذ به متى تحققنا أنّ ما يقوله الفرنجة حتى لا خطأ فيه ؟ فلسنا نحن نأخذ بقولهم بل نجرب تجاربهم ونعمل بها بعد التحقيق واذا كان النوع الانساني ليس عنده من الصدق والأمانة ما يحمله على الاقرار على النفس والأهل أفلا يكون أمثال هذا المصل (اذا صحّ ما يقال) من أوجب الواجبات على امّة الاسلام .

وقال في اعتراضه على مؤلف هذا التفسير : ولما وصلت الى هذا المقام حضر أحد العلماء واطلع على ما كتبت فأظهر أشدّ الاستياء وقال : ياسبحان الله كيف تجيز أن نأخذ بقول من حقنوا بهذا المصل؟ و كيف نأخذ بأقوال من فقدوا الارادة؟ إنّ هذا القول هراء ، عجباً لك كيف تقول ذلك والله عزّ وجلّ يطلب أن نقرّ

(١) يعني انتهى ماقاله « جون وليم » في كتابه : سر تقدم اوربا .

على أنفسنا وأهلنا بمحض إرادتنا، وأما أنت فإنك تقول يكفي أن يسلبوا عقولهم كالمجانين ثم يفرون ، وهذا لايفرك عليه العقلاء ولاالجهلاء وهو أشبه بالخرافات وأقرب الى الضلالات .

فقلت له: حيّاك الله وبيّاك، فهل اذا أقمت لك دليلاً على ماأقول من كتاب الله تعمل به ؟ فقال : بشرط أن يكون مقنعاً ، فقلت له : ألست ترى أنّ الله أحكم الحاكمين ؟ قال: بلى. قلت له : ألست ترى أنه مطلع على ضمائرنا ؟ قال: بلى. قلت له : ألست ترى أنه مطلع على ضمائرنا؟ قال : بلى. قلت : لقد قبل هو الشهادة من الأيدي والأرجل وحكم بها ، فمن باب أولى الذين هم ليسوا بأحكم الحاكمين وهم قضاة البشر، ألم تر قوله تعالى: « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون»[1]. وقوله أيضاً :«حتى اذا ماجاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرةٍ وإليه ترجعون*وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولاأبصاركم ولاجلودكم ولكن ظننتم أنّ الله لايعلم كثير ممّا تعملون »[2] . وفي آية اخرى : « اليوم نختم على أفواههم وتكلّمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون »[3].

فاذا كان الله قبل هذه الشهادة من الجلود والجوارح بالرغم من أصحابها وهم يعاتبون أعضاءهم على ذلك صريحاً لاتقبل من يحقن بالمصل ويشهد بالحق ويكون حكم القضاة حقاً لازلل فيه ، بخلاف الأحكام الحاضرة فإنها ظنّية لأنّ الشهادات لاتثبت الحقيقة ، أوليس الاستدلال بآثار الأقدام وآثار أصابع الأيدي

---

(١) النور : ٢٤.

(٢) الصافات : ٢٠ ـ ٢٢ .

(٣) يس : ٦٥ .

في أيامنا الحاضرة هو نفس الذي صرح به القرآن؟ واذا كان الله يعلم مافي البواطن بل هو القائل للانسان: «كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً»[1] والقائل: «بل الانسان على نفسه بصيرة»[2] أفلا يكون ذكر الأيدي والأرجل والخلود وشهادتها يوم القيامة ليلفت عقولنا أنّ من الدلائل ماليس بالبيّنات المشهورة عند المسلمين! وأنّ هناك ماهو أفضل منها وهي التي يحكم بها الله! فاحكموا بها، ويكون ذلك القول لينبهنا ويفهمنا أنّ الأيدي فيها أسرار وفي الأرجل أسرار وفي النفوس أسرار! فالأيدي لاتشتبه، والأرجل لاتشتبه، فاحكموا على الجانين والسارقين بآثارهم، والألسن تنطق بالحقّ متى أنمت البصيرة إنامة بهذا المصل أو بغيره.

أوليس في الحقّ أن أقول إنّ هذا من معجزات القرآن وغرائبه؟ وإلا فلماذا هذه المسائل التي ظهرت في هذا العصر تظهر في القرآن بنصها وفصها والمسلمون كانوا غافلين عنها كما غفلوا عن منع الخمر والربا، وقامت الامم الغربية بهذا خير قيام؟

أوليس قوله: «قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء»[3] يشير الى ما كشفه علماء اوربا وأميركا في علم «السيكومتري» المتقدم؟ وأنّ كل فكر من أفكارنا وقول وعمل يرسم بصورة غير محسوسة على الحيطان والأبواب والأحجار ويقرأه قوم بعد آلاف السنين، ويفهمون حوادثنا التي فعلناها؟

أليس هذا من معاني النطق التي جعلها الله في كل شيء؟ أوليس ذلك يفسر لنا كثيراً من أسرار ديننا مثل أنّ المؤذن يشهد له ماحوله الى غاية ماوصل إليه صوته؟

ولقد علمنا أنّ استاذاً في المدرسة الأمريكية معه آلة لها مفتاح فاذاتكلم

---

(١) الاسراء: ١٤.

(٢) القيامة: ١٤.

(٣) فصلت: ٢١.

فتحها وبعد انتهاء المجلس أو الخطبة يستمع لتلك الآلة فتلقي له القول كماقال، فاذا وجد خطأً في الحديث أرسله لأصحابه مايكمله ، وهذا موجود في زماننا الحاضر ، بل المدرسة قريبة من بيتي الذي أسكنه ، بينهما نحو كيلومترين ، وهذه الآلة استحضرها من أمريكا وهو أمريكي الجنس[1] .

وأقول: لعلّ هذا العلم هو الذي ورد في حديث الترمذي عن أبي سعيد الخدري وإن لم يرد في الصحيحين، قال : قال رسول الله ﷺ : لاتقوم الساعة حتى تكلم السباع الانس ، وحتى تكلم الرجل عذبة سوطه وشراك نعله وتخبره فخذه بما أحدث أهله بعده . ومعنى عذبة سوطه المعلق في طرفه .

ومعلوم أنّ الآلة تسترق السمع المذكور يمكن أن تسمع كل شيء حولها في المكان حتى الهمس الذي يهمس ثم يكبر الصوت كما يكبر المبصر سواء بسواء .

فعلى المسلمين أن يفتحوا أعينهم فليس لهم أن يقيموا على الجهالة البتراء وليعلموا أنّ دين الاسلام فيه أبواب واسعة ماطرقوها وعرفها الغربيون والطرفان يجهلان أنّ تلك الأبواب في القرآن[2]. انتهى كلام الطنطاوي .

ولكن لايخفى على أهل الفقه أنّ هذا الذي ذكره لايتفق مع القواعد الشرعية ، لأنّ الاقرار المعتبر الذي يترتب عليه الأثر إنما هو ماكان عن إرادة واختيار والتفات الى مايقوله ويعترف به ، أما الذي يتكلم عن غير قصد وإرادة فلايمكن أن يؤخذ بكلامه .

وأما الذي ذكر من نطق الأيدي والأرجل والجلود فهو قياس مع الفارق، ولايعقل أن نقيس هذا على ذلك ، فإنّ الله الذي يأمر الجوارح بالنطق عالم بحقائق الأشياء ، وإنما يأمر الجوارح بالنطق لاتمام الحجة على العبد ، حيث إنه أنكر الفعل الذي ارتكبه بجوارحه ، فالله يأمر نفس العضو الذي فعل الجريمة أن

---

(١) الكلام يشير به الى المسجل فقط وليس فيه غيره . (من المؤلف رحمه الله) .

(٢) تفسير الجواهر : ج٣ ص٩٣ ـ ٩٥ .

يعترف ويشهد على صاحبه ، وهذا إنما يكون في عالم الآخرة .

أما في الدنيـا فإنّ الله يريد منا أن نكون مطيعين لأمـره حيث أمرنا أن نقوم بالقسط ونشهد لله بالصدق ، فإنّ الذي يقوم بالقسط هو الحاكم والقاضي بين المتخاصمين ، والذي يـأخذ إفادات المترافعين هو كاتب الشرطة ، فيكون بمنزلة الشاهد عليهم ، وقـد أمره الله أن تكون شهادته لله ، أي شهادة حقّ وصدق ، أما ذلك الكاتب الذي يغيـّر ويحرف ويزيد وينقص فهل نحققه بهذا المصل الذي ذكره الكاتب ؟

وأما بالنسبة للمجرم الذي يتعدى على الناس بسرقة أو ضرب أو قتل فهذا قد أمرنا الله أن نقيم عليه الشهود ونرتب الجزاء على مايثبت عند الحاكم الـذي يقـوم بالقسط كما كان يفعل رسول الله ﷺ ولم يكن يطلب من الله أن يعلمه بالمحقّ والمبطل ، ولو أراد الله ذلك لأنزل عليه الوحي في كل قضية كما أنزله في قضية بني إبيرق التي من توابعها هذه الآية .

ويروى أنّ داود ﷺ طلب من الله أن يطلعه على حقيقة الأمر في الدعاوي فأجابه الله الى ذلك في قضية واحدة ، وقد وقع منها في ورطة ، ودعا الله أن يخلصه منها ويرجعه الى ماكان عليه أولاً في حسم الدعوى من البينات واليمين .

وعلى كل حال فإنّ ماقاله الاستاذ لايتفق مع قانون الشرع ، وإنما ذكرت أقواله ليعلم الحاكم والشاهـد مقدار اهتمامه غيره من العلماء في حمل الحاكم على القيام بالقسط والشهادة لله بأن تكون صادقة غير محرفة . فلو أنّ الحاكم والشاهد أطاعا الله وصدقا في الحكم والشهادة لاستقامت أكثر الامور ولقلّ الفساد بين الناس .

وإني أرجو ممن له الأمر أن يأمر بطبع هذا الذي كتبته في تفسير الآية ، وماقاله العلماء فيها في كراسة خاصة وتوزيعها على دوائر القضاة ومراكز الشرطة وإلزامهم بقراءتها والعمل بمافيها إن رأى هذا الأمر صالحاً ، ونسأل الله أن يهدينا

لما يرضيه .

تتمة

لما نادى الله المؤمنين في هذه الآية ثم أمرهم بعد ندائهم بهذين الأمرين ـ أن يكونوا قوّامين بالقسط وأن يكونوا شهداء لله ـ دلّ هذا الأمر على وجوب اتصافهم بهذين الوصفين وجوباً مطلقاً دائماً غير مشروط ولا مقيد بزمان أو مكان فيكون الايمان مشروطاً بحصول هذين الشرطين .

أما اذا كان الشخص غير متصف بهما فلا يتحقق إيمانه وإن سمى نفسه مؤمناً أوسماه الناس مؤمناً، ويمكن أن تكون الآية التي بعد هذه الآية إشارة الى ذلك أي أنّ الله يأمر المؤمنين المجردين عن هذين الوصفين بأن يتصفوا بهما وبسائر شروط الايمان فقال تعالى :

يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى انزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر فقد ضل ضلالا بعيداً (١٣٦) .

إنّ المفسرين لهم أقوال في تفسير هذه الآية، وإنّ أقرب الأقوال وأظهرها هو : أنّ الخطاب للمؤمنين الذين هم آمنوا باللسان وفي الظاهر أو حسبوا أنّ الايمان هو الاعتراف بالشهادتين فقط من دون تعمق في معنى الشهادتين[١].

وإنّ العارف بحقيقة معنى الشهادتين يلزمه الاعتراف بما ذكر في الأمر الثاني وهو قوله : « **آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى انزل من قبل** » .

أما الذين لم يعرفوا الحقيقة في أداء الشهادة ولم يتصفوا بصفات المؤمنين

---

(١) مجمع البيان : ج٣ ص١٢٥ نقلا بالمعنى .

كالقيام بالقسط وأداء الشهادة وغيرهما من الصفات التي مرّ ذكرها والتي تأتي بعد ذلك فإنّ من لم يتصف بصفات المؤمنين التي جعلها الله شرطاً للايمان فهو عند الله غير مؤمن وإن عده الناس مؤمناً، ولكن هذه التسمية لا تنفعه، يوم لا ينفع اسم ولا لقب وإنما ينفعه أن يتصف بما جعله الله شرطاً للايمان ، فإنّ الله يأمرهم ويقول لهم يا أيها الذين آمنوا بظاهر الشهادتين آمنوا بالله ورسوله فيهما بالمعنى الحقيقي ويلزمكم في تحقيق الايمان أن تؤمنوا بالكتاب الذي نزل على رسوله وهو القرآن ومعنى الايمان به أن تحلّوا حلاله وتحرموا حرامه ، فإنّ من جملة أحكامه أن تكونوا قوّامين بالقسط شهداء لله، فإنّ هذين الأمرين يتوقف عليهما صحة القضاء وإيصال الحقوق الى أهلها وقمع المفسدين الذين يريدون غصب حقوق الناس وعذرهم بواسطة الشهود لغير الله بل للطمع والمادة ، ويلزمكم أيضاً أن تؤمنوا بكل كتاب أنزله الله قبل كتابكم كالتوراة والانجيل وغيرهما مما أخبرنا به النبي ﷺ ، فإذا لم يتحقق الايمان بهذه الامور من المؤمن باللسان فقط وكان إيمانه بالظاهر دون القلب فهو عند الله كافر كما قال تعالى : **«ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر فقد ضل ضلالا بعيداً »** .

وإن قال بلسانه أنا مؤمن وأقرّ بالشهادتين فإنها لا تنفعه ما لم يعقد القلب عليها.

ماقاله الفخر الرازي :

ويؤكد هذا المعنى ما قاله الفخر الرازي ، حيث قال بعد ذكر الآية : وفيه مسائل :

(المسألة الاولى) : في اتصال هذه الآية بما قبلها وجهان :

الأول : أنها متصلة بقوله « كونوا قوّامين بالقسط » وذلك لأنّ الانسان لا يكون قائماً بالقسط إلا اذا كان راسخ القدم في الايمان بالاشياء المذكورة في هذه الآية .

وثانيهما: أنه تعالى لما بيّن الأحكام الكثيرة في هذه السورة ذكر عقيبها آية الأمر بالايمان[1] انتهى .

ماقاله سيد قطب :

قال في تفسيرهذه الآية : ومن الأمر بالقسط والتجرد لله والخلاص من الهوى والتهديد الخفي بما وراء اللي والاعراض، من هذا الأمر الى الأمر بالايمان بالله ورسوله والكتاب الذي انزل من قبل . وتهديد الذين يكفرون بشيء من هذا بسوء العاقبة والضلال البعيد .

ثم قال : إنّ هناك ارتباطاً خفياً بين التمحض لله والتجرد في الآية السابقة وبين الأمر بالايمان هنا وتهديد من يحيد عن هذا الايمان .

إنّ قضية العدل مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بقضية الايمان ، فمن لم يقم بالقسط ومن لم يشهد لله فهو في سبيله الى الصفة الاخرى ، صفة الكفر بالله والتنكر لما أنزل الله « ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً » . لاترجى منه أوبة ولاتنتظر بعده هداية، لأنه بعيد موغل في التيه والظلام على أنّ الكفر الذي يسبق الايمان يغتفر، فالذي يشهد النور معذور اذا هو أدلج في الظلام ، فأما الكفر بعد الايمان فهو الكبيرة التي لاغفران لها ولامعذرة فيها.

إنّ الكفر حجاب ، فمتى سقط فقد اتصلت الفطرة بالخالق واتصل الشارد بالركب واتصلت النبتة بالينبوع، فالذين يرتدون بعد الايمان إنما يفترون على الفطرة ويلجون عمداً في الغواية ويذهبون مختارين الى التيه والضلال، فلاغفران بعد ذلك ولاهداية ، وهم قادوا أنفسهم متطوعين الى هناك ، وبخاصة حين يتكرر منهم الكفر بعد الايمان[2].

---

(١) تفسير الرازي : ج١١ ص٧٥ .

(٢) في ظلال القرآن : ج٢ ص٧٧٨ .

ماقاله ابن كثير :

قال بعد ذكر الآية :

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالدخول في جميع شرائع الايمان وشعبه وأركانه ودعائمه، وليس هذا من باب تحصيل الحاصل بل من باب تكميل الكامل وتقريره وتثبيته والاستمرار عليه كما يقول المؤمن كل صلاة : « إهدنا الصراط المستقيم» أي بصّرنا فيه وزدنا هدىً وتثبيتاً عليه ، فأمرهم بالايمان به وبرسوله كما قال تعالى : « ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله »[١].

وقوله : « والكتاب الذي نزّل على رسوله » يعني القرآن : « والكتاب الذي انزل من قبل » وهذا جنس يشمل جميع الكتب المتقدمة، وقال في القرآن: نزل لأنه نزل مفرقاً منجماً على الوقائع بحسب مايحتاج إليه العباد في معاشهم ومعادهم. وأما الكتب المتقدمة فكانت تنزل جملة واحدة لهذا قال تعالى:«والكتاب الذي انزل من قبل » .

ثم قال تعالى : « ومن يكفر بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً » أي: فقد خرج من طريق الهدى وبعُد عن القصد كل البعد[٢].

ماقاله المراغي :

قال بعد ذكر الآية : هذا خطاب لمؤمني اليهود ، فقد روي عن ابن عباس أنّ هذه الآية نزلت في: عبدالله بن سلام، واسيد وأسد ابني كعب، وثعلبة بن قيس، وسلام ابن اخت عبدالله بن سلام ، ويامين بن يامين إذ أتوا رسول الله ﷺ وقالوا: نؤمن بك وبكتابك وبموسى وبالتوراة وعزير ونكفر بما سوى ذلك من الكتب والرسل ، فقال رسول الله ﷺ : بل آمنوا بالله ورسوله محمد وكتابه القرآن

---

(١) الحديد : ٢٨ .

(٢) تفسير ابن كثير : ج٢ ص٤١٤ .

وبكل كتاب كان قبله، فقالوا: لانفعل، فنزلت الآية، قال: فآمنوا كلّهم.

وقيل: إنّ الخطاب فيها للمؤمنين كافة.

والمعنى: ازدادوا في الايمان طمأنينةً ويقيناً وآمنوا برسوله خاتم النبيين وبالقرآن الذي نزل عليه وبالكتب التي نزلها على رسوله من قبل فإنه لم يترك عباده في زمنٍ ما محرومين من البينات والهدى.

وبعد أن أمر بالايمان بما ذكر توعد من كفر بذلك فقال: «ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً». وهي أساس الدين وأركانه فقد ضلّ عن صراط الحق الذي ينجي صاحبه في الآخرة من العذاب الأليم ويمتعه بالنعيم المقيم.

ومن فرّق بين كتب الله ورسله فآمن ببعض وكفر ببعض كاليهود والنصارى فلايعتقد بإيمانه، لأنه إمّا يتبع الهوى أو يقلّد من جهل وعمى. ذاك أنّ سرّ الرسالة هي الهداية ولم يكن بعض النبيين فيها بأكمل من بعض، فاذا كفر ببعض الكتب والرسل كان كفره بهـا دليلاً على أنه لم يؤمن بشيء منها إيماناً صحيحاً مبنياً على فهم حقيقتها والبصير بحكمتها، وكل ذلك من الضلال البعيد عن طرق الهداية[1].

ماقاله العلامة الطباطبائي:

قال بعد ذكر الآية: أمر المؤمنين بالايمان ثانياً بقرينة التفصيل في متعلق الايمان الثاني أعني قوله: «بالله ورسوله والكتاب... الخ» وأيضاً بقرينة الابعاد والتهديد على ترك الايمان بكل واحد من هذه التفاصيل إنما هو أمر ببسط المؤمنين إجمال إيمانهم على تفاصيل هذه الحقائق فإنها معارف مرتبطة بعضها ببعض مستلزمة بعضها لبعض، فالله سبحانه لاإله إلا هو له الأسماء الحسنى والصفات العليا، وهي

(١) تفسير المراغي: ج٥ ص١٨٠ — ١٨١.

الموجبة لأن يخلق خلقاً ويهديهم الى مايرشدهم ويسعدهم ثم يبعثهم ليوم الجزاء ولايتم ذلك إلا بإرسال رسل مبشرين ومنذرين ، وإنزال كتب تحكم بينهم فيما اختلفوا فيه ، وتبيّن لهم معارف المبدأ والمعاد واصول الشرائع والأحكام .

فالايمان بواحد من حقائق هذه المعارف لايتم إلّا مع الايمان بجميعها من غير استثناء ، والردّ لبعضها مع الأخذ ببعض آخر كفر لو أظهر ونفاق لو كتم وأخفي .

ومن النفاق أن يتخذ المؤمن مسيراً ينتهي به الى ردّ بعض ذلك، كأن يفارق مجتمع المؤمنين ويتقرب الى مجتمع الكفار ويواليهم ويصدقهم في بعض مايرمون به الايمان وأهله ، أو يعترضون أو يستهزئون به الحقّ وخاصيته ، ولذلك عقّب تعالى هذه الآية بالتعرض لحال المنافقين ووعيدهم بالعذاب الأليم .

وماذكرناه من المعنى هو الذي يقضي به ظاهر الآية ، وهو أوجه مما ذكره بعض المفسرين أنّ المراد بقوله: « يا أيها الّذين آمنوا آمِنوا » . ياأيها الذين آمنوا في الظاهر ـ بالاقرار بالله ورسوله ـ آمِنوا في الباطن ليوافق ظاهركم باطنكم ، وكذا ماذكره بعضهم أنّ معنى « آمِنوا » اثبتوا على إيمانكم، وكذا ماذكره آخرون أنّ الخطاب لمؤمني أهل الكتاب أي : يا أيها الّذين آمنوا من أهل الكتاب آمِنوا بالله ورسوله الّذي نزّل على رسوله وهو القرآن .

وهذه المعاني وإن كانت في نفسها صحيحة ولكن القرائن الكلامية ناهضة على خلافها وأردأ الوجوه آخرها .

قوله تعالى: « ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً » .

لما كان الشطر الأول من الآية أعني قوله : « ياأيها الّذين آمنوا آمِنوا » الى قوله : « من قبل » دعوة الى الجمع بين جميع ماذكر فيه ، بدعوى أنّ أجزاء هذا المجموع مرتبطة غير مفارق بعضها بعضاً كان هذا التفصيل ثانياً في معنى

الترديد .

والمعنى: ومن يكفر بالله أو ملائكته أو كتبه أو رسله أو اليوم الآخر أي: من يكفر بشيء من أجزاء الايمان فقد ضلّ ضلالاً بعيداً .

وليس المراد بالعطف بالواو الجمع في الحكم ليتمّ الجميع موضوعاً واحداً ليتمّ الجميع موضوعاً واحداً له حكم واحد ، بمعنى أنّ الكفر بالمجموع من حيث إنه مجموع ضلال بعيد دون الكفر بالبعض دون البعض ، على أنّ الآيات القرآنية ناطقة بكفر من كفر بكل واحد مما ذكر في الآية على وجه التفصيل[1] انتهى .

فقد تحصّل مما ذكرنا : أنّ المقصود من الآية هو أنّ الله يأمر المؤمنين الذين اعترفوا بالشهادتين أن يؤمنوا أيضاً ـ إضافة الى تلك الشهادة ـ :

١ ـ بالله إيماناً مشتملاً على معرفة صفات الله الثبوتية والسلبية ولايجهلوا شيئاً منها .

٢ـ برسوله بأن يصدقوه فيما أخبرهم به من الواجبات والمحرمات ، وأن يطيعوا أوامره ويتمسكوا بما أمرهم بالتمسك به من بعده حتى لايميلوا عن الطريق ولايضلّوا ، وهذا هو الايمان الحقيقي وإلا فهم غير مؤمنين .

٣ ـ بالكتاب الذي نزل على رسوله ، بأن يحلّوا حلاله ويحرموا حرامه ولايحرفوه ولايبدلوا شيئاً من أحكامه ، فإنّ الايمان بالكتاب معناه العمل به ، وإلا فإنّ الاعتراف بنزوله من غير عمل به لايعدّ إيماناً به .

٤ ـ بكل كتاب أنزله الله على أحد من الأنبياء الذين ارسلوا قبل نبينا ، وهي الكتب التي ذكرت في كتابنا أو ذكرها النبي ﷺ. ويدخل في ضمن الايمان بالكتاب :

١ ـ الايمان بالملائكة ، حيث إنّ الكتاب ذكر ذلك .

(١) الميزان : ج٥ ص١١١ ـ ١١٣ .

٢ـ الايمان باليوم الآخر، فقد ذكر ذلك الكتاب مكرراً في موارد كثيرة.

ونحن اذا أمعنا النظر ودققنا في الأمر رأينا أنّ هذه الامور الأربعة وما يتبعها من الأمرين الآخرين كلّها داخلة ضمن الايمان بالله أو الايمان بكتابه، ولكن الانسان العادي غير المعصوم لايلتفت إليها إمّا لعدم المعرفة أو لأنه يريد قلّة التكليف وخفته، ويعلم هذا من وصف الله تعالى لايمان الرسول ليلة المعراج حيث إنه لم يصفه بأكثر من قوله: «آمن الرسول بما انزل إليه من ربّه»[1] مع أنّ الرسول مؤمن وعالم ومتصف بكل مايلزم الايمان به، ولكن الله لم يزد على هذه الجملة لأنّ جميع الصفات والشروط تدخل في ضمنها.

أما وصف النبي ﷺ للمؤمنين فقد ذكر فيه الامور التي جاءت في هذه الآية كما حكى الله بقوله: «والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله»[2] حيث إنّ إيمانهم متدرج حسب علمهم وتكليفهم، فكل واحد من هذه الامور يؤمرون به، فمن امتثل وأطاع واعتقد واتصف واستقام وداوم على العقيدة والاتصاف كان مؤمناً كما يريد الله والرسول، وأمّا اذا خرج وانسلخ عن أحد هذه الامور إما الايمان بالله أو برسوله أو بكتابه أو بملائكته أو باليوم الآخر فإنه داخل فيما حكم الله عليه في ذيل الآية بقوله: «ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً».

قال الراغب في مفرداته: الضلال: العدول عن الطريق المستقيم، ويضاده الهداية قال تعالى: «فمن اهتدى فإنّما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فإنّما يضلّ عليها»[3] ويقال: الضلال لكل عدول عن المنهج عمداً كان أو سهواً يسيراً كان أو كثيراً[4] انتهى.

---

(١) البقرة: ٢٨٥.
(٢) البقرة: ٢٨٥.
(٣) يونس: ١٠٨.
(٤) المفردات: ص٢٩٧ مادة «ضل».

والمقصود هنا هو الطريق الذي أوضحه الله لعباده بواسطة رسولـه الأكرم الذي نبّه عليه بقوله : « إنّا هديناه السبيل إمّا شاكراً وإمّا كفوراً »[1].

فالرجل الذي يعتقد بنفسه أنه مؤمن ينبغي له أن لايعدل عن الطريق الذي عيّنه الرسول في حياته وأرشد الى التمسك به بعد وفاته، فإذا عدل عنه فقد ضلّ إذن ، والضلال يسبب بُعده عن الله عزّ وجلّ .

وأما الكفر بأحد هذ الامور التي جعلها أركان الايمان ـ أي الايمان بالله وكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر ـ فإنه قد يصدر من العبد وهو لايشعر به أي يظن أنّ الكفر هو أن ينكر وجود الباري أو بعثة النبي أو نزول القرآن ولا يشعر بأنّ إنكار صفات الله الثبوتية أو السلبية هو كفر أيضاً، أو وصف النبي ﷺ بما يخلّ بالنبوة والرسالة هـو كفر بالنبـي أيضاً ، أو تحليل مـاحرمه القرآن وتحريم ماأحلّه كفر أيضاً ، وأنّ الله جعل الكفر بأحد هذه الامور ضلالاً بعيداً ، والضلال البعيد معناه وقوع الانسان في متاهة واسعة لايمكنه الاهتداء الى السبيل إلا بمعونة الله عزّ وجلّ ، مع أنّ الذي أوقعه في هذه المتاهة هو الكفر بالله فكيف يمكنه الخروج منها ، فلامحالة يكون مصيره النار والهلاك الأبدي .

الايمان والكفر

ماقاله القمي :

وقد ذكر القمي في تفسيره وجوهاً للايمان وللكفر أحببت ذكرها هنـا بنصّها ليعرف القارىء أنّ الكفر لاينحصر في إنكار الباري . قال في تفسير سورة البقرة عند قولـه تعالى : « الّذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومّما رزقناهم ينفقون »[2].

---

(١) الانسان : ٣ .

(٢) البقرة : ٣ .

والايمان في كتاب الله على أربعة وجوه :

فمنه إقرار باللسان .

ومنه تصديق بالقلب .

ومنه الأداء .

ومنه التأييد .

فأما الايمان الذي هو اقرار باللسان وقد سماه الله تبارك وتعالى إيماناً ونادى أهله به بقوله :

« ياأيّها الّذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً* وإنّ منكم لمن ليبطّئنّ فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً * ولئن أصابكم فضل من الله ليقولنّ كأن لم تكن بينكم وبينه مودّة ياليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً »[1].

قال الصادق عليه السلام: لو أنّ هذه الكلمة قالها أهل المشرق وأهل المغرب لكانوا بها خارجين عن الايمان، ولكن قد سماهم الله مؤمنين بإقرارهم ثم قال لهم صدقوا.

وأما الايمان الذي هو التصديق بالقلب فقوله :«الّذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة »[2] يعني صدقوا .

وقوله : « وقالوا لن نؤمن لك حتى... »[3] أي : لا نصدّقك .

وقوله : « ياأيّها الّذين آمنوا آمنوا »[4] أي: ياأيّها الذين أقروا صدقوا فالايمان بالحق هو التصديق . وللتصديق شروط لا يتمّ التصديق إلا بها .

وقوله : « ليس البرّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكنّ البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبّه

---

(١) النساء : ٧١ ـ ٧٣ .

(٢) يونس : ٦٤ .

(٣) الاسراء : ٩٠ .

(٤) النساء : ١٣٦ .

ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس اولئك الّذين صدقوا واولئك هم المتّقون »[١].

فمن أقام بهذه الشروط فهو مؤمن مصدق.

وأما الايمان الّذي هو الأداء فهو قوله لما حوّل الله قبلة رسوله الى الكعبة قال أصحاب رسول الله: يارسول الله فصلاتنا الى بيت المقدس بطلت ؟ فأنزل الله تبارك وتعالى: « وماكان ليضيع إيمانكم »[٢] فسمّى الصلاة إيماناً.

والوجه الرابع من الايمان وهو: التأييد الذي جعله الله تبارك وتعالى في قلوب المؤمنين من روع الايمان فقال: « لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولوكانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أوعشيرتهم اولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيّدهم بروح منه »[٣].

والدليل على ذلك قوله عليه السلام: لايزني الزاني وهو مؤمن، ولايسرق السارق وهو مؤمن، يفارقه روح الايمان مادام على بطنها، فإن قام عاد اليه. قيل: وما الذي يفارقه؟ قال: الذي يرعد في قلبه. ثم قال عليه السلام: مامن قلب إلّا له اذنان، على أحدهما ملك مرشد وعلى الآخر شيطان مفتر، هذا يأمره وهذا يزجره.

ومن الايمان ماقد ذكره الله في القرآن خبيث وطيب فقال: « ماكان الله ليذر المؤمنين على ماأنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب »[٤].

فمنهم من يكون مؤمناً مصدقاً ولكنه يلبس إيمانه بظلم وهو قوله: « الّذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم اولئك لهم الأمن وهم مهتدون »[٥]

---

(١) البقرة: ١٧٧.
(٢) البقرة: ١٤٣.
(٣) المجادلة: ٢٢.
(٤) آل عمران: ١٩.
(٥) الانعام: ٨٢.

فمن كان مؤمناً ثم دخل في المعاصي التي نهى الله عنها فقد لبس إيمانه بظلم، فلا ينفعه الايمان حتى يتوب الى الله من الظلم الذي لبس إيمانه حتى يخلص لله تعالى إيمانه.

فهذه وجوه الايمان في كتاب الله.

وقوله: «إنّ الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون»[١] فإنه حدثني أبي عن بكر بن صالح عن أبي عمر الزبيري عن أبي عبدالله عليه السلام قال: الكفر في كتاب الله على خمسة وجوه:

فمنه كفر الجحود وهو على وجهين: جحود بعلم وجحود بغير علم.

فأما الذين جحدوا بغير علم فهم الذين حكى الله عنهم في قوله: «وقالوا ماهي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيى ومايهلكنا إلا الدهر ومالهم بذلك من علم إن هم إلّا يظنون»[٢]. وقوله: «إنّ الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون» فهؤلاء كفروا وجحدوا بغير علم.

وأما الذين كفروا وجحدوا بعلم فهم الذين قال الله تبارك وتعالى: «وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلمّا جاءهم ماعرفوا كفروا به»[٣]. فهؤلاء كفروا وجحدوا بعلم.

قال: وحدثني أبي عن ابن أبي عمير عن حماد عن حريز عن أبي عبدالله عليه السلام قال: نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى، يقول الله تبارك وتعالى: «الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه (يعني رسول الله صلى الله عليه وآله) كما يعرفون أبناءهم»[٤] لأنّ الله عزّ وجلّ قد أنزل عليهم في التوراة والانجيل والزبور صفة محمد صلى الله عليه وآله وصفة

---

(١) البقرة: ٦.
(٢) الجاثية: ٢٤.
(٣) البقرة: ٨٩.
(٤) البقرة: ١٤٦.

أصحابه بنعته ومنهاجه وهو قوله: « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل »[1]. فهذه صفة رسول الله في التوراة والانجيل وصفة أصحابه. فلما بعثه الله عزّ وجلّ عرفه أهل الكتاب كما قال جلّ جلاله: « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ». فكان اليهود يقولون للعرب قبل مخرج النبي صلى الله عليه وآله: أيّها العرب، هذا أوان نبيّ يخرج بمكّة ويكون مهاجره الى المدينة وهو آخر الأنبياء وأفضلهم، في عينه حمرة وبين كتفيه خاتم النبوة، يلبس الشملة ويجتزي بالكسر والتميرات، ويركب الحمار العريّة، وهو الضحوك القتّال، يضع سيفه على عاتقه، لا يبالي بمن لاقاه، يبلغ سلطانه منقطع الخفّ والحافر، ولنقتلنكم به يا معشر العرب قتل عاد. فلما بعث الله نبيه بهذه الصفة حسدوه وكفروا به كما قال الله: « وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلمّا جاءهم ما عرفوا كفروا به ».

ومنه كفر البراءة وهو قوله: « ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض »[2] أي: يتبرأ بعضهم من بعض.

ومنه كفر الترك لما أمر الله تعالى وهو قوله: « ولله على الناس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر . . . »[3] أي: ترك الحج وهو مستطيع فقد كفر.

ومنه كفر النعم وهو قوله: « ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر ... »[4] أي: لم يشكر نعمة الله فقد كفر.

---

(١) الفتح: ٢٩.
(٢) العنكبوت: ٢٥.
(٣) آل عمران: ٩٧.
(٤) النمل: ٤٠.

فهذه وجوه الكفر في كتاب الله[1].

وذكر في البحار عن أمير المؤمنين علي بن أبي‌طالب عليه السلام قال: بني الكفر على أربع دعائم: الفسق، والغلو، والشك، والشبهة.

والفسق على أربع شعب: الجفاء، والعمى، والغفلة، والعتوّ. فمن جفا احتقر الحقّ ومقت الفقهاء وأصرّ على الحنث العظيم.

ومن عمي نسي الذكر واتبع الظن وبارز خالقه وألحّ عليه الشيطان وطلب المغفرة بلاتوبة ولااستكانة.

ومن غفل جنى على نفسه وانقلب على ظهره وحسب غيّه رشداً وغرّته الأماني وأخذته الحسرة والندامة اذا قضي الأمر وانكشف عنه العطاء وبدا له ما لم يكن يحتسب، ومن عتا عن أمر الله شكّ ومن شكّ تعالى الله عليه فأذلّه بسلطانه وصغّره بجلاله كما اغترّ بربه الكريم وفرط في أمره.

والغلو على أربع شعب: على التعمق بالرأي والتنازع فيه والزيغ والشقاق.

فمن تعمق لم ينب الى الحق، ولم يزدد إلا غرقاً في الغمرات، ولم تحتبس عنه فتنة إلا غشيته اخرى، وانخرق دينه فهو يهوي في أمر مريج.

ومن نازع في الرأي وخاصم شهر بالفشل من طول اللجاج.

ومن زاغ قبحت عنده الحسنة وحسنت عنده السيئة.

ومن شاقّ اعورت عليه طرقه، واعترض عليه أمره، وضاق مخرجه اذا لم يتبع سبيل المؤمنين.

والشكّ على أربع شعب: على الريب، والهوى، والتردد، والاستسلام، وهو قول الله عزّ وجلّ: «فبأي آلاء ربّك تتمارى»[2].

وفي رواية اخرى على المرية والهول من الحقّ والاستسلام للجهل وأهله، فمن

---

(١) تفسير القمي: ج١ ص٣٠ ـ ٣٣.

(٢) النجم: ٥٥.

هاله مابين يديه نكص على عقبيه ، ومن امترى في الديـن تردد في الريب وسبقه الأولون من المؤمنين وأدركه الآخرون ووطأته سنابك الشيطان ، ومن استسلم لهلكة الدنيا والآخرة هلك فيما بينهما ، ومن نجا من ذلك فمن فضل اليقين،ولم يخلق الله خلقاً أقلّ من اليقين .

والشبهة على أربع شعب: إعجاب بالزينة ، وتسويل النفس، وتأوّل العوج، ولبس الحقّ بالباطل ، وذلك أنّ الزينة تصدف عن البيّنة ، وأن تسويل النفس تهجم على الشهوة ، وأمّا العوج يميل بصاحبه ميلاً عظيماً ، وأنّ اللبس ظلمات بعضها فوق بعض ، فذلك الكفر ودعائمه وشعبه[1] .

وقد نقل المجلسي القول بأنّ الكفر على أربعة أقسام :

١ ـ كفر إنكار : وهو كفر من لايعرف الله أصلاً ولايعترف به .

٢ ـ كفرجحود : وهو كفرمن يعتقد به بقلبه ولايقرّ به بلسانه، وهو كفر إبليس .

٣ـ كفرعناد : وهو أن يعرف بقلبه ويعترف بلسانه ولكن لايدين به حسداً وبغياً ، وقد مثلوه بكفر أبي جهل وأضرابه .

٤ ـ كفر نفاق : وهو أن يعترف بلسانه وينكره بقلبه[2] انتهى .

وبعد ماعلمنا أقسام الكفر وأنواعه ودعائمه وشعبه وفهمنا معنى الروايات التي ذكرها الأئمة الأطهار عليهم السلام فينبغي للمؤمن الذي يريد المحافظة على إيمانه أو يريد المحافظة على نفسه لتكون مرضيّة لله عند الموت أن لايتجاوز الطريق الذي عيّنه الله له ولايميل يميناً أوشمالاً ، فإنّ الخروج عن الطريق يوجب الضلال والوقوع في التيه، وقد قال الله بأنّ الكفر به أو برسله أو بكتبه أو باليوم الآخر يوجب الضلال البعيد وهو الهلاك الأبدي الذي لايرجى معه نجاة .

---

(١) بحار الانوار : ج٧٢ ص١١٦ ب٩٩ ح١٥ .

(٢) سفينة البحار : ج٢ ص٤٨٤ مادة « كفر » .

فينبغي للانسان العاقل أن يتأمل في قوله تعالى: «ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً» .

وأنّ العامّي أو الامّي الذي لايتمكن من معرفة معنى الآية يرجع الى العالم في فهم معناها ليكون مؤمناً حقاً ، نسأله تعالى التوفيق والهداية لما يحب ويرضى .

قوله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً » (١٤٤) .

لقد تكرر النداء من الله الى المؤمنين في آيات كثيرة، ثم بعد النداء ينهاهم عن موالاة الكافرين ، وفي كل آية يكون النهي ببيان غير البيان الذي في بقية الآيات .

أمّا في هذه الآية فقد ذكر أنّ من يتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين فإنه قد اختار وأراد أن يقدم لله حجة قوية ليس فيها خلل ولانقص ولاوهن ، حجة ناطقة بأنه قد استحقّ العذاب من الله لأنه قد خرج من زمرة المؤمنين ودخل في حزب الكافرين ، فكأنّ الصحيفة التي تكتب فيها موالاته للكافر اذا نشرت له يوم القيامة فهي وحدها كافية في استحقاقه العذاب ، ولايمكن أن يعترض عليها أو يناقش فيها أو يعتذر عنها ، فهي حجة كافية وسلطان قوي ، وأنّ مرتكب هذا العمل لاريب في كفره ، والكافر في النار بلاريب .

فإنّ من يظهر للمؤمنين أنه منهم وأنه مؤمن بالله ومصدق برسوله وهو بالباطن والسرّ يوالي الكافرين ويأتمر بأوامرهم ويخبرهم بما عند المؤمنين من

خير أو سوء فهذا بعينه هـو المنافق كما ذكره الله تعالى في الآية التي قبل هذه الآية بقولـه : « مذبذبين بين ذلك لاالى هؤلاء ولا الى هؤلاء »[1]. ولا ريب أنّ المنافق ضرره على المؤمنين أكثر من ضرر الكافر حيث إنه مختلط معهم ومطلع على امورهم فهو ينقل أخبارهم الى عدوّهم وهم غافلون عن ذلك ، وهـذا العمل هـو وحده موجب للعذاب لأنه مضرّ بالمسلمين ضرراً كلّياً ، فتكون الحجة على صاحبه ظاهرة بيّنة لاتحتاج الى شيء آخر في إثباتها .

ماقاله ابن كثير :

قال بعد ذكر الآية : ينهى الله عباده المؤمنين عن اتخاذ الكافريـن أولياء من دون المؤمنين ، يعني مصاحبتهم ومصادقتهم ومناصحتهم وإسرار المودة إليهم وإفشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم كماقال تعالى :«لايتّخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه»[2] أي يحذركم عقوبته في ارتكابكم نهيه، ولهذا قال هاهنا **«أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً»** أي حجة عليكم في عقوبته إياكم.

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا مالك بن اسماعيل حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس ، قوله : « سلطاناً مبيناً »قال: كل سلطان في القرآن حجة ، وهذا اسناد صحيح . وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب القرضي والضحاك والسدي والنضر بن عربي[3] .

ماقاله الطبري :

قال في تفسيره للآية: وهذا نهي من الله عباده المؤمنين أن يتخلّقوا بأخلاق

---

(١) النساء : ١٤٣ .

(٢) آل عمران : ٢٨ .

(٣) تفسير ابن كثير : ج٢ ص٤٢١ .

المنافقين الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين فيكونوا مثلهم في ركوب ما نهاهم عنه من موالاة أعدائه ، يقول لهم جلّ ثناؤه : يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله لاتوالوا الكفار فتؤازروهم من دون أهل ملّتكم ودينكم من المؤمنين فتكونوا كمن أوجبت له النار من المنافقين ثم قال جلّ ثناؤه متوعداً من اتخذ منهم الكافرين أولياء من دون المؤمنين إن هو لم يرتدع عن موالاته وينزجر عن مخالته أن يلحقه بأهل ولايته من المنافقين الذين أمر نبيه ﷺ بتبشيرهم بأنّ لهم عذاباً أليماً .

أتريدون أيها المتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ممن قد آمن بي وبرسولي «أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً» يقول حجة باتخاذكم الكافرين أولياء من دون المؤمنين فتستوجبوا منه مااستوجبه أهل النفاق الذين وصف لكم صفتهم وأخبركم بمحلهم عنده «مبيناً» يعني يبين عن صحتها و حقيقتها يقول: لا تعرضوا لغضب الله بإيجابكم الحجة على أنفسكم في تقدمكم على مانهاكم ربكم من موالاة أعدائه وأهل الكفر به[1] ثم ذكر الأحاديث الدالة على ماقاله .

فاذا قرأت أو سمعت أيها المدعي للايمان والاسلام هذه الآية وهذه التفاسير التي ذكرها العلماء وأنت مع ذلك توالي الكافرين من دون المؤمنين وتنقل إليهم أخبار المسلمين وأسرارهم فاعلم أنك تحشر مع المنافقين في الدرك الأسفل من النار ، وأنّ المسلمين يسألون الله أن يضاعف لك العذاب .

قال تعالى : ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً (١٤٥) .

قال الراغب في مفرداته : الدرك كالدرج، لكن الدرج يقال اعتباراً بالصعود

---

(١) تفسير الطبرى : ج٥ ص٢١٦ .

والدرك اعتباراً بالحدور ، ولهذا قيل: درجات الجنة ودركات النار[1] .

ماقاله الفخر الرازي :

ذكر في تفسيره للآية مسائل : المسألة الاولى: قال الليث : الدرك أقصى قعر الشيء كالبحر ونحوه ، فعلى هذا المراد بالدرك الأسفل : أقصى قعر جهنم .

ثم قال في ذكر المسألة الثالثة : قال ابن الأنباري : أنه تعالى قال في صفة المنافقين إنهم «في الدرك الأسفل» وقال في آل فرعون « أدخلوا آل فرعون أشد العذاب »[2] فأيهما أشد عذاباً المنافقون أم آل فرعون؟ وأجاب بأنه يحتمل أن أشد العذاب إنما يكون في الدرك الأسفل، وقد اجتمع فيه الفريقان .

المسألة الرابعة : لما كان المنافق أشد عذاباً من الكافر لأنه مثله في الكفر ، وضم إليه نوع آخر من الكفر وهو الاستهزاء بالاسلام وبأهله، وبسبب أنهم لما كانوا يظهرون الاسلام يمكنهم الاطلاع على أسرار المسلمين ثم يخبرون الكفار بذلك فكانت تتضاعف المحنة من هؤلاء المنافقين ، فلهذه الأسباب جعل الله عذابهم أزيد من عذاب الكفار[3].

ماقاله الطبري :

قال في تأويله للآية : يعني جل ثناؤه بقوله : « **ان المنافقين في الدرك الاسفل من النار** » إن المنافقين في الطبق الأسفل من أطباق جهنم، وكل طبق من أطباق جهنم درك، وفيه لغتان:

درك (بفتح الراء) ودرك (بتسكينها) ، فمن فتح الراء جمعه في القلة إدراك، وإن شاء جمعه في الكثرة الدروك . ومن سكن الراء ، قال : ثلاثة أدرك وللكثير الدروك .

(١) المفردات : ص١٦٧ مادة « درك » .
(٢) غافر : ٤٦ .
(٣) تفسير الرازي : ج١١ ص٨٧ .

ثم ذكر اختلاف القراء وما اختاره هو، ثم ذكر الأحاديث الدالة على ذلك وقال: حدثنا ابن وكيع قال: حدثني أبي عن سفيان عن سلمة بن كهيل عن خيثمة عن عبدالله « إنّ المنافقين في الدرك الأسفل من النار » قال: في توابيت من حديد مبهمة عليه . ثم ذكر حديثاً آخر عن عبدالله وقال : في توابيت من حديد مقفلة عليهم في النار . وذكر حديثاً عن أبي هريرة وقال : في توابيت ترتج عليهم . وذكر حديثاً عن خيثمة عن عبدالله ، وقال: توابيت من نار تطبق عليهم[1] انتهى.

ماقاله ابن كثير :

قال في تفسيره للآية: ثم أخبر تعالى : «إنّ المنافقين في الدرك الأسفل من النار» أي: يوم القيامة جزاءً على كفرهم الغليظ.

قال الوالبي عن ابن عباس : « في الدرك الأسفل من النار » أي: في أسفل النار .

وقال غيره: النار دركات كما أنّ الجنة درجات.

وقال سفيان الثوري عن عاصم عن ذكوان أبي صالح عن أبي هريرة: «إنّ المنافقين في الدرك الأسفل من النار » قال : في توابيت ترتج عليهم . كذا رواه ابن جرير عن ابن وكيع عن يحيى بن يمان عن سفيان الثوري به ، ورواه ابن حاتم عن المنذر بن شاذان عن عبيدالله بن موسى عن إسرائيل عن عاصم عن أبي صالح عن أبي هريرة، « إنّ المنافقين في الدرك الأسفل من النار » قال : الدرك الأسفل بيوت لها أبواب تطبق عليهم فتوقد من تحتهم ومن فوقهم .

قال ابن جرير : حدثنا ابن بشار حدثنا عبدالرحمن حدثنا سفيان عن سلمة ابن كهيل عن خيثمة عن عبدالله يعني ابن مسعود : « إنّ المنافقين في الدرك الأسفل من النار » قال : في توابيت من نار تطبق عليهم أي مغلقة مقفلة . ورواه

---

(١) تفسير الطبرى : ج٥ ص٢١٧ .

ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الأشج عن وكيع عن سفيان عن سلمة عن خيثمة عن ابن مسعود: «إنّ المنافقين في الدرك الأسفل من النار» قال: في توابيت من حديد مبهمة عليهم، ومعنى قوله مبهمة: أي مغلقة مقفلة لايهتدى لمكان فتحها.

وروى ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو اسامة حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا علي بن يزيد عن القاسم بن عبدالرحمن أنّ ابن مسعود سئل عن المنافقين فقال: يجعلون في توابيت من نار تطبق عليهم في أسفل درك من النار[1].

ماقاله السيوطي:

قال في تفسيره للآية: وأخرج ابن أبي الدنيا في صفة النار عن أبي الأحوص قال: قال ابن مسعود: أيّ أهل النار أشدّ عذاباً؟ قال رجل: المنافقون، قال: صدقت، قال: فهل تدري كيف يعذبون؟ قال: لا، قال: يجعلون في توابيت من حديد تصمد عليهم، ثم يجعلون في الدرك الأسفل في تنانير أضيق من زج يقال له جبّ الحزن يطبق على أقوام بأعمالهم آخر الأبد[2] انتهى.

أيها الانسان الذي تعد نفسك من المسلمين، اذا كنت تصدق بالوعد والوعيد فينبغي لك أن تنظر نفسك ومقدار تحمّلها لهذا العذاب، فهل تقدر أن تسكن في الدرك الأسفل من النار الى آخر الأبد أو الى مدة معلومة وإن كانت يوماً واحداً؟ فاذا رأيت نفسك عاجزاً عن ذلك فلاينبغي لك أن توالي الكافرين لأجل دراهم معدودة. أما اذا لم تكن مصدقاً بهذا الوعد والوعيد ولم تكن مؤمناً بالله فلاداعي لك أن تظهر للمسلمين أنك منهم، فإنّ هذا غشّ، والغشّ يستقبحه العقل، فالأولى لك أن تجاهر بالكفر وتحشر نفسك مع الكافرين.

وأما إن كنت في شكّ من نفسك ولم تعلم أنك مسلم أو كافر أو منافق فإني سأذكر لك علامة ذلك لتعرف حقيقة نفسك وتختار ماتشاء من ذلك.

---

(١) تفسير ابن كثير: ج٢ ص٤٢١ - ٤٢٢.

(٢) الدر المنثور: ج٢ ص٢٣٦.

أمـا المنافق فقد وردت الآيات والأخبار في صفته وتعريفه ، فمن الآيـات قوله تعالى : « إنّ الّذين آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً »[١].

وقوله عزّ وجلّ « بشّر المنافقين بأنّ لهم عذاباً أليماً »[٢] .

وقوله سبحانه وتعالى « الّذين يتّخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإنّ العزة لله جميعاً »[٣].

وقوله جلّ وعلا«وقد نزّل عليكم في الكتاب أن اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم اذاً مثلهم إنّ الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً»[٤].

وقوله سبحانه«الّذين يتربّصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قـالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً»[٥].

وقوله عزّ من قائل« إنّ المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً »[٦].

وقوله جلّ شأنه «مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً»[٧].

فهذه الآيات كلها تصف المنافقين، وبعدها الآية التي ينادي الله بها المؤمنين

---

(١) النساء : ١٣٧ .

(٢) النساء : ١٣٨ .

(٣) النساء : ١٣٩ .

(٤) النساء : ١٤٠ .

(٥) النساء : ١٤١ .

(٦) النساء : ١٤٢ .

(٧) النساء : ١٤٣ .

وينهاهم عن اتخاذ الكافرين أولياء ويخبرهم أنهم اذا فعلوا ذلك فقد جعلوا لله عليهم الحجة البيّنة التي لاتقبل الاعتذار ولاتقبل التسوية ولايمكن التخلّص من عذاب المنافقين أبداً، ثم بيّن كيفية عذابهم ومكانه كما سمعت ماذكر في ذلك .

وأمّا الروايات التي تذكر علامات المنافق فمنها :

عن أبي عبدالله عليه السلام قال : قال لقمان لابنه : يابني لكل شيء علامة يعرف بها ويشهد عليها (الى قوله :) للمنافق ثلاث علامات : يخالف لسانه قلبه ، وقلبه فعله ، وعلانيته سريرته[1] .

وعن أبي الحسن الأول عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : أربع يفسدن القلب وينبتن النفاق في القلب كما ينبت الماء الشجر : استماع اللهو ، والبذاء ، وإتيان باب السلطان ، وطلب الصيد[2] .

وعن أبي جعفر عليه السلام : لاتقم الى الصلاة متكاسلاً ولامتناعساً ولامتثاقلاً فإنها من خلال النفاق، وقد نهى الله عزّ وجل المؤمنين أن يقوموا الى الصلاة وهم سكارى يعني من النوم ، وقال للمنافقين : « واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولايذكرون الله إلاّ قليلاً »[3].

وعن عبدالله بن سنان قال : كنا جلوساً عند أبي عبدالله عليه السلام إذ قال له رجل من الجلساء: جعلت فداك يابن رسول الله أخاف عليّ أن أكون منافقاً ، فقال له : اذا خلوت في بيتك نهاراً أو ليلاً أليس تصلّي ؟ فقال : بلى ، فقال: فلمن تصلّي ؟ فقال : لله عزّ وجلّ ، فقال : فكيف تكون منافقاً وأنت تصلّي لله عزّ وجلّ ولالغيره[4].

---

(١) الخصال : ج١ ص١٢١ ح١١٣ باب الثلاثة .
(٢) الخصال : ج١ ص٢٢٧ ح٦٣ باب الاربعة.
(٣) تفسير نور الثقلين : ج١ ص٥٦٦ ح٦٣٥ ، والاية ١٤٢ من سورة النساء .
(٤) تفسير نور الثقلين : ج١ ص٥٦٦ ح٦٣٦ .

تأمل أيها العبد المسلم في هذا الحديث لتعرف أنّ الذي يصلّي في مكان وحده وأنّ صلاته خالصة لله عزّ وجلّ لا يمكن أن يتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين وأنّ الذي يفعل ذلك فهو منافق وإن صلّى وصام، وليعلم أنّ صلاته ليست خالصة لله.

وعن أبي المعزّ الخصاف رفعه قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: من ذكر الله عزّ وجلّ في السرّ فقد ذكر الله كثيراً، إنّ المنافقين كانوا يذكرون الله علانية ولا يذكرونه في السرّ فقال الله عزّ وجلّ: «يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً»[1].

وعن أبي حمزة عن علي بن الحسين عليهما السلام قال: إنّ المنافق ينهى ولا ينتهي، ويأمر بما لا يأتي. وإذا قام الى الصلاة اعترض، قلت: يا ابن رسول الله ما الاعتراض قال: الالتفات، فإذا ركع ربض، يمسي وهمّه العشاء وهو مفطر، ويصبح وهمه النوم ولم يسهر، وإن حدثك كذبك، وإن ائتمنته خانك، وإن غبت اغتابك، وإن وعدك أخلفك[2].

وعن سعيد بن يسار عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: مثل المنافق مثل جذع النخل أراد صاحبه أن ينتفع به في بعض بنيانه فلم يستقم له في الموضع الذي أراد فحوله في موضع آخر فلم يستقم، فكان آخر ذلك أن أحرقه بالنار[3].

وقال الصادق عليه السلام: أربع علامات للمنافق: قساوة القلب، وجمود العين، والاصرار على الذنب، والحرص على الدنيا[4].

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ثلاث من كنّ فيه كان منافقاً وإن صام وصلّى وزعم أنه مسلم: من اذا ائتمن خان، واذا حدّث كذب، واذا

(١) تفسير نور الثقلين: ج١ ص٥٦٦ ح٦٣٧.
(٢) تفسير نور الثقلين: ج١ ص٥٦٦ ح٦٣٨.
(٣) تفسير نور الثقلين: ج١ ص٥٦٧ ح٦٣٩.
(٤) بحار الانوار: ج٧٢ ص١٧٦ ب١٠٣ ح٤.

وعد أخلف، إنّ الله عزّ وجلّ قال في كتابه : «إنّ الله لا يحبّ الخائنين»[1] وقال : « أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين »[2].

ومن كتاب لأمير المؤمنين عليه السلام كتبه لمحمد بن أبي بكر حين ولّاه مصر : ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إني لا أخاف على امّتي مؤمناً ولا مشركاً، أما المؤمن فيمنعه الله بإيمانه، وأما المشرك فيخزيه الله بشركه، ولكني أخاف عليكم كل منافق عالم اللسان يقول ما تعرفون ويفعل ما تنكرون[3].

فقد اتضح من كلمة الرسول صلى الله عليه وآله أنّ المؤمن يمنعه إيمانه عن كل سوء ولا يأتي من ناحيته شرّ على المؤمنين ما لم يتخذ الكافرين أولياء ، أما اذا اتخذ الكافرين أولياء فقد خرج من جماعة المؤمنين .

وبعدما عرفت المنافق بصفته وعمله وضرره على المسلمين وعرفت عقابه ومكانه في نار جهنم فاعلم أنه لا يمكنه التخلّص من هذا العذاب ولا يجعل له ذلك اليوم من يشفع له كما قال تعالى : **«ولن تجد لهم نصيراً»** .

إنّ الله يخاطب نبيه الأكرم بآية كريمة أثبتها في القرآن ليقرأها كل فرد من امّته يقرأها المؤمن والمنافق ، فيقول له : إن المنافقين الذين يكون عذابهم في أسفل درك من الجحيم لن تجد لهم يوم القيامة أحداً ينصرهم فينقذهم مما هم فيه من العذاب أو يخفف عنهم شيئاً منه أو ينقلهم من تلك الطبقة السفلى الى الأعلى منها، فليعلم المنافق أنه اذا مات على ما هو عليه من النفاق فإنّ عذابه هو من أشدّ أنواع عذاب أهل النار ولا يشفع له أحد ، فإنّ أقرب الشفعاء الى الله هو خاتم الأنبياء وقد أخبره الله أنه لا يجد لهم نصيراً . وهذا الخبر يتضمن النهي عن الشفاعة لهم، بيّنه الله للنبي ولامّته حين وجودهم في الدنيا ليبقى راسخاً في أذهانهم وقلوبهم وليذكروه يوم القيامة حتى لا يخطر في قلب أحد أن يشفع لأحد المنافقين

(١) الانفال : ٥٨ .

(٢) بحار الانوار : ج٧٢ ص١٠٨ ب٩٩ ح٨ والاية ٧ من سورة النور.

(٣) نهج البلاغة : الكتاب ٢٧ .

في ذلك اليوم ، فاعرف أيها الانسان الموالي للكافرين ما أبعدك عن الله وعن رسوله وعن المسلمين .

ثم الله عزّ وجلّ من شدة رحمته لعباده ورأفته بهم وجب إبعادهم عن عقابه بيّن لهم أنّ هذا المجرم المستحق لهذا النوع من العذاب اذا التفت في الدنيا الى قبح هذه الصفة وأنه لا ينبغي للانسان العاقل أن يتصف بها - لأنّ الله يبغضها والرسول يبغضها، ولأنّ فيها ضرراً على امّة الرسول بأجمعهم - فتاب الى الله منها وتركها واتصف بصفات المؤمنين فإنّ الله يتوب عليه ويرفع عنه العذاب الذي سجل عليه ويمحو اسمه من ديوان الأشقياء المنافقين ويثبته في ديوان السعداء المؤمنين كما هو صريح الآية في قوله :

الا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فاولئك مع المؤمنين وسوف يؤتى الله المؤمنين أجراً عظيماً (١٤٦).

فيكون معنى الآية أنّ رفع العذاب عن المنافق مشروطاً بأربعة شروط :

الأول : التوبة منه ، بأن يلتفت الى قبحه وضرره فيندم على فعله ويعزم على تركه وعدم العود إليه أبداً .

الثاني : أن يكون صالحاً ، بحيث يصلح نيته ويصلح عمله ويصلح ما أمكنه إصلاحه مما أفسده النفاق ، فلا تكون أعماله إلا أعمالاً حسنة يرضى بها الله ورسوله وتكون نافعة للمؤمنين مضادة للكافرين والمنافقين ليشعر أصحابه المنافقون أنه قد انفصل منهم وباينهم ودخل في زمرة المؤمنين .

الثالث: الاعتصام بالله تعالى، قال الراغب في مفرداته: الاعتصام الاستمساك[1] فيكون هذا التائب بعدما كان متمسكاً بالشيطان حينما كان منافقاً وبعدما عرف

---

(١) المفردات : ص٣٣٦ مادة « عصم » .

أن ذلك التمسك لاينفعه ولايخلصه من العذاب يتمسك حينئذٍ بالله بحيث تكون أعماله وأفعاله بأمر الله وإرادته وصادرة عن رضاه بالطريق الذي عينه الله وهو الرسول الأعظم والقرآن والعالم بتأويل القرآن ، كل ذلك عن تدبر وتأمل ومعرفة .

الرابع : الاخلاص لله في دينه ، قال الراغب في مفرداته : الخالص كالصافي إلا أن الخالص هو مازال عنه شوبه بعد أن كان فيه[1]. فيكون المقصود من قوله تعالى : « **وأخلصوا دينهم** » هو أن ينقوا قلوبهم ونفوسهم وصدورهم من ذلك حتى يكون الدين الذي يظهرونه بألسنتهم خالصاً لله غير مشوب بشيء من الأشياء المحرمة كالنفاق المضر بالغير ، ولامشوباً بشيء حلال كالحصول على المال والجاه .

فاذا حصلت وتحققت هذه الامور الأربعة فإن الله يجعل هؤلاء الذين تحققت عندهم مع المؤمنين ، ثم أخبر أنه يعطي المؤمنين أجراً عظيماً .

فالامور التي تزيل العذاب عن المنافقين شديدة تحتاج الى ملكة والى مجاهدة النفس لأجل الحصول عليها ولاتحصل بسهولة ، إلا أن الغاية التي تحصل من هذه الامور عظيمة جداً لاتحصل بملك الدنيا ولاتحصل لو اتفق عليها جميع العالم كما في الآية السابقة من قوله تعالى : « ولن تجد لهم نصيراً » .

قوله تعالى : يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً (١٧٤) .

إن الله قد وجه النداء في هذه الآية لكافة الناس وعموم المكلفين وأخبرهم بأنه قد أرسل لهم نبياً يدعوهم الى عبادة الله وتوحيده ، وأن هذا النبي يقيم لهم برهاناً ودليلاً على كل شيء يأمرهم به وينهاهم عنه ، وأن ماجاء به هو من عند

---

(١) المفردات : ص١٥٤ مادة « خلص » .

الله حق لامرية فيه ولايعتريه شك وكل ذلك بدليل وبرهان ، وأن الرجل الامي الذي لم يتعلم في مدرسة ولم يحضر على أحد من العلماء ولم يجتمع معهم في معاهدهم ومحافلهم ثم يأتيهم بهذه الامور الحكيمة مقرونة بالبرهان والدليل يكون ذلك منه أكبر برهان على صدق دعواه وصحة مايقوله ، ويحكم العقل بوجوب متابعته وامتثال أوامره ونواهيه .

وحيث إن الله قد أبطل في الآيات السابقة كل الأقوال الباطلة من أقوال النصارى واليهود والمنافقين ، وأنزل القرآن على خاتم الأنبياء مشتملاً على الحجج والبراهين ، وإن كل كلام اذا كان مستنداً الى حجة قوية لايمكن دفعها يكون بمنزلة النور في الطريق لمن كان له عين يبصر بها فلايعتريه ضلال وضياع ، كذلك الكلام المشتمل على برهان لايعتريه الشك والريب اذا سمعه العاقل الطالب للحق فيكون التعبير عن القرآن بالنور من هذه الجهة ، فإن الذي يسلك الطريق الذي يدل عليه الرسول اذا كان مؤمناً بالله ومصدقاً برسوله ومتمسكاً بالقرآن لايمكن أن يضل أو يتيه أو يميل عن الطريق يميناً وشمالاً .

فاذا سلك الانسان العاقل الطريق الذي أرشده الله إليه ودله الرسول عليه تعهد له الله أن يعطيه ثلاثة امور وهي التي بينها في قوله :

فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم الله في رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطاً مستقيماً (١٧٥) .

هذا بيان من الله لكافة الناس الذين ناداهم في الآية السابقة ، ووعد صادق وبشارة عظيمة لمن آمن بالله وصدق بالنبي المعبر بالبرهان وتمسك بالقرآن المعبر عنه بالنور وعمل به ولم يمل يميناً أو شمالاً ، وعده الله أن يعطيه هذه الامور الثلاثة:

الأول : يدخله في رحمته ، وهذا أمر يشمل الدنيا والآخرة . أما رحمته في

الدنيا فهي نجاته من كل شيء يوجب له الخروج عن الدين أو الميل عنه بحيث يوجب العقاب في الآخرة، وأما رحمة الآخرة فهي الدخول في الجنة ولا غاية بعدها.

الثاني: الفضل من الله، والفضل هو الشيء الزائد مما يستحقه العامل، ولا يخفى أن الشيء الذي يسميه الله فضلاً ليس كفضل العباد، وقد يكون بعضه أفضل من الدنيا ومافيها من أولها الى آخرها.

الثالث: «ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً» فاذا هدي العبد الى الطريق المستقيم تكون جميع أفعاله وأقواله مطابقة للحكمة في كل وقت وزمان ولا يسلك طريقاً إلا بهداية من الله ورضاً منه. وهذه الامور الثلاثة تجمع لصاحبها خير الدنيا والآخرة.

وعن ابن عباس قال: الرحمة الجنة، والفضل مايتفضل به عليهم بما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر «ويهديهم اليه صراطاً مستقيماً» يريد ديناً مستقيماً [1].

والدين المستقيم هو من أهم الامور بل هو الوحيد الذي لا يساويه شيء، فإن أهل الأديان كل واحد منهم يدعي أن دينه هو الحق وصاحب هذا الدين قد شهد الله له بأحقية دينه فهو على علم من صحة دينه ويقين من أمره.

أيها المؤمن إنك تطلب من الله في كل يوم وليلة عشر مرات على الأقل أن يهديك الى الصراط المستقيم وذلك عند صلاتك حيث تقول: «إهدنا الصراط المستقيم» وفي هذه الآية يقول الله لنا: إن من آمن بالله واعتصم به فسوف يهديه الله الى الصراط المستقيم ويعطيه أيضاً أمرين آخرين **«فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطاً مستقيماً»** فان كنت صادقاً في دعوتك خالصاً في عبادتك فينبغي لك أن تعرف حقيقة الايمان بالله وكيفية الاعتصام به لتكون مشمولاً لهذه الامور الثلاثة:

(١) الدخول في الرحمة. (٢) والاستحقاق لفضله. (٣) والاهتداء الى الصراط المستقيم.

---

(١) تفسير ابن عباس المطبوع مع مجموعة التفاسير: ج٢ ص٢١٨ نقلا بالمعنى.

أما حقيقة الايمان بالله فهي الاعتراف بالوحدانية والعدل والاعتراف بصفاته الثبوتية والسلبية والاذعان بها عن يقين صادق، ولازم هذا الايمان التصديق بالرسل وامتثال أوامر الله التي يخبر عنها الرسول واستعمال الشيء فيما خلق لأجله، فإنّ البصر إنما اعطي للانسان ليميز به طريقه الذي يريد سلوكه، ولينظر به الى من يخاطبه من الناس فيعرفهم بأشخاصهم، ولينظر به الى ما يأكله ويشربه، وليتقي بواسطته عن عدوه اذا أقبل عليه يريد به سوءً أو مكروهاً، ولغير ذلك من فوائد البصر.

وقد ذكر الله في الآية المتقدمة « وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً » والنور هو الذي يضيء للانسان الطريق حتى يسير مستقيماً معتدلاً لا يميل عنه يميناً أو شمالاً فيقع في متاهة ويضلّ الطريق ويكون نصيبه الهلاك الأبدي. فهذا النور الذي أنزله الله المعبّر بـه عن القرآن يبيّن لنا طريق الآخرة، ويـوضح لنا أحكام الدين، ويرشدنا الى النافع والضار، ويميز بين الرشد والغي، فيرتفع به الجهل ويـزول العمى، فمن عمل بـأحكام القرآن بأخذها ممن يعرف تأويل القرآن فقد انتفع بالنور حيث استعمله فيما اريد منه، فهذا هو حقيقة الايمان بالله.

وأما كيفية الاعتصام: فإنّ الاعتصام هو الاستمساك بالشيء خوفاً من السقوط الموجب للهلاك، فالانسان الذي يريد أن يطوي الدنيا ليصل الى الآخرة ويريد أن يكون هناك منعماً غير معذب عليه أن يعتصم بالقرآن بعد أن يكون مؤمناً وقد عرفت أنّ الاعتصام هو الامساك بالشيء خوفاً من السقوط، ومعنى الامساك هو أن يشدّ بيديه على الحبل كما عبّر عنه النبي ﷺ بالحبل، وهـذا الممسك بالحبل اذا غفل وتراخت يده عن امساكه فلت الحبل من يده فسقط، وبالسقوط يكون هلاكه، وعلى هـذا يكون معنى الاعتصام الذي يستحقّ صاحبه الخصال الثلاثة التي وعد بها الله هو أن تكون عقيدته وأعماله مطابقة للقرآن مأخوذة ممن يعرف معناه وهـو الذي قرنه النبي بالقرآن حين أرشده الى الهدى بقولـه: إني مخلف فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا: كتاب الله حبل ممدود من السماء الى

الأرض وعترتي أهل بيتي[1].

فاذا عرفت أيها المؤمن حقيقة الايمان وعرفت كيفية الاعتصام وعملت بهما حينئذٍ تستحقّ من الله ماوعدك به في قوله: « فأمّا الّذين آمنوا باللّهواعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً » .

ماقاله الفيض الكاشاني :

قال عند تفسير قوله تعالى : « إهدنا الصراط المستقيم » : في المعاني وتفسير الامام عن الصادق عليه السلام يعني : أرشدنا للزوم الطريق المؤدي الى محبتك والمبلغ الى جنتك والمانع من أن نتبع أهواءنا فنعطب أو أن نأخذ بآرائنا فنهلك.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام : يعني أدم لنا توفيقك الذي أطعناك به في ماضي أيامنا حتى نطيعك كذلك في مستقبل أعمارنا .

أقول : لماكان العبد محتاجاً الى الهداية في جميع اموره آناً فآناً ولحظة فلحظة فإدامة الهداية هي هداية اخرى بعد الهداية الاولى، فتفسير الهداية بإدامتها ليس خروجاً عن ظاهر اللفظ .

وعنه عليه السلام : الصراط المستقيم في الدنيا ماقصر عن الغلو وارتفع عن التقصير واستقام ، وفي الآخرة طريق المؤمنين الى الجنة .

وفي المعاني عن الصادق عليه السلام : وهي الطريق الى معرفة الله وهما صراطان صراط في الدنيا وصراط في الآخرة ، فأما الصراط في الدنيا فهو الامام المفترض الطاعة ، وهو الذي أشار إليه النبي صلى الله عليه وآله بقوله : من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية . من عرفه في الدنيا واقتدى بهداه مرّ على الصراط الذي هو جسر جهنم في الآخرة ، ومن لم يعرفه في الدنيا زلّت قدمه عن الصراط في الآخرة فتردى في نار جهنم .

---

(١) بحار الانوار : ج٢٣ ص١٠٤ ب٧ .

وعنه عليه السلام : إنّ الصراط أمير المؤمنين علي عليه السلام .

وفي رواية اخرى : إنه معرفة الامام .

وفي اخرى : نحن الصراط المستقيم .

والقمي عنه عليه السلام : الصراط أدقّ من الشعر وأحدّ من السيف ، فمنهم من يمرّ عليه مثل البرق ، ومنهم من يمرّ عليه مثل عدو الفرس ، ومنهم من يمرّ عليه ماشياً ، ومنهم من يمرّ عليه حبواً ، ومنهم من يمرّ عليه متعلقاً فتأخذ النار منه شيئاً وتترك شيئاً .

وفي رواية اخرى : إنه مظلم يسعى الناس عليه على قدر أنوارهم .

أقول : ومآل الكل واحد عند العارفين بأسرارهم وبيانه على قدر فهمك أنّ لكل إنسان من ابتداء حدوثه الى منتهى عمره انتقالات جبلية باطنية في الكمال وحركات طبيعية ونفسانية تنشأ من تكرار الأعمال وتنشأ منها المقامات والأحوال فلايزال ينتقل من صورة الى صورة ومن خلق الى خلق ومن عقيدة الى عقيدة ومن حال الى حال ومن مقام الى مقام ومن كمال الى كمال حتى يتصل بالعالم العقلي والمقربين، ويلحق بالملأ الأعلى والسابقين إن ساعده التوفيق وكان من الكاملين أو بأصحاب اليمين إن كان من المتوسطين ، أو يحشر مع الشياطين وأصحاب الشمال إن ولاه الشيطان وقارنه الخذلان في المآل ، وهذا معنى الصراط .

والمستقيم منه ما اذا سلكه أوصله الى الجنة ، وهو ما يشتمل عليه الشرع كما قال الله عزّ وجلّ « وإنك لتهدي الى صراط مستقيم * صراط الله »[1] وهو صراط التوحيد والمعرفة والتوسط بين الأضداد في الأخلاق والتزام صالح الأعمال.

وبالجملة، صورة الهدى الذي أنشأه المؤمن لنفسه مادام في دار الدنيا مقتدياً لهدى إمامه وهو أدقّ من الشعر وأحدّ من السيف في المعنى مظلم لا يهتدي إليه إلا من جعل الله له نوراً يمشي به في الناس يسعى الناس عليها على قدر أنوارهم .

وروي عن الصادق عليه السلام : إن الصورة الانسانية هي الطريق المستقيم الى كل

(١) الشورى : ٥٢ و٥٣ .

خير والجسر الممدود بين الجنة والنار .

أقول : فالصراط والمارّ عليه واحد في كل خطوة يضع قدمه على رأسه ، أعني : يعمل على مقتضى نور معرفته التي هي بمنزلة رأسه ، بل يضع رأسه على قدميه ، أي يبني معرفته على نتيجة عمله الذي كان بناؤه على المعرفة السابقة حتى يقطع المنازل الى الله والى الله المصير .

وقد تبيّن من هذا أنّ الامام هو الصراط المستقيم وأنه يمشي سوياً على الصراط المستقيم ، وأن معرفته معرفة الصراط المستقيم ومعرفة المشي على الصراط المستقيم ، وأنّ من عرف الامام ومشى على صراطه سريعاً أو بطيئاً بقدر نوره ومعرفته إياه فاز بدخول الجنة والنجاة من النار، ومن لم يعرف الامام لم يدرما صنع فتزل قدمه وتردى في النار[1] انتهى ما في الصافي .

ماقاله الفخر الرازى :

قال في تفسير قوله تعالى : « إهدنا الصراط المستقيم » : وفيه لطائف :

اللطيفة الاولى : إنّ المنهج الحق في الاعتقادات وفي الأعمال هو الصراط المستقيم ، أما في الاعتقادات فبيانه من وجوه :

الأول : أنّ من توغل في التنزيه وقع في التعطيل ونفي الصفات، ومن توغل في الاثبات وقع في التشبيه وإثبات الجسمية والمكان، فهما طرفان معوجان، والصراط المستقيم الاقرار الخالي عن التشبيه والتعطيل .

والثاني: أنّ من قال فعل العبد كله منه فقد وقع في القدر، ومن قال لافعل للعبد فقد وقع في الجبر ، وهما طرفان معوجان ، والصراط المستقيم إثبات الفعل للعبد مع الاقرار بأنّ الكل بقضاء الله .

وأما في الأعمال فنقول: من بالغ في الأعمال الشهوانية وقع في الفجور، ومن بالغ في تركها وقع في الجمود، والصراط المستقيم هو الوسط وهو العفة . وأيضاً

(١) تفسير الصافي : ج١ ص٧٢ ـ ٧٤ .

من بالغ في الأعمال الغضبية وقع في التهور ، ومن بالغ في تركها وقع في الجبن، والصراط المستقيم هو الوسط وهو الشجاعة .

اللطيفة الثانية: أنّ ذلك الصراط وصفه بصفتين : أولهما إيجابية والاخرى سلبية . أما الايجابية فكون ذلك الصراط صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . وأما السلبية فهي أن تكون بخلاف صراط الذين فسدت قواهم العلمية بارتكاب الشهوات حتى استوجبوا غضب الله عليهم، وبخلاف صراط الذين فسدت قواهم النظرية حتى ضلّوا عن العقائد الحقة والمعارف اليقينية.

اللطيفة الثالثة : قال بعضهم : إنه لما قال : « إهدنا الصراط المستقيم » لم يقتصر عليه بل قال : « صراط الّذين أنعمت عليهم » وهذا يدلّ على أنّ المؤيد لاسبيل له الى الوصول الى مقامات الهداية والمكاشفة إلا اذا اقتدى بشيخ يهديه الى سواء السبيل ويجنبه عن مواقع الأغاليط والأضاليل، وذلك لأنّ النقص غالب على أكثر الخلق وعقولهم غير وافية بإدراك الحق وتمييز الصواب عن الغلط ، فلابدّ من كامل يقتدي به الناقص حتى يتقوى عقل ذلك الناقص بنور عقل ذلك الكامل، فحينئذٍ يصل الى مدارج السعادات ومعارج الكمالات[1] انتهى .

وقد تبيّن واتضح مما ذكر أنّ الله عزّوجلّ قد وصف المؤمنين بأنهم اعتصموا بالله، وعرفت معنى الاعتصام وهو التمسك بالشيء خوفاً من السقوط كمن يتمسك بحبل أو عمود اذا كان تحته بحر يخاف السقوط فيه ، فاذا تراخت يده شيئاً قليلاً أفلت الحبل من يده وسقط . فالمعتصم بالله اذا فعل شيئاً أخذه عن غير الطريق الذي نصبه الله لعباده فقد أخلّ بالاعتصام ، فاذا استغفر وتاب ورجع الى الاعتصام فقد حفظ نفسه واستقام على الصفة المطلوبة ، وإن استمرّ في العصيان والتمادي ودخل في القسم الآخر المقابل للمعتصمين بالله خرج حينئذٍ من حزب المؤمنين ، فالله تعالى يريد من المؤمنين أن يعتصموا به ويستمدوا منه في كل وقت

(١) تفسير الرازي : ج١ ص١٨٣ ــ ١٨٤ .

وزمان وفي جميع أفعالهم وأقوالهم .

وقد مرت عليك كلمة الفخر الرازي بأن الانسان لايتمكن أن يسلك طريق الهدى إلا بواسطة شيخ عالم يهديه الطريق ويدله على الامور الحسان ويردعه عما يضلله ، فإن كان الشرط في سائر المؤمنين أن يكونوا في جميع أعمالهم معتصمين بالله فكيف ينبغي أن يكون الشيخ المعلّم لهم ومن أين تعلّم هذا الشيخ مايعلّم به سائر الناس ؟ لابدّ وأن يكون الله قد هيأ لهذا الشيخ أسباب العصمة فهو في جميع أعماله معصوم عن الزلل والخطأ ، وهذا ماينطبق عليه قول الفرقة الامامية من وجوب وجود المعصوم حتى يرجع إليه الناس في امور دينهم ودنياهم .

قال الراغب في مفرداته : وعصمة الأنبياء حفظه إياهم أولاً بما خصهم به من صفاء الجوهر، ثم بما أولاهم من الفضائل الجسمية والنفسية، ثم بالنصرة وبتثبت أقدامهم، ثم بإنزال السكينة عليهم وبحفظ قلوبهم وبالتوفيق ، قال تعالى: « والله يعصمك من الناس »[1] انتهى .

ولايخفى على ذوي الألباب أنّ من يجعله الله مرشداً لعباده لابدّ وأن يخصه بهذه الصفات، فالأنبياء وأوصياؤهم لابدّ من القول بعصمتهم وإلا فلايمكن الاعتماد على أقوالهم اذا كانوا مثل سائر الناس .

---

(١) المفردات : ص٣٣٧ مادة « عصم » والاية ٦٧ من سورة المائدة .

سورة المائدة

عن زرارة بن أعين عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال علي بن أبي طالب صلوات الله عليه: نزلت المائدة قبل أن يقبض النبي صلى الله عليه وآله بشهرين أو ثلاثة [1].

وعن عيسى بن عبدالله عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام قال: كان القرآن ينسخ بعضه بعضاً، وإنما كان يؤخذ عن أمر رسول الله صلى الله عليه وآله بآخره، فكان من آخر ما نزل عليه سورة المائدة، فنسخت ماقبلها ولم ينسخها شيء. لقد نزلت عليه وهو على بغلته الشهباء وثقل عليه الوحي حتى وقفت وتدلى بطنها حتى رأيت سرتها تكاد تمس الأرض، واغمي على رسول الله صلى الله عليه وآله حتى وضع يده على ذؤابة شيبة بن وهب الجمحي، ثم رفع ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله فقرأ علينا سورة المائدة فعمل رسول الله صلى الله عليه وآله وعملنا [2].

عن جبير بن نفير قال: حججت فدخلت على عائشة فقالت لي: ياجبير تقرأ المائدة؟ فقلت: نعم، فقالت: أما أنها آخر سورة نزلت، فماوجدتم فيها من حلال فاستحلوه وماوجدتم فيها من حرام فحرموه [3].

---

(١) و (٢) تفسير العياشي: ج١ ص٢٨٨.

(٣) الدر المنثور: ج٢ ص٢٥٢.

وأخرج أبو عبيد عن ضمرة بن حبيب وعطية بن قيس قالا : قال رسول الله ﷺ : المائدة من آخر القرآن تنزيلاً فأحلوا حلالها وحرموا حرامها[١] .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن أبي ميسرة قال : آخر سورة نزلت سورة المائدة وأن فيها لسبع عشرة فريضة[٢] .

وأخرج الفريابي وأبو عبيد وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ عن أبي ميسرة قال : في المائدة ثمان عشرة فريضة ليس في سورة من القرآن غيرها وليس فيها منسوخ :

« المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكّيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام »[٣] و « الجوارح مكلّبين »[٤] و « طعام الذين اوتوا الكتاب ... والمحصنات من الذين اوتوا الكتاب »[٥] وتمام الطهور « اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا »[٦] و« السارق والسارقة »[٧] و« ما جعل الله من بحيرة »[٨] ... الآية[٩] .

وأخرج أبو داود والنحاس كلاهما في الناسخ عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل قال : لم ينسخ من المائدة شيء[١٠] .

وأخرج عبد بن حميد وأبو داود في ناسخه وابن المنذر عن ابن عون قال : قلت للحسن : نسخ من المائدة شيء ؟ فقال : لا[١١] .

---

(١) و(٢) الدر المنثور : ج٢ ص٢٥٢ .
(٣) المائدة : ٣ .
(٤) المائدة : ٤ .
(٥) المائدة : ٥ .
(٦) المائدة : ٦ .
(٧) المائدة : ٣٨ .
(٨) المائدة : ١٠٣ .
(٩) و (١٠) و (١١) الدر المنثور : ج٢ ص٢٥٢ .

تقسيم الطنطاوى لسورة المائدة :

وقد قسّم الطنطاوي سورة المائدة الى :

١ـ الحلال والحرام في الصيد ونحوه. من أول السورة الى قوله: «الخاسرين»[1].

٢ ـ طهارة الجسم بالماء ، وطهارة القلب بالصلاة وبالعدل وشكر النعمة . من قوله : « ياأيّها الّذين آمنوا ـ الى قوله :ـ وعلى الله فليتوكّل المؤمنون»[2].

٣ ـ أخذ العهد علي بني إسرائيل بالصلاة والزكاة والايمان فنقضوا عهدهم وكذلك النصارى ، وتوبيخ الطائفتين وتقريعهم ، وقصة دخول بني إسرائيل بيت المقدس . من قوله : « ولقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل ـ الى قوله: ـ على القوم الفاسقين »[3].

٤ ـ قصة إبني آدم ، وكيف كان الظلم قديماً كما صار حديثاً. من قوله : « واتل عليهم ـ الى قوله : ـ فأصبح من النادمين »[4].

٥ ـ حكم القاتل وقاطع الطريق والسارق . من قوله : « من أجل ذلك ـ الى قوله : ـ والله على كل شيء قدير »[5] .

٦ ـ أحكام التوراة والانجيل والقرآن وأنّ أهل كل كتاب يحكمون به . من قوله : « ياأيّها الرسول لايحزنك ـ الى قوله :ـ يوقنون »[6].

٧ ـ أمر الله المؤمنين أن لايتولّوا اليهود والنصارى وأن لايرتدوا. وتقريع اليهود والنصارى على ذنوبهم. من قوله :« ياأيّها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود

---

(١) المائدة : ١ ـ ٥ .

(٢) المائدة : ٦ ـ ١١ .

(٣) المائدة : ١٢ ـ ٢٦ .

(٤) المائدة : ٢٧ ـ ٣١ .

(٥) المائدة : ٣٢ ـ ٤٠ .

(٦) المائدة : ٤١ ـ ٥٠ .

والنصارى ـ الى قوله :ـ وكثير منهم ساء مايعملون »[١].

٨ ـ أمر الله النبي ﷺ أن يبلّغ الرسالة ووعده أن يحفظه من الناس ، وأن يجاهد اليهود والنصارى بأنهم ليسوا على شيء من دينهم ، وذكر فريقين من النصارى هادين وضالين ، وذمّ اليهود . من قوله : « ياأيّها الرسول بلّغ ما انزل إليك من ربّك ـ الى قوله :ـ اولئك أصحاب الجحيم »[٢].

٩ـ الحلال والحرام في الصيد ، وذكر الخمر والميسر ونحوهما . من قوله: « ياأيّها الّذين آمنوا لاتحرموا طيّبات ماأحلّ اللهلكم ـ الى قوله:ـ فينبّئكم بما كنتم تعملون »[٣].

١٠ ـ نوع من الشهادات . من قوله تعالى : « ياأيّها الّذين آمنوا شهادة بينكم ـ الى قوله :ـ والله لايهدي القوم الفاسقين »[٤].

١١ ـ خطاب الله لعيسى بن مريم يوم القيامة وجوابه . من قوله : « يوم يجمع الله الرسل ... الى آخر السورة »[٥].

وقبل شروعه في تفسير السورة ذكر مقدمة لها قال فيها :

نزلت سورة المائدة بالمدينة إلّا قوله : « اليوم أكملت لكم دينكم » فإنها نزلت بعرفة في حجة الوداع والنبي ﷺ واقف بعرفة فقرأها النبي ﷺ في خطبته وقال: ياأيها الناس إنّ سورةالمائدة من آخر القرآن نزولاً فأحلّوا حلالها وحرموا حرامها .

قال البغوي : روي عن ميسرة أنّ الله تعالى أنزل في هذه السورة ثمانية عشر حكماً لم ينزلها في غيرها وهي قوله تعالى :

---

(١) المائدة : ٥١ ـ ٦٦ .
(٢) المائدة : ٦٧ ـ ٨٦ .
(٣) المائدة : ٨٧ ـ ١٠٥ .
(٤) المائدة : ١٠٦ ـ ١٠٨ .
(٥) المائدة : ١٠٩ ـ ١٢٠ .

١ ـ والمنخنقة ، ٢ ـ والموقوذة ، ٣ ـ والمتردية ، ٤ ـ والنطيحة ، ٥ ـ وما أكل السبُع إلّا ماذكّيتم ، ٦ ـ وماذبح على النُصب، ٧ ـ وأن تستقسموا بالأزلام، ٨ ـ وماعلمتم من الجوارح مكلّبين، ٩ ـ وطعام الذين اوتوا الكتاب حلٌ لكم، ١٠ ـ والمحصنات من الذين اوتـوا الكتاب ، ١١ ـ وتمام بيان الطهر في قولـه : « اذا قمتم الى الصلاة » ، ١٢ ـ والسارق والسارقـة فاقطعوا أيديهما ، ١٣ ـ لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ، ١٤ ـ ماجعل الله من بحيرة ، ١٥ ـ ولاسائبة، ١٦ـ ولا وصيلة ، ١٧ ـ ولاحام ، ١٨ ـ شهادة بينكم اذا حضر أحدكم الموت .

أقول : وهذه تنقسم الى ثلاثة أقسام :

الأول : ماحرم وكان حلالاً عند العرب ، وهو سبعة .

والثاني : ماأحلّ ، وهو سبعة .

والثالث : وهو أربعة أقسام : مايفضي الى تنزيه الجسم من الأقذار الحسّية والمعنويـة وهي النجس والحدث ، والى تنزيـه النفوس من الخيانـة في الأموال بالسرقات ، والى عدم قتل الحيوان في أحوال خاصة ، والى العدل في الشهادات ، فهذه هي (١٨) .

فلنشرح :

١ ـ أولاً هذه الأقسام الثلاثة .

٢ ـ ثم لابيّن كيف أباح الله قتل الحيوان مع أنه رحيم ؟ وكيف اجتمعت الرحمة والايلام في عالمنا الأرضي ؟

٣ ـ وبيان الحيوانات الآكلة والمأكولة .

٤ ـ وكيف كان النظام يطلب ذلك ؟

٥ ـ وكيف اختلف نوع الانسان إختلاف الحيوان ؟ وكيف كان الاسلام وسطاً؟ وكيف كان الله هو الملهم والمعلّم بالالهام تارةً وبالاختبار تارةً اخرى ؟

٦ ـ وتحريم أكل الطيور النافعة للانسان شرعاً .

٧ ـ وكيف سمّى الله هذه السورة مائدة وبسط فيها الحلال والحرام ؟

٨ ـ وكيف كانت هذه السورة هي مفتاح لباب العلوم الحيوانية حتى يلج منها المسلمون فيعرفوا الضارّ والنافع بتعليم الله لهم وإلهامه سبحانه وتعالى واختبار الضارّ والنافع فيحفظون ماينفعهم ويحرمون أكله ؟ وفي ذلك باب واسع لدرس الحيوانات كلها ولسائر مافي الأرض ، وهذا بحر مستمدّ من قوله تعالى : « هو الّذي خلق لكم مافي الأرض جميعاً » [1] فلابدّ من دراسة العالم الذي نحن فيه .

وأمـا البقاء على الجهالة العمياء في الاسلام وذلك باب يجرّ الى فناء هذه الامّة وقيام غيرها مقامها ، فليس علم الفقه المعروف كل شيء بل هـو جزء قليل جداً من الدين، والدين لايزال بحاله . فليقم في الاسلام عقلاء وليفكروا ، فهذا موسمهم والله قد أذن بذلك. فهذه ثمان مسائل فلنبتديء بالمسألة الاولى فنقول:

١ ـ شرح هذه الأقسام الثلاثة ذات المسائل الثماني عشرة :

القسم الأول : ماكان حلالاً وحرم القرآن ، وهوسبعة ، خلاف الأربعة التي حرمت قبل هذه السورة في القرآن وهي : الميتة والدم والخنزير وما اُهلّ لغير الله به، فيكون هذا بما اضيف إليه أحد عشر محرماً ... الخ[2].

ثم يذكر بعد هذه المحرمات الواردة في الشرع المذكورة في كتب الفقه ثم يذكر ماأحلّه القرآن ثم يذكر بعض الامور النافعة، وسوف نذكر بعضها في محلّها إن شاء الله تعالى .

بسم الله الرحمن الرحيم

يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود احلت لكم بهيمة الانعام الا مايتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم ان الله يحكم ما يريد (١) .

---

(١) البقرة : ٢٩ .

(٢) تفسير الجواهر : ج٣ ص١١٦ .

لقد تحقق مما مر امور :

الأول : لقد تبين مما ذكرنا من أقوال المفسرين من أن هذه السورة هي آخر القرآن نزولاً ، وأن أحكامها كلها ثابتة لم ينسخ منها شيء ، فيلزم علينا تحليل حلالها وتحريم حرامها ، كما ذكر عن النبي ﷺ .

الثاني: أن المقصود من الوفاء هو إتيان الشيء وافياً لا نقص فيه . قال الراغب في مفرداته : وفى بعهده يفي وفاء وأوفى : اذا تمم العهد ولم ينقض حفظه .

الثالث: أن المقصود من العقود هي العهود ، فإن العقد هو ربط شيء بشيء آخر أو ربط أحد طرفي الشيء بطرفه الآخر ، كربط أحد طرفي الحبل بطرفه الآخر بحيث لايحل بنفسه إلا أن يحله العاقد بتكليف ، وهذا المعنى إنما يكون في الأجسام ثم استعير للمعاني في الامور التي تقع بين شخصين كعقد البيع وعقد الزواج وغير ذلك من العقود التي تقع بين اثنين بحيث يكون تحقق العقد وحصوله في الخارج من طرفين ، ويتصور هذا على ثلاثة أقسام :

الأول : العقد بين الله وعبده .

الثاني : العقد بين إنسان وشخص آخر من الناس .

الثالث : العقد بين إنسان ونفسه .

أمّا العقد بين الله وبين عبده فإنه يشمل جميع العهود التي عهد الله بها الى عبده المؤمن الذي ناداه بقوله : « ياأيها الذين آمنوا » فإنه عهد إليه بالواجبات والمحرمات بأن يفعل الواجب ويترك المحرم .

روي عن ابن عباس: أن المراد بالعقود عهود الله التي عهد بها الى عباده، أي ما أحل وما حرم وما فرض وما حد في القرآن كله لا غدر فيها ولا نكث[1].

وفي التفسير المنسوب الى ابن عباس قال في قوله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود** » : أتموا العهود التي بينكم وبين الله أو بين الناس، ويقال

(١) الدر المنثور : ج٢ ص٢٥٣ .

أتموا الفرائض التي عليكم مع القبول يوم الميثاق وفي هذا الكتاب[1] .

ماقاله الشيخ الطوسي :

قال الشيخ في تفسيره بعد ذكر الآية الشريفة : هذا خطاب من الله تعالى المؤمنين المعترفين بوحدانيته عزّ وجلّ المقرين له بالعبودية المصدقين لرسوله ﷺ في نبوته وفي ماجاء به من عند الله من شريعة الاسلام، أمرهم الله بإيفاء العقود وهي العهود التي عاهدوها مع الله وأوجبوا على أنفسهم حقوقاً وألزموا نفوسهم بها، فروضاً أمرهم الله تعالى بالاتمام بالوفاء والكمال لما ألزمهم. يقال: أوفى بالعهد ووفى به ، وأوفى به لغة أهل الحجاز ، وهي لغة القرآن .

واختلف أهل التأويل في العقود التي أمر الله تعالى بالوفاء بها في هذه الآية بعد إجماعهم على أنّ المراد بالعقود العهود، فقال قوم : هي العقود التي كان أهل الجاهلية عاقد بعضهم بعضاً على النصرة والمؤازرة والمظاهرة على من حاول ظلمهم أو بغاهم سوءً ، وذلك هو معنى الحلف . ذهب إليه ابن عباس ومجاهد والربيع بن أنس والضحّاك وقتادة والسدّي وسفيان الثوري .

والعقود جمع عقد وأصله عقد الشيء بغيره وهو وصله بـه كما يعقد الحبل اذا وصل بـه شيء . يقال : ومنه عقد فلان بينه وبين فلان عقداً فهو يعقده وذلك اذا واثقه على أمرٍ عاهده على عهدٍ بالوفاء له بما عاقده عليه من أمانٍ أو ذمةٍ أو نصرة أو نكاح أو غير ذلك .

قال قتادة : هي عقود الجاهلية الحلف .

ويقال: أعقدت العسل فهو عقيد ومعقد، وروى بعضهم عقدت العسل والكلام وعقدت .

وقال آخرون: هي العهود التي أخذالله على عباده بالايمان به وطاعته فيما

---

(١) التفسير المنسوب لابن عباس المطبوع بهامش الدر المنثور : ج١ ص٣١٥ .

أحلّ لهم وحرم عليهم . روي ذلك عن ابن عباس وقال : هو ماأحلّ وحرم وما فرض ومـاحدّ في القرآن كلّه فـلاتتعدوا ولاتنـكثوا ثم سدد فقال : « والذيـن ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه» الى قوله :«سوء الدار»[1]. وبه قال أيضاًمجاهد.

وقال قوم: بل العقود التي يتعاقدها الناس بينهم ويعقدها المرء على نفسه كعقد الايمان وعقد النكاح وعقد العهد وعقد البيع وعقد الحلف. ذهب إليه عبدالله ابن عبيدة وابن زيد وهو عبدالرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه .

وقال آخرون : ذلك أمر من الله لأهل الـكتاب بالوفاء بما أخذ بهميثاقهم من العمل بمافي التوراة والانجيل في تصديق محمد صلى الله عليه وآله وماجاء به من عند الله . ذكر ذلك ابن جريج وأبو صالح .

وقال الجبائي : أراد بـه الوفاء بالايمان فيما يجوز الوفاء به ، فأمّا ماكان يميناً بالمعصية فعليه حنثه وعليه الكفارة ، وعندنا أنّ اليمين في معصية لاتنعقد ولاكفارة في خلافها .

وأقـوى هذه الأقوال ماحكيناه عن ابن عباس أنّ معناه أوفـوا بعقود الله التي أوجبها عليكم وعقدهـا فيما أحلّ لكم وحرم وألـزمكم فرضه وبيّـن لكم حدوده، ويدخل في جميع ذلك ماقالوه إلا ماكان عقد على المعاونة على أمر قبيح فإنّ ذلك محظور بلاخلاف[2] انتهى .

والذي يظهر من الآية الشريفة هو الذي قواه الشيخ الطوسي وهـو المحكي عن ابن عباس من أنّ المعنى المقصود من العقود هي عقود الله التي أوجبها على عباده وعقدها فيما أحلّ وحرم[3] .

ولايخفى أنّ الله قد أخذ العهد والميثاق من عباده في مقامين :

---

(١) الرعد : ٢٥ .

(٢) التبيان : ج٣ ص٤١٤ ــ ٤١٥ مع اختلاف يسير .

(٣) مجمع البيان : ج٣ ص١٥٢ .

المقام الاول : هو العهد والميثاق الذي أخذه في عالـم الذر ، وهو الذي يشير إليه بقوله تعالى :«وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربّكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين »[1] فإنّ جماعة من المفسرين ذكروا في تفسير هذه الآيـة إنّ الله أخرج ذرية آدم من ظهره وأشهدهم على أنفسهم وهم كالذر[2].

وروي عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه‌السلام قال : إنّ الله تبارك وتعالى أهبط ظللاً من الملائكة على آدم وهو بوادٍ يقال له الروحاء، وهو وادٍ بين الطائف ومكة، ثم صرخ بذريته وهم ذر، فخرجوا كما يخرج النحل من كورها،فاجتمعوا على شفير الوادي . فقال الله لآدم : انظر ماذا ترى ؟ قال آدم : ذراً كثيراً على شفير الوادي . فقال الله : يا آدم هؤلاء ذريتك أخرجتهم من ظهرك لآخذ عليهم الميثاق لي بالربوبية ، ولمحمد بالنبوة كما أخذته عليهم في السماء . قال آدم : وكيف وسعهم ظهري ؟ قال تعالى : يا آدم بلطف صنيعي ونافذ قدري . قال آدم : يارب فما تريد منهم في الميثاق ؟ قال الله : أن لا تشركوا بي شيئاً . قـال آدم : فمن أطاعك منهم يارب فما جزاؤه ؟ قال تعالى: اسكنه جنتي . قال آدم : فمن عصاك فما جزاؤه ؟ قال : اسكنه ناري . قال آدم : يارب لقد عدلت فيهم وليعصينك أكثرهم إن لم تعصمهم[3].

وقال علي بن ابراهيم القمي في تفسيره :

وأما قوله : « وإذ أخذ ربّك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربّكم قـالوا بلى » فإنّه حدثني أبي عن النضر بن سويد عن يحيى الحلبي عن ابن سنان قال : قال أبو عبدالله عليه‌السلام : أول من سبق من الرسل

(١) الاعراف : ١٧٢ .
(٢) راجع مجمع البيان : ج٤ ص٤٩٧ .
(٣) بحار الانوار : ج١٤ ص٩ ب١ ح٨ .

الى « بلى » محمد صلى الله عليه وآله ، وذلك أنه كان أقرب الخلق الى الله تبارك وتعالى ، وكان بالمكان الذي قال جبرئيل لما أسرى به الى السماء : تقدم يامحمد فقد وطأت موطئاً لم يطأه ملك مقرب ولانبيّ مرسل. ولولا أنّ روحه ونفسه كانت من ذلك المكان لما قدر أن يبلغه ، فكان كما قال الله « قاب قوسين أو أدنى »[1] أي : بل أدنى ، فلما خرج الأمر من الله وقع الى أوليائه عليهم السلام ، فقال الصادق عليه السلام : كان الميثاق مأخوذاً عليهم لله بالربوبية ولرسوله بالنبوة ولأمير المؤمنين والأئمة بالامامة ، فقال : ألست بربكم ومحمد نبيكم وعلي إمامكم والأئمة الهادون أئمتكم ؟ قالوا : بلى . فقال الله تعالى : « شهدنا أن تقولوا يوم القيامة » أي : لئلاّ تقولوا يوم يوم القيامة « إنّا كنّا عن هذا غافلين » .

فأول ماأخذ الله عزّوجلّ الميثاق على الأنبياء لله بالربوبية وهو قوله : « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم »[2] فذكر جملة الأنبياء ثم أبرز أفضلهم بالأسامي فقال : « ومنك » يامحمد ، فقدم رسول الله صلى الله عليه وآله لأنه أفضلهم . « ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم » فهؤلاء الخمسة أفضل الأنبياء ورسول الله صلى الله عليه وآله أفضلهم ثم أخذ بعد ذلك ميثاق رسول الله على الأنبياء بالايمان به وعلى أن ينصروا أمير المؤمنين فقال : « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثمّ جاءكم رسول مصدّق لما معكم »[3] يعني رسول الله « لتؤمننّ به ولتنصرنّه » يعني أمير المؤمنين وأخبروا اممكم بخبره وخبر وليه من الأئمة عليهم السلام .

حدثني أبي عن محمد بن أبي عمير عن عبدالله بن مسكان عن أبي عبدالله عليه السلام وعن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : « لتؤمننّ به ولتنصرنّه » قال : قال : مابعث الله نبياً من لدن آدم وهلمّ جراً إلا ويرجع الى الدنيا فيقاتل وينصر رسول

(١) النجم : ٩ .
(٢) الاحزاب : ٧ .
(٣) آل عمران : ٨١ .

الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام ، ثم أخذ أيضاً ميثاق الأنبياء على رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : « قل » يامحمد « آمنّا بالله وما انزل علينا وماانزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وماأوتي موسى وعيسى والنبيّون من ربّهم لانفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون »[1].

وحدثني أبي عن ابن أبي عمير عن ابن مسكان عن أبي عبدالله عليه السلام : « وإذ أخذ ربّك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربّكم قالوا بلى » قلت : معاينة كان هذا ؟ قال : نعم ، فثبتت المعرفة ونسوا الموقف وسيذكرونه ، ولولا ذلك لم يدر أحد من خالقه ورازقه ، فمنهم من أقرّ بلسانه في الذر ولم يؤمن بقلبه فقال الله : « فما كانوا ليؤمنوا بما كذّبوا به من قبل»[2] انتهى كلام القمي .

وقال العلاّمة المراغي في ذكر المعنى الجملي لقوله تعالى : « وإذ أخذ ربّك من بني آدم ... الخ »:

بعد أن ذكر سبحانه هدايته للبشر بإرسال الرسل وإنزال الكتب في قصة بني إسرائيل قفّى على ذلك بذكر هدايته لهم بما أودع في فطرتهم وركّب في عقولهم من الاستعداد للايمان به وتوحيده وشكره منذ النشأة الاولى فهو سبحانه بعد أن أظهر تمادي هؤلاء اليهود في الغيّ بعد أخذ الميثاق الخاص الذي دلّ عليه قوله : « وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنّه ظلّة »[3] وقوله : « وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور »[4] ذكر هنا أنهم نقضوا أيضاً الميثاق العام الذي أخذه على بني آدم جميعاً وهم في صلب آدم ، وأشركوا بالله وقالوا

---

(١) آل عمران : ٨٤ .

(٢) تفسير القمي : ج١ ص٢٤٦ ـ ٢٤٨ والاية٧٤ من سورة يونس .

(٣) الاعراف : ١٧١ .

(٤) البقرة : ٦٣ .

عزير ابن الله .

ثم قال في إيضاح معنى قوله تعالى : « وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ... الخ » : أي : واذكر أيها الرسول للناس كافة ماأخذه الله من ميثاق الفطرة على البشر عامة إذ استخرج من بني آدم ذريتهم بطناً إثر بطن وخلقهم على فطرة الاسلام بما أودع في قلوبهم من غريزة الايمان اليقيني بأن كل فعل لابد له من فاعل ، وأن فوق كل العوالم القائمة على سنة الأسباب والمسببات سلطاناً أعلى على جميع الكائنات هو المستحق للعبادة وحده، وأشهد كل واحد من هؤلاء الذرية الحادثة جيلاً بعد جيل على نفسه بما أودعه في غريزته واستعداده قائلاً لهم قول إرادة وتكوين لاقول وحي وتبليغ : ألست بربكم ؟ فقالوا بلسان الحال لا بلسان المقال: أنت ربنا المستحق وحدك للعبادة . فالكلام من قبيل التمثيل . وله نظائر في القرآن الكريم وأساليب العرب كقوله تعالى بعد ذكر خلق السماء :« فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين »(١) وقوله : « إنما قولنا لشيء اذا أردناه أن نقول له كن فيكون »(٢) وقول بعض العرب : قال الجدار للوتد:لم تشقني ؟ قال: سل من يدقني فإن الذي ورائي ماخلاني ورائي.أي ورأيي(٣)انتهى وسوف نذكر بقية ماقيل في هذه الآية عند الوصول إليها إن شاء الله تعالى .

المقام الثاني : في العهود التي أخذها الله من عباده ـ وهم في الدنيا وهم يعقلون ويفهمون ـ بواسطة الأنبياء والرسل، فإن كل رسول مبعوث من قبل الله اذا آمن به كل الامة وبعضها يبلغهم من الله بما يريده الله من المؤمنين فيبايعونه على فعل مايأمرهم به ولايحل لهم عقلاً مخالفته وترك كل الأوامر أو بعضها عمداً ونحن امة محمد ﷺ حينما اعتنقنا الدين الاسلامي صرنا ملزمين بكل ماأتى به

---

(١) فصلت : ١١ .

(٢) النحل : ٤٠ .

(٣) تفسير المراغي : ج٩ ص١٠٢ ـ ١٠٣ .

النبي من أحكام الحلال والحرام وشملنا كل ماعقد الله به على عباده وألزمه إيّاهم من الايمان وبملائكته و كتبه ورسله وأوصياء رسله .

وقد تقدم بعض الكلام على ذلك في آخر آية من سورة البقرة وهي قوله: « آمن الرسول بماانزل إليه ... الخ » ويلزم على المسلم مراعاة الحدود والأوامر والنواهي في كل كبيرة وصغيرة . فينبغي لنا أن نستمع الى كلمات النبي ﷺ مع أول جماعة اعتنقت الدين الاسلامي ومابيّنه لهم من الشروط التي يجب الوفاء بها ويعرف أنّ نكثها أو نقضها وعدم الوفاء بها موجب للخروج عن الاسلام .

روي أنه قدم أسعد بن زرارة وذكوان بن عبد قيس في موسم من مواسم العرب وهما من الخزرج ، وكان بين الأوس والخزرج حرب قد بقوا فيها دهراً طويلاً ، وكانوا لايضعون السلاح لابالليل ولابالنهار ، وكان آخر حرب بينهم يوم بعاث ، وكانت للأوس على الخزرج ، فخرج أسعد بن زرارة وذكوان الى مكة في عمرة رجب يسألون الحلف على الأوس .

وكان أسعد بن زرارة صديقاً لعتبة بن ربيعة، فنزل عليه فقال له : إنه كان بيننا وبين قومنا حرب وقد جئناك نطلب الحلف عليهم ، فقال له عتبة : بعدت دارنا عن داركم ، ولنا شغل لانتفرغ لشيء . قال : وماشغلكم وأنتم في حرمكم وأمنكم؟ قال له عتبة : خرج فينا رجل يدعي أنه رسول الله ، سفّه أحلامنا وسبّ آلهتنا وأفسد شبّاننا وفرق جماعتنا. فقال له أسعد: من هو منكم؟ قال: ابن عبدالله ابن عبدالمطلب ، من أوسطنا شرفاً وأعظمنا بيتاً .

وكان أسعد وذكوان وجميع الأوس والخزرج يسمعون من اليهود ـ الذين كانوا بينهم النظير وقريظة وقينقاع ـ أنّ هذا أوان نبي يخرج بمكة يكون مهاجر بالمدينة لنقتلنكم به يامعشر العرب .

فلما سمع ذلك أسعد وقع في قلبه ماكان سمع من اليهود ، قال: فأين هو؟ قال : جالس في الحجر ، وأنهم لايخرجون من شعبهم إلا في الموسم ، فلاتسمع منه

ولاتكلمه فإنه ساحر يسحرك كلامه . وكان هذا في وقت محاصرة بني هاشم في الشعب . فقال له أسعد : فكيف أصنع وأنا معتمر ؟ لابدّ لي أن أطوف بالبيت . قال : ضع في اذنيك القطن .

فدخل أسعد المسجد وقد حشى اذنيه بالقطن ، فطاف بالبيت ورسول الله ﷺ جالس في الحجر مع قوم من بني هاشم ، فنظر إليه نظرة فجازه، فلماكان في الشوط الثاني قال في نفسه : ماأجد أجهل مني، أيكون مثل هذا الحديث بمكّة فلاأتعرّفه حتى أرجع الى قومي فاخبرهم . ثم أخذ القطن من اذنيه ورمى به ، وقال لرسول الله : أنعم صباحاً ، فرفع رسول الله رأسه إليه وقال : قد أبدلنا الله به ماهو أحسن من هذا ، تحية أهل الجنة: السلام عليكم. فقال له أسعد : إنّ عهدك بهذا لقريب، الى ماتدعو يامحمد ؟ قال : الى شهادة أن لاإله إلا الله وأني رسول الله وأدعوكم الى « أن لاتشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولاتقتلوا أولادكم من إملاقٍ نحن نرزقكم وإيّاهم ولاتقربوا الفواحش ماظهر منها ومابطن ولاتقتلوا النفس التي حرّم الله إلّا بالحقّ ذلكم وصّاكم به لعلّكم تعقلون * ولاتقربوا مال اليتيم إلّا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشدّه وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لانكلّف نفساً إلّا وسعها واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهدالله أوفوا ذلكم وصّاكم به لعلّكم تذكّرون »[1] .

فلماسمع أسعد هذا قال له: أشهدأن لاإله إلا الله وأنك رسول الله، يارسول الله بأبي أنت وامّي ، إنا من أهل يثرب من الخزرج، وبيننا وبين إخواننامن الأوس حبال مقطوعة ، فإن وصلها الله بك ولاأجد أعزّ منك ، ومعي رجل من قومي ، فإن دخل في هذا الأمر ورجوت أن يتمم الله لنا أمرنا فيك . والله يارسول الله لقد كنا نسمع من اليهود خبرك ويبشروننا بمخرجك ويخبروننا بصفتك، وأرجو أن يكون دارنا دار هجرتك عندنا ، فقد أعلمنا اليهود ذلك ، فالحمد لله الذي

---

(١) الانعام : ١٥١ ـ ١٥٢ .

ساقني إليك ، والله مـاجئت إلا لنطلب الحلف على قومنا ، وقد آتانا الله بأفضل مما أتيت له .

ثم أقبل ذكوان فقال له أسعد : هذا رسول الله ، الذي كانت اليهود تبشرنا به وتخبرنا بصفته، فهلمّ وأسلم ، فأسلم ذكوان . ثم قالا: يارسول الله ابعث معنا رجلاً يعلّمنا القرآن ويدعو الناس الى أمرك، فبعث معهم مصعب بن عمير...الخ[1].

فمضى معهما مصعب بن عمير الى المدينة ونزل على أسعد بن زرارة وجعل يعلّمهم القرآن ويدعو الناس الى الاسلام دعاية حسنة بكلام ليّن ، فصار الناس يدخلون في الدين الاسلامي ، فلم يبق بيت من الأوس والخزرج إلا ويدخل منه الرجل والرجلان سوى أربعة بيوت ، وكانت طريقة دعاية مصعب منحصرة في قراءة آيات من القرآن تتقدمها كلمة قصيرة هي أن يقول لهم: إني أعرض عليكم أمراً إن قبلتموه دخلتم فيه ، وإن كرهتموه نحّينا عنكم ماتكرهون ، ثم يقرأ عليهم القرآن ، فكانوا يسرعون الى الاسلام .

وإني أذكر لك أيها الشاب المسلم قصة رجل واحد ـ نقلها صاحب البحار ـ لتعرف كيف يتأثر العربي بسماع القرآن .

جاء مصعب بن عمير مبعوث النبي مع أسعد بن زرارة الى محلة سعد بن معاذ فقعد على بئر من آبارهم ، واجتمع إليه قوم من أحداثهم وهو يقرأ عليهم القرآن فبلغ ذلك سعد بن معاذ فقال لاسيد بن حضير وكان من أشرافهم: بلغني أن أبا أمامة أسعد بن زرارة قد جاء الى محلّتنا مع هذا القرشي يفسد شبّاننا ، فائته وأنهه عن ذلك ، فجاء اسيد بن حضير فنظر إليه أسعد فقال لمصعب : إنّ هذا رجل شريف ، فإن دخل في هذا الأمر رجوت أن يتمّ أمرنا ، فأصدق الله فيه . فلما قرب اسيد منهم قال: ياأبا أمامة يقول لك خالك: لاتأتنا في نادينا ولاتفسد شبّاننا واحذر الأوس على نفسك . فقال مصعب : أوتجلس فنعرض عليك أمراً فإن أحببته

(١) بحار الانوار : ج١٩ ص٨ ب٥ ضمن ح٥ .

دخلت فيه، وإن كرهته نحّينا عنك ماتكره . فجلس فقرأ عليه سورة من القرآن فقال : كيف تصنعون اذا دخلتم في هذا الأمر؟ قال : نغتسل ونلبس ثوبين طاهرين ونشهد الشهادتين ونصلّي ركعتين . فرمى اسيد بنفسه مع ثيابه في البئر ثم خرج وعصر ثوبه ثم قال : اعرض عليّ . فعرض عليه شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله ، فقالها ثم صلّى ركعتين[1].

هذه قصة رجل سمع القرآن ، فعرف أنه كلام الله وأنّ المنزل عليه هو نبيّ مبعوث من الله ، فرمى بنفسه في البئر لتحقيق الغسل ، وأنّ المسلم ينبغي أن يكون مثل هذا الرجل مبادراً لأمر الله بعدما يعلم أنّ القرآن هو منزل من عند الله . ولكن المسلمين في هذا العصر قد ضعف إيمانهم فترك الكثير منهم الصلاة ، والذي لا يصلّي يتهاون أيضاً في غسل الجنابة ويخالف أحكام القرآن فيترك الواجب ويفعل المحرم ، وهذا خلاف ما أملاه النبي ﷺ على أسعد من شروط الاسلام في الآيات المتقدمة ، ثم إنّ الذين أسلموا من أهل المدينة قد جاؤوا الى النبي ﷺ في السنة الثانية واجتمعوا به وبايعوه وسألوه عما يجب عليهم لله ومايلزمهم لرسول الله ﷺ .

ثم قال في البحار :

وخرج من خرج من الأنصار الى الموسم مع حجاج قومهم ، فاجتمعوا في الشعب عند العقبة ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان في أيام التشريق بالليل فقال ﷺ : ابايعكم على الاسلام ، فقال له بعضهم : نريد أن تعرّفنا يارسول الله مالله علينا ومالك علينا ومالنا على الله ؟ فقال النبي ﷺ : أمّا لله عليكم فأن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأمّا مالي عليكم فتنصروني مثل نسائكم وأبنائكم ، وأن تصبروا على عضّ السيف وإن يقتل خياركم .

قالوا : فاذا فعلنا ذلك مالنا على الله ؟

---

(١) بحار الانوار : ج١٩ ص١٠ ب٥ ضمن حديث٥ .

قال: أمّا في الدنيا فالظهور على من عاداكم وفي الآخرة رضوانه والجنة .

فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: والذي بعثك بالحق لنمنعنك بما نمنع به أزرنا ، فبايعنا يارسول الله فنحن والله أهل الحروب وأهل الحلقة ، ورثناها كباراً عن كبار .

فقال أبو الهيثم: إنّ بيننا وبين الرجال حبالاً، وإنا إن قطعناها أوقطعوها فهل عسيت إن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا ؟ فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال : بل الدم الدم والهدم الهدم احارب من حاربتم واسالم من سالمتم[1] .

فقد تحقق أنّ الاسلام والايمان يشترط في صحته وتحققه الامور التي بيّنها النبي ﷺ، ولايتحقق الاسلام بالقول وحده اذاكان مجرداً من هذه الامور كلها أو بعضها ، وهي:

(الأول) قوله تعالى : « أن لاتشركوا به شيئاً » .

وهو عبارة عن التوحيد الخالص الذي ينعقد عليه القلب، حيث إنّ العرب كانت تعبد الأصنام إمّا باتخاذها آلهة أو باعتقاد أنها تقرب الى الله زلفى ، فإنّ العقل يحكم بأدنى تأمل بسخافة هذه العقيدة وبطلانها .

(الثاني) قوله سبحانه: « وبالوالدين إحساناً » .

لقد تكثرت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأخبار عن الأئمة الأطهار بالوصاية بالوالدين والاحسان إليهما وإطاعة أمرهما وبرهما حيّين وميّتين حتى قال النبي ﷺ من جملة وصيته لأحد المسلمين: ووالديك فأطعهما وبرّهما حيّين كانا أو ميّتين، ولو أمراك أن تخرج من مالك وأهلك فافعل فإنّ ذلك من الايمان[2] .

---

(١) بحار الانوار : ج١٩ ص٢٥ ب٥ ح١٥ .

(٢) الوسائل : ج١٥ ص٢٠٥ ب٩٢ ح٤ .

(الثالث) قوله عزّ وجلّ : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإيّاهم » .

كانت العرب في أيام الجاهلية تقتل الأولاد مطلقاً ذكراً كان أو انثى، هذا يفعله بعض العرب ، حيث إنهم كانوا يخشون الفقر وكثرة العيال حيث إنهم لم يكونوا يعقلون ولايعتقدون أنّ الرازق هو الله، هذا قسم منهم .

وقسم آخر كانوا يقتلون البنات فقط خشية أن يقعن في أيدي الأجانب ، وهذا ناشيء من الغيرة الهوجاء التي لايقرها العقل ولايوافق عليها ، فيعدمون حياتهنّ الدنيوية المنقطعة لأنهم لم يكونوا متمسكين بدين ولاشريعة ولم تكن لهم عقول كاملة وأذواق سليمة ويخدعهم الشيطان فيعدمون حياة البنات الضعيفات.

أما في عصرنا هذا فإنّ المسلمين الذين عاهدوا الرسول حينما اعتنقوا الدين الاسلامي بأن يكون عملهم مطابقاً لأحكام القرآن وموافقاً لأوامر النبي صلّى الله عليه وآله فإنهم يطلقون لبناتهم الحرية فيخرجن متبرجات تبرج الجاهلية الاولى ويجالسن الرجال ويماشين الفسقة المجردين عن الدين ، فتسبب هذه الأعمال الوقوع في الزنا ، وهذا الفعل من الرجال يكون موجباً لفوات حياة البنات الاخروية الدائمة ، وهو أعظم من الوأد والقتل الذي كان يفعله أهل الجاهلية .

(الرابع) قوله عزّ من قائل : « ولاتقربوا الفواحش ماظهر منها ومابطن ».

جاء في بعض التفاسير أنّ المراد من « الفواحش » كبائر الذنوب أو الزنا و « ماظهر منها » نكاح امرأة الأب ، « ومابطن » الزنا[١].

وعن الباقر عليه السلام : « ماظهر » هو الزنا « ومابطن » المخالّة[٢] بالتشديد من الخلّة يعني اتخاذ الخليل .

---

(١) تفسير الصافي : ج٢ ص١٦٩ .

(٢) مجمع البيان : ج٤ ص٣٨٢ .

قال تعالى: « ولا متّخذات أخدان »[١] وهذا يدلّ على أن مجالسة النساء للرجال من الفواحش الباطنة. هذا اذا كان الجليسان متستران عن الناس مختفيان لايراهما أحد، فيعدّ فعلهما من الفواحش الباطنة.

أما في عصرنا الحاضر فإنّ المخالّة يتظاهران بها ولايخشى الرجل أحداً ولاالمرأة تخشى أهلها، فيعدّ فعلهما من ظاهر الفواحش لامما بطن منها، إذ أنهما يمشيان جنباً لجنب في الشوارع ويجلسان في النادي وتخرج المرأة المسلمة متبرجة الى الشارع والسوق على علم من وليّ أمرها. وقد قال الله تعالى: « ولاتبرّجن تبرّج الجاهلية الاولى »[٢] والمسلم والمسلمة لاينبغي لهما ذلك، ألا من فعل شيئاً مما ذكر من هذه الأفعال التي نهى الله عنها فليتذكر اليوم الذي ليس فيه خلّة ولاشفاعة كما في قوله تعالى: « ياأيّها الّذين آمنوا أنفقوا مما رزقكم الله من قبل أن يأتي يوم لابيع فيه ولاخلّة ولاشفاعة »[٣].

عن محمد بن منصور قال: سألت مؤمناً صالحاً (يعني موسى بن جعفر عليه السلام) عن قول الله عزّوجلّ: « إنّما حرّم ربي الفواحش ماظهر منها ومابطن » فقال عليه السلام: إنّ القرآن له ظاهر وباطن، فجميع ماحرم الله تعالى في القرآن فهو حرام على ظاهره كما هو في الظاهر والباطن، من ذلك أئمة الجور، وجميع ماأحلّ الله في الكتاب فهو حلال وهو الظاهر والباطن، من ذلك أئمة الهدى عليهم السلام[٤].

وعن النبي صلى الله عليه وآله قال: إنّ من شرّ عباد الله من تكره مجالسته لفحشه[٥].

وعنه صلى الله عليه وآله: إنّ الله حرم الجنة على كل فحّاش بذيء قليل الحياء لايبالي ماقال ولاماقيل له، فإنك إن فتشته لم تجده إلّا لغية أو شرك شيطان[٦].

---

(١) النساء: ٢٥.
(٢) الاحزاب: ٣٣.
(٣) البقرة: ٢٥٤.
(٤) سفينة البحار: ج٢ ص٣٤٧ مادة « فحش ».
(٥) و (٦) سفينة البحار: ج٢ ص٣٤٦ مادة « فحش ».

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ألا اخبركم بأبعدكم مني شبهاً، قالوا: بلى يارسول الله، قال: الفاحش المتفحش البذيء، البخيل المختال الحقود الحسود، القاسي القلب، البعيد من كل خير يرجى، غير المأمون من كل شرّ يتقى[١].

وعن محمد بن منصور قال: سألته (يعني أبا عبدالله عليه السلام) عن قوله تعالى: «وإذا فعلوا فاحشةً قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إنّ الله لايأمر بالفحشاء أتقولون على الله مالاتعلمون»[٢] قال: فهل رأيت أحداً زعم أنّ الله أمره بالزنا وشرب الخمر وشيء من هذه المحارم؟ قلت: لا، قال: فماهذه الفاحشة التي يدعون أنّ الله أمرهم بها؟ قلت: الله أعلم ووليّه، قال: فإنّ هذا في أولياء أئمة الجور ادعوا أنّ الله أمرهم بالائتمام بهم، فردّ الله ذلك عليهم وأخبرهم أنهم قالوا عليه الكذب وسمى ذلك منهم فاحشة[٣].

(الخامس) قوله جلّ ثناؤه: «ولاتقتلوا النفس الّتي حرمّ الله إلا بالحقّ».

قالوا: إنّ قتل النفس بالحق يكون في ثلاثة مواضع:

١ ـ كفر بعد إيمان.

٢ ـ زنا بعد إحصان.

٣ ـ القود: وهو قتل من قتل نفساً عمداً بلاذنب، وهو الذي نبهنا الله عليه بقوله: «ولكم في القصاص حياة ياأولي الألباب»[٤].

(السادس) قوله عزّ شأنه: «ولاتقربوا مال اليتيم».

حذر الكتاب والسنّة من التقرب الى مال اليتيم إلا لأجل منفعته. أما أكله

---

(١) سفينة البحار: ج٢ ص٣٤٦ مادة «فحش».

(٢) الاعراف: ٢٨.

(٣) سفينة البحار: ج٢ ص٣٤٦ مادة «فحش».

(٤) البقرة: ١٧٩.

في الأخذ منه فهو من أكبر الكبائر ويكفي قوله تعالى : « إنّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً »[1] فيلزم على كل مسلم المحافظة على مال اليتيم حتى يكبر فيسلّم اليه .

(السابع) قوله جلّ وعلا : « وأوفوا الكيل والميزان بالقسط » .

لقد أمر الله العباد في آيات عديدة بإيفاء الكيل والوزن بالقسط وأن لا يبخسوا الناس شيئاً من حقوقهم وتوعد المطففين بالويل ، والويل وادٍ في جهنم كما يظهر من الخبر عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم: ياعلي إنّ جبرئيل أخبرني أنّ امّتي تغدر بك من بعدي، فويل ثم ويل لهم ثلاث مرات قلت : يارسول الله وماويل ؟ قال : وادٍ في جهنم ، أكثر أهليه معادوك والقاتلون لذريتك والناكثون لبيعتك ... الخ[2].

(الثامن) قوله سبحانه وتعالى : « واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » .

هذا هو الشرط الثامن من شروط الاسلام وهو يشمل جميع الأقوال والأفعال التي يأتي بها الانسان ، فيلزمه أن تكون أقواله مطابقة للعدل الذي يرضي به الله ولايكون فيها شيء من الجور والظلم والحيف . قال الله تعالى :« إنّ الله يأمر بالعدل والاحسان »[3] فالعدل هو مقابلة الشيء بمثله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، والاحسان هو المضاعفة في الخير والعفو في الشر .

سئل أمير المؤمنين أيّما أفضل العدل أو الجود ؟ قال : العدل يضع الامور مواضعها، والجود يخرجها عن وجهتها، والعدل سائس عام ، والجود عارض خاص

---

(١) النساء : ١٠ .

(٢) بحار الانوار : ج٨ ص٣١٢ ب٢٤ ح٨٢ .

(٣) النحل : ٩٠ .

فالعدل أشرفهما وأفضلهما[١].

وقال النبي ﷺ: أعدل الناس من رضي للناس مايرضى لنفسه و كره لهم ما كره لنفسه[٢].

إنّ العدل لازم وفريضة على كل أحد ومع كل أحد في الأقوال والأفعال والمعاملات والبيع والشراء، ولكنه من الحاكم بين الناس أشدّ لزوماً، ويدلّ على ذلك قول النبي ﷺ: العدل حسن ولكن في الامراء أحسن[٣].

ولما دخل رسول ملك الروم على كسرى رآه قد فتح بابه ورفع حجابه فقال له: لقد أقدرت عليك بفتحك الباب ورفعك الحجاب، قال كسرى: إنما أتحصن من عدوي بعدلي، وإنما انصبت هذا المنصب وجلست هذا المجلس لقضاء الحاجات ودفع الظلامات، فإن لم تتصل الرعية إليّ فمتى أقضي حاجاتها وأدفع ظلاماتها[٤]؟

وروي عن النبي ﷺ: السلطان ظلّ الله في الأرض، يأوي إليه كل مظلوم فمن عدل كان له الأجر وعلى الرعية الشكر، ومن جار كان عليه الوزر وعلى الرعية الصبر حتى يأتيهم الأمر[٥].

وعن محمد الحلبي أنه سأل أبا عبدالله عليه السلام عن قوله تعالى، «أنّ الله يحيي الأرض بعد موتها»[٦] قال: العدل بعد الجور[٧].

وأمـا صفة العادل فهي كما روي عن النبي ﷺ أنه قال: من عامل الناس

---

(١) بحار الانوار: ج٧٥ ص٣٥٠ ب٨١ ح٥٩.

(٢) بحار الانوار: ج٧٥ ص٢٥ ب٣٥ ح١.

(٣) ارشاد القلوب: ص١٩٣ ب٥٢.

(٤) سفينة البحار: ج٢ ص١٦٧ مادة «عدل».

(٥) بحار الانوار: ج٧٥ ص٣٥٤ ب٨١ ح٦٩.

(٦) الحديد: ١٧.

(٧) الروضة من الكافي: ص٢٦٧.

فلم يظلمهم وحدّثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته ووجبت اخوّته وحرمت غيبته[١].

وعن الصادق عليه السلام قال: من صلّى خمس صلوات في اليوم والليلة في جماعة فظنّوا به خيراً وأجيزوا شهادته[٢].

بقي أمـر مهم وهو أنه لاريب عند من آمن بالنبي صلى الله عليه وآله أنّ دينـه خير الأديان وأنّ شريعته أسمح الشرائع، واذا طلب من أحدهم أن يصف عدل الأديان لايصف غير دين محمد. ثم إني أرجو من المؤمن الجاني على نفسه ـ بترك الواجب أو بارتكاب المحرم ـ أن يلتفت الى هذه الكلمة الصادرة من الامام الصادق عليه السلام فإنه قال : إنّ أشدّ الناس حسرة يوم القيامة من وصف عدلاً ثم عمل بغيره[٣].

فإنك أيها المؤمن اذا وصفت دين محمد بأنه أعدل الأديان ثم خالفته وعملت بضده، بحيث تصف الدين بأنه يوجب الصلاة والصوم والزكاة والحجّ والجهاد والأمر بالمعروف ولاتفعل شيئاً من ذلك، وتصفه بأنه يحرم الخمر والميسر والظلم والرياء والغيبة والنميمة وغيرها وأنت ترتكب جميع ذلك أو بعضه، فاذا فعلت سوف تشتدّ حسرتك يوم القيامة ، فارحم نفسك واعطف عليها فإنها أعزّ الأنفس عليك. وقد فسر «الغاوون» في قوله تعالى: «فكبكبوا فيها هم والغاوون»[٤] بمن وصف العدل ثم خالفه[٥].

(التاسع) قوله تبارك وتعالى : « وبعهد الله أوفوا ذلكم وصّاكم به لعلّكم تذكّرون » .

هذا هو الشرط التاسع من الاسلام التي يلزم من دخل في الاسلام أن يتصف

---

(١) بحار الانوار : ج٧٠ ص١ ب٣٩ ح١ .

(٢) بحار الانوار : ج٧٠ ص٢ ب٣٩ ح٣ .

(٣) سفينة البحار : ج٢ ص١٦٧ مادة « عدل » .

(٤) الشعراء : ٩٤ .

(٥) تفسير البرهان : ج٣ ص١٨٥ .

بها ، وهذا الشرط عين ما نحن فيه من معنى الآية وهي قوله تعالى: « ياأيّها الّذين آمنوا أوفوا بالعقود » فإنّ الآية تفيد أنّ كل عقد وعهد يأخذه الله على العباد يلزمهم الوفاء به . وهذا المعنى هو نفس هذه الجملة وهي قوله : « وبعهد الله أوفوا » وهذا وحده اذا تمسك به العبد يكون متصفاً بجميع الشروط ، فإنّ كل واحد من الشروط عهد من الله على عباده يلزمهم الوفاء به .

ثم إنّ هذه الشروط هي التي بيّنها لأول جماعة آمنوا به من أهل المدينة أما الذين جاؤوا في السنة الثانيـة وهم ثلاثة وسبعون وامرأتان فقد أخـذ عليهم النبي ﷺ إضافة الى ماسبق وهو الشرط (العاشر) وذلك في قوله « وأمّا مالي عليكم فتنصرونني مثل نسائكم وأبنائكم وأن تصبروا على عضّ السيف وإن يقتل خياركم »[1] فهذه شروط ثلاثة جمعها النبي ﷺ في هذه الجملة :

الأول : أنه يجب على المسلم أن ينصر النبي ﷺ حياً وميتاً ، واذا رأى أحداً يتلاعب بسنّة النبي أو بحديثه أو يضع حديثاً عن لسان النبي ﷺ كذباً وافتراءً يلزمه اذن ، ويتحتم عليه أن يقابل ذلك المتلاعب أو ذلك الواضع ويبطل قوله ويظهر كذبه .

الثاني : اذا اقتضى المقام الحرب والجهاد يلزم الحرب حتى ينتصر ويتغلّب على الكافرين أو يقتل .

الثالث: اذا رأى المسلمون خيارهم قد قتلوا يلزمهم الصبر والثبات والمثابرة على الحرب حتى ينتصر المسلمون ولا يذلّوا ولا يتخاذلوا .

ولا يخفى أنّ هـذه الصفات الثلاث جعلها النبي ﷺ من شروط الاسلام ، وأنّ كثيراً من الناس قد تجرد عنها وفقدها ، والذي يختار الاسلام ديناً له يلزمه الاتصاف بها لأنّ النبي أخبرهم عن الله أنّ الذي لله عليهم هو اتصافهم بهذه الصفات وأنّ الذي للنبي عليهم هو النصرة له كما ينصرون نساءهم وأبناءهم، وأنّ الذي لهم

(١) بحار الانوار : ج١٩ ص٢٦ ب٥ ح١٥ .

على الله هو أن يظهرهم على عدوهم في الدنيا ، وأن يحبوهم برضوانه والجنة في الآخرة ، وأنّ الله لاينقض عهده ولايخلف وعده .

فلو أنّ المسلمين اتصفوا بالصفات المذكورة واتفقوا فيما بينهم وائتلفت قلوبهم لما تمكن أعداؤهم ـ الصهاينة ـ أن يحتلّوا أراضيهم ولنصرهم الله عليهم.

فينبغي لنا الرجوع الى الله تعالى وإطاعة أوامره ليتحقق إسلامنا وحينئذٍ يفي الله لنا بوعده « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض ... الآية »[1] و « إن تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم »[2].

ثم إنّ النبي ﷺ عقد مع أصحابه بيعة اخرى هي أشد مما تقدم ، وأنّ كل من أسلم هو مطالب بها وهي « بيعة الرضوان » التي عقدها النبي ﷺ في غزوة الحديبية .

والأنسب أن أذكر لك غزوة الحديبية من أولها ليتضح لك الأمر تماماً .

قال علي بن ابراهيم في تفسير سورة الفتح وسبب نزولها :

حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن ابن سنان عن أبي عبدالله عليه السلام قال : كان سبب نزول هذه السورة وهذا الفتح العظيم أنّ الله عزّ وجلّ أمر رسول الله ﷺ في النوم أن يدخل المسجد الحرام ويطوف ويحلق مع المحلقين، فأخبر أصحابه وأمرهم بالخروج فخرجوا ، فلما نزل ذا الحليفة أحرموا بالعمرة وساقوا البدن وساق رسول الله ﷺ ستاً وستين بدنة وأشعرها عند إحرامه ، وأحرموا من ذي الحليفة ملبّين بالعمرة، وساق من ساق منهم الهدي مشعرات مجلّلات.

فلما بلغ قريشاً ذلك بعثوا خالد بن الوليد في مائتي فارس كميناً ليستقبل رسول الله ﷺ فكان يعارضه على الجبال ، فلما كان في بعض الطريق حضرت صلاة الظهر فأذّن بلال وصلّى رسول الله ﷺ بالناس ، فقال خالد بن الوليد :

---

(١) الاعراف : ٢٩ .

(٢) محمد : ٧ .

لو كنا حملنا عليهم وهم في الصلاة لأصبناهم فإنهم لايقطعون صلاتهم ولكن تجيء لهم الآن صلاة اخرى أحبّ إليهم من ضياء أبصارهم (أرجو من المسلم المتهاون بالصلاة أن يتأمل في هذه العبارة ليعرف محل الصلاة عند المسلم)[1] . فإذا دخلوا في الصلاة أغرنا عليهم ، فنزل جبرئيل عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وآله بصلاة الخوف بقوله : «وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة»[2] الآية .

فلما كان في اليوم الثاني نزل رسول الله صلى الله عليه وآله الحديبية وهي على طرف الحرم، وكان رسول الله يستنفر بالأعراب في طريقه معه فلم يتبعه أحد ويقولون: أيطمع محمد وأصحابه أن يدخلوا الحرم وقد غزتهم قريش في عقر ديارهم فقتلوهم ؟ إنه لايرجع محمد وأصحابه الى المدينة أبداً . فلما نزل رسول الله الحديبية خرجت قريش يحلفون باللات والعزى لايدعون محمداً يدخل مكة وفيهم عين تطرف، فبعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وآله: إني لم آت لحرب وإنما جئت لأقضي نسكي وأنحر بدني واخلي بينكم وبين لحماتها. فبعثوا عروة بن مسعود الثقفي وكان عاقلاً لبيباً وهو الذي أنزل الله فيه «وقالوا لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم»[3] فلما أقبل على رسول الله صلى الله عليه وآله عظم ذلك وقال: يامحمد تركت قومك وقد ضربوا الأبنية وأخرجوا العود المطافيل[4] يحلفون باللات والعزى لايدعوك تدخل مكة فإنّ مكة حرمهم وفيها عين تطرف أفتريد أن تبيد أهلك وقومك يامحمد ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : ماجئت لحرب وإنما جئت لأقضي نسكي فأنحر بدني واخلي بينكم وبين لحماتها ، فقال عروة : بالله مارأيت كاليوم أحداً صدّ كما صددت . فرجع الى قريش وأخبرهم ، فقالت قريش : والله لئن دخل محمد مكة وتسامعت به

---

(١) مابين القوسين من المؤلف ـ رحمه الله ـ .

(٢) النساء : ١٠٢ .

(٣) الزخرف : ٣١ .

(٤) عود ـ كطود ـ المسن ، المطافيل : ذوات أطفال .

العرب لنذلان ولتجترين علينا العرب .

فبعثوا حفص بن الأحنف وسهيل بن عمرو فلما نظر إليهما رسول الله صلى الله عليه وآله قال : ويح قريش قد نهكتهم الحرب ، ألا خلّوا بيني وبين العرب، فإن أك صادقاً فإنما أجر الملك إليهم مع النبوة ، وإذ أك كاذباً كفتهم ذؤبان العرب ، لا يسألني اليوم امرؤ من قريش خطة ليس لله فيها سخط إلا أجبتهم إليه .

قال : فوافوا رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا : يا محمد ألا ترجع عنا عامك هذا الى أن ننظر الى ماذا يصير أمرك وأمر العرب ، فإن العرب قد تسامعت بمسيرك ، فإن دخلت بلادنا وحرمنا استذلّتنا العرب واجترأت علينا ، ونخلّي لك البيت في العام القابل في هذا الشهر ثلاثة أيام حتى تقضي نسكك وتنصرف عنا. فأجابهم رسول الله صلى الله عليه وآله الى ذلك وقالوا له : وترد إلينا كل من جاءك من رجالنا ونرد إليك كل من جاءنا من رجالك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : من جاءكم من رجالنا فلا حاجة لنا فيه ولكن على أن المسلمين بمكة لا يؤذون في إظهارهم الاسلام ولا يكرهون ولا ينكر عليهم شيء يفعلونه من شرايع الاسلام. فقبلوا ذلك .

فلمّا أجابهم رسول الله الى الصلح أنكر عامة أصحابه وأشد ما كان إنكاراً عمر بن الخطاب ، فقال : يارسول الله: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل! فقال: نعم . قال فنعطي الذلّة (الدنية خ) في ديننا! قال: إن الله قد وعدني ولن يخلفني. قال : لو أن معي أربعين رجلاً لخالفته .

ورجع سهيل بن عمرو وحفص بن الأحنف الى قريش فأخبرهم بالصلح فقال عمر: يا رسول الله ألم تقل لنا أن ندخل المسجد الحرام ونحلق مع المحلقين؟ فقال : أمن عامنا هذا وعدتك ؟ وقلت لك : إن الله عز وجل قد وعدني أن أفتح مكة وأطوف وأسعى مع المحلقين. فلما أكثروا عليه صلى الله عليه وآله قال لهم: إن لم تقبلوا الصلح فحاربوهم. فمروا نحو قريش وهم مستعدون للحرب، وحملوا عليهم فانهزم أصحاب رسول الله ومروا برسول الله صلى الله عليه وآله فتبسم رسول الله ثم قال : يا علي خذ

السيف واستقبل قريشاً ، فأخذ أمير المؤمنين عليه السلام سيفه وحمل على قريش ، فلما نظروا الى أمير المؤمنين عليه السلام تراجعوا وقالوا : يا علي بدا لمحمّد فيما أعطانا ؟ فقال : لا .

وتراجع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله مستحيين وأقبلوا يعتذرون الى رسول الله ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله : ألستم أصحابي يوم بدر إذ أنزل الله فيكم «إذ تستغيثون ربّكم فاستجاب لكم أنّي ممدكم بألف من الملائكة مردفين»[1] ؟ ألستم أصحابي يوم احد إذ تصعدون ولاتلوون على أحد والرسول يدعوكم في اخراكم ؟ ألستم أصحابي يوم كذا ؟ فاعتذروا الى رسول الله صلى الله عليه وآله وندموا على ماكان منهم وقالوا : الله أعلم ورسوله فاصنع ما بدا لك .

ورجع حفص بن الأحنف وسهيل بن عمرو الى رسول الله صلى الله عليه وآله وقالا : يامحمّد قد أجابت قريش الى ما اشترطت عليهم من إظهار الاسلام وأن لايكره أحد على دينه ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله بالمكتب ودعا أمير المؤمنين عليه السلام وقال له: اكتب ، فكتب أمير المؤمنين عليه السلام : بسم الله الرحمن الرحيم .

فقال سهيل بن عمرو: لانعرف الرحمن اكتب كما كان يكتب آباؤك ـ باسمك اللهمّ ـ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : اكتب باسمك اللهمّ فإنه اسم من أسماء الله ، ثم كتب : هذا ما تقاضى عليه محمّد رسول الله والملأ من قريش . فقال سهيل ابن عمرو : لو علمنا أنك رسول الله ما حاربناك ، اكتب : هذا ما تقاضى عليه محمّد بن عبدالله، أتأنف من نسبك يامحمّد؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: أنا رسول الله وإن لم تقروا . ثم قال: امح ياعلي واكتب محمّد بن عبدالله، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: ما أمحو اسمك من النبوة أبداً ، فمحاه رسول الله بيده .

ثم كتب : هذا ما اصطلح عليه محمّد بن عبدالله والملأ من قريش وسهيل بن عمرو ، اصطلحوا على وضع الحرب بينهم عشر سنين على أن يكفّ بعض عن بعض

---

(١) الانفال : ٩ .

وعلى أن لاأسلال ولاأغلال (١) وأنّ بيننا وبينهم غيبة مكفوفة ، وأنه من أحبّ أن يدخل في عهد محمد وعقده فعل ومن أحبّ أن يدخل في عهد قريش وعقدها فعل ، وأنه من أتى من قريش الى أصحاب محمد بغير إذن وليّه يرده إليه ، وأنه من أتى قريشاً من أصحاب محمد لم يردوه إليه ، وأن يكون الاسلام ظاهراً بمكة لايكره أحد على دينه ولايؤذى ولايعيّر ، وأنّ محمداً يرجع عنهم عامه هذا وأصحابه ثم يدخل علينا في العام القابل مكة فيقيم فيها ثلاثة أيام ولايدخل عليها بسلاح إلا سلاح المسافر ، السيوف في القراب .

وكتب علي بن أبي طالب عليه السلام وشهد على الكتاب المهاجرون والأنصار .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ياعلي إنك أبيت أن تمحو اسمي من النبوة فوالذي بعثني بالحق نبيّاً لتجيبنّ أبناءهم الى مثلها وأنت مضيض مضطهد (٢) . فلما كان يوم صفين ورضوا بالحكمين كتب : هذا ما اصطلح عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ، فقال عمرو بن العاص : لو علمنا أنك أمير المؤمنين ما حاربناك ولكن اكتب : هذا ما اصطلح عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان . فقال أمير المؤمنين : صدق الله ورسوله ذلك ، ثم كتب الكتاب .

قال : فلما كتبوا الكتاب قامت خزاعة فقالت : نحن في عهد محمد رسول الله وعقده ، وقامت بنو بكر وقالت : نحن في عهد قريش وعقدها ، وكتبوا نسختين نسخة عند رسول الله ونسخة عند سهيل بن عمرو ، ورجع سهيل بن عمرو وحفص ابن الأحنف الى قريش فأخبراهم.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله لأصحابه : انحروا بدنكم واحلقوا رؤوسكم ، فامتنعوا وقالوا: كيف ننحر ونحلق ولم نطف بالبيت ولم نسع بين الصفا والمروة، فاغتمّ رسول الله صلى الله عليه وآله من ذلك وشكا ذلك الى امّ سلمة فقالت : يارسول الله انحر

(١) أسلال : سل السيف ، أغلال : الاسارة .

(٢) مض مضيضاً : ألم من وجع المصيبة ، مضطهد : المقهور المظلوم .

أنت واحلق . فنحر رسول الله ﷺ وحلق ونحر القوم على حيث يقين وشكّ وارتياب ، فقال رسول الله ﷺ تعظيماً للبدن : رحم الله المحلّقين ، وقال قوم : لم يسوقوا البدن يا رسول الله والمقصّرين لأنّ من لم يسق هدياً لم يجب عليه الحلق ، فقال رسول الله ﷺ ثانياً : رحم الله المحلّقين الذين لم يسوقوا الهدي ، فقالوا: يارسول الله والمقصّرين ؟ فقال : رحم الله المقصّرين.

ثم رحل رسول الله ﷺ نحو المدينة فرجع الى التنعيم ونزل تحت الشجرة فجاء أصحابه الذين أنكروا عليه الصلح واعتذروا وأظهروا الندامة على ما كان منهم وسألوا رسول الله ﷺ أن يستغفر لهم[1] انتهى .

ثم اعلم ياأخي المسلم ! إني إنما ذكرت لك هذه القصة بطولها لكي يتضح لك معنى البيعة التي يعقدها النبي مع المسلم ، فإنه لمّا نزل تحت الشجرة طلب من أصحابه البيعة ، فإنهم وإن بايعوه في أول دخولهم في الاسلام ولكنهم حيث لم يعرفوا حقيقة البيعة أراد النبي ﷺ أن يبيّن لهم شروط البيعة قال تعالى : « إنّ الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ... الخ »[2].

فقد اشترط النبي ﷺ عليهم :

١ ـ أن لاينكروا على رسول الله بعد ذلك شيئاً يفعله .

٢ ـ أن لايخالفوه في شيء يأمرهم به .

فمن وفى بهذا الشرط ولم ينقضه يشمله رضا الله في قوله تعالى « لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة »[3].

٣ ـ إنّ البيعة هي عبارة عن بيع النفس بالجنة ، فهي الجهاد في سبيل الله

---

(١) تفسير القمي : ج٢ ص٣٠٩ ـ ٣١٤ مع بعض الاختصار .

(٢) الفتح : ١٠ .

(٣) الفتح : ٨ .

بأمر النبي صلى الله عليه وآله.

فقد اتضح لنا أنّ الدخول في الاسلام هو بمعنى البيعة مع النبي والذي يبايع النبي إنما يبايع الله كما هو صريح الآية، فيلزمه أن يفي بالشروط التي تقدم ذكرها، فلا يمكن لمسلم أن ينكر شيئاً يفعله رسول الله صلى الله عليه وآله، ولا يمكن أن يخالف شيئاً من أوامره، ويلزمه امتثال جميع أوامره.

عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام أنه تلا هذه الآية: «فلاوربّك لايؤمنون حتّى يحكّموك فيما شجر بينهم ثمّ لايجدوا في أنفسهم حرجاً ممّا قضيت ويسلّموا تسليماً»(١) فقال: لو أنّ قوماً عبدوا الله ووحدوه ثم قالوا لشيء صنعه رسول الله لوصنع كذا وكذا أو وجدوا ذلك في أنفسهم كانوا بذلك مشركين. ثم قال تعالى: «فلا وربّك لايؤمنون حتّى يحكّموك فيما شجر بينهم ثمّ لايجدوا في أنفسهم حرجاً ممّا قضيت ويسلّموا تسليماً» قال: هو التسليم في الامور. بيان: «لو» في قوله «لوصنع» للتمني(٢) انتهى.

عن سعيد بن غزوان قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: والله لو آمنوا بالله وحده وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم لم يسلّموا لكانوا بذلك مشركين، ثم تلا هذه الآية: «فلاوربّك لايؤمنون حتّى يحكّموك فيما شجر بينهم ثمّ لايجدوا في أنفسهم حرجاً ممّا قضيت ويسلّموا تسليماً»(٣).

وعن أبي بصير قال: سئل أبو عبدالله عليه السلام عن قوله: «ويسلّموا تسليماً» قال: هو التسليم في الامور(٤).

وعن المفضل بن عمر قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: بأيّ شيء علمت الرسل

---

(١) النساء: ٦٥.
(٢) بحار الانوار: ج٢ ص١٩٩ ب٢٦ ح٦١.
(٣) بحار الانوار: ج٢ ص٢٠٠ ب٢٦ ح٦٣.
(٤) بحار الانوار: ج٢ ص٢٠٠ ب٢٦ ح٦٤.

أنها رسل ؟ قال : كشف لها عن الغطاء، قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: بأيّ شيء علم المؤمن أنه مؤمن ؟ قال : بالتسليم لله في كل ماورد عليه[١] .

وقد مرّ الكلام في هذا في تفسير قوله تعالى :« ياأيّها الّذين آمنوا ادخلوا في السلم كافّة »[٢] ولقد بسطنا الكلام في هذا الموضوع ليتضح للمسلم معنى قوله تعالى : « ياأيّها الّذين آمنوا أوفوا بالعقود »[٣] فإنّ هذه الامور كلها عقود اخذت على المسلم حين اعتنق الدين الاسلامي ، وكلما خالف واحداً منها فقد نكث العهد ، فيخرج بهذا النكث عن الدين .

ثم إنّ للدين وللاسلام شروطاً غير ماذكر ينبغي للمسلم مراعاتها وهي التي ذكرها الله في بيعة النساء وقد شرطها النبي صلى الله عليه وآله في عقد البيعة مع الرجال في بعض المقامات .

قال الشيخ الطبرسي في بيان معنى قوله تعالى :

« يا أيّها النبيّ اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لايشركن بالله شيئاً ولايسرقن ولايزنين ولايقتلن أولادهنّ ولايأتين ببهتان يفترينه بين أيديهنّ وأرجلهنّ ولا يعصينك في معروف فبايعهنّ واستغفر لهنّ الله إنّ الله غفور رحيم »[٤]:

ذكر سبحانه بيعة النساء وكان ذلك يوم فتح مكة لما فرغ النبي صلى الله عليه وآله من بيعة الرجال وهو على الصفا ، جاءته النساء يبايعنه فنزلت هذه الآية ، فشرط الله في مبايعتهنّ أن يأخذ عليهنّ هذه الشروط وهو قوله تعالى: « ياأيّها النبيّ اذا جاءك المؤمنات يبايعنك » على هذه الشروط وهي :

« أن لايشركن بالله شيئاً » من الأصنام والأوثان .

---

(١) بحار الانوار : ج٢ ص٢٠١ ب٢٦ ح٦٩ .
(٢) البقرة : ٢٠٨ .
(٣) المائدة : ١ .
(٤) الممتحنة : ١٢ .

« ولا يسرقن » لا من أزواجهن ولا من غيرهم .

«ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن» على وجه من الوجوه لا بالوأد ولا بالاسقاط.

« ولا يأتين ببهتان يفترينه » أي : بكذب يكذبنه في مولود يوجد « بين أيديهن وأرجلهن » أي : لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهن. عن ابن عباس .

وقال الفراء : كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها : هذا ولدي منك ، فذلك البهتان المفترى بين أيديهن وأرجلهن ، وذلك أن الولد اذا وضعته الام سقط بين يديها ورجليها ، وليس المعنى على نهيهن من أن يأتين بولد من الزنا فينسبنه الى الأزواج ، لأن الشرط بنهي الزنا قد تقدم .

وقيل: البهتان الذي نهين عنه قذف المحصنات والكذب على الناس وإضافة الأولاد الى الأزواج على البطلان في الحاضر والمستقبل من الزمان .

«ولا يعصينك في معروف» هو جميع ما يأمرهن به لأنه لا يأمر إلا بالمعروف، والمعروف نقيض المنكر وهو مادل العقل والسمع على وجوبه وندبه، وسمي معروفاً لأن العقل يعترف به من جهة عظم حسنه ووجوبه .

وقيل: عني بالمعروف النهي عن النوح وتمزيق الثياب وجز الشعر وشق الجيب وخمش الوجه والدعاء بالويل . عن المقاتلين(١) والكلبي .

والأصل أن المعروف كل بر وتقوى وأمر وافق طاعة الله تعالى .

« فبايعهن » على ذلك « واستغفر لهن الله » أي : اطلب من الله أن يغفر لهن ذنوبهن ويسترها عليهن .

« إن الله غفور » أي : صفوح عنهن « رحيم » منعم عليهن .

وروي أن النبي ﷺ بايعهن وكان على الصفا وكان عمر أسفل منه وهند بنت عتبة متنقبة متنكرة مع النساء خوفاً أن يعرفها رسول الله ﷺ فقال: ابايعكن على أن لا تشركن بالله شيئاً .

---

(١) أحدهما مقاتل بن حيان البلخي ، وثانيهما مقاتل بن سليمان .

فقالت هند : إنك لتأخذ علينا أمراً مارأيناك أخذته على الرجال . وذلك أنه بايع الرجال يومئذ على الاسلام والجهاد فقط .

فقال ﷺ : ولاتسرقن .

فقالت هند : إنّ أبا سفيان رجل ممسك وأنا أصبت من ماله هناةفلاأدري أيحلّ لي أم لا ؟ فقال أبو سفيان : ماأصبت من مالي فيما مضى وفيما غبر فهو لك حلال ، فضحك رسول الله ﷺ وعرفها فقال لها : وإنّك لهند بنت عتبة؟ قالت: نعم ، فاعف عما سلف يانبيّ الله عفا الله عنك .

فقال ﷺ : ولاتزنين .

فقالت هند : أوتزني الحرة ؟ فتبسم عمر بن الخطاب لماجرى بينه وبينهافي الجاهلية .

فقال ﷺ : ولاتقتلن أولادكن .

فقالت هند : ربّيناهم صغاراً وقتلتموهم كباراً وأنتم وهم أعلم ، وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قتله علي بن أبي طالب عليه السلام يوم بدر ، فضحك عمر حتى استلقى وتبسم النبي ﷺ .

ولما قال : ولاتأتين ببهتان ، فقالت هند : والله إنّ البهتان قبيح وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق .

ولما قال : ولايعصينك في معروف ، فقالت هند : ما جلسنا مجلسنا هـذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء .

وروى الزهري عن عروة عن عائشة قالت : كان النبي يبايع النساء بالكلام بهذه الآية : « أن لايشركن بالله شيئاً » وما مست يد رسول الله يد امـرأة قط إلا امرأةً يملكها . رواه البخاري في الصحيح .

وروي: أنه كان اذا بايع النساء دعا بقدح ماء فغمس فيه يده ثم غمس أيديهن فيه . وقيل : إنه كان يبايعهنّ من وراء الثوب . عن الشعبي .

والوجه في بيعة النساء مع أنهن لسن من أهل النصرة بالمحاربة هو أخذ العهد عليهن بما يصلح من شأنهن في الدين والأنفس والأزواج ، وكان ذلك في صدر الاسلام ، ولئلا ينفتق بهن فتق لما وضع من الأحكام، فبايعهن النبي حسماً لذلك[1] انتهى ما في المجمع .

وأخرج أحمد بن مردويه عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده قال : جاءت اميمة بنت رقيقة الى رسول الله ﷺ تبايعه على الاسلام فقال : ابايعك على أن لاتشركي بالله شيئاً ولاتسرقي ولاتزني ولاتقتلي ولدك ولاتأتي ببهتان تفترينه بين يديك ورجليك ولاتبرجي تبرج الجاهلية الاولى [2] .

وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه والبخاري ومسلم والنسائي وابن المنذر عن عبادة بن الصامت قال : كنا عند النبي ﷺ فقال: بايعوني على أن لاتشركوا بالله شيئاً ولاتسرقوا ولاتزنوا ـ وقرأ آية النساء ـ فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب ذلك شيئاً فستره الله فهو الى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له [3].

وقد ظهر من هذين الحديثين :

١ ـ أن من شروط إسلام المرأة هو عدم تبرجها تبرج الجاهلية الاولى، فإن تبرجت فقد أخلّت بشرط الاسلام الأساسي .

٢ ـ أن الرجال يشترط عليهم هذه الشروط التي ذكر للنساء .

فقد اتضح من جميع ماذكر معنى قوله تعالى :« أوفوا بالعقود » فإن الانسان اذا دخل في الاسلام فقد بايع الله ورسوله، فعليه أن يلتزم بجميع الشروط التي مر ذكرها، فإذا نكث العهد في واحد منها فقد أخل بإسلامه ويكون ممن قال

---

(١) مجمع البيان : ج٩ ص٢٧٥ ـ ٢٧٦ .
(٢) و(٣) الدر المنثور : ج٦ ص٢٠٩ .

الله فيهم « فمن نكث فإنما ينكث على نفسه »[١].

ماقاله السيد شبر :

قال في تفسيره المخطوط « الجوهر الثمين في تفسير الكتاب المبين » وهو التفسير الوسيط في تفسير قوله تعالى : « ياأيّها الّذين آمنوا أوفوا بالعقود » عن الصادق عليه السلام : أي بالعهود . وقيل : الايفاء والوفاء بمعنى والعقد العهد الموثق ، ويشمل هذا كلما عقد الله على عباده وألزمه إيّاهم من الايمان به وبملائكته وكتبه ورسله وتحليل حلاله وتحريم حرامه والاتيان بفرائضه وسننه ورعاية حدوده وأوامره ونواهيه وكلما يعقده المؤمنون على أنفسهم لله وفيما بينهم من عقود الأمانات والمعاملات غير المحظورة[٢].

عن الحسين بن محمد بن عامر عن المعلّى بن محمد البصري عن ابن أبي عمير عن عن أبي جعفر الثاني عليه السلام في قوله تعالى : « ياأيّها الّذين آمنوا أوفوا بالعقود » قال : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله عقدها عليهم لعلي بالخلافة في عشرة مواطن ، ثم أنزل الله :«ياأيّها الّذين آمنوا أوفوا بالعقود» التي عقدت عليكم لأمير المؤمنين عليه السلام[٣].

فهذه الامور التي بيّنها النبي حين عقد البيعة مع الرجال والنساء تكون كاصول أساسية لتحقق البيعة وعقدها ، أو بتحقق هذه الامور في الانسان يكون مسلماً أو مؤمناً ويدخل تحت قوله تعالى : « ياأيّها الّذين آمنوا » . وبعد صيرورته من المؤمنين يلزمه امتثال أوامر النبي جميعها من واجبات ومندوبات ومحرمات ومكروهات ، وهذه الأحكام تعرف من كتاب الله : « إنّ الله اصطفى لكم الدين فلاتموتنّ إلّا وأنتم مسلمون »[٤].

---

(١) الفتح : ١٠ .
(٢) الجوهر الثمين : (مخطوط) .
(٣) تفسير نور الثقلين : ج١ ص٥٨٣ ح٩ ، وتفسير القمي : ج١ ص١٦٠ .
(٤) البقرة : ١٣٢ .

وحيث إنّ حياة الانسان موقوفة على الأكل والشرب ولاتستقيم بدونهما ذكر الله تعالى الأشياء التي يجوز للانسان أكلها .

ولما كان الانسان أحد أنواع الحيوان فقد بيّن الله للانسان مايحلّ له من أنواع جنسه فقال تعالى : « **احلت لكم بهيمة الانعام** » .

فيما يحل أكله :

البهيمة : هي كل حيوان ذي أربع من دواب البحر والبر .

والأنعام : هي الابل والبقر والغنم .

وفي تفسير هذه الآية ثلاثة أقوال :

الأول : أنّ المقصود منها مطلق الأنعام، وتكون كلمة البهيمة من الاضافة البيانية . فهذا القول منقول عن الحسن وقتادة والسدّي والربيع والضحّاك .

الثاني : أنّ المقصود من البهيمة الجنين الذي يوجد في بطن امّه إذا ذكّيت، بشرط أن يكون الجنين قد أشعر أو أوبر، وهو المقصود بما ورد في الروايات : ذكاة الجنين ذكاة امّه . وهذا القول مروي عن الباقر والصادق عليهما السلام ، وقال به ابن عباس وابن عمر .

الثالث : أنّ المقصود من بهيمة الأنعام الحيوان الوحشي كالظباء وبقر الوحش وحمر الوحش . والقول بهذا منقول عن الكلبي والفراء .

قال في التبيان ، وفي مجمع البيان : الأولى حمل الآية على الجميع [1] .

فقد تحقق لنا من هذه الآية أنّ الله أباح لنا أكل ثلاثة أنواع من الحيوان:

الأول : الأكل من لحوم الأنعام ، والأنعام تشمل ثلاثة أنواع : الابل والبقر والغنم .

الثاني: أكل أجنّة هذه الأنواع الثلاثة التي توجد في بطونها بعد التذكية.

(١) التبيان : ج٣ ص٤١٥ ، مجمع البيان : ج٣ ص١٥٢ .

الثالث : الحيوان الوحشي من الظباء وبقر الوحش وحمر الوحش .

ولما كانت البهيمة غير مباحة بجميع أقسامها وحالاتها وأنّ بعض أقسامها محرمة استثنى الله ذلك بقوله تعالى «**الا مايتلى عليكم**» أي : احلّت لكم بهيمة الأنعام غير مايتلى عليكم من الأقسام التي هي محرمة عليكم، والمراد بذلك ماقرأه علينا النبي ﷺ من قوله تعالى : «حرّمت عليكم الميتـة والدم ولحم الخنزير وما اهلّ لغير الله به»[1] فإنّ هذه الأشياء وإن كانت مشمولة لاسم البهيمة ولكن الله حرمها لما يعلم فيها من المضار .

ثم استثنى صورة اخرى لايجوز منها الأكل وهي قوله تعالى: «**غير محلي الصيد وأنتم حرم**» أي : اذا كنتم محرمين للحج فلايجوز لكم اصطياد البهائم الوحشية كالظباء والحمر الوحشية، فإذا اصطدتم شيئاً فلايجوز لكم أكله. وهذا قد حرمه الله على من أحرم للحج. أما في غير هذا الحال فهو مباح فلامانع منه، فقد ذكره الله تعالى في قوله : «وإذا حللتم فاصطادوا»[2] فإنّ الله بيّن لنا في هذه الجملة أنّ المؤمن إذا أتمّ حجه وحلّ من إحرامه فلابأس عليه أن يصطاد ويأكل من الصيد .

فقد ظهر مما ذكر من ابتداء الشروع بسورة المائدة الى الوصول الى هذا المقام :

أنّ الأحكام الواجبة والمحرمة والمندوبة والمكروهة كلها تترتب على الوفاء بالعقد المأمور به في قوله تعالى: «يا أيّها الذين آمنوا أوفوا بالعقود» فمن أخلّ بشيء من الأحكام للدين الاسلامي فقد أخلّ بصدق اسم المؤمن عليه وقد جنى على نفسه، فعليه أن يتدارك هذه الجناية قبل أن يمحى اسمه من جماعة المؤمنين. هذا مايتعلّق بالآية الاولى .

---

(١) المائدة : ٣.

(٢) المائدة : ٢ .

قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وإذا حللتم فاصطادوا ولا يجرمنكم شنئان قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله ان الله شديد العقاب (٢) .

الشعائر جمع شعيرة ، والشعيرة هي العلامة التي تعيّن من قبل واضعها دالّة على حكم من الأحكام أو على شيء آخر ، وشعائر الله هي الامور التي وضعها الله دالّة على بعض الأشياء ، وهي بلفظها عامة ولكنها خصصت في علامات الحج . فإنّ الله سبحانه وتعالى يخاطب المؤمنين ويقول لهم **«لا تحلوا شعائر الله»** أي: كل علامة جعلتها لفعل من أفعال الحج فلا تخالفوها ولا تتصرفوا كما تشاؤون، فلا تجعلوا حلالها حراماً ولا حرامها حلالاً ، فإنّ إحلال الحرام وتحريم الحلال ليست من صفات المؤمن بالله المصدق برسوله، وإنّ المؤمن ينبغي أن يكون مطيعاً لله وللرسول في جميع الأوامر والنواهي .

وإنّ من جملة أوامر الله مناسك الله التي عيّنها النبي ﷺ لامّته. فاللازم على كل مؤمن أن يأتي بها كما أمر الرسول الأعظم ولا يخالف شيئاً منها .

ثم قال تعالى : **«ولا الشهر الحرام»** فإنّ الله حرم القتال في أربعة من شهور السنة وهي : محرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة .

وفي هذه الآية يؤكّد على المؤمنين أن لا يحلّوا القتال في هذه الأشهر الحرم فإنّ الالتزام بحرمتها من شروط الاسلام والايمان .

«**ولا الهدي ولا القلائد**»: أما الهدي فهو الذي يسوقه الانسان من النعم الثلاثة ليجعله هدياً للكعبة. وأمّا القلائد ـ جمع قلادة ـ فهو الذي يجعل في عنق الهدي من جلد وغيره ليدلّ على كونه هدياً فلايتعرض له أحد.

فهذه الامور كلها من شعائر الله فصّلها لعباده بعد أن أجملها بلفظة الشعائر ونهى المؤمنين أن يتصرفوا برأيهم.

«**ولا آمين البيت الحرام**» أي: من كان مؤمناً فلا يجوز له أن يتعرض لقاصدي البيت الحرام بكل سوء سواء كان التعرض بالقتال أو بالصدّ عن البيت أو بأخذ الاجرة منهم بأيّ اسم كان هذا الأخذ سواء سمّوه نزولية أو اجرة أو خلوة أو غيرها من الأسماء. فإنّ هؤلاء الذين أتوا البيت إنما جاؤوا لابتغاء الفضل من الله في الدنيا والآخرة، ومن جاء حاجاً متعبداً مبتغياً لفضل الله فلايحلّ لمؤمن أن يتعرض له أو يصده أو يمنعه، حتى لو استشاره المسلم في السفر الى الحج لايجوز له أن يشير عليه بالترك.

روي عن اسحاق بن عمار قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: إنّ رجلاً استشارني في الحج وكان ضعيف الحال فأشرت عليه أن لايحج، فقال: ماأخلقك أن تمرض سنة فمرضت سنة[1].

وأما قوله: «**واذا حللتم فاصطادوا**» فقد تقدم أنّ المسلم اذا كان محرماً لايجوز له الاصطياد، فاذا أحلّ من إحرامه صار الاصطياد مباحاً له.

قوله تعالى: «**ولايجرمنكم شنئان قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا**» هذه الجملة من الآية الشريفة ترشد المؤمنين وتعلّمهم، وحاصل المعنى هو: أنه اذا اعتدى عليكم قوم فصدوكم عن المسجد الحرم فأبغضتموهم على فعلهم هذا فلايحملنكم بغضكم لهم على صدهم عن المسجد الحرام لأنّ الصدّ عنه إثم محرم، فاذا صددتموهم فقد تعاونتم معهم على هذا الاثم والعدوان، ولو فعله

(١) سفينة البحار: ج١ ص٢١١ مادة «حجج».

بعض منكم فلاتعاونوه .

« وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان »

هكذا أدب الله عباده بهذهالآداب الكريمة، نهاهم عن التعاون على الاثم والعدوان وأمرهم بالتعاون على البرّ والتقوى، فكل انسان اذا عاون شخصاً على الاثم والعدوان يكون شريكاً له في إثمه وعدوانه، فيعذب كعذابه ويحاسب كحسابه . وكذا كل إنسان اذا عاون شخصاً على البرّ والتقوى كان له مثل ثوابه .

ولقد عرفت فيماتقدم معنى البرّ في قوله :« ليس البرّ أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكنّ البرّ من آمن بالله واليوم الآخر »[1]. وعرفت معنى التقوى أيضاً وفوائدها الكثيرة في أول آية من سورة البقرة[2].

ولما نهانا أولاً : أن نجازي الصادّ لنا عن المسجد الحرام ـ إشارة الى قصة الحديبية المتقدمة ـ فقد نهانا أن نجازيهم بمثل فعلهم، لأنا اذا صددناهم وصدونا صرنا جميعاً سبباً لقطع الحجّ وبطلانه ، وهذا خلاف المقصود ، فإنّ هذا القطع للحجّ إنما يأتي من تعاون المسلمين والمشركين معاً .

نهانا في هذه الجملة عن كل تعاون على الاثم والعدوان ، فكل مجرم اذا قصد ذاك بفعل يكون سبباً لترك واجب وفعل محرم لايحلّ لك أن تفعل شيئاً يؤذيه ولكنه يسبب ترك واجب أو فعل محرم لأنّ فعله يكون تعاوناً على الاثم والعدوان .

وقد ذكر في مجمع البيان أنّ سبب نزول الآية ماروي عن أبي جعفر الباقر عليه‌السلام أنها نزلت في رجل من بني ربيعة يقال له الحطم .

وقال السدّي : أقبل الحطم بن هند البكري حتى أتى النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله وحده وخلّف خيله خارج المدينة فقال الى ماتدعو؟ وقدكان النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله قال لأصحابه: يدخل

---

(١) البقرة : ١٧٧ .

(٢) راجع الجزء الاول من هذا الكتاب : ص٤٥ ـ ٤٨ .

عليكم اليوم رجل من بني ربيعة يتكلم بلسان شيطان. فلما أجابه النبي ﷺ قال: انظرني لعلّي أسلم ولي من اشاوره.

فخرج من عنده فقال رسول الله ﷺ: لقد دخل بوجه كافر وخرج بعقب غادر. فمرّ بسرح من سروح المدينة فساقه وانطلق به وهو يرتجز ويقول:

قد لفّها الليل بسوّاق حطم ليس براعي إبل ولاغنم
ولابجزّار على ظهر وظم[1] باتوا نياماً وابن هند لم ينم
بات يقاسيها غلام كالزلم[2] خدلّج الساقين[3] ممسوح القدم

ثم أقبل من عام قابل حاجاً قد قلّد هدياً فأراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه فنزلت هذه الآية «ولاآمّين البيت الحرام». وهو قول عكرمة وابن جريح.

وقال ابن زيد: نزلت يوم الفتح في ناس يأمّون البيت من المشركين يهلون بعمرة، فقال المسلمون: يارسول الله إنّ هؤلاء مشركون مثل هؤلاء دعنا نغير عليهم، فأنزل الله تعالى الآية «لاتحلّوا شعائر الله»[4].

وحيث إنّ المفسرين قد ذكروا أقوالاً كثيرة في تفسير لفظة الشعائر وأنّ أقوى الأقوال وأقربها هو: أنّ المراد منها المعالم ـ أي معالم حدود الله وأمره ونهيه وفرائضه ـ[5].

فيكون المستفاد من قوله: «لاتحلّوا شعائر الله» بمعنى: إنكم لاتسامحون فيها ولايحلّ لكم أن تتصرفوا في حكم من الأحكام واجباً كان أو محرماً حتى تلتزموا به كما أمركم الله. وكما دلّت عليه العلامة التي جعلت له، فهو يفيد الشدة والتأكد في جميع الأوامر والنواهي.

---

(١) الوضم: خشبة يقطع عليها الجزارون اللحم.
(٢) الزلم: واحد الازلام، قداح الميسر، شبه حافظ الماشية به.
(٣) خدلج الساقين: سمينها.
(٤) مجمع البيان: ج٣ ص١٥٣.
(٥) مجمع البيان: ج٣ ص١٥٤.

ثم أمرنا بالتعاون على البرّ والتقوى وعقبه بالنهي عن التعاون على الاثم والعدوان .

ثم قال تعالى : «**واتقوا الله ان الله شديد العقاب**» .

قال في مجمع البيان: هذا أمر منه تعالى بالتقوى ووعيد وتهديد لمن تعدى حدوده وتجاوز أمره . يقول: احذروا معصية الله فيما أمركم الله به ونهاكم عنه فتستوجبوا عذابه ، ثم وصف تعالى عقابه بالشدة لأنه نار لا يطفأ حرها ولا يخمد جمرها، نعوذ بالله تعالى منها[1].

ارشاد من الله للمؤمنين :

إنّ الله تعالى وجّه الخطاب لعباده المؤمنين وأمرهم بهاتين الجملتين، فلو أنّهم عملوا بهما جميعاً أو الأغلب من المؤمنين لأصبحوا في راحة وهناء ولكانت حياتهم سعيدة غير مشوبة بكدر .

الجملة الاولى : في قوله: « وتعاونوا على البرّ والتّقوى » وقد فسر «البر» بامور عديدة :

قال الراغب الاصفهاني: البرّ خلاف البحر وتصور منه التوسع فاشتقّ منه البر، أي: التوسع في فعل الخير ، وينسب ذلك الى الله تارة نحو : « إنّه هو البرّ الرحيم »[2] والى العبد تارة فيقال : برّ العبد ربّه ، أي : توسع في طاعته ، فمن الله تعالى الثواب ومن العبد الطاعة ، وذلك ضربان : ضرب في الاعتقاد وضرب في الأعمال، وقد اشتمل عليه قوله تعالى: «ليس البرّ أن تولوا وجوهكم ...الآية»[3].

وعلى هـذا ماروي أنه سئل عليه الصلاة والسلام عن البرّ فتلا هذه الآية ، وأنّ الآية متضمنة للاعتقاد والأعمال ـ الفرائض والنوافل ـ وبرّ الوالدين التوسع

---

(١) مجمع البيان : ج٣ ص١٥٥ .
(٢) الطور : ٢٨ .
(٣) البقرة : ١٧٧ .

في الاحسان إليهما وضده العقوق .

ثم قال : ويستعمل البرّ في الصدق لكونه بعض الخير المتوسع فيه ، يقال : برّ في قوله وبرّ في يمينه[١] انتهى .

أخرج أحمد وعبد بن حميد في هذه الآية والبخاري في تاريخه عن وابصة قال: أتيت رسول الله وأنا لا اريد أن أدع شيئاً من البرّ والاثم إلّا سألته عنه ، فقال لي: ياوابصة اخبرك بما جئت تسأل عنه أم تسأل ؟

قلت : يـارسول الله اخبرني ، قال : جئت لتسأل عن البرّ والاثم . ثم جمع أصابعه الثلاث فجعل ينكت بها في صدري ويقول : ياوابصة استفت قلبك استفت نفسك البرّ مـا اطمأن إليه القلب واطمأنت إليه النفس ، والاثم ماحاك في القلب وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك[٢].

فالله تعالى يأمر عباده المؤمنين أن يتعاونوا على التوسع في الاحسان والخير فاذا رأى المؤمن أخـاه المؤمن متوسعاً في الخير والاحسان ينبغي لـه أن يعاونه ويعاضده ولا يقاطعه ولا يبعد عنه ولا يباينه في فعل الخير،هذا هو شأن المؤمن المطيع لله العامل بإرشاداته .

أما الذي يرى من المؤمن توسعاً في الخير ثم يقاطعه ويباينه أو يعمل ضده ويفسد عمل المؤمن فينبغي له أن يعرف نفسه بأنه ليس من المؤمنين ، حيث إنه خالف أمر الله ، فإنه اذا استفتى قلبه واستفتى نفسه لا يطمئن قلبه ولا تفتيه نفسه بأنّ فعله من البرّ، ولكن فعله مما يحوك في القلب ويتردد في الصدر ولا يحبّ أن يطلع عليه الناس .

أخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري في الأدب ومسلم والترمذي والحاكم والبيهقي في الشعب عن النواس بن سمعان قال : سئل رسول الله ﷺ عن البرّ

---

(١) المفردات : ص٤٠ مادة « بر » .

(٢) الدر المنثور : ج٢ ص٢٥٥ .

والاثم ، فقال: البرّ حسن الخلق والاثم ماحاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس[1].

وأخرج البيهقي عن ابن عباس أنّ رسول الله ﷺ قال: إنّ داود عليه السلام قال فيما يخاطب ربه عزّ وجلّ : ياربّ أيّ عبادك أحبّ إليك احبه بحبك ؟

قال : ياداود أحبّ عبادي إليّ تقيّ القلب نقيّ الكفين لا يأتي الى أحد سوءً ولا يمشي بالنميمة، تزول الجبال ولا يزول، أحبني وأحبّ من يحبني وحببني الى عبادي .

قال: يا ربّ إنك لتعلم أني احبك واحبّ من يحبك فكيف احببك الى عبادك ؟

قال : ذكّرهم بآلائي وبلائي ونعمائي ياداود . إنه ليس من عبد يعين مظلوماً أو يمشي معه في مظلمته إلا اثبتّ قدميه يوم تزلّ الأقدام[2].

وأخرج الطبراني في الأوسط والحاكم عن ابن عباس : أنّ رسول الله ﷺ قال: من أعان ظالماً بباطل ليدحض به حقاً فقد برئ من ذمة الله ورسوله[3].

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ: من أعان على خصومة بغير حق كان في سخط الله حتى ينزع[4].

وأخرج البخاري في تاريخه والطبراني والبيهقي في شعب الايمان عن أوس بن شرحبيل قال : قال رسول الله ﷺ : من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم خرج من الاسلام[5].

وأما « **التقوى** » قال في المفردات في مادة « وقى »: الوقاية حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره .

---

(١) و(٢) الدر المنثور : ج٢ ص٢٥٥ .

(٣) و (٤) و (٥) الدر المنثور : ج٢ ص٢٥٦ .

والتقوى: جعل النفس في وقاية مما يخاف، هذا تحقيقه، ثم يسمى الخوف تارة تقوى، والتقوى خوفاً حسب تسمية مقتضى الشيء بمقتضيه والمقتضي بمقتضاه، وصار التقوى في تعارف الشرع حفظ النفس مما يؤثم وذلك بترك المحظور. ويتمّ ذلك بترك بعض المباحات لما روي: الحلال بيّن والحرام بيّن ومن رتع حول الحمى فحقيق أن يقع فيه. قال الله تعالى: «فمن اتقى واصلح فلاخوف عليهم ولاهم يحزنون»(١).

فقد اتضح لك أيها العبد المسلم أنّ التقوى عبارة عن الاجتناب والابتعاد عن كل مايوجب العذاب.

فإن كنت تخاف الله وتخشى من عقابه وتشفق على نفسك فتعاون على البرّ مع أهل البرّ واتق من الاثم والعدوان، فإنك اذا خالفت أمر الله وعاديت أهل البر وابتعدت عنهم خرجت بذلك عن جماعة المؤمنين ودخلت في زمرة الكافرين.

ولاتتعاون مع أهل الاثم والباطل فتكون من المعتدين، وتأمل في قوله تعالى: «ولايجرمنّكم شنئان قوم» فإنّ المسلم الذي يكون صحيح النية والسريرة يسره في فعل الخير من كل أحد، ولاينبغي أن يكون مانعاً له عن فعله، أما اذا أراد أن يمنعه عن فعل الخير ويصده عنه ولو بأن يتهمه بما يسبب له الأذى والسجن فإنّ مثل هذا لايسمى مسلماً وإن أدخل نفسه في عداد المسلمين، فإنه لم يفهم كلام الله ولم يعه حيث يقول تعالى: «ولا يجرمنّكم شنئان قوم أن صدّوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا». فهذا الذي يعامل الناس بهذا الشكل من المعاملة لاينبغي له أن يعدّ نفسه من المسلمين فليستعد غداً للعذاب الأليم من الله، فإنه يقول: «إنّ الله شديد العقاب».

هذا ماكان من أمر الجملة الاولى التي أمرنا الله فيها.

وأما الجملة الثانية التي نهانا الله عنها فهي قوله تعالى:

(١) المفردات: ص٥٣٠ مادة «وقى» والاية ٣٥ من سورة الاعراف.

« ولاتعاونوا على الاثم والعدوان ».

الاثم: هو كل فعل نهى الله عنه بحيث يعدّ فاعله آثماً وكل فعل يحكم عليه العقل بقبحه، فاذا فعله المرء يعدّ بحكم العقل والعرف آثماً.

يروى أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لقي إبليس يوماً بصورة شيخ فعرفه فقال له: من أين أقبلت يالعين؟ قال: من الآثام، قال: وأين تريد؟ قال: الآثام، قال: بئس الشيخ أنت، فقال: لم تقول هذا ياأمير المؤمنين؟ ثم حدثه بما رأى في النار من تعذيب مبغضيه[1].

وفي القاموس: آثام ـ كسحاب ـ واد في جهنم والعقوبة[2].

وقد عرّفه بعضهم بقوله: الاثم كل ذنب ومعصية[3].

وقد سمعت قول النبي صلى الله عليه وآله في تعريفه: الاثم ماحاك في النفس وكرهت أن يطلع عليه الناس[4].

وقال صلى الله عليه وآله لوابصة: الاثم ماحاك في القلب وتردد في الصدر[5].

وأما **العدوان**: فهو التعدي على الناس بسلب الحق والأمن من نفوسهم أو أعراضهم أو أموالهم، فإنّ الضغط على الناس في كل واحد من هذه الامور يسمى عدواناً.

قال المراغي في تفسيره: العدوان تجاوز حدود الشرع والعرف في المعاملة والخروج عن العدل فيها[6].

وقال أيضاً: والأمر بالتعاون على البرّ والتقوى من أركان الهداية الاجتماعية في القرآن إذ يوجب على الناس أن يعين بعضهم بعضاً على كل ماينفع الناس أفراداً

---

(١) سفينة البحار: ج١ ص١١ مادة « اثم ».
(٢) القاموس: ج٤ ص٧٢ مادة « اثم ».
(٣) تفسير المراغي: ج٦ ص٤٥.
(٤) و(٥) الدر المنثور: ج٢ ص٢٥٥.
(٦) تفسير المراغي: ج٦ ص٤٥.

وجماعات في دينهم ودنياهم وعلى كل عمل من أعمال التقوى التي يدفعون بها المفاسد والمضارّ عن أنفسهم .

وقد كان المسلمون في الصدر الأول يتعاونون على البرّ والتقوى بدون حاجة الى ارتباط بعهد كما تفعله الجماعات اليوم ، فإنّ عهد الله وميثاقه كان مغنياً لهم عن غيره ، ولكن لما نكثوا ذلك العهد صاروا في حاجة الى تأليف هذه الجماعات لجمع طوائف المسلمين وحملهم على إقامة هذا الواجب - التعاون على البرّ والتقوى - وقلّما ترى أحداً الآن يعينك على عمل من أعمال البرّ إلّا اذا كان مرتبطاً بعهد معك لغرض معيّن ، ومن ثم كان تأليف الجماعات مما يتوقف عليه أداء هذا الواجب غالباً[1] انتهى .

أقول : ياحبّذا لو حصلت جماعة من المسلمين يتعاقدون على التعاون على البرّ والتقوى أو يتعاقدون على مقاطعة الاثم والعدوان، ولكن نرى جماعات كثيرة عملها على عكس الأمر يتعاقدون في التعاون على الاثم والعدوان ويتفقون على امور مخالفة للقرآن والدين ويتعاهدون على نكث ماأمر الله به من البرّ والاحسان.

فاذا كنت من أرباب الحكم واطلعت على أحد من أصحابك من ذوي الأمر يريد القيام بشيء من البرّ فإنّ الله يأمرك أن تعاونه وتسانده حتى يتقوى على عمل البرّ ، أما اذا رأيته يهمّ بعمل شيء من الاثم والعدوان فإنّ الله يأمرك أن تقاطعه وتزجره وتذكّره بعقاب الله وتجهد نفسك في عذله حتى يرتدع عما يهمّ به من الاثم ، وأنّ الله سيجازيك الجزاء الأوفى على عملك هذا ، فلاتقصر في نفع نفسك وإيصالها الى المراتب العالية .

فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: انصر أخاك ظالماً ومظلوماً، فقيل يارسول الله قد عرفنا نصرته مظلوماً فكيف ننصره ظالماً ؟ فقال : تكفه عن الظلم[2]. وفي

---

(١) تفسير المراغي : ج٦ ص٤٦ .

(٢) سنن الترمذي : ج٤ ص٥٢٣ ب٦٨ ح٢٢٥٥ .

تفسير ابن كثير : تمنعه من الظلم ، فذاك نصرك إياه[١].

ماقاله المراغي :

قال في تفسير قوله تعالى « واتقوا الله إنّ الله شديد العقاب » : أي اتّقوا الله بالسير على سنّته التي بيّنها لكم في كتابه وفي نظم خلقه حتى لا يصيبكم عقابه بالاعراض عن هدايته، فهو شديد العقاب لمن لم يتقه باتباع شرعه وسنّته في خلقه إذ لا محاباة ولا هوادة في عقابه ، فهو لم يأمر بشيء إلا اذا كان نافعاً ولم ينه عن شيء إلا اذا كان ضاراً ، وكذلك بعدم مراعاة السنن لأنّ لذلك تأثيراً في خلق الانسان وعقائده وأعماله ، وكل ذلك مما يوقعه في الغواية وينتهي به الى سوء العاقبة .

وهذا العقاب يشمل عقاب الدنيا والآخرة كما جاء في بعض الآيات التصريح بذلك وفي بعضها التصريح بأحدهما كقوله في عذاب الامم في الدنيا « وكذلك أخذ ربّك إذ أخذ القرى وهي ظالمة إنّ أخذه أليم شديد »[٢].

وبعد هذا نقول : إنّ أهل الباطل من يوم خلق الله الدنيا حتى يومنا هذا متعاهدون ومتعاقدون على معارضة أهل الحقّ والايمان . فكلما اتفق أهل الحق على أن يتعاونوا على البرّ والتقوى اتفق أهل الباطل على خلافهم وتعاقدوا على القيام والتعاون على الاثم والعدوان ، ولا يخلو زمان من هؤلاء الأشرار الذين يريدون إفشاء الشرّ وإخفاء الخير والقضاء على أهله كي لا يبقى منهم أحد ، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يعيننا عليهم ويكفينا شرهم وأن يهديهم وإيانا الى سواء السبيل .

وبعدما بيّن لنا الله ماأحلّه لنا من بهيمة الأنعام وعرفنا أنه لا يجوز لنا معاقبة أحد بمنعه عن أداء واجب ديني وأرشدنا الى ماينفعنا في الدنيا والآخرة

(١) تفسير ابن كثير : ج٢ ص٤٧٦ .

(٢) تفسير المراغي : ج٦ ص٤٦ والاية ١٠٢ من سورة هود .

وهو التعاون على البر والتقوى وحذرنا عما يضر في ديننا ودنيانا وهو التعاون على الاثم والعدوان ذكر لنا بعد ذلك مااستثناه من آية الحل في قوله تعالى: « إلّا مايتلى عليكم » وهو الذي حرمه علينا بقوله سبحانه:

حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وماأكل السبع إلا ماذكيتم وماذبح على النصب وأن تستقسموا بالازلام ذلكم فسق اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لاثم فان الله غفور رحيم (٣).

كل هذه الامور كانت العرب وغيرها يستحلونها في الجاهلية وقد حرمها الله على المسلمين، فكل من دخل في دين الاسلام وصدق النبي ﷺ يلزمه تركها والالتزام بحرمتها.

وأن الذي يستحلها كلها أو بعضها فقد أخرج نفسه عن زمرة المسلمين وانسلخ عن الدين الاسلامي، فينبغي له أن يعرف مقدار حظه من الدين الاسلامي ومايستحقه من الله ومن الرسول ومن المسلمين مما تعهد به النبي ﷺ عن الله لمن يسلم، فراجع ماذكرناه في أول سورة المائدة.

وهذه الامور أغلبها معروفة واضحة المعنى ومع ذلك أذكر لكم مافسرت به ليتضح المعنى لمن يجهلها.

الاول: الميتة، وهي باصطلاح الشرع الحيوان الذي يموت حتف أنفه لا

بالتذكية. هذا بالنسبة الى الحيوان الذي يحل أكله بالتذكية، أما الذي لا يحل بالتذكية فالحرمة فيه أشد.

الثاني: الدم، وهو كل دم ينفصل عن الحيوان سواء كان بالذبح أو بغير ذبح وسواء كان الحيوان حلالاً أو حراماً. وكانوا قبل الاسلام يجعلونه في المعى ويشوونه ويأكلونه.

عن محمد بن عبدالله عن بعض أصحابه قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: جعلت فداك لم حرم الله الميتة والدم ولحم الخنزير؟

فقال: إن الله تبارك وتعالى لم يحرم ذلك على عباده وأحل لهم ما سواه من رغبة منه تبارك وتعالى فيما حرم عليهم ولازهد فيما أحل لهم، ولكنه خلق الخلق وعلم مايقوم به أبدانهم ومايصلحهم فأحله وأباحه تفضلاً منه عليهم لمصلحتهم، وعلم مايضرهم فنهاهم عنه وحرمه عليهم، ثم أباحه للمضطر وأباحه لهم في الوقت الذي لايقوم بدنه إلا به، فأمره أن ينال منه بقدر البلغة لاغير ذلك.

ثم قال: أما الميتة فإنه لايدنو منها أحد ولايأكلها إلا ضعف بدنه ونحل جسمه ووهنت قوته وانقطع نسله ولايموت آكل الميتة إلا فجأة.

وأما الدم فإنه يورث الكلب[1] وقسوة القلب وقلة الرأفة والرحمة، لايؤمن أن يقتل ولده ووالديه، ولايؤمن على حميمه، ولايؤمن على من صحبه.

وأما لحم الخنزير فإن الله مسخ قوماً في صور شتى شبه الخنزير والقرد والدب وماكان من الأمساخ، ثم نهى عن أكل مثله لكي لاينتفع بها ولايستخف بعقوبته.

وأما الخمر فإنه حرمها لفعلها وفسادها. وقال: إن مدمن الخمر كعابد وثن ويورثه ارتعاشاً ويذهب بنوره ويهدم مروته، ويحمله على أن يكسب على المحارم من سفك الدماء وركوب الزنا، ولايؤمن اذا سكر أن يثب على حرمه وهو لا

(١) الكلب – بفتحتين: شدة الحرص.

يعقل ذلك ، والخمر لم يرد شاربها إلا الى كل شر[١].

ماقاله الفخر الرازي :

اعلم أنّ تحريم الميتة موافق لما في المعقول لأنّ الدم جوهر لطيف جداً فاذا مات الحيوان حتف أنفه احتبس الدم في عروقه وتعفن وفسد ، وحصل من أكله مضارّ عظيمة .

والثاني: الدم ، قال صاحب الكشاف :كانوا يملأون المعي من الدم ويشوونه ويطعمونه الضيف ، فالله تعالى حرم ذلك عليهم .

والثالث : لحم الخنزير ، قال أهل العلم : الغذاء يصير جزءً من جوهر المغتذي ، فلابدّ أن يحصل للمغتذي أخلاق وصفات من جنس ما كان حاصلاً في الغذاء ، والخنزير مطبوع على حرص عظيم ورغبة شديدة في المشتهيات،فحرم أكله على الانسان لئلاّ يتكيف بتلك الكيفية .

وأماالشاة فإنها حيوان فيغاية السلامة فكأنها ذات عارية عنجميعالأخلاق فلذلك لايحصل للانسان بسبب أكل لحمها كيفية أجنبية عن أحوال الانسان[٢] انتهى .

ماقاله الطنطاوي :

ثانيها: الدم، كانوا يملأون المعي من الدم ويشوونه ويطعمونه الضيففحرم ذلك عليهم .

وقال الأعشى :

فإيـاك والميتات لا تقربنّهـا ولاتـأخذن نصلاً حديداً لتفصدا

يقول مفسرو هذهالأبيات: إنّ العرب كاناذا أجدبوا جرحوا إبلهمبالنصال

---

(١) تفسير العياشي : ج١ ص٢٩١ .

(٢) تفسير الرازي : ج١١ ص١٣٢ .

فنزل الدم فشربوه .

الثالث: لحم الخنزير، لأنّ الخنزير أضرى الحيوان على الطعام والشهوات وأشرهه، فأكل لحمه يورث الأخلاق التي عليها ذلك الحيوان كما أنّ الحيوان المريض يورث أكله مرضاً .

ولقد ثبت في العصر الحاضر أنّ الدودة الوحيدة لاتكون إلا من أكل لحم الخنزير ، فلحوم الناس وعظامهم تابعة لأغذيتهم ، وهذا باب واسع من العلم يجب النظر فيه طويلاً والبحث في الحكمة والعالم المشاهد[1] انتهى .

ولايخفى أنّ الدم المحرم هو الدم المسفوح ، فإنه وردت حرمته في القرآن في أربعة مواضع :

١ ـ في سورة البقرة : آية١٧٣ .

٢ ـ في سورة المائدة : آية٣ (وهي مانحن فيها الآن) .

٣ ـ في سورة الأنعام : آية١٤٥ .

٤ ـ في سورة النحل : آية١١٥ .

وفي ثلاثة مواضع الحكم غير مقيّد ، ولكنه في سورة الأنعام مقيّد حيث يقول تعالى : « قل لاأجد فيما اوحي إليّ محرّماً على طاعم يطعمه إلاأن يكون ميتةً أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير ... الخ الآية » .

وحيث إنّ المطلق يرجع الى المقيّد يكون المحكوم بالحرمة هو المسفوح أما المتلطخ باللحم فلايحرم . وكل ماكان منه كاللحم مثل الكبد فهو حلال، أما الذي لم يكن مثل اللحم كالطحال فإنه محرم عند الامامية، وأما عند بقية الفقهاء من المذاهب الأربعة فهو مباح . وإنما حرمه الامامية للأخبار الواردة في حرمته ورأينا من الضروري ذكر جملة منها كما نقلها صاحب البحار .

عن حمّاد بن عمرو عن جعفر بن محمّد عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب عليه السلام

(١) تفسير الجواهر : ج٣ ص١١٧ .

عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال في وصيته له :

ياعلي حرم من الشاة سبعة أشياء : الدم ، والمذاكير ، والمثانة ، والنخاع، والغدد ، والطحال ، والمرارة[١].

وفيه أيضاً عن أبي‌عبدالله عليه السلام قال: لايؤكل من الشاة عشرة أشياء: الفرث، والدم ، والطحال ، والنخاع ، والغدد ، والقضيب ، والانثيان، والرحم ، والحياء، والأوداج أو قال العروق[٢].

وفيه أيضاً عن الأعمش عن الصادق عليه السلام قال : الطحال حرام لأنه دم[٣] .

وفيه أيضاً عن أبي بصير ومحمد بن مسلم عن أبي عبدالله عن آبائه عليهم السلام قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام : لا تأكلوا الطحال فإنه بيت الدم الفاسد ، واتقوا الغدد من اللحم فإنه يحرك عرق الجذام[٤].

وفيه أيضاً عن عبدالواحد بن محمد بن عبدوس عن علي بن محمد بن قتيبة عن الفضل بن شاذان عن الرضا عليه السلام فيما كتب للمأمون : يحرم الطحال فإنه دم[٥] .

وفيه أيضاً عن الرضا عليه السلام : حرم الطحال لمافيه من الدم[٦].

وفيه أيضاً عن أبان بن عثمان قال : قلت لأبي عبدالله عليه السلام : كيف صار الطحال حراماً وهو من الذبيحة ؟ فقال : إنّ ابراهيم هبط عليه الكبش من ثبير وهو جبل بمكة ليذبحه ، فأتاه ابليس فقال : أعطني نصيبي من هذا الكبش، قال: وأيّ نصيب لك وهو قربان لربي وفداء لابني ؟ فأوحى الله عزّوجلّ إليه أنّ له

(١) بحار الانوار : ج٦٦ ص٣٣ ب٤ ح١ .
(٢) بحار الانوار : ج٦٦ ص٣٥ ب٤ ح٤ .
(٣) بحار الانوار : ج٦٦ ص٣٥ ب٤ ح٥ .
(٤) بحار الانوار : ج٦٦ ص٣٥ ب٤ ح٦ .
(٥) بحار الانوار : ج٦٦ ص٣٦ ب٤ ح٧ .
(٦) بحار الانوار : ج٦٦ ص٣٦ ب٤ ح١٠ .

فيه نصيباً وهو الطحال لأنه مجمع الدم ، وحرم الخصيتان لأنهما موضع للنكاح ومجرى للنطفة ، فأعطاه ابراهيم الطحال والانثيين وهما الخصيتان .

قال : قلت : فكيف حرم النخاع ؟ قال : لأنه موضع الماء الدافق من كل ذكر وانثى وهو المخ الطويل الذي يكون في فقار الظهر[١] الخبر .

فهذه الأخبار وغيرها مما ذكرها المجلسي في البحار تدل على كون الطحال دم ولهذا حرمه الامامية . وأما من أحله من غير الامامية فيعتبر هذه الأخبار ضعيفة فلذا لايحرمه .

ولكن ذكر في البحار رواية فيها عملية استدل الامام علي بن أبي طالب بهذه العملية على كونه دماً خالصاً ، ويمكن لمن لايعتمد على الأخبار أن يختبر الطحال بإجراء العملية فيتحقق عنده أحد الأمرين ، والرواية منقولة عن أبي يحيى الواسطي باسناده رفعه الى أمير المؤمنين أنه مر بالقصابين فنهاهم عن بيع سبعة أشياء من الشاة ، نهاهم عن بيع الدم ، والغدد ، وآذان الفؤاد ، والطحال ، والنخاع ، والخصي ، والقضيب .

فقال له رجل من القصابين: ياأمير المؤمنين ماالكبد والطحال إلا سواء .

فقال له : كذبت يالكع آتني بتورين من ماء آتك بخلاف مابينهما. فاتي بكبد وطحال وقليل من ماء فقال : امرس كل واحد منهما في إناء على حدة . فمرسا جميعاً كما أمر به، فانقبضت الكبد ولم يخرج منها شيء ولم ينقبض الطحال وخرج ما فيه كله ، وكان دماً كله ، وبقي جلده وعروقه ، فقال : هذا خلاف ما بينهما، هذا لحم وهذا دم[٢].

وبهذه العملية يتمكن كل أحد أن يعرف الطحال هل هو لحم أو دم، وحكم الدم الحرمة وحكم اللحم الاباحة .

---

(١) بحار الانوار : ج٦٦ ص٣٧ ب٤ ح١٢ .

(٢) بحار الانوار : ج٦٦ ص٣٤ ب٤ ح٢ .

الثالث مما حرمته الآية: لحم الخنزير، فإنه محرم عند كل مسلم لتصريح الآية بحرمته، ولقد سمعت كلمات المفسرين التي مرت عليك فيما يسبب أكله من المضار والأمراض الكثيرة.

ماقاله المراغي في لحم الخنزير :

الثالث : لحم الخنزير، لما فيه من الضرر والاستقذار لملازمته القاذورات ورغبته فيها. أما ضرره فقد أثبته الطب الحديث، أثبت أن له ضرراً يأتي من أكله القاذورات، فإن أكله يولد الديدان الشريطية كالدودة الوحيدة ودودة اخرى تسمى الشعرة الحلزونية، وهي تنشأ من أكله الفيران الميتة. كما أثبت أن لحمه أعسر اللحوم هضماً لكثرة الشحم في أليافه العضلية، وأن المواد الدهنية التي فيه تمنع وصول عصير المعدة الى الطعام، فيعسر هضم المواد الزلالية وتتعب معدة آكله ويشعر بثقل في بطنه واضطراب في قلبه، فإن دهمه القيء فقذف هذه المواد الخبيثة خف ضرره وإلا تهيجت المعدة واصيب بالاسهال، ولولا أن العادة قد جرت بتناول السموم أكلاً وشرباً وتدخيناً ولولا مايعالجون به لحم الخنزير لتخفيف ضرره لما أمكن الناس أن يأكلوه ولاسيما أهل البلاد الحارة[١].

ماقاله سيد قطب في لحم الخنزير:

وأما الخنزير فيجادل فيه الآن قوم، والخنزير بذاته منفر للطبع النظيف القويم، ومع هذا فقد حرمه الله منذ ذلك الأمد الطويل ليكشف علم الناس منذ قليل أن في لحمه ودمه وأمعائه دودة شديدة الخطورة (الدودة الشريطية وبيوضاتها المتكيسة). ويقول الآن قوم: إن وسائل الطهو الحديثة قد تقدمت فلم تعد هذه الديدان وبويضاتها مصدر خطر لأن إبادتها مضمونة بالحرارة العالية التي توفرها وسائل الطهو الحديثة. وينسى هؤلاء الناس أن علمهم قد احتاج الى قرون

---

(١) تفسير المراغي : ج٦ ص٤٨.

طويلة ليكشف آفة واحدة فمن ذا الذي يجزم بأن ليس هناك آفات اخرى في لحم الخنزير لم يكشف بعد عنها ؟ أفلا تستحق الشريعة التي سبقت هذا العلم البشري بعشرات القرون أن نثق بها وندع كلمة الفصل لها ونحرّم ما حرّمت ونحلّل ما حلّلت ، وهي من لدن حكيم خبير[1] انتهى .

ماقاله ابن كثير :

قال بعد ذكر الآية الشريفة «حرّمت عليكم الميتة والدم ... الآية»: يخبر تعالى عباده خبراً متضمناً النهي عن تعاطي هذه المحرمات من الميتة وهي ماماتت من الحيوانات حتف أنفه مـن غير ذكاة ولااصطياد ، وماذاك إلا لمافيه من المضرة لمافيها من الدم المحتقن فهي ضارة للدين والبدن ، فلهذا حرمها الله عزّ وجلّ .

ثم ذكر حرمـة الدم المسفوح وذكر حديثاً عن أبي امامة وهو صدي بن عجلان قال : بعثني رسول الله ﷺ الى قـومي أدعوهم الى الله ورسوله وأعرض عليهم شرائع الاسلام ، فأتيتهم، فبينمانحن كذلك إذ جاؤوا بقصعة من دم فاجتمعوا عليها يأكلونها فقالوا : هلمّ ياصدي فكل. قال : قلت : ويحكم إنما أتيتكم من عند من يحرم هذا عليكم . فأقبلوا عليه قالوا : وماذاك ؟ فتلوت عليهم هذه الآية « حرّمت عليكم الميتة والدم ... الآية» .

ورواه الحافظ أبو بكر بن مردويـه من حديث ابن أبي الشوارب باسناده مثله ، وزاد بعده هـذا السياق قال : فجعلت أدعوهم الى الاسلام ويأبـون عليّ فقلت : ويحكم اسقوني شربـة من ماء فإني شديد العطش ، قـال : وعليّ عباءتي فقالوا : لا ، ولكن ندعك حتى تموت عطشاً ، قال ؟ فاغتممت وضربت برأسي في العباء ونمت على الرمضاء في حرّ شديد ، قال: فأتاني آتٍ في منامي بقدح من زجاج لم ير الناس أحسن منه وفيه شراب لم ير الناس ألذّ منه ، فأمكنني منه فشربته فلمافرغت من شرابي استيقظت، فلاوالله ماعطشت ولاعريت بعد تيك الشربة.

(١) في ظلال القرآن : ج١ ص١٥٦ .

ورواه الحاكم في مستدركه عن علي بن حماد عن عبدالله بن أحمد بن حنبل حدثني عبدالله بن سلمة بن علياش العامري حدثنا صدقة بن هرم عن أبي غالب عن أبي أمامة ، وذكر نحوه وزاد بعد قوله « بعد تيك الشربة » : فسمعتهم يقولون : أتاكم رجل من سراة قومكم فلم تمجعوه بمذقة فائتوني بمذقة فقلت : لاحاجة إليّ فيها، إنّ الله أطعمني وسقاني، وأريتهم بطني فأسلموا عن آخرهم. وما أحسن ما أنشد الأعشى في قصيدته التي ذكرها ابن إسحاق :

و إيـاك و الميتـات لا تقربنّها ولا تأخذن عظماً حديداً فتصفدا

أي لاتفعل فعل الجاهلية ، وذلك أنّ أحدهم كان اذا جاع يأخذ شيئاً محدداً من عظم ونحوه فيفصد به بعيره أو حيواناً مـن أيّ صنف كان فيجمع مايخرج منه من الدم فيشربه ، ولهذا حرم الله الدم على هذه الامّة ، ثم قال الأعشى :

وذا النصب المنصوب لاتأتينه ولا تعبد الأوثان والله فاعبدا

قوله :« ولحم الخنزير » يعني إنسية ووحشية . ثم قال بعد أسطر: والأظهر أنّ اللحم يعمّ جميع الأجزاء كما هو المفهوم من لغة العرب ومن العرف المطرد.

وفي صحيح مسلم عن بـريدة بن الخصيب الأسلمي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من لعب بالنردشير فكأنما صبغ يده في لحم الخنزيـر ودمه . فاذا كان هذا التنفير لمجرد اللمس فكيف يكون التهديد والوعيد الأكيد على أكله والتغذي به، وفيه دلالة على شمول اللحم لجميع الأجزاء من الشحم وغيره[1] انتهى.

ماقاله الفاضل البيرودى :

وفي الموازنة بين الديانة الاسلامية والطبّ الحديث قال الفاضل يوسف أفندي بيرودي حول « الجيفة » :

إنّ الديانـة الاسلامية تحرم أكل الجيفة ولمسها كذلك الطبّ الحديث ،

١ـ تفسير ابن كثير : ج٢ ص٤٧٧ ـ ٤٧٩ مع اختصار .

وذلك لكون الجيفة تحتوي على مكروبات وأمراض قتالة التي فتكت بها، فخوفاً من العدوى يمتنع لمسها وأكلها لأنها سم زعاف. إنّ في العالم الجديد شيء يقرب من الجيفة ألا وهو حفظ اللحم والجبن والبيض وبقية المأكولات ضمن الثلج لسنين وأخيراً أخذ المجلس الصحي يحارب هذه المأكولات وأصحابها ويلقي ماوجدمنها في البحر، وذلك لوجود الفساد فيها، حتى أنه لقد وجد في محلّات الثلج بيض لم يزل بحالته الطبيعية منذ عشرين سنة.

وقال حول «الدم»:

من الأشياء المحرمة هو الدم، إنما الطبّ الحديث يجيز استعمال الدم اذا كان مأخوذاً من حيوان وإنسان صحيح الجسم خال من الأمراض، أما تحريمه في الديانة الاسلامية فهو لكونه لايخلو من الأقذار والنجاسة، أي المكروبات التي تسري مع الدم وعند خروجها واتحادها بدم أو جسم آخر ينقل العدوى أو الميكروب الى الجسم الثاني وتمرضه أي تنجسه.

وقال حول «لحم الخنزير»:

إنّ لحم الخنزير ليس بمحرم فقط في الديانة الاسلامية لا بل نجس أيضاً. إنّ الطبّ الحديث يمنع أكله وذلك لوجود ميكروب الأمراض الغددية المعروفة بالخنزيري، والديانة الاسلامية تحرمه لكونه يأكل من الأوساخ والنجاسة، وهذه تربي ميكروبات مختلفة بجسمه تنتقل لمن يأكل لحمه ... الخ[1].

ماقاله الدكتور عبدالعزيز اسماعيل:

قال في كتاب «الاسلام والطبّ الحديث» بعد ذكره الآية الكريمة: هذه الآية تنصّ على أن لاتؤكل الميتة ولا الدم، فالحيوان الميت لايموت إلا لسبب مثل المرض أو الشيخوخة، فإن كان لمرض فمما لاشكّ فيه أنه لايزال في الجسم

(١) توضيح الغامض من أسرار السنن: ص١٥٠.

نتيجة التسمم من مواد غير طبيعية وضارة للانسان حتى بعد أن يعقم من الجراثيم بطريق النار ، فالجسم الميت في هذه الحالة يشبه الغذاء المتخمر الذي مهما طهر من الجراثيم بالحرارة لايزال مضراً بالانسان وربما أدى الأكل منه الى الوفاة .

وكذلك الدم فإنه نسيج أغلبه وأهمّ عنصر فيه وهو الكريات الحمر خلايا حية ، وفيه من إفرازات الجسم ماهو معدّ للافراز بواسطة البول والعرق ... الخ. فالدم في الحقيقة مزيج من مواد قليلة مفيدة للجسم ولكن أغلبه مواد مضرة ويجب أن تفرز ، واذا كان الحيوان المأخوذ منه الدم مريضاً كان أكل الدم أشد ضرراً وكان بقاؤه في أنسجة الحيوان قبل أكله مضراً جداً لما فيه من موادمضرة تحدث تخمراً بسرعة في أنسجة الحيوان مثل العضلات فيكون لحمه غير صالح الأكل .

وأمّا اذا كانت الميتة بالشيخوخة فضررها كضرر الميتة بالمرض لأنّ الشيخوخة معناها انحلال أحد الأنسجة قبل الأنسجة الاخرى وتؤدي الى انحلال الكل وانحلال أحد الأنسجة لايأتي إلا لضعف طبيعي فيها أو بمرض تدريجي غير متطور يحدث تغييرات في لحوم الحيوان تقلل من قيمتها الغذائية وقابليتها للهضم .

ثم قال بعد كلام في الميتة :

ولحم الخنزير اذا كان سليماً من الأمراض لايضر منه ـ على مانعلم للآن ـ لكن كثيراً مايصاب بأمراض تضرّ الانسان اذا أكله ، فضرره أكثر من نفعه . فمثلاً نحو خمسة في المائة من الخنازير في بعض جهات أمريكا مصاب بمرض (تركينا) وهو نوع من الديدان خطر لأنه اذا أصاب إنساناً يحدث به تسمماً عمومياً وإسهالاً مثل الكوليرا وقد يؤدي الى الوفاة .

وأهمّ من ذلك أنّ لحم الخنزير المصاب لايمكن تطهيره من هذا المرض بسهولة .

فعملية السلق البسيطة أو الشي لا تكفي ، ويجب على اللحوم مرور مدة لا تقل عن نصف ساعة على الأقل لتطهيرها ، واذا كانت الاصابة شديدة كانت اللحوم غير صالحة للتغذية حتى بعد تطهيرها لأنّ الحيوان يكون في حالة تسمم عمومي قبل الوفاة .

وهنا كانت حكمة الدين الاسلامي في اجتناب الضرر الذي لا يمكن الوقاية منه إلا بطرق ليست سهلة التناول ، وأحسن الوقاية العملية هي الامتناع عن أكله ، ولهذا لم يشاهد من هذا المرض حالة بين المسلمين مع أنه ليس نادراً في اوربا وأمريكا .

ثم إنّ الخنزير سبب عدوى ديدانٍ اخرى أقل ضرراً مثل (الاسكاريس) وأنواعٍ من (التينيا)[1] انتهى .

وأخرج عبدالرزاق في المصنف عن قتادة قال : اذا أكل لحم الخنزير عرضت عليه التوبة ، فإن تاب وإلا قتل[2] انتهى .

لقد سمعت أيها المسلم ما ذكره لك القرآن من حرمة لحم الخنزير وعرفت ما بيّنه لك العلماء الذين فسّروا لك القرآن وعرفت ماقاله الأطباء من الأضرار التي يسببها أكل لحم الخنزير ، ومع هذا كله نرى بعض الذين يسمون أنفسهم بالمسلمين تراهم يباشرون الأجانب الكفرة ويأكلون معهم لحم الخنزير ويطرحون حكم القرآن وأقوال النبي ﷺ وهم ينتسبون الى الاسلام والمسلمين . وكذا يأكلون الميتة حيث إنهم يصطادون الطير مع الأجانب فيسحقون رأسه بأرجلهم مذعنين لقول هذا الأجنبي بأنّ هذا ألذّ من المذكّى لأنّ دمه يبقى فيه فيأكلونه غير مبالين بتحريم القرآن .

---

(١) الاسلام والطب الحديث: ص٢٩ ــ ٣٢ نشر الشركة العربية للطباعة والنشر ــ القاهرة الطبعة الثانية .

(٢) الدر المنثور : ج٢ ص٢٥٦ .

الرابع : مما حرمت أكله الآية : «**ما اهل لغير الله به**» أي مـا ذكر عليه اسم غير الله كما يذبح للأصنام والأوثان، فإن الاهلال هو الاجهار بالاسم، والمسلم يرفع صوتـه باسم الله، وغير المسلم يرفع صوتـه لغير الله، فتكون ذبائح الكفار والمشركين كلها محرمة.

وأما ذبائح أهل الكتاب فإنهم إن لم يذكروا اسم الله عليها فهي محرمة كذبائح غيرهم. وأما إن ذكر اسم الله فقد قال العلماء بحرمتها أيضاً كما في التبيان[1] والمجمع[2] لأنهم يقصدون بمن يذكرون ذلك الذي أبّد شرع موسى أو واتخذ عيسى ابناً والله منزه عن ذلك لأنه لم يؤبّد شرع موسى بل قطعه بإرسال عيسى، وكذا لم يتخذ عيسى ابناً، تعالى عن ذلك علواً كبيراً، فلا يجوز أكل ذبائحهما.

قال الشيخ في التبيان :

فأما مـن أظهر الاسلام ودان بالتجسيم والصورة وقال بالجبر والتشبيه أو خالف الحق فعندنا لا يجوز أكل ذبيحته، فأما الصلاة عليه ودفنه في مقابر المسلمين وموارثته فإنه يجري عليه لأن هذه الأحكام تابعة في الشرع لاظهار الشهادتين، وأما مناكحته فلا تجوز عندنا.

وقال البلخي حاكياً عن قوم : إنـه لا يجوز إجراء شيء من ذلك عليهم. وحكي عن آخرين أنه يجري جميع ذلك عليهم لأنها تجري على من أظهر الشهادتين دون المؤمنين على الحقيقة، وكذلك اجريت على المجانين والأطفال.

فأما التسمية على الذبيحة فعندنا واجبة، من تركها متعمداً لا يجوز أكل ذبيحته وإن تـركها ناسياً لم يكن به بأس، وكذلك إن تـرك استقبال القبلة متعمداً لم يحل أكل ذبيحته وإن تركها ناسياً لم يحرم، وفي ذلك خلاف بين

---

(١) التبيان : ج٣ ص٤٢٩.

(٢) مجمع البيان : ج٣ ص١٥٧.

الفقهاء ذكرناه في الخلاف[1] انتهى .

الخامس مما حرمت أكله الآية: «**المنخنقة**» .

وقد ذكروا للمنخنقة ثلاثة أنواع :

الأول : **أن** تدخل رأسها بين غصنين من الشجرة ولا يمكنها التخلص منها فتختنق بهما وتموت .

الثاني : **أن** تربط بحبل فتختنق بر باطها حتى تموت .

الثالث : **أن** يخنقها إنسان بيده فتموت بذلك .

وهذه الأقسام الثلاثة كلها مشمولة لكلمة « المنخنقة » فلايحل أكلها .

السادس : قوله « **والموقوذة** » وهي التي تضرب حتى تموت .

السابع : قوله «**والمتردية**» وهي التي تقع من جبل أو من سطح أو مكان عال آخر أو تقع في بئر فتموت فلايحل أكلها . أما اذا وقعت في بئر وأدركوها حية وما قدروا على تذكيتها قال الشيخ في التبيان : جاز أن يطعن ويضرب بالسكين في غير المذبح حتى يبرد ثم يؤكل .

الثامن : قوله «**والنطيحة**» وهي البهيمة تموت بسبب النطح سواء كانت هي الناطحة أو المنطوحة .

التاسع : قوله « **وما أكل السبع** » أي البهيمة التي قتلها السبع فأكل بعضها وترك البعض قل ذلك المتروك أو كثر حتى ولو كانت كلها متروكة بعد القتل فإنها محرمة لايجوز أكلها .

وأما قوله تعالى : «**الا ماذكيتم**» : فإنه استثناء ، وقد اختلف فيه أنه من أي شيء هذا الاستثناء فهل هو من الحرمة ؟ أي حرمت عليكم هذه الأشياء ولا تأكلوا إلا ماذكّيتم ، أو أنه استثناء من المحرمات بمعنى حرمت عليكم الميتة إلا ماذكّيتم ، أي اذا أدركتموها وفيها بقية من الحياة فذكّيتموها فكلوها فإنها

---

(١) التبيان : ج٣ ص٤٢٩ — ٤٣٠ .

مباحة لكم ، وكذا فيما هو معطوف على الميتة إلا فيما لا يمكن ولا يتصور فيه هذا الأمر وهو الدم والخنزير .

وقد قوى الشيخ في التبيان هذا القول حيث قال بعد قوله تعالى « إلاّ ما ذكّيتم » : واختلفوا في الاستثناء الى ماذا يرجع؟ فقال قوم : يرجع الى جميع ما تقدم ذكره في قوله : « حرّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهلّ لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع » إلا ما لا يقبل الذكاة من الخنزير والدم ـ وهو الأقوى ـ .

وقد ذهب إليه علي عليه السلام وابن عباس قال : وهو أن تدركه تتحرك اذنه أو ذنبه أو تطرف عينه ، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام . وبه قال الحسن وقتادة وابراهيم وطاووس وعبيد بن عمير والضحّاك وابن زيد[1].

ثم ذكر الشيخ رحمه الله بقية الأقوال في الاستثناء ، ثم قال بعد ذلك : فإن قيل : فما وجه تكرير قوله « وما اهلّ لغير الله به والمنخنقة والموقوذة » وجميع ماعدد تحريمه في هذه الآية ، وقد افتتح الآية بقوله : « حرّمت عليكم الميتة » والميتة تعمّ جميع ذلك وإن اختلفت أسباب موته من خنق أو تردّ أو نطح أو إهلال لغير الله به أو أكيل سبع ، وإنما يكون لذلك معنى على قول من يقول إنها وإن كانت فيها حياة اذا كانت غير مستقرة فلا يجوز أكلها ؟ قيل : الفائدة في ذلك أنّ الذين خوطبوا بذلك لم يكونوا يعدون الميت إلا ما مات حتف أنفه من دون شيء من هذه الأسباب فأعلمهم الله أنّ حكم الجميع واحد وأنّ وجه الاستباحة هو التذكية المشروعة .

وقال السدي : إنّ ناساً من العرب كانوا يأكلون جميع ذلك ولا يعدونه ميتاً إنما يعدون الميت الذي يموت من الوجع .

ثم قال الشيخ رحمه الله : والتذكية هي فري الأوداج والحلقوم اذا كانت فيه

---

(١) التبيان : ج٣ ص٤٣١ .

حياة ولايكون بحكم الميت[1] انتهى كلام الشيخ .

وهذا الأمر ـ وهو قطع الأوداج ـ شرط لازم في التذكية ، وقد ذكره جميع الفقهاء عند تعرضهم للذباحة .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: لاتأكل الشريطة فإنها ذبيحة الشيطان . قال ابن المبارك : هي أن تخرج الروح منه بشرط من غير قطع حلقوم[2].

وقال في ملتقى الأبحر: والذبح قطع الأوداج، وهو جمع ودج والودج اثنان فقط ، والمراد الودجان والحلقوم والمري ، وإنما قال الأوداج بطريق التغليب .

ثم قال : ولاتحل ذبيحة وثني أو مجوسي أو مرتد أو تارك التسمية عمداً[3] انتهى .

هذا هو الحكم في الشريعة الاسلامية وهو أن الحيوان اذا أرادوا أكله يلزم تذكيته بقطع الأوداج والحلقوم ، فما تفعله بعض الحكومات الاسلامية من استعمال آلة قاطعة الرأس من غير إحراز لقطع الأوداج فهذا غير موافق للشريعة ولايجوز أكله وهو أيضاً لايذكر عليه اسم الله ، فينبغي لمن هو متصل بأرباب الدولة أن ينبه المسؤولين على حرمة هذا العمل وأنه منافٍ للدين الاسلامي ، وهذا أيضاً موجب للعسر والحرج لأن الذي يطلع على هذه الكيفية لايحل له الأكل من هذه اللحوم ، فيبقى في حيرة وحاجة ماسة الى اللحم .

العاشر : قوله« **وماذبح على النصب** » قيل: هي الحجارة التي كانوا يعبدونها وهي الأوثان . عن مجاهد وقتادة وابن جريح . يعني : حرم عليكم ماذبح على

---

(١) التبيان ، ج٣ ص٤٣٢ .

(٢) الدر المنثور : ج٢ ص٢٥٧ .

(٣) ملتقى الابحر : ص١٨٥ .

على النصب أي على اسم الأوثان ، وقيل: معناه وماذبح للأوثان تقرباً اليها[1] هذه عبارة المجمع .

وعن الامام الباقر عليه السلام في تفسير قوله تعالى : « وماذبح على النصب » قال : كانوا يذبحون لبيوت النيران وقريش كانوا يعبدون الشجر والصخر فيذبحون لهما[2] .

وقال المرحوم جدنا السيد عبدالله شبر في تفسيره الوسيط المسمى بـ«الجوهر الثمين في تفسير الكتاب المبين » في بيان معنى النصب : جمع نصاب أو واحد الأنصاب وهي أحجار كانت منصوبة حول البيت يذبحون عليها تقرباً إليها. وقيل : هي الأصنام و « على » بمعنى اللام أو على أصلها أي على اسم الأصنام[3].

الحادي عشر: قوله «وأن تستقسموا بالازلام» قال في التفسير السابق الذكر « وأن تستقسموا » تطلبوا معرفة ماقسم ممالم يقسم . « بالازلام » جمع زلم كحمل وصرد : قدح لاريش فيه ولا نصل كانوا اذا قصدوا أمراً ضربوا ثلاثة قداح كتب على إحداها : أمرني ربي ، وعلى الآخر منها : نهاني ربي، والثالث: غفل ، فإن خرج الأمر فعلوا وإن خرج النهي تركوا وإن خرج الغفل أجالوها ثانياً .

وعن الرضا عليه السلام : « وماأهلّ لغير الله بـه » يعني ماذبح للأصنام ، وأما «المنخنقة» فإنّ المجوس كانوا لايأكلون الذبائح ولا يأكلون الميتة وكانوا يخنقون البقر والغنم فاذا انخنقت وماتت أكلوها ، و « الموقوذة » كانوا يشدّون أرجلها ويضربونها حتى تموت فاذا ماتت أكلوها، و«النطيحة» كانوا يناطحون بالكباش فاذا مات أحدها أكلوه، و «ماأكل السبع إلّا ماذكّيتم » فكانوا يأكلون مايقتله الذئب والأسد فحرم الله عزّ وجلّ ذلك ، و « ماذبح على النصب » كانوا يذبحون لبيوت النيران ، وقريش كانوا يعبدون الشجر والصخر فيذبحون لهما ، و « أن

---

(١) مجمع البيان : ج٣ ص١٥٨ .

(٢) تفسير الصافي : ج٢ ص٨ .

(٣) الجوهر الثمين : (مخطوط) .

تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق » قال: كانوا يعمدون الى الجزور[1] فيجزئونه عشرة أجزاء ثمّ يجتمعون عليه فيخرجون السهام فيدفعونها الى رجل وهي عشرة،سبعة لها انصباء وثلاثة لاانصباء لها فالتي لها انصباء : الفذّ والتوأم والمسبل والنافس والحلس والزقيب والمعلّى ، فالفذّ له سهم ، والتوأم له سهمان ، والمسبل له ثلاثة أسهم، والنافس له أربعة أسهم ، والحلس له خمسة أسهم، والزقيب له ستة أسهم ، والمعلّى لـه سبعة أسهم . والتي لاانصباء لهـا : السفيح ، والمنيح ، والوغد ، وثمن الجزور على من لم يخرج له من الانصباء شيء وهـو القمار فحرمـه الله تعالى . «**ذلكم فسق**» أي تناول هذه المحرمات خروج عن الطاعة أو إشارة الى الاستقسام[2] انتهى ، أي أنّ الاشارة إمـا أن تكون الى جميع المحرمات وإمّـا أن تكون الى الاستقسام فقط .

وعلى كل حال فإن هذه الامور قـد حرمها الله على العباد ، فاذا ارتكبها أحد فقد خالف قـول الله وعصاه ويسمى فاسقاً، وقد سماه الله فاسقاً فلامجال عن وصفه بغير هذا الوصف .

وحيث قد جرى ذكر هذا الوصف الذي يبغضه الله ويبغضه الرسول ويبغضه المؤمنون فلابأس بذكر تعريف هذا الوصف، وأنه بأيّ شيء يتحقق، وذكر حكم الفاسق ومايبنغي للناس أن يعاملوه بـه ليتضح للقارىء جلياً حتى يختار لنفسه مايحبّ الاتصاف به من هذا الوصف وعدمه .

تعريف الفسق :

قـال الراغب في المفـردات : فسق فلان : خرج عن حجر الشرع ، وذلك

---

(١) الجزور ـ بالفتح ـ : وهي من الابل خاصة ماكمل خمس سنين ودخل في السادسة يقع على الذكر والانثى ، والجمع جزر كرسول ورسل.

(٢) الجوهر الثمين :(مخطوط) ونقل الحديث أيضاً الفيض الكاشاني في تفسيره (راجع الصافي : ج٢ ص٧ ـ ٨) ولكن عن الامام الباقر عليه السلام مع اختلاف يسير.

من قولهم فسق الرطب اذا خرج عن قشره، وهو أعمّ من الكفر. قال في المنجد:... والفسق يقع بالقليل من الذنوب وبالكثير، لكن تعورف فيما كان كثيراً. وأكثر مايقال الفاسق لمن التزم حكم الشرع وأقرّ به ثم أخلّ بجميع أحكامه أو ببعضه[1] انتهى.

قال في المنجد: فسَق فسُق فسقاً وفسوقاً: خرج عن طريق الحق والصلاح، فجر[2] فهو فاسق، جمعه: فسقة وفساق وفاسقون مؤنثه فاسقة جمعها فاسقات وفواسق، وفسق وانفسق الرطب عن قشره أي خرج.

فتحصّل مما ذكر أنّ معنى الفسوق هو خروج الشيء عن المحل أو المكن الذي لاينبغي أن يخرج منه، وأنّ خروجه خلاف الاصل، وهنا أمر ينبغي ذكره لتقرأه النساء ويقرأه الرجال القوامون على النساء.

قال في المفردات: سميت الفأرة فويسقة لما اعتقد فيها من الخبث والفسق، وقيل لخروجها من بيتها مرة بعد اخرى. وقال عليه الصلاة والسلام: اقتلوا الفويسقة فإنها توهي السقاء وتضرم البيت على أهله[3].

أقول: ينبغي للمرأة التي تخرج في هذه الأيام وهي متبرجة بل مجردة تخرج مرة بعد اخرى أن تقرأ هذه الجملة وهذا الأمر من النبي لتعرف الوصف الذي ينطبق عليها، والظاهر أنّ هذا التصغير ليس للتقليل بل هو للمبالغة والشدة مثل قول الشاعر:

دويهية تصفر منها الأنامل

كيفية معاملة الفاسق:

وأما كيفية معاملته فقد قال الله تعالى: « ياأيّها الّذين آمنوا إن جاءكم

(١) المفردات: ص٣٨٠ مادة « فسق ».

(٢) المنجد: ص٥٨٣.

(٣) المفردات: ص٣٨٠ مادة « فسق ».

فاسق بنبأ فتبيّنوا»[١] فالفاسق لايصدّق ولايعتمد على قوله، وقال تعالى :«أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً »[٢].

هذا سؤال تقريري ألقاه الله تعالى على العباد مؤمنهم وفاسقهم ، ثم أجاب تعالى بجواب إجمالي فقال : « لايستوون » وهذا الجواب المجمل يجعل بين القسمين فرقاً بعيداً لايقترب أحدهما عن الآخر في كل وقت وفي كل زمان وعند كل أحد وفي كل شيء ، فهم لايستوون عند الرسول ولايستوون عند المؤمنين ولايستوون عند الفاسقين ولايستوون حتى عند الكافرين، فإنا قد رأينا مراراً عديدة أنّ الكافر اذا أراد أن يودع شيئاً من المال عند أحد يفحص عن المؤمن التقي فيودع عنده ولايودعها عند الفاسق، واذا أراد الكافر أن يوكّل أحداً على الظلم والنهب والقتل يوكّل الفاسق المعلن بالفسق ، ولذا نرى أنّ الحكومة المستعمرة للكافر أغلب رجالاتها وموظفيها فسقة فجرة يفعلون كل مايأمرهم به المستعمر فينهكون الامّة نهكاً ولايدعون عندها شيئاً .

ثم إنّ الله سبحانه بعد ماذكرلنا هذا الجواب المفرق بين القسمين بيّن لنا الغاية والنهاية والعاقبة لكل واحد من القسمين ليأخذ الانسان مايختاره لنفسه من العاقبة ، فقال تعالى :« أمّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنّات المأوى نزلاً بما كانوا يعملون »[٣] هذا مكان المؤمن وهذه عاقبته .

أمـا الفاسق فقد قال سبحانه : « وأمّا الّذين فسقوا فمأواهم النار كلّما أرادوا أن يخرجوا منها اعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الّذي كنتم به تكذبون »[٤].

---

(١) الحجرات : ٦ .
(٢) السجدة : ١٨ .
(٣) السجدة : ١٩ .
(٤) السجدة : ٢٠ .

ثم ذكر الله عزّ وجلّ أنّ الفاسقين لهم عذاب غير العذاب الذي يكون في جهنم هو دون عذاب النار وهو قوله سبحانه : « ولنذيقنّهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلّهم يرجعون »[1].

إنّ الله عزّ وجلّ من لطفه بعباده ورحمته لهم وشفقته عليهم يريد أن يخلّصهم من عذاب النار فبيّن لنا في هذه الآية أنّ هؤلاء الذين يأكلون هذه المحرمات التي حرمت عليهم حيث إنهم قد فسقوا فصار مأواهم النار فإنّ الله يذيقهم عذاباً دون عذاب النار ، فإنهم اذا رأوا أنهم لاطاقة لهم على تحمل هذا العذاب سوف يرتدعون عن عصيانهم ويرجعون عن غيّهم ويتوبون الى الله من ذنوبهم، فاذا تابوا يتوب الله عليهم وينجيهم من النار، وهذا العذاب الأدنى يكون في الدنيا ، وهي المصائب التي تجري على الانسان من قتل أو أسر أوقحط أومرض أو تسلّط عدوّ عليه ، فهذا الفاسق اذا كان عاقلاً وتنبه أنّ ماأصابه من العذاب إنماهو بسبب عصيانه وفسقه يرجع عن فسقه ويتوب الى الله ويكون مؤمناً صالحاً.

ونحن الآن في عصر قد ابتلي أكثر الناس بنوع من البلاء ولكنهم لم يلتفتوا ولم ينتبهوا، فإنّ هذا الابتلاء بسبب عصيانهم وقد بقوا مصرين على أعمالهم المحرمة وهم الذين ذكرهم الله في كتابه العزيز بقوله : « ومن أظلم ممن ذكّر بآيات ربه ثمّ أعرض عنها إنّا من المجرمين منتقمون »[2].

ومما يعامل به الفاسق المتجاهر بفسقه أنه لاحرمة له عند المؤمنين لماروي عن الصادق عليه السلام قال : اذا جاهر الفاسق بفسقه فلاحرمة له ولاغيبة[3].

وفي الصحيح عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: اذا رأيتم أهل الريب والبدع من بعدي فأظهروا البراءة منهم وأكثروا من سبّهم والقول فيهم

---

(١) السجدة : ٢١ .

(٢) السجدة : ٢٢ .

(٣) بحار الانوار : ج٧٥ ص٢٥٣ ب٦٦ ح٣٢ .

والوقيعة وباهتوهم كي لايطمعوا في الفساد في الاسلام ويحذرهم الناس ولا يتعلّمون من بدعهم، يكتب الله لكم بذلك الحسنات ويرفع لكم به الدرجات في الآخرة(١).

وروى الديلمي صاحب إرشاد القلوب عن رسول الله ﷺ قال : من زوّج كريمته بفاسق نزل عليه كل يوم ألف لعنة ، ولايصعد له عمل الى السماء ولا يستجاب له دعاؤه ولايقبل منه صرف ولاعدل(٢).

هذا آخر الكلام على المحرمات التي ذكرت في الآية ، فمن كان يعتبر نفسه مسلماً فعليه أن يتجنب جميع هذه المحرمات ولايفعل منها شيئاً ، فإن فعل شيئاً منها فلايخفى عليه أنه معدود عند الله من الفاسقين ، فقد سمعت الفرق بين المؤمن والفاسق ، وعرفت مكان كل واحد منهما ، فإنّ الفاسق مأواه جهنم ، وقد عرفت الفويسقة أيضاً فلاتكن فاسقاً واحفظ زوجتك وبقية نسائك أن يكنّ من الفويسقات .

ومن جملة هذه الآية قوله تعالى : «**اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلاتخشوهم واخشون**»فيما يتعلق ببشارة الله للمؤمنين فيما لو ثبتوا على مبدئهم.

إنّ هذه المحرمات التي ذكرت في هذه السورة كان بعضها مذكوراً في غيرها مما نزلت قبلها ، فقد نزل في سورة الانعام(٣) والنحل(٤) والبقرة(٥) تحريم الأربعة الاول من هذه الآية ، فاجتنبها المسلمون وبقوا مساوين للكافرين في بقية المحرمات حيث لم ينزل تحريمها، وقد كان الكافرون يأملون من المسلمين أن يفعلوا هذه الامور الأربعة أيضاً وأن يرجعوا الى ماكانوا عليه قبل البعثة لمايرون من المسلمين في تكتمهم في الاسلام والاتقاء من المشركين وعدم التجاهر أمامهم في

---

(١) الوسائل : ج١١ ص٥٠٨ ب٣٩ ح١ .
(٢) سفينة البحار : ج٢ ص٣٦١ مادة « فسق » نقلا عن ارشاد القلوب .
(٣) الانعام : ١٤٥ .
(٤) النحل : ١١٥ .
(٥) البقرة : ١٧٣ .

المحرمات ، ويرى المشركون أنهم يشاركون المسلمين في الطواف بالبيت على مايشتهون من الطواف عراة .

وبعدما منع الله المشركين عما منعهم وتليت عليهم آيات من سورة براءة نزلت هذه الآية التي تبيّن المحرمات على المسلمين تفصيلاً ، وتضيف الى الأربعة المتقدمة الذكر بقية المحرمات، وقد التزم بها المسلمون وعملوا متجاهرين بالالتزام بها ، والتزموا بالحكم تبعاً لحكم الله بأنّ من فعل شيئاً من هذه المحرمات فهو فاسق قد خرج من جماعة المؤمنين .

وقد رأى وشاهد المشركون هذا العمل وهذه العقيدة من المسلمين حينئذٍ فانقطع أمل المشركين من المسلمين بأن يتركوا دينهم ويرجعوا كفاراً ، فأخبر الله المسلمين بذلك بقوله « اليوم يئس الذيـن كفروا من دينكم » ورخصهم بأن يتركوا التقية ولايخشوا من الكافريـن في شيء مـن أحكام الدين بـل عليهم أن يظهروهـا ويتجاهروا بها في كل مكان فقال لهم « فـلاتخشوهم » ولايخصّ أنّ المسلمين في ذلك العصر كانوا في غاية القلّة بالنسبة الى عصرنا الحاضر ولكنهم كانوا ملتزمين بقواعد الدين التزامـاً دقيقاً في كل شيء بحيث لايخالفون في شيء منه وإن كان يسيراً ، وكان الرجل منهم يترك أبـاه وأخاه اذا كان على خلاف دينه ، ولو أمره النبي ﷺ بقتله ماكان يتوقف في ذلك .

ولما كان في علم الله أنّ هذا العصر سيكون الدين ضعيفاً، وأنه سيخرج أكثر المسلمين عن دينهم ، وأنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين على خلاف أمر الله تعالى، فإنه خاطبهم بقوله : « لايتّخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين »[1] وغيرها من الآيات كماسيأتي قريباً ، ولكن بعض الناس لضعف إيمانهم تركوا موالاة المؤمنين واتخذوا الكافرين أولياء .

ويرشدنا ويدلّنا على هؤلاء أنهم يتركون الواجبات كالصلاة التي قال النبي

---

(١) آل عمران : ٢٨ .

ﷺ عنها أنها عماد الدين[1]، وكالصوم الذي قال عنه ﷺ أنه جنة من النار[2] وكالزكاة التي قرنها الله بالصلاة في أغلب الآيات، وكالاخوة التي جعلها الله بين المسلمين من لوازم الاسلام كما في قوله: «فأصبحتم بنعمته إخواناً»[3] وأنّ ترك هذه الامور الواجبة كله من أفعال غير المسلمين.

ويدلنا أيضاً على ضعف إيمان بعض الناس ارتكابهم للمحرمات التي نهى الله عنها كشرب الخمر الذي يرشد العقل الى تركه تأييداً لنهي الشريعة عنه، وكالربا الذي شدد القرآن والسنّة في النهي عنه.

ومن المحرمات المتفق على حرمتها عند جميع فرق المسلمين المعاملة بالربا، نرى أنّ كثيراً من المسلمين يتعاملون به وهم يعلمون حرمته. ومن المحرمات القبيحة تبرج النساء الذي نهى الله عنه مخاطباً بقوله: «ولاتبرّجن تبرّج الجاهليّة الاولى»[4] وأنّ التبرج في هذا الزمان أعظم إثماً من ذلك التبرج لأنّ الملابس تتسم فيها جاذبية المنظر حيث إنها براقة لامعة لاتستر، أضف الى هذا ماتصنعه المرأة من أنواع المساحيق تجمل به بشرة وجهها وشفتيها وتفوح منها الروائح العطرة خلافاً لماكان في ذلك العصر، وهناك محرمات اخر يفعلها الناس كلها مماثلة لأفعال الكافرين وقد نهى الله عن موالاتهم.

ومما لاريب فيه أنّ رجال هذا العصر ونساءه أكثر علماً وأوسع إطلاعاً من العصور السابقة، ومع كثرة العلم ينبغي كثرة العمل وفاقاً للعلم، أما اذاخالف العالم علمه فسيكون عقابه أشدّ وأكثر، ولاريب أنّ أكثر المسلمين قد انكشف لهم فتيقنوا أنّ الدول الكافرة الكبرى لايطيب لهم أن يكون في الدول الاسلامية ماتساويهم أو تقاربهم في القوة، وعلى هذا فالأحرى بالدول الاسلامية والشعوب

---

(١) بحار الانوار: ج٨٢ ص٢٠٢ ب١ ح١.
(٢) بحار الانوار: ج٩٦ ص٢٥٨ ب٣٠ ح٤١.
(٣) آل عمران: ١٠٣.
(٤) الاحزاب: ٣٣.

الاسلامية أن تتآخى وتتآلف وتوحد كلمتها ويتولى بعضها بعضاً ولاتوالي الكافرين فإنّ الذين يتولاهم يحسبه الله منهم لأنه تعالى يقول في كتابه : « ومن يتولّهم منكم فإنه منهم »(١).

ولاينبغي لكم أن تخافوا من الكافرين فإنّ الله سبحانه خاطبكم بقوله : « فلاتخشوهم واخشون » فقد أشار لنا بهذه الكلمة « واخشون » الى الآيات التي نهانا بها عن موالاة الكافرين ، وإني اعدد لك مايحضرني منها وأذكرلك واحدة واحدة لتعتبر بها ولاتغفل عما فيها :

١ـ « ولن ترضى عنك اليهود ولاالنصارى حتّى تتّبع ملّتهم قل إنّ هدى الله هو الهدى ولئن اتّبعت أهواءهم بعد الّذي جاءك من العلم مالك من الله من وليّ ولانصير »(٢).

٢ ـ « لايتّخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء »(٣).

٣ ـ « ياأيّها الّذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الّذين اوتوا الكتاب يردّوكم بعد إيمانكم كافرين »(٤).

٤ ـ « ياأيّها الّذين آمنوا لاتتّخذوا بطانةً من دونكم لايألونكم خبالاً ودّوا ماعنتّم قد بدت البغضاء من أفواههم وماتخفي صدورهم أكبر »(٥).

٥ـ « ياأيّها الّذين آمنوا إن تطيعوا الّذين كفروا يردّوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين * بل الله مولاكم »(٦).

---

(١) المائدة : ٥١ .

(٢) البقرة : ١٢٠ .

(٣) آل عمران : ٢٨ .

(٤) آل عمران : ١٠٠ .

(٥) آل عمران : ١٨٠ .

(٦) آل عمران : ١٤٩ و ١٥٠ .

٦ - « ياأيّها الذين آمنوا لاتتّخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً »[١].

٧ - « ياأيّها الذين آمنوا لاتتّخذوا اليهود ولاالنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولّهم منكم فإنه منهم إنّ الله لايهدي القوم الظالمين »[٢].

٨ - « ياأيّها الذين آمنوا لاتتّخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين »[٣].

٩ - « ياأيّها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أنّ الله يحول بين المرء وقلبه وإنه إليه تحشرون »[٤].

١٠- « ياأيّها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون »[٥].

١١ - « ياأيّها الذين آمنوا لاتتّخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبّوا الكفر على الايمان ومن يتولّهم منكم فاولئك هم الظالمون »[٦].

١٢-« ياأيّها الذين آمنوا إنّما المشركون نجس فلايقربوا المسجدالحرام»[٧].

١٣ - « ياأيّها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفّار وليجدوا فيكم غلظةً واعلموا أنّ الله مع المتقين »[٨].

١٤ - « ياأيّها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم *

---

(١) النساء : ١٤٤ .
(٢) المائدة : ٥١ .
(٣) المائدة : ٥٧ .
(٤) الانفال : ٢٤ .
(٥) الانفال : ٢٧ .
(٦) التوبة : ٢٣ .
(٧) التوبة : ٢٨ .
(٨) التوبة : ١٢٣ .

والّذين كفروا فتعساً لهم وأضلّ أعمالهم »[١].

١٥ ـ « ذلك بأنّهم كرهوا ماأنزل الله فأحبط أعمالهم »[٢].

هذه الآية هي بعد قوله : « والّذين كفروا فتعساً » بالله عليك أيها القاريء العزيز تأمّل قليلاً في هذه الآيات الثلاث (٧ و ٨ و ٩) من سورة محمّد ﷺ حتى تعرف مايكلّمك الله به ، فإنه يقول لك أولاً اذا نصرت الله بحفظ آياته والعمل بأحكامه فإنّ الله سينصرك على الصهاينة وأعوانهم وعلى غيرهم من أعدائك ، فاذا أردت أن ينصرك الله فانصره . ثم قال: «والّذين كفروا فتعساً لهم وأضلّ أعمالهم» ثم ذكر لنا لك الذين كفروا من هم وأيّ فرقة هم، فقال تعالى :« ذلك بأنّهم كرهوا ماأنزل الله فأحبط أعمالهم » .

فقد تبيّن أنّ كل من كره ماأنزل الله من الأحكام فهو كافر ، فالذي يبدل حكم القرآن بحكم آخر فقد كره حكم القرآن . وهذا ليس فيه خفاء ولامجال لأحد أن ينكره كما صرح القرآن بهذا « ومن لم يحكم بماأنزل الله فاولئك هم الكافرون »[٣] فإنّ الذي يكره ماأنزل الله على رسوله من النور والحكمة والعلم فهو أسود القلب جاهل بكل معنى الكلمة، فهومطموس على قلبه لايعقل ماينفعه ومايعزه ، فاذا كان جاهلاً بالله فهو الكافر الحقيقي .

فلو كان مثل هذا الرجل قد عبد الله دهراً طويلاً بحسن نية وإخلاص يبطل جميع عمله وليس عليه ثواب في الآخرة لأنّ الله يقول :« ذلك بأنّهم كرهوا ماأنزل الله فأحبط أعمالهم» فإنّ الجملة الثانية صريحة بأنّ أعمالهم تحبط بمجرد كراهتهم لماأنزل الله .

١٦ـ «محمّد رسول الله والّذين آمنوا معه أشداء على الكفّار رحماء بينهم»[٤].

---

(١) محمد : ٧ و ٨ .
(٢) محمد : ٩ .
(٣) المائدة : ٤٤ .
(٤) الفتح : ٢٩ .

أما الذين ينتمون الى الأحزاب الضالة فهم أشداء على المسلمين عبيداً للكافرين ودعاة وأذناباً الى أسيادهم المستعمرين .

١٧ ـ « ألم تر الى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ماهم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون »[1].

١٨ـ «ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء تلقون إليهم بالمودّة وقد كفروا بما جاءكم من الحقّ يخرجون الرسول وإيّاكم أن تؤمنوا بالله ربّكم »[2].

١٩ ـ « ياأيها الذين آمنوا لاتتولوا قوماً غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفّار من أصحاب القبور »[3].

٢٠ ـ « ياأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله »[4].

أيّها الانسان الذي تسمي نفسك مسلماً أعرفت معنى قوله تعالى :«واخشون» إنّ هذه الآيات التي سمعتها أو قرأتها كلها تنهاك عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، فهل يمكن للمسلم إذا سمع هذه الآيات أن يكون عميلاً للكافر ينفذ أوامره ولو بإضرار المسلمين ؟

كلاّ ثم كلاّ ، لايكون المسلم هكذا اذا كان يعتقد بيوم الحشر ويوم البعث من القبور فاذكر قوله تعالى : « وترى كلّ امّة جاثية كلّ امّة تدعى الى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون »[5] .

تأمّل أيها الرجل في قوله تعالى : « واخشون » واعرف الله واعرف مايقوله لك ، أيها المسلم اخش الله في كل محرم تفعله ، واخش الله في كل واجب تتركه

(١) المجادلة : ١٤ .
(٢) الممتحنة : ١ .
(٣) الممتحنة : ١٣ .
(٤) الصف : ١٤ .
(٥) الجاثية : ٢٨ .

واخش الله في كل مسلم تظلمه ، واخش الله في كل أمر تطيع فيه الكافر ، واخش الله في كل شيء تخالف فيه أمر الله .

تكملة

إنّ الأحكام الالهية الموجهة الى العباد في الشريعة الاسلامية حيث إنّ الله لم يجعل فيها شدةً ولاعسراً ولاحرجاً وأن لايخشى المكلّف من الاتيان بها الأذى والضرر على النفس والمال أو الأهل أو على نفس مسلمة اخرى غير المؤدي للتكاليف ففي هذه الظروف التي لاتكون فيها هذه الموانع يكون التكليف محتماً ويكون المكلف حراً في تأدية واجباته .

وحيث إنّ المسلمين كانت تعترضهم بعض هذه الموانع في ابتداء البعثة ولم يكونوا في حرية تامة في إتيان الواجباب كان الحكم مقيداً بعدم الخوف .

وحين إزالة هذه الكوارث عن طريقهم وإزاحتها عنهم أعلمهم الله بذلك وأفهمهم بأنهم قد منحوا الحرية التامة في تأدية واجباتهم ، وعلى هذا تكون هذه الجملة وهي قوله تعالى: « اليوم يئس ... الخ » مما له الدخل في التكليف، وليست جملة معترضة بين الآية الواحدة كما قال بعض المفسرين لاربط لها أصلاً بالحكم، بل هي مما لها الدخل في التكليف السهل الذي لاحرج فيه ولاعسر كما هو الشأن في الشريعة المحمدية .

واذا كانت مما لها الدخل في التكليف تكون من مقدمات الآية التي بعدها المعلنة لاكمال الدين ، حيث إنّ الاكمال لايتحقق إلا مع تحقق جميع مقدماته.

ولايخفى أنّ إزاحة المانع وتخلية السرب من جملة المقدمات بحيث لايبقى المكلف في حيرة وارتباك عند عروض بعض المسائل ، ولايقع في ورطة وابتلاء عند أداء الفعل المأمور به ، إذ الشيء لايكون كاملاً إلّا في هذه الحالة. وكما أنّ هذه المسألة يتوقف عليها الاكمال فكذا يتوقف على بيان جميع الاصول التي تنطبق

عليها الجزئيات ، فإنّ الله بعدما أخبرنا أنه أكمل لنا الدين لا يمكن لأحد أن يقول إنّ بعض المسائل غير موجودة في القرآن ولا في السنّة .

ومن جملة الامور التي يتوقف عليها الاكمال تعيين الشخص الذي يستخرج الجزئيات من اصولها الكلية ، أي يلزم أن يكون في الامّة أحد الراسخين في العلم بعد رحلة النبي صلى الله عليه وآله من عالم الدنيا، حيث أوضح الله لنا أنّ تاويل القرآن عندهم بقوله : « لايعلم تأويله إلّا الله والراسخون في العلم » [1] وأوضح لنا هنا أنه قد أكمل الدين بقولـه : « اليوم أكملت لكم دينكم » فاذا أراد العبد المسلم أن يعرف أحكام دينه الحقيقية التي يرضى بها الله كان اللازم عليه أن يتلقاها من أحد الراسخين في العلم، وهذا أمر واضح لاريب فيه ، فإنه لمّا أنزل الله «اليوم أكملت لكم دينكم » تحقق لنا منه :

١ ـ أنّ أحكام الدين موجودة في القرآن الكلية والجزئية ، فيلزم على كل مسلم أن يجزم بوجود الأحكام في القرآن .

٢ ـ أنّ هذا الكمال الذي ذكره الله في الآية يلزم أن يكون شاملاً لكل مسلم ولايجوز بحكم العقل أن ننسب الى العدل الالهي أن يجعل الاكمال للنبي وحده ، أي هو العالم بجميع الأحكام وحده ولايعلم بها غيره من الامّة ، مع أنّ الله يخاطب الجميع ويقول لهم : « اليوم أكملت لكم » .

٣ ـ أنّ في الامّة بـل أغلب الامّة امّيين لايعرفون القراءة والكتابة ، ولو عرفوا القراءة لايمكنهم معرفة الأحكام واستخراجها من الآيات إلا بالتعلم من النبي صلى الله عليه وآله .

٤ ـ أنّ جميع الامّة لاتعرف تأويل الآيات المتشابهات إلا من استثناهم الله بقوله : « لايعلم تأويله إلّا الله والراسخون في العلم » .

---

(١) آل عمران : ٧ .

(٢) المائدة : ٣ .

٥ ـ أنّ هذا الدين الذي أكمله الله لأمّة محمد قد بلّغه الرسول لأمّته ولم يخف عنهم شيئاً منه وذلك بقوله تعالى: «يا أيّها الرسول بلّغ ما انزل إليك من ربّك»[1] حيث إنّ الله قد أكمل الدين بواسطة النبي ﷺ وأمره بأن يبلّغ الامّة بما أنزله عليه.

واذا عرفنا ماتقدم من الامور الخمسة نقول: إما أن يكون النبي ﷺ قد بلّغ ماانزل إليه أو لم يبلّغ. والثاني باطل، أي القول بعدم التبليغ باطل، لأنّ الله يقول: «وإن لم تفعل فما بلّغت»[2] فلابدّ من المصير الى القول بالتبليغ.

فاذا اتفقنا على القول بالتبليغ فإما أن نقول إنه بلّغ كل فرد من أصحابه الموجودين في زمانه بكل حكم من الأحكام، فهذا لايمكن القول به لأنّ في الكثير ممن لايمكنه حفظ المسائل وفيهم أيضاً المنافقون الذين يتعمدون تغييرها وقلبها.

فلابدّ من القول بأنّ التبليغ إنما هو لبعض الأصحاب الذين يمكنهم استخراج الجزئيات من الكليات ويعلمون تأويل المتشابه من الآيات، وهؤلاء في القلّة وهم الذين ذكرهم الله بقوله: «والراسخون في العلم» ولايعرفهم من أصحاب النبي ﷺ إلا القليل.

ولقد عرّفنا بهم النبي بقوله: إني تارك فيكم مالو تمسكتم بهما لن تضلّوا: كتاب الله وعترتي[3] فإنه لمّا جعل قرين الكتاب وعدله العترة عرّفنا أنهم هم الذين يفسرونه وهم الذين يستخرجون منه الأحكام ويطبقون الفروع على الاصول.

ولايخفى أنّ الاكمال الذي يمكننا القول به والذي نفسر به الآية إنما هو القواعد الكلّية لا المسائل الجزئية التي يبتلي بها الأفراد، فإنّ هذه المسائل لا تكمل ولا تنتهي، فلابدّ من القول بأنها الاصول الكلية التي تنطبق على جزئياتها وعلى

---

(١) و (٢) المائدة: ٦٧.

(٣) بحار الانوار: ج٢٣ ص١٠٤ ب٧.

هذا لابدّ من وجود عالم عارف بمعاني جميع الآيات القرآنية حتى يستخرج الجزئيات من الاصول، ويلزم أن يكون من الراسخين في العلم، فاذا انقضى أمره جاء بعده واحد آخر، ومن بعدهم الفقهاء الذين يمكنهم الاستنباط من كلام الراسخين، لأنّ الراسخين هم العارفون بمايراد من المتشابه لاغيرهم.

ثم إنّ الاكمال معناه الاتمام الذي لانقص فيه ولاعيب من جميع الجهات، فاذا قال أحد من الخلق إني أكملت الأمر الفلاني يمكن أن يوجد فيه نقص أو عيب من جهة أو من جهات كثيرة، وهذا أمر بديهي يعرفه كل أحد، ولذا نرى أنّ جميع الحكومات اذا أسست المناهج والمواد القانونية التي يصنعها أكابر رجال الفكر والسياسة يظهر فيها بعد ذلك فساد بعض المواد فتغيّر وتبدل.

أما هذا الكلام الصادر من الله ـ خالق العالم وعالم السرائر والضمائر والعالم بالحقائق والدقائق والعالم بماكان ومايكون ـ فلايحتمل أن يكون فيه نقص أو خطأ أو يحدث فيه عيب، فقوله تعالى: «اليوم أكملت لكم لكم دينكم» يدلّ على أنّ كل شيء يتعلّق بالدين ويحتاج إليه المسلمون هو موجود في القرآن، وهذا لايمكن أن يكون بالنسبة الى الجزئيات التي تحدث في كل يوم أوفي كل ساعة أوحين وإنما يكون الاكمال بالنسبة الى كليات الامور وهي القواعد الكلية التي تنطبق على الجزئيات، والنبي ﷺ هو الذي يفسرها لامّته، وحيث إنّ الاكمال لم يكن مختصاً بـزمن وجود النبي ﷺ فلابدّ أن يكون بعد رحلة النبي ﷺ من يقوم مقامه ممن يبيّن لامّته مايحتاجون إليه من امور الدين، وهذا الذي يقوم مقام النبي ﷺ يلزم أن يكون عالماً بتفسير القرآن، ويلزم أن يكون النبي ﷺ قد نوّه عنه وبيّنه لامّته باسمه الصريح، ويلزم على كل فرد من المسلمين أن يفحص عنه ويعرفه باسمه ويعرّفه للناس.

قال الراغب في المفردات: كمال الشيء حصول مافيه الغرض منه، فاذاقيل

كمل ذلك فمعناه حصول ماهو الغرض منه[١].

وقال في القاموس المحيط: الكمال التمام، وأكمله واستكمله وكمله أتمه وجمله[٢].

وقال في المنجد: كمل وأكمل واستكمل الشيء أتمّه، كمل وأكمل الشيء جمله أو جعله جملة[٣].

فقد اتضح من قوله تعالى: « اليوم أكملت لكم دينكم » أنه تعالى ذكر أحكام الدين كلها في القرآن بطريقة قواعد كلية يفسرها للأمّة الراسخون في العلم العارفون بتأويله المطلعون على حقائقه وغوامضه، ويرشد الى هذا تفسير كلمة أكمل بأجمل كما فسر معنى أجمل في المنجد بقوله أو جعله جملة.

ماقاله سيد قطب :

قال في تفسير قوله تبارك وتعالى « اليوم أكملت لكم دينكم »: فما عادت زيادة لمستزيد، ففي مبادئه وكلياته وتوجيهاته الكفاية لبناء الضمائر وبناء المجتمعات[٤] انتهى.

تنبيه

لايخفى أنّ إكمال الدين وإتمام النعمة ليس مختصاً بالامور المرتبطة بالفقه من عبادات ومعاملات بل تشمل كل شيء من الصناعات والحرف وغيرها ممايحتاجه الناس.

ويرشد الى هذا كلام الامام الباقر عليه السلام مع هشام بن عبدالملك وذلك لما رمى الامام البرجاس وأصابه، ثم رماه ثانياً فشقّ فواق سهمه الى نصله، ثم تابع

---

(١) المفردات: ص٤٤١ مادة «كمل».

(٢) القاموس المحيط: ج٤ ص٤٧ فصل الكاف باب اللام.

(٣) المنجد: ص٦٩٨.

(٤) في ظلال القرآن: ج٢ ص٨٤٢.

الرمي حتى شقّ تسعة أسهم بعضها في جوف بعض ، وعند ذلك سأله هشام وقال: أيرمي جعفر مثل رميك؟ فقال الامام الباقر عليه السلام : إنّا نحن نتوارث الكمال والتمام اللذين أنزلهما الله على نبيه في قوله :« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً » والأرض لاتخلو ممن يكمل هذه الامور التي يقصر غيرنا عنها... الخ، وقد ذكرنا كلام الامام في الجزء الأول من هذا الكتاب[1] فقد علمنا من كلام الامام أنّ قول الله سبحانه « أكملت وأتممت » هو بالنسبة الى جميع العلوم التي أعطاها الأنبياء وكذا العلوم التي لم يعطها لأحد .

وقد تحصّل مما ذكرنا في هذه الآية أمران :

الأمر الأول: هو أنّ الله سبحانه أنزل في القرآن جميع العلوم المتعلّقة بامور الدنيا والآخرة وجعلها قواعد كلية تنطبق على مايحدث من المسائل الفردية بحيث لايمكن أن يعرض للبشر أمر من الامور ليس حكمه أو حلّه في القرآن .

الأمر الثاني: أنّ هذه العلوم التي لاتحصى ولاتعدّ قد علّمها الله النبي صلى الله عليه وآله والنبي قد أودعها عند رجال معدودين ليعلّموها لمن يطلبها منهم إن كان أهلاً لذلك ، وأنّ هؤلاء الرجال لايمنعونها عن أحد ولايمنعون أحداً عنها ، أما ذاك الذي يتكبر عن الأخذ منهم أو أنه يعمل برأيه ولايحتاج الى الحكم المنزّل من الله فلايفرضونه عليه فرضاً، فإنّ مثل هذا غير ملتزم بأحكام المسلمين ومن لايلتزم بأحكام المسلمين فليس منهم .

بقي على المسلم المكلّف أن يعرف أول رجل من هؤلاء الرجال وهو يدلّه ويرشده الى من بعده، فإنّ كل واحد اذا حضره الموت يلزمه أن يسلّم هذه العلوم الى من بعده ويدلّ الناس عليه ، ولايمكننا أن نعرف أول رجل منهم إلّا بدلالة النبي صلى الله عليه وآله فإنه هو الذي يعرفه ولايعرفه غيره .

أخي المسلم، هلمّ معي حتى نفحص الكلمات الصادرة من النبي صلى الله عليه وآله مخاطباً

---

(١) راجع الجزء الاول : ص٢٨٥ .

بها عموم امتد التي تدلنا على أول رجل من رجال العلم ، فاذا عرفناه عرفنا غيره ممن يأتي بعده .

فمن الكلمات التي يرويها عنه أصحابه هي « حديث الثقلين » المشهور عند جميع فرق المسلمين ، وقد ذكره النبي صلى الله عليه وآله في مقامات عديدة بعبارات متقاربة الألفاظ متحدة المعنى ، فمنها قوله كما في كنز العمال : إني تارك فيكم ما إن تمسكتم لن تضلوا بعدي أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الأرض وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما[1].

فإنّ هذا الحديث المعبّر عن اجتماع العترة مع الكتاب وعدم افتراقهما حتى يردا الحوض يدلّ على علم العترة بتأويل الكتاب، وأنّ أول العترة وسيدها هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وهو عنده علم الكتاب فإن اكتفيت بهذا فخذ بما يخبرك به علي من أحكام الدين ، وإن لم تكتف بهذا فإنّ عندنا أحاديث كثيرة تدلّ على أنّ علم الكتاب عند علي عليه السلام نذكر منها:

١ ـ عن ابن أبي ليلى عن الحسن بن علي عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ادعوا لي سيد العرب ـ يعني علي بن أبي طالب ـ فقالت عائشة: ألست سيد العرب؟ فقال : أنا سيد ولد آدم وعلي سيد العرب ، فلما جاء أرسل الى الأنصار فأتوه فقال لهم : يامعشر الأنصار ألا أدلكم على ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعده أبداً؟ قالوا : بلى يارسول الله . قال : هذا علي فأحبوه بحبي وأكرموه بكرامتي فإنّ جبرئيل أمرني بالذي قلت لكم من الله عزّ وجلّ[2].

٢ ـ عن أبي صالح الحنفي عن علي عليه السلام قال : قلت : يارسول الله أوصني ، قال : قل ربي الله ثم استقم ، قال: قلت : الله ربي وماتوفيقي إلا بالله عليه توكلت

---

(١) كنز العمال : ج١ ص١٧٣ ح٨٧٣ .

(٢) حلية الاولياء وطبقات الاصفياء : ج٢ ص٦٣ .

وإليه انيب ، فقال : ليهنك العلم أبا الحسن لقد شربت العلم شرباً ونهلته نهلاً[١].

٣ ـ عن عبدالله بن مسعود قال : إنّ القرآن انزل على سبعة أحرف مامنها حرف إلا له ظهر وبطن ، وإنّ علي بن أبي طالب عنده علم الظاهر والباطن[٢].

٤ ـ عن علي عليه‌السلام قال: قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله: ياعلي إنّ الله أمرني أن ادنيك واعلّمك لتعي ، وانزلت هذه الآية «وتعيها اذن واعية» فأنت اذن واعية لعلمي[٣].

٥ـ عن سليمان الأحمسي عن أبيه عن علي عليه‌السلام قال: والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم انزلت وأين انزلت، إنّ ربي وهب لي قلباً عقولاً ولساناً سؤولاً[٤].

٦ـ عن حبشي بن جنادة قال : قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله : علي مني وأنا من علي ولايؤدي عني إلا أنا أو علي [٥].

٧ـ عن ابن عباس أنّ النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله قال: علي مني بمنزلة رأسي من بدني[٦].

٨ـ روي أنّ النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله قال في مرض موته: أيّها النّاس! يوشك أن اقبض قبضاً سريعاً فينطلق بي وقد قدمت اليكم القول معذرة إليكم ، إلا أنّي مخلف فيكم : كتاب ربي عزّ وجلّ وعترتي أهل بيتي . ثم أخذ بيد علي فرفعها فقال : هذا علي مع القرآن والقرآن مع علي لا يفترقان حتى يردا عليّ الحوض فأسألهما ماخلفت فيهما[٧].

٩ـ قال الغزالي : قد علم الأولون والآخرون أنّ فهم كتاب الله منحصر الى علم علي ، ومن جهل ذلك فقد ضلّ عن الباب الذي من ورائه يرفع الله عن القلوب الحجاب حتى يتحقق اليقين الذي لايتغير بكشف الغطاء[٨].

---

(١) و (٢) حلية الاولياء : ج٢ ص٦٥ .
(٣) حلية الاولياء : ج٢ ص٦٧ والاية١٢ من سورة الحاقة .
(٤) حلية الاولياء : ج٢ ص٦٧ .
(٥) الصواعق المحرقة : ص١٢٢ .
(٦) الصواعق المحرقة : ص١٢٥ .
(٧) الصواعق المحرقة : ص١٢٦ .
(٨) فيض القدير : ج٣ ص٤٦ .

أقول : يشير الامام الغزالي بقوله : « فقد ضلّ عن الباب » الى كلمة النبي صلى الله عليه وآله المشهورة : أنا مدينة العلم وعلي بابها[١]. ويشير الغزالي بقوله : « الذي من ورائه يرفع الله عن القلوب » الى كلمة علي عليه السلام المشهورة : لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً[٢].

إنّ كلمة الامام الغزالي كلمة بديعة ، وهي تشبه كلمات أمير المؤمنين عليه السلام ولا بدّ من توضيح عبارته لمن خفيت عليه .

يقصد الغزالي بكلمته أنّ انحصار فهم الكتاب بعلي ، حيث إنه متفق لدى الأولين والآخرين، فالذي يجهل هذا الاتفاق لدى الأولين والآخرين فإنه ضالّ عن الباب الذي يشير الله إليه بقوله : « ليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكنّ البرّ من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها »[٣] ولما قال النبي صلى الله عليه وآله : أنا مدينة العلم وعلي بابها نبّه جميع الامّة من أنّ من أراد شيئاً من العلم ـ أيّ علم كان ـ يلزمه أن يأخذه من علي لأنه هو الباب للنبي والنبي هو مدينة العلم، فمن أخذ شيئاً من العلم من غير علي كان كمن أتى البيت من ظهره ، فهو مخالف لارشاد الله ومخالف لتعاليم النبي ، ومهما أخذ من العلم فهو بعد على جهله وضلاله .

هذا هو محصل كلمة الغزالي القصيرة الألفاظ الكثيرة المعاني حيث أشارت الى: آية شريفة ، والى كلمة نبوية ، والى كلمة علوية، والى معرفة مقام علي بن أبي طالب عليه السلام، والى بيان أنّ الجاهل بهذا المقام هو جاهل مطلقاً وهو ضالّ عن الطريق حيث لم يهتد الى الباب .

إنّ هذه الأحاديث التي نقلتها لك من كتب الأعلام كلها تدلّ على أنّ علوم القرآن عند علي عليه السلام ، وأنّ الامّة الاسلامية ملزمة العمل بالقرآن، وأنّ

---

(١) كنز العمال : ج١١ ص٦٠٠ ح٣٢٨٩٠ .

(٢) شرح مائة كلمة : ص٥٢ .

(٣) البقرة : ١٨٩ .

من أراد التمسك بالدين وخشي من الضلال فعليه التمسك بهما ـ أي بالكتاب والعترة ـ فإن كنت تقتنع بماذكر فهو المطلوب وإن أردت زيادة من الأخبار تأكيداً للأمر فاستمع لما نذكره من كتاب «ينابيع المودة» للحافظ سليمان بن ابراهيم الحنفي:

١٠ ـ عن علي عليه السلام قال: سلوني عن أسرار الغيوب فإني وارث علوم الأنبياء والمرسلين[١].

١١ ـ عن ابن عباس قال: أخذ بيدي الامام علي عليه السلام ليلة مقمرة فخرج بي الى البقيع بعد العشاء وقال: اقرأ ياعبدالله، فقرأت: بسم الله الرحمن الرحيم، فتكلّم لي في أسرار الباء الى بزوغ الفجر[٢].

١٢ ـ عن أبي الصباح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لما صرت بين يدي ربي كلّمني وناجاني، فما علّمت شيئاً إلّا علّمته علياً، فهو باب علمي[٣].

١٣ ـ عن الكلبي قال: قال ابن عباس: علم النبي صلى الله عليه وآله من علم الله، وعلم علي من علم النبي صلى الله عليه وآله، وعلمي من علم علي، وماعلمي وعلم الصحابة في علم علي إلا كقطرة في سبعة أبحر[٤].

١٤ ـ عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنت عند النبي صلى الله عليه وآله فسئل عن علم علي فقال: قسّمت الحكمة عشرة أجزاء فاعطي علي تسعة أجزاء والناس جزءً واحداً، وهو أعلم بالعشر الباقي أيضاً[٥].

١٥ ـ وفيه أيضاً أنه سئل علي كرم الله وجهه أنّ عيسى بن مريم كان يحيي الموتى وسليمان بن داود كان يفهم منطق الطير هل لكم هذه المنزلة؟ قال: إنّ سليمان بن داود عليه السلام غضب على الهدهد لفقده لأنه يعرف الماء ويدلّ على الماء ولايعرف سليمان الماء تحت الهواء مع أنّ الريح والنمل والانس والجنّ والشياطين

(١) و (٢) و (٣) ينابيع المودة: ج١ ص٦٨.
(٤) و(٥) ينابيع المودة: ج١ ص٦٩.

والمردة كانوا له طائعين وإنّ الله يقول في كتابه : « ولو أنّ قرآناً سيّرت بـه الجبال أو قطّعت به الأرض أو كلّم به الموتى »[١] ويقول تعالى : « ومامن غائبة في السماء والأرض إلاّ في كتاب مبين »[٢] ويقـول تعالى : « ثمّ أورثنـا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا»[٣] فنحن أورثنا هذا القرآن الذي فيه مايسير به الجبال وقطعت به البلدان ويحيي به الموتى نعرف به الماء وأورثنا هذا الكتاب، فيه تبيان كل شيء[٤].

١٦ ـ وفيه أيضاً عن الأصبغ بن نباتة كاتب أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: أمرنا مولانـا بالمسير معه الى المدائن من الكوفة فسرنا يـوم الأحد ، فتخلّف عمرو بن حريث مع سبعة نفر فخرجوا يوم الأحد الى مكان بالحيرة يسمى الخورنق فقالوا: نتنزه هناك ثم نخرج يوم الأربعاء فنلحق علياً قبل صلاة الجمعة، فبينا هم يتغدون إذ خـرج عليهم ضبّ فصادوه فـأخذه عمرو بن حريث فنصب في كفه فقال لهم : بايعوا لهذا، هذا أمير المؤمنين. فبايعه السبعة وعمرو ثامنهم وارتحلوا ليلة الأربعاء فقدموا المدائن يـوم الجمعة وأمير المؤمنين عليه السلام يخطب وهم نزلوا على المسجد فنظر إليهم فقال: أيّها الناس إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أسرّ إليّ ألف حديث، في كل حديث ألف باب ، وفي كل باب ألف مفتاح ، وإني أعلم بهذا العلم . وأيضاً سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : قال الله عزّ وجلّ : « يوم ندعو كلّ اناس بإمامهم» وإني اقسم لكم بالله ليبعثن يوم القيامة ثمانية نفر بإمامهم وهو ضبّ ، ولو شئت اسميهم قال الأصبغ : لقد رأيت عمرو بن حريث سقط رعباً وخجالة[٥] .

وقد أكثرت من ذكر الأحاديث الدالّة على علم علي عليه السلام ليقنع القارىء

(١) الرعد : ٣١ .
(٢) النمل : ٧٥ .
(٣) فاطر : ٣٢ .
(٤) ينابيع المودة : ج١ ص٦٩ .
(٥) ينابيع المودة : ج١ ص٧٠ ، والاية ٧١ من سورة الاسراء .

أنه هو الوحيد الذي عنده علم ما في القرآن، وهو الوحيد الذي يتمكن من الاجابة عن كل سؤال، وإني سأذكر لك حديثاً واحداً هو صريح في المعنى المذكور.

١٧ ـ عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: علي باب علمي ومبيّن لامّتي ما ارسلت بـه من بعدي، حبّه إيمان وبغضه نفاق، والنظر إليه رأفة ومودته عبادة. رواه صاحب الفردوس[1].

بعد ما عرفنا أنّ القرآن لا يجمعها أحد غير علي بن أبي طالب عليه السلام وأنها منحصرة به وأنه هو المكلف في بيانها لامّة النبي كما صرح النبي صلى الله عليه وآله في هذا الحديث بقـوله: « ومبيّن لامّتي ما ارسلت به من بعدي » نرجع الى قوله تعالى: « اليـوم أكملت لكم دينكم » فنقول: لابـدّ وأن تكون جميع الامور ـ دينية ودنيوية ـ مهيأة سهلة التناول لجميع الامّة، غاية الأمر أنّ بعضها معلوم مبيّن وهو ما يشترك فيه الجميع كوجوب الصلاة والصوم وأمثالهما، والبعض الآخر يحتاج الى مراجعة العالم وهو أحد الراسخين في العلم. وهذا كله مستفاد من قوله تعالى: « أكملت » إذ لا يمكننا أن نقول بعد هذه الكلمة ببقاء أمر أو حكم غير موجود في القرآن سواء كان متعلقاً بالدين أو بالدنيا، ولا يمكن أن نقول إنّ بعض الامور لا يمكن التوصل إليها فإنّ رجال العلم عندهم جميع ذلك.

وبعد هذه المقدمة المطولة يترجح بل يتعيّن أن يكون نزول الآية وهي قوله: « اليوم أكملت لكم دينكم » بعد نصب النبي صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام أميراً للمؤمنين وخليفةً من بعده بأمر من الله ـ كما ذكر هذا جماعة من المفسرين سنذكر أسماءهم ـ وحينئذ لا يبقى اشكال في فهم الآية ولا اعتراض لمعترض، أما الذين ذكروا ذلك فهم:

١ ـ الشيخ أبو الحسن الطبرسي في تفسيره مجمع البيان، فإنه ذكر الأقوال فيها ثم قال: والمروي عن الامامين أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام أنه إنما أنزل بعد أن نصب النبي صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام علماً للأنام يوم غدير خم عند منصرفه عن حجة الوداع.

---

(١) ينابيع المودة: ج٢ ص٥٩.

قالا : وهـو آخر فريضة أنزلها الله تعالى ثم لم ينزل بعدها فريضة . وقد حدثنا السيد العالم أبو الحمد مهـدي بن نزار الحسيني قال : حدثنا أبو القاسم عبيدالله ابن عبدالله الحسكاني قـال : أخبرنا أبو عبدالله الشيرازي قال : أخبرنا أبو بكر الجرجاني قال : حدثنا أبو أحمد البصري قال : حدثنا أحمد بن عمار بن خالد قال: حدثنا يحيى بن عبدالحميد الحماني قال : حدثنا قيس بن الربيع عن أبي هارون العبدي عن أبي سعيد الخدري أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لما نزلت هذه الآية قال : الله أكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة ، ورضا الربّ برسالتي وولاية علي بن أبي طالب من بعدي، وقال : من كنت مولاه فعليّ مولاه ، اللهمّ وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله[1].

لايخفى على الأديب مافي لطف التعبير ودقة المعنى الذي أفاده النبي بكلمته هذه ، فإنّ الله قال : « **ورضيت لكم الاسلام ديناً** » والنبي صلى الله عليه وآله قال : ورضا الربّ برسالتي وولاية علي بن أبي طالب . فإنه فسر لنا معنى الاسلام بأجمل تفسير يعني أنّ الاسلام الذي ارتضاه لنا الله حقيقته ومعناه هو الاعتراف برسالة النبي وولاية علي بن أبي طالب ، وأنّ العبد اذا أخلّ بأحد هذين الأمرين فهو ليس بمسلم، واذا اعترف العبد بالرسالة والولاية فقد كمل له الدين وتمت عليه النعمة ورضي عليه الرب ، فهذه عبارة هي غاية في البلاغة والاجمال والرشاقة واللطف ، فتأمل أيها المسلم المبتغي رضا الرب ، سوف ترتاح بها وتلتذّ بمفادها .

٢ ـ ممن ذكر نزول الآية بعد نصب النبي صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام علي بن ابراهيم القمي في تفسيره، قال بعد ذكر الآية: حدثني أبي عن صفوان بن يحيى عن العلاء عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: آخر فريضة أنزلها الله الولاية ثم لم ينزل بعدها فريضة ثم أنزل «اليوم أكملت لكم دينكم» بكراع الغميم، فأقامها رسول

---

(١) مجمع البيان : ج٣ ص١٥٩ .

الله صلى الله عليه وآله بالجحفة فلم ينزل بعدها فريضة[١].

٣ ـ مانقله الفيض الكاشاني في تفسيره عن الباقر عليه السلام أنه قال: الفريضة تنزل بعد الفريضة الاخرى، وكانت الولاية آخر الفرائض، فأنزل الله: « اليوم أكملت لكم دينكم » قال : لاأنزل بعد هذه فريضة ، قد اكملت لكم الفرائض .

ثم قال بعد نقله الرواية: وإنما اكملت الفرائض بالولاية لأنّ النبي صلى الله عليه وآله أنهى جميع مااستودعه الله من العلم الى علي عليه السلام ثم الى ذريته الأوصياء واحداً بعد واحد، فلما أقامهم مقامه تمكن الناس من الرجوع إليهم في حلالهم وحرامهم واستمرّ ذلك بقيام واحد به بعد واحد ، كمل الدين وتمت النعمة والحمد لله ، وقد ورد هذا المعنى بعينه عنهم عليهم السلام ، ويأتي مايقرب منه في خطبة الغدير[٢].

٤ ـ مانقله محمد بن مسعود العياشي في تفسيره عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال : آخر فريضة أنزلها الله الولاية « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً » فلم ينزل من الفرائض شيء بعدها حتى قبض الله رسوله[٣].

وفيه أيضاً عن جعفر بن محمد الخزاعي عن أبيه قال : سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: لما نزل رسول الله عرفات يوم الجمعة أتاه جبرائيل فقال له : يامحمد إنّ الله يقرئك السلام ويقول لك: قل لامّتك «اليوم أكملت لكم دينكم» بولاية علي بن أبي طالب «وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً» ولست انزل عليكم بعد هذا ، قد أنزلت عليكم الصلاة والزكاة والصوم والحج وهي الخامسة ، ولست أقبل هذه الأربعة إلا بها[٤].

---

(١) تفسير القمي : ج١ ص١٦٢ .

(٢) تفسير الصافي: ج٢ ص١٠ وقد نقل الرواية عن الكافي: ج١ ص٢٨٩ ضمن حديث٤.

(٣) تفسير العياشي : ج١ ص٢٩٢ ح٢٠ .

(٤) تفسير العياشي : ج١ ص٢٩٣ ح٢١ .

وفيه عن ابن اذينة قال: سمعت زرارة عن أبي جعفر عليه السلام: أنّ الفريضة كانت تنزل ثم تنزل الفريضة الاخرى فكانت الولاية آخر الفرائض وأنزل الله: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً» فقال أبو جعفر عليه السلام: يقول الله: لاانزل عليكم بعد هذه الفريضة فريضة[1].

٥ ـ مانقله العروسي في تفسيره عن علي بن ابراهيم عن أبيه عن أبي عمير عن عمر بن اذينة عن زرارة والفضيل بن يسار وبكير بن أعين ومحمّد بن مسلم وبريد بن معاوية جميعاً قال أبو جعفر عليه السلام: وكانت الفريضة تنزل بعد الفريضة الاخرى وكانت الولاية آخر الفرائض فأنزل الله عزّ وجلّ: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي» قال أبو جعفر عليه السلام: يقول الله عزّ وجلّ: لاانزل عليكم بعد هذه فريضة قد أكملت لكم الفرائض[2].

وفيه أيضاً عن محمّد بن يحيى عن أحمد بن محمّد ومحمّد بن الحسين جميعاً عن محمّد بن إسماعيل بن بزيع عن منصور بن يونس عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: فرض الله عزّ وجلّ على العباد خمساً ـ الى قوله: ـ ثم نزلت الولاية وإنما أتاه ذلك في يوم الجمعة بعرفة أنزل الله عزّ وجلّ: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي» وكان كمال الدين بولاية علي بن أبي طالب عليه السلام فقال عند ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله: امّتي حديثو عهد بالجاهلية ومتى أخبرتهم بهذا في ابن عمي يقول قائل ويقول قائل، فقلت في نفسي من غير أن ينطق به لساني، فأتتني عزيمة من الله عزّ وجلّ بتلة[3] أوعدني إن لم ابلّغ أن يعذبني فنزلت: «يـا أيّها الرسول بلّغ ماانزل إليك من ربّك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته والله يعصمك من الناس إنّ الله لايهدي القوم الكافرين»[4] فأخذ رسول

(١) تفسير العياشي: ج١ ص٢٩٣ ح٢٢.
(٢) نور الثقلين: ج١ ص٥٨٧ ح٢٥ وقد نقل الرواية عن الكافي: ج١ ص٢٨٩ ح٤.
(٣) أي مقطوعة.
(٤) المائدة: ٦٧.

الله صلى الله عليه وآله بيد علي عليه السلام فقال :

أيها الناس إنه لم يكن نبي من الأنبياء ممن كان قبلي إلا وقد عمّره الله ثم دعاه فأجابه ، فاوشك أن ادعى فاجيب وأنا مسؤول وأنتم مسؤولون فماذاأنتم قائلون؟ فقالوا: نشهد أنك قد بلّغت ونصحت وأديت ماعليك فجزاك الله أفضل جزاء المرسلين ، فقال : اللهم اشهد ـ ثلاث مرات ـ ثم قال : يامعشر المسلمين هـذا وليكم من بعدي فليبلغ الشاهد منكم الغائب[1].

ونقل العروسي أيضاً خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام وهـي خطبة الوسيلة يقول فيها بعد أن ذكر النبي صلى الله عليه وآله: وقوله صلى الله عليه وآله حين تكلمت طائفة فقالت : نحن موالي رسول الله ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله الى حجة الوداع ثم صار الى غدير خم فأمر فأصلح له شبه المنبر ثم علاه وأخذ بعضدي حتى رئي بياض إبطيه رافعاً صوته قائلاً في محفله: من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه. فكانت على ولايتي ولاية الله وعلى عداوتي عداوة الله وأنزل الله عز وجل في ذلك اليوم « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً » فكانت ولايتي كمال الدين ورضا الرب جل ذكره[2].

وفيه أيضاً ـ كما في أمالي الصدوق ـ بإسناده الى الصادق جعفر بن محمد عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : يوم غدير خم أفضل أعياد امتي وهو اليوم الذي أمرني الله تعالى ذكره فيـه بنصب أخي علي بن أبي طالب علماً لامتي يهتدون بـه من بعدي ، وهو اليوم الذي أكمل الله فيـه الدين وأتم على امتي فيه النعمة ورضي لهم الاسلام ديناً[3] والحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة.

وفيه أيضاً ـ كما في كتاب الخصال ـ عن يزداد بن ابراهيم عمن حدثه من

---

(١) تفسير نور الثقلين: ج١ ص٥٨٧ ح٢٥ وقد نقل الرواية من الكافي: ج١ص٢٩٠ح٦ .
(٢) تفسير نور الثقلين: ج١ ص٥٨٨ ح٢٨ وقد نقل الرواية من الكافي: ج٨ ص٢٣ح٤ .
(٣) نور الثقلين : ج١ ص٥٨٨ ح٢٩ .

أصحابنا عن أبي عبدالله عليه السلام عن علي عليه السلام حديث طويل يقول في آخره : وأنّ بولايتي أكمل الله لهذه الامّة دينهم وأتمّ عليهم النعمة ورضي إسلامهم إذ يقول يوم الولاية لمحمد صلى الله عليه وآله: يامحمد أخبرهم أني أكملت لهم دينهم ورضيت لهم الاسلام ديناً وأتممت عليهم نعمتي كل ذلك من منّ الله به عليّ فله الحمد[1].

وفيه أيضاً ـ كما في كتاب علل الشرايع ـ بإسناده الى اسحاق بن اسماعيل النيسابوري أنّ العالم ـ يعني الحسن بن علي عليه السلام ـ كتب إليه : إنّ الله عزّ وجلّ بمنّه ورحمته لما فرض عليكم الفرائض لم يفرض ذلك عليكم لحاجة منه إليه بل رحمة منه إليكم لاإله إلا هـو ليميز الخبيث من الطيّب وليبتلي مافي صدوركم وليمحص مافي قلوبكم ولتتسابقوا الى رحمته ولتتفاضل منازلكم في جنته، ففرض عليكم الحجّ والعمرة وإيقام الصلاة وإيتاء الزكاة والصوم والولاية ، وجعل لكم باباً لتفتحوا به أبواب الفرائض ومفتاحاً الى سبيله، ولولا محمد صلى الله عليه وآله والأوصياء من ولده كنتم حيارى كالبهائم لاتعرفون فرضاً من الفرائض ، وهل تدخل القرية إلا من بابها ؟ فلما منّ الله عليكم بإقامة الأولياء بعد نبيكم صلى الله عليه وآله قال الله عزّ وجلّ : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً »[2] والحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة .

٦ ـ الشيخ الطوسي رحمه الله في تفسيره، فإنه بعد ماذكر الأقوال فيها قال : وروي عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام : أنّ الآية نزلت بعد أن نصب النبي صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام علماً للامّة يوم غدير خم عند منصرفه عن حجة الوداع فأنزل الله يومئذ: « اليوم أكملت لكم دينكم »[3].

٧ـ ابن كثير في تفسيره قال ـ بعدما ذكر الأقوال في تفسيرها ماهذا لفظه ـ:

---

(١) نور الثقلين : ج١ ص٥٩٠ ح٣٤ .

(٢) نور الثقلين : ج١ ص ٥٩ ح٣٥ .

(٣) التبيان: ج٣ ص٤٢٥.

قلت : وقد روى ابن مردويه من طريق أبي هارون العبدي عن أبي سعيدالخدري أنها نزلت على رسول الله ﷺ يوم غدير خم حين قال لعلي : من كنت مولاه فعلي مولاه. ثم رواه عن أبي هريرة[١].

٨ ـ السيوطي في الدر المنثور قال: وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن أبي سعيد الخدري قال : لما نصب رسول الله ﷺ علياً يوم غدير خم فنادى له بالولاية هبط جبرئيل عليه السلام عليه بهذه الآية: «اليوم أكملت لكم دينكم».وأخرج ابن مردويه والخطيب وابن عساكر عن أبي هريرة قال: لما كان يوم غديرخم وهو يوم ثماني عشرة من ذي الحجة قال النبي ﷺ : من كنت مولاه فعلي مولاه . فأنزل الله : « اليوم أكملت لكم دينكم »[٢].

٩ ـ الخطيب البغدادي في تاريخه روى بسنده عن أبي هريرة قال: من صام يوم ثماني عشرة من ذي الحجة كتب له صيام ستين شهراً وهو يوم غديرخم لما أخذ النبي ﷺ بيد علي بن أبي طالب فقال: ألست ولي المؤمنين ؟ قالوا: بلى يارسول الله ، قال : من كنت مولاه فعلي مولاه ، فقال عمر بن الخطاب: بخ بخ لك يابن أبي طالب أصبحت مولاي ومولى كل مسلم . فأنزل الله : « اليوم أكملت لكم دينكم » . ثم رواه الخطيب بطريق آخر عن أبي هريرة أيضاً[٣].

١٠ـ نقل العلامة الطباطبائي في تفسيره عن «غاية المرام» قال: عن أبي المؤيد موفق ابن أحمد في كتاب فضائل علي قال: أخبرني سيد الحفاظ شهردار بن شيرويه بن شهردار الديلمي فيما كتب الي من همدان أخبرنا أبو الفتح عبدوس بن عبدالله بن عبدوس الهمداني كتابة حدثنا عبدالله بن اسحاق البغوي حدثنا الحسين بن عليل الغنوي حدثنا محمد بن عبدالرحمن الزارع حدثنا قيس بن حفص حدثنا علي بن الحسين حدثنا

---

(١) تفسير ابن كثير : ج٢ ص٤٩١ .

(٢) الدر المنثور : ج٢ ص٢٥٩ .

(٣) تاريخ بغداد : ج٨ ص٢٩٠ .

أبو هريرة عن أبي سعيد الخدري أنّ النبي ﷺ يوم دعا الناس الى غدير خم أمر بما تحت الشجرة من شوك فقم، وذلك يوم الخميس يوم دعا الناس الى علي وأخذ بضبعه ثم رفعها حتى نظر الناس الى بياض إبطيه ثم لم يفترقا حتى نزلت هذه الآية « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً » فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة ورضا الربّ برسالتي والولاية لعلي، ثم قال: اللهمّ وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله .

وقال حسان بن ثابت : أتأذن لي يارسول الله أن أقول أبياتاً ؟ قال : قل بنزله الله تعالى ، فقال حسان بن ثابت :

يناديهم يوم الغدير نبيهم	بخم وأسمع بالنبي مناديا
بأني مولاكم نعم ووليكم	فقالوا ولم يبدوا هناك التعاميا
إلهك مولانا وأنت ولينا	ولاتجدن في الخلق للأمر عاصيا!
فقال له قم ياعلي فإنني	رضيتك من بعدي إماماً وهاديا

ونقل العلاّمة الطباطبائي في تفسيره عن كتاب «نزول القرآن في أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب» للحافظ أبي نعيم رفعه الى قيس بن الربيع عن أبي هارون العبدي عن أبي سعيد الخدري مثله وقال في آخر الأبيات :

فمن كنت مولاه فهذا وليه	فكونوا له أنصار صدق مواليا
هناك دعا اللهمّ وال وليه	وكن للذي عادى علياً معاديا[1]

تأمل وتنبيه

هذه كلمة النبي ﷺ ينبغي لذي اللب أن يتأمل فيها جيداً ليعرف معناها ومغزاها ، فإنّ الله قال في الجملة الاولى : « اليوم أكملت لكم دينكم » وقال في

---

(١) تفسير الميزان : ج٥ ص١٩٢ .

الجملة الثالثة : « رضيت لكم الاسلام ديناً » فالدين الذي بيّن لنا إكماله في الجملة الاولى هو بعينه الذي ارتضاه لنا في الجملة الثالثة ، أي أنّ الله عزّ وجلّ رضي منا بأن نسلّم تسليماً ونخضع خضوعاً بهذا الذي أكمله لنا ، وقد فسر لنا النبي ﷺ الدين الكامل الذي ارتضاه لنا الرب . فحذف النبي لفظ الدين وأبدلها بمعناها الحقيقي الذي يريد الله منا تطبيقه في الخارج فقال ﷺ : الله أكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة ورضا الرب برسالتي والولاية لعلي .

ثم تنبه جيداً أيها اللبيب، فإنّ النبي ﷺ فسر لنا الدين الذي أكمله الله لنا ورضيه لنا ورضي عنا إن سلّمنا وأخذنا به وهو عبارة عن رسالة النبي وولاية علي لاغير .

فإنّ الناس لو أخذوا بهذين الأمرين واتبعوا أمر النبي والولي لأوصلاهم الى كل فضيلة ومكرمة ولأبعداهم عن كل رذيلة خسيسة ولسادوا العالم ولكانوا ملوكاً في الآخرة ، ولكنهم حظهم ضيعوا ونصيبهم أخطأوا ، ولذا نرى المسلمين قد استولى الصهاينة وأعوانهم على أراضيهم وأخرجوهم من ديارهم ونفوهم عن أوطانهم على قلّتهم وكثرة المسلمين كل ذلك لضعف إيمانهم وعدم تمسكهم بعقيدتهم السامية ومخالفتهم لأوامر النبي ﷺ والولي، فليتنبه من أراد التنبيه، وأما من أراد العمى فالذلّ حليفه في الدنيا والنار في الاخرى .

فاذا عرفت معنى الجملة الاولى والجملة الثالثة يتضح لك معنى الجملة الثانية وهي إتمام النعمة والتي تتمّ بإكمال الدين ورضا الرب، فإنّ بإكمال الدين ينتظم أمر الدنيا والآخرة وبرضا الربّ تتمّ لنا نعم الدنيا والآخرة .

ثم نقل العلاّمة الطباطبائي عن كتاب «نزول القرآن» أيضاً يرفعه الى علي بن عامر عن أبي الحجّاف عن الأعمش عن عضة قال: نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ في علي بن أبي طالب عليه السلام « يا أيّها الرسول بلّغ ما انزل إليك » وقد قال الله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً » .

ثم ذكر رحمه الله بعد ذلك حديثين آخرين عن الحمويني عن أبي سعيد الخدري مثل الحديث الأول ثم قال: وعن المناقب الفاخرة للسيد الرضي رحمه الله عن محمد بن اسحاق عن أبي جعفر عن أبيه عن جده عليه السلام قال: لما انصرف رسول الله صلى الله عليه وآله من حجة الوداع نزل أرضاً يقال لها ضوجان، فنزلت هذه الآية «يا أيها الرسول بلّغ ما انزل إليك من ربّك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته والله يعصمك من الناس» فلما نزلت عصمته من الناس نادى الصلاة جامعة فاجتمع الناس اليه، وقال: من أولى منكم بأنفسكم؟ فضجوا بأجمعهم فقالوا: الله ورسوله، فأخذ بيد علي بن أبي طالب وقال: من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللهمّ وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله لأنه مني وأنا منه، وهو مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبيّ بعدي. وكانت آخر فريضة فرضها الله تعالى على امّة محمد، ثم أنزل الله تعالى على نبيه: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً».

قال أبو جعفر عليه السلام: فقبلوا من رسول الله صلى الله عليه وآله كلما أمرهم الله من الفرائض في الصلاة والصوم والزكاة والحج وصدقوه على ذلك[1].

١١ ـ وممن ذكر نزول الآية بعد نصب النبي صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام جدنا السيد عبدالله شبر في تفسيره المسمّى بـ «الجوهر الثمين في تفسير الكتاب المبين» قال عند وصوله الى هذه الآية ـ «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً» ـ: نزلت بعد أن نصب النبي صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام علماً للأنام يوم غدير خم عند منصرفه عن حجة الوداع[2].

والأخبار في ذلك من طرق العامة والخاصة متظافرة.

وبعد هذا كلّه فإن تيقن الانسان الذي يبتغي الرشد أنّ علي بن أبي طالب

---

(١) الميزان: ج٥ ص١٩٣ ـ ١٩٤.

(٢) الجوهر الثمين: (مخطوط).

هو الوحيد الذي عنده علم الكتاب وأنه هو الوحيد الذي يحق له الجلوس في مجلس النبي ويبيّن لامّته كما صرح هو ﷺ بذلك فهذا هو المطلوب الذي ينبغي للامّة أن تتفق عليه، وإلا إن لم يتيقن بهذا فليرجع الى كلام الغزالي الذي نقله عنه المناوي في فيض القدير[١].

وقد اتضح لكل أحد بأنّ العلم هو الذي يوجب التقدم لأهله وكل امّة يكون علمها أكثر تكون هي السابقة وهي المقدمة على غيرها، مع أننا نعلم وكل أحد يعلم أنّ التسابق بين الامم إنما هو في الامور الدنيوية المحضة التي لامساس لها بالآخرة بل في كثير من الموارد تضرّ بالآخرة لأنّ فيها إزهاق النفوس وإعدام البشر، ولكن المسلمين لايهتمون ولايجتهدون بالنسبة الى العلوم المستفادة من القرآن التي تجمع خير الدنيا والآخرة والتي تدعو الناس الى الهدى والصلاح وتحرز لهم منافع الدنيا والآخرة والتي فيها مالايمكن أن يتوصل إليه البشر إلا بواسطة الوحي السماوي المنحصر بالنبي ﷺ وقد أودعه هو عند علي عليه السلام كما عرفته في الأخبار المتقدمة. وقد ذكر الله في القرآن أنّ من العلوم مالا يمكن تعلّمه إلا بواسطة النبي ﷺ لقوله تعالى: «كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكّيكم ويعلّمكم الكتاب والحكمة ويعلّمكم مالم تكونوا تعلمون»[٢] فهذه الآية صريحة بأنّ بعض الامور لايمكن معرفتها إلا من النبي ﷺ. وقال أمير المؤمنين عليه السلام مراراً عديدة: سلوني قبل أن تفقدوني[٣].

وأخرج ابن سعد عن سعيد بن المسيب قال: لم يكن أحد من الصحابة يقول سلوني إلا علي[٤].

---

(١) فيض القدير: ج٣ ص٤٦ وقدسبق ذكره في ص٣٥٩ تحت رقم٩ من هذا الجزء، فراجع.
(٢) البقرة: ٥١.
(٣) الارشاد: ص١٧٤.
(٤) الصواعق المحرقة: ص١٢٧.

وأخرج ابن سعد عنه قال : والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم نزلت ، وأين نزلت ، وعلى من نزلت ، إنّ ربي وهب لي قلباً عقولاً ولساناً ناطقاً[١].

وأخرج ابن سعد وغيره عن أبي الطفيل قال : قال علي : سلوني عن كتاب الله فإنه ليس من آية إلا وقد عرفت بليل نزلت أم بنهار أم في سهل أم جبل[٢].

وعن مسلم بن أوس وجارية بن قدامة السعدي أنهما حضرا علي بن أبي طالب عليه السلام يخطب وهو يقول: سلوني قبل أن تفقدوني فإني لا اسأل عن شيء دون العرش إلا أخبرت عنه[٣].

وعن كميل بن زياد النخعي قال : أخذ بيدي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بالكوفة فخرجنا حتى انتهينا الى الجبانة ، فلما أصحر تنفس الصعداء ثم قال لي : يا كميل بن زياد ، إنّ هذه القلوب أوعية وخيرها أوعاها للعلم ، احفظ عني ما أقول لك ، الناس ثلاثة : عالم رباني ، ومتعلّم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا الى ركن وثيق .

يا كميل بن زياد ، العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، المال تنقصه النفقة والعلم يزكو على الانفاق .

يا كميل بن زياد ، محبة العالم دين يدان تكسبه الطاعة في حياته وجميل الاحدوثة بعد وفاته، ومنفعة المال تزول بزواله، العلم حاكم والمال محكوم عليه.

يا كميل ، مات خزّان الأموال وهم أحياء والعلماء باقون مابقي الدهر ، أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة ، ألا إنّ هاهنا ـ وأشار الى صدره ـ لعلماً جمّاً، لو أصبت له حملة، بل أصبت لقناً غير مأمون يستعمل آلة الدين للدنيا[٤].

---

(١) و (٢) الصواعق المحرقة : ص١٢٧ .

(٣) فضائل الخمسة : ج٢ ص٢٦٠ نقلا عن كنز العمال .

(٤) تاريخ بغداد : ج٦ ص٣٧٩ .

وذكره في حلية الأولياء[١] باختلاف يسير .

وعن ابن مسعود قال : إنّ القرآن انزل على سبعة أحرف ، مامنها حرف إلا وله ظهر وبطن ، وإنّ علي بن أبي طالب عنده علم الظاهر والباطن[٢].

فهذا الذي ذكرناه يثبت أنّ علوم القرآن الظاهرة والباطنة منحصرة عند علي بن أبي طالب عليه السلام كما صرح بذلك الغزالي في كلامه المتقدم[٣]، فاذا كانت العلوم كلها عنده يكون إكمال الدين المنوّه عنه في الآية بعد نصبه علماً للناس وجعله حجة عليهم ودلالـة الناس عليه والأمر باتباعه ، وقد تحقق جميع ذلك من قبل النبي الأعظم صلى الله عليه وآله بأمر من الله، ولم يبق علينا إلا أن نطيع الله ورسوله الآمرين بإطاعة وليّ الأمر « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »[٤].

قوله تعالى : ياأيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم الى الكعبين وان كنتم جنباً فاطهروا وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون (٦) .

إنّ هذه الآيـة الشريفة نزلت في بيان الطهارات الثلاث وهـي : الوضوء ،

---

(١) حلية الاولياء : ج١ ص٧٩ .

(٢) فضائل الخمسة : ج٢ ص٢٦٦ نقلا عن حلية الاولياء .

(٣) راجع ص٣٥٩ من هذا الجزء تحت رقم ٩ .

(٤) الكهف : ٢٩ .

والغسل ، والتيمم ، وأنها شرط لازم للصلاة ، وأنّ المسلم الذي يريد الصلاة يلزمه أن يتطهر ، وحيث إنّ الحدث الذي يعرض للانسان يختلف فيما يوجبه ، فبعضه يوجب الوضوء وبعضه يوجب الغسل ، فقد ذكر في الآية كلا الأمرين.

الوضـوء

وقد ذكر أولاً كيفية الوضوء بقوله : « **اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم الى الكعبين** ».

وكيفية الوضوء هي ما اشتملت عليه الجملتان ، الاولى قوله : «فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق». والثانية قوله : « وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم الى الكعبين » وهاتان الجملتان ليس فيهما إجمال وإنماهما في غاية الوضوح، فإنّ الله يقول في وصف القرآن : « نزّل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسانٍ عربيٍّ مبين »[1] .

فالجملة الاولى تأمرنا بغسل الوجه واليدين .

أما الوجه فهو العضو المواجه لمن يقابله بحيث يكون مكشوفاً له بيّناً غير خافٍ عن الناظر إليه ، وهو بحسب الطول من قصاص الشعر الى منتهى الذقن ، وبحسب العرض مااشتملت عليه الابهام والوسطى فقال بعضهم: من الاذن الى الاذن.

وأما اليدان فقد أمر الله بغسلهما بعد الوجه ، وحيث إنّ اليد لها إطلاقات متعددة فإنها تطلق على الكف فحسب كما في آية التيمم ، وتطلق على الكف مع الذراع كما في آية الوضوء ، وتطلق عليهما مع العضد الى المنكب ، وقد تطلق على اصول الأصابع من دون بقية الكف . وقد أوضحت الآية الحدّ الذي يجب غسله في الوضوء، فقوله تعالى: «الى المرافق» تحديد للمغسول لا تحديد للغسل فهو تحديد لليد التي يجب غسلها لئلا يقول أحد إنّ مايجب غسله هي الكفّ وحدها، ويقول آخر: إنّ مايجب غسله من المنكب الى رؤوس الأصابع، فقد حدد الله لنا المقدار الواجب غسله، وهذا لا يقتضي ولا يلزم أن يكون الابتداء من رؤوس الأصابع الى المرفق.

---

(١) الشعراء : ١٩٣ ـ ١٩٥ .

ماقاله الفخر الرازي :

قال في تفسيره: قوله تعالى « الى المرافق » يقتضي تحديد الأمر لاتحديد المأمور به ، يعني أنّ قوله : « فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق » أمر بغسل اليدين الى المرفقين، فإيجاب الغسل محدود بهذا الحد ، فبقي الواجب هو هذا القدر فقط ، أما نفس الغسل فغير محدود بهذا الحد[1] انتهى .

وهذا المعنى متداول بين الناس يفهمونه عند التكلم به كما يقال لأحد : اخضب يدك الى الزند ، ويقال للصيقل : صقّل السيف الى القبضة . فلايلزم في الخضاب أن يكون من رؤوس الأصابع الى الزند ، ولافي الصقل يلزم أن يبدأمن رأس السيف وينتهي في القبضة ، بل يتحقق الغسل وامتثال الأمر سواء كان الابتداء من رؤوس الأصابع أو من المرفق .

هذا مايستفاد من نفس الآية ولكن أئمة أهل البيت عليهم السلام الذين قرنهم النبي صلى الله عليه وآله بالكتاب قد عيّنوا انما الابتداء من المرفق وهم أدرى وأعلم بالأحكام من غيرهم .

أما العكس ـ أي الابتداء برؤوس الأصابع والانتهاء بالمرفق ـ فهو وإن كان مشمولاً لاطلاق الآية ولكنه خلاف الاحتياط لأنّ من عندهم علم القرآن نهوا عنه ، مع أنّ جمهور الفقهاء يقول بصحة الوضوء على هذا النحو ، أي اذا ابتدأ بالمرفق وانتهى بالكف .

وقد ذكر الرازي قول الجمهور بالصحة كما في تفسيره حيث قال : السنّة أن يصبّ الماء من الكف بحيث يسيل الماء من الكف الى المرفق، فإن صبّ الماء على المرفق حتى سال الماء الى الكف ، فقال بعضهم : هذا لايجوز لأنه تعالى قال: « وأيديكم الى المرافق» فجعل المرافق غاية الغسل، فجعله مبدأ الغسل خلاف الآية

---

(١) تفسير الرازي : ج١١ ص١٦٠ .

فوجب أن لا يجوز . هذا كلام القائلين بعدم الجواز .

ثم قال الرازي : وقال جمهور الفقهاء : إنه لا يخلّ بصحة الوضوء إلا أنه يكون تركاً للسنّة[1].

عن جابر بن عبدالله قال : كان رسول الله ﷺ اذا توضأ أدار الماء على مرفقيه[2].

أقول : إنّ القول بعدم الجواز الذي حكاه الرازي مبنيّ على كون التحديد في قوله « الى المرافق » أنه تحديد للغسل ، وقد تقدم أنه تحديد لليد لا للغسل كما اختار الرازي في أنّ التحديد ليس للغسل وإنما هو للأمر بالغسل فيكون الاحتياط بالنسبة لمن يريد صحة وضوئه هو الابتداء بالمرفق فإنّ صحة الصلاة موقوفة على صحة الوضوء ، هذا ما كان بالنسبة الى الجملة الاولى .

وأما الجملة الثانية وهي قوله تعالى : « وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم الى الكعبين » فإنها واضحة جلية بلسان عربيّ مبين ، فهي عبارة عن أربع كلمات ، فالرأس معروف والرجل معروفة والغسل ظاهر معروف والمسح شيء معروف والمتكلم يتكلم بلسان عربيّ مبين .

وقد أمر بالغسل بالنسبة الى بعض الأعضاء وأمر بمسح بعض الأعضاء فليس من العربيّ المبين أن يأمر بالمسح ويريد به الغسل . والقراءة المعروفة بقوله في « أرجلكم » إما بالكسر أو بالنصب ، فعلى الجرّ يكون معطوفاً على رؤوسكم ويكون الحكم فيهما واحداً وهو وجوب المسح ، وإما على قراءة النصب فانه يكون معطوفاً على محلّ رؤوسكم ، ولاريب أنّ محله النصب فيكون حكمه المسح .

وأما جعل « أرجلكم » بالنصب معطوفاً على «وجوهكم» فهو غير صحيح ومخالف للقواعد العربية ، إذ لا يجوز الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بجملة

---

(١) تفسير الرازي : ج١١ ص١٦٠ .

(٢) الدر المنثور : ج٢ ص٢٦٢ .

كاملة اسمية أو فعلية، وقد فصل بينهما هنا بجملة مركّبة من فعل وفاعل ومفعول وإنما العطف إما على لفظ الرؤوس أو على محلها ، و كلا الأمرين يوجب المسح.

فالمسح على بعض الرأس بسبب وجود الباء في قوله « برؤوسكم » ولو قال: امسحوا رؤوسكم لكان اللازم مسح جميع الرأس ، ثم عطف الرجل عليه وحددها الى الكعب لأنّ الرجل تطلق على القدم تارةً وعليها وعلى الساق تارةً اخرى ، وعليهما وعلى الفخذ مرة ثالثة ، فلذا عيّنها كما عيّن اليدين .

هذا هو مذهب الامامية وهو المستفاد من الآية الشريفة ، واختاره أيضاً أئمة أهل البيت الذين عندهم علوم القرآن .

قول الامامية بوجوب المسح على لسان الرازى :

وقد ذكر الفخر الرازي في تفسيره حجة الامامية بوجوب مسح الرجل وحررها بأحسن تحرير نذكرها بنصها :

حجة من قال بوجوب المسح مبنيّ على القراءتين المشهورتين في قوله : «وأرجلكم»فقرأ ابن كثير وحمزة وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر عنه بالجر، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم في رواية حفص عنه بالنصب. فنقول: أما القراءة بالجر فهي تقتضي كون الأرجل معطوفة على الرؤوس فكما وجب المسح في الرأس فكذلك في الأرجل.

فان قيل : لم لايجوز أن يقال : هذا على الجوار كما في قوله: جحر ضبّ خرب ، وقوله : كبير اناس في بجاد مزمّل ؟ قلنا: هذا باطل من وجوه :

الأول : أنّ الكسر على الجوار معدود في اللحن الذي قد يتحمل لأجل الضرورة في الشعر ، و كلام الله يجب تنزيهه عنه .

وثانيها : أنّ الكسر إنما يصار إليه حيث يحصل الأمن من الالتباس كما في قوله: جحر ضبّ خرب ، فإنّ من المعلوم بالضرورة أنّ الخرب لايكون نعتاً للضبّ بل للجحر، وفي هذه الآية الأمن من الالتباس غير حاصل.

وثالثها : أنّ الكسر بالجوار إنما يكون بدون حرف العطف وأما مع حرف العطف فلم تتكلم به العرب .

وأما القراءة بالنصب فقالوا أيضاً : إنها توجب المسح وذلك لأنّ قوله : « وامسحوا برؤوسكم » فرؤوسكم في محلّ النصب ولكنها مجرورة بالباء فاذا عطفت الأرجل على الرؤوس جاز في الأرجل النصب عطفاً على محل الرؤوس ، والجرّ عطفاً على الظاهر ، وهذا مذهب مشهور للنحاة .

اذا ثبت هذا فنقول : ظهر أنه يجوز أن يكون عامل النصب في قوله : « وأرجلكم » هو قوله : « وامسحوا » ويجوز أن يكون هو قوله : « فاغسلوا » لكن العاملان اذا اجتمعا على معمول واحد كان إعمال الأقرب أولى ، فوجب أن يكون عامل النصب في قوله « وأرجلكم » هو قوله : « وامسحوا » .

فثبت أنّ قراءة « وأرجلكم » بنصب اللام توجب المسح أيضاً ، فهذا وجه الاستدلال بهذه الآية على وجوب المسح ، ثم قالوا : ولايجوز دفع ذلك بالأخبار لأنها بأسرها من باب الآحاد، ونسخ القرآن بخبر الواحد لايجوز[1] انتهى .

مانقله الطبرى حول وجوب المسح :

ونقل أبوجعفر الطبري في تفسيره وجوب المسح عن جماعة من أصحاب النبي ﷺ قال :

عن ابن عباس قال : الوضوء غسلتان ومسحتان .

وقال في نفس الصفحة : لماذكر لأنس أنّ الحجاج خطب الناس وأمر بغسل القدمين ظهورهما وبطونهما وعراقيبهما فقال أنس: صدق الله وكذب الحجاج قال الله : « وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم » قال : وكان أنس اذا مسح قدميه بلّهما .

عن أنس أنه قال : نزل القرآن بالمسح والسنّة الغسل .

---

(١) تفسير الرازى : ج١١ ص١٦١ ـ ١٦٢ .

عن عكرمة قال : ليس على الرجلين غسل إنما نزل فيهما المسح .

عن عنبسة عن جابر عن أبي جعفر قال : امسح على رأسك وقدميك .

عن الشعبي قال : نزل جبرئيل بالمسح ، ثم قال الشعبي : ألا ترى أنّ التيمم أن يمسح ما كان غسلاً ويلغى ما كان مسحاً .

بطريق آخر عن الشعبي أنه قال : إنما هو المسح على الرجلين ، ألا ترى أنه ما كان عليه الغسل جعل عليه المسح وما كان عليه المسح أهمل .

عن عامر أنه قال : أمر أن يمسح في التيمم ما أمر أن يغسل في الوضوء وأبطل ما أمر أن يمسح في الوضوء الرأس والرجلان .

وعن الشعبي أنـه قال : أمر أن يمسح بالصعيد في التيمم ما أمر أن يغسل بالماء ، وأهمل ما أمر أن يمسح بالماء .

وقـال الطبري أيضاً : حدثنا ابن أبي زياد قال : حدثنا يزيد قال : حدثنا اسماعيل قال : قلت لعامر : إنّ ناساً يقولون إن جبريل صلّى الله عليه وسلّم نزل بغسل الرجلين فقال : نزل جبريل بالمسح

وقال أيضاً : حدثنا أبو بشر الواسطي إسحاق بن شاهين قال : حدثنا خالد ابن عبدالله عن يونس قال : حدثني من صحب عكرمة الى واسط قال : فما رأيته غسل رجليه إنما يمسح عليهما حتى خرج منها .

وقال أيضاً : حدثنا بشر قال : حدثنا يزيد قال : حدثنا سعيد عن قتادة قوله : « ياأيّها الّذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم الى الكعبين » افترض الله غسلتين ومسحتين[1] انتهى.

وقد تبيّن من الآية الشريفة التي نزلت بلسان عربيّ مبين ومن هذه الأحاديث ومن اختيار هؤلاء الأعلام من أصحاب النبي ﷺ أنّ الذي يتعينّ على المسلم هو المسح ، وبعضهم يختار الغسل ولاينتقد من يقول بالمسح ، ولكن ابن كثير مع

---

(١) تفسير الطبرى : ج٦ ص٨٢ - ٨٣ .

اطلاعه على هذه الأحاديث ووقوفه على من اختار المسح مع الأصحاب مع كل هذا وذاك يقول في تفسيره : ومن أوجب من الشيعة مسحهما كما يمسح الخف فقد ضل وأضل[1] انتهى .

ما نقله السيوطي حول وجوب المسح :

ونقل الحافظ السيوطي في تفسيره وجوب المسح عن جماعة من أصحاب الرسول ﷺ قال : عن رفاعة بن رافع أن رسول الله ﷺ قال للمسيء صلاته أنها لا تتم صلاة أحدكم حتى يسبغ الوضوء كما أمره الله بغسل وجهه ويديه الى المرفقين ويمسح برأسه ورجليه الى الكعبين.

عن ابن عباس قال : أبى الناس إلا الغسل ولا أجد في كتاب الله إلا المسح[2].

فخص ابن كثير الضلال والاضلال ممن يقول بالمسح بالشيعة فحسب ، فهل يناسب من رجل يفسر القرآن ويعد نفسه من العلماء أن يصف جماعة كبيرة من المسلمين يتبعون أهل البيت في أحكامهم بهذا الوصف لأنه يختار هو الغسل ؟ إنّا لله وإنّا إليه راجعون .

هذا كلّه بالنسبة الى تفسير كلمة « وأرجلكم » المعطوفة على « وامسحوا برؤوسكم » وهي جملة عربية صريحة تأمر بمسح الرأس والرجل، وابن كثير يريد أن تغسل الرجل ويريد أن يصدر حكماً بضلالة جماعة من المسلمين ممن يخالفه في رأيه ولا يحكم بضلال كل من يخالفه في الرأي .

أما قوله تعالى : « الى الكعبين » فقد اختلف في الكعب أي شيء هو ؟

قال في المنجد : الكعب كل مفصل للعظام ، والعظم الناشز فوق القدم . والعظمان الناشزان من جنبي القدم[3].

---

(١) تفسير ابن كثير : ج٢ ص٥١٤ .

(٢) الدر المنثور : ج٢ ص٢٦٢ .

(٣) المنجد : ص٦٨٨ .

وقال في القاموس المحيط: كل مفصل للعظام والعظم الناشز فوق القدم والناشزان من جانبيهما[١].

وقال الراغب في مفرداته: كعب الرجل العظم الذي عند ملتقى القدم والساق[٢].

هذه هي أقوال أهل اللغة، ولابدّ أن يكون المقصود من الآية أحد الأمرين إما العظم الناشز فوق القدم، أو الناشزان جانبي القدم، ولايتمكن أحد أن يعيّن المقصود منهما إلا من عنده علم الكتاب وهم أهل البيت عليهم السلام الذين قرنهم النبي ﷺ بالكتاب وأمر امّته بالتمسك بهما، ولكن ابن كثير لما اختار أنّ الكعب هو العظمان الناشزان جانبي القدم نسب الشيعة الى الضلال لأنهم اختاروا قول أهل البيت عليهم السلام.

هذه هي أعضاء الوضوء التي أمر الله بغسل ثلاثة منها ومسح ثلاثة، وقد وردت أحاديث عديدة عن أهل البيت تبيّن لنا أنّ الوضوء هو بهذه الكيفية نذكر بعضها هنا.

مانقله العياشي عن الوضوء:

عن زرارة وبكير بن أعين قالا: سألنا أبا جعفر عليه السلام عن وضوء رسول الله ﷺ فدعا بطشت أو تور[٣] فيه ماء، فغمس كفه اليمنى فغرف بها غرفة فصبها على جبهته فغسل وجهه بها، ثم غمس كفه اليسرى فأفرغ على يده اليمنى فغسل بها ذراعه من المرفق الى الكف لايردها الى المرفق، ثم غمس كفه اليمنى فأفرغ بها على ذراعه الأيسر من المرفق وصنع بها كما صنع باليمنى، ومسح رأسه بفضل كفيه وقدميه لم يحدث لها ماءً جديداً.

ثم قال: ولايدخل أصابعه تحت الشراك[٤] قال: ثم قال: إنّ الله يقول:

---

(١) القاموس المحيط: ج١ ص١٢٩ فصل الكاف بالباء.

(٢) المفردات: ص٤٣٢ مادة «كعب».

(٣) التور: اناء صغير من صفر أو خزف.

(٤) الشراك: سير النعل على ظهر القدم.

«ياأيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق» فليس له أن يدع شيئاً من وجهه إلا غسله، وأمر بغسل اليدين الى المرافق فليس ينبغي له أن يدع من يديه الى المرفقين شيئاً إلا غسله لأنّ الله يقول: «فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق» ثم قال: «وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم الى الكعبين» فاذا مسح بشيء من رأسه أو بشيء من قدميه ما بين أطراف الكعبين الى أطراف الأصابع فقد أجزاه.

قالا: قلنا أصلحك الله أين الكعبان؟ قال: هاهنا يعني المفصل دون عظم الساق، فقلنا: هذا ماهو؟ قال: من عظم الساق، والكعب أسفل من ذلك، فقلنا: أصلحك الله فالغرفة الواحدة تجزي الوجه وغرفة للذراع؟ قال: نعم اذا بالغت فيهما، والثنتان تأتيان على ذلك كله[1].

وفيه أيضاً: قال زرارة ـ بعد أن بيّن الامام الباقر عليه السلام له حدّ الوجه الذي ينبغي أن يوضّأ ـ: فقلت لأبي جعفر عليه السلام: ألا تخبرني من أين علمت وقلت إنّ المسح ببعض الرأس وبعض الرجلين؟ فضحك فقال: يازرارة قاله رسول الله صلى الله عليه وآله وقد نزل به الكتاب من الله، لأنّ الله قال: «اغسلوا وجوهكم» فعرفنا أنّ الوجه كله ينبغي له أن يغسل، ثم قال: «وأيديكم الى المرافق» فوصل اليدين الى المرفقين بالوجه فعرفنا أنهما ينبغي أن يغسلا الى المرفقين، ثمّ فصل بين الكلام فقال: «وامسحوا برؤوسكم» فعلمنا حين قال: «برؤوسكم» أنّ المسح ببعض الرأس لمكان الباء، ثمّ وصل الرجلين بالرأس كما وصل اليدين بالوجه فقال: «وأرجلكم الى الكعبين» فعرفنا ـ حين وصلهما بالرأس ـ أنّ المسح على بعضهما ثم فسر ذلك رسول الله للناس فضيعوه[2].

بقي شيء وهو: أنّ جماعة من علماء السنّة قالوا بجواز المسح على الخفّ

---

(١) تفسير العياشي: ج١ ص٢٩٨ ـ ٢٩٩ ح٥١.

(٢) تفسير العياشي: ج١ ص٢٩٩ ح٥٢.

وكفايته في الوضوء[١] وهذا شيء لايوجد له ذكر في الآية الشريفة فإنها أمرت بغسل البعض ومسح البعض ولم تشر الى الخف بشيء أصلاً، ومع ذلك يقول بعض العلماء بكفاية المسح عليه، وشدد بعضهم النكير على من لم يوافقه على ذلك[٢].

قال ابن كثير في تفسيره: وقد ثبت بالتواتر عن رسول الله ﷺ مشروعية المسح على الخفين قولاً منه وفعلاً كما هو مقرر في كتاب الأحكام الكبير مع ما يحتاج الى ذكره هناك من تأقيت المسح أو عدمه أو التفصيل فيه كما هو مبسوط في موضعه. وقد خالفت الروافض في ذلك بلامستند بل بجهل وضلال[٣] انتهى موضع الحاجة من كلامه.

القائلون ببطلان الوضوء لمن مسح على الخف:

إني أنقل للقارىء الكريم أقوال القائلين ببطلان الوضوء في صورة المسح على الخف وهو يحكم على ابن كثير في حكمه المتقدم.

١ ـ قال الفخر الرازي في تفسيره الكبير: أثبت جمهور الفقهاء جواز المسح على الخفين، وأطبقت الشيعة والخوارج على إنكاره واحتجوا بأنّ ظاهر قوله تعالى: «وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم الى الكعبين» يقتضي إما غسل الرجلين أو مسحهما والمسح على الخفين ليس مسحاً للرجلين ولا غسلاً لهما، فوجب أن لايجوز بحكم نصّ هذه الآية. ثم قالوا: إنّ القائلين بجواز المسح على الخفين إنما يعوّلون على الخبر، لكن الرجوع الى القرآن أولى من الرجوع الى هذا الخبر، ويدلّ عليه وجوه:

الأول: أنّ نسخ القرآن بخبر الواحد لايجوز.

والثاني: أنّ هذه الآيـة في سورة المائدة. وأجمع المفسرون على أنّ هذه السورة لامنسوخ فيها البتة إلا قوله تعالى: «ياأيّها الذين آمنوا لاتحلّوا شعائر

(١) و (٢) الخلاف: ج١ ص٢١٧ طبع مؤسسة النشر الاسلامي بقم.
(٣) تفسير ابن كثير: ج٢ ص٥١٨.

الله » فإن بعضهم قال هذه الآية منسوخة ، واذا كان كذلك امتنع القول بأن وجوب غسل الرجلين منسوخ .

والثالث : أن خبر المسح على الخفين بتقدير أنه كان متقدماً على نزول الآية كان خبر الواحد منسوخاً بالقرآن ، ولو كان بالعكس كان خبر الواحد ناسخاً للقرآن ، ولاشك أن الأول أولى لوجوه :

الأول : أن ترجيح القرآن المتواتر على خبر الواحد أولى من العكس .

وثانيها : أن العمل بالآية أقرب الى الاحتياط .

وثالثها : أنه قد روي عنه ﷺ أنه قال : اذا روي لكم عني حديث فاعرضوه على كتاب الله فإن وافقه فاقبلوه وإلّا فردوه . وذلك يقتضي تقديم القرآن على الخبر .

ورابعها : أن قصة معاذ تقتضي تقديم القرآن على الخبر .

الوجه الرابع في بيان ضعف هذا الخبر : أن العلماء اختلفوا فيه ، فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : لئن تقطع قدماي أحب إلي من أن أمسح على الخفين . وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : لئن أمسح على جلد حمار أحب إلي من أن أمسح على الخفين .

وأما مالك فإحدى الروايتين عنه أنه أنكر جواز المسح على الخفين ، ولا نزاع أنه كان في علم الحديث كالشمس الطالعة ، فلولا أنه عرف فيه ضعفاً وإلا لما قال ذلك . والرواية الثانية عن مالك أنه ما أباح المسح على الخفين للمقيم وأباحه للمسافر مهما شاء من غير تقدير فيه .

وأما الشافعي وأبو حنيفة وأكثر الفقهاء فإنهم جوزوه للمسافر ثلاثة أيام بلياليها من وقت الحدث بعد اللبس . وقال الحسن البصري: ابتداؤه من وقت لبس الخفين . وقال الأوزاعي وأحمد : يعتبر وقت المسح بعد الحدث .

قالوا : فهذا الاختلاف الشديد بين الفقهاء يدل على أن الخبر ما بلغ مبلغ

الظهور والشهرة . واذا كان كذلك وجب القول بأنّ هذه الأقوال لمّا تعارضت تساقطت وعند ذلك يجب الرجوع الى كتاب الله تعالى .

الخامس : أنّ الحاجه الى معرفة جواز المسح على الخفين حاجة عامة في حقّ كل المكلفين ، فلو كان ذلك مشروعاً لعرفه الكل ولبلغ مبلغ التواتر، ولمّا لم يكن الأمر كذلك ظهر ضعفه ، فهذا جملة كلام من أنكر المسح على الخفين[1] انتهى كلام الرازي .

٢ ـ نقل محمد بن مسعود العياشي في تفسيره عن محمد بن أحمد الخراساني رفع الحديث قال : أتى أمير المؤمنين عليه السلام رجل فسأله عن المسح على الخفين فأطرق في الأرض ملياً ثم رفع رأسه فقال : ياهذا إنّ الله تبارك وتعالى أمر عباده بالطهارة وقسمها على الجوارح ،فجعل للوجه منه نصيباً ، وجعل لليدين منه نصيباً ،وجعل للرأس منه نصيباً ، وجعل للرجلين منه نصيباً ، فإن كانتا خفّاك من هذه الأجزاء فامسح عليهما[2] .

وفيه أيضاً عن عبدالله بن خليفة أي العريف (أبي العريف ظ) المكراني الهمداني قال : قام ابن الكوا الى علي عليه السلام فسأله عن المسح على الخفين فقال : بعد كتاب الله تسألني ، قال الله :«ياأيتها الّذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا ـ الى قوله ـ : الى الكعبين » ، ثم قام اليه ثانية فسأله فقال له مثل ذلك ثلاث مرات ، كل ذلك يتلو عليه هذه الآية[3] .

٣ ـ نقل الفيض الكاشاني في تفسيره عن الباقر عليه السلام أنه قال : الوجه الذي أمر الله بغسله ـ الذي لاينبغي لأحد أن يزيد لأحد عليه ولاينقص منه ، إن زاد عليه لم يؤجر وإن نقص منه أثم ـ مادارت الوسطى والابهام من قصاص شعر

(١) تفسير الرازي : ج١١ ص١٦٣ ـ ١٦٤ .

(٢) تفسير العياشي : ج١ ص٣٠١ ح٥٩ .

(٣) تفسير العياشي : ج١ ص٣٠١ ح٦١ .

الرأس الى الذقن ، وما جرت عليه الاصبعان من الوجه مستديراً فهو من الوجه وما سوى ذلك فليس من الوجه ، قيل : الصدغ ليس من الوجه ؟ قال : لا ، وأما في سائر الأعضاء فيجب إيصال الماء والبلل الى البشرة وتخليل مايمنع من الوصول كما هو مقتضى الأمر بالغسل والمسح ، فلايجزي المسح على القلنسوة ولا على الخفين[١].

وفيه أيضاً عن الباقر عليه السلام : جمع عمر بن الخطاب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وفيهم علي عليه السلام فقال : ماتقولون في المسح على الخفين؟ فقام المغيرة بن شعبة فقال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله يمسح على الخفين، فقال علي عليه السلام : قبل المائدة أو بعد المائدة ؟ فقال : لاأدري ، فقال علي عليه السلام : سبق الكتاب الخفين ، إنما نزلت المائدة قبل أن يقبض صلى الله عليه وآله بشهرين أو ثلاثة[٢].

وفيه أيضاً روت عائشة عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : أشد الناس حسرة يوم القيامة من رأى وضوءه على جلد غيره[٣].

وروي عنها أنها قالت : لئن أمسح على ظهر عير بالفلاة أحب إلي من أن أمسح على خفي[٤].

ثم قال الفيض رحمه الله : والكعب عظم مائل الى الاستدارة واقع في ملتقى الساق والقدم نات عن ظهره يدخل نتوه في طرف الساق كالذي في أرجل البقر والغنم وربما يلعب به الأطفال، وقد يعبر عنه بالمفصل لمجاورته له، وإنما اختلف

---

(١) تفسير الصافي : ج٢ ص١٥ نقلا عن الفقيه والكافي والعياشي .

(٢) تفسير الصافي : ج٢ ص١٥ نقلا عن التهذيب .

(٣) تفسير الصافي : ج٢ ص١٥ نقلا عن الفقيه .

(٤) تفسير الصافي : ج٢ ص١٦ نقلا عن الفقيه ، وقال الشيخ الصدوق فيه : ولم يعرف للنبي خف الا خفاً أهداه النجاشي وكان موضع ظهر القدمين منه مشقوقاً ، فمسح النبي (ص) على رجليه وعليه خفاه ، فقال الناس : انه مسح على خفيه ، وعلى أن الحديث في ذلك غير صحيح الاسناد .

الناس فيها لعدم غورهم في كلام أهل اللغة وأصحاب التشريح وإعراضهم عن التأمل في الأخبار المعصومية .

ولما كانت الرجل تطلق على القدم وعلى ماتحت الركبة وعلى مايشمل الفخذ بيّن الله سبحانه غاية الممسوح منها . ثم دلالة الآية على مسح الرجلين دون غسلهما أظهر من الشمس في رابعة النهار وخصوصاً على قراءة الجرّ ولذلك اعترف بها جمع كثير من القائلين بالغسل .

في التهذيب عن الباقر عليه السلام أنه سئل عن قول الله عزّ وجلّ : « وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم الى الكعبين » على الخفض هي أم على النصب؟ قال: بل هي على الخفض .

أقول : وعلى تقدير القراءة على النصب أيضاً يدلّ على المسح لأنها تكون حينئذٍ معطوفة على محل الرؤوس كما تقول: مررت بزيد وعمراً، إذ عطفها على الوجوه خارج عن قانون الفصاحة بل عن اسلوب العربية .

روى العامة عن أمير المؤمنين عليه السلام وابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله أنه توضأ ومسح على قدميه ونعليه .

ورووا أيضاً عن ابن عباس أنه قال : إنّ كتاب الله المسح ويأبى الناس إلا الغسل . وأنه قال : الوضوء غسلتان ومسحتان من باهلني باهلته ، وأنه وصف رسول الله صلى الله عليه وآله فمسح على رجليه .

وفي التهذيب عن الباقر عليه السلام أنه سئل عن مسح الرجلين فقال : هو الذي نزل به جبرئيل .

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام : إنه يأتي على الرجل ستون وسبعون سنة ما قبل الله منه صلاة ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : لأنه يغسل ما أمر الله بمسحه .

وفي الفقيه عنه عليه السلام : إنّ الرجل ليعبد الله أربعين سنة مايطيعه في الوضوء

لأنه يغسل ماأمر الله بمسحه[١] انتهى .

٤ ـ وقال الشيخ الطوسي في تبيانه: ومن قال القراءة تقتضي المسح غيرأنّ المسح على الخفين فقوله باطل لأنّ الخفّ لايسمى رجلاً في لغة ولاشرع، والله تعالى أمر بايقاع الفرض على مايسمى رجلاً في الحقيقة .

وأما القراءة بالنصب فقد بيّنا أنها معطوفة على موضع الرؤوس لأنّ موضعها النصب والحكم فيها المسح ، والعطف على الموضع جائز لأنهم يقولون : لست بقائم ولاقاعداً . ويقولون : حسبت بصدره وصدر زيد . وأنّ زيداً في الدار وعمرو، فيرفع عمرو بالعطف على الموضع ؟ وقال الشاعر:

معاوي إننا بشر فاسجح فلسنا بالجبال ولا الحديدا

وقال آخر :

هل أنت باعث دينار لحاجتنا أو عبد ربّ أخا عون بن مخراق

وإنما نصب عبد ربّ لأنّ التقدير باعث ديناراً فحمله على الموضع. وقد سوغوا العطف المعنى وإن كان اللفظ لايقتضيه . قال الشاعر :

جئني بمثل بني عمرو لقومهم أو مثل اسرة منظور بن سيار

لماكان معنى « جئني » هات مثلهم أو أعطني مثلهم قال « أومثل » بالنصب عطفاً على المعنى ، وعطف الأرجل على الأيدي لايجوز ، لأنّ الكلام متى حصل فيه عاملان قريب وبعيد لايجوز إعمال البعيد دون القريب مع صحة حمله عليه، لايجوز أن يقول القائل: ضربت زيداً وعمراً وأكرمت خالداً وبكراً، ويريدبنصب بكر العطف على زيد أوعمرو المضروبين لأنّ ذلك خروج عن فصاحة الكلام ودخول في معنى اللغو .

وبمثل ماقلناه ورد القرآن وأكثر الشعر، قال الله تعالى: « وإنّهم ظنّوا

(١) تفسير الصافي : ج٢ ص١٦ ـ ١٧ .

كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً »[1] ولو أعمل الأول لقال كما ظننتموه ، وقال « آتوني أفرغ عليه قطراً »[2] ولو أعمل الأول لقال أفرغه ، وقال : « هاؤم اقرأوا كتابيه »[3] ولو أعمل الأول لقال هاؤم اقرأوه . وقال الشاعر :

قضى كل ذي دين فوفى غريمه وعزة ممطول معنى غريمها

ولو أعمل الأول لقال : فوفاه غريمه. فأما قول امرىء القيس:

فلو انما أسعى لأدنى معيشة كفاني ولم أطلب قليل من المال

فإنما أعمل الأول للضرورة لأنه لم يجعل القليل مطلوباً وإنما كان المطلوب عنده الملك ، وجعل القليل كافياً . ولو لم يرد هذا ونصب لفسد المعنى . فأما من نصب بتقدير « واغسلوا أرجلكم » كما قالوا :

متقلداً سيفاً ورمحاً وعلفتها تبناً وماءً بارداً

فقد أخطأ لأنّ ذلك إنما يجوز اذا استحال حمله على اللفظ . فأما اذا جاز حمله على مافي اللفظ فلايجوز هذا التقدير .

ومن قال: يجب غسل الرجلين لأنهما محدودتان كاليدين فقوله ليس بصحيح لأنا لانسلّم أنّ العلة في كون اليدين مغسولتين كونهما محدودتين ، وإنما وجب غسلهما لأنهما عطفا على عضو مغسول وهو الوجه ، فكذلك اذا عطف الرجلين على ممسوح وهو الرأس وجب أن يكونا ممسوحين .

والكعبان عندنا هما الناتئان في وسط القدم ، وبه قال محمد بن الحسن وإن أوجب الغسل . وقال أكثر المفسرين والفقهاء : الكعبان هما عظما الساقين، يدلّ على ماقلناه أنه لو أراد ماقالوا لقال الى الكعاب لأنّ في الرجلين منهما أربعة ، وأيضاً فكل من قال يجب مسح الرجلين ولايجوز الغسل قال الكعب هو ماقلناه

---

(١) الجن : ٧ .
(٢) الكهف : ٩٦ .
(٣) الحاقة : ١٩ .

لأنّ من خالف في أنّ الكعب ماقلناه على قولين : قائل يقول بوجوب الغسل ، وآخر يقول بالتخيير .

قال الزجاج : كل مفصل للعظام فهو كعب .

وفي الآية دلالة على وجوب الترتيب في الوضوء من وجهين :

أحدهما: أنّ الواو يوجب الترتيب لغةً على قول الفراء وأبي عبيد ، وشرعاً على قول كثير من الفقهاء ، ولقوله عليه السلام : ابدأوا بما بدأ الله به .

والثاني : إنّ الله أوجب على من يريد القيام الى الصلاة اذا كان محدثاً أن يغسل وجهه أولاً لقوله : « اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا » والفاء توجب التعقيب والترتيب بلاخلاف ، فاذا ثبت أنّ البدأ بالوجه هو الواجب ثبت في باقي الأعضاء لأنّ أحداً لايفرق، ويقويه قوله عليه السلام للأعرابي حين علّمه الوضوء فقال: هذا وضوء لايقبل الله الصلاة إلا به، فإن كان رتب فقد بيّن أنه الواجب الذي لايقبل الله الصلاة إلا به، وإن لم يرتب لزم أن يكون من رتب لايجزيه، وقد اجتمعت الامّة على خلافه.

وفي الآية دلالة على أنّ من مسح على العمامة أو الخفين لايجزيه لأنّ العمامة لاتسمى رأساً والخفّ لايسمى رجلاً كما لايسمى البرقع ومايستر اليدين وجهاً ولايداً . وماروي عن المسح على الخفين أخبار آحاد لايترك لها ظاهر القرآن ، على أنه روي عن علي عليه السلام أنه قال: نسخ ذلك بهذه الآية . وكذلك قال لمن قال: أقبل المائدة أو بعدها؟[1] انتهى .

وبعد ذكر هذه الامور كلّها التي تمنع من المسح على الخفّ نقول: إنّ الله ذكر في آخر الآية علة الأمر كلها بهذه الطهارات الثلاث فقال : « مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم » .

في فضل الطهارة :

لاريب أنّ الامور العبادية التي يفعلها الانسان في الدنيا إنما ينتفع بها في

(١) التبيان : ج٣ ص٤٥٤ ـ ٤٥٧ .

الآخرة، فاذا جاء العبد المتطهر ـ الذي مسح على الخف ـ يوم الحشر والنشر وفي ذلك اليوم يرجع كل شيء الى أصله ورجع الخف الذي مسح عليه الى البهيمة التي أخذ جلدها فجعل خفاً فما الذي ينتفع به المتوضيء الذي مسح عليه فتكون رجله غير طاهرة؟ وحينئذٍ يتضح من هو الضال هل هو الذي حكم ابن كثير بضلاله أو غيره؟

هذا كله في تفسير كلمة عربية بيّنة وهي قوله: «وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم».

ثم إنه قد وردت أخبار في ثواب الوضوء ومايـنبغي أن يقال عند الوضوء لا بأس بذكر بعضها:

فمنها مانقله الشيخ الصدوق رحمه الله في «ثواب الأعمال» عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام قال: من توضأ فذكر اسم الله طهر جميع جسده وكان الوضوء الى الوضوء كفارة لما بينهما من الذنوب، ومن لم يسم لم يطهر من جسده إلا ما أصابه الماء[1].

وفيه أيضاً عن عبدالله بن مسكان عن أبي عبدالله عليه السلام قال: من ذكر الله على وضوئه فكأنما اغتسل[2].

وفيه أيضاً عن عبدالرحمن بن كثير الهاشمي عن أبي عبدالله عليه السلام قال: بينا أمير المؤمنين عليه السلام ذات يوم جالساً مع ابن الحنفية إذ قال: يامحمد ائتني بإناء فيه ماء أتوضأ للصلاة، فأتاه محمد بالماء فأكفأ بيده اليمنى على يده اليسرى ثم قال: بسم الله الحمدلله الذي جعل الماء طهوراً ولم يجعله نجساً، قال: ثم استنجى فقال: اللهم حصّن فرجي وأعفّه واستر عورتي وحرمني على النار. قال: ثم تمضمض فقال: اللهم لقّني حجتي يوم ألقاك وأطلق لساني بذكرك وشكرك ثم استنشق فقال: اللهم

---

(١) ثواب الاعمال: ص٣١ منشورات مكتبة الصدوق ـ طهران.

(٢) ثواب الاعمال: ص٣٢.

لاتحرم علي ريح الجنة واجعلني من يشم ريحها وروحها وريحانها وطيبها. قال: ثم غسل وجهه فقال: اللهم بيّض وجهي يوم تسود فيه الوجوه ولا تسود وجهي يوم تبيض فيه الوجوه. ثم غسل يده اليمنى، فقال: اللهم أعطني كتابي بيميني والخلد في الجنان بيساري وحاسبني حساباً يسيراً. ثم غسل يده اليسرى فقال: اللهم لاتعطني كتابي بشمالي ولامن وراء ظهري ولاتجعلها مغلولة الى عنقي وأعوذ بك من مقطّعات النيران. ثم مسح رأسه فقال: اللهم غشني برحمتك وبركاتك وعفوك. ثم قال: ثم مسح رجليه فقال: اللهم ثبّت قدمي على الصراط يوم تزل فيه الأقدام واجعل سعيي فيما يرضيك عني ياأرحم الراحمين. ثم رفع رأسه فنظر الى محمد فقال: يامحمد من توضأ مثل وضوئي وقال مثل قولي خلق الله عزّ وجلّ من كل قطرة ملكاً يقدّسه ويسبّحه ويكبّره ويكتب الله تعالى له ثواب ذلك الى يوم القيامة[١].

وفيه أيضاً عن سماعة بن مهران قال: قال أبو الحسن موسى عليه السلام: من توضأ للمغرب كان وضوؤه ذلك كفارة لما مضى من ذنوبه في نهاره ماخلا الكبائر، ومن توضأ لصلاة الصبح كان وضوؤه ذلك كفارة لما مضى من ذنوبه في ليله ماخلا الكبائر[٢].

وفي ثواب فتح العيون عند الوضوء نقل الشيخ الصدوق في ثواب الأعمال أيضاً حديثاً عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: افتحوا عيونكم عند الوضوء لعلها لاترى نار جهنم[٣].

وفيه أيضاً في ثواب تجديد الوضوء عن أبي قتادة عن الرضا عليه السلام قال: تجديد الوضوء لصلاة العشاء يمحو «لاوالله» و «بلى والله»[٤].

وفيه أيضاً عن المفضّل بن عمر عن أبي عبدالله عليه السلام قال: من جدد وضوءه لغير صلاة جدد الله توبته من غير استغفار[٥].

---

(١) و (٢) ثواب الاعمال: ص٣٢.

(٣) و(٤) و(٥) ثواب الاعمال: ص١٧.

ونقل المجلسي رحمه‌الله في بحاره عن مجالس الصدوق رواية عن الحسن بن علي عليه‌السلام قال : جاء نفر من اليهود الى رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله فسأله أعلمهم عن مسائل، فكان فيما سأله: أخبرني لأيّ شيء توضأ هذه الجوارح الأربع وهي أنظف المواضع في الجسد ؟

قال النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله : لما أن وسوس الشيطان الى آدم عليه‌السلام ودنا آدم من الشجرة ونظر إليها ذهب ماء وجهه ، ثم قام وهو أول قدم مشت الى خطيئة ، ثم تناول بيده ، ثم مسها فأكل منها فطار الحليّ والحلل عن جسده ، ثم وضع يده على امّ رأسه وبكى . فلما تاب الله عزّ وجلّ عليه فرض الله عزّ وجلّ عليه وعلى ذريته الوضوء على هذه الجوارح الأربع ، وأمره أن يغسل الوجه لما نظر الى الشجرة وأمره بغسل الساعدين الى المرفقين لما تناول منها ، وأمره بمسح الرأس لما وضع يده على رأسه ، وأمره بمسح القدمين لما مشى الى الخطيئة ، ثم سنّ على امّتي المضمضة لتنقي القلب من الحرام ، والاستنشاق لتحرم عليه رائحة النار ونتنها .

قال اليهودي : صدقت يامحمد فما جزاء عاملها ؟

قال النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله : أول مايمسّ الماء يتباعد عنه الشيطان ، واذا تمضمض نوّر الله قلبه ولسانه بالحكمة ، واذا استنشق أمنه من النار ورزقه رائحة الجنة فاذا غسل وجهه بيّض الله وجهه يوم تبيضّ فيه وجوه وتسودّ فيه وجوه ، واذا غسل ساعديه حرم الله عليه أغلال النار، واذا مسح رأسه مسح الله عنه سيئاته، واذا مسح قدميه أجازه الله على الصراط يوم تزلّ فيه الأقدام .

قال : صدقت يامحمد(١).

وفيه عن مجالس الصدوق أيضاً عن محمد بن قيس عن أبي جعفر عليه‌السلام قال : أتى رجل النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله فسأله عن ثواب الوضوء والصلاة فقال صلى‌الله‌عليه‌وآله : اعلم أنك اذا ضربت يدك في الماء وقلت بسم الله تناثرت الذنوب التي اكتسبتها يداك، فاذا غسلت

(١) بحار الأنوار : ج٨٠ ص٢٢٩ ب٢ ح١ .

وجهك تناثرت الذنوب التي اكتسبتها عيناك بنظرهما وفوك بلفظه ، فاذا غسلت ذراعيك تناثرت الذنوب عن يمينك وشمالك، فاذا مسحت رأسك وقدميك تناثرت الذنوب التي مشيت إليها على قدميك ، فهذا لك في وضوئك[1].

وفيه أيضاً عن عيون الأخبار وعلل الشرايع عن محمّد بن سنان عن الرضا عليه السلام فيما كتب إليه من العلل قال : علّة الوضوء التي صار من أجلها غسل الوجه والذراعين ومسح الرأس والرجلين فلقيامه بين يدي الله عزّ وجلّ واستقباله إيّاه بجوارحه الظاهرة، وملاقاته بها الكرام الكاتبين. فغسل الوجه للسجود والخضوع وغسل اليدين ليقلبهما ويرغب بهما ويرهب ويتبتل، ومسح الرأس والقدمين لأنهما ظاهران مكشوفان يستقبل بهما في حالاته ، وليس فيهما من الخضوع والتبتل ما في الوجه والذراعين .

ثم قال العلاّمة المجلسي في بيانه للرواية : الرغبة أن تبسط يديك وتظهر باطنهما، والرهبة أن تبسط يديك وتظهر ظهرهما، والتبتل تحريك السبّابة اليسرى ترفعها في السماء وتضعها كما روي في الصحيح ، والتقليب يشملها مع تحريك السبّابة اليمنى يميناً وشمالاً ويسمى بالتضرع ، ورفع اليدين للتكبير والوضع في مواضعهما في الركوع والسجود وسائر الأحوال[2].

ونقل المجلسي أيضاً في بحاره عن مجالس الصدوق رواية عن أبي الحسن العسكري عليه السلام قال : لما كلّم الله عزّ وجلّ موسى عليه السلام قال : إلهي ماجزاء من أتمّ الوضوء من خشيتك ؟ قال : أبعثه يوم القيامة وله نور بين عينيه يتلألأ[3].

وفيه عن مجالس الصدوق أيضاً عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : ألا أدلكم على شيء يكفّر الله به الخطايا ويزيد في الحسنات ؟ قيل: بلى

(١) بحار الانوار : ج٨٠ ص٢٣٠ ب٢ ح٢ .
(٢) بحار الانوار : ج٨٠ ص٢٣١ ب٢ ح٣ .
(٣) بحار الانوار : ج٨٠ ص٣٠١ ب٤ ح١ .

يارسول الله ، قال إسباغ الوضوء على المكاره ، و كثرة الخطى الى هذه المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، ومامنكم أحد يخرج من بيته متطهراً فيصلّي الصلاة في الجماعة مع المسلمين ثم يقعد ينتظر الصلاة الاخرى إلا والملائكة تقول: اللهمّ اغفر له وارحمه ، فاذا قمتم الى الصلاة فاعدلوا صفوفكم وأقيموها وسدوا الفرج واذا قال إمامكم الله أكبر فقولوا الله أكبر، واذا ركع فاركعوا، واذا قال سمع الله لمن حمده فقولوا ربنا لك الحمد ، إنّ خير الصفوف صفّ الرجال المقدم وشرها المؤخر[1].

وفيه أيضاً عن المحاسن عن السكوني عن أبي عبدالله عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من أسبغ وضوءه وأحسن صلاته وأدى زكاته و كفّ غضبه وسجن لسانه واستغفر لذنبه وأدّى النصيحة لأهل بيت نبيّه فقد استكمل حقائق الايمان وأبواب الجنة مفتحة له[2].

وفيه أيضاً عن مجالس الشيخ المفيد عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : ياأنس أكثر من الطهور يزيد الله في عمرك، وإن استطعت أن تكون بالليل والنهار على طهارة فافعل فإنك اذا متّ على طهارة تكون شهيداً[3].

وفيه أيضاً عن المحاسن عن حفص بن غياث عن الصادق عليه السلام قال: من تطهر ثم أوى الى فراشه بات وفراشه كمسجده ، فإن ذكر أنه ليس على وضوء فتيمم من دثاره كائناً ماكان لم يزل في صلاة ماذكر الله عزّ وجلّ[4].

وفيه أيضاً عن إرشاد القلوب وأعلام الدين للديلمي قال: قال النبي صلى الله عليه وآله: يقول الله تعالى : من أحدث ولم يتوضأ فقد جفاني ، ومن أحدث وتوضأ وصلّى

---

(١) بحار الانوار : ج٨٠ ص٣٠١ ب٤ ح٢ .
(٢) بحار الانوار : ج٨٠ ص٣٠٤ ب٤ ح١٠.
(٣) بحار الانوار : ج٨٠ ص٣٠٤ ب٤ ح١٢ .
(٤) بحار الانوار : ج٨٠ ص٣٠٨ ب٤ ح١٦ .

ركعتين ودعاني ولم اجبه فيما سألني عن امور دينه ودنياه فقد جفوته، ولست برب جاف[1].

وفيه أيضاً عن جامع الأخبار قال الباقر عليه السلام: من قرأ على اثر وضوئه آية الكرسي مرة أعطاه الله ثواب أربعين عاماً ورفع له أربعين درجة وزوجه الله أربعين حوراء[2].

انتهى الكلام على الوضوء من هذه الآية.

الغسل

ثم ذكر تعالى أمر الغسل في جملة وهي قوله: «**وان كنتم جنباً فاطهروا**».

لقد ذكر المفسرون والفقهاء بأنّ الجنب يجب عليه الغسل، وهو الذي تأمر به الجملة المذكورة، وذكروا أنّ الجنابة تحصل بعد أمرين:

الأول: نزول المني سواء كان بيقظة أو نوم، بجماع أو غير جماع.

والثاني: بغيبوبة الحشفة سواء كان معه إنزال أو لم يكن ـ في الفاعل والمفعول ـ. وهناك فروع تتعلّق بكيفية الغسل وبعض أحكامه مذكورة في كتب الفقه.

التيمم

ثم ذكر تعالى حكم التيمم بقوله: « **وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه** ».

هذه الجملة بيّنت للناس أنّ من عسر عليه الغسل أو الوضوء إما لمرض فيه بحيث يضره استعمال الماء أو لعدم وجود الماء فإنه يكفيه التيمم عن كلا الأمرين من غسل أو وضوء، وكيفية التيمم وأحكامه مذكورة في كتب الفقه.

---

(١) بحار الانوار: ج٨٠ ص٣٠٨ ب٤ ح١٨.

(٢) بحار الانوار: ج٨٠ ص٣١٧ ب٥ ح٩.

وأمـا قوله تعالى : « **مـا يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون**» فإنه يبيّن لطف الله ورأفته بعباده حيث لم يحتم عليهم الوضوء والغسل في جميع الأحوال ، ورخص لهم التيمم وجعله كافياً عن الـوضوء والغسل في مقـام تعذرهما ، وجعل من تيمم بالتراب كالمتطهر بالماء، فالذي يصلّي بالتيمم يكون كالمصلّي بالوضوء والغسل لاينقص منه شيء، وهذا البدل الذي جعله الله للوضوء والغسل هو نعمة من الله على عباده كما أنّ تشريع الوضوء والغسل نعمة يحصل العبد بإتيانهما على ثواب عظيم، وقد أراد الله بعباده المؤمنين أن يحصلوا على هـذه النعمة في الوقت الذي لم يمكنهم استعمال الماء بسبب مابهم مـن المرض أو لعدم وجود الماء أصلاً ، فجعل لهم التراب بـدلاً عنه لاتمام النعمة عليهم ، فالذي يحتم على العباد هذه النعمة أن يطيعوا الله في امتثال أوامره ، وهذا هو الذي أشار الله إليه بقوله : « لعلّكم تشكرون » أي أنّ إتمام النعمة عليكم في تهيئة أسباب الطهارة لكم في كل زمـان وعلى أيّ حال يوجب عليكم الشكر للمنعم ، فاذا فهمتم وتعقلتم هذه النعمة لزمكم الشكر حتماً ، هذا مضافاً الى سائر النعم التي أسداها الله على عباده المؤمنين وأعظمها وأجلّها توفيقهم للايمان .

قوله تعالى : واذكـروا نعمة الله وميثاقه الذى واثقكم بـه اذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقوا الله ان الله عليم بذات الصدور (٧) .

لما ذكر الله في الآية التي قبل هذه الآية أنّ تشريع الطهارات من الغسل والوضوء والتيمم إنما هو نعمة من الله وفضل على عباده ـ حيث إنها تطهر العبد من دنس الخبث والحدث وتقربـه الى الله وتؤهله لمقام المناجاة مع الله وللعروج الى

(١) المائدة : ٦ .

المقام الرفيع فيساوي الملائكة في الارتفاع والتعالي ـ فقد نبه عباده في هذه الآية أنـه يلزمهم أن يذكروا دائماً نعمة الله عليهم ، إذ أنّ نعم الله متتابعة مترادفـة متواصلة في كل زمان ومكان ، فـاذا كان العبد ذاكراً للنعمة يلزمـه أن يكون شاكراً للمنعم ، فهو في كل حين يلزمه .

ولما كان الشكر بالنسبة الى الله يغاير الشكر بالنسبة الى العباد فإنّ شكر العبد للعبد هو مكافأة بمثل ماأسداه إليك من مال أو جاه أو شكره بالكلام المنبه على مافعله معك من احسان .

أما بالنسبة الى الله فالشكر عبارة عن إطاعة أوامره والانتهاء عما نهى عنه، فاذا كان العبد شاكراً لله في كل حين يلزمه أن يكون مطيعاً لله في كل حين.فاذا همّ بمعصية وتذكّر أنّ الجارحة التي يريد أن يعصي بها إنماهي من عند الله ومن نعمه وفضله وأنـه يلزمه الشكر على ذلك اذا تنبّه الى هذا المعنى وكان عـاقلاً يرتدع عن المعصية ويكفّ عنها بمقتضى حكم العقل بوجوب شكر المنعم الذي أرشدنا الله اليه بقوله : « **واذكروا نعمة الله** » فيكون ذكر النعمة موجباً الكف عن المعصية وسبباً لاطاعة الله في كل حين .

قال في المجمع : إنما قال «نعمة الله» ولم يقل نعم الله للاشعار بعظم النعمة لامن جهة التضعيف ، إذ كل نعمة لله فإنه يستحق عليها أعظم الشكر لكونها أصل النعم ، إذ هي مثل الخلق والحياة والعقل والحواس والقدرة[1] انتهى .

ومن جمـلة الامور التي ينبغي إطاعة الله فيها هـو الوفاء بالميثاق والعهد الذي واثق العبد ربه وعاهده عليه حين إسلامه، حيث إنّ النبي ﷺ كان يشترط على من يدخل في الاسلام أن يطيعه في كل أمـر ونهي سواء سره ذلك أو أساءه حبه أو كرهه، وأكّد ذلك على المسلمين في بيعة الحديبية وبيعة الرضوان واشترط عليهم أن لايعترضوا عليه في شيء من الامور أبداً .

(١) مجمع البيان : ج٣ ص١٦٧ .

فيمكن أن يكون قوله: «وميثاقه الذي واثقكم به اذ قلتم سمعنا وأطعنا» إشارة الى هذا الميثاق الذي أخذه النبي ﷺ على المسلمين حين إسلامهم، فإنهم لما ألقى عليهم هذه الامور قالوا: سمعنا وأطعنا.

وقال بعض المفسرين: إن الميثاق هو الذي أخذه النبي ﷺ في حجة الوداع في غدير خم لما أقام أمير المؤمنين عليه السلام علماً للناس وأمرهم أن يبايعوه وأخذ عليهم الميثاق فقالوا: سمعنا وأطعنا[1].

وذهب الى هذا علي بن ابراهيم القمي حيث قال: لما أخذ رسول الله ﷺ الميثاق عليهم بالولاية قالوا: سمعنا وأطعنا، ثم نقضوا ميثاقهم[2].

ويدل على هذا أيضاً قول الامام الصادق عليه السلام: وليكن من قولكم اذا التقيتم أن تقولوا: الحمد لله الذي أكرمنا بهذا اليوم وجعلنا من الموفين بعهده إلينا وميثاقه الذي واثقنا به من ولاية ولاة أمره والقوام بقسطه[3].

ماقاله الشيخ الطوسي:

قال في تفسيره: والميثاق الذي واثقهم به قال البلخي والجبائي: هو ماأخذ عليهم رسول الله ﷺ عند إسلامهم وبيعتهم بأن يطيعوا الله في كل مايفرضه عليهم مما ساءهم أو سرهم. قال الجبائي: هو مبايعتهم ليلة العقبة وبيعة الرضوان. وهو قول ابن عباس. وقال آخرون: هو ماأخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم عليه السلام «وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى»[4]. ذهب إليه مجاهد.

والصحيح قول ابن عباس لأمرين:

أحدهما: أن الخبر المروي في أخذ الميثاق على من استخرج من صلب

---

(١) مجمع البيان: ج٣ ص١٦٨ نقلا بالمعنى.

(٢) تفسير القمي: ج١ ص١٦٣.

(٣) التهذيب: ج٣ ص١٤٤ باب٧.

(٤) الاعراف: ١٧٢.

آدم عليه السلام ضعيف تحيله العقول .

والثاني : أنّ الله تعالى ذكر بعقب تذكيره المؤمنين ميثاقه الذي واثق به أهل التوراة بعدما أنزل كتابه على نبيه موسى عليه السلام فيما أمرهم به ونهاهم عنه فقال: « ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً »[1] الآيات بعدها، منبهاً بذلك أصحاب رسول الله محمد صلى الله عليه وآله على مواضع حظوظهم من الوفاء لله بما عاهدهم عليه وتعريفهم سوء عاقبة أهل الكتاب في تضييعهم من الوفاء لله بما عاهدهم عليه وما ضيعوا من ميثاقه الذي واثقهم به في أمره ونهيه زاجراً لهم عن نكث عهده لئلاّ يحلّ بهم ماحلّ بمن تقدم من الناكثين عهده من أهل الكتاب .

وقال أبو الجارود : عن أبي جعفر عليه السلام : الميثاق هو مابيّن لهم في حجة الوداع من تحريم كل مسكر وكيفية الوضوء على ماذكره الله وغير ذلك، ونصب أمير المؤمنين عليه السلام إماماً للخلق ، وهذا داخل فيما حكيناه عن ابن عباس إذ هو بعض ماأمر الله به[2] انتهى .

ماقاله الطبرسي :

قال في تفسير قوله تعالى « وميثاقه الّذي واثقكم به » : قيل : فيه أقوال :

أحدها: أنّ معناه ماأخذ عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله عند إسلامهم وبيعتهم بأن يطيعوا الله في كل مايفرضه عليهم مما ساءهم أو سرهم . عن ابن عباس والسدي .

وثانيها: أنّ المراد بالميثاق مابيّن لهم في حجة الوداع من تحريم المحرمات وكيفية الطهارة وفرض الولاية وغير ذلك . عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام ، وهذا داخل في القول الأول إذ هو بعض مافرض الله تعالى .

وثالثها: أنّ المراد به متابعتهم للنبي صلى الله عليه وآله يوم بيعة العقبة وبيعة الرضوان. عن أبي علي الجبائي .

---

(١) المائدة : ١٢ .

(٢) التبيان : ج٣ ص٤٥٩ ـ ٤٦٠ .

ورابعها: أنّ معناه ما أخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم عليه السلام «وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى». عن مجاهد، وهذا أضعف الأقوال.

«إذ قلتم سمعنا وأطعنا» يعني: سمعنا ماتقول وأطعناك فيما سمعنا[1].

ماقاله السيد عبدالله شبر:

قال في تفسيره: «واذكروا نعمة الله عليكم» بالاسلام لتذكّركم المنعم وترغيبكم في شكره «وميثاقه الذي واثقكم» عاقدكم به من مبايعتكم النبي صلى الله عليه وآله على السمع والطاعة في العسر واليسر. وعن الباقر عليه السلام: أنّ المراد بالميثاق مابيّن لهم في حجة الوداع من تحريم المحرمات وكيفية الطهارة وفرض الولاية وغير ذلك[2] انتهى.

ماقاله المراغي:

قال في تفسير قوله تعالى «واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا»: أي وتذكّروا أيها المؤمنون إذ كنتم كفاراً متباغضين فأصبحتم بهداية الدين إخواناً متحابّين، وتذكّروا العهد الذي عاهدكم به حين بايعتم رسوله محمداً صلى الله عليه وآله على السمع والطاعة في المنشط والمكره (المحبوب والمكروه) والعسر واليسر حين قلتم له: سمعنا ماأمرتنا به ونهيتنا عنه وأطعناك فيه فلا نعصيك في معروف وكل ماجئتنا به فهو معروف.

وكل نبيّ بعث في قوم أخذ عليهم ميثاق الله بالسمع والطاعة وقبول الدعوة والدخول في الدين يعدّ قبولاً لهذا العهد، فعلينا أن نعدّ هذا التذكير خطاباً كما عده السلف من الصحابة خطاباً لهم[3].

---

(١) مجمع البيان: ج٣ ص١٦٧ – ١٦٨.
(٢) الجوهر الثمين: مخطوط.
(٣) تفسير المراغي: ج٦ ص٦٦.

أيّها المسلم ، اذا أردت أن تكون مؤمناً حقيقياً ويحشرك الله مع المؤمنين ينبغي لك أن تفي لله بعهدك وميثاقك، فإنّ الله قد أخذ عليك العهد حين أخرجك من صلب آدم عليه السلام اعترفت له بالربوبية وكذا حين أسلمت وصدقت بنبوة محمد صلى الله عليه وآله فإنك قد عاهدته على السمع والطاعة في كل شيء ، فكل شيء من فعل أو قول يصدر منك مخالفاً لما جاء به محمد صلى الله عليه وآله من عند الله فهو نقض لعهدك ونكث لميثاقك، ومن ينكث فإنما ينكث على نفسه، وقد سمعت ماقاله المفسرون في قوله تعالى: «واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الّذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا» فإنّ كل معصية تصدر منك لابدّ وأن تكون بأحد أعضائك التي أنعم الله بها عليك فكيف تعصيه بنفس النعمة التي ينبغي لك أن تشكره عليها ؟ وتكون أيضاً بهذه المعصية قد نكثت عهدك وميثاقك فتكون قد كفرت النعمة ونكثت الميثاق وخالفت النبي صلى الله عليه وآله .

قوله تعالى : « **واتقوا الله ان الله عليم بذات الصدور** » .

ختم الله تعالى الآية الشريفة بهذه الجملة المحذرة للعاقل، فإنه ـ بعدما أمرنا أن نذكر نعمة الله في كل وقت وعلى أية حال ونبهنا بأنه قد أخذ علينا العهد والميثاق الشديد وأنّ كفران النعمة ونكث العهد ونقض الميثاق ممايوجب العذاب الشديد لفاعله سيّما اذا كان المنعم قادراً على كل شيء لايعجزه شيء ولايفوته أحد ـ وجّه سبحانه إلينا جملة إرشادية تنفعنا إن عملنا بها في الدنيا والآخرة وهي قوله :«واتقوا الله» أي اتقوا وتحرزوا من عذاب الله الذي يصيب من يكفر النعمة وينقض الميثاق ولايخدعكم الشيطان فتفعلوا شيئاً من ذلك فإنّ الله يعلم ماتضمرونه بقلوبكم حينما ينعم عليكم بكل نعمة وحينما يأخذ عليكم العهد والميثاق فإنّ « الله عليم بذات الصدور » .

قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط

ولا يجرمنكم شنئان قوم على أن لاتعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون (٨) .

إنّ الله أمرنا في الآية السابقة بأن نكون دائماً على ذكر لنعمة الله وأن نفي بعهد الله وميثاقه ، وأنّ الانسان اذا اتصف بهذين الوصفين يكون مؤمناً كاملاً ، واذا كان كذلك لابدّ وأن يكون متصفاً بهذه الصفة التي أمرنا الله بالاتصاف بها، وهي أن نكون قوّامين لله أي قائمين في كل وقت وفي كل أمر من فعل وقول وحركة وسكون لله تعالى في جميع هذه الحالات خالصين له في هذه الامور كلها ، لانخلط معها غيرها بحيث تكون أعمالنا التي نعملها في الدنيا منوطة بما يأمرنا الله به ولانأتي بشيء وإن قلّ ودق لايرضى به الله .

امثل لك أيها الانسان بمثال لتعرف معنى قوله: «**قوامين لله**» فأقول لك: إنّ بعض الاقطاعيين أو كلهم يعيّن رجلاً واقفاً قريباً من مكانه الذي يحلّ به وهذا الرجل لايشتغل بشيء من الامور أبداً سوى أنه ينتظر إشارات ذلك الاقطاعي الجاهل ومما يأمر به فينفذها في الحال ولايتخلّف عنها أبداً ، وتكون وظيفة هذا الرجل الوقوف على رجليه لايحقّ له الجلوس ولا الابتعاد عن المحلّ الذي عيّن له.

اذا عرفت هذا فاعلم أنّ العبد الذي يكون قوّاماً لله ينبغي أن يكون على هذه الحالة بحيث لايشتغل بشيء لايرضى به الله أبداً، ويزيد على ذلك القائم بأمر الاقطاعي الجاهل أنه يلزم أن يكون ضميره وباطنه موافقاً لظاهره، فإنّ الله يريد ذلك من عباده ويعلمه وهو مطلع عليه لايخفى عليه شيء .

ثم إنّ هذا الرجل الذي يكون قوّاماً لله ـ حيث إنّ كلامه يلزم أن يكون لله أيضاً ـ ينبغي أن تكون شهادته شهادة عادل ليس فيها ميل وانحراف عن الحق فإنّ الله لايرضى بالشهادة اذا لم تكن بالقسط وإلا فإنّ شهادته اذا مالت عن الحقّ طرفة عين فإنه لم يكن قائماً لله، واذا لم يكن قوّاماً لله لم يكن وفياً بالعهد

والميثاق ، واذا لم يكن متصفاً بالوفاء لم يكن ذا كراً لنعمة الله . فاذا انتفت عنه هذه الصفات لم يكن داخلاً في زمرة المؤمنين ، وهذا هو الخسران المبين .

فانظر وتأمّل أيها المسلم كيف أدبك الله وأرشدك الى الترقي لهذه الدرجات فإنه أرشدك أولاً لتذكر نعمته ثم أمرك بالوفاء بما واثقك عليه ثم أرشدك أن تكون قوّاماً لله، فاذا كنت كذلك لابدّ لك وأن تكون شهادتك بالقسط غيرمائلة عن العدل في كل وقت وفي كل أمر ، فاذا وصل العبد الى هـذه الدرجة يكون سيره دائماً في الطريق الذي عيّنه الله له ولايخرج عنه يميناً ولاشمالاً ولايتوقف عن السير لغرض يعود الى نفسه بل يكون دائماً قائماً بأمر الله الذي شخّصه له بواسطة النبي وأوصيائه، وأنّ هذه الشهادة بالقسط التي وصف الله بهاعباده المؤمنين ـ حيث إنها تكون لهم صفة ثـابتة ـ لاتزول عنهم ولاتفارقهم لأنها ملكة ثابتة ، فاذا أرادوا أن يشهدوا لأحد أوعلى أحد فيجب أن تكون شهادتهم بالقسط والعدل سواء كان المشهود له صديقاً أوعدواً ، وكذا لوأرادوا أن يحكموا على أحد بحكم من الأحكام فينبغي لهم أن يحكموا بالقسط والعدل ولو كان المحكوم عليه عدواً لهم ، ولذا أمرهم الله بهذا في قوله : « **ولا يجرمنكم شنئان قـوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى**» .

إنّ الذي يتصف بالصفات المتقدم ذكرها يأمره الله أن يكون عادلاً في كل شيء ، فاذا أراد أن يقول شيئاً فيمن يبغضه أو يصدر حكماً في حقه يأمره الله أن لايحمله هذا البغض على مفارقة العدل في حقّ ذلك المبغوض المكروه بل يأمره الله أن يقول فيه مايطابق العدل ويناسبه ويذكر له أنّ متابعة العدل هو أقرب للتقوى لأنّ الانسان اذا اتصف بالصفات المذكورة المتقدمة يكون ويعدّ مـن المتقين، فاذا أرادأن يفرق بين صديقه وعدوه في الحكم يبعده هذا عن المتقين، ولذاأمره الله أن يقول العدل ويحكم به في كل مقال ومقام، ولايفرق بين من يحبه ومن يبغضه.

ثم بعدما أمره بما يثبته على التقوى كرر عليه مرة اخرى بأن يكون من

المتقين لأن التقوى تحرز لصاحبها خير الدنيا والآخرة ، وهو قوله تعالى : « **واتقوا** » ثم أخبره بأنه يريد مطابقة الباطل للظاهر ، وأنّ الظاهر وحده لايفيد وهو قوله : « **ان الله خبير بما تعملون** » .

إنّ هذه الجملة تكفي لصاحب العقيدة الحقة والسريرة السليمة ، فإنه اذا علم وتيقن أنّ الله مطّلع على مافي ضميره وخبير بماتنطوي عليه سريرته، وأنّ كل مايفعله سراً أو جهراً هو مسجل في صحيفته لايفوت منه شيء ، فلابدّ له إن كان عاقلاً كاملاً أن لايسجل على نفسه إلا ماينفعه ويجتنب كل شيء يكون وبالاً عليه.

قوله تعالى : وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم (٩) .

هذا وعد من الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وأنّ وعد الله لاخلف فيه قطعاً وأنّ الله يفي به في مورده الذي عيّنه ولايؤخره عنه لحظة . نعم إنما يفي به الله في المورد المعيّن وللانسان الذي عيّنه وشخّصه وهو الذي يؤمن ويعمل الصالحات، فلابدّ لنا أن نعرف من هو المؤمن وماهي الصالحات التي يعيّنها الله عزّ وجلّ ؟

أما المؤمن فهو الذي يوحّد الله ويصدق بنبوة محمد بن عبدالله ﷺ، ولايخفى عليك أنّ التوحيد والتصديق بالنبوة ليسا أمرين يقولهما بلسانه فحسب بل هما إقرار باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالأركان ، فمن قال : (لاإله إلا الله) ينبغي له أن يعرف معنى التوحيد ، أي أنّ الله هو الخالق الرازق المحيي المميت وهو على كل شيء قدير فلايجعل له أنداداً من المخلوقين ، وكذا من صدق بنبوة محمد ﷺ ينبغي له أن يكون عمله على القرآن والسنّة ولايخالف النبي فيماقاله من أحكام الدين الاسلامي. فإنّ النبي ﷺ قد قال في آخر خطبة خطبها :

أيها الناس من لقي الله عزّ وجلّ يشهد أن لا إله إلا الله مخلصاً لم يخلط معها غيرها دخل الجنة. فقام علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: يارسول الله بأبي أنت وامّي كيف يقولها مخلصاً لايخلط معها غيرها؟ فسّر لنا هذا نعرفه، فقال: نعم حرصاً على الدنيا وجمعها من غير حلّها ورضي بها، وأقوام يقولون أقاويل الأخيار ويعملون عمل الجبابرة والفجّار، فمن لقي الله وليس فيه شيء من هذه الخصال وهو يقول لاإله إلا الله فله الجنة، فإن أخذ الدنيا وترك الآخرة فله النار [1].

وأما عمل الصالحات فإنّ هذه السورة ـ وهي سورة المائدة ـ مشتملة على كثير من الأوامر والنواهي، وقد ذكر الله من أول السورة الى هذه الآية جملة منها ولابأس بذكرها:

١ ـ قوله تعالى: «ياأيّها الّذين آمنوا أوفوا بالعقود» فإنّ هذه الجملة تشمل جميع الأوامر والنواهي، وهي وحدها تكفي الانسان اذا أراد أن يكون مؤمناً.

٢ ـ «احلّت لكم بهيمة الانعام إلّا مايتلى عليكم».

٣ ـ «غير محلّي الصيد وأنتم حرم».

٤ ـ «ياأيّها الّذين آمنوا لاتحلّوا شعائر الله».

٥ ـ «ولاالشهر الحرام».

٦ ـ «ولاالهدي».

٧ ـ «ولاالقلائد».

٨ ـ «ولاآمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربّهم ورضواناً».

٩ ـ «واذا حللتم فاصطادوا».

١٠ ـ «ولا يجرمنّكم شنئان قوم أن صدّوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا».

---

(١) بحار الانوار: ج٧٦ ص٣٥٩ ـ ٣٦٠ قطعة من حديث ٣٠.

١١ ـ « وتعاونوا على البرّ والتقوى » .

١٢ ـ « ولاتعاونوا على الاثم والعدوان » .

١٣ ـ « واتّقوا الله إنّ الله شديد العقاب » .

١٤ ـ « حرّمت عليكم الميتة » .

١٥ ـ « والدم » .

١٦ ـ « ولحم الخنزير » .

١٧ ـ « وماأهلّ لغير الله به » .

١٨ ـ « والمنخنقة » .

١٩ ـ « والموقوذة » .

٢٠ ـ « والمتردّية » .

٢١ ـ « والنطيحة » .

٢٢ ـ « وماأكل السبع إلّا ماذكّيتم » .

٢٣ ـ « وماذبح على النصب » .

٢٤ ـ « وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق » .

٢٥ ـ « اليوم يئس الّذين كفروا من دينكم فلاتخشوهم واخشون » .

٢٦ ـ « اليوم أكملت لكم دينكم » .

٢٧ ـ « وأتممت عليكم نعمتي » .

٢٨ ـ « ورضيت لكم الاسلام ديناً » .

٢٩ ـ « قل احلّ لكم الطيبات وماعلّمتم من الجوارح مكلّبين تعلّمونهنّ مما علّمكم الله » .

٣٠ ـ « واذكروا اسم الله عليه واتّقوا الله إنّ الله سريع الحساب » .

٣١ ـ « اليوم احلّ لكم الطيبات » .

٣٢ ـ « والمحصنات من المؤمنات » .

٣٣ ـ « والمحصنات من الّذين اوتوا الكتاب من قبلكم اذا آتيتموهنّ

اجورهنّ محصنين غير مسافحين ولا متّخذي أخدانٍ ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين » .

٣٤ ـ « ياأيّها الّذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا ... الخ » .

٣٥ ـ « وإن كنتم جنباً فاطّهروا » .

٣٦ ـ « وإن كنتم مرضى أو على سفرٍ أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءً فتيمّموا ... الخ » .

٣٧ ـ « مايريد الله ليجعل عليكم من حرج » .

٣٨ ـ « ولكن يريد ليطهّركم » .

٣٩ ـ « وليتمّ نعمته عليكم لعلّكم تشكرون » .

٤٠ ـ « واذكروا نعمة الله عليكم » .

٤١ ـ « وميثاقه الّذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا » .

٤٢ ـ « واتّقوا الله إنّ الله عليم بذات الصدور » .

٤٣ ـ « ياأيّها الّذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط » .

٤٤ـ «ولايجرمنّكم شنئان قوم على أن لاتعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى».

٤٥ـ « واتّقوا الله إنّ الله خبير بما تعملون » .

إنّ هذه الامور التي ذكرها الله تعالى بعضها أمر كقوله تعالى :«واخشون» وبعضها نهي كقوله سبحانه : « فلاتخشوهم » وبعضها خبر كقوله جلّ شأنه : « اليوم يئس الّذين كفروا من دينكم ». وكل جملة منها تشتمل على حكمة بالغة وهي كلها مما تخصّ الانسان وتنفعه في الدنيا والآخرة .

إنّ هذه الامور اذا عمل بها الانسان على ماأمر الله بحيث أخذ معانيها وتفسيرها ممن عنده علم الكتاب وعمل بها على الدقة ولم يغيّر من معناها شيئاً يكون هذا الانسان ممن آمن وعمل الصالحات ، فيستحقّ من الله إنجاز الوعد الذي وعده به وهو قوله : « **مغفرة واجر عظيم** » .

أما المغفرة فهي مطلقة غير مقيدة بكم أو كيف فتكون عامة لجميع الذنوب وهي غنيمة عظيمة كبيرة .

وأما الأجر العظيم فهو لا يتصوره عقل البشر فإن الشيء الذي يصفه الله بالعظمة هو أمر فوق فكر البشر وفوق طاقتهم ، فمن حصل من العباد على هذا الأجر فهو من الفائزين فوزاً عظيماً وهو من أحسن العباد منقلباً وأكثرهم ثواباً.

ولكن المهم أن يكون عمله مطابقاً لما يريده الله من هذه الامور بحيث يكون وضوؤه وغسله وتيممه وصلاته مطابقاً لارادة مولاه وأن يكون مأخوذاً من النبي ﷺ وممن علّمه النبي جميع الأحكام ، أما اذا كان يعمل بما يوحيه إليه فكره بلااستناد الى الكتاب والسنّة فهذا قد يكون في أغلب الموارد غير عامل بما أمر الله كما يقوله بعضهم : إن الله أمر بمسح الرجلين وأراد بالمسح الغسل فإن هذا لايوافق عليه الكتاب ولاالسنّة ولااللغة ولاالعرف ، فما أدري من أين جاءه هذا العلم فحكم به ؟

ثم إن الصالحات ليست منحصرة بما تقدم ذكره في هذه السورة بل يعم جميع الواجبات والمندوبات المذكورة في الكتاب والسنّة.

قوله تعالى : والذين كفروا وكذبوا بآياتنا اولئك أصحاب الجحيم (١٠) .

بعد أن وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالمغفرة والأجر العظيم توعد الكافرين والكاذبين به سبحانه وبكتابه وأنبيائه وأوصيائه بأن يكونوا من أصحاب الجحيم .

قال في المجمع: معناه أنهم يخلّدون في النار لأن المصاحبة تقتضي الملازمة[1].

---

(١) مجمع البيان : ج٣ ص١٦٩ .

فعلى العاقل أن يفكّر ويتأمّل الفرق بين هاتين المنزلتين، بين هذا الوعد وهذا الوعيد ـ وعد بالمغفرة والأجر العظيم ووعيد بالخلود في نار الجحيم ـ ثم يختار لنفسه أحد الأمرين، فهل يوجد أحد في العالم من الانس أو الجن عاقل أو مجنون يترك هذا النعيم ويختار هذا العذاب الأليم ! ؟

قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ هم قوم أن يبسطوا اليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون (١١) .

لقد وصلت الى هذه الآية في يوم ١٩٧٠/٨/٩ وقد أعلنت حكومة مصر وحكومة إسرائيل بالموافقة على المشروع الذي أعدته أمريكا والدول الكبرى الثلاث ووافقت مصر وإسرائيل على إيقاف النار لمدة معينة، وإني اخاطب حكومة مصر والحكومات الاسلامية جمعاء ، أذكر لهم سبب نزول الآية أولاً :

ماقاله الطبرسي في سبب النزول :

قال في مجمعه : واختلف في من بسط إليهم الأيدي على أقوال :

أحدها: أنهم اليهود همّوا بأن يفتكوا بالنبي ﷺ وهم بنو النضير، دخل رسول الله ﷺ مع جماعة من أصحابه عليهم وكانوا قد عاهدوه على ترك القتال وعلى أن يعينوه في الديات ، فقال ﷺ : رجل من أصحابي أصاب رجلين معهما أمان مني فلزمني ديتهما فاريد أن تعينوني ، فقالوا : نعم اجلس حتى نطعمك ونعطيك الذي تسألنا. وهمّوا بالفتك بهم، فآذن الله به رسوله فأطلع النبي ﷺ على ذلك وانصرفوا، وكان ذلك إحدى معجزاته. عن مجاهد وقتادة وأكثر المفسرين.

وثانيها : أنّ قريشاً بعثوا رجلاً ليقتل النبي ﷺ فدخل عليه وفي يده سيف مسلول فقال له: أرنيه ، فأعطاه، فلما حصل في يده قال : ماالذي يمنعني من

قتلك؟ قال: الله يمنعك، فرمى السيف وأسلم، واسم الرجل عمر بن وهب الجمحي بعثه صفوان بن امية ليغتاله بعد بدر، وكان ذلك سبب إسلام عمر بن وهب. عن الحسن.

وثالثها: أنّ المعني بذلك ما لطف الله للمسلمين من كفّ أعدائهم عنهم حين همّوا باستئصالهم بأشياء شغلهم بها من الأمراض والقحط وموت الأكابر وهلاك المواشي وغير ذلك من الأسباب التي انصرفوا عندها عن قتل المؤمنين. عن أبي علي الجبائي.

ورابعها: ماقاله الواقدي أنّ رسول الله ﷺ غزا جمعاً من بني ذبيان ومحارب بذي أمر، فتحصنوا برؤوس الجبال، ونزل رسول الله بحيث يراهم، فذهب لحاجته فأصابه مطر فبلّ ثوبه فنشره على شجرة واضطجع تحته والأعراب ينظرون إليه فجاء سيدهم دعثور بن الحرث حتى وقف على رأسه بالسيف مشهوراً فقال: يا محمد من يمنعك مني اليوم؟ فقال النبي ﷺ: الله. ودفع جبرائيل في صدره ووقع السيف من يده وأخذه رسول الله ﷺ وقام على رأسه وقال: من يمنعك اليوم مني؟ قال: لاأحد، وأنا أشهد أن لاإله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله، فنزلت الآية.

وعلى هذا فيكون تخليص النبي ﷺ مما همّوا به نعمة على المؤمنين حيث إنّ مقامه بينهم نعمة عليهم، فلذلك اعتدّ به عليهم. وقوله **«فكف أيديهم عنكم»** أي منعهم عن الفتك بكم **«واتقوا الله»** ظاهر المعنى **«وعلى الله فليتوكل»** أي فليثق **«المؤمنون»** بنصر الله وليتوكلوا عليه فإنّ الله تعالى كافيهم وناصرهم[1].

إنّ الله عزّ وجلّ يأمر المؤمنين بأنهم اذا ذكروا نعمة من نعم الله يلزمهم أن يتقوا الله ويتحرزوا من عذابه، فإنهم اذا لم يؤدوا شكر النعمة قد يسبب ذلك زوالها، أما اذا تحقق منهم الاتقاء والتحرز فلابدّ وأن يؤدوا شكر النعمة. ثم عرفهم بأنّ المؤمن المتقي يلزمه أن يكون متوكلاً على الله في جميع الامور وفي كل الأحوال والأوقات.

هذا هو شأن المؤمن ومايبنغي أن يكون عليه في امور دنياه وفي امور

(١) مجمع البيان: ج٣ ص١٦٩ – ١٧٠.

آخرته وفي حربه مع أعداء الديـن ، فينبغي أن تكون نيته خالصة لله تعالى في محاربة أعداء الدين .

وبعد هذا إني اخاطب نفسي و كل مسلم يدين بدين محمد بن عبدالله ﷺ وأقول :

لو أننا اقتدينا بنبينا وحللنا حلال الله وحرمنا حرام الله وأقمنا أحكام الله ومنعنا في بلادنا اللعب بالميسر والربا وشرب الخمر وأقمنا الحدود كما أمر الله في كتابه : « الزاني والزانية فاجلدوا كلَّ واحدٍ منهما مائة جلدة »[١] و« السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما »[٢] و « لكم في القصاص حياة ياأولي الألباب »[٣] لو أننا عملنا بكتاب الله تعالى وسنّة نبيه ﷺ لكفّ الله أيدي الغزاة الصهاينة ولما تمكن أحد أن يبسط إلينا يده أو يفرض سيطرته، واعلموا أنّ الرجوع الى كتاب الله من لوازم الاسلام وبه ننتصر على الأعداء .

أمـا الآن وبعد وقف إطلاق النار ليس علينا إلا أن نـرجع الى كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ فنحرم ـ كما أسلفت ـ جميع المحرمات التي حرمها الله في كتابه من خمور وفجور وتبرج وقمار وربا، وليس علينا إلا أن نقيم الحدود التي فرضها الله علينا في كتابه ، الحدود التي تقطع دابر الفساد والتي تقضي على الزنا والسرقة وقتل النفس وسائر أنواع الفسق، فاذا حللنا نحن وأنتم حلال الله وحرمنا حرامه فإنّ الله سيكفّ عنا أيدي أعدائنا ولايسلطهم علينا بل يجعل لنا السلطة عليهم كما وعدنا نبينا ﷺ حين أخذ منا البيعة و كما قال تعالى : « وكان حقّاً علينا نصر المؤمنين »[٤] فـالله تعالى لايخلف وعده ، فحقّ على الله تعالى أن ينصرنا إن

---

(١) النور : ٢ .

(٢) المائدة : ٣٨ .

(٣) البقرة : ١٧٩ .

(٤) الروم : ٤٧ .

أصبحنا مؤمنين .

نعم موضوع النصر هو تحقق الايمان الذي لاتشوبه شائبة، وإنّ بعض أهل أهل البلدان العربية وإن اعتنقوا الاسلام ديناً ولكنهم لم يتصفوا بشروط الاسلام فالمحرمات منتشرة في بلادهم وإنّ الله تعالى يريد المسلم أن يتكل عليه « وعلى الله فليتوكّل المؤمنون »[1] فإنّ تقدم الخبر على المبتدأ يفيد الحصر ، يعني: أنّ المؤمن بمعناه الحقيقي لايمكن أن يتوكّل على غير الله وأنّ بعض المسلمين يعانون لأعدائهم الصهاينـة أنهم معتمدون على غير الله ويستمدون المساعدة ممن نهى الله عن موالاتهم ، قال تعالى :«لايتّخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين»[2] فلو اتكلوا على الله واتحدوا كما أمر الله « إنّما المؤمنون إخوة »[3] « فأصبحتم بنعمته إخواناً »[4] واستعدوا للأعداء «وأعدّوا لهم مااستطعتم من قوّة»[5] لكفّ الله أيديهم ولنصرنا عليهم وسيتحقق النصر إن شاء الله .

أما اذا بقينا على هذه الحالة فإنّ الله تعالى يقول : « ياأيّها الّذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبّهم ويحبّونه أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافريـن يجاهدون في سبيل الله ولايخافون لومـة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم* إنما وليّكم الله ورسوله والّذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون * ومن يتولّ الله ورسوله والّذين آمنوا فإنّ حزب الله هم الغالبون »[6].

---

(١) آل عمران : ١٢٢ .
(٢) آل عمران : ٢٨ .
(٣) الحجرات : ١٠ .
(٤) آل عمران : ١٠٣ .
(٥) الانفال : ٦٠ .
(٦) المائدة : ٥٤ ـ ٥٦ .

قوله تعالى: ولقد أخذ الله ميثاق بني اسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله اني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لاكفرن عنكم سيئاتكم ولادخلنكم جنات تجري من تحتها الانهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل (١٢).

إنّ الله تعالى قد كرر ذلك العهد والميثاق في هذه السورة ثم ذكر بعد هذه الآية عقوبة نقض العهد والميثاق ليعرف المسلمون الذين نقضوا الميثاق أنهم قد استحقوا هذه العقوبة ، ولكن الله قد رحمهم وخفف عنهم وأمهلهم ليتوبوا إليه . فقال في أول آية من السورة « ياأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » وقال بعد ذلك: «واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا».

وقد تقدم قبل هذا ما ذكر في أول السورة أنّ أهل يثرب ـ وهم الثلاثة والسبعون ـ لما أرادوا أن يبايعوا النبي ﷺ قالوا له : نريد أن تعرفنا يارسول الله مالله علينا ومالك علينا ومالنا على الله، فقال لهم النبي ﷺ: وأمّا مالله عليكم فأن تعبدوه ولاتشركوا به شيئاً[١].

وقد تكرر في القرآن الكريم بأنّ الذي يوالي اليهود والنصارى فهو ليس من المسلمين وإنما هو من اليهود أو النصارى، وأنّ الذي يشرب الخمر فهو كعابد الوثن ، وأنّ الذي يأكل الربا فهو محارب لله ولرسوله، وأنّ الذي يقتل المسلم فهو كمن قتل الناس جميعاً ، فمن فعل أحد هذه الأشياء فهو ليس ممن عبد الله .

ثم قال النبي ﷺ : وأمّا مالي عليكم فتنصروني مثل ماتنصروا نساءكم

(١) بحار الانوار : ج١٩ ص٢٥ ب٥ ح٥ .

وأبناءكم، وأن تصبروا على عضّ السيف وأن يقتل خياركم[1].

فانظروا أيّها المسلمون هل أنكم نصرتم رسول الله مع ما استبحتم من هذه المحرمات كالخمر والميسر والسفور والفجور والربا وقتل النفس وغيرها من المحرمات؟ فهل يرضى رسول الله بهذه الأفعال وقد حرمها الله في القرآن؟ وهل تعدون أفعالكم نصرة له أو أنها لمخالفة صريحة لسنّته؟

قالوا: فاذا فعلنا ذلك فما لنا على الله؟

قال ﷺ: أمّا في الدنيا فالظهور على من عاداكم، وأما في الآخرة رضوانه والجنة[2].

أسمعتم أيّها المسلمون مالكم على الله؟ إنّ النبي الصادق المصدق قد تعهد لكم عن الله عزّ وجلّ أنكم اذا عبدتم الله مخلصين ولم تشركوا ونصرتم النبي ولم تخذلوه تعهد لكم بالظهور على من عاداكم، وأنّ وعد الله ليس فيه خلف، فلو أنكم تعدون من المسلمين لكفّ الله عنكم أيدي أعدائكم ولأظهركم عليهم في الدنيا وتحضون في الآخرة برضوانه والجنة.

إني آمل أملاً قريباً عاجلاً من جميع أفراد المسلمين أن يرجعوا الى الله ورسوله، وأن يكون عملهم موافقاً لكتاب الله تعالى وسنّة الرسول ﷺ، وأن يكافحوا ويحاربوا جميع المنكرات التي نهى الله عنها كالخمر والميسر والربا والتبرج تبرج الجاهلية، وأعظم الامور وأشدها حرمة هو متابعة الكافر من يهود ونصارى، فاذا رجعتم الى الله فإنّ الله قد تعهد لكم بالنصر بقوله: «وكان حقّاً علينا نصر المؤمنين»[3].

احذروا أشدّ الحذر أن تكونوا مثل بني إسرائيل فإنهم نقضوا العهد ونكثوا الميثاق فكانت عاقبتهم الهلاك والدمار، فإنّ الله يقول: **«ولقد أخذ الله ميثاق بني اسرائيل»**.

---

(١) و(٢) بحار الانوار: ج١٩ ص٢٥ ب٥ ح٥.
(٣) الروم: ٤٧.

المراد بالميثاق اليمين المؤكدة التي يؤديها من يؤخذ منه الميثاق ليكون ملتزماً ومقيداً بإتيان مايراد منه حتى لايتخلّف عن الوفاء وليكون الحقّ لمن يأخذ الميثاق في إنزال العقاب به اذا خالف ، فالميثاق اذا اخذ من أحد ـ واحداً كان أو جماعة أو امّـة ـ كاملة ـ لايمكن أن يخالفه أحد ولو بشيء قليل لأنـه اذا خالفه تكون الحجة عليه ولا يمكنه أن يدافع عن نفسه أو يحتجّ لها ويكون مستحقاً للعذاب الذي قرره الله على المخالفة ، وهذا الميثاق أخذه الله منهم على إخلاص العبادة له والايمان برساه والاتيان بكل مايأمرهم به وترك ماينهاهم عنه .

ثم قال تعالى : « **وبعثنا منهم اثنى عشر نقيباً** » .

النقيب هـو الكفيل الذي ينقب عن أفعال القـوم فيحصي أفعالهم ليعرف المحسن منهم والمسيء ، فإنّ أصحاب موسى كانوا اثني عشر أسباطاً ، فأمر الله موسى أن يجعل لكل سبط نقيباً يكون كفيلاً لهم على أن يقيموا حدود الله ويمتثلوا أوامره ويحلّوا حلاله ويحرموا حرامه ولايعصونه في شيء من الأحكام .

ثم قـال مخاطباً بني إسرائيل بواسطة نبيه موسى عليه السلام : « وقـال الله إنّي معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسـلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لاكفّرنّ عنكم سيّئاتكم ولادخلنّكم جنّات تحتها من تحتها الأنهار » .

لقد أمر الله تعالى بني إسرائيل أن يذهبوا الى أرض كنعان فيحاربوا أهلها الكفرة ويفتحوها فيسكنوا فيهـا ، فقادهم موسى وهارون قاصدين الأرض وهي أريحة ، حتى اذا كانوا قريباً منها أرسل موسى هؤلاء النقباء الاثني عشر الى الأرض ليفتشوا عن أهلها حتى يعلموا عدتهم وعددهم وماعندهم وأن يتكتموا في مسيرهم .

فلما وصلوا الى الأرض رآهم أحـد الرجال فجعلهم في حجرته وأخذهم الى داره فرماهم في الأرض أمام زوجته وقال لها : إنّ هؤلاء جاؤوا لحربنا فهل أطحنهم بقدمي ؟ فقالت له زوجته : اتركهم حتى يذهبوا ويخبروا أصحابهم عن أمرنا وعن رجالنا، وقد رأى هؤلاء النقباء أنّ عنقود العنب يحمله خمسة رجال

يضعونه على خشبة ويحملونه ، وأنّ الرمانة اذا قسمت نصفين وأخرج الحبّ من نصفها تمكن أن يجلس فيها خمسة رجال أو أربعة .

فلما رجع النقباء الى موسى وأخبروه بخبرهم قال لهم موسى : لاتخبروا أصحابكم بذلك فإنهم اذا عرفوا أمرهم امتنعوا من حربهم. فما أطاعوا أمر موسى وجعل الرجل يخبر أباه وأخاه بالأمر حتى شاع الأمر بينهم فامتنعوا عن الذهاب لحربهم خوفاً منهم وجزعاً من الموت[1] مع أنّ الله قد وعدهم وأخبرهم بأنه معهم « **وقال الله اني معكم** » .

ثم وعدهم الله بعد ماأخبرهم أنه معهم بأنهم اذا فعلوا الامور التي هي مرتبة على الايمان به وعدهم بأشياء اخر من فضله ورحمته فقال تعالى : « لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لا كفّرنّ عنكم سيّئاتكم ولادخلنّكم جنّات تجري من تحتها الأنهار » .

إنّ الانسان الكامل الذي يفهم الكلام ويعرف الله حقّ معرفته بأنه على كل شيء قدير وأنّ الامور كلها بيده ينبغي له أن يكتفي بقوله تعالى: « إني معكم » فإنه اذا قال لأحد إني معكم لاينبغي للانسان حينئذٍ أن يخشى من دخول النار وخوض البحار والوقوف تحت السيوف ، فهذه الكلمة تكفي للفوز والنجاح في الدنيا والآخرة .

لكنّ الله قد أوضح الأمر للانسان الناقص فقال لهم توضيحاً لما يجب عليهم وإيضاحاً لما يوجبه لهم من الثواب : « **لئن أقمتم الصلاة** » هذا هو الشرط الأول من شروط الايمان وهو إقامة الصلاة بحدودها وشروطها ومقدماتها من الطهارة وغير ذلك كما هو مذكور في محله .

ثم قال : « **وآتيتم الزكاة** » وهذا هو الشرط الثاني من شروط الايمان وهو ايتاء الزكاة ، وأنّ للزكاة شروطاً مذكورة في محلها .

---

(١) تفسير الطبرى : ج٦ ص٩٦ – ٩٧ نقلا بالمعنى .

ثم قال : «**وآمنتم برسلي**» وهذا هو الشرط الثالث من شروط الايمان إذ أنّ الايمان بالله وحده لايكفي بل يلزم إطاعة الله في الايمان برسله المبعوثين من عنده ، فلو أنّ الانسان يعبد الله مدة عمره ليلاً ونهاراً ولكنه غير مؤمن بالنبي ولم يأخذ أحكام دينه من نبيّ زمانـه لايقبل منه ذلك ، وأنّ الايمان بالله يلزم الايمان برسله وإلا فهو ناقص .

ثم قال تعالى : «**وعزرتموهم**» هذا هو الشرط الرابع من شروط الايمان فاذا لم يتحقق هذا الشرط من الذي يؤمن بالنبي ـ أي اذا لم ينصره ولم يساعده على تنفيذ أحكامه ـ فهو غير مؤمن به ، ولافرق بينه وبين غير المؤمن.

إنّ المؤمن بالنبي ﷺ ينبغي له أن ينصره في كل مايأمر به ومايأتي به من قبل الله بحيث يفعل كل مايأمر به النبي ويحثّ الناس على فعله ويعلّم الجاهل به ويخوف العاصي وينبّه الغافل ، هذا هو المؤمن الحقيقي .

أما الذي يفعل خلاف حكم النبي ﷺ ـ أي يفعل الحرام الذي نوه عنه النبي ويترك الواجب ـ فهذا هو في الحقيقة عدوّ النبي وليس من المؤمنين به لأنه مشاق له ومعاند له .

فاذا أبلغ النبي ﷺ امّته عن الله بحرمة الخمر وحرمة الربا وحرمة الميسر وحرمة السفور وحرمة الزنا وحرمة قتل النفس وحرمة الاعتداء على الغير وحرمة أخذ أموال الناس بغير رضاهم ثم يفعل الانسان جميع هذه الامور أو بعضها وهو يدعي أنه مؤمن بالنبي فهل يصدق في هذه الدعوى ؟ كلاّ ثم كلاّ ، إن أفعاله تدلّ على عدم إيمانه .

واذا أبلغ النبي ﷺ امّته عن الله بوجوب الصلاة ووجوب الزكاة ووجوب الحجّ ووجوب إطاعة الوالدين وصلة الأرحام ثم إنّ المدعي للايمان بالنبي يترك هذه الامور كلها أو بعضها فهل يصدق عليه أنـه مؤمن بالنبي ؟ وعلى تقدير أن يصدقـه الناس فهل هو يصدق نفسه ؟ واذا خـدع نفسه وصدقها فهل يصدقـه الله

والرسول؟ حيث إنّ الثمرة والنتيجة إنما تترتب على تصديقهما فقط ولو أنّ العالم بأجمعه صدقه وقالوا له جميعاً أنت مؤمن ولكنّ الله والرسول يعرفانه بعدم الايمان فلاينفعه ذلك .

ثم قال تعالى : **«وأقرضتم الله قرضاً حسناً»** هذا هو الشرط الخامس من شروط الايمان ، أي أنّ المؤمن بالله وبرسله ينبغي له أن يحبّ المؤمنين وأن يحبّ لهم ما يحبّ لنفسه وأن يكره لهم مايكره لها ، فكما يحبّ لنفسه التوسعة عليها في الرزق ويكره لها الفقر ينبغي له أن يحبّ لأخيه المؤمن التوسعة أيضاً ، فاذا رأى أخاه المؤمن محتاجاً الى المال وأمكنه أن يساعده فلايقصر في ذلك وليعطه من المال مايسدّ به حاجته .

إنّ الله قد عظم هذا العطاء وفخمه ورغب عباده فيه حيث عبّر عنه بهذا التعبير الذي لم يعبّر به شيء من امور البرّ والعبادات والطاعات ، فعبّر عن هذا العطاء وإن كان قليلاً بأنه قرض لله تعالى فقال: « وأقرضتم الله » ولم يكتف بجمله قرضاً له بل قال : « قرضاً حسناً » فما أعظمها من كلمة ، فمن يعط درهماً الى فقير من المسلمين كان كمن أقرض الله درهماً ، ويقول الله بعد أن يقرضه العبد هذا الدرهم : هذا القرض حسن ، فهل يزهد أحد في حيازة هذا الخير العظيم لنفسه ؟ وهل يبخل أحد على نفسه أن يوصلها الى هذا المحلّ العظيم ؟ إنّ الذي يمنع هذا الخير العظيم عن نفسه ويمنعها عن الوصول إليه بإنفاق درهم أو دينار يحقّ له أن يسمى بخيلاً « ومن يوق شحّ نفسه فاولئك هم المفلحون »[1] .

وبعد هذه الصفات الخمس التي ذكرها الله تعالى وعرفت معناها يقول تعالى: إنّ من اتصف بها وأكرم نفسه بالوصول إليها فإنّ الله سيجعل له هدية سنيّة على هذا النجاح وهي قوله : **« لاكفرن عنكم سيئاتكم ولادخلنكم جنات تجرى من تحتها الانهار »** .

---

(١) الحشر : ٩ .

هذه الهدية عبارة عن تكفير السيئات ، أي أنّ السيئات التي عملها الانسان قبل اتصافه بهذه الأوصاف يمحوها الله من صحيفة أعماله فكأنه لم يعمل منها شيء وكأنه في هذا اليوم ولدته امّه ليس عليه ذنب .

والشطر الثاني من الهدية هو قوله تعالى : « ولادخلنّكم جنّات تجري من تحتها الأنهار » .

ماأعظمها من هدية ، إنّ الله يأمر ملائكته أن يدخلوا عبده ـ المتصف بهذه الأوصاف الخمسة ـ الجنة ، والجنة عبارة عن حديقة أوسع من الدنيا فيها من جميع الأشجار التي في الدنيا وجميع الفواكه التي رآها وسمع بها في الدنيا وفيها من الفواكه التي لم يرها ولم يسمع بها ولم يعرف عنها شيئاً ، وهذه الجنة فيها من النسيم الرقيق الذي ينعش الأبدان ويحيي القلوب ، نسيم لم ير مثله في سائر أقطار الأرض يأتيك حاملاً لك من الروائح الطيبة التي تملأ الانوف فتصل الى الدماغ فتنعشه ، وهذه الجنة تجري من تحتها الأنهار يسمع الساكن في الجنة خرير الماء النغم فيلتذّ بسماعه .

إنّ الآيات والأخبار الواردة في وصف الجنة كثيراً جداً نذكر بعضها هنا ليرغب القارىء فيتصف بما يوصله إليها .

أما الآيات فقوله تعالى :« إلّا عباد الله المخلصين * اولئك لهم رزق معلوم * فواكه وهم مكرمون * في جنّات النعيم * على سرر متقابلين * يطاف عليهم بكأس من معين * بيضاء لذّة للشاربين * لافيها غول ولاهم عنها ينزفون * وعندهم قاصرات الطرف عين * كأنّهنّ بيض مكنون »[1] .

وقال تعالى : « الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين * ادخلوا الجنّة أنتم وأزواجكم تحبرون * يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ماتشتهيه

---

(١) الصافات : ٤٠ ـ ٤٥ .

الأنفس وتلذّ الأعين وأنتم فيها خالدون »(١).

أما الوارد من الأخبار فمنها ماعن عبدالله بن علي أنه لقي بلالاً مؤذن رسول الله بمصر فسأله فيما سأله عن وصف بناء الجنة قال : اكتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنّ سور الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة ولبنة من ياقوت وملاطها المسك الأذفر وشرفها الياقوت الأحمر والأخضر والأصفر. قلت : فما أبوابها ؟ قال : أبوابها مختلفة ، باب الرحمة من ياقوتة حمراء . قلت : فما حلقته ؟ قال : ويحك كفّ عني فقد كلّفتني شططاً . قلت : ماأنا بكافّ عنك حتى تؤدّي إليّ ماسمعت من رسول الله ﷺ .

قال: اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، أما باب الصبر فباب صغير له مصراع واحد من ياقوتة حمراء لاحلق لـه ، وأما بـاب الشكر فإنه من ياقوتة بيضاء لهـا مصراعان مسير مابينها خمسمائة عام له ضجيج وحنين يقول : اللهمّ جئني بأهلي قلت : هل يتكلم الباب ؟ قال: نعم، ينطقه ذو الجلال والاكرام ، وأماباب البلاء قلت : أليس باب البلاء هو باب الصبر ؟ قال : لا . قلت : فما البلاء ؟ قال:المصائب والأسقام والأمراض والجذام وهو باب من ياقوتة صفراء مصراع واحد ماأقل من يدخل منه . قلت: رحمك الله زدني وتفضل عليّ فإني فقير. قال: ياغلام لقد كلّفتني شططاً .

أما الباب الأعظم فيدخل منه العباد الصالحون وهـم أهل الزهد والورع والراغبون الى الله عزّوجلّ المستأنسون به . قلت : رحمك الله فاذا دخلوا الجنة ماذا يصنعون ؟ قال : يسيرون على نهرين في مصاف في سفن الياقوت ، مجاذيفها اللؤلؤ ، فيها ملائكة من نور ، عليهم ثياب خضر شديدة خضرتها . قلت:رحمك الله هل يكون من النور أخضر؟ قال : إنّ الثياب هي خضر ولكن فيها نور من ربّ العالمين جلّ جلاله يسيرون على حافتي ذلك النهر . قلت : فما اسم ذلك النهر ؟

(١) الزخرف : ٦٩ ـ ٧١ .

قال : جنة المأوى . قلت : هل وسطها غير هذا ؟ قال : نعم جنة عدن وهي في وسط الجنان ، فأمّا جنة عدن فسورها ياقوت أحمر وحصباؤها اللؤلؤ . قلت : فهل فيها غيرها ؟ قال : نعم جنة الفردوس . قلت : وكيف سورها ؟ قال: سورها نور، فقلت: والغرف التي فيها ؟ قال : هي من نور ربّ العالمين . قلت : زدني رحمك الله. قال : ويحك الى هذا انتهى بنا رسول الله صلى الله عليه وآله(١).

وفي الحديث القدسي المروي عن أمير المؤمنين عليه السلام : يـاأيـّها الناس كيف رغبتم ورضيتم في الدنيا ، فإنها فانية ونعيمها زائل وحياتها منقطعة ، فإنّ عندي للمطيعين الجنان بأبوابها الثمانيـة في كل جنة سبعون ألف روضة من الزعفران وفي كل روضة سبعون ألف مدينة من اللؤلؤ والمرجان ، وفي كل مدينة سبعون ألف قصر من الياقوت ، وفي كل قصر سبعون ألف دار من الزبرجد ، وفي كل دار سبعون ألف بيت من الذهب ، وفي كل بيت سبعون ألف دكان من الفضة، وفي كل دكان سبعون ألف مائدة، وعلى كل مائدة سبعون ألف صفحة من الجوهر، وفي كل صفحة من الجوهر سبعون ألف لون من الطعام ، وعلى حول كل دكان سبعون ألف سرير من الذهب الأحمر ، وعلى كل سرير سبعون ألف فراش من الحرير والديباج والاستبرق ، وحول كل سرير سبعون ألف نهر من ماء الحيوان واللبن والخمر والعسل المصفى ، وفي كل نهر سبعون ألف لون من الثمار ، وكذلك في كل بيت سبعون ألف خيمة من الأرغوان ، وفي كل خيمة سبعون ألف فراش ، وعلى كل فراش سبعون ألف حوراء من الحور العين بين يديها سبعون ألف وصيفة كأنهنّ بيض مكنون ، وعلى رأس كل قصر من تلك القصور سبعون ألف قبة من الكافور، وفي كل قبة سبعون ألف هدية من الرحمن التي لاعين رأت ولااذن سمعت ولاخطر على قلب بشر ، وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون ، وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون ، جزاء بما كانوا يعملون ، ولايموتون ولايبكون ولايحزنون ولا

(١) بحار الانوار : ج٨ ص١١٦ ب٢٣ ح١ نقله عن الامالي .

يهرمون ولا يتعبدون ولا يصومون ولا يصلّون ولا يمرضون ولا يبولون ولا يتغوطون... لا يمسّهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين ، فمن طلب رضائي ودار كرامتي وجواري فليطلبها بالصدقة بالدنيا والقناعة بالقليل، شهدت نفسي لنفسي أن لا إله إلا أنا ، وعيسى وعزير عبدان من عبادي ورسولان من رسلي[1].

ذكرت المقارىء بعض أوصاف الجنة ليرغب بنفسه لنفسه بالجنة وليشفق بنفسه على نفسه من النار .

واعلم أيّها المسلم أنّ النبي ﷺ أخذ ميثاق المؤمنين يوم بايعوه على أن يعبدوا الله ولا يشركوا بـه شيئاً عبادة خالصة له ، وأخذ ميثاقهم على أن ينصروه كما ينصرون أنفسهم وأولادهم ، فإذا فعلوا ذلك أخذ لهم ميثاقاً من الله على أن يظهرهم على عدوهم مهما كان لعدوهم من القوة والشوكة والعدد .

ولا يخفى على المسلمين أنّ هذا العهد والميثاق من الله لهم ـ أي التعهد لهم بأن يظهرهم على عدوهم ـ هو أعظم من قوله لبني اسرائيل: « إني معكم » لأنّ قوله : « إني معكم » ليس فيه تعهد على إظهارهم على عدوهم وإنما الحرب يكون على طبيعته وتكون الغلبة لمن يكون أكثر عدة وعدداً ، ولكنه بالنسبة للمسلمين يكون تعهداً لهم بالنصر مهما كان العدو من القوة ومهما كان المسلمون من القلّة والضعف ولكن بشرط أن يكونـوا مسلمين وافين لله بالعبودية ولرسوله بالسمع والنصرة ، فإذا أنقضوا هذيـن الشرطين فليس لهم على الله عهد لأنهم خرجوا عن الاسلام .

أمـا بقية الأعمال التي قال الله لبني اسرائيل اذا فعلوهـا وأدوها ليكفّرن سيئاتهم فهـي بالنسبة الى المسلمين كذلك ، فإنّ الله قد أمر المسلمين في آيـات

---

(١) هذا هو الحديث المعروف بـ « الحديث القدسي » وقد رواه عدد من محدثينا الكبار رحمهم الله . وقد نقلناه من كتاب « كلمة الله » للشهيد السيد حسن الشيرازي: ص٤٧٣.

عديدة بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإقراض الله قرضاً حسناً ، وقد قال الله سبحانه « وأوفوا بعهدي اوف بعهدكم وإيّاي فارهبون »[1].

أيّها القارىء الكريم إنّ الله يقول : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرنّ الله من ينصره إنّ الله لقويّ عزيز »[2] .

إنّ هذه الآية الشريفة تعلّمنا بأنّ كل فرد مسلم له قوة وسيطرة ونفوذ اذا كان مطيعاً لله ورسوله وكان موفياً للميثاق الذي أخذه النبي ﷺ على المسلمين فعليه ـ أي على المسلم القوي صاحب النفوذ ـ أن يمنع المفسدين عن فسادهم وأن يردعهم عن كل أمر نهى الله عنه في كتابه الذي أنزله على رسوله فإنّ الله أعطاه القوة ليدفع الفساد الذي يريده المفسدون ولم يطعه الله ليتمتع بها في لذاته . فيلزم على ذوي القوة بحسب هذه الآية أن يمنعوا جميع المحرمات الواردة في القرآن كقوله تعالى : « إنّما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه »[3] وقوله تعالى : « أحلّ الله البيع وحرم الربا »[4] وأن يردع القوي الظالمين عن ظلمهم وأن يأخذ للضعيف حقه من القوي فإنّ المفسدين وأهل اللهو والمنافقين وأهل القلوب المريضة وضعيفي الايمان اذا تركوا وماهم عليه فسدت الأرض وتغلّب علينا أعداؤنا كما نحن فيه الآن ، ولذا لم ينعم الله علينا كما أنعم على المسلمين في القرون السابقة بقوله : « اذكروا نعمة الله عليكم إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكفّ أيديهم عنكم »[5].

ثم إنّ قوله تعالى : « وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً » حيث عرفت معناه فقد

---

(١) البقرة : ٤٠ .
(٢) الحج : ٤٠ .
(٣) المائدة : ٩٠ .
(٤) البقرة : ٢٧٥ .
(٥) المائدة : ١١ .

وقع مثله في هذه الامّة ، فإنّ الله أمر نبيه محمداً ﷺ في أول بيعة الأنصار له بأن يجعل من الأنصار إثني عشر نقيباً يأخذون له البيعة من عشائرهم ، وسنذكر للقارىء أسماءهم ، وعيّن النبي ﷺ أيضاً اثني عشر خليفة من بعده يعلّمون الناس معالم دينهم، أما النقباء الذين عيّنهم لأخذ البيعة فقد أنجزوا مهمتهم وأخذا البيعة من عشائرهم، وأما الخلفاء الذين عيّنهم لبيان أحكام الدين فلم يرجع إليهم أحد إلا القليل من الناس .

هذا في أول الأمر، ولكن لما رأى الناس كثرة علومهم ومعاجزهم و كراماتهم علموا أنهم المعنيّون للنبي ﷺ فرجعوا إليهم زرافات وأفراداً حتى تجاوزوا المائة مليون فتعلّموا منهم أنواعاً من العلوم وألفوا فيها الكتب الكثيرة ونفعوا بها غيرهم ممن لا يعرف قدرهم ولا يقدر مقامهم .

أما كيفية اتخاذ النقباء فقد ذكر العلاّمة المجلسي نقلاً عن المناقب : أنه كان النبي ﷺ يعرض نفسه على قبائل العرب في الموسم فلقي رهطاً من الخزرج فقال: ألا تجلسون فاحدثكم؟ قالوا: بلى. فجلسوا إليه فدعاهم الى الله وتلا عليهم القرآن فقال بعضهم لبعض : ياقوم تعلمون والله إنه النبيّ كان يوعدكم به اليهود فلا يسبقنكم إليه أحد ، فأجابوه وقالوا له : إنا قد تركنا قومنا ولاقوم بينهم من العداوة والشر مثل مابينهم وعسى أن يجمع الله بينهم بك فنقدم عليهم وندعوهم الى أمرك، وكانوا ستة نفر.

قال : فلما قدموا المدينة فأخبروا قومهم بالخبر، فما دار حول إلا وفيها حديث رسول الله، حتى اذا كان العام المقبل أتى الموسم من الأنصار اثناعشر رجلاً فلقوا النبي ﷺ فبايعوه على بيعة النساء أن لا يشركوا بالله شيئاً، ولا يسرقوا... الى آخره .

ثم انصرفوا وبعث معهم مصعب بن عمير يصلّي بهم وكان بينهم بالمدينة يسمى المقرىء فلم يبق دار في المدينة إلا وفيها رجال ونساء مسلمون إلا دار امية

وحطيمة ووائل وهم من الأوس .

ثم عاد مصعب الى مكة وخرج من الأنصار الى الموسم مع حجاج قومه فاجتمعوا في الشعب عند العقبة ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان في أيام التشريق في الليل ، وقال: ابايعكم على الاسلام؟ فقال له بعضهم : نريد أن تعرفنا يارسول الله مالله علينا ومالك علينا ومالنا على الله؟ فقال: أمّا مالله عليكم فأن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأما مالي عليكم فتنصروني مثل نسائكم وأبنائكم وأن تصبروا على عضّ السيف وإن يقتل خياركم . قالوا : فاذا فعلنا ذلك مالنا على الله ؟ قال : أما في الدنيا فالظهور على من عاداكم وفي الآخرة رضوان الله والجنة . فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: والذي بعثك بالحق لنمنعك بما نمنع به أزرنا فبايعنا يارسول الله فنحن والله أهل الحروب وأهل الحلقة ورثناها كباراً عن كبار .

فقال أبو الهيثم : إنّ بيننا وبين الرجال حبالاً ، وإنا إن قطعناها أوقطعوها فهل عسيت إن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا؟ فابتسم رسول الله صلى الله عليه وآله ثم قال: بل الدم الدم والهدم الهدم احارب من حاربتم واسالم من سالمتم. ثم قال: أخرجوا اليّ منكم اثني عشر نقيباً فاختاروا ، ثم قال: ابايعكم كبيعة عيسى ابن مريم للحواريين كفلاء على قومهم بما فيهم ، وعلى أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم . فبايعوه على ذلك[1].

ونقل البخاري في صحيحه عن أبي إدريس عائذ الله أنّ عبادة بن الصامت من الذين شهدوا بدراً مع رسول الله ومن أصحابه ليلة العقبة أخبر أنّ رسول الله قال وحوله عصابة من أصحابه : تعالوا بايعوني على أن لاتشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولاتزنوا ولاتقتلوا أولادكم ولاتأتون ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولاتعصوني في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فأمره الى

(١) بحار الانوار : ج١٩ ص٢٥ ب٥ ح١٥ .

الله إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه . قال: فبايعته على ذلك[1].

ونقل العلاّمة المجلسي عن إعلام الورى وتفسير القمي في قوله تعالى: «وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين »[2] بـأنها نزلت بمكة قبل الهجرة وكان سبب نزولها أنه لما أظهر رسول الله ﷺ الدعوة بمكة قدمت عليه الأوس والخزرج فقال لهم رسول الله ﷺ: تمنعوني وتكونون لي جاراً حتى أتلو عليكم كتاب ربي وثوابكم على الله الجنّة؟ فقالوا : نعم خذ لربك ولنفسك ماشئت، فقال لهم : موعدكم العقبة في الليلة الوسطى من ليالي التشريق . فحجوا ورجعوا الى منى وكان فيهم ممن حجّ بشر كثير .

فلما كان اليوم الثاني من أيام التشريق قال لهم رسول الله ﷺ : اذا كان الليل احضروا دار عبدالمطلب على العقبة ولاتنهبوا نائماً وليتسل واحد فواحد. فجاء سبعون رجلاً من الأوس والخزرج فدخلوا الدار فقال لهم رسول الله ﷺ: تمنعوني وتجيروني حتى أتلو عليكم كتاب ربي وثوابكم على الله الجنة ؟

فقال أسعد بن زرارة والبراء بن معرور وعبدالله بن حزام : نعم يارسول الله اشترط لربك ولنفسك ماشئت ، فقال : أمّا ماأشترط لربي فأن تعبدوه ولاتشركوا بـه شيئاً ، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون أنفسكم وتمنعون أهلي مما تمنعون أهاليكم وأولادكم ، فقالوا : فمالنا على ذلك ؟ فقال : الجنه في الآخرة وتملكون العرب وتدين لكم العجم في الدنيا وتكونون ملوكاً في الجنة، فقالوا: قد رضينا .

فقال ﷺ : أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً يكونـوا شهداء عليكم بذلك كما أخـذ موسى من بني إسرائيل اثني عشر نقيباً ، فأشار إليهم جبرائيل

(١) صحيح البخاري : ج٦ ص١٨٧ .
(٢) الانفال : ٣٠ .

فقال : هذا نقيب وهذا نقيب تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، فمن الخزرج أسعد بن زرارة والبراء بن معرور وعبدالله بن حزام[1] أبو جابر بن عبدالله[2] ورافع بن مالك وسعد بن عبادة والمنذر بن عمر وعبدالله بن رواحة وسعد بن الربيع وعبادة بن الصامت ، ومن الأوس أبو الهيثم بن التيهان وهو من اليمن واسيد بن خضير وسعد بن خيثمة .

فلما اجتمعوا وبايعوا لرسول الله ﷺ صاح إبليس: يامعشر قريش والعرب هذا محمد والصباة من أهل يثرب على جمرة العقبة يبايعونه على حربكم ، فأسمع أهل منى وهاجت قريش فأقبلوا بالسلاح: وسمع رسول الله ﷺ النداء فقال للأنصار: تفرقوا، فقالوا: يارسول الله: إن أمرتنا أن نميل عليهم بأسيافنا فعلنا، فقال رسول الله ﷺ : لم اؤمر بذلك ولم يأذن الله اي في محاربتهم، قالوا. فتخرج معنا ؟ قال : أنتظر أمر الله .

فجاءت قريش على بكرة أبيها قد أخذوا السلاح ، وخرج حمزة وأمير المؤمنين عليهما السلام ومعهما السيف فوقفا على العقبة ، فلما نظرت قريش إليهما قالوا: ماهذا الذي اجتمعتم له ؟ فقال حمزة : مااجتمعنا وماهاهنا أحد ، والله لايجوز هذه العقبة أحد إلا رويت سيفي هذا من دمه .

فرجعوا الى مكة وقالوا : لانؤمن أن يفسد أمرنا ويدخل واحد من مشايخ قريش في دين محمد ، فاجتمعوا في دار الندوة وكان لايدخل دار الندوة إلا من أتى عليه أربعون سنة .

فدخل أربعون رجلاً من مشايخ قريش . وجاء إبليس في صورة شيخ كبير فقال له البواب : من أنت ، قال : أنا شيخ من أهل نجد ، لايعدمكم مني رأي صائب ، إني حيث بلغني اجتماعكم في أمر هذا الرجل فجئت لاشير عليكم، فقال:

---

(١) وفي بعض التفاسير «حرام» .

(٢) هكذا في البحار .

ادخل ، فدخل إبليس .

فلما أخذوا مجاسهم قال أبو جهل : يامعشر قريش إنه لم يكن أحد من العرب أعزّ منا ، نحن أهل الله تفد إلينا العرب في السنة مرتين ويكرموننا ، ونحن في حرم الله لايطمع فينا طامع، فلم نزل كذلك حتى نشأ فينا محمد بن عبدالله فكنا نسميه الأمين لصلاحه وسكونه وصدق لهجته، حتى اذا بلغ مابلغ وأكرمناه ادعى أنه رسول الله وأنّ أخبار السماء تأتيه ، فسفه أحلامنا وسبّ آلهتنا وأفسد شبّاننا وفرق جماعتنا وزعم أنه من مات من أسلافنا ففي النار، فلم يرد علينا شيء أعظم من هذا ، وقد رأيت فيه رأياً ، قالوا : ومارأيت ؟ قال : رأيت أن ندسّ إليه رجلاً منا ليقتله ، فإن طلبت بنو هاشم بدمه أعطيناهم عشر ديات ، فقال الخبيث: هذا رأي خبيث ، قالوا : وكيف ذاك ؟ قال : لأنّ قاتل محمد مقتول لامحالة ، فمن هذا الذي يبذل نفسه للقتل منكم ؟ فإنه اذا قتل محمداً تعصبت بنو هاشم وحلفاؤهم من خزاعة ، وأنّ بني هاشم لاترضى أن يمشي قاتل محمد على وجه الأرض فيقع بينكم الحرب في حرمكم وتتفانوا .

فقال آخر منهم : فعندي رأي آخر ، قال : وماهو ؟ قال : نلقيه في بيت ونلقي إليه قوته حتى يأتيه ريب المنون فيموت كما مات زهير والنابغة وامرؤ القيس، فقال إبليس: هذا أخبث من الأول، قال: وكيف ذاك؟ قال: لأنّ بني هاشم لاترضى بذلك فاذاجاء موسم من مواسم العرب استغاثوا واجتمعوا عليكم وأخرجوه.

قال آخر منهم : لا ولكنا نخرجه من بلادنا ونتفرغ نحن لعبادة آلهتنا، قال إبليس : هذا أخبث من الرأيين المتقدمين ، قالوا : وكيف ؟ قال : لأنكم تعمدون الى أصبح الناس وجهاً وأنطق الناس لساناً وأفصحهم لهجة فتحملوه الى بوادي العرب فيخدعهم ويسحرهم بلسانه فلايفجأكم إلا وقد ملأها عليكم خيلاً ورجلاً .

فبقوا حائرين ثم قالوا لابليس : فما الرأي فيه ياشيخ ؟ قال : مافيه إلا

رأي واحد ، قالوا : وماهو ؟ قال : يجتمع من كل بطن من بطون قريش وقبائل العرب ماأمكن ويكون معهم من بني هاشم رجل فيأخذون سكينة أو حديدةأو سيفاً فيدخلون عليه فيضربونه كلهم ضربة واحدة حتى يتفرق دمه في قريش كلها فلايستطيع بنو هاشم أن يطلبوا بدمه وقد شاركوهم فيه ، فإن سألوكم أن تعطوهم الدية فاعطوهم ثلاث ديات ، فقالوا : نعم وعشر ديات ، ثم قالوا : الرأي رأي الشيخ النجدي، فاجتمعوا فيه ودخل معهم في ذلك أبو لهب عم النبي ﷺ ونزل جبرائيل على رسول الله ﷺ وأخبره أن قريشاً قد اجتمعت في دارالندوة يدبرون عليك ، وأنزل عليه في ذلك : « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » .

واجتمعت قريش أن يدخلوا عليه ليلاً فيقتلوه وخرجوا الى المسجد يصفرون ويصفقون ولايطوفون بالبيت فأنزل الله : «وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية»[1] فالمكاء التصفير، والتصدية صفق اليدين. وهذه الآية معطوفة على قوله: « وإذ يمكر بك الذين كفروا » وقد كتبت بعد آيات كثيرة .

فلما أمسى رسول الله ﷺ جاءت قريش ليدخلوا عليه فقال أبو لهب: إن تدخلوا عليه بالليل فإن في الدار صبياناً ونساء ولا نأمن أن تقع بيد خاطئة فنحرسه الليلة ، فاذا أصبحنا دخلنا عليه . فناموا حول حجرة الرسول ، وأمر رسول الله ﷺ أن يفرش له ، ففرش له ، فقال لعلي بن أبي طالب : أفدني بنفسك.قال: نعم يارسول الله، قال: نم على فراشي والتحف ببردتي. فنام على فراش رسول الله ﷺ والتحف ببردته ، وجاء جبرائيل فأخذ بيد رسول الله ﷺ فأخرجه على قريش وهم نيام وهو يقرأ عليهم : « وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لايبصرون »[2] .

وقال له جبرائيل عليه السلام : خذ على طريق ثور ، وهو جبل على طريق منى

---

(١) الانفال : ٣٥ .

(٢) يس : ٩ .

له سنام كسنام الثور ، فدخل الغار ، وكان من أمره ما كان ، فلما أصبحت قريش وثبوا الى الحجرة وقصدوا الفراش، فوثب علي عليه السلام في وجوههم فقال : ماشأنكم؟ قالوا له : أين محمد ؟ قال : أجعلتموني عليه رقيباً ؟ ألستم قلتم نخرجه من بلادنا؟ فقد خرج عنكم .

فأقبلوا على أبي لهب يضربونه ويقولون أنت تخدعنا منذ الليلة ، فتفرقوا في الجبال وكان فيهم رجل من خزاعة يقال له أبو كرز يقفو الآثار فقالوا : ياأبا كرز اليوم اليوم ، فوقف بهم على باب حجرة رسول الله فقال: هذه قدم محمد، والله لأنها لاحت القدم التي في المقام ، وكان أبو بكر استقبل رسول الله فرده معه،فقال أبو كرز : وهذه قدم أبي قحافة أو ابنه. ثم قال : وهاهنا عبر ابن أبي قحافة. فما زال بهم حتى أوقفهم على باب الغار ثم قال: ماجاوزوا هذا المكان، إما أن يكونوا صعدوا الى السماء أو دخلوا تحت الأرض .

وبعث الله العنكبوت فنسجت على باب الغار. وجاء فارس من الملائكة حتى وقف على باب الغار ثم قال : مافي الغار أحد . فتفرقوا في الشعاب وصرفهم الله عن رسول الله صلى الله عليه وآله ثم أذن لنبيه في الهجرة[1] .

أيها المسلم الغيور إني قد ذكرت لك بيعة الرجال للرسول الأعظم صلى الله عليه وآله فإنه اشترط عليهم أولاً أن يعبدوا الله ولايشركوا به شيئاً ، ومعنى عبادة الله أن يكون المسلم في كل فعل وقول متابعاً لأمر الله، فاذا اتبع الشيطان في بعض الامور فهو غير عابد لله سواء كان هذا الأمر فعلاً أو قولاً أو معاملةً أو حكماً على أحد المسلمين ، أما اذا كان هذا المدعي للاسلام مطيعاً للكافر في كل مايأمر به ولوأمره بقتل المسلمين فهذا لايسمى مسلماً ، ولاينبغي لـه أن يطلب من الله ماجعله الله للمسلمين وتعهد لهم به وهو النصر على الأعداء ، فإنّ النبي صلى الله عليه وآله لماسأله الأنصار فقالوا : اذا أسلمنا مالنا على الله؟ قال لهم: تملكون العرب وتدين لكم العجم في

(١) بحار الانوار : ج١٩ ص٤٧ ب٦ ح٨ .

الدنيا[١] . هذا إن استقاموا على إسلامهم والله تعالى يخاطبهم بقوله : « ولاتهنوا ولاتحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين »[٢] أرأيتم كيف اشترط عليكم الله أن يجعلكم الأعلون إن كنتم مؤمنين .

إنّ النبي ﷺ لما بايعه الأنصار ونادى إبليس ذلك النداء المشؤوم وجاءت قريش حاملة سلاحها قالت الأنصار: يارسول الله تأمرنا أن نميل عليهم بأسيافنا؟ فقال : لا . لم يأذن الله لي بـذلك . قالت الأنصار : يا رسول الله نخـرجك معنا حتى لايصلك منهم أذى ، قال : أنتظر أمر ربي . فهذا رسول الله ﷺ لايبارح المكان الذي هو فيه تخلصاً من كيد الأعداء إلا بإذن من الله[٣] وأنتم أيها المسلمون تخالفون الله في هذه الامـور العظام ـ الخمر والميسر والربـا والسفور وغيرها ـ فكيف ينصركم الله ؟ وإنما تعهـّد بالنصر للمؤمنين .

أيهـا المسلمون أما يكفينا مـاتحملناه من الذلّ والهوان من أذلّ الامـم وأهونها على الله وعلى الناس ؟ أما آن لنا أن نرجع الى الله حتى تخضع لنا الصهاينة كما تعهـّد لنا النبي بذلك .

أيها المسلمون أمـا يكفيكم أن يلعب بآرائكم شبيه الشيخ النجدي الذي لعب بعقول شيوخ قريش حين اجتمعوا إليه ، أبرموا أمراً يقضون فيه على النبي فكات عاقبة أمرهم الفشل والذلّ والهوان .

ماقاله ابن كثير :

قال في تفسيره بعدما ذكر الآية الشريفة: لماأمر تعالى عباده المؤمنين بالوفاء بعهده وميثاقه الذي أخذه عليهم على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ وأمرهم بالقيام بالحقّ والشهادة بالعدل وذكّرهم نعمه عليهم الظاهرة والباطنة فيما هداهم له من

(١) بحار الانوار : ج١٩ ص١٢ ب٥ قطعة من حديث٥ .
(٢) آل عمران : ١٣٩ .
(٣) بحار الانوار : ج١٩ ص١٣ ب٥ قطعة من حديث٥ .

الحق والهدى شرع يبين لهم كيف أخذ العهود والمواثيق على من كان قبلهم من أهل الكتابين اليهود والنصارى ، فلما نقضوا عهوده ومواثيقه أعقبهم ذلك لعناً منه لهم وطرداً عن بابه وجنابه وحجاباً لقلوبهم عن الوصول الى الهدى ودين الحق وهو العلم النافع والعمل الصالح فقال تعالى : «ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً» يعني عرفاء على قبائلهم بالمبايعة والسمع والطاعة لله ولرسوله ولكتابه.

وقد ذكر ابن عباس عن ابن اسحاق وغير واحد أن هذا كان لما توجه موسى عليه السلام لقتال الجبابرة فأمر بأن يقيم نقباء من كل سبط نقيب . قال محمد بن اسحاق : فكان من سبط روبيل شامون بن ركون ، ومن سبط شمعون شافاط بن حرى ، ومن سبط يهوذا كالب بن يوفنا ، ومن سبط اتين ميخائيل بن يوسف ، ومن سبط يوسف ـ وهو سبط بنيامين ـ فلطم بن دفون، ومن سبط زبولون جدى ابن شورى، ومن سبط منشا بن يوسف جدى بن موسى، ومن سبط دان خملائيل ابن حمل ، ومن سبط اشار ساطور بن ملكيل ، ومن سبط نفثالي بحر بن وقسي ، ومن سبط يساخر لايل بن مكيد .

وقد رأيت في السفر الرابع من التوراة تعداد النقباء على أسباط بني إسرائيل وأسماء مخالفة لما ذكره ابن اسحاق والله أعلم .

قال فيها: فعلى بني روبيل اليصور بن سادون ، وعلى ابن شمعون رشوال ابن صورشكي، وعلى ابن يهوذا الحشون بن عمياذاب ، وعلى بني يساخر شال بن صاعون ، وعلى بني زبولون الياب بن حالوب، وعلى بني افرايم منشا بن عمنهور ، وعلى ابن منشا حمائيل بن يرصون ، وعلى بني بنيامين ابيدن بن جدعون، وعلى بني دان جعيذر بن عميشذي ، وعلى بني عشار نحايل بن عجران ، وعلى بني كان السيف بن دعوايل ، وعلى بني نفثالي أجزع بن عميان

وهكذا لما بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار ليلة العقبة كان فيهم اثنا عشر نقيباً ثلاثة من الأوس وهم : اسيد بن الحضير وسعد بن خيثمة ورفاعة بن عبد المنذر (ويقال بدله أبو الهيثم ابن التيهان) رضي الله عنهم ، وتسعة من الخزرج وهم :

أبو أمامة أسعد بن زرارة وسعد بن الربيع وعبدالله بن رواحة ورافع بن مالك ابن العجلان والبراء بن معرور وعبادة بن الصامت وسعد بن عبادة وعبدالله بن عمرو بن حرام [حزام] والمنذر بن عمر بن حنيش رضي الله عنهم .

وقد ذكرهم كعب بن مالك في شعر له كما أورده ابن اسحاق رحمه الله ، والمقصود أن هؤلاء كانوا عرفاء على قومهم ليلتئذ عن أمر النبي ﷺ لهم بذلك وهم الذي ولوا المعاقدة والمبايعة عن قومهم للنبي ﷺ على السمع والطاعة[١] .

وأما بيان الخلفاء الاثني عشر ـ الذين نوه عنهم النبي ﷺ بأنهم يقومون في مقامه في الرئاسة الدينية وتعليم الناس معالم دينهم بحيث يكون الرجوع إليهم في جميع الامور الدنيوية والاخروية وتكون العلوم التي كانت عند الأنبياء مجموعة لديهم كلها ـ فقد ذكرت فيها الروايات الكثيرة عن النبي ﷺ وقد ذكرنا قسماً منها في الجزء الأول من هذا الكتاب[٢] ونذكر في هذا الجزء قسماً آخر من الأخبار تبصرة لمن يريد التبصر .

في ينابيع المودة عن أبي الطفيل عامر بن واثلة قال : جاء يهودي من يهود المدينة الى علي كرم الله وجهه قال : إني أسألك عن ثلاث وثلاث وعن واحدة فقال علي: لم لاتقول أسألك عن سبع؟ قال: أسألك عن ثلاث فإن أصبت فيهن سألتك عن الثلاث الاخر ، فإن أصبت فيهن سألتك عن الواحدة، فقال علي : ماتدري اذا سألتني فأجبتك أخطأت أم أصبت ؟ فأخرج اليهودي من كمه كتاباً عتيقاً قال : هذا ورثته عن آبائي وأجدادي عن هارون جدي إملاء موسى بن عمران وخط هارون بن عمران عليهما السلام وفيه هذه المسألة التي أسألك عنها ، قال علي: إن أجبتك بالصواب فيهن لتسلم ؟ فقال : والله أسلم الساعة على يديك إن أجبتني بالصواب فيهن ، قال له : سل .

---

(١) تفسير ابن كثير : ج٢ ص٥٢٤ ـ ٥٢٥ .

(٢) راجع ص٢٠١ من الجزء الاول .

قال : أخبرني عن أول حجر وضع على وجه الأرض ، وعن أول شجرة نبتت على وجه الأرض ، وعن أول عين نبعت على وجه الأرض .

قال : أمّا اول حجر وضع على وجه الأرض فإنّ اليهود يزعمون أنها صخرة بيت المقدس، وكذبوا ولكن هو الحجر الأسود، نزل به آدم عليه السلام من الجنة فوضعه في ركن البيت والناس يتمسحون به ويقبّلونه ويجددون العهد والميثاق به لأنه كان ملكاً ابتلع كتاب العهد والميثاق ، وكان مع آدم في الجنة ، فلما خرج آدم خرج هو فصار حجراً .

قال اليهودي : صدقت .

قال علي : وأما أول شجرة نبتت على الأرض فإنّ اليهود يزعمون أنها الزيتونة ، وكذبوا ولكنها نخلة من العجوة نزل بها آدم عليه السلام من الجنة ، فأصل كل النخل العجوة .

قال اليهودي : صدقت .

قال علي كرم الله وجهه : وأما أول عين نبعت على وجه الأرض فإنّ اليهود يزعمون أنها العين التي كانت تحت صخرة بيت المقدس، وكذبوا ولكنها عين الحياة التي نسي عندها صاحب موسى السمكة المالحة، فلما أصابها ماء العين حييت وعاشت وشربت منه فأتبعها موسى وصاحبه الخضر عليه السلام .

قال اليهودي : صدقت .

قال علي : سل عن الثلاث الاخر .

قال: أخبرني كم لهذه الامّة بعد نبيها من إمام؟ وأخبرني عن منزل محمد أين هو في الجنة ؟ وأخبرني من يسكن معه في منزله ؟

قال علي : لهذه الامّة بعد نبيها اثنا عشر إماماً لا يضرهم خلاف من خالفهم.

قال اليهودي : صدقت .

قال علي : ينزل محمد صلى الله عليه وآله في جنة عدن وهي وسط الجنان وأعلاها وأقربها

من عرش الرحمن جلّ جلاله .

قال اليهودي : صدقت .

قال علي: والذي يسكن معه في الجنة هؤلاء الأئمة الاثنا عشر أولهم أنا وآخرهم القائم المهدي .

قال : صدقت .

قال علي : سل عن الواحدة .

قال: أخبرني كم تعيش بعد نبيك وهل تموت أو تقتل ؟

قال: أعيش بعده ثلاثين سنة وتخضب هذه ـ أشار الى لحيته ـ من هذا ـ أشار الى رأسه الشريف ـ .

فقال اليهودي : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمداً رسول الله وأشهد أنك وصيّ رسول الله ﷺ(١) .

وفي ينابيع المودة أيضاً في تحقيق حديث «بعدي اثنا عشر خليفة» قال:

وفي جمع الفوائد جابر بن سمرة رفعه: لايزال هذا الدين قائماً حتى يكون عليكم اثنا عشر خليفة كلهم تجتمع عليه الأمّة، فسمعت كلاماً من النبي ﷺ لم أفهمه فقلت لأبي : مايقول ؟ قال : كلهم من قريش. للشيخين والترمذي وأبي داود بلفظه .

ذكر يحيى بن الحسن في كتاب العمدة من عشرين طريقاً في أنّ الخلفاء بعد النبي ﷺ اثنا عشر خليفة كلهم من قريش ، في البخاري من ثلاثة طرق ، وفي مسلم من تسعة طرق ، وفي أبي داود من ثلاثة طرق ، وفي الترمذي من طريق واحد ، وفي الحميدي من ثلاثة طرق .

وفي البخاري عن جابر رفعه : يكون بعدي اثنا عشر أميراً ، فقال كلمة لم لم أسمعها فسألت أبي ماذا قال ؟ قال: كلهم من قريش .

(١) ينابيع المودة : ج٣ ص١٠٢ ـ ١٠٣ نقله عن المناقب .

وفي مسلم عن عامر بن سعيد قال: كتبت الى ابن سمرة: أخبرني بشيء سمعته من النبي ﷺ ، فكتب إليّ : سمعت رسول الله ﷺ يوم الجمعة عشية رجم الأسلمي يقول : لايزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة ويكون عليهم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش .

وفي المودة العاشرة من كتاب مودة القربى للسيد علي الهمداني قدس الله سره وأفاض علينا بركاته وفتوحه عن عبدالملك بن عمير عن جابر بن سمرة قال : كنت مع أبي عند النبي ﷺ فسمعته يقول : بعدي اثنا عشر خليفة . ثم أخفى صوته ، فقلت لأبي : ما الذي أخفى صوته ؟ قال : قال : كلّهم من بني هاشم . وعن سماك بن حرب مثل ذلك .

وعن الشعبي عن مسروق قال : بينا نحن عند ابن مسعود نعرض عليه مصاحفنا عليه إذ قال: هل عهد اليكم نبيكم كم يكون من بعده خليفة؟ قال: إنك لحديث السن، وإنّ هذا شيء ماسألني عنه أحد قبلك، نعم عهد إلينا نبينا ﷺ أنه يكون بعده اثنا عشر خليفة بعدد نقباء بني إسرائيل .

وعن علي كرم الله وجهه قال : قال رسول الله ﷺ : لاتذهب الدنيا حتى يقوم بامّتي رجل من ولد الحسين يملأ الأرض عدلاً كما ملئت ظلماً .

وعن عباية بن ربعي عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: أنا سيدالنبيين وعلي سيد الوصيين ، وإنّ أوصيائي بعدي اثنا عشر أولهم علي وآخرهم القائم المهدي.

وعن سليم بن قيس الهلالي عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال : دخلت على النبي ﷺ فاذا الحسين على فخذيه وهو يقبّل خديه ويلثم فاه ويقول: أنت سيد ابن سيد أخو سيد ، وأنت إمام ابن إمام أخو إمام ، وأنت حجة ابن حجة أخو حجة أبو حجج تسعة ، تاسعهم قائمهم المهدي . أيضاً أخرجه الحمويني وموفق بن أحمد الخوارزمي.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : أنا

وعلي والحسن والحسين وتسعة من ولد الحسين مطهرون معصومون. أيضاً أخرجه الحمويني.

وعن علي كرم الله وجهه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من أحب أن يركب سفينة النجاة ويستمسك بالعروة الوثقى ويعتصم بحبل الله المتين فليوال علياً وليعاد عدوه وليأتم بالأئمة الهداة من ولده فإنهم خلفائي وأوصيائي وحجج الله على خلقه من بعدي وسادات امّتي وقواد الأتقياء الى الجنة حزبهم حزبي وحزبي حزب الله وحزب أعدائهم حزب الشيطان.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ الله فتح هذا الدين بعلي واذا قتل فسد الدين ولا يصلحه إلا المهدي.

وعن علي كرم الله وجهه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الأئمة من ولدي، فمن أطاعهم فقد أطاع الله ومن عصاهم فقد عصا الله، هم العروة الوثقى والوسيلة الى الله جلّ وعلا. انتهى كتاب مودة القربى.

قال بعض المحققين: إنّ الأحاديث الدالّة على كون الخلفاء بعده صلى الله عليه وآله اثنا عشر قد اشتهرت من طرق كثيرة، فبشرح الزمان وتعريف الكون والمكان علم أنّ مراد رسول الله صلى الله عليه وآله من حديثه هذا الأئمة الاثنا عشر من أهل بيته وعترته إذ لا يمكن أن يحمل هذا الحديث على الخلفاء بعده من أصحابه لقلّتهم عن اثني عشر، ولا يمكن أن تحمله على الملوك الاموية لزيادتهم على اثني عشر ولظلمهم الفاحش إلا عمر بن عبدالعزيز، ولكونهم غير بني هاشم لأنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: «كلّهم من بني هاشم» في رواية عبدالملك عن جابر وإخفاء صوته في هذا القول يرجح هذه الرواية لأنهم لا يحسنون خلافة بني هاشم، ولا يمكن أن تحمله على الملوك العباسية لزيادتهم على العدد المذكور ولقلّة رعايتهم «قل لاأسألكم عليه أجراً إلّا المودة في القربى»[1] وحديث الكساء، فلابدّ من أن يحمل هذا الحديث

(١) الشورى: ٢٣.

على الأئمة الاثني عشر من أهل بيته وعترته ﷺ لأنهم كانوا أعلم أهل زمانه وأجلّهم وأورعهم وأتقاهم وأعلاهم نسباً وأفضلهم حسباً وأكرمهم عند الله، وكان علومهم عن آبائهم متصلاً بجدهم ﷺ وبالوراثة واللدنية، كذا عرفهم أهل العلم والتحقيق وأهل الكشف والتوفيق.

ويؤيد هذا المعنى ـ أي أنّ مراد النبي الأئمة الاثنا عشر من أهل بيته ـ ويشهده ويرجحه حديث الثقلين والأحاديث المتكررة المذكورة في هذا الكتاب وغيرها. أما قوله ﷺ: «كلّهم يجتمع عليه الامّة» في رواية عن جابر بن سمرة فمراده ﷺ أنّ الامّة تجتمع على الاقرار بإمامة كلهم وقت ظهور قائمهم المهدي رضي الله عنهم[1] انتهى ماأوردناه من ينابيع المودة.

وقد ذكر ابن كثير في تفسيره الخلفاء الاثني عشر بعد ذكر النقباء الاثني عشر الذين عيّنهم النبي ﷺ بإشارة من جبرئيل كما تقدم، وإليك كلام ابن كثير بنصه:

قال الامام أحمد: حدثنا حسن بن موسى حدثنا حماد بن زيد عن مجالد عن الشعبي عن مسروق قال: كنا جلوساً عند عبدالله بن مسعود وهو يقرئنا القرآن فقال له رجل: ياأبا عبدالرحمن هل سألتم رسول الله كم يملك هذه الامّة من خليفة؟ فقال عبدالله: ماسألني عنها أحد منذ قدمت العراق قبلك، نعم ولقد سألنا رسول الله ﷺ فقال: اثنا عشر كعدة نقباء بني اسرائيل.

هذا حديث طريف من هذا الوجه، وأصل هذا الحديث ثابت في الصحيحين من حديث جابر بن سمرة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: لايزال أمر الناس ماضياً ماوليهم اثنا عشر رجلاً. ثم تكلم النبي ﷺ بكلمة خفيت عليّ فسألت أبي: ماذا قال النبي ﷺ؟ قال: كلهم من قريش. وهذا لفظ مسلم: ومعنى الحديث

---

(١) ينابيع المودة: ج٣ ص١٠٤ ـ ١٠٦.

البشارة بوجود اثني عشر خليفة صالحاً يقيم الحق ويعدل فيهم[1] انتهى كلام ابن كثير.

وهذه الأخبار وأقوال المؤرخين والمفسرين كلها تنطبق على ماتقول به الفرقة الامامية الاثنا عشرية ، وإلا فليس في الفرق التي حدثت بعد النبي ﷺ فرقة تقول بوجوب اثني عشر خليفة غيرها ، وهؤلاء الخلفاء أولهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ثم الحسن ثم الحسين ثم تسعة من ذرية الحسين عليه السلام آخرهم الحجة المهدي عجل الله فرجه ، وسأذكر لك كلام ابن حجر في كتابه الصواعق المحرقة بالنسبة الى هؤلاء الأئمة الاثني عشر والثناء عليهم ، وذكر فضائلهم التي ليست لأحد غيرهم . ولكن من الأفضل ذكر كلام ابن كثير قبل ذلك حتى تنظر فيه هل أنه يقبله الذوق السليم ؟ ولكن ابن كثير يريد أن يفسر الأحاديث على مايشتهي ويوافق رأيه

الائمة الاثنا عشر في رأي ابن كثير :

قال في تفسيره ـ بعدما ذكر حديث النبي ﷺ الذي يقول بوجوب اثني عشر خليفة كلهم من قريش ـ : ولايلزم من هذا تواليهم وتتابع أيامهم بل قد وجد منهم أربعة على نسق وهم الخلفاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ، ومنهم عمر بن عبدالعزيز بلاشك عند الأئمة وبعض بني العباس (ما أدري متى وجد هذا البعض ؟) .

ولاتقوم الساعة حتى تكون ولايتهم لامحالة . والظاهر أنّ منهم المهدي المبشر به في الأحاديث الواردة بذكره، فذكر أنه يواطىء اسمه اسم النبي ﷺ واسم أبيه اسم أبيه فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً .

ثم يقول ابن كثير : وليس هذا بالمنتظر الذي تتوهمه الرافضة وجوده ثم ظهوره من سرداب سامراء ، فإنّ ذلك ليس له حقيقة ولاوجود بالكلية بل هو

---

(١) تفسير ابن كثير : ج٢ ص٥٢٥ .

من هوس العقول السخيفة وتوهم الخيالات الضعيفة، وليس المراد بهؤلاء الخلفاء الاثني عشر الذين يعتقد فيهم الاثنا عشر من الروافض لجهلهم وقلّة عقلهم .

وفي التوراة البشارة بإسماعيل عليه السلام وأنّ الله يقيم من صلبه اثني عشر عظيماً وهم هؤلاء الخلفاء الاثنا عشر المذكورون في حديث ابن مسعود وجابر بن سمرة، وبعض الجهلة ممن أسلم من اليهود اذا اقترن بهم بعض الشيعة يوهمونهم أنهم الأئمة الاثنا عشر، فيتشيع كثير منهم جهلاً وسفهاً لقلّة علمهم وعلم من لقنهم ذلك بالسنن الثابتة عن النبي صلى الله عليه وآله[1] انتهى .

أرجو من أهل المعرفة والانصاف أن يتأملوا في الحديث النبوي هل أنه ينطبق على غير فرقة الشيعة الامامية؟ فكيف يتمكن ابن كثير أو غيره أن يصرفه عنهم؟!

ماقاله ابن حجر فى الائمة الاثنى عشر :

إنّ هؤلاء الأئمة الاثني عشر الذين ذكرت للقارىء أسماءهم قبل ذلك قد ذكرهم ابن حجر في كتاب الصواعق ومدحهم ، وإني أذكر لك عبارته بالحرف الواحد ، فإنه ـ بعدما ذكر الآيات والأحاديث الواردة في عموم أهل البيت عليهم السلام ـ ذكرهم واحداً بعد واحد بأسمائهم ، فذكر أولاً فاطمة الزهراء وأمير المؤمنين والحسن والحسين ، ثم قال :

وزين العابدين : هذا الذي خلف أباه علماً وزهداً وعبادة ، وكان اذا توضأ للصلاة اصفرّ لونه، فقيل له في ذلك فقال: ألا تدرون بين يدي من أقف. وحكي أنه كان يصلّي في اليوم والليلة ألف ركعة .

وحكى ابن حمدون عن الزهري أنّ عبدالملك حمله مقيداً من المدينة بأثقلة من حديد ووكّل به حفظة ، فدخل عليه الزهري لوداعه فبكى وقال : وددت أني مكانك، فقال: أتظن أنّ ذلك يكربني لو شئت لما كان وإنه ليذكرني عذاب الله ،

---

(١) تفسير ابن كثير : ج٢ ص٥٢٥ ـ ٥٢٦ .

ثم أخرج رجليه من القيد ويديه من الغلّ ثم قال : لاجزت معهم على هذا يومين من المدينة ، فما مضى يومان إلا وفقدوه حين طلع الفجر وهم يرصدونه فطلبوه فلم يجدوه .

قال الزهري : فقدمت على عبدالملك فسألني عنه فأخبرته فقال : قد جاء في فقده الأعوان فدخل عليّ فقال: ماأنا وأنت ؟ فقلت : أقم عندي ، فقال: لاأحب ثم خرج ، فوالله لقد أمتلأ قلبي منه خيفة ...

ثم كتب عبدالملك للحجاج أن يجتنب دماء بني عبدالمطلب وأمره بكتم ذلك فكوشف به زين العابدين فكتب إليه : إنك كتبت للحجاج يوم كذا سراً في حقنا بني عبدالمطلب بكذا وكذا وقد شكر الله لك ذلك وأرسل به إليه. فلما وقف عليه وجد تاريخه موافقاً لتاريخ كتابه للحجاج ووجد مخرج الغلام موافقاً لمخرج رسوله للحجاج ، فعلم أنّ زين العابدين كوشف بأمره فسرّ به ، وأرسل إليه مع غلامه بوقر راحلته دراهم وكسوة وسأله أن لايخليه مع صالح دعائه .

وأخرج أبو نعيم والسلقي: لما حجّ هشام بن عبدالملك في حياة أبيه أوالوليد لم يمكنه أن يصل للحجر من الازدحام فنصب له منبر الى جانب زمزم وجلس ينظر الى الناس وحوله جماعة من أعيان أهل الشام ، فبينما هو كذلك إذ أقبل زين العابدين ، فلما انتهى الى الحجر تنحى لـه الناس حتى استلم ، فقال أهل الشام لهشام : من هذا ؟ قال : لاأعرفـه، مخافة أن يرغب أهل الشام في زين العابدين، فقال الفرزدق : أنا أعرفه ، ثم أنشد :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحلّ والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هـذا التقيّ النقيّ الطاهر العلم
اذا رأته قريش قال قائلها ... الى مكارم هـذا ينتهي الكرم
ينمى الى ذروة العزّ التي قصرت ... عن نيلها عرب الاسلام والعجم

القصيدة المشهورة ، ومنها :

هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله بجده أنبياء الله قد ختموا
فليس قولك من هذا بضائره والعرب تعرف من أنكرت والعجم

ثم قال :

من معشر حبهم دين وبغضهم كفر وقربهم منجى ومعتصم
لا يستطيع جواد بعد غايتهم ولا يدانيهم قوم وإن كرموا

فلما سمع هشام غضب وحبس الفرزدق بعسفان وأمر له زين العابدين باثني عشر ألف درهم وقال: اعذر لو كان عندنا أكثر لوصلناك به، فقال : إنما امتدحته لله لا للعطاء، فقال زين العابدين رضي الله عنه: إنا أهل بيت اذا وهبنا شيئاً لا نستعيده، فقبلها الفرزدق ، ثم هجا هشاماً في الحبس فبعث فأخرجه .

وكان زين العابدين عظيم التجاوز والعفو والصفح حتى أنه سبه رجل فتغافل عنه، فقال: إياك أعني، فقال: وعنك أعرض، أشار الى آية «خذ العفو وائمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين »[1] وكان يقول : ما يسرني بنصيبي من الذل حمر النعم .

توفي وعمره سبع وخمسون سنة منها سنتان مع جده علي ، ثم عشرة مع عمه الحسن ، ثم إحدى عشرة مع أبيه الحسين ، وقيل سمه الوليد بن عبد الملك ، ودفن بالبقيع عند عمه الحسن عن أحد عشر ذكر وأربع اناث .

وإرثه منهم (أي الذي ورثه من أولاده) عبادة وعلماً وزهادة : أبو جعفر محمد الباقر ، سمي بذلك من بقر الأرض أي شقها وآثار مخبآتها ومكامنها، فلذلك هو أظهر من مخبآت كنوز المعارف وحقائق الأحكام والحكم واللطائف ما لا يخفى إلا على منطمس البصيرة أو فاسد الطوية والسريرة .

ومن ثم قيل فيه : هو باقر العلم وجامعه وشاهر علمه ورافعه . صفا قلبه وزكا علمه وعمله ، وطهرت نفسه وشرف خلقه ، وعمرت أوقاته بطاعة الله، وله من الرسوم في مقامات العارفين ما تكل عنه ألسنة الواصفين، وله كلمات كثيرة في

(١) الاعراف: ١٩٩ .

السلوك والمعارف لاتحتملها هذه العجالة .

وكفاه شرفاً أنّ ابن المديني روى عن جابر أنه قال له وهو صغير: رسول الله يسلّم عليك ، فقيل له : وكيف ذاك ؟ قال : كنت جالساً عنده والحسين في حجره وهو يداعبه فقال: ياجابر يولد له مولود اسمه علي ، اذا كان يوم القيامة نادى مناد ليقم سيدالعابدين، فيقوم ولده، ثم يولد له ولد اسمه محمد ، فإن أدركته ياجابر فأقرئه عني السلام .

توفي سنة مائة وسبعة عشر عن ثمان وخمسين سنة مسموماً كأبيه ، وهو علوي من جهة أبيه وامّه ، ودفن أيضاً في قبة الحسن والعباس بالبقيع ، وخلّف ستة أولاد أفضلهم وأكملهم :

جعفر الصادق ، ومن ثم كان خليفته ووصيه ، ونقل للناس عنه من العلوم ماسارت به الركبان وانتشر صيته في جميع البلدان ، وروى عنه الأئمة الأكابر كيحيى بن سعيد وابن جريح ومالك والسفيانين وأبي حنيفة وشعبة وأيوب السختياني وامّه امّ فروة بنت القاسم بن محمّد بن أبي بكر كما مرّ .

وسعى به عند المنصور لما حجّ، فلما حضر الساعي به يشهد قال له: أتحلف؟ قال : نعم ، فحلف بالله العظيم الى آخره ، فقال : احلّفه ياأمير المؤمنين بماأراه ، فقال له : حلّفه . فقال لـه : قل برئت من حول الله وقوته والتجأت الى حولي وقوتي لقد فعل جعفر كذا وكذا وقال كذا وكذا ، فامتنع الرجل ثم حلف فما تمّ حتى مات مكانه . فقال أمير المؤمنين لجعفر : لابأس عليك أنت المبرء الساحة المأمون الغائلة، ثم انصرف، فلحقه الربيع بجائزة حسنة وكسوة سنية، وللحكاية تتمة .

ووقع نظير هذه الحكاية ليحيى بن عبدالله المحض ابن الحسن المثنى ابن الحسن السبط بأنّ شخصاً زبيرياً سعى به للرشيد فطلب تحليفه فتلعثم فزبره الرشيد ، فتولّى يحيى تحليفه بذلك ، فما أتمّ يمينه حتى اضطرب وسقط لجنبه

فأخذوا برجله فهلك. فسأل الرشيد يحيى عن سرّ ذلك فقال: تمجيد الله في اليمين يمنع المعاجلة في العقوبة.

وذكر المسعودي أنّ هذه القصة كانت مع أخي يحيى هذا الملقب بموسى الجون، وأنّ الزبيري سعى به للرشيد فطال الكلام بينهما ثم طلب موسى تحليفه فحلّفه بنحو مامرّ، فلما حلف قال موسى: الله أكبر، حدثني أبي عن جدي عن أبيه عن جده على أنّ النبي ﷺ قال: ماحلف أحد بهذه اليمين (وهي تقلّدت الحول والقوة دون حول الله وقوته الى حولي وقوتي مافعلت كذا) وهو كاذب إلاّ عجّل الله له العقوبة قبل ثلاث. والله ما كذبت ولا كذبت فوكّل عليّ ياأمير المؤمنين، فإن مضت ثلاث ولم يحدث بالزبيري حادث فدمي لك حلال. فوكّل به فلم يمض عصر ذلك اليوم حتى أصاب الزبيري جذام فتورم حتى صار كالزق، فما مضى إلا قليل وقد توفي، ولما انزل في قبره انخسف قبره وخرجت رائحة مفرطة النتن، فطرحت فيه أحمال الشوك فانخسف ثانياً. فأخبر الرشيد بذلك فزاد تعجبه، ثم أمر لموسى بألف دينار وسأله عن سرّ تلك اليمين فروى له حديثاً عن جده علي عن النبي ﷺ: مامن أحد يحلف بيمين مجّد الله فيها إلا استحيا من عقوبته، ومامن أحد حلف بيمين كاذبة نازع الله فيها حوله وقوته إلا عجّل الله له العقوبة قبل ثلاث.

وقتل بعض الطغاة مولاه (أي مولى الامام الصادق) فلم يزل ليله يصلّي ثم دعا عليه عند السحر فسمعت الأصوات بموته.

ولما بلغه قول الحكم بن عباس الكلبي في عمه زيد:

صلبنا لكم زيداً على جذع نخلة ولم نر مهدياً على الجذع يصلب

قال اللهمّ سلّط عليه كلباً من كلابك، فافترسه الأسد.

ومن مكاشفاته: أن ابن عمه عبدالله المحض كان شيخ بني هاشم، وهو والد محمد الملقب بالنفس الزكية، ففي آخر دولة بني امية وضعفهم أراد بنو هاشم مبايعة محمد وأخيه وأرسل لجعفر ليبايعهما فامتنع فاتّهم أنه يحسدهما فقال: والله ليست

لي ولا اهما ، إنها لصاحب القباء الأصفر ، ليلعبنّ بها صبيانهم وغلمانهم . وكان المنصور العباسي يومئذٍ حاضراً وعليه قباء أصفر ، فما زالت كلمة جعفر تعمل فيه حتى ملكوا . وسبق جعفراً الى ذلك والده الباقر ، فإنه أخبر المنصور بملك الأرض شرقها وغربها وطول مدته فقال : وملكنا قبل ملككم ؟ قال : نعم ، قال: ويملك أحد من ولدي ؟ قال: نعم قال : فمدة بني امية أطول أم مدتنا ؟ قال : مدتكم ، وليلعبنّ بهذا الملك صبيانكم كما يلعب بالاكرة[1] هذا ما عهد اليّ أبي . فلما أفضت الخلافة للمنصور بملك الأرض تعجب من قول الباقر .

وأخرج أبو القاسم الطبري من طريق ابن وهب قال: سمعت الليث بن سعد يقول : حججت سنة ثلاثة عشر ومائة فلما صلّيت العصر في المسجد رقيت أباقبيس فاذا رجل جالس يدعو فقال : يارب يارب حتى انقطع نفسه ، ثم قال : ياحيّ ياحيّ ياحيّ حتى انقطع نفسه ، ثم قال : إلهي إني اشتهي العنب فأطعمنيه،اللهمّ وإن بُرداي قد خلقا فاكسني .

قال الليث : فوالله مااستتمّ كلامه حتى نظرت الى سلّة مملوءة عنباً وليس الأرض يومئذٍ عنب واذا بردان موضوعان لم أرمثلهما في الدنيا . فأراد أن يأكل فقلت: أنا شريكك، فقال : ولم ؟ فقلت : لأنك دعوت و كنت اؤمن ، فقال: تقدم وكل ، فتقدمت وأكلت عنباً لم آكل مثله قط ماكان لـه عجم[2] فأكلنا حتى شبعنا ولم تتغير السلّة فقال : لاتدخر ولاتخبيء منه شيئاً ، ثم أخذ أحد البردين ودفع إليّ الآخر فقلت : أنا بغنىً عنه فائتزر بأحدهما وارتدي بالآخر .

ثم أخذ برديه الخلقين فنزل وهما بيده فلقيه رجل بالمسعى فقال: اكسني يا ابن رسول الله مما كساك الله فإنني عريان ، فدفعهما إليه ، فقلت : من هذا ؟ قال : جعفر الصادق ، فطلبته بعد ذلك لأسمع منه شيئاً فلم أقدر عليه ، انتهى .

---

(١) الاكرة : الحفرة .

(٢) العجم : النوى .

توفي سنة أربع وثمانين ومائة مسموماً أيضاً على ماحكي. عمره ثمان وستون سنة ، ودفن بالقبة عند أهله عن ستة ذكور وبنت ، منهم :

موسى الكاظم، وهو وارثه علماً ومعرفةً وكمالاً وفضلاً، سمي الكاظم لكثرة تجاوزه وحلمه ، وكان معروفاً عند أهل العراق بباب قضاء الحوائج عند الله،وكان أعبد أهل زمانه وأعلمهم وأسخاهم .

وسأله الرشيد : كيف قلتم إنا ذرية رسول الله ﷺ وأنتم أبناء علي؟فتلا: « ومن ذريته داود وسليمان ـ الى أن قال: ـ وعيسى »[1] وليس له أب . وأيضاً قال تعالى « فمن حاجّك فيه من بعد ماجاؤوك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ... الآية »[2] ولم يدع النبي ﷺ عند مباهلته النصارى غير علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم ، فكان الحسن والحسين هما الأبناء .

ومن بديع كراماته : ماحكاه ابن الجوزي والرامهرمزي وغيرهما عن شقيق البلخي أنه خرج حاجاً سنة تسع وأربعين ومائة ، فرآه بالقادسية منفرداً عن الناس فقال في نفسه : هذا فتى من الصوفية يريد أن يكون كلاً على الناس لأمضين إليه ولاوبخنه . فمضى إليه فقال : ياشقيق « اجتنبوا كثيراً من الظن إنّ بعض الظنّ إثم ... الآية »[3] فأراد أن يحيا لله فغاب عن عينيه ، فما رآه إلا بواقصة يصلّي وأعضاؤه تضطرب ودموعه تتحادر ، فجاء إليه ليعتذر فخفف في صلاته فقال « وإني لغفّار لمن تاب وآمن ... الآية »[4].

فلما نزلوا زبالة رآه على بئر فسقطت ركوته فيها فدعا فطغى الماء له حتى أخذها فتوضأ وصلّى أربع ركعات ، ثم مال الى كثيب رمل فطرح منه فيها

(١) الانعام : ٨٤ و٨٥ .

(٢) آل عمران : ٦١ .

(٣) الحجرات : ١٢ .

(٤) طه : ٨٢ .

وشرب فقال له: أطعمني من فضل مارزقك الله تعالى، فقال: ياشقيق لم تزل نعم الله علينا ظاهرة وباطنة فأحسن ظنك بربك فناولنيها. فشربت منها فاذا سويق وسكر ماشربت والله ألذ منه ولا أطيب ريحاً، فشبعت ورويت وأقمت أياماً لا أشتهي شراباً ولا طعاماً. ثم لم أره إلا بمكة وهو بغلمان وغاشية وامور على خلاف ما كان عليه في الطريق.

ولما حج الرشيد سعى به إليه وقيل له: إن الأموال تحمل إليه من كل جانب حتى اشترى ضيعة بثلاثين ألف دينار فقبض عليه وأنفذه لأميره بالبصرة عيسى ابن جعفر ابن المنصور، فحبسه سنة ثم كتب له الرشيد في دمه فاستعفى، وأخبر أنه لم يدع على الرشيد، وأنه إن لم يرسل بتسليمه وإلا خلى سبيله. فبلغ الرشيد كتابه فكتب للسندي بن شاهك بتسليمه، وأمره فيه بأمر فجعل له سماً في طعامه وقيل في رطب، فتوعك ومات بعد ثلاثة أيام وعمره خمس وستون سنة.

وذكر المسعودي أن الرشيد رأى علياً في النوم معه حربة وهو يقول إن لم تخل عن الكاظم وإلا نحرتك بهذه، فاستيقظ فزعاً وأرسل في الحال والي شرطته اليه بإطلاقه وثلاثين ألف درهم، وأنه يخيره بين المقام فيكرمه أو الذهاب الى المدينة ولما ذهب إليه قال له: رأيت منك عجباً، وأخبره أنه رأى النبي ﷺ وعلمه كلمات قالها فما فرغ منها إلا واطلق.

قيل: وكان موسى الهادي حبسه أولاً، ثم أطلقه لأنه رأى علياً رضي الله عنه يقول: «فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم»[1] فانتبه وعرف أنه المراد فأطلقه ليلاً. فقال له الرشيد حين رآه جالساً عند الكعبة: أنت الذي تبايعك الناس سراً؟ فقال: أنا إمام القلوب وأنت إمام الجسوم.

ولما اجتمعا أمام الوجه الشريف على صاحبه أفضل الصلاة والسلام قال الرشيد: السلام عليك يا ابن عم، سمعها من حوله فقال الكاظم: السلام عليك يا أبتي

(١) محمد: ٢٢.

فلم يتحملها ، وكانت سبباً لامساكه له وحمله معه الى بغداد وحبسه ، فلم يخرج من حبسه إلا ميتاً .

وظاهر هذه الحكايات التنافي إلا أن يحمل على تعدد الحبس ، وكانت أولاده حين وفاته سبعة وثلاثين ذكراً وانثى منهم:

علي الرضا ، وهو أنبههم ذكراً وأجلهم قدراً، ومن ثم أحلّه المأمون محلّ مهجته وأنكحه ابنته وأشركه في مملكته وفوّض إليه أمر خلافته ، فإنه كتب بيده كتاباً سنة إحدى ومائتين بأنّ علي الرضا وليّ عهده وأشهد عليه جمعاً كثيرين ، لكنه توفي قبله فأسف عليه كثيراً ، وأخبر قبل موته بأنه يأكل عنباً ورماناً مبثوثاً ويموت وأنّ المأمون يريد دفنه خلف الرشيد فلم يستطع ، فكان ذلك كله كما أخبر به .

ومن مواليه : معروف الكرخي استاذ السري السقطي لأنه أسلم على يديه وقال لرجل: ياعبدالله ارض بمايريد واستعد لمالابدّ منه ، فمات الرجل بعدثلاثة أيام. رواه الحاكم .

وروى الحاكم عن محمد بن عيسى عن أبي حبيب قال : رأيت النبي ﷺ في المنام في المنزل الذي ينزل الحجاج ببلدنا ، فسلّمت عليه فوجدت عنده طبقاً من خوص المدينة فيه تمر صيحاني فناولني منه ثماني عشرة، فأوّلت أن أعيش عدتها. فلما كان بعد عشرين يوماً قدم أبو الحسن علي الرضا من المدينة ونزل ذلك المسجد وهرع الناس بالسلام عليه ، فمضيت نحوه فاذا هو جالس في الموضع الذي رأيت النبي ﷺ جالساً فيه وبين يديه طبق من خوص المدينة فيه تمر صيحاني ، فسلّمت عليه فاستدناني وناولني قبضة من ذلك التمر فاذا عدّتها بعدد ما ناولني النبي ﷺ في النوم ، فقلت : زدني، فقال : لو زادك رسول الله ﷺ لزدناك .

ولما دخل نيسابور ــ كما في تاريخها ــ وشقّ سوقها وعليه مظلّة لايرى من ورائها

تعرض له الحافظان أبو زرعة الرازي ومحمد بن أسلم الطوسي ومعهما من طلبة العلم والحديث مالا يحصى ، فتضرعا إليه أن يريهم وجهه ويروي لهم حديثاً عن آبائه، فاستوقف البغلة وأمر غلمانه بكف المظلة وأقر عيون تلك الخلائق برؤية طلعته المباركة، فكانت له ذؤابتان مدليتان على عاتقه والناس بين صارخ وباكٍ ومتمرغ في التراب ومقبل لحافر بغلته ، فصاحت العلماء : معاشر الناس انصتوا ، فأنصتوا واستملى منه الحافظان المذكوران فقال :

حدثني أبي موسى الكاظم عن أبيه جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر عن أبيه زين العابدين عن أبيه الحسين عن أبيه علي بن أبي طالب رضي الله عنهم قال : حدثني حبيبي وقرة عيني رسول الله ﷺ قال : حدثني جبرئيل قال : سمعت رب العزة يقول : لاإله إلا الله حصني فمن قالها دخل حصني ومن دخل حصني أمن من عذابي .

ثم أرخى الستر وسار ، فعد أهل المحابر والدوى الذين كانوا يكتبون فأنافوا على عشرين ألفاً .

وفي رواية أن الحديث المروي : الايمان معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان . ولعلهما واقعتان . قال أحمد : لو قرأت هذا الاسناد على مجنون لبريء من جنته .

ونقل بعض الحفاظ أن امرأة زعمت أنها شريفة بحضرة المتوكل ، فسأل عمن يخبره بذلك فدل على علي الرضا فجاء فأجلسه معه على السرير وسأله فقال : إن الله حرم لحم أولاد الحسنين على السباع فلتلق للسباع، فعرض عليها بذلك فاعترفت بكذبها، ثم قيل للمتوكل : ألا تجرب ذلك فيه ، فأمر بثلاثة من السباع فجيء بها في صحن قصره ، ثم دعاه ، فلما دخل بابه اغلق عليه والسباع قدأصمت الأسماع من زئيرها، فلما مشى في الصحن يريد الدرج مشت إليه وقد سكنت وتمسحت به ودارت حوله وهو يمسحها بكمه ثم ربضت ، فصعد وتحدث معه ساعة .

ثم نزل ففعلت معه كفعلها الأول حتى خرج فأتبعه المتوكل بجائزة عظيمة فقيل للمتوكل : افعل كما فعل ابن عمك ، فلم يجسر عليه وقال : أتريدون قتلي ثم أمرهم أن لا يفشوا ذلك .

ونقل المسعودي أنّ صاحب هذه القصة هو لحفيد علي الرضا وهو علي العسكري، وصوّب لأنّ الرضا توفي في خلافة المأمون اتفاقاً ولم يدرك المتوكل، توفي رضي الله عنه وعمره خمس وخمسون سنة عن خمسة ذكور وبنت أجلّهم:

محمد الجواد ، لكنه لم تطل حياته . ومما اتفق أنه بعد موت أبيه بسنة واقف والصبيان يلعبون في أزقة بغداد إذ مرّ المأمون ففروا ووقف محمد وعمره تسع سنين فألقى الله محبته في قلبه فقال له : ياغلام مامنعك من الانصراف ؟ فقال له مسرعاً: ياأمير المؤمنين لم يكن بالطريق ضيق فاوسعه لك ، وليس لي جرم فأخشاك ، والظنّ بك حسن إنك لا تضرّ من لا ذنب له . فأعجبه كلامه وحسن صورته فقال له : مااسمك واسم أبيك ؟ قال : محمد بن علي الرضا، فترحم على أبيه وساق جواده وكان معه بزاة للصيد .

فلما بعُد عن العمار أرسل بازاً على دراجة فغاب عنه ثم عاد من الجوّ في منقاره سمكة صغيرة وبها بقاء الحياة فتعجب من ذلك غاية العجب ورأى الصبيان على حالهم ومحمد عندهم فدنا منه وقال له : ما في يدي؟ فقال : ياأمير المؤمنين إنّ الله تعالى خلق في بحر قدرته سمكاً صغاراً يصيدها بزاة الملوك والخلفاء فيختبر بها سلالة أهل بيت المصطفى . فقال له : أنت ابن الرضا حقاً .

وأخذه معه وأحسن إليه وبالغ في إكرامه ، فلم يزل مشفقاً به لما ظهر له بعد ذلك من فضله وعلمه وكمال عظمته وظهور برهانه مع صغر سنّه . وعزم على تزويجه بابنته امّ الفضل وصمم على ذلك ، فمنعه العباسيون من ذلك خوفاً من أنه يعهد إليه كما عهد الى أبيه .

فلما ذكر لهم أنه إنما اختاره لتمييزه على كافة أهل الفضل علماً ومعرفةً

وحلماً مع صغر سنّه فنازعوا في اتصاف محمد بذلك، ثم تواعدوا على أن يرسلوا من يختبره ، فأرسلوا إليه يحيى بن أكثم ووعده بشيء كثير إن قطع لهم محمداً ، فحضروا الى الخليفة ومعهم ابـن اكثم وخواصّ الدولة ، فأمـر المأمون بفرش حسن لمحمد فجلس عليه ، فسأله يحيى مسائل أجابه عنها بأحسن جواب وأوضحه فقال له الخليفة : أحسنت أبا جعفر فإني أردت أن تسأل يحيى ولو مسألة واحدة.

فقال له: ماذا تقول في رجل نظر الى امرأة أول النهار حراماً، ثم حلّت له عند ارتفاعه ، ثم حرمت عليه عند الظهر، ثم حلّت له عند العصر، ثم حرمت عليه المغرب ، ثم حلّت له العشاء ، ثم حرمت عليه نصف الليل ، ثم حلّت له الفجر ؟

فقال يحيى : لاأدري .

فقال محمد: هي أمة نظرها أجنبي بشهوة وهي حرام، ثم اشتراها عند ارتفاع النهار، فأعتقها الظهر، وتزوجها العصر، وظاهر منها المغرب، و كفّر العشاء،وطلّقها رجعياً نصف الليل، وراجعها الفجر.

فعند ذلك قال المأمون للعباسيين : قد عرفتم ما كنتم تنكرون . ثم زوّجه في ذلك المجلس ابنته امّ الفضل ، ثم توجه بها الى المدينة ، فأرسلت تشتكي منه لأبيها أنه تسرى عليها ، فأرسل إليها أبوها: إنا لم نزوّجك له لنحرم عليه حلالاً فلاتعودي لمثله .

ثم قدم بها بطلب من المعتصم لليلتين بقيتا من المحرم سنة عشرين ومائتين وتوفي فيها آخـر ذي القعدة ، ودفن في مقابـر قريش في ظهر جده الكاظم وعمره خمس وعشرون سنة . ويقال : إنه سمّ أيضاً عن ذكرين وبنتين ، أجلّهم :

علي العسكري، سمي بذلك لأنه لما وجّه لاشخاصه من المدينة النبوية الى سرّ من رأى وأسكنه بها وكانت تسمى العسكر فعرف بالعسكري .

وكان وارث أبيه علماً وسخاءً ومن ثم جاءه أعرابي من أعراب الكوفة وقال: إني من المتمسكين بـولاء جدك وقد ركبني دَين أثقلني حمله ولم أقصد لقضائه

سواك ، فقال : كم دَينك؟ فقال : عشرة آلاف درهم ، فقال : طب نفساً بقضائه إن شاء الله تعالى . ثم كتب له ورقة فيها ذلك المبلغ دَيناً عليه وقال له: ائتني به في المجلس العام وطالبني بها ، وأغلظ في الطلب ففعل فاستمهله ثلاثة أيام ، فبلغ ذلك المتوكل فأمر له بثلاثين ألفاً، فلما وصلته أعطاها الأعرابي فقال: ياابن رسول الله إنّ العشرة آلاف أقضي بها أربي[1] فأبى أن يستردّ منه من الثلاثين شيئاً ، فولّى الأعرابي وهو يقول : الله أعلم حيث يجعل رسالته .

ومرّ أنّ الصواب في قضية السباع الواقعة من المتوكل أنه هو الممتحن بها وأنه لم تقرّبه بل خضعت واطمأنت لما رأته .

ويوافقه ماحكاه المسعودي وغيره أنّ يحيى بن عبدالله المحض ابن الحسن المثنى ابن الحسن السبط لما هرب الى الديلم ثم أتى به الرشيد وأمر بقتله القي في بركة فيها سباع قد جوعت ، فأمسكت عن أكله ولاذت بجانبه وهابت الدنوّ منه ، فبني عليه ركن بالجصّ والحجر وهو حي .

توفي رضي الله عنه بسرّ من رأى في جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين ومائتين، ودفن بداره وعمره أربعون، وكان المتوكل أشخصه من المدينة إليها سنة ثلاث وأربعين ، فأقام بها الى أن قضى عن أربعة ذكور وانثى ، أجلّهم :

أبو محمد الحسن الخالص ، وجعل ابن خلكان هذا هو العسكري ، ولد سنة اثنتين وثلاثين ومائتين. ووقع لبهلول معه أنه رآه وهو صبي يبكي والصبيان يلعبون فظنّ أنه يتحسر على مافي أيديهم فقال : أشتري لك ماتلعب به ، فقال : ياقليل العقل ماللّعب خلقنا ، فقال له : فلماذا خلقنا ؟ قال: العلم والعبادة، فقال له : من أين لك ذلك ؟ قال: من قول الله عزّوجلّ :« أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثاًوأنكم إلينا لاترجعون »[2] .

---

(١) أربي : حاجتي .

(٢) المؤمنون : ١١٥ .

ثم سأله أن يعظه فوعظه بأبيات ، ثم خرّ الحسن مغشياً عليه ، فلما أفاق قال له : ماتزل وأنت صغير لاذنب لك ! فقال : اليك أعني يابهلول ، إني رأيت والدتي توقد النار بالحطب الكبار فلاتتقد إلاّ بالصغار، وإني أخشى أن أكون من صغار حطب نار جهنم .

ولما حبس قحط الناس بسرّ من رأى قحطاً شديداً ، فأمر الخليفة المتوكل المعتمدين بالخروج للاستسقاء ثلاثة أيام فلم يسقوا ، فخرج النصارى ومعهم راهب كلما مدّ يده الى السماء هطل ، ثم في اليوم الثاني كذلك ، فشكّ بعض الجهلة وارتدّ بعضهم، فشقّ ذلك على الخليفة فأمر بإحضار الحسن الخالص وقال: أدرك امّة جدك رسول الله قبل أن يهلكوا، فقال الحسن: يخرجون غداً وأنا ازيل الشك إن شاء الله، وكلّم الخليفة في إطلاق أصحابه من السجن فأطلقهم.

فلما خرج الناس للاستسقاء ورفع الراهب يده مع النصارى غيمت السماء، فأمر الحسن بالقبض على يده فاذا فيها عظم آدمي فأخذه من يده وقال : استسق، فرفع يده فزال الغيم وطلعت الشمس، فعجب الناس من ذلك، فقال الخليفة للحسن: ماهذا ياأبا محمد ؟ فقال : هذا عظم نبي ظفر به هذا الراهب من بعض القبور ، وما كشف عن عظم نبي تحت السماء إلا هطلت المطر. فامتحنوا ذلك العظم فكان كما قال وزالت الشبهة عن الناس ورجع الحسن الى داره وقام عزيزاً مكرماً وصلات الخليفة تصل إليه كل وقت الى أن مات بسرّ من رأى، ودفن عند أبيه وعمه وعمره ثماني وعشرون سنة. ويقال إنه سمّ أيضاً .ولم يخلف إلا ولده:

أبا القاسم محمد الحجة وعمره عند وفاة أبيه خمس سنين ، لكن آتاه الله فيها الحكمة ، ويسمى القائم المنتظر ، قيل : لأنه ستر بالمدينة وغاب فلم يعرف أين ذهب ، ومرّ في الآية الثانية عشرة قول الرافضة فيه إنه المهدي وأوردت ذلك مبسوطاً فراجعه فإنه مهم [1] انتهى ما قاله المحدّث أحمد بن حجر في صواعقه

(١) الصواعق المحرقة : ص٢٠٠ ـ ٢٠٨ .

بالنسبة الى هؤلاء الأئمة الاثني عشر الذين تعتقد الشيعة إمامتهم وأنهم من الراسخين في العلم الذين مدحهم الله في كتابه بقوله: «وما يعلم تأويله إلّا الله والراسخون في العلم»[1] وقد أعطاهم حقهم ولم يبخس منهم شيئاً، غير أنه لم يقل بإمامتهم التي يعترف بها الشيعة، وحيث أحال قضية الامام المنتظر الى الآية الثانية عشرة من الآيات الواردة فيهم عليهم السلام والتي ذكرها في الفصل الأول من الباب الحادي عشر ـ فينبغي الاطلاع عليها ليتضح مقصوده، وإليك ماقاله بنصه:

(الآية الثانية عشرة) قوله تعالى: «وإنه لعلم للساعة»[2] قال مقاتل بن سليمان ومن تبعه من المفسرين: إنّ هذه الآية نزلت في المهدي، وستأتي الأحاديث المصرحة بأنه من أهل البيت النبوي. وحينئذٍ ففي الآية دلالة على البركة في نسل فاطمة وعلي رضي الله عنهما، وأنّ الله ليخرج منهما طيباً وأن يجعل نسلهما مفاتيح الحكمة ومعادن الرحمة، وسرّ ذلك أنه صلى الله عليه وآله أعاذها وذريتها من الشيطان الرجيم، ودعا لعلي بمثل ذلك، وشرح ذلك كله يعلم بسياق الأحاديث الدالة عليه.

وأخرج النسائي بسند صحيح: أنّ نفراً من الأنصار قالوا لعلي رضي الله عنه: لو كانت عندك فاطمة، فدخل على النبي صلى الله عليه وآله يعني ليخطبها فسلّم عليه فقال له: ما حاجة ابن أبي طالب؟ قال: فذكرت فاطمة، فقال صلى الله عليه وآله: مرحباً وأهلاً. فخرج الى الرهط من الأنصار ينتظرونه فقالوا له: ما وراءك؟ قال: ما أدري غير أنه قال لي مرحباً وأهلاً. قالوا: يكفيك من رسول الله أحدهما قد أعطاك الأهل وأعطاك الرحب.

فلما كان بعد ما زوّجه قال له يا علي: إنه لابدّ للعرس من وليمة. قال سعد رضي الله عنه: عندي كبش، وجمع له رهط من الأنصار صاعاً من ذرة، فلما

---

(١) آل عمران: ٦.

(٢) الزخرف: ٦١.

كان ليلة البناء قال: يا علي لاتحدث شيئاً حتى تلقاني، فدعا ﷺ بماء فتوضأ به ثم أفرغه على علي وفاطمة رضي الله تعالى عنهما فقال: اللهمّ بارك لهما في نسلهما، وفي رواية (في شملهما) وهو بالتحريك: الجماع، وفي آخرى (شبليهما) قيل: وهو مصحّف، فإن صحّت فالشبل ولد الأسد، فيكون ذلك كشفاً واطّلاعاً منه ﷺ على أنها تلد الحسنين فأطلق عليهما شبلين وهما كذلك.

وأخرج أبو علي الحسن بن شاذان أنّ جبرئيل جاء الى النبي ﷺ فقال: إنّ الله يأمرك أن تزوج فاطمة من علي، فدعا ﷺ جماعة من أصحابه فقال: الحمد لله المحمود بنعمته ـ الخطبة المشهورة ـ ثم زوّج علياً وكان غائباً. وفي آخرها: فجمع الله شملهما وطيّب نسلهما وجعل نسلهما مفاتيح الرحمة ومعادن الحكمة وأمن الامّة.

فلمّا حضر علي تبسم ﷺ وقال له: إنّ الله أمرني أن ازوجك فاطمة على أربعمائة مثقال فضة أرضيت بذلك؟ فقال: قد رضيتها يارسول الله. ثم خرّ علي ساجداً لله شكراً. فلمّا رفع رأسه قال له ﷺ: بارك الله لكما وبارك فيكما وأعزّ جدكما وأخرج منكما الكثير الطيب. قال أنس رضي الله عنه: والله لقد أخرج الله منهما الكثير الطيب. وأخرج أكثره أبو الخير القزويني الحاكمي. والعقد له مع غيبته سائغ لأنّ من خصائصه ﷺ أن ينكح من شاء لمن شاء بلا إذن لأنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم، على أنه يحتمل أنه بحضور وكيله ويحتمل أنه إعلام له بما سيفعله. وقوله «رضيتها» يحتمل أنه إخبار عن رضاه بوقوع العقد السابق من وكيله، فهي واقعة حال محتملة.

وأخرج أبو داود السجستاني أنّ أبابكر خطبها فأعرض عنه ﷺ، ثم عمر فأعرض عنه، فأتيا علياً فنبّهاه الى خطبتها، فجاء فخطبها فقال رسول الله ﷺ: ما معك؟ فقال: فرسي وبدني [1]، قال: أما فرسك فلابدّ لك منه، وأما بدنك

---

(١) البدن ـ جمع بدون ـ: الدرع القصيرة.

فبعها وآتني بها، فباعها بأربع مائة وثمانين ثم وضعها في حجره ، فقبض منها قبضة وأمر بلالاً أن يشتري بها طيباً .

ثم أمرهم أن يجهّزوها ، فعمل لها سرير مشرط ووسادة من اُدُم حشوها ليف ، وملأ البيت كثيباً يعني رملاً، وأمر امّ أيمن أن تنطلق الى ابنته، وقال لعلي: لاتعجل حتى آتيك ، ثم أتاهم صلى الله عليه وآله فقال لامّ أيمن : هاهنا أخي ، قالت: أخوك وتزوّجه ابنتك ؟ قال : نعم .

فدخل على فاطمة ودعا بماء فأتته بقدح فيه ماء فمجّ فيه ، ثم نضح على رأسها وبين ثدييها وقال : اللهمّ إني اعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم. ثم قال لعلي : آتني بماء، فعلمت مايريد فملأت القعب فأتيته به فنضح منه على رأسي وبين كتفي وقال: اللهمّ إني اعيذه بك وذريته من الشيطان الرجيم. ثم قال: ادخل بأهلك على اسم الله تعالى وبركته . وأخرج أحمد وأبو حاتم نحوه .

وقد ظهرت بركة دعائه صلى الله عليه وآله في نسلهما فكان من مضى ومن يأتي، ولو لم يكن في الآتين إلا الامام المهدي لكفى ، وسيأتي في الفصل الثاني جملة مستكثرة من الأحاديث المبشرة به .

ومن ذلك ماأخرجه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة والبيهقي وآخرون: المهدي من عترتي من ولد فاطمة .

أخرج أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجة: لو لم يبق من الدهر إلا يوم لبعث الله فيه رجلاً من عترتي ـ وفي رواية: رجلاً من أهل بيتي ـ يملأها عدلاً كما ملئت جوراً .

وفي رواية لمن عدا الأخير : لاتذهب الدنيا ولاتنقضي حتى يملك رجل من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي .

وفي اخرى لأبي داود والترمذي: لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطول الله ذلك حتى يبعث الله فيه رجلاً من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي واسم أبيه

اسم أبي يملأ الارض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً .

وأحمد وغيره : المهدي منّا أهل البيت يصلحه الله في ليلة .

والطبراني : المهدي منا يختم الدين بنا كما فتح بنا .

والحاكم في صحيحه: يحلّ بامّتي في آخر الزمان بلاء شديد من سلاطينهم لم يسمع بلاء أشدّ منه حتّى لايجد الرجل ملجأ ، فيبعث الله رجلاً من عترتي أهل بيتي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً ، يحبه ساكن الأرض وساكن السماء. وترسل السماء قطرها وتخرج الأرض نباتها ، لاتمسك فيها شيئاً يعيش فيهم سبع سنين أو ثمانياً أو تسعاً ، يتمنى الأحياء الأموات مما صنع الله بأهل الأرض من خير .

وروى الطبراني والبزاز نحوه وفيه : يمكث فيكم سبعاً أو ثمانياً فإن أكثر فتسعاً..

وفي رواية لأبي داود والحاكم : يملك فيكم سبع سنين .

وفي اخرى للترمذي : إن في امّتي المهدي يخرج يعيش خمساً أو سبعاً أو تسعاً فيجيء إليه الرجل فيقول : يا مهدي أعطني أعطني ، فيحثي له في ثوبه ما استطاع أن يحمله..

وفي رواية : فيلبث في ذلك ستاً أو سبعاً أو ثمانياً أو تسع سنين .

وسيأتي أنّ الذي اتفقت عليه الأحاديث سبع سنين من غير شك[1] .

الى هنا نقتصر على ماذكر في كتاب الصواعق، وقد ذكر بعد هذا أحاديث كثيرة كلها تثبت أنّ المهدي المنتظر هو من ذرية النبي ﷺ من نسل علي وفاطمة عليهما السلام وهو آخر الأئمة الاثني عشر عليهم السلام الذين يقولون بإمامتهم الشيعة. فلامجال للانكار على الشيعة حيث طبّقوا قول النبي ﷺ : يكون بعدي إثنا عشر خليفة كلهم من قريش، أو : من بني هاشم ، على هؤلاء الأئمة المنزّهين عن كل

---

(١) الصواعق المحرقة : ص١٦٢ ــ ١٦٤ .

عيب المتّصفين بكل صفة جميلة وهم قد أحاطوا بعلوم الأنبياء من آدم حتى خاتم الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، وقد تواترت بذلك الأخبار عن النبي ﷺ، وأنّ المسلم يلزمه معرفة هؤلاء الأئمة والاعتراف بإمامتهم وأخذ أحكام دينه منهم، ولا يكفيه أن يأخذ أحكام دينه من نفسه ولا ممن يساويه وإنما يلزم أن يأخذ أحكامه ممن يتصل بالنبي واحداً عن واحد، وهؤلاء الذين يرجع إليهم يلزم أن يكونوا معصومين من الخطأ والزلل وسائر المعاصي حتى تحصل الثقة بهم من سائر طبقات الناس.

نبذة من خطبة الغدير :

ذكر العلاّمة المحدّث الفتّال النيسابوري في كتابه روضة الواعظين خطبة النبي ﷺ والتي خطبها في يوم غدير خم، فمن جملتها قال :

معاشر الناس إنّ الله قد أمرني ونهاني، وقد أمرت علياً ونهيته، وعليه الأمر والنهي من ربّه عزّ وجلّ، فاسمعوا لأمره وانتهوا لنهيه وصيروا الى مراده ولا تتفرق بكم السبل عن سبيله، أنا صراط الله المستقيم الذي آمركم باتباعه، ثم علي من بعدي، ثم ولدي من صلبه أئمة يهدون بالحق وبه يعدلون.

ثم قرأ ﷺ الحمد لله ... الى آخرها وقال : فيّ نزلت وفيهم نزلت، ولهم عمّت وإيّاهم خصّت وعمّت، اولئك أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ألا إنّ حزب الله هم الغالبون، ألا إنّ أعداءهم أهل الشقاق العادون وإخوان الشياطين الذين يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً.

ألا إنّ أولياءهم الذين ذكرهم الله في كتابه المؤمنون فقال : «لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ... الى آخر الآية»[1] ألا إنّ أولياءهم الذين وصفهم الله جلّ وعزّ ولم يلبسوا إيمانهم بظلم اولئك لهم

---

(١) المجادلة : ٢٢ .

الأمن وهم مهتدون ، ألا إنّ أولياءهم الذين آمنوا ولم يرتابوا إنّ أولياءهم الذين يدخلون الجنة آمنين وتتلاقهم الملائكة بالتسليم إن طبتم فادخلوها خالدين، ألا إنّ أولياءهم الذين قال الله عزّ وجلّ: « يدخلون الجنّة [يرزقون فيها] بغير بغير حساب »[1]، ألا إنّ أعداءهم يصلون سعيراً، ألا إنّ أعداءهم الذين يسمعون لجهنم شهيقاً وهي تفور ولها زفير « كلما دخلت امّة لعنت اختها...الآية»[2]، ألا إنّ أعداءهم الذين قال الله عزّ وجلّ : « كلما القي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير »[3]، ألا إنّ أولياءهم «الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير»[4].

معاشر الناس عدونا من ذمّه الله ولعنه ، وولينا من مدحه الله وأحبه .

معاشر الناس ألا وإني منذر وعلي هاد .

معاشر الناس إني نبي وعلي وصي ، ألا إنّ خاتم الأئمة منّا القائم المهدي ألا إنه الظاهر على الدين ، ألا إنه المنتقم من الظالمين ، ألا إنه فاتح الحصون وهادمها ، ألا إنه فاتح كل قبيلة من الشرك ، ألا إنه مدرك بكل ثار لأولياء الله عزّ وجلّ ، ألا إنه الناصر لدين الله ، ألا إنه الغراف من بحر عميق ، ألا إنه يسم كل ذي فضل بفضله وكل ذي جهل بجهله ، ألا إنه خيرة الله ومختاره ، ألا إنه وارث كل علم والمحيط بكل فهم ، ألا إنه المخبر عن ربه تعالى والمشيد لأمر إيمانه ، ألا إنه الرشيد ، ألا إنه المفوض إليه ، ألا إنه الباقي حجة ولاحجة بعده ولاحقّ معه إلا معه ، ولانور إلا عنده، ألا إنه لاغالب له ولامنصور عليه، ألا إنه وليّ الله في أرضه وحكمه في خلقه وأمينه في سره وعلانيته[5].

هذا ما أمكن ذكره بالنسبة الى تعيين النقباء الاثني عشر ، وتعيين الخلفاء

---

(١) غافر : ٤٠ .

(٢) الاعراف : ٣٨ .

(٣) الملك : ٨ .

(٤) الملك : ١٢ .

(٥) روضة الواعظين : ص٩٦ ـ ٩٧ منشورات الرضى ـ قم .

الاثني عشر الذين جعلهم النبي صلى الله عليه وآله خلفاء من بعده بأمر من الله وأودع عندهم علوم الأنبياء من أولهم الى آخرهم . وقد تبيّن مما ذكرنا أنّ من كان طالباً للدين الصحيح الذي يريده الله من عباده يلزمه أن يأخذه من هؤلاء الخلفاء لأنهم أخذوا أحكام الدين من النبي صلى الله عليه وآله. وقد أوضح الله ذلك للعباد وأخذ منهم الميثاق ووعد من أطاع هؤلاء الخلفاء وامتثل أمره بتكفير السيئات ودخول الجنة .

ثم ذكر في آخر الآية أنّ من خالف هذا النظام الالهي المنزل من الله فهو كافر يستحق عقاب الكافرين فقال تعالى: «**فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل**» .

ما قاله ابن كثير :

قال في تفسيره عند وصوله الى هذه الجملة من الآية : أي فمن خالف هذا الميثاق بعد عقده وتوكيده وشده وجحده وعامله معاملة من لايعرفه فقد أخطأ الطريق الواضح وعدل عن الهدى الى الضلال[1].

قوله تعالى : فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولاتزال تطلع على خائنة منهم الا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح ان الله يحب المحسنين (١٣) .

ماقاله الشيخ الطوسي :

قال في تبيانه : المعني بالآية تسلية النبي صلى الله عليه وآله فقال الله له : لاتعجبن من هؤلاء اليهود الذين هموا أن يبسطوا أيديهم اليك والى أصحابك ونكثوا العهد

---

(١) تفسير ابن كثير : ج٢ ص٥٢٦ .

الذي بينك وبينهم وغدروا بـك ، فإنّ ذلك من عادتهم وعادات أسلافهم ، لأني أُخذت ميثاق سلفهم على عهد موسى على طاعتي ، وبعثت منهم اثني عشر نقيباً ، فنقضوا ميثاقي ونكثوا عهدي ، فلعنتهم بنقضهم ميثاقهم .

وفي الكلام محذوف اكتفى بدلالة الظاهر عليه . والمعنى : فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضـلّ سواء السبيل، فنقضوه فلعنتهم ، فبما نقضهم ذلك لعنّاهم. فاكتفى بقوله : «فبما نقضهم» من ذكر: فنقضوا .

(وما)زائدةوالتقدير: فبنقضهم(وما)مؤكدة. وهوقول قتادة وجميع المفسرين ومثله قول الشاعر :

لشيء ما يسود من يسود

والهاء والميم كنايتان عن بني اسرائيل ، واللعن هو الطرد للسخط على العبد وهو الابعاد من رحمة الله على جهة العقوبة . وقال الحسن : هو المسخ الذي كان فيهم حين صاروا قردة وخنازير .

ومعنى « **جعلنا** » هاهنا قال البلخي : سميناها بذلك عقوبة على كفرهم ، ونقض ميثاقهم . قـال : ويجوز أن يكـون المراد أنّ الله بكفرهـم لم يفعل بهم اللطف الذي تنشرح به صدورهم كما يفعل بالمؤمن ، وذلك مثل قولهم:أفسدت سيفك ، اذا تركت تعاهده حتى صدىء . ويقولون : جعلت أظافيرك سلاحك، اذا لم تقصها . ويشهد للأول قوله تعالى : « وجعلوا لله شركاء الجن »[1] وأراد بذلك أنهم سموا لله شركاء . وقال أبـو علي : هو البيان عن حالهم ، وجفـا قلوبهم عن الايمان بالله ورسوله، كما يقال : جعلته فاسقاً مهتوكاً، اذا أبان عن حالة للناس.

ومعنى « **قاسية** » أي يابسة، يقال للرحيم : ليّن القلب ، ولغير الرحيم : قاسي القلب . والقاسي والقاسح ـ بالحاء ـ الشديد الصلابـة . ويقال : قسا يقسو قسوة، ومنه « فهي كالحجارة أو أشدّ قسوة »[2] وقسية أشدّ مبالغة. وقاسيةأعرف

---

(١) الانعام : ١٠٠ .

(٢) البقرة : ٧٤ .

وأكثر في الاستعمال . وقال أبو عبيدة : قاسية معناه فاسدة من قولهم: درهم قسي أي زائف ، قال أبو زبيد :

لها صواهل في صمّ السلام كما صاح القسيات في أيدي الصياريف

يصف وقع المساحي في الحجارة .

وقال أبو عباس : الدرهم انما سمي قسياً اذا كان فاسداً لشدة صوته بالقس الذي فيه ، فهو راجع الى الأول .

وقال الراجز : وقد قسوت وقسا لداتي .

وقوله : « **يحرفون الكلم** » فالتحريف يكون بأمرين : بسوء التأويل ، وبالتغيير والتبديل ، كما قال تعالى : « ويقولون هو من عند الله وماهو من عند الله »[1] بعد قوله :« وإنّ منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وماهو من الكتاب » والكلم جمع كلمة .

وقوله : « **ونسوا حظاً مما ذكروا به** » معناه تركوا نصيباً مما ذكّروا به يعني مما انزل على موسى . وهو قول الحسين والسدي وابن عباس .

وقوله : «**ولا تزال تطلع على خائنة منهم**» معناه على خيانة منهم. وفاعلة في أسماء المصادر كثير ، نحو عافاه الله عافية و «المؤتفكات بالخاطئة»[2] و«اهلكوا بالطاغية »[3] ويقال : قائلة بمعنى القيلولة . كل ذلك بمعنى المصدر ، وراغية الابل ، وثاغية الشاة . ويقال : رجل خائنة . قال الشاعر :

حدثت نفسك بالوفاء ولم تكن للغدر خائنة مغلّ الاصبع

فخائنة على وجه المبالغة ، كما قالوا : رجل نسابة ، لانه يخاطب رجلاً . ومعناه لا تخن ، فتغال اصبعك في المتاع أي تدخلها الخيانة ، ومغل بدل من خائنة

---

(١) آل عمران : ٧٨ .

(٢) الحاقة : ٩ .

(٣) الحاقة : ٥ .

ويجوز أن يكون « على خائنة » معناه على فرقة خائنة .

وقوله: « **الا قليلا منهم** » نصب على الاستثناء من الهاء والميم في قوله: « على خائنة منهم » .

وقوله : « **فاعف عنهم واصفح ان الله يحب المحسنين** » قال قتادة : هو منسوخ بقوله : « قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولاباليوم الآخر »[١]. وقال أبوعلي: بقوله : « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء »[٢] وقال البلخي : يجوز أن يكون أمر بالعفو والصفح بشرط التوبة أو بذل الجزية، لأنهم اذا بذلوا الجزية لايؤاخذون بشيء من كفرهم . وهوقول الحسن وجعفر بن مبشر. واختار الطبري هذا. فعلى هذا لايكون منسوخاً .

وقوله : « يحرّفون الكلم » لايدلّ على أنه جعل قلوبهم قاسية، ليحرفوا بل يحتمل أمرين :

أحدهما . أن يكون كلاماً مستأنفاً ويكون التمام عند قوله : « قاسية » ثم أخبر عنهم بأنهم يحرّفون الكلام عن مواضعه .

الثاني : أن يكون ذلك حالاً، لقوله : « فبما نقضهم ميثاقهم يحرّفون » أي يحرّفون الكلم ناسين لحظوظهم « لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية »[٣].

ماقاله ابن كثير :

قال في تفسيره: ثم أخبر تعالى عما حلّ بهم من العقوبة عند مخالفتهم ميثاقه ونقضهم عهده فقال: «فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم» أي فبسبب نقضهم الميثاق الذي أخذ عليهم لعنّاهم أي: أبعدناهم عن الحق وطردناهم عن الهدى « وجعلنا قلوبهم قاسية » أي: فلايتعظون بموعظة لغلظها وقساوتها «يحرّفون الكلم عن مواضعه»

---

(١) التوبة : ٢٩ .

(٢) الانفال : ٥٨ .

(٣) التبيان : ج٣ ص٤٦٨ ــ ٤٧١ .

أي فسد فهومهم وساء تصرفهم في آيات الله وتأولوا كتابه على غير ما أنزله وحملوه على غير مراده وقالوا عليه مالم يقل، عياذاً بالله من ذلك، « ونسوا حظاً مما ذكروا به » أي وتركوا العمل به رغبة عنه.

وقال الحسن: تركوا عرى دينهم ووظائف الله تعالى التي لا يقبل العمل إلا بها.

وقال غيره: تركوا العمل فصاروا الى حالة رديئة فلاقلوب سليمة ولافطر مستقيمة ولاأعمال قويمة « ولاتزال تطلع على خائنة منهم » يعني مكرهم وغدرهم لك ولأصحابك.

وقال مجاهد وغيره: يعني بذلك تمالؤهم على الفتك برسول الله ﷺ[1].

ماقاله المراغي:

قال في تفسيره: ثم بيّن أنهم لم يوفوا بهذا العهد فجازاهم على سوء صنيعهم فقال: « فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية » أي: فبسبب نقضهم الميثاق الذي أخذ عليهم ـ ومن ذلك الايمان بمن يرسلون من الرسل ونصرهم وتبجيلهم وتعظيمهم ـ استحقوا مقتنا وغضبنا والبعد عن ألطافنا، فإن نقض الميثاق أفسد فطرتهم ودنّس نفوسهم وقسّى قلوبهم، حتى قتلوا الأنبياء بغير حق وافتروا على مريم وأهانوا ولدها الذي ارسل إليهم لاصلاح مافسد من عقائدهم وأخلاقهم، وحاولوا قتله وافتخروا بذلك، فبكل هذا بعدوا عن رحمة الله، إذ جرت سنّته أنّ الأعمال السيئة تؤثر في النفوس آثاراً سيئة فتجعل القلوب قاسية ولاتؤثر فيها الحجة والموعظة، ومن ثم تستحق مقت الله وغضبه والبعد عن فضله ورحمته، ومامثل هذا إلا مثل من يهمل العناية بنفسه ولايراعي القوانين الصحية، فهو لاشك سيصاب بالأمراض والأسقام ولايلومن حينئذ إلا نفسه إذ كان هو السبب في ذلك بإهماله.

---

(١) تفسير ابن كثير: ج٢ ص٥٢٦.

« يحرّفون الكلم عن مواضعه » تحريف الكلم عن مواضعه إما بتحريف الألفاظ بالتقديم والتأخير والزيادة والنقصان ، وإما بتحريف المعاني بحمل الألفاظ على غير ماوضعت له ، وكل منهما قد وقع في التوراة وغيرها من كتبهم ، فإنّ التوراة التي كتبها موسى وأخذ العهد والميثاق على بني إسرائيل بحفظها ـ كما نصّ على ذلك في الفصل الحادي والثلاثين من سفر تثنية الاشتراع ـ قد فقدت باتفاق مؤرخي اليهود والنصارى عند سبي البابليين لليهود ، ولم يكن عندهم إلا هذه النسخة ، ولم يكونوا يستظهرونها كما كان المسلمون يستظهرون القرآن في عهد النبي ﷺ .

وهناك أسفار خمسة ينسبونها الى موسى ، فيها خبر كتابته التوراة وأخذه للعهد عليهم بحفظها ، ولاشك أنّ هذا ليس منها قطعاً ، وفيها خبر موته ، وأنه لم يقم بعده أحد مثله الى ذلك الوقت ـ أي الوقت الذي كتب فيه سفر تثنية الاشتراع ـ وفي هذا أكبر دليل على أنّ الكاتب كان بعد موسى بردح طويل من الزمن ، كما أنّ فيها كثيراً من الكلمات البابلية الدالّة على أنها كتبت بعد السبي .

لكل هذا حقق كثير من مؤرخي الفرنجة أنّ هذه التوراة التي بين أيديهم كتبت بعد موسى ببضعة قرون ، كتبها عزرا الكاهن بعد أن أذن لبني إسرائيل بالعودة الى بلادهم .

« ونسوا حظاً مما ذكّروا به » روي عن ابن عباس أنه قال : نسوا الكتاب . وعن مجاهد أنه قال : نسوا كتاب الله إذ انزل عليهم ، ومرادهما أنهم نسوا طائفة من أصل الكتاب . وقال بعضهم : نسوا الكتاب بترك العمل به .

وفي الحق : أنهم أضاعوا كتابهم وفقدوه عندما أحرق البابليون هيكلهم وخربوا عاصمتهم وسبوا من بقي منهم حياً ، فلما عادت إليهم الحرية جمعوا ماكانوا قد حفظوه من التوراة ووعوه وعملوا به .

وهذا من أعظم الأدلّة على أن القرآن معجزة محمد ﷺ أثبتها التاريخ بعد

بعثة النبي بعدة قرون من موت موسى .

« ولاتزال تطّلع على خائنة منهم » الخائنة بمعنى الخيانة كالقائلة بمعنى القيلولة والخاطئة بمعنى الخطيئة . أي : إنك أيّها النبي لاتزال تطّلع من هؤلاء اليهود على خيانة اثـر خيانة فلاتظنن ّ إنك آمنت كيدهم بتأمينك إيّاهم على أنفسهم ، فهم قوم لاوفاء لهم ولاأمان ، فمن نقض عهد الله وميثاقه فكيف يرجى منه وفاء ؟ وكيف يطمع منه في أمانة[1] ؟

ماقاله الطبرسي :

قال في تفسير قوله : « ولاتزال تطّلع على خائنة منهم » : يعني على خيانة أي معصية . عن ابن عباس .

وقيل : كذب وزور ونقض عهد ومظاهرة للمشركين على رسول الله ﷺ وغير ذلك مما كان يظهر من اليهود من أنواع الخيانات .

وقيل: إنّ معناه تطّلع على فرقة خائنة ـ أي جماعة خائنة ـ منهم اذاقالوا قولاً خالفوه واذا عاهدوا عهداً نقضوه[2] .

أيّها المسلمون ، اذا تأملتم في الآيات المتقدمة عرفتم مـاحلّ باليهود من الامور القاصمة للظهور المسببة للدمار في الدنيا والآخرة ، وكل ذلك إنما كان بسبب نقض الميثاق .

وأما النصارى فإنهم نقضوا الميثاق فعاقبهم الله بما ذكره في قوله :

ومن الذين قالوا انا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة وسوف

---

(١) تفسير المراغي : ج٦ ص٧٤ ـ ٧٦ .

(٢) تفسير مجمع البيان : ج٣ ص١٧٣ .

ينبئهم الله بما كانوا يصنعون (١٤).

فإنّ الطائفتين اليهود والنصارى لما نقضوا الميثاق سبّب لهم هذا النقض امور سيئة، ابتلوا بها في الدنيا وتكون عاقبتهم في الآخرة أسوأ وأمرّ وأدهى، فإنها النار التي لاطاقة للبشر على تحملها. وإليك الامور التي أصابتهم فاسمعها واعتبر بها.

الأول: لعن الله لهم في قوله: «فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم» واللعن هو الطرد والابعاد عن رحمة الله.

الثاني: جعل قلوبهم قاسية كما ذكره في قوله «وجعلنا قلوبهم قاسية».

وقسوة القلب مأخوذة من قسوة الحجارة، والقلب القاسي هو الذي لايخشع لحق ولايتأثر برحمة، وبسبب هذه القسوة يقدم الانسان على قتل المرء بلاذنب، حتى أنه يقتل النبي والوصي والمؤمن الذي لايؤذي أحداً أبداً، وهذه الأفعال إنما تكون من شدة القسوة بحيث يكون القلب أشدّ وأقسى من الحجارة.

قصة البقرة وذبحها:

لقد اتصفت قلوب اليهود بهذه القسوة الشديدة كما أخبر الله عنهم في قصة البقرة لما أمرهم موسى عن الله عزّوجلّ بقوله: «وإذ قال موسى لقومه إنّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرة»[١].

وحيث إنهم لم يكن لهم إيمان صادق حقيقي وإنما كانوا يظهرون الايمان الصوري قالوا لموسى في جواب هذا الأمر: «أتتّخذنا هزواً»[٢] فلو أنهم كانوا يؤمنون بنبوة موسى لما جعلوه من المستهزئين ولصدقوا بإخباره عن الله، فقال لهم موسى: «أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين»[٣].

---

(١) و (٢) و (٣) البقرة: ٦٧.

فلم يصدقوا كلامه بل طلبوا أن يعيّن الله لهم صفاتها المشخصة لها والمميزة عن غيرها كما حكاه الله عنهم بقوله: «قالوا ادع لنا ربّك يبيّن لنا ماهي قال إنّه يقول إنّها بقرة لافارض ولابكر عوان بين ذلك فافعلوا ماتؤمرون»[1] فقد أكد عليهم الأمر وأن يمتثلوا أمر الله ولايخالفوه وهم مع ذلك في شكّ وريب في نبوته وإلا لصدقوا قوله.

ولكنهم طلبوا منه الايضاح أكثر مما بيّنه «قالوا ادع لنا ربّك يبيّن لنا مالونها قال إنّه يقول إنّها بقرة صفراء فاقع لونها تسرّ الناظرين»[2] فلم يصدقوا بهذا التعريف وهذا الوصف لأنّ قلوبهم منكرة لنبوة موسى ويريدون أن يشددوا عليه.

فأكثروا في السؤال وكرروا الطلب في تشخيص البقرة المأمورين بذبحها «قالوا ادع لنا ربّك يبيّن لنا ماهي إنّ البقر تشابه علينا وإنّا إن شاء الله لمهتدون»[3].

وقد ورد في الأخبار أنهم لما شددوا على أنفسهم بهذا التحقيق والتدقيق شدد الله عليهم فعيّن لهم بقرة مخصوصة بعد أن أمرهم ببقرة مطلقة وألهم صاحبها أن يطلبوا منهم ثمناً غالياً كثيراً فأجابهم نبيهم عن الله «قال إنّه يقول إنّها بقرة لاذلول تثير الأرض ولاتسقي الحرث مسلّمة لاشية فيها»[4].

وبعد هذه الأسئلة وهذا التحقيق وبعد هذا الامتناع عن القبول وبعد ما جاءهم النبي موسى بهذه الأجوبة من الله تعالى أجابوه بما حكى الله عنهم: «قالوا الآن جئت بالحق»[5].

وقولهم هذا يكشف لنا أنهم ماكانوا يعتقدون أنه يقول الحق وإنما اعتقدوا

---

(١) البقرة : ٦٨ .
(٢) البقرة : ٦٩ .
(٣) البقرة : ٧٠ .
(٤) و (٥) البقرة : ٧١ .

ذلك بعد أن جاءهم بهذا التفصيل الدقيق الذي بيّن لهم كل ماطلبوه من مقدار السن واللون والعمل ومع ذلك كانوا أقرب الى عدم الامتثال كما أخبر الله عنهم بقوله : « فذبحوها وماكادوا يفعلون »[١] بحيث كانوا في شكّ وتردد من الفعل خوفاً من الفضيحة وظهور الأمر ، وذلك لأنّ الأمر بذبح البقرة كان سببه أنّ رجلاً كان ثرياً وكان وارثه ينتظر موته ليرث ماله ، فلما تأخر الموت قتله وارثه وحمله وطرحه في طريق الأسباط ليتهمهم بقتله ، وجاء الى موسى وطلبوا منه أن يخبرهم بالقاتل ، فلما أمرهم موسى بذبح البقرة وسألوه تلك الأسئلة فأجابهم بتعليم من الله فلذا كان يصعب عليهم ظهور الحقيقة ، فأنزل الله تعالى :« وإذقتلتم نفساً فادّارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون * فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلّكم تعقلون »[٢].

ومن هنا نرجع الى موضوعنا الأصلي وهو قسوة قلوب اليهود، فإنّ الله بعدما بيّن لهم هذه الآيات العظيمة ـ وآخرها أمرهم بأن يضربوا بجزء من البقرة المذبوحة إنساناً ميتاً فيقوم حياً سوياً ويخبرهم بمن قتله ـ بعد هذا كله يخبرنا الله عزّ وجل عن قلوب اليهود فيقول : « ثمّ قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشدّ قسوة وإنّ من الحجارة لما يتفجّر منه الانهار وإنّ منها لما يشقّق فيخرج منه الماء وإنّ منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون »[٣].

أسمعت أيها المسلم ؟ أعرفت هذه الشدة من القسوة ؟ إنّ هذه القسوة إنما نشأت من نقض الميثاق ، فإياك والقرب منه .

---

(١) البقرة : ٧١ .

(٢) البقرة : ٧٢ و٧٣ .

(٣) البقرة : ٧٤ .

الأمر الثالث: مما تسبب لهم من نقض الميثاق هو تحريف الكتاب المنزل على نبيهم كما قال تعالى: « فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرّفون الكلم عن مواضعه ».

والتحريف هو إما بنقصان منه أو زيادة فيه أو بتغيير الكلمة أو بتفسيره بما لا يرضي الله عزّ وجلّ. أما النقصان والزيادة وتغيير الكلمة فقد حفظ الله القرآن منه، وأما تفسيره بما لا يرضي الله فإنّ بعض الجبابرة قد يفسره على ما يقتضيه هواه وتشتهيه نفسه. ولا بأس بذكر مثل واحد. ذكر أنّ ابن زياد لما بعث الى شبث بن ربعي ليرسله الى حرب الحسين عليه السلام اعتذر شبث بأنه مريض، فكتب إليه ابن زياد: إني أخاف أن تكون من الذين: « اذا لقوا الّذين آمنوا قالوا آمنّا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا إنّا معكم .. الخ »[1].

فابن زياد يقصد بقوله هذا أنه هو وأبوه ويزيد وأبوه هم من المؤمنين، هكذا يفسر القرآن من كان في قلبه زيغ « وأمّا الّذين في قلوبهم زيغ فيتّبعون ما تشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله »[2] ولكن لا يوافقه على التأويل والتفسير إلا من كان على شاكلته.

الأمر الرابع: مما تسبب لهم من نقض الميثاق قوله تعالى: « ونسوا حظّاً ممّا ذكّروا به » أي: نسوا من الكتاب القسم الذي يفوت بفواته حظهم في الآخرة كالامور الاصولية مثل نبوة محمد صلى الله عليه وآله وأمثالها.

وقد روى المراغي في تفسيره عن ابن عباس أنه قال: نسوا الكتاب ... وقال بعضهم: نسوا الكتاب بترك العمل به[3].

---

(١) مقتل المقرم: ص١٩٩، نشر دار الكتاب الاسلامي، نقلا عن الاخبار الطوال: ص٢٥٣. والاية ١٤ من سورة البقرة.

(٢) آل عمران: ٧.

(٣) تفسير المراغي: ج٦ ص٧٥.

الأمر الخامس: مما تسبب لهم من نقض الميثاق ملازمتهم للخيانة حتى صارت طبيعة لهم كما قال تعالى : « ولاتزال تطّلع على خائنة منهم » فإنّ الخيانة من أكبر العيوب في الرجل وكذا في الجماعة ، فاذا عرفت جماعة بالخيانة يجتنبها الناس ولايتعاملون معها وهكذا اذا عرفت امّة بالخيانة كلها أو أكثرها كما عرفت اليهود بمقتضى شهادة الله عليها، وكل حكومة تعرف بالخيانة فإنّ بقية الحكومات لاتعترف بها ولاتتعامل معها .

ثم إنّ اليهود بعد ماخانوا الله ونقضوا الميثاق فما الذي يمنعهم عن خيانة النبي ؟ واذا خانوا النبي كما ذكره الله فلابدّ من خيانتهم لعموم البشر مهما كان دينهم ، فإنهم لايتوقفون عن كل خيانة ، فهذه الجملة من الآية يحذر الله الناس بها عن الدنوّ إليهم والتعامل معهم .

وقد وردت أحاديث كثيرة في ذمّ الخيانة منها ماعن النبي صلى الله عليه وآله قال: من خان أمانة في الدنيا ولم يردها الى أهلها ثم أدركه الموت مات على غير ملّتي ويلقى الله وهو عليه غضبان[1].

وعنه أيضاً قال صلى الله عليه وآله: ليس منا من خان بالأمانة[2].

وعن أبي هارون المكفوف قال : قال لي أبو عبدالله الصادق عليه السلام : ياأبا هارون إنّ الله آلى على نفسه أن لايجاوره خائن، قلت : وما الخائن ؟ قال : من ادخر عن مؤمن درهماً أو حبس عنه شيئاً من أمر الدنيا . قال : قلت : أعوذ بالله من غضب الله ، فقال : إنّ الله تبارك وتعالى آلى على نفسه أن لايسكن جنته أصنافاً ثلاثة : رادّ على الله عزّ وجلّ أو رادّ على إمام هدى أو من حبس حقّ امرىء مؤمن، قال : قلت : يعطيه من فضل مايملك ؟ قال: يعطيه من نفسه وروحه

---

(١) بحار الانوار : ج٧٥ ص١٧١ ب٥٨ ح٣ .

(٢) بحار الانوار : ج٧٥ ص١٧٢ ب٥٨ ح١٤ .

فإن بخل عليه بنفسه فليس منه إنما هو شرك شيطان[1].

هذا بالنسبة الى الخيانة في الماديات ، أما بالنسبة الى الخيانة في المعنويات كنقض العهود ومساعدة الأعداء وأمثالها فهو الكفر ، وليس هناك إيمان لمن نقض عهد الله وميثاقه أو نقض ميثاق الرسول أو المؤمنين .

الأمر السادس : مما سببه لهم نقض الميثاق هو وقوع العداوة والبغضاء فيما بينهم ، وهم الذين نقضوا الميثاق فلاتزول العداوة والبغضاء الى يوم القيامة ، وقد نوه الله سبحانه عليه بقوله : « فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة ».

ماقاله الشيخ الطوسي :

قال في تفسير قوله تعالى « فأغرينا بينهم » : قال مجاهد وقتادة وابن زيد والسدي والجبائي : معناه بين اليهود والنصارى .

وقال الربيع والزجاج والطبري : معناه بين النصارى . وهو ماوقع بينهم من الخلاف نحو الملكية ، وهما الروم والنسطورية واليعقوبية من العداوة. وأصل الاغراء تسليط بعضهم على بعض .

وقيل : معناه التحريش .

وأصله اللصوق يقال : غريت بالرجل غرى ـ مقصور وممدود ـ ومعناه : لصقت به . قال كثير :

اذا قيل مهلاً قالت العين بالبكا غراء ومدتها حوافل تهمل

وأغريت زيداً بكذا حتى غرى به . ومنه الغراء الذي يغرى به للّصوق .

والاغراء بالشيء معناه الالصاق به من جهة التسليط . وإنما أغرى بينهم بالأهواء المختلفة في الدين في قول إبراهيم .

---

(١) بحار الانوار : ج٧٥ ص١٧٣ ب٥٩ ح٣ .

وقيل : بإلقاء البغضاء بينهم . عن الحسن وقتادة .

وقيل : يأمر بعضهم أن يعادي بعضاً في قول أبي علي . فكأنه يذهب الى ما تقدم من الأمر لهم بمعاداة الكفار ، والذي يقوله إنّ الوجه في إغراء الله فيما بينهم أنه أمر النصارى بمعاداة اليهود فيما يفعله اليهود من القبيح في التكذيب بالمسيح وشتم امّه والقذف لها والفرية عليها وإضافتها إليه تعالى ووصفها بما لا يليق. وأمر اليهود بمعاداة النصارى فياعتقادهم التثليث وأنّ المسيح ابن الله وغير ذلك من اعتقاداتهم الفاسدة نقضوا هـذا الميثاق وأعرضوا عنه حتى صار بمنزلة المنسي ، فكأنه في ذلك أمر كل واحد منهما بالطاعة .

فإن قيل : يمنع من ذلك قولـه « **فنسوا حظاً مما ذكروا بـه فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء** » فجعل إغراءه لهـم بالعداوة جواباً لقولـه : « فنسوا حظّاً ممّا ذكّروا به » لأنّ الفاء تدلّ على الجواب . واذا كانت جواباً وجب أن يكون تعالى إنما أغرى بينهم لأجل نسيانهم للحظّ الذي ذكّروا به، وأنهعاقبهم بهذا الاغراء ، وليس في الأمر والنهي والعبادات عقوبات بلاخلاف ، فدلّ جوابه بالفاء في قوله : « فأغرينا » عقيب قوله : « فنسوا حظّاً » على أنه عاقب بالاغراء لاعلى ماقلتموه .

قيل : قوله « فنسوا حظّاً ممّا ذكّروا به » جوابه، وأنه فعل هذا الاغراء لأجل نسيانهم، غير أنـه ليس بعقوبته وإن كان جواباً ، فكان الاغراء إنما وقع بينهم من أجل نسيانهم لحظّهم من قبل أنه نسوا ماذكّروا بـه معرفة التوحيد والتدين فصاروا الى القول بالاتحاد والشرك والفرية عليه تعالى ، فلأجل ذلكأمر الله أضدادهم بمعاداتهم وإغرائه بهم .

فإن قيل : فإنّ الله تعالى ذكر النصارى في هذه الآية بنسيان حظّهم، ثم أجاب بالفاء في قولـه « فأغرينا بينهم » وليس يصحّ على هـذا أن يكون أغرى بينهم من أجل مافعله النصارى من الكفر لأنـه اذا أمر اليهود بمعاداة النصارى

لأجل نسيان النصارى و كفرهم فإنما هذا عن أمر الله اليهود بهم ، وليس بإغراء بعضهم ببعض ، وقوله : « فأغرينا بينهم » يدل على أن الله بعث كل واحد من الفريقين على صاحبه ، وهذا يوجب خلاف قولكم .

قيل : الأمر على ماقلتم من أن أمر اليهود بمعاداة النصارى هو إغراءلهم بهم ، وليس بإغراء بين النصارى ، لكنه تعالى قد ذكر اليهود فيما تقدم من هذه السورة وتكذيبهم وفريتهم على الله في ذكر النصارى ، فلما جمع بين الفريقين في الذكر في هذه السورة ـ وإن لم يجمعهم في هذه الآية ـ جاز أن يذكر أنه أغرى بينهم العداوة بأن أمر كل واحد منهما بمعاداة عدوه فيما عصى فيه وصح الاغراء بينهم وإلقاء العداوة والتباعد والمنافرة ، وصح أن يجعل ذلك جواباً .

وقد قال البلخي جواباً آخر : وهو أن يكون الاغراء بين النصارى خاصة بعضهم لبعض على ظاهر الآية ، وهو أن الله تعالى نصب الأدلة على إبطال قول كل فرقة من فرق النصارى ، فاذا عرفت طائفة منها فساد مذهب الاخرى فيما نصب الله لها من الأدلـة ـ وإن جهلت فساد مقالة نفسها لتفريطها في ذلك وسوء اختيارها ـ فجاز على هذا أن يضاف الاغراء في ذلك الى الله من حيث إنه أمر كل فرقة بمعاداة الاخرى على ماتعتقده وأن أمرها أيضاً بأن تترك ماهي متمسكة به لفساده، وهذا واضح بحمد الله .

فإن قيل : أيجوز على هذا أن يقال: إن الله أغرى بين المؤمنين والكفار العداوة ؟

قلنا : أما إغراء المؤمن بالكافر فصحيح ، وأما الكافر بالمؤمن فليس بصحيح لأن ماعليه المؤمنون حق ، وماعليه الكفار باطل . وإنما يقال : إن الله أغرى بين قوم وقوم اذا كان على بطلان قول كل طائفة منهما دليل يدل على فساد قول من يخالفها . فعلى هذا لايصح إطلاق القول بما قالوه ، ومتى قيد القول على ما

بيّناه جاز ، وان لم يجز مع الاطلاق[١] .

ماقاله الطبرسي :

حول قوله سبحانه « فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة » قال : اختلف فيه فقيل : المراد بين اليهود والنصارى . عن الحسن وجماعة من المفسرين .

وقيل : المراد بين أصناف النصارى من اليعقوبية والملكائية والنسطورية من الخلاف والعداوة . عن الربيع واختاره الزجاج والطبري .

وإنما أغرى بينهم العداوة بالأهواء المختلفة في الدين، وذلك أن النسطورية قالت: إنّ عيسى ابن الله هو المسيح بن مريم. والملكائية قالوا: إن الله ثالث ثلاثة: الله وعيسى ومريم .

وقيل : يأمر بعضهم أن يعادي بعضاً . عن الجبائي . فكأنه يذهب الى الأمر بمعاداة الكفار ، وأنّ هؤلاء يكفّر بعضهم بعضاً ، وقوله « الى يوم القيامة » عنى به : أنّ المعاداة تبقى بينهم الى يوم القيامة ، إمّا بين اليهود والنصارى ، وإمّا بين فرق النصارى .

وقيل : الوجه في قوله تعالى : « فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء » أنه أخبر أنهم اختلفوا فيما بينهم وكلهم على خطأ وضلال ، وقد جعل الله سبحانه على كل مقالة من مقالاتهم التي أخطأوا فيها دلائل عرف بها بعضهم خطأ بعض فتعادوا على ذلك وتباغضوا ولم يقرّ كل فرقة منهم خطأ أنفسهم، فلمّا لم يصل كل منهم الى المعرفة بخطأ صاحبه إلا من جهة كتاب الله ودلائله والتعادي بينهم كان من أجل ذلك جاز أن يقول: « فأغرينا بينهم » على هذا الوجه . عن جعفر بن حرث.

وقيل : الوجه في ذلك إنا أخطرنا على بال كل منهم بمايوجب الوحشة والنفرة عن صاحبه ، ومايهيج العصبية والعداوة عقوبة لهم على تركهم الميثاق[٢] .

---

(١) التبيان : ج٣ ص٤٧٢ .

(٢) مجمع البيان : ج٣ ص١٧٣ .

ماقاله المراغي :

قال في تفسير قوله تعالى « فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة» : لأنّ نسيان حظّ عظيم من كتابهم كان سبباً في تفرقهم في الدين واتباع أهوائهم، وتبع هذا أن وقعت بينهم العداوة والبغضاء بمقتضى سننه تعالى في هذه الحياة ، ومن أجل هذا نسبه سبحانه الى نفسه مع أنه من أعمالهم الاختيارية لأنه كان نتيجة حتمية لتلك السنن التي وضعت في الخليقة[1] انتهى .

الأمر السابع من آثار نقض الميثاق: السيئة ، وهو الذي فيه الهلاك والدمار الذي لايمكن تداركه ولاينفع فيه الندم ولاتفيد فيه التوبة ، وهو مانبّه عليه بقوله : **«وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون»** .

يشير سبحانه وتعالى الى يوم الحشر والنشر ويوم الثواب والعقاب وهو يوم القيامة وأنه سيعاقب هؤلاء الذين نقضوا الميثاق عقاباً لاأمد له ولاانقطاع ، وهو عقاب لايمكن لهذا الجسم البشري أن يتحمله آناً واحداً لأنّ الجسم من اللحم والعقاب يكون في النار ولاطاقة له على القرب منها فضلاً من الدخول فيها، وأنّ هذا العذاب سيكون لمن نقض الميثاق من اليهود والنصارى ، ولازم ذلك أنه يكون لمن نقض الميثاق من المسلمين أي العذاب في الآخرة .

أما الامور التي سببها نقض الميثاق في الدنيا فهي من لوازمه أيضاً ، فإنها لاتتخلف عنه ، ومن أعظم الامور على المسلمين الذين نقضوا العهد تسلّط أعدائهم عليهم، وإن لم تعرفوا أعداءكم فهم الصهاينة ومساعدوهم وأنتم محكومون للكافر.

أيّها المسلمون ، إنّ الله خاطبكم في الآية السابعة من هذه السورة بعدما أمركم بالطهارة في قوله سبحانه وتعالى: «اذا قمتم الى الصلاة...الخ» فقال عزّ وجلّ: « واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الّذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا

(١) تفسير المراغي : ج٦ ص٧٧ .

واتقوا الله إنّ الله عليم بذات الصدور » فلو أنكم اتقيتم الله حقّ تقاته لكفّ أيدي هؤلاء اليهود عنكم ولنصركم عليهم وعلى غيرهم من الكافرين ولكنكم نقضتم ميثاق الله ، فاذا بقيتم على هذا الحال سوف تبتلون بهذه الامور السبعة التي ابتلى بها اليهود والنصارى .

أيّها المسلمون، ارجعوا الى دينكم وكتابكم وأطيعوا أمر الله وأمر رسوله ليكفّ الله عنكم هذه الأيدي الجائرة التي تريد محو دين الله وتريد رفع القرآن من على وجه البسيطة. فإنه قد شاع أنّ اليهود لما فتحوا بيت المقدس من المسلمين ودخلوا فيه بقوا بضعة دقائق يجولون وينادون بأعلى أصواتهم : (مات محمد) يكررون هذه الكلمة فرحاً وسروراً. ومن ذلك اليوم حتى يومنا هذا وهم ينكلون بالمسلمين وقد ملأوا السجون من الرجال والنساء يعذبونهم بأنواع العذاب .

تنبيه

لايخفى على كل ذي لب أنّ الله إنما ذكر في القرآن هذه القضية التي تتعلق ببني إسرائيل وأنّ بنقضهم الميثاق اصيبوا بهذه المصائب السبع التي هي دمار لهم في الدنيا والآخرة كل ذلك ليعتبر المسلمون فيتمسكوا بالتقوى ويحافظوا على الميثاق الذي واثقوا الله به ولاينقضوا منه شيئاً فيصابون بما اصيب به بنو إسرائيل هو الدمار والهلاك وخسران الدنيا والآخرة .

أيّها المسلمون، لقد نقضتم الميثاق وخالفتم أوامر الله والرسول، ولقد واليتم الكافر وأطعتم أوامره ، ووقع بينكم العداوة والبغضاء ، فإن تنبهتم وأردتم أن لا تكون بينكم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة فاتفقوا وأئتلفوا وتحابوا ، ولا تتفقوا إلا أن ترجعوا الى أحكام القرآن فتتركوا شرب الخمور ، وتتركوا الفجور والتبرج والسفور، وتتركوا القمار وأكل الربا، وتتركوا الظلم بجميع أنواعه وأقسامه .

ومن أهمّ الامور هو ترك الموالاة للكافر، فإنّ صريح القرآن يخبرنا بأنّ الموالي للكافر يعدّ كافراً: «ومن يتولّهم منكم فإنه منهم»(١) فاذا صرت كافراً فليس لك على الله حقّ أبداً.

ماقاله العلامة الطباطبائي :

قال رحمه الله في تفسيره: ولم يذكر القصة إلا ليستشهد بها على المؤمنين ويجعلها نصب أعينهم ليعتبروا بها بأنّ اليهود والنصارى إنما ابتلوا بما ابتلوا به بنسيانهم ميثاق الله سبحانه ولم يكن إلا ميثاقاً بالاسلام لله واتقوه بالسمع والطاعة وكان لازم ذلك أن يتقوا مخالفة ربهم وأن يتوكّلوا عليه في امور دينهم، أي يتخذوه وكيلاً فيها يختارون مايختاره لهم ويتركون مايكرهه لهم، وطريقه طاعة رسلهم بالايمان بهم وترك متابعة غير الله ورسله ممن يدعو الى نفسه والخضوع لأمره من الجبابرة والطغاة وغيرهم حتى الأحبار والرهبان، فلاطاعة إلا لله أو من أمر بطاعته.

لكنهم نبذوه وراءهم ظهرياً فابعدوا من رحمة الله وحرفوا الكلم عن مواضعه وفسروها بغير ماأريد بها، فأوجب ذلك أن نسوا حظاً من الدين، ولم يكن إلا حظاً وسهماً يرتحل بارتحاله عنهم كل خير وسعادة. وأفسد ذلك مابقي بأيديهم من الدين، فإنّ الدين مجموع من معارف وأحكام مرتبط بعضها ببعض يفسد منه بفساد بعض آخر سيما الأركان والاصول، وذلك كمن يصلّي لكن لا لوجه الله أو ينفق لا لمرضاة الله أو يقاتل لا لاعلاء كلمة الحق، فلا مابقي في أيديهم نفعهم ـ إذ كان محرفاً فاسداً ـ ولا ما نسوه من الدين أمكنهم أن يستغنوا عنه، ولاغنى عن الدين ولاسيما اصوله وأركانه.

فمن هنا يعلم أنّ المقام يقتضي أن يحذر المؤمنون عن مخالفة التقوى وترك

---

(١) المائدة: ٥١.

التوكل على الله بذكر هذه القصة ودعوتهم الى الاعتبار بها .

ومن هنا يظهر أيضاً أنّ المراد بالتوكل مايشمل الامور التشريعية والتكوينية جميعاً ، أو مايختصّ بالتشريعيات ، بمعنى أنّ الله سبحانه يأمر المؤمنين بأن يطيعوا الله ورسوله في أحكامه الدينية وما آتاهم به وبيّنه لهم رسوله ، ويكلوا أمر الدين والقوانين الالهية الى ربهم ، ويكفّوا عن الاستقلال بأنفسهم والتصرف فيما أودعه عندهم من شرائعه، كما يأمرهم أن يطيعوه فيما سنّ لهم من سنّة الأسباب والمسببات، فيجروا على هذه السنّة من غير اعتماد بها وإعطاء استقلال وربوبية لها وينتظروا مايريده الله ويختاره لهم من النتائج بتدبيره ومشيئته[1] انتهى .

وبعد ذلك أرجو من إخواني المؤمنين أن يتأمّلوا جيداً في هذه الآيات وأن يعملوا بها لكي نتخلّص من هذا البلاء الذي حلّ بنا ومن هؤلاء الأعداء الذين أحاطوا بنا .

قوله تعالى : يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين(١٥) .

لقد بيّن الله عزّ وجلّ في الآيات السابقة أنّ اليهود والنصارى قد أخذ عليهم العهد والميثاق بالطاعة له ولرسوله، وأن ينصروا رسله ويعظموهم ويكرموهم ولايخالفوا لهم أمراً ، وأن يكون عملهم مطابقاً للكتاب الذي أنزله على الرسول بلاتحريف ولاتصرف فيه .

ثم بيّن أنهم خالفوا هذه الامور فنقضوا الميثاق وخالفوا الرسول وحرفوا الكتاب وتلبّسوا بالخيانة حتى صارت طبيعة لهم وداوموا على العداوة والبغضاء بينهم.

---

(١) الميزان : ج٥ ص٢٣٨ .

وبعدما فعلوا هذه المنكرات المبعدة لهم عن الله ورسوله فاستحقوا اللعن من الله والطرد لهم عن رحمته لم يقطع عنهم إرشاده ودعوته . فلما بعث خاتم أنبيائه الى خلقه دعا أهل الكتاب ـ وهم اليهود والنصارى ـ الى الايمان برسوله وعرّفهم أنّ من جملة آيات نبوته التي لا يعتريها ريب ـ أي لا يمكنكم أن تجدوا فيها طريقاً للريب والشك ـ هي أنه : «يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب».

فإنّ هذا الأمر ـ وهو بيان ما كانوا يخفونه من الكتاب ـ شيء مخفيّ مستور لا يعلمه إلا علماؤهم الذين بيدهم الكتاب وهم يظهرون منه الامور للناس فاذا كان فيه كان أمر ينافي سلطة اليهود ويوجب خروج الحكم منهم أو شيء تنفر الناس عمن بيده الكتاب أو شيء يوجب العقاب عليهم اذا فعلوه ، يخفون الامور كلها ولا يبدونها لأحد من قومهم فضلاً عن الأجانب ، فإنهم هم القائلون كما حكى الله عنهم : « ولا تؤمنوا إلّا لمن تبع دينكم »[1].

فلما جاء النبي محمد صلى الله عليه وآله بيّن هذه الامور المخفية في صدورهم وفي كتبهم المخفية في خزانتهم ، فكان هذا البيان من أكبر الآيات والحجج الدالة على صدق نبوته ، وقد ناداهم الله عزّ وجلّ وخاطبهم بأنّ هذا الرسول الذي جاءكم بهذه الحجة البيّنة الجلية التي لا يمكنكم الطعن بها أبداً ـ وحيث عجزتم عن الاتيان بما يوهنها ويفندها ـ فإنكم ملزمون حينئذ بتصديقه واتباعه والعمل بما يأمركم به.

ثم إنه يلزمكم تصديقه والاعتراف بنبوته واتباعه لأمر آخر وهو الفضل الذي أسداه إليكم والاحسان الذي منّ به عليكم ، وهو المشار إليه بقوله تعالى: « ويعفوعن كثير » فإنه كما بيّن كثيراً مما كنتم تخفون عفا أيضاً عن الكثير فلم يبيّنه .

ولابدّ أن يكون هذا الذي عفا عنه فيه المساوىء القبيحة والفضايح التي تفضحكم أمام العالم البشري . ولكنّ الله أمره بالعفو والستر والاخفاء ، كذلك

---

(١) آل عمران : ٧٣ .

رحمة بكم وشفقة عليكم لعلكم تهتدون وترجعون الى الحق ، ولكنكم أبيتم إلا العمى وسلوك سبيل الضلال ورغبتكم الملحة الى الفساد في الأرض ، فلاالحكم السماوي يمنعكم عن أذى الناس ولاالحكم الأرضي ولاضمائر سليمة تصدكم عن ذلك .

ثم إنّ الامورالتي بيّنها النبي صلى الله عليه وآله هي صفاته وعلامته الموجودةفيالتوراة والانجيل ، فإنه لما بعث صلى الله عليه وآله ورأوا أنّ تلك الصفات منطبقة عليه أخفوها ولم يبدوها للناس فبيّنها لهم ، كما ورد هذا الأمر في آيات عديدة كقوله تعالى : « الّذين يتّبعون الرسول الاُمّي الّذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل »[1] وقوله تعالى : « يعرفونه كما يعرفون أبناءهم »[2] وقوله تعالى في وصفه ووصف أصحابه : « محمّد رسول الله والّذين معه أشداء على الكفّار رحماء بينهم تراهم ركّعاً سجّداً » الى قوله تعالى : « ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل »[3].

ومن الامور التي بيّنها أيضاً حكم الرجم الذي أخفاه ابن صوريا فإنه موجود في الاصحاح الثاني والعشرين من سفر التثنية[4].

وأما العفو عن الكثير فإنّ فيالتوراة الموجودة بأيديهم اموراً كثيرةمنافية للعدل والعقل والدين ، فهذه الامور وغيرها عفا النبي صلى الله عليه وآله عن بيانها .

ثمقال تعالى: «**قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين**» فإنه سبحانهيخاطب أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى ويقول لهم: إنكم بعدما نقضتم الميثاقفصارت قلوبكم قاسية لاينفع معها الارشاد ولاتؤثر فيها الموعظة ، ثم حرفتم كتاب الله

---

(١) الاعراف : ١٥٧ .

(٢) البقرة : ١٤٦ .

(٣) الفتح : ٢٩ .

(٤) راجع تفسير نور الثقلين: ج١ ص٦٢٩ ح١٩٢، وتفسيرالمراغي: ج٦ ص١٢١ .

وغيرتموه، ونسيتم حظكم من الكتاب، وهذا القسم الذي نسيتموه هو من اصول الكتاب الذي لاينفعكم الباقي منه مع نسيانكم له، ثم تلبستم بالخيانة بحيث صارت طبيعة لكم. بهذه الصفات السيئة وغيرها قد دخلتم في الظلمات فصار وليكم الطاغوت فانغمستم في الظلمات الى رؤوسكم بحيث لاتبصرون بأعينكم شيئاً من النور لتهتدوا به الى طريق الرشاد.

ويخاطب الله غير أهل الكتاب من أصناف الناس الذين يعبدون الأصنام والأوثان والشجر والحجر والشمس والقمر وهم يدّعون الاسلام.

إنّ هؤلاء الفرق كلهم داخلون في الظلمات يعملون على غير هدى وهم يسمون أنفسهم مسلمين.

إنّ الله يخاطب هؤلاء مع خطابه لأهل الكتاب ويقول لهم: قد جاءكم نور من الله ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله، وهذا النور يوضح لكم الطريق ويكشف عنكم الظلمات التي وقعتم فيها فاغتنموه، فإنكم اذا سرتم وراءه واقتديتم به يمكنكم أن تتخلّصوا من هذه الظلمات وتنجوا منها الى سبيل واضح نيّر مضيء يوصل الى منهل عذب ومأمن من كل خوف ويجعلكم منعمين في الدنيا بأعلى درجات النعيم حتى يوصل نعيم الدنيا بنعيم الآخرة.

ثم إنّ هذا النور الذي جاء به خاتم الأنبياء لاينقطع ولاينتهي مادامت الدنيا موجودة، فهو موجود بوجوده في الدنيا وبعد ارتحاله منها، ويكون الكتاب الذي انزل عليه موجوداً وفيه حكم كل شيء لا يشذّ عنه حكم من الأحكام، ويلازم هذا الكتاب رجال يعرفون تفسيره وتأويله لايخفى عليهم شيء منه، قد قرنهم النبي صلى الله عليه وآله بالكتاب وأوصى امّته بالتمسك بهما وأخبر بأنهما لايفترقان حتى يردا عليه يوم القيامة.

ثم إنّ المقصود من النور الذي جاء من الله إما أن يكون هو النبي صلى الله عليه وآله أو الأحكام التي جاء بها من الله، وإنما عبّر عنه بالنور لأنه يكون سبباً لنور القلب

فكما يكون نور الشمس سبباً لرؤية البصر يكون النبي ﷺ أو الأحكام سبباً لرؤية القلب للامور الباطنية الروحية .

قوله تعالى : يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم (١٦) .

إنّ هذا النور الذي يختصّ بالقلب والبصيرة ويضيء به الباطن ليس كنور الشمس بحيث ينتفع به كل ذي عينين ، سواء كان مؤمناً أو كافراً ، وإنما ينتفع به من يطلبه ويريده لأجل رضا الله عزّ وجلّ . أي أنّ الله يهدي بهذا النور الانسان الذي يطلب رضا الله فهو يهديه الى سبل السلام .

فقوله تعالى : « **يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام** » أي أنّ النور والكتاب الذي جاءكم من الله إنما يهدي به الله الانسان الذي يتبع رضا الله ويريده . ولايتمكن الانسان أن يعرف الشيء الذي يرضى به الله إلا بواسطة النبي أومن يدلّ عليه النبي امّته ويأمرهم بالرجوع إليه في الحصول على مايرضي الله ، أمّا الذي يريد أن يعمل بما يرضي الله ويأخذ الأحكام ممن لم يدلّ عليه النبي أو أنه يميّز مايرضي الله بعقله وفهمه فهذا لايصيب ، بل يكون خطأه أكثر من صوابه .

فعلى هذا يكون النور الذي أنزله الله لهداية الخلق لايصيب إلا من كانت نيته من عمله إرضاء الخالق ، ولايحصل على العمل المرضيّ للخالق إلا بإصابته بواسطة النبي ﷺ أو بواسطة من عنده علم القرآن بحيث يعترف له بذلك المؤالف والمخالف ، وليس في أصحاب النبي أحد عنده هذا العلم غير أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لأنّ النبي ﷺ علّمه علم القرآن كما تواترت به الروايات

عن جميع أصحابه ، فقد قال عليه السلام : علّمني رسول الله ألف باب من العلم يفتح لي من كل باب ألف باب[1].

وبعبارة أخصر : إنّ الذي يريد أن يهديه الله بالنور الذي جاء من عند الله الى سبل السلام يلزمه أن يعمل عملاً يقطع بأنه يرضي به الله وبعد ذلك يطلب من الله أن يهديه الى سبل السلام، ولا يتحقق ذلك إلا بنية صحيحة وطريق قد دلّنا عليه الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله بأمر من الله تعالى ، فلا يخدع الانسان نفسه ولا يكون لعبة للشيطان .

ماقاله المراغي :

قال في تفسير هذه الآية : قوله « من اتّبع رضوانه » أي من كان همّه من الدين ابتغاء رضوان الله ، لا تقرير ماألفه ونشأ عليه وأخذه من أسلافه مع ترك النظر والاستدلال .

و« السلام » بمعنى السلامة ، أي طرق السلامة من كل مخافة .

وقوله : «**من الظلمات الى النور**» أي من ظلمات الكفر الى نور الايمان.

وقوله : « **باذنه** » أي بإرادته أو بتوفيقه بالجري على سنّته تعالى في تأثير الأعمال الصالحة والعقائد الصحيحة في النفوس وإصلاحها إياها .

وقوله : « **الى صراط مستقيم** » أي الى الدين الحق لأنه واحد ومتفق من جميع جهاته ، أما الباطل فمتعدد الطرق وكلها معوجة ملتوية .

وقد ذكر سبحانه للكتاب ثلاث فوائد :

١ ـ إنّ المتبع لما يرضي الله بالايمان بهذا الكتاب يهديه الى الطرق التي يسلم بها في الدنيا والآخرة من كل مايقرن من الشقاء والهلاك ، فيقوم في الدنيا بحقوق الله والحقوق الواجبة عليه لنفسه ـ روحية كانت أو جسدية ـ وللناس ،

(١) تفسير نور الثقلين : ج٤ ص٤٤٤ ح١٢ .

ويكون في الآخرة منعماً نعيماً روحياً وجسدياً . وخلاصة ذلك : أنه يتبع ديناً يجد فيه مايوصله الى السلامة من الشقاء في الدنيا والآخرة لأنه دين الاخلاص والعدل والمساواة .

٢ ـ إنه يخرج معتنقيه من ظلمات الوثنية والأوهام والخرافات ـ التي أفسد بها رؤساء جميع الأديان ـ الى نور التوحيد الخالص الذي يجعل صاحبه حراً كريماً بين يدي الخلق خاضعاً للخالق وحده .

٣ ـ إنه يهدي الى الطريق الموصل الى المقصد والغاية من الدين اذا اعتصم به من اتبعه على الوجه الصحيح الذي انزل لأجله كما عمل بذلك أهل الصدر الأول من الصحابة والتابعين لهم بإحسان[١] انتهى .

ماقاله الفخر الرازي :

قال في تفسير هذه الآية المباركة : ثم قال تعالى : « يهدي به الله » أي بالكتاب المبين « من اتّبع رضوانه » من كان مطلوبه من طلب الدين اتباع الدين الذي يرتضيه الله تعالى ، فأما من كان مطلوبه من دينه تقرير ماألفه ونشأ عليه وأخذه من أسلافه مع ترك النظر والاستدلال فمن كان كذلك فهو غير متبع رضوان الله تعالى .

ثم قال تعالى : « سبل السلام » أي طرق السلامة ، ويجوز أن يكون على حذفنا المضاف أي سبل دار السلام ، ونظيره قوله : « والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضّل أعمالهم * سيهديهم »[٢] ومعلوم أنه ليس المراد هداية الاسلام بل الهداية الى طريق الجنة[٣] .

قوله تعالى : « ويخرجهم من الظلمات الى النور بإذنه » لقد جمع الظلمات

---

(١) تفسير المراغى : ج٦ ص٨٠ ـ ٨١ .
(٢) محمد : ٤ و٥ .
(٣) تفسير الرازى : ج١١ ص١٩٠ .

لأنَّ طرقه متكثرة متعددة وطريق النور واحد جلي، أي يخرج الله الذين يريدون اتباع رضوانه من طرق الكفر والنفاق والشك ـ فإنها طرق ذوات شعب ـ الى طريق الحق، وهو طريق واحد واضح جلي، اذا دخل الانسان في أوله بنية صادقة وسريرة حسنة صالحة وبقي ملازماً ثابتاً على هذه النية لايرى فيه اذاً مايحيّره في الطريق ولايزلّ فيه ولايعارضه أحد ولاشيء آخر من حجر أومدر أو شجر أو شوك ولاتعترضه ظلمة ولايصده صادّ مادام على هذه النية لأنَّ دخوله يكون « بإذنه » أي بإذن الله وإرادة الله وبتوفيق الله، ويكون دخولهم بهذا الطريق الذي عبّر الله عنه بقوله: « يهديهم الى صراط مستقيم » والمقصود منه هو طريق الدين الحق الذي لاالتواء فيه ولاعوج ولاميل ولاانخفاض ولاارتفاع، فيكون دخولهم فيه موصلاً لهم الى الجنة، فيدخلون الجنة في راحة وهدوء بلااضطراب ولاارتباك ولاانزعاج ولامشقة، وإنما يخرج من حفرته محاط بذلك النور الذي دخل فيه بإذن ربه ويسير سيراً مستقيماً حتى يدخل الجنة.

هذا كله لمن عمل لأجل رضوان الله بالطريقة التي أمره الله بها متبعاً للدليل الذي نصبه الله له في دار الدنيا آخذاً دينه عن الله، لامن رأيه ولامن رأي بشر لم يجعله الله دليلاً ومرشداً لغيره.

قوله تعالى: لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً ان أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وامه ومن فى الارض جميعاً ولله ملك السماوات والارض وما بينهما يخلق مايشاء والله على كل شيء قدير (١٧).

قوله تعالى: «**لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم**» **إنّ**

هذا القول سببه نقض الميثاق الذي تقدم ذكره ، فإنه لما صار سبباً للّعن والطرد وقسوة القلب فحرفوا الكلم ونسوا حظهم من الدين قالوا بعد ذلك هذا القول ، فحكم الله عليهم بالكفر وصدره بلام القسم، فلايمكن أن يقول أحد بعدم كفرهم بعد حكم الله به .

ثم ردّ الله عليهم بقوله : «**قل فمن يملك من الله شيئاً ان أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وامه ومن فى الارض جميعاً** » .

فإنّ الله يقول لنبيه أن يسأل هؤلاء الكافرين الذين كفروا بقولهم المسيح هو الله فيقول لهم : لو أراد الله أن يهلك المسيح وامّه وجميع من في الأرض فهل يتمكن أحد من أهل السماوات والأرض أن يردّ حكم الله؟ فسوف يكون الجواب من كل أحد : لايتمكن أحد من ردّ الحكم الصادر من الله . وعلى هذا فاذا أراد الله أن يهلك من في الأرض جميعاً أو يملك أحد رده والمسيح هو أحد من في الأرض فكيف يكون هو الله ؟

ثم قال تعالى : « **ولله ملك السماوات والارض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير** » ليعرف هؤلاء الذين كفروا وغيرهم حقيقة الأمر .

ماقاله المراغى :

قال في تفسير قوله تعالى : « قل فمن يملك من ... » : أي فمن يملك من الله شيئاً إن أراد إهلاك المسيح وامّه وأهل الأرض قاطبة؟ فهو صاحب الملك المطلق والتصرف في السماوات والأرض وما بينهما ، أي وما بين العالمين العلوي والسفلي بالنسبة إليكم .

ثم دفع شبهة تحوك في صدورهم من كيفية خلق عيسى فقال : « يخلق ما يشاء » أي أنّ تلك الشبهة التي عرضت لكم وجعلتم تزعمون أنّ المسيح بشر وإله هو أنه خلق على غير السنّة العامة ، وأنه عمل أعمالاً عجيبة لاتصدر من عامة البشر فالله له ملك السماوات والأرض ، ويخلق الخلق على مقتضى مشيئته ، فقد يخلق

بعض الأحياء من مادة لاتوصف بذكورة ولاانوثة كاصول أنواع الحيوان ، ومن ذلك أبو البشر آدم عليه السلام ، وقد يخلق بعضها من انثى فقط ، وقد يخلق بعضها من ذكر وانثى ، وشكل الخلق وسببه لايدل على امتياز لبعضها عن بعض ، ولاعلى الوهية لبعضها ، ولاحلول الاله الخالق فيها ، فسنّة الله في خلق لمسيح ومزاياه لاتدل على كونه إلهاً ورباً، لأن هذه المزايا في الخلق كلها بمشيئة الخالق ولا يخرج المخلوق عن كونه مخلوقاً .

« والله على كل شيء قدير » وبقدرته يخلق مايشاء، فتارة يخلق الانسان من الذكر والانثى، وتارة بدون أب ولام كمافي آدم عليه السلام، واخرى من ام ولاأب له كما في عيسى عليه السلام .

والخلاصة: إن كل ما تعلّقت به مشيئته ينفذ بقدرته، وإنما يعد بعضه غريباً بالنسبة الى علم البشر الناقص لابالنسبة اليه تعالى . وكذلك غرابة بعض أفعالهم قد تكون عن علم كسبي يجهله غيرهم ، أو عن تأييد رباني لاصنع لهم فيه ولا تأثير[1] .

قوله تعالى : وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السماوات والارض وما بينهما واليه المصير (١٨) .

ماقاله المراغي :

قال في تفسيره لهذه الآية: روى ابن اسحاق وابن جرير وابن المنذر والبيهقي

(١) تفسير المراغي : ج٦ ص٨٣ – ٨٤ .

في الدلائل عن ابن عباس قال: أتى رسول الله ﷺ ابن ابي وبحري بن عمرو وشاس ابن عدي من اليهود فكلمهم وكلموه ودعاهم الى الله وحذرهم نقمته فقالوا: ما تخوفنا يا محمد؟ نحن أبناء الله وأحباؤه. كما قالت النصارى ذلك، فأنزل الله فيهم: «**وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه**» الى آخر الآية.

وقد جاء إطلاق هذا اللفظ «أبناء الله» في الانجيل على الملائكة وعلى المؤمنين الصالحين كما حكاه (متّى) في وعظ المسيح على الجبل من قوله: طوبى لصانعي السلام، لأنهم أبناء الله يدعون. وكقول بولس في رسالته الى أهل رومية: لأنّ كل الذين ينقادون بروح الله فاولئك هم أبناء الله.

ومن هذا يعلم أنّ «ابن الله» يستعمل في كتبهم بمعنى حبيب الله الذي يعامله معاملة الأب لابنه من الرحمة والاحسان والتكريم، ولكن النصارى تحكّموا في هذا اللقب فجعلوه بمعنى الابن الحقيقي للمسيح، وبالمعنى المجازي بالنسبة الى غيره من الصالحين.

وقد ردّ الله عليهم بقوله: «**قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء**» أي قل لهم أيها النبي: اذا كان الأمر كما زعمتم فلم يعذبكم الله بذنوبكم في الدنيا كما ترون من تخريب الوثنيين لمسجدكم الأكبر ولبلادكم المرة بعد المرة ومن إزالة ملككم من الأرض؟ والأب لا يعذب ابنه والحبيب لا يعذب حبيبه، فلستم إذاً أبناء الله ولا أحباؤه، بل أنتم بشر من جملة ما خلق، والله سبحانه لا يحابي أحداً، وإنما يغفر لمن يعلم أنه مستحقّ للمغفرة ويعذب من يعلم أنه مستحقّ للعذاب، فارجعوا عن غروركم بأنفسكم وسلفكم وكتبكم، وكل هذا لا يجزيكم فتيلاً ولا قطميراً، وإنما الذي ينفعكم هو الايمان الصحيح وصالح الأعمال، فالجزاء إنما يكون عليها لا على الأسماء والألقاب.

«**ولله ملك السماوات والارض ومابينهما واليه المصير**» أي أنه تعالى الخالق ذو التصرف المطلق في كل شيء بمقتضى علمه وحكمته وعدله وفضله،

وجميع المخلوقات عبيد له لاأبناء ولابنات « إن كلّ من في السماوات والأرض إلاّ آتي الرحمن عبداً »[١].

وفي ختمها بقوله «واليه المصير» إشارة الى أنه سيعذبهم في الآخرة على هذا الكفر والعداوة الباطلة ، وأنهم عندما يصيرون إليه يعلمون أنهم عبيداً يقون يجازون ، لاأبناء ولاأحياء يحابون .

وقد كان اليهود يعتقدون أنهم شعب الله الخاص ميّزهم عن سائر البشر، فليس لشعب آخر أن يطلب مساواته بهم وإن كان أصحّ منهم إيماناً وأصحّ أعمالاً ، ولاينبغي أن يتبعوا محمداً ﷺ لأنه عربي لاإسرائيلي ، والفاضل لايتبع المفضول ، والله لايعاملهم إلا معاملة الوالد لأبنائه الأعزاء .

والنصارى قد زادوا عليهم غروراً، فهم قد ادعوا أنّ المسيح قد فداهم بنفسه وأنهم أبناء الله بولادة الروح والمسيح ابنه الحقيقي ويخاطبون الله تعالى بلقب الأب.

وقد جاهد النبي ﷺ غرور اليهود جهاداً عظيماً ولم يُجدِ ذلك فيهم شيئاً فرفضوا دعوته وردوا ماجاءهم به من أنّ العمل مرضاة الله وبه تنال تزكية النفس وإصلاحها كما جاهد صلف النصارى وكبرهم ، وكانوا زمن التنزيل أشد من اليهود فساداً وظلماً وعدواناً بشهادة المؤرخين ، ومع كل هذا يدعون أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأنهم ليسوا في حاجة الى إصلاح دينهم ولادنياهم كما فعل اليهود مثل ذلك .

والخلاصة : إنّ هذه الآيات تبيّن لنا سنّة الله في البشر ، وأنّ الجزاء إنما يكون على الأعمال لاعلى الأسماء والألقاب[٢].

قوله تعالى : ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على

---

(١) مريم : ٩٣ .

(٢) تفسير المراغي : ج٦ ص٨٤ ـ ٨٦ .

فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير (١٩) .

ماقاله المراغي :

قال في تفسيره للآية: قد جاءكم رسولنا الذي بشرتم به في كتبكم وأخبركم به أنبياؤكم، فقد جاء على لسان موسى: أنه سيقيم نبياً من بني إسماعيل إخوتكم وعلى لسان عيسى : أنه سيجيء البارقليط روح الحق الذي يعلمكم كل شيء ، وفي الانجيل الرابع : أن اليهود أرسلو كهنة ولاويين (أحباراً) فسألوا يوحنا عليه السلام : أأنت المسيح ؟ قال : لا أأنت إيليا ؟ قال : لا ، أأنت النبي ؟ قال : لا .

هذا الرسول هو محمد بن عبدالله الأمي يبين لكم على فترة من الرسل ـ أي على انقطاع منهم وطول عهد بالوحي ـ جميع ما أنتم في حاجة اليه من امور دينكم ودنياكم من عقائد أفسدتها عليكم نزغات الوثنية وأخلاق وآداب صحيحة أفسدها عليكم إفراطكم في الامور المادية والروحية وعبادات وأحكام تصلح امور الأفراد والمجتمع .

ويدخل في ذلك ما بينه لكم مما كنتم تخفون من الكتاب لاقامة الحجة عليكم، ولولا أنه رسول من عند الله لما تسنى له أن يعرف شيئاً مما جاء به ، وقد ارسل صلوات الله عليه وقد فشا التغيير والتحريف في الشرائع المتقدمة لتقادم عهدها وطول زمانها ، فاختلط فيها الحق بالباطل والصدق بالكذب ، وصار ذلك عذراً ظاهراً في إعراض الخلق عن العبادات ، إذ لهم أن يقولوا : يا إلهنا عرفنا أنه لابد من عبادتك ولكن كيف نعبدك ؟

فبعث الله محمداً ﷺ في ذلك الحين لازالة هذا العذر الذي بينه سبحانه بقوله : «**أن تقولوا ماجاءنا من بشير ولانذير**» أي إننا إنما بعثنا إليكم كراهة

أن تقولوا ماجاءنا من بشير يبشرنا بحسن العاقبة للمؤمنين، وينذرنا بسوء عاقبة المفسدين الضالين.

ثم بيّن أنه أزال هذا العذر فقال: **«فقد جاءكم بشير ونذير»** يبيّن لكم أمر النجاة والخلاص والسعادة الأبدية وأنها منوطة بالايمان والأعمال وأنّ الله لايحابي أحداً.

«والله على كل شيء قدير» ومن دلائل قدرته نصر نبيه محمداً ﷺ وإعلاء كلمته في الدنيا، وفي ذلك رمز لكم إن كنتم من ذوي الأحلام الى مايكون له من المنزلة في الدار الآخرة.

روى ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: دعا رسول الله ﷺ يهوداً الى الاسلام فرغّبهم فيه وحذرهم فأبوا عليه، فقال لهم معاذ بن جبل وسعد بن عبادة وعقبة بن وهب: يامعشر يهود اتقوا الله، فوالله لتعلمنّ أنه رسول الله، لقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه وتصفونه لنا بصفته، فقال رافع بن حريملة ووهب بن يهودا: إنّا ماقلنا لكم هذا، وما انزل من الكتاب من بعد موسى ولاأرسل الله بشيراً ولانذيراً بعده فأنزل الله الآية[1] انتهى.

أيها المسلمون تأمّلوا في هذه الآيات التي نزلت في حقّ اليهود والنصارى فإنها صريحة في كفرهم وأنهم خرجوا عن دين الله وعن امّة نبيهم، فأنزل الله على خاتم الأنبياء كتاباً وفيه آيات تعلن كفرهم للملأ أجمع، وهذه الآيات لايمكن أن تأتي عليها نسخ ولايمكنهم التلاعب بها وتحريفها كمافعلوا في التوراة والانجيل فهم ملعونون على لسان النبي الامّي وعلى لسان امّته التابعين له الى يوم القيامة.

أيها المسلمون إنّ هؤلاء الفرق إنما استحقوا اللعن لأنهم نقضوا الميثاق ونكثوا العهد، فعلى كل مؤمن مصدق بالنبي محمد ﷺ أن ينبذهم ويلعنهم ولا

(١) تفسير المراغي: ج٦ ص٨٦ ــ ٨٧.

يواليهم ولا يقربهم .

أيها المسلمون إنّ من يتولّاهم منكم يكون ممن نقض الميثاق وخان الله ورسوله، فهو مستحقّ للطرد واللعن ومحكوم بالكفر وخارج عن امّة محمد ﷺ.

وحيث إنه يوجد في المسلمين من يخون المسلمين ويوالي أعداء الله ويمكنهم من التسلّط على المسلمين ولا ينهاه بقية المسلمين عن فعله هذا إما لعدم علمهم أو يظنون أنّ هذه الخيانة إنما تضرّ الخائن وحده ، ولكنهم اذا سكتوا عنه يعمهم العذاب ولذا تضرر جميع المسلمين بسلب أراضيهم وقتل الرجال وسبي النساء،وفي الوقت نفسه يحاول العدوّ الصهيوني تهويد هذه المناطق، فاذاً لا يمكنهم والحالة هـذه تدارك ذلك مالم يرجعوا الى الله ويعملوا بأحكامـه ويقاطعوا عملاء الكفر الذين يكيدون المسلمين .

أيها المسلمون يمكنكم في التفاتة قصيرة أن تتداركوا جميع هـذه الامور وتتخلّصوا من جميع هذه المصائب وترجعوا الى عزكم وشرفكم .

إنّ هذه الالتفاتة هـي : أن تعرفوا أنفسكم أنكم نقضتم الميثاق ، فتواثقوا الله من جديد ، تواثقوه ميثاقاً صادقاً عن نية صحيحة وسريرة طاهرة فإنه تعالى يقول :« إن تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم »[1] ومعنى نصرة الله نصرة دينه ونصرة شريعته ونصرة نبيّه ﷺ .

ثم ذكر الله بعـد ذلك ماقالـه لهم موسى حيث ذكّرهـم بنعمة الله عليهم وأمـرهم بحرب عدوهم ، فخالفوا وعصوا ، فـابتلاهم الله بما ابتلاهم بـه ، فقال عزّوجلّ :

وإذ قـال موسى لقومه ياقوم اذكـروا نعمة الله عليكم اذ

---

(١) محمد : ٧ .

جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم مالم يؤت أحداً من العالمين (٢٠) ياقوم ادخلوا الارض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين (٢١) قالوا ياموسى ان فيها قوماً جبارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان يخرجوا منها فانا داخلون (٢٢) قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين (٢٣) قالوا ياموسى انا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا انا هاهنا قاعدون (٢٤) قال رب انى لا أملك الا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين (٢٥) قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الارض فلاتأس على القوم الفاسقين (٢٦) .

ماقاله الطنطاوى :

قال في تفسيره لهذه الآيات السبع : «**واذ قال موسى لقومه**» شرع بكل قصص بني إسرائيل إذ خرجوا من أرض مصر« **ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم أنبياء** » فأرشدكم وشرفكم ، وقد تقدم ملخصه من التوراة منقولاً من سفر التثنية «**وجعلكم ملوكاً**» **أي** جعل منكم ملوكاً « **وآتاكم مالم يؤت أحداً من العالمين** » كما قال في سفر التثنية المتقدم : **إن** اليوم الذي خلق الله فيه الانسان على الأرض ومن أقصاء السماء الى أقصائها ، هل جرى مثل هذا الأمر العظيم وهل سمع نظيره ... الخ ؟

وهذا هو معنى الآية هنا « **ياقوم ادخلوا الارض المقدسة** » ولقد عرفتها وهي ما بعد نهر الاردن التي منع موسى من دخولها ووعد بها فتاه « **التي كتب الله لكم** » قسمها لكم « **ولا ترتدوا على أدباركم** » ولا ترجعوا مدبرين خوفاً من الجبابرة « **فتنقلبوا خاسرين** » ثواب الدارين .

« **قالوا ياموسى ان فيها قوماً جبارين** » لا تتأتي مقاومتهم ، وقد تقدم إيضاحه في التوراة «**وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان يخرجوا منها فانا داخلون** » .

«**قال رجلان من الذين يخافون**» أي يخافون الله تعالى وهما كالب ويوشع « **أنعم الله عليهما** » بالايمان والثبات «**ادخلوا عليهم الباب**» باب قريتهم « **فاذا دخلتموه فانكم غالبون** » كما جاء في الوحي لموسى .

وأما قوله : «**وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين**» الى قوله : « **انا هاهنا قاعدون**» فهو مفهوم ، ويقصدون من قولهم «**اذهب أنت وربك**» الاستهانة بالله ورسوله .

فبث شكواه الى الله «**قال رب اني لا أملك الا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين** » .

«**قال فانها**» أي الأرض التي وعدوا بها «**محرمة عليهم أربعين سنة**» لا يدخلونها حتى يفنى هذا الجيل الجاهل الشرير « **يتيهون في الارض** » يسيرون فيها متحيرين « **فلا تأس على القوم الفاسقين** » .

لقد فسرت لك هذه الآيات في هذا المقصد تفسيراً ينطبق على الحياة الاجتماعية الاسلامية وقلت: إن المسلمين عاهدوا الله، وبنو إسرائيل عاهدوه أيضاً، فأما بنو إسرائيل فإنهم خالفوا موسى وجبنوا عن محاربة الكنعانيين ، فحرمهم الله ولم يدخلوا البلاد إلا أبناءهم . وهكذا النصارى تغالوا في الدين وتفاخروا بقربهم من الله فجعلهم فرقاً متشاكسين ... الى آخره . وأزيد الآن إيضاحاً للمقام فأقول :

أيها المسلمون في أقطار الأرض ، لم ينزل القرآن لمجرد التلاوة. احذروا احذروا ، وهذه القصص لاتقصد لغيرنا، مالنا وللامم السابقة، إنما قصصهم عبرة ، والعبرة هنا أنّ بني إسرائيل قست قلوبهم ، وهكذا المسلمون قست قلوبهم وغلظت نفوسهم فانكبوا على الفقه عاكفين وظنوا أنّ مذاهبهم هي كل شيء في الدين ، فنسوا جمال الله في الأرض والسماوات ، وجهلوا خلق الكائنات ، فأذلّتهم الفرنجة لأنهم جاهلون ، وقتلوهم لأنهم نائمون .

ولما طغوا في العقائد وتفرقوا فرقاً أوقع العدواة فيما بينهم كما حصل للنصارى ، ثم زاد المسلمون المتأخرون فتغالوا في الاسلام وجعلوا أنّ كل من انتسب إليه فهو ناجٍ ، ففعلوا كما فعل اليهود والنصارى وكأنهم أيضاً يقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه ، وهذا هو الغرور الباطل كما تقدم في سورة النساء «ليس بأمانيّكم ولاأمانيّ أهل الكتاب »[1] فهذه التي هنا وهي آية المسيح يراد بها أن لايتغالى المسلمون في الاغترار بالدين وإنما لكل امرىء ما كسب وعليه ما اكتسب ، هذا هو القصد من هذه الآيات .

وأيضاً يفيدنا الله قائلاً : أيها المسلمون اذا رأيتم الأعداء حلّوا بساحتكم فاعلموا أنّ الذي يخرجهم إنما هو الصبر والقوة والجلد والعزيمة ، وأن يظهر جيل جديد يخرجهم ، وأنّ من يعيشون في نعيم وترف أحكم عليهم بالهلاك والدمار ، أما اولئك الذين يعيشون في شظف العيش فإنهم أقوياء البنية يجدون نشاطهم ويرجعون مجدهم ويرفعون لواءهم .

وكأنه يقول: أيها المسلمون اذا رأيتم هذا الجيل خاضعاً للفرنجة فربّوا أولادكم على الشهامة والمروءة كما ربيت بني إسرائيل في الصحراء تقوية لأبدانهم وتعويداً لهم على الاحتمال والصبر .

وإن شئت فاقرأ هذا المقام في سورة البقرة عند قوله : « أتستبدلون الذي

---

(١) النساء : ١٢٣ .

هو أدنى بالذي هو خير »[1] ثم ذكر أنهم ضربت عليهم الذلة والمسكنة ، فاقرأ هذا الموضوع هناك فإنه مستوفى ، ولكن هنا بعض زيادات نافعة فافهم[2] انتهى.

إنّ هذهالآيات (من آية ٢١ الى٢٦) قدذكرالله فيها صفاتاليهود والنصارى المذمومة التي تسببت من نقض الميثاق، فلما ارتكبوا قبل كل شيء هذا الفعل تبعه لعن الله لهم وقست قلوبهم وصاروا يحرّفون الكلم عن مواضعه وتفرقوا ووقعت بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة ، وآخر أمرهم صاروا تائهين في الصحراء، وضربت عليهم الذلّة والمسكنة .

وإنّ المسلمين لما نقضوا الميثاق قد ابتلوا بهذهالخصال كما ابتلى بها غيرهم حتى تفرقوا ووقعت بينهم العداوة والبغضاء ووقع الحرب بينهم وقتل بعضهم بعضاً وخرج بعضهم عن دين الاسلام لموالاتهم الكافرين وإطاعتهم لهم .

إنّ هذا العصر هو القرنالرابع عشرالهجري الذي يعبّر عنه بعضالمسلمين بالقرن العشرين ، وذلك أنّ الانكليز لما فتحوا العراق وأخرجوا منهالعثمانيين بدلوا التاريخ الهجري وأحلّوا مكانه التاريخ الميلادي ، وكذلك جعلوا الشهور الهجرية شهوراً ميلادية ، وكذلك بالنسبة الى التوقيت استعيض عنه بأن جعلوا مبدأ الساعة من الزوال الى منتصف الليل ، فطاب للناس هذا في عصرنا الحالي وبقوا ملازمين لها ، كما طاب لهم أغلب الأشياء التي يستعملها الغرب المستعمر فلازموها وواظبوا عليها وإن كانت موجبة لنقض الميثاق الذي واثقوا الله عليه من توحيده ونصرة نبيه ﷺ ودينه وغفلوا عمّا أعطاهم الله بدلاً عن هذه الامور الثلاثة ، والبدل هو ذلك الأمرالعظيم المهمّ الذي يكونفيه نجاحالدنيا والآخرة ألا وهو الظهور على الأعداء في الدنيا ورضوان الله والجنة في الآخرة .

ولما نقضوا الميثاق أصابهم ما أصاب بنيإسرائيل من الامورالمتقدم ذكرها

---

(١) البقرة : ٦١ .

(٢) تفسير الجواهر : ج٣ ص١٤٣ — ١٤٤ .

وتغلب عليهم أعداؤهم ، وأخذوا ديارهم وقتلوا رجالهم وسبوا نساءهم وفعلوا الأفاعيل الغريبة ولم يلتفت المسلمون .

قوله تعالى : واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق اذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الاخر قال لاقتلنك قال انما يتقبل الله من المتقين (٢٧) .

إنّ قصة ابني آدم لاتدخل في موضوع بحثنا ، ولكن لما ذكرها الاستاذ الطنطاوي في تفسيره ووصل الى قصة الغراب ذكر اعتراضاً من أحد أصدقائه ، ثم أجاب عنه فأحببت أن أذكر ما كتبه فإنه لايخلو من فائدة ، قال :

بينما أكتب هذه الكلمات إذ حضر عندي فاضل من الأذكياء واطّلع على ما كتبته فقال : لم أورد الله هذه القصة وأنت تعلم أنّ عقول الناس ليس عندها متسع لمثل هذا ؟ وما المناسبة بين ما تقدم وبين القصة؟ وما لنا ولآدم وبنيه ونحن في القرن العشرين ؟ فما فائدتنا والمدنية الحاضرة قد رقت الامم ونحن نرجع الى أشياء كانت في القرون الاولى ولا ندري ماذا فعل الزمان بها؟ ومافائدة ذكر الغراب وحسد ابن آدم ؟ إنّ الشكّ والكفر يرفرفان على عقول جميع المتعلّمين الأذكياء في البلاد الاسلامية، فإن لم تأت بجواب شاف فإني قلت لك الحقيقة ناصعة بيضاء وأنت تعلم أنّ ديننا هو آخر الأديان والله يظهره على الدين كله ، أبمثل دفن الغراب يظهره على الدين كله وهذا عصر الكهرباء والبخار والطيارات والعجائب والكشف الحديث؟ فأين العلوم وأين المعارف وأين عجائب القرآن ؟

فقلت له: لو لم يكن في القرآن سوى هذه القصة لكفت في الاعجاز والسوق الى مافوق المدنية الحاضرة، إنّ هذه القصة لا تقنع بالمدنية الحاضرة، إنها ترمي الى أشياء لم يعلمها البشر، هي تشير الى أنّ الناس نائمون، وبالفكر في أمثال هذا القول يستيقظون.

هذه الآية فتحت باب السعادة الانسانية والمحبة الأخوية والمودات الآدمية والاخلاص وإشراف القلوب ونزع مافي الصدور وارتقاء سائر نوع الانسان مسلمين وغير مسلمين ، ولكنها في الوقت نفسه توبخ المسلمين أشدّ توبيخ وتقرعهم أعظم تقريع ، وتطالب من النوع الانساني أن يصل الى منتهاه وأن يرقى الى أقصى مداه.

فقال ذلك الفاضل: إنما تقوله لي الآن أشبه بأقوال الصوفية في هذا العصر الذين يمدحون الدين ولا يأتون سراً من أسراره ولا نبأ من أحـواله ، وإنما هي كلمات يتلفظونها وأقوال يزخرفونها كابراً عن كابر ، وإذا سألتهـم : أين تلك العجائب ؟ ظهر عجزهم وأضلوا سواء السبيل ، فافصح ما قلت .

فقلت : الاجابة عن السؤال:

ألم يتقدم في هذه السورة الصيد حلاله وحرامه وحلّ النساء ؟

قال : بلى .

قلت: ألم يذكر فيها اليهود والنصاري وكيف تغالوا في الدين وأنّ الاسلام قد جاء لاصلاح ماأفسده الزمان من العقائد والمغالاة في الدين بالوهية الأنبياء أو بغفران الذنوب مجاناً لانتساب الناس الى الدين ؟

قال : بلى .

قلت : أو لم أقل إنّ المسلمين لم يذكر لهم هذا إلا ليحترسوا من ذلك التفرق ! وقد وقعوا فيه فتفرقوا واقتتلوا كما اقتتل النصارى ورجعوا الى التواكل واعتقاد الغفران لأجل الدين كما فعل أهل الكتاب .

قال : بلى .

قلت له : إنّ الله جاء بهذه القصة التي هي من جملة القرآن لتكون بلسماً يداوى به جراح الامم الاسلامية في هذا الزمان وفي مستقبل الزمان ، هذه القصة قصّها الله لهذا .

فقال : وكيف ذلك ؟

قلت: أنت تعلم أنّ الفطرة الانسانية فيها غريزتان لاينفكّ الانسان عنهما ولايعيش إلا بهما .

أحدهما: أنه يحبّ أن يختصّ وحده بكل مكرمة ونعمة. فهو أبداً يحبّ أن يكون لـه السبق والفضل في كل شيء ، في المال ، في الجمال . في العلم ، في الملك ، في الشهرة ، في الجنّة ، في عالم الملائكة ، في كل مايسمعه أو يقرأه .

وثانيهما : أنه يحبّ من حوله ويودّ ليكون معه قوم كثيرون ليساعدوه في اموره .

فهو إذاً بين متناقضين في الغريزة ، أولاً الاختصاص ، وثانياً الاجتماع، ولا اجتماع إلا حيث يكون الناس لهم حياة ، والحياة ذات مزايا كثيرة . فالانسان لما كان روحاً عالية شريفة أحبّ الانفراد بالعلو ، ولما كانت تلك الروح تنزلت الى عالمنا الأرضي الضعيف المتأخر وسكنت هذه البنية احتاجت البنية الى المساعدة من الأهل والأقارب وأهل الوطن وسائر أفراد الامّة وجميع الامم .

وهاتان الغريزتان أبداً تتجادلان في الانسان، فإن غلبت الاولى وقع الانسان في الظلم والحسد والكبر وأمثالهما ، وإن غلبت الثانية ربما أضرّ بنفسه وتنزّل الى المذلّة والصغار واستسلم للفقر والاحقار، فان اعتدلا اعتدل الانسان وسار سيراً حسناً في حياته مع الناس أجمعين .

فالحاجة الى اجتماعه بأبناء جنسه حملته على مزايا شريفة كثيرة كالندم على مايفرط منه لهم والحزن والكآبة عليهم وكمساعدتهم في السراء والضراء وما أشبه ذلك ، فهذه المزايا مغروزة في نفوسنا ثابتة لايزحزحها فلسفة ولايبعدها زخرف من القول زور .

والعقل الانساني هو الذي يتصرف في هاتين الغريزتين ببصيرته حتى لاتطغى إحداهما على الاخرى ، فلاحبّ الانفراد يعمينا عن المساعدة الأخوية ولاالمحبة الأخوية تصدنا عن حفظ أنفسنا والعمل لاسعادها.

قال : بلى ثم ماذا ؟

قلت : وأنت ترى أنّ هذا العقل المتصرف في هاتين الغريزتين ينظر فيما حوله ويتعرف عجائب هذه الدنيا فيدرس نظامها ويتخذ لنفسه من كل شيء أحسنه فاذا رأى النبات زرعه وجدّ في إنمائه ، أو الحيوان اجتهد في تذليله وتعلّم من صناعاته، فنسج كالعنكبوت وطار في الطيارات كالطيور وسبح في البحر كالسمك، وصنع القناطر على البحار كما تصنع القرود من أنفسها تحت شجرة على شاطىء النهر ، ويأتي أحدها ويتعلّق بالشجرة ويمسك به آخر ، وهكذا يمسك بعضها ببعض فيصير منها شبه جسر طويل متصل بعضه ببعض ، ثم يأتي أسفلها ويمدّ رأسه الى جهة الشطّ الآخر، وتتجه جميع القردة المتصلة بعضها ببعض الى الشطّ الآخر، فما أسرع أن يصل القرد الأسفل الى الشجرة من الجهة الاخرى من النهر، ويمسك بالشجرة ذلك القرد الذي كان أدنى . وهنا تمت القنطرة التي تصنعها القردة محدبة بوضع هندسي ، ثم تمرّ القردة الصغار على هذه القنطرة وهنّ يتغامزن ويضحكن ويجرين فوق القنطرة القردية، فاذا انتهى المرور ثبت القرد الذي في الشطّ الآخر في مكانه فوق الشجرة متمسكاً بها وأنزل يديه الى القرد الذي تمسك بالشجرة الاولى في الشطّ الأول ، ومتى ترك الشجرة رأيت هذه القنطرة كلها أصبحت صفاً واحداً في الشطّ الثاني معلّقاً في القرد الذي استمسك بالشجرة الثانية. وحينئذٍ ماأسهل أن يجري كل واحد في الأرض الفضاء آمناً مطمئناً ، واذا رأى الرياح والنمل والحشرات تلقح الزرع ولاعلم لها به فليقيم هو بالالقاح ليزيد النماء والخير والبركات، واذا رأى الشمس والكوكب أضاءت له السبل فإنه يقلّد الطبيعة ويأتي بالسرج التي توقد في منازله ، وهكذا يتعلّم الانسان مما حوله كل ما استعدت له نفسه من السعادة، أليس كذلك؟

قال : بلى .

قلت : لننظر في الآية الآن أليست هذه الآية جاءت للبحث في الفطرة

الانسانية الخالصة من كل شائبة ؟ أليس قتل قابيل لهابيل راجعاً للغريزة الاولى ؟

قال : بلى .

قلت : أليس استسلام هابيل لقابيل راجعاً للاستسلام للعاطفة الثانية وإنكار الذات كل الانكار ؟

قال : بلى ، وإني معجب بهذا القول وأول مرة سمعت هذا في تفسير هذه الآية .

قلت : أليس هابيل لما استسلم للعاطفة الثانية كان جزاؤه القتل من أخيه؟

قال : بلى ، وهذا لايرضاه ديننا وإن كان دين المسيح يرضاه ، ومع ذلك ترى المسيحين تركوا هذا كله .

قلت : ألست ترى أنّ الغريزة والفطرة قد أوجبت عليه أن يندم ويحزن وقد حار في أمره ؟

قال : بلى .

قلت : ولما لم يهتد الى مسألة الدفن جاء له الغراب فأراه الدفن ؟

قال : بلى .

قلت : أليس هذا هو فعل العقل وأنه يجب أن يسيطر إما بالتعليم وإما بما يحدثه الله للانسان من الحوادث التي توقعه في النكبات فتنفتح بصيرته للفهم والتعقل فيدرك الحقائق؟ واذا رأى قابيل غراباً يبحث في الأرض وقت حزنه فقلّده ودفن أخاه فكم رأى من غراب وحية وأسد ونملة ونحلة وهو يطّلع على عجائبها في كل يوم ولا يفكر ولا يعقل ماتفعل ، ولكن لما وقع في النوائب استعمل عقله فتعلّم مما حوله وهو الغراب .

قال : هذا كلام حسن وجميل .

قلت له: فلذلك قال الله إنّ عاطفة الانفراد لماتغلّبت على عاطفة الاجتماع وأصبح الناس يقتل بعضهم بعضاً وغلب الظلم عليهم قديماً وحديثاً حتى نسوا عقولهم

ولم يفكروا في أمرهم كتبنا فيما شرعنا في كل دين من الديانات أنّ القتل إثمه عظيم وأنّ حياة الانسان شريفة .

قال : لم يقل الله ذلك فأوضح .

قلت : ألست تعلم مما ذكرناه في أول سورة النساء أنّ الناس على وجه الأرض كأنهم شخص واحد ، وأنّ بني آدم على ظهر الكرة الأرضية متضامنون وإن لم يعلموا متعاونون وإن لم يعرفوا، أنه لافرق بين النحل وتلقيحها الأشجار وهي تجهل ذلك أثناء شربها العسل من الزهرات وبين الانسان ، فإنّ كل امّة تخدم سائر الامم وهي غافلة عما تفعله ، بل تحارب كل امّة الاخرى وهم جميعاً غافلون نائمون ، لايعلمون أنهم بهذا ينقصون الثمرات التي هي خير للجميع ! .

قال : أوضح .

قلت : إنك ترى أنّ القطن في بلادنا المصرية لو حصل في بلاد الصين أو اليابان نكبة وفقر ولم تأخذ من قطننا أفليس ذلك يكون نكبة علينا ؟

قال : بلى .

قلت : اذا لم نأخذ نحن معاشر المصريين الشاي الوارد من الصين أو البن الوارد من اليمن أو الثياب المصنوعة في اوربا أفليست كل تلك الامم تتأثر وتنقص ثمراتها بنسبة عدم شرائنا ؟

قال : بلى .

قلت: أفلست ترى هذا الانسان المسكين تحارب كل امّة منه الاخرى وتقتل رجالها وهم لايحفلون بتلك المساعدة الخفية ؟

قال : بلى .

قلت : فالفيلسوف في الصين والهند وفي اوربا والمخترع من هذه الامم يؤثر في امّته مباشرة وفي الامم الاخرى إما مباشرة وإما بالواسطة ؟

قال : وكيف ذلك ؟

قلت : فالذي اخترع قطار السكة الحديدية والتلغراف والكهرباء وأمثالها أثر في امّته وفي الامم الاخرى فعلاً .

قال : نعم .

قلت : لكن العالم والمدرس والمهندس وأمثالهم يؤثرون في امّتهم فينفعونها وامّتهم عضو من سائر الامم تفيد في المجتمع .

قال : نعم .

قلت : إذاً العامل الصغير والفلاّح والمزارع كل له عمل في امّته ، وامّته لها فائدة في جميع الامم إجمالاً .

قال : هذا حق .

قلت : هذا معنى الآية ، يقول الله: لما تخلّى الانسان من عقله وترك الكبرياء والحسد يطغيان عليه تارةً فيقتل سواه وتارةً اخرى يقع في التهلكة ولا يستيقظ عقله للتفكّر إلا بعدما يذوق الشدائد كما اتفق لقابيل أرسلت رسلاً وعلّمت الانسان بواسطتهم ، لأنّ غريزة الانسان قد يتركها لهواه وتنوم الشهوات عقله تنويماً مغناطيسياً فلا يستيقظ للفكر إلا بعد حلول النوائب ، ومما قلته في ذلك التعليم « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً »[1] لأنّ الانسانية متضامنة وهو عضو منها « ومن أحياها فكأنّما أحيا الناس جميعاً »[2] .

ومثل هذا يظهر في النابغين والمخترعين الذين يظهر فضلهم لسائر الناس وينفعونهم جميعاً ولكن غير النابغين لا يتفطن لمنفعتهم للانسانية إلا الأقلّون، فعلى ذلك يكون كل من قتل من الناس تعطّلت منفعته عن العموم ، وكل من بقي فمنفعته للعموم .

قال : هذا حسن ولكنه خفي على أكثر العقول .

قلت : فاذا قال في أول السورة إنّ من الصيد ماهو حلال ومنه ماهو حرام

---

(١) و (٢) المائدة : ٣٢ .

وقال أحللت لكم صنف كذا من النساء فقد قال هنا: أيها الناس أنا لم أخلقكم لأجل اللذات ولم تحيوا للشهوات وإنما هذه مقدمات يراد بها الحياة، فإياكم أن تشغلكم شهوات الصيد عن عجائب الطبيعة وغرائبها البديعة كما ترون في غرائـز الغراب من آيـات الله والحكمة وكيف تعلّمتم منه ومن غـيره من الحيوان . فاحذروا أن يلهيكم أكل الحيوان وصيده عن الحكمة والعلم فيه ، وكيف يلهيكم هذا فقد قلت لكم : إنّ ابن آدم دعا بالويل والثبور وقال : كيف جهلت علم الطيور ولم أعرف حفر القبور، فعلى عقولكم فلتبكوا وعلى ضياع عزائمكم فلتحزنوا. وكأنه يقول : اذا أحللت لكم النساء فليس معناه أن تغفلوا عن العدل كما غفل قابيل فقتل أخاه ، ولكن اعدلوا في أعمالكم لتنظيم جماعاتكم وادرسوا علم الطير والأنعام لتنالوا سعادة الحياة والممات .

واذا قـال الله إنّ اليهود والنصارى أفرطوا وأسرفوا في عقائدهم وقلنـا نحن أيضاً إنّ المسلمين قد لحقوهم فيما وقعوا فيه فذلّوا فقد قال الله هناك: أيها الناس ارجعوا الى العقل والتفكير وليرجع الناس لعقولهم ويفكّروا .

وكما أنّ قابيل تنبه الى فعل الغراب بعد الآلام والندم ـ هكذا من أصابهم العطب ونـزل بهم الشقاء مـن الامم ـ فليفزعوا لعقولهم وليفكّروا فيما حـولهم وليتأملوا فيما خلقته لهم .

إنّ المسيحيين لما مسهم الضرّ بسبب عقائدهم العتيقة جـاء الاسلام فحدث وفعل واستنارت عقولهم بسببه .

أما الاسلام فإنّ بعض أهله قـد أصابهم الغرور وناموا نوماً عميقاً فنبههم الله بالمصائب والكوارث ، وقد جاء دورهم فليتنبهوا .

هذا هو الذي انشرح له صدري بالأمّة الاسلام .

أقول لكم وأنا ملزم أن أقول لكم : كيف يقول الله على لسان ابن آدم :

« ياويلتا أعجزت أن أكون مثل الغراب »(١) كيف دعا ابن آدم بالويل والثبور لجهله ؟ وكيف يقال ذلك ؟ ألمجرد حكايات؟ كلاّ ، هل يظن المسلمون أن القرآن يأتي لمجرد الفكاهة ؟ كلاّ ثم كلاّ .

وانظر كيف يقول الله : « فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه »(٢) الله هو الذي يقول بعثت غراباً يعلّم ابن آدم ويريه كيف يواري سوأة أخيه .

أيها المسلمون إن الأمر عظيم ، تضعضع المسلمون وضعفوا ، ومانجاتهم إلا بهذه القصة وأمثالها ، هذه القصة تقول :

إن ابن آدم لما ندم على تفريطه عقل وفهم عن الطير ، وأنا أقول : الله يريد أن يعلّمنا علم مافي الأرض والسماء ، وما الغراب إلا ضرب مثل وإن الحكاية إلا رمز حقاً وليس القصد منه لفظها ، وإذا كان شراح كتاب كليلة ودمنة والوزير الفارسي وكذلك ابن المقفع يقولون : إن الحكايات الخرافية التي فيها تكون تسلية للعامة وعلماً وحكمة وسياسة وفلسفة للخاصة أفلا يكون كتاب الله أولى بهذا؟ فاذا كانت الخرافة تجعل رمزاً للحكمة والفلسفة فما بالك بكتاب الله الذي قال إنه سيظهر على الدين كله .

إذاً المسألة أكبر مما نظن وأعظم مما نفهم ، والمسلمون اليوم لهم حصن يلجأون إليه وملجأ وهو التفكر والتعقل والفهم وجميع العلوم أصبحت هي نفس الدين ، ولم اختار الله الغراب في التعبير؟ الغراب من الحيوانات الفواسق التي ورد الشرع بجواز قتلها كما تقدم .

فاذا كان ابن آدم اذا أخطأت فكرته يرجع الى الحيوان بل الى أقل الحيوان احتراماً في الدين الاسلامي فكيف يكون الفكر في باقي الحيوان وفي علوم الامم وصناعاتها ؟

---

(١) و (٢) المائدة : ٣١ .

نحن أمرنا الله أن نعرف علم الحيوان بل أدنى الحيوان فما بالك بعلم الانسان! فلأقل أنا أيها الاستاذ لك ولتقل لي : يا ويلتنا أعجزنا أن نعرف ما تعرفه الامم التي حولنا فنواري سوأة اممنا الاسلامية فأصبحنا من النادمين ؟ أعجزنا ندرس جميع العلوم ونعرف كل ما خلق الله ليرينا الله كمال غرائز الحيوان؟ ولكن الانسان يخطأ ولذلك نرى الانسان يتعلم من الحيوان وتعلم ابن آدم من الغراب، فالحيوان غريزته كافية لحياته والانسان تدنس الشهوات غريزته، وبعد ذلك يتعلم من الطبيعة بتعليم الله .

هكذا يقول الله :« ليريه » فهو خلق لنا ليعلمنا ولم يخلقه ليصطاد منه فقط بل خلقه للتعليم ، وكان الله يقول هل ذكرت في هذه السورة أن ابن آدم قال : ياويلتنا على ضياع صيد أو ضياع الشهوات بل دعا بالويل للجهل بالامور الطبيعية؟ وهكذا يعلم الله بالقرآن ويرشد أمة الاسلام .

واذا كان الله يعلمنا بالغراب أفلا يعلمنا بما هو أقرب إلينا من الغراب وهم الامم التي حولنا ، هكذا يقول الله تعالى : لاتجهلوا ما حولكم مما علمته للامم وما خزنته في الطبيعة ، ورمز بذلك بتعليم الغراب .

قال صاحبي : ولكن الناس يقولون إن غرامك بالطبيعة وعلومها جعلك تلح في هذه الآيات وتأتي فيها بما هو بعيد عن الآية ، فهل هذا كله يترتب على قول الله : « ليريه كيف يواري سوأة أخيه » ؟

قلت : فاسمع غيرها ، قال الله تعالى : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج * تبصرة وذكرى لكل عبد منيب * ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد * والنخل باسقات لها طلع نضيد * رزقاً للعباد »[1] فانظر كيف ذكر أن هذه الأشياء تكون تبصرة وذكرى وتكون رزقاً للعباد ، وقد تقدم التبصرة والذكرى على كونها رزقاً للعباد ، وهذا يدل على عناية الحكمة الالهية في القرآن أن يتفكر الناس

---

(١) ق : ٧ ـ ١١ .

في علوم الطبيعة والمخلوقات ؟

فقال : ولكن هذه الفكرة مفهومة من سبعمائة وخمسين آية كما قلت أنت فما الداعي إذاً لاستخراجها من قصة كهذه ؟

فقلت : المجاز أبلغ من الحقيقة ، وهذه القصة متى عرفها المسلمون على الوجه الذي ذكرناه وبالمنهج الذي سلكناه ثاروا في وجه الجهالة وقاموا للعلم قومة رجل واحد لأنّ الامّة ليست على بينة من هذا ، فهذا القصص دلالته أفصح ومنافعه أكمل وتأثيره أشدّ وفعله أوقع في النفوس وأذهب للبؤس وأجذب للفهم وأقرب للعلم وأدعى لرجوع الامّة الى كمالها ونهوضها الى شرفها العظيم [1] .

إنّ الاستاذ الطنطاوي يريد من كل مسلم من أيّ طبقة كان من المؤمنين أن يكون حقيقياً ولا يكون كاذباً في دعواه للاسلام، يريد من المسلم أن يطبق جميع الأحكام التي أمر بها النبي ﷺ وأنزلها الله في القرآن. ويريد من كل طبقة أن تقوم بالتكليف الذي كلّفت به وأن تطبقه على الدقة ولا تتخلّف عن شيء منه وإن كان دقيقاً قليلاً.

يريد من العالم اذا قابل الأمير الظالم أو غير الظالم أن يقول له: احمل الناس على أداء الواجبات واجتناب المحرمات ، ويريد من الأمير أن يمتثل قول العالم ويأمر الناس بإتيان الواجبات ، ويريد من سائر الناس أن يمتثلوا أوامر الله فلا يخالفوها ولا يعصونه سبحانه . ويريد من العلماء والامراء أن يحملوا الناس على تعلّم العلوم اللازمة للبشر بحيث لا يحتاج المسلمون الى الهجرة الى بلاد الكافرين والتعلّم منهم والالتجاء .

إنّ الاستاذ الطنطاوي يريد من المسلمين أن يقوموا بجميع ماذكر ولا يتركوا شيئاً منه .

إنّ كل مسلم عاقل مفكّر يريد من سائر المسلمين ماأراده الله ورسوله منهم بل ماجعله الله محققاً ومحتماً عليهم بل جعله الله كالمعلول الذي تحقق وجوده

---

(١) تفسير الجواهر : ج٣ ص١٤٦ ـ ١٥٠ .

بوجود علّته ، فتأملوا قوله تعالى : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً »[١].

تأملوا هذا التعبير الذي أنزله الله على نبيه ﷺ بصيغة الخبر لا بصيغة الأمر فكأنّ الرجل اذا صدق بالنبي محمد ﷺ واعتنق الدين الاسلامي أصبح في ذلك اليوم الذي أسلم فيه أخاً لكل مسلم وأصبح كل مسلم أخاً له من غير أن يعمل شيئاً آخر فلا تحتاج هذه الاخوة الى شيء آخر غير الاسلام .

فكل من أسلم ولم ير نفسه أخاً للمسلمين ولم ير المسلمين إخواناً له فليعلم أنه غير مسلم وأنّ إسلامه ليس ذلك الاسلام الذي يريده الله تعالى من العباد ، وقد تواترت الرواية عن النبي ﷺ : من أصبح لا يهتم بامور المسلمين فليس منهم[٢] فاذا عدّ نفسه أخاً لكل مسلم كان من الواجب عليه أن يهتمّ بالأمر الذي هو مشترك بين المسلمين في العمل وفي الفائدة ، فعليه أن يشتغل به معهم حتى يحصل على نصيبه من الفائدة .

فالعالم عليه أن يبيّن للأمير ما على الامّة من واجبات من تعلّم العلم ومن العمل ، والأمير عليه أن يحثّ الامّة على ما بلغه به العالم ، والامّة عليها أن تقوم بما عليها .

فاذا أخلّ أحد هؤلاء الأصناف الثلاثة بواجبه اختلّت الامور كلها، ويلزم على الجميع أن يحملوا على من أخلّ ويرجعوه الى محلّ عمله ، فاذا أبى وامتنع أحد المسلمين عن القيام بعمله وأخلّ بأحد شروط الاسلام فمعنى ذلك أنه خرج عن زمرة المسلمين. فالمسلمون كلهم يد واحدة على من سواهم ، وهذا الذي يترك بعض شروط الاسلام أو كلها اذا ساعد العدو على المسلمين صار منهم ويلزم محاربته كما يحارب العدو . بل أنّ مساعدة العدو وحدها توجب الخروج عن الدين

---

(١) آل عمران : ١٠٣ .

(٢) بحار الانوار : ج٧٤ ص٣٣٩ ب٢٠ ح١٢٠ .

وإن صام وصلّى وحجّ وزكّى « ومن يتولهم منكم فإنه منهم »[١] .

إنّ الاستاذ الطنطاوي يقول: يلزم على الانسان العاقل أن يتعلّم مما حوله من الحيوانات الامور الغريزية التي طبع الله عليها الحيوانات ولا ينبغي له أن يغفل عنها .

وأنا أقول: إنّ الله أكرم الانسان بما لم يكرم به أحداً من سائر المخلوقات لا من الحيوانات ولا من الملائكة، ألم تسمع قوله تعالى :« وعلّم آدم الأسماء كلها ثمّ عرضهم على الملائكة فقال أنبؤني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين * قالوا سبحانك لا علم لنا إلّا ما علّمتنا إنّك أنت العليم الحكيم * قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم »[٢].

فعلمنا من هذه الآية ومن أمثالها أنّ علم الانسان هو من الله ومن السماء فاذا تلقاه من مصدره الالهي وعمل به لا يحتاج حينئذٍ الى غيره .

أما هذا الذي يترك العلم السماوي الذي منحه الله وصار مخالفاً لأوامر الله وعاصياً له وغير منتفع بالعلوم التي منحها الله لابن آدم يكون في هذه الحالة محتاجاً لما عليه الحيوانات ، ولهذا نرى ابن آدم لما عصى الله وقتل أخاه بقي في حيرة وضلالة ولم يعرف كيف يصنع ، فبعث الله الغراب ليعلّمه كيفية الدفن .

فالأجدر بالانسان العاقل أن يزداد تحصيله من العلم يوماً بعد يوم حتى يتصاعد في الفضل والشرف ، أما اذا تنازل في العلم والعمل فإنه يحتاج الى غرائز الحيوانات .

إنّ الله ينزل على كل نبي من العلوم ما يحتاج إليه لنفسه ولامّته، والنبي يودعها عند وصيه لينتفع بها هو والامّة ، فكل من أراد الارتشاف من هذه العلوم السماوية يلزمه إطاعة النبي والقرب منه وطلب التزود من العلوم ، أما نفس النبي

---

(١) المائدة : ٥١ .

(٢) البقرة : ٣١ ـ ٣٣ .

فيطلب المزيد من الله كما علّمه الله « وقل ربّ زدني علماً »[١]. أما الذي يعصي النبي ويخالفه في أفعاله ومايأتي به من الله فإنّ هذا المرء يبعد عن الله وعن علوم السماء، وكلما يبعد عن السماء يكون قريباً من التراب حتى يساوي التراب ثم يتسافل حتى يكون أهون من التراب ، وليس هذا مما يرضى به العقل ولايرضى به ذو عقل .

إنّ هذه العلوم التي أنزلها الله على الأنبياء من لدن آدم حتى آخرهم وخاتمهم وهو محمد بن عبدالله ﷺ قد اجتمعت كلها عنده وأمره الله أن يطلب الزيادة فقال: « وقل ربّ زدني علماً » وتكررت منه هذه الدعوة مراراً فتجمّع عنده من العلم مالايحصيه إلا الله .

وحيث إنّ العباد كلهم يحتاجون الى العلم في كل وقت وزمان ولايمكنهم تحصيل ذلك ممن يساويهم في الرتبة والمنزلة بحيث لم يكن له خصائص يميّزه في العلم أو القرب الى الله فإنّ الله يختصّ برحمته من يشاء ويودع العلم عنده وهو يبيّن للناس في القضايا الخاصة مايحتاجون إليه وماتقتضيه المصلحة ، وعلى هذا فإنّ النبي ﷺ لما علم بقرب ارتحاله من الدنيا أودع علمه عند علي عليه السلام ، وقد دلّت الأخبار المتواترة على ذلك :

فمنها قول علي عليه السلام : علّمني رسول الله ﷺ ألف باب من العلم يفتح لي من كل باب ألف باب[٢].

ومنها ما دلّ على أنّ علياً عليه السلام عنده تفسير القرآن أجمع فيه المتشابه والمبين ، وقد قال هو على المنبر : سلوني قبل أن تفقدوني[٣]. ثم إنه أودع هذا العلم من بعده عند الأئمة من ولده فانظروا الى مابيّنوه من العلوم .

---

(١) طه : ١١٤ .

(٢) تفسير نور الثقلين : ج٤ ص٤٤٤ ح١٣ .

(٣) نهج البلاغة : ص٢٨٠ الخطبة١٨٩ ضبط صبحي الصالح .

فقد اتضح أنّ الأنبياء وأوصياءهم عندهم علم كل شيء ولايحتاجون الى شيء من العلم ، وقد أمرهم الله أن يبيّنوا للناس ويعلّموهم مايحتاجون إليه ، فكل من صدق النبي وعمل بأمره يمكنه أن يبني امور دنياه وآخرته على العلم الموجود عند النبي ﷺ ، أما الذي لايصدق النبي ولايقدرمنزلة العلم فهو الجاهل الذي يسقط نفسه الى أسفل الدرجات فيساوي التراب ، وليس لهذا الشخص حقّ على الله أن يبعث له مايرشده لامور الدنيا كالغراب وأمثاله من الحيوانات إلاأن يكون أمراً يضرّ غير هذا العاصي ، فإنّ بقاء هابيل المقتول جثة هامدة على وجه الأرض تضرّ غير القاتل ، ولذا أرسل الله له رسولاً من البهائم إشارة الى أنك أيها الفاعل للمعصية أقلّ منزلة من البهيمة لأنّ الرسول ينبغي أن يكون أفضل من المرسل إليه ، فاذا كان الرسول غراباً ينبغي أن يكون المرسل إليه أقلّ منزلة منه، وهي منزلة من يعصي الله وأنبياءه وأوصياء أنبيائه.

لما انتهى بنا الكلام الى هذه المرحلة أقول ـ واوجه كلامي لمن يملك من امور المسلمين شيئاً ـ: إنّ هذه الحالة التي نحن فيها في هذا العصر من تشتت أمر المسلمين واختلاف كلمتهم وتباين آرائهم وإحاطة أعدائهم بهم من كل جانب ومكان كل ذلك لأنّ أشرارهم يرتكبون المعاصي ويخالفون أوامر الله وأخيارهم لايأمرونهم بالمعروف ولاينهونهم عن المنكر ، وأنّ العبد كلما يكثر من المعاصي يبتعد عن الخالق حتى يصل الى مرتبة بحيث يكله الله الى نفسه ، فاذا وكله الى نفسه يكون قرين إبليس فيرى المعروف منكراً والمنكر معروفاً فيرى كل شيء قبيح حسناً في نظره، وفي هذا يكون المؤمن القوي هو المكلّف بردع مثل هذا العبد عن المعاصي، يردعه بالقوة والقهر ، وأنّ في القرآن آيات كثيرة تأمر العباد بأشياء فالواجب عليه إطاعة الله وامتثال أوامره ، وفيه أيضاً آيات تنهي العباد عن امور يلزم على العبد المطيع ترك الامور المنهيّ عنها .

(فمن الآيات الآمرة) هي التي تأمر العباد بالايمان بالله .

فمنها قوله تعالى : « قولوا آمنّا بالله وماانزل إلينا وما انزل الى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وماأوتي موسى وعيسى وما اوتي النبيّون من ربّهم لانفرّق بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون »(١).

ومنها قوله سبحانه : « فإن آمنوا بمثل ماآمنتم به فقد اهتدوا وإن تولّوا فإنّما هم في شقاقٍ فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم »(٢).

ومنها قوله تبارك وتعالى : « ليس البرّ أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكنّ البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين»(٣).

ومنها قوله جلّ اسمه : « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى »(٤).

ومنها قوله عزّوجلّ : « آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرّق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير »(٥).

ومنها قوله جلّ وعلا:« قل آمنّا بالله وماانزل علينا وماانزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وماأوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لانفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون »(٦).

ومنهاقوله سبحانه وتعالى:« كنتم خيرامّة اخرجت الناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »(٧).

---

(١) البقرة : ١٣٦ .
(٢) البقرة : ١٣٧ .
(٣) البقرة : ١٧٧ .
(٤) البقرة : ٢٥٦ .
(٥) البقرة : ٢٨٥ .
(٦) آل عمران : ٨٤ .
(٧) آل عمران : ١١٠ .

ومنها قوله عزّ من قائل: « وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله »(١).

ومنها قوله تعالى: « فإن تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً »(٢).

ومنها قوله سبحانه: « يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي انزل من قبل »(٣).

ومنها قوله تبارك وتعالى: « فآمنوا بالله ورسله »(٤).

ومنها قوله جلّ اسمه: « وإذ أوحينا الى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا »(٥).

ومنها قوله عزّ وجلّ: « فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي انزل معه اولئك هم المفلحون »(٦).

ومنها قوله جلّ وعلا: « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله »(٧).

ومنها قوله سبحانه وتعالى: « أجعلتم سقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر »(٨).

ومنها قوله عزّ من قائل: « لا يستئذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر

---

(١) النساء: ٣٩.
(٢) النساء: ٥٩.
(٣) النساء: ١٣٦.
(٤) النساء: ١٧١.
(٥) المائدة: ١١١.
(٦) الاعراف: ١٥٦.
(٧) التوبة: ١٨.
(٨) التوبة: ١٩.

أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم »[١].

ومنها قوله تعالى : « والّذين هم بآيات الله يؤمنون »[٢].

ومنها قوله سبحانه: «لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه »[٣].

ومنها قوله تبارك وتعالى : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا »[٤].

ومنها قوله جلّ اسمه: « تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله»[٥].

ومنها قوله عزّ وجلّ : « فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا »[٦].

ومنها قوله جلّ وعلا : « ومن يؤمن بالله يهد قلبه »[٧].

ومنها قوله سبحانه وتعالى : « قل هو الرحمن آمنّا به وعليه توكّلنا فستعلمون من هو في ضلال مبين »[٨].

(ومنها) ماتأمرنا بالايمان بالملائكة .

(ومنها) ماتأمرنا بالايمان بالكتب السماوية المنزلة على الأنبياء .

(ومنها) ماتأمرنا بالايمان بالأنبياء والرسل .

(ومنها) ماتأمرنا بالايمان باليوم الآخر ويوم البعث في الآخرة وكفر من جحده .

فمنها قوله تعالى : « والّذين يؤمنون بما انزل إليك وماانزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون »[٩].

---

(١) التوبة : ٤٤ .
(٢) المؤمنون : ٥٨ .
(٣) الفتح : ٩ .
(٤) الحديد : ٧ .
(٥) الصف : ١١ .
(٦) التغابن : ٨ .
(٧) التغابن : ١١ .
(٨) الملك : ٢٩ .
(٩) البقرة : ٤ .

ومنها قوله سبحانه: « إنّ الّذين آمنوا والّذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربّهم ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون »(١).

ومنها قوله تبارك وتعالى: « واتّقوا يوماً لاتجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولاتنفعها شفاعة ولاهم ينصرون »(٢).

ومنها قوله جلّ اسمه: «ليس البرّ أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكنّ البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيّين »(٣).

ومنها قوله عزّ وجلّ حاكياً عقيدة المؤمن: « ربّنا إنّك جامع الناس ليوم لاريب فيه إنّ الله لايخلف الميعاد »(٤).

ومنها قوله جلّ وعلا: « إنّ الّذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً واولئك هم وقود النار »(٥).

ومنها قوله سبحانه وتعالى حاكياً قول الكافرين: « ذلك بأنّهم قالوا لن تمسّنا النار إلّا أيّاماً معدودات وغرّهم في دينهم ماكانوا يفترون »(٦).

ثم قال عزّ من قائل بعد ذلك: « فكيف اذا جمعناهم ليوم لاريب فيه ووفّيت كلّ نفس ما كسبت وهم لايظلمون »(٧).

تنبيه

إنّ هذه القصة التي ذكرها الله إنما هي من فروع نقض الميثاق الذي سبب تلك الامور الموجبة للهلاك والدمار، فإنّ الله أمر نبيه ﷺ أن يقصّ قصة ابني

---

(١) البقرة: ٦٢.
(٢) البقرة: ١٢٣.
(٣) البقرة: ١٧٧.
(٤) آل عمران: ٩.
(٥) آل عمران: ١٠.
(٦) و(٧) آل عمران: ٢٤ و٢٥.

آدم على اليهود ليعرفوا أنّ نقض الميثاق يوقع الانسان في بلاء أعظم وأشدّ مما ذكر فإنه قد يفعل شيئاً يكون مفسداً لدنياه ودنيا غيره ويوجب له أشدّ العذاب في الآخرة ، وذلك كإقدامه على قتل نفس مؤمنة بغير ذنب فإنّ إثمه عظيم وعذابه شديد كما ذكره الله تعالى بقوله :

من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الارض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم ان كثيراً منهم بعد ذلك في الارض لمسرفون (٣٢) .

إنّ قتل النفس الواحدة التي هي جزء عامل من الناس تعمل لمصلحة الجميع فاذا قتل فقد أخلّ بالجميع ، حيث نقص المقدار الذي كان يعمله فيكون هذا النقص مؤثراً في الجميع .

وحيث إنّ الاقدام على هذا العمل هو من جملة نقض الميثاق ينبغي أن يعرفه كل واحد ، ويلزم على كل مفكّر عاقل أن يتحرج ويتحرز عن ارتكاب مثل هذه الجريمة العظيمة التي تذهب بدنياه وآخرته .

إنّ هذه الامور الفتاكة بالانسان الضعيف كلها تلحقه من نقض الميثاق الذي واثق الله به، أما اذا واثق أحد المخلوقين فنقضه وخان أحد أبناء جنسه فذاك مما يزيد في عذابه اذا لم يكسب رضا الانسان الذي خانه في دار الدنيا ، فالعاقل الذي يراجع عقله ينبغي له أن لا يجوز على نفسه بنقض ميثاق الله أو ميثاق العبيد.

ماقاله الشيخ الطوسي :

قال في تفسير هذه الآية المباركة: ومعنى «من أجل» من جراء ذلك وجريرته.

وقال الزجاج : معناه من جناية ذلك ، يقال : أجلت الشيء أجلاً اذا أجنيته قال الخواني :

وأهل خباء صالح ذات بينهم قد احتربوا في عاجل أنا آجله

أي جانيه . وقيل : جاره عليهم . قال عدي بن زيد :

أجل إن الله قد فضلكم فوق من أحكأ صلباً بازارا

وأصله الجر . ومنه: الأجل الوقت الذي يجر إليه العقد الأول . ومنه: الآجل نقيض العاجل . ومنه: أجل بمعنى نعم لأنه انقياد الى ما يجر إليه. ومنه: الآجال القطيع من البقر الوحشي لأن بعضها ينجر الى بعض .

المعنى : وذلك إشارة الى قتل أحد ابني آدم أخاه ظلماً . حكمنا الى بني إسرائيل أنه من قتل منهم نفساً بغير نفس أو فساد كان منها في الأرض فاستحقت بذلك قتلها وفسادها في الأرض إنما يكون بالحرب لله ولرسوله وإخافة السبيل ـ على ما نبينه فيما بعد ـ وهو قول الضحاك وجميع المفسرين.

واختلفوا في تأويل قوله : « **من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الارض فكانما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً** » على ستة أقوال :

أحدها : قال الزجاج : معناه أنه بمنزلة من قتل الناس جميعاً في أنهم خصومه من قبل ذلك الانسان .

والثاني : قال أبو علي : إن عليه مثل مأثم كل قاتل من الناس لأنه سن القتل وسهله لغيره ، فكان بمنزلة المشارك فيه . ومثله قوله عليه السلام : من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة كان له وزرها ووزر من عمل بها .

الثالث : قال الحسن وقتادة ومجاهد : إن معناه تعظيم الوزر والمأثم ، وتقديره : يابن آدم إنك لو قتلت الناس جميعاً كان لك من عملك ما تفوز به وتنجو

من النار؟ كذبتك نفسك والشيطان، فكذلك قتلك ظلماً الانسان أي كنت تستحق الخلود في النار كما كنت تستحقه بقتل الناس جميعاً.

الرابع: قال ابن عباس: معناه من شدّ على عضد نبي أو إمام عدل فكأنما أحيا الناس جميعاً، ومن قتل نبياً أو إماماً عدلاً فكأنما قتل الناس جميعاً.

الخامس: قال ابن مسعود وغيره من الصحابة: معناه «من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنّما قتل الناس جميعاً» عند المقتول «ومن أحياها فكأنّما أحيا الناس جميعاً» عند المستنقذ.

السادس: قال ابن زيد: معناه أنه عليه من القود والقتل مثل مايجب عليه لو قتل الناس جميعاً. وقوله: «ومن أحياها فكأنّما أحيا الناس جميعاً»:

قال مجاهد: معناه من نجاها من الهلاك مثل الغرق والحرق.

وقال الحسن وابن زيد: معناه من عفا عن دمها وقد وجب القود عليها.

وقال أبو علي: معناه من زجر عن قتلها بمافيه حياتها على وجه يقتدى به فيها بأن يعظم تحريم قتلها كما حرمه الله فلم يقدم عليه فقد أحياالناس بسلامتهم منه وذلك إحياؤه إياها. وهواختيار الطبري والله تعالى هوالمحيي للخلق لايقدر على ذلك غيره تعالى. وإنما قال: «أحياها» على وجه المجاز بمعنى نجاها من من الهلاك كما حكي عن نمرود إبراهيم «أنا احيي واميت»[1] فاستبقى واحداً وقتل الآخر[2] انتهى مافي التبيان.

إنّ الله قد أنزل في هذا الباب وهو الايمان بالقرآن والأمر بالعمل به وامتثال أحكامه أنزل آيات كثيرة أكثر مما أنزل في غيره من المواضيع لأنّ القرآن هو الكتاب الوحيد الذي فيه الأحكام وفيه تفصيل الواجبات والمحرمات وفيه أخبار ماكان ومايكون وفيه أخبار الامم السالفة.

---

(١) البقرة: ٢٥٨.

(٢) التبيان: ج٣ ص٥٠٠.

أما الآيات التي توجب علينا التذكير بالقرآن :

فمنها قوله تعالى : « **إنّ** الّذين يكتمون ماأنزلنا من البيّنات والهدى من بعد مابيّناه للناس في الكتاب اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون »(١).

ثم يقول سبحانه : « **إلّا** الّذين تابوا وأصلحوا وبيّنوا فاولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم »(٢).

ومنها قوله تبارك وتعالى : « **إنّ** الّذيـن يكتمون ماأنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً اولئك مايأكلون في بطونهم **إلّا** النار ولايكلمهم الله يوم القيامة ولايزكّيهم ولهم عذاب أليم »(٣).

ثم يقول جلّ اسمه : « اولئك اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار »(٤).

ثم يقول عزّ وجلّ : « ذلـك بأنّ الله نزّل الكتاب بـالحقّ **وإنّ** الّذيـن اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد »(٥).

وغير هذه الآيات ٤٧ آيةً كلها توجب على المسلم التذكير بالقرآن وتذمّ تاركه وتتوعده بالعذاب .

وأما الآيات التي تحكم بكفر من استهزأ بالقرآن وجحده :

فمنها جلّ وعلا : « واذا قيل لهم اتّبعوا ماأنزل الله قالوا بل نتّبع ماألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لايعقلون شيئاً ولايهتدون »(٦).

ومنها قوله سبحانه وتعالى: «فمن بدّله بعدماسمعه فإنّما إثمه على الّذين

---

(١) البقرة : ١٥٩ .

(٢) البقرة : ١٦٠ .

(٣) البقرة : ١٧٤ .

(٤) البقرة : ١٧٥ .

(٥) البقرة : ١٧٦ .

(٦) البقرة : ١٧٠ .

يبدّلونه إنّ الله سميع عليم».

ومنها قوله عزّ من قائل: «ولا تتّخذوا آيات الله هزواً واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتّقوا الله واعلموا أنّ الله بكل شيء عليم»[١].

ومنها قوله تعالى: «ومن يكفر بآيات الله فإنّ الله سريع الحساب»[٢].

ومنها قوله سبحانه: «وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي انزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلّهم يرجعون»[٣].

ومنها قوله تبارك وتعالى: «ألم تر الى الّذين اوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للّذين كفروا هؤلاء أهدى من الّذين آمنوا سبيلاً»[٤].

ومنها قوله جلّ اسمه: «إذا سمعتم آيات الله يُكفر بها ويُستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم اذاً مثلهم إنّ الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً»[٥].

ومنها قوله عزّ وجلّ: «فقد كذبوا بالحقّ لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ماكانوا به يستهزئون»[٦].

ومنها قوله جلّ وعلا: «ولو أنزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الّذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين»[٧].

ومنها قوله سبحانه وتعالى: «وإن يروا كل آية لايؤمنوا بها حتى اذا

---

(١) البقرة: ٢٣١.
(٢) آل عمران: ١٩.
(٣) آل عمران: ٧٢.
(٤) النساء: ٥١.
(٥) النساء: ١٤٠.
(٦) الانعام: ٥.
(٧) الانعام: ٧.

جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين»(١).

ومنها قوله عزّ من قائل: «لكنّ الظالمين بآيات الله يجحدون»(٢).

ومنها قوله تعالى: «وكذب به قومك وهو الحقّ قل لست عليكم بوكيل»(٣).

ومنها قوله سبحانه: «واذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره»(٤).

ومنها قوله تبارك وتعالى: «ومن خفّت موازينه فاولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون»(٥).

ومنها قوله جلّ اسمه: «واذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين»(٦).

ومنها قوله عزّ وجلّ: «ولئن سألتهم ليقولنّ إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون»(٧).

ومنها قوله جلّ وعلا: «واذا تتلى عليهم آياتنا بيّنات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدّله»(٨).

ومنها قوله سبحانه وتعالى: «فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون»(٩).

ومنها قوله عزّ من قائل: «تلك آيات الكتاب والذي انزل اليك من ربك الحق

---

(١) الانعام: ٢٥.

(٢) الانعام: ٣٣.

(٣) الانعام: ٦٦.

(٤) الانعام: ٦٨.

(٥) الاعراف: ٩.

(٦) الانفال: ٣١.

(٧) التوبة: ٦٥.

(٨) يونس: ١٥.

(٩) يونس: ١٧.

ولكنّ أكثر الناس لايؤمنون» [١] .

ومنها قوله تعالى :«واذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين» [٢] .

ومنها قوله سبحانه : « إنّ الذين لايؤمنون بآيات الله لايهديهم الله ولهم عذاب أليم » [٣] .

ومنها قوله تبارك وتعالى:«إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً» [٤] .

ومنها قوله جلّ اسمه :«وقالوا أإذا كنا عظاماً ورفاتاً أإنا لمبعوثون خلقاً جديداً » [٥] .

ومنها قوله عزّ وجلّ : « ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحقّ واتخذوا آياتي وماانذروا هزواً » [٦] .

ومنها قوله جلّ وعلا : « اولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلانقيم لهم يوم القيامة وزناً * ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزواً » [٧] .

ومنها قوله عزّ من قائل:« واذا تتلى عليهم آياتنا بيّنات قال الذين كفروا للذين آمنوا أيّ الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً » [٨] .

ومنها قوله تعالى :« أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لاوتينّ مالاًوولداً » [٩] .

ومنها قوله سبحانه : « من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً *

---

(١) الرعد : ١ .
(٢) النحل : ٢٤ .
(٣) النحل : ١٠٤ .
(٤) الاسراء : ٤٧ .
(٥) الاسراء : ٤٩ .
(٦) الكهف : ٥٦ .
(٧) الكهف : ١٠٥ و١٠٦ .
(٨) مريم : ٧٣ .
(٩) مريم : ٧٧ .

خالدين فيها وساء لهم يوم القيامة حملاً »[1].

وغير هذه الآيات ٣٥ آية اخرى .

وأما الآيات التي تبشّر المؤمنين وتصفهم :

فمنها قوله تبارك وتعالى : « وبشّر الّذين آمنوا وعملوا الصالحات **أنّ** لهم جنّات تجري من تحتها الأنهار »[2].

وفي القرآن من الآيات التي تبشّر المؤمنين وتصفهم ٢٧٠ آية موزعة على سور القرآن .

وأما الآيات التي ترغّب في الاسلام واتباعه حتى الموت فهي كثيرة :

فمنها قوله جلّ اسمه : « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربّه ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون »[3].

فمن أسلم وجهه لله فليس عليه خوف في الآخرة وإن اخيف في الدنيا ومنعت حريته وحقوقه .

وفي القرآن من هذا القبيل ٢٣ آية .

وأما الآيات التي تحثّ على الاعتصام بالله والتوكّل عليه فإنّ في القرآن منها ٣٢ آية .

فمنها في سورة الفاتحة يقرأها المصلّي في كل يوم وليلة عشر مرات على الأقل وهي قوله عزّ وجلّ : « إيّاك نعبد وإيّاك نستعين * إهدنا الصراط المستقيم * صراط الّذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولاالضالّين »[4].

أما المسلم الذي لايصلّي فقد سمعها من المصلّين مراراً عديدة .

---

(١) طه : ١٠٠ و١٠١ .

(٢) البقرة : ٢٥ .

(٣) البقرة : ١١٢ .

(٤) الفاتحة : ٥ ــ ٧ .

وأما الآيات التي تمدح الاتحاد وتذمّ الفرقة:

فمنها قوله جلّ وعلا : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرةٍ من النار فأنقذكم منها كذلك يبيّن الله لكم آياته لعلّكم تهتدون »[1].

وفي القرآن آيات اخر غير هذه الآية المباركة .

* * *

هذا ماوصل الينا من قلمه الشريف

وقد ذكر بعض أصحابه الكرام كما جاء في المقدمة

بأنّ هذا الكتاب يحتوي على سبعة أجزاء ، طبع منها ثلاثة

أجزاء وسرق العفالقة اللئام الأجزاء الأربعة الاخرى في هجومهم الهمجي على منزل

السيد الشهيد رضوان الله تعالى عليه ، ولايخفى أنّ مؤسستنا قد

قامت بطبع الأجزاء الثلاثة المذكورة في جزءين ،

والحمد لله رب العالمين أولاً وآخراً

---

(١) آل عمران: ١٠٣ .

فهرس الاحاديث

ـ أ ـ

– ب –

- ت -

- ث -

- ش -

- ص -

- ط -

- ع -

- ى -

فهرس المحتويات

بقية مافى سورة النساء

سورة المائدة

تصحيح واعتذار

رغم الجهود التى بذلناها فى التصحيح لكى يصدر الكتاب خاليا من الاخطاء المطبعية فانا لم نوفق لذلك ، لذا نرجو من القارىء الكريم أن يتفضل بتصحيح الاخطاء المذكورة أدناه قبل البدء بالمطالعة راجين منه السماح ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

ص	س	الخطأ	الصواب
١٣	٦	سعيد ين	سعيد بن
١٥	١٩	يفحءوا	يفحصوا
٥٤	١٨	استقدنا	استفدنا
٥٦	١٦	فلدوه	قلدوه
٧٠	١	يبيوته	يبيتونه
١١٩	١٢	فلا تأخدوا	فلا تأخذوا
١٢٣	١٩	لتبيننن	لتبينن
١٢٨	١٥	سييل	سبيل
١٩٧	رأس الصفحة	آية ٢٣٤	آية ١٣٤
٢١١	١٠	والدنيا	والدينا
٢٢٦	٧	وضفهم	وصفهم
٢٣١	١١	تغدلوا	تعدلوا
٢٩٠	١٩	أما لله	أما مالله
٣٠٢	آخر سطر	اصطحوا	اصطلحوا
٣٠٤	١٠	البيعة	البيعة
٣٢٠	١٠	عاديث	عاديت
٣٥٥	١٢	لكم لكم	الثانية زائدة
٣٦٠	١٥	الغرالى	الغزالى
٣٨٣	٩	عليه السلام	عليهم السلام
٤١٨	١٥	جنات	جنات تجرى
٤١٩	٢	نمكن	تمكن
٤٢٧	٤	وأخذا	وأخذوا
٤٣٥	٢٣	لمنذر	المنذر
٤٧٠	١	ينبئم	ينبئهم